تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف

ميرسيا إلياد

ترجمة

عبد الهادي عباس

الجزء الأول



تاريخ
المعتقدات والأفكار الدينية

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES

ET DES IDEÉS RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

الجزء الأول

تأليف

ميرسيا الياد

ترجمة

عبد الهادي عبّاس

المحامي

منذ البداية ـ تصرفات سحر دينية للأهالي العصور الحجرية ـ أطول ثورة ـ اكتشاف الزراعة ـ العصر الحجري القديم والجديد ـ ديانات ما بين النهرين ـ أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة ـ ميغاليت ـ معابد مراكز احتفالية ـ ديانات الحثيين والكنعانيين ـ عندما كان إسرائيل طفلاً ـ ديانات الهندواوربيين ـ الآلهة الهندية قبل بوذا ـ زوس وديانة الإغريق ـ الأولمبيون والأبطال ـ أسرار إليوزيس ـ زرادشت والديانة الإيرانية ـ ديانة إسرائيل في عصر الملوك والأنبياء ـ ديونيزوس والسعادة المستردة .



طبعة أولى
١٩٨٦ - ١٩٨٧

طبع في مطابع الشام
١٩٨٦/١٠/٣٠٠٠



دمشق - شارع بور سعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢

مقدمة المترجم

كنت أتمنى أن يتصدى لترجمة هذا الكتاب من هو أكثر اختصاصاً مني في هذا الموضوع الهام ومن هو أكثر قدرة على نقله الى اللغة العربية بجلاء وبيان أوضح ، ومن تمرس في ميدان الترجمة ولا سيما في مثل هذه البحوث التي تحفل بمصطلحات خاصة ومتميزة . ومع ذلك فانني عندما تسنت لي قراءة هذا الكتاب الصادر حديثا (١٩٨٣) شعرت بفراغ المكتبة العربية من مثل هذه الدراسة الشمولية في تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية كما تخيلت مدى الفائدة من نقل هذا الكتاب ليطلع القارىء العربي الذي لم يقيض له أن يقرأه في اللغة التي كتب بها على آفاق من المعرفة حجبتها عنه أنواع قديمة جدا من الاضطهاد وكبت حرية الفكر التي ضربت جذورها العميقة في ثقافة وحياة مجتمعنا . وبحيث غدا الفكر العربي منذ زمن طويل فكرا لا تاريخيا يفتقد الحد الأدنى من الموضوعية ويجمد على أفكار سلفية منسلخة عن عصرها تقدس الماضي وتستخدمه حلولا جاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل ولا سيما في نطاق البحث المتعلق بالمقدس والمحرم كما رسمت خيوطهما خاصة في عصور الانحطاط وبالقطيعة مع كل موضوعية أو منهجية علمية . .

منذ أكثر من ألف سنة أدرك شيخ المعرة أبو العلاء بثاقب بصيرته ما في بعض الأمور والممارسات الدينية لدى الشعوب من أوهام وأباطيل فعبر بكلمات موجزة ضمن أبيات قليلة من الشعر وبنظرة شمولية عن ارتيابه في بعض الافكار والطقوس ، ولكن هذا بقي في نطاقه المؤثم حسب منطق الفكر السائد وبقي القارىء العربي مؤطراً بتراثه المصبوب في قوالب وتفسيرات خاصة ، أغلق باب الاجتهاد فيها وفقد الفكر ضمنها كل استقلاله وحريته ، وهكذا منذ المهد الى اللحد يتلقى كلمات ومفاهيم ، وحكايات وأساطير وخيالات وطرق تعامل مع الاشياء وكأنها حقائق أزلية لا مجال فيها لاستعمال العقل أو التفكير ، لأن مهمة المنطق والعقل حصرت في التذكير وليس في الاستكشاف أو محاولة الفهم . .

إن ثقل الماضي على الحاضر أمر لا مراء فيه ، كما أنه لا مراء في أن الحاضر ما هو الا تراكم للماضي ، ولكن اللجوء الى المثل الأعلى القديم وفي كل مجالات الحياة ان هو الا محاولة للتعويض الخيالي عن بؤس الحاضر وايثار للبعد عن منطق الحياة المتجددة وعن رسالة الفكر التي تعلو عن كونها مجرد اشادة بالماضي السحيق كنموذج متفرد وعن المديح لكل موروث بأشخاصه ورموزه مهما كانت تلك الرموز بعيدة عن الواقع ومنطق العصر ومهما كانت الاستحالة قائمة في توافق أفكار أولئك الأشخاص مع منهج العصر ومقوماته .

لقد منع الدين الاسلامي التشخيص ، وربما كان ذلك اعلاء منه للفكر وللعقل الذي به وحده يمكن الاندماج الواعي الأصيل في حضارة العصر الذي نعيشه . ومنذ وقف باب الاجتهادوحصره بآراء قامت بدور باهر في عصرها حصلت هوة كبرى حالت وتحول دون مواكبة العصر . ودون دراسة التراث ومنعكساته على الحياة بما يتلاءم مع معطيات الحضارة ومكتشفاتها . ولهذا لا بد في سبيل التطور المنشود من إفساح المجال للفكر ليحقق رسالته ويعالج الأمور بنظرة شمولية تحاول الافادة من معطيات العلم في العصر الحديث وتحاول أن تقيم ما يمكن إقامة من الروابط بين عالم الفكر وعالم الواقع . والخروج من عالم الاسطورة الى عالم العقل ومن ميدان الغموض والتبرير الى نطاق التمييز والوضوح .

لقد قيض للغرب في حضارته الحديثة وبعد طول معاناة أن يخضع كل شيء للبحث والاستقصاء والنقد . وأصبحنا نعيش عالة على هذه الحضارة التي تتحكم في كل مجال حياتنا ومع ذلك لم نستطع أن نأخذ منها خير ما فيها ألا وهو إخضاع كل شيء للبحث والاستقصاء والنقد والاصلاح . وعلى سبيل المثال ما زلنا نخاف البحث في أمور الدين الذي نعتبره موضوعاً مثاليا ، معطى من عند الله يحوطه التقديس ولا يمكن دراسة معتقداته وتاريخه كعلم انساني حتى ولو تعلق الأمر بأفكار وآراء أشخاص تاريخيين وفي فترات متقطعة ومتباعدة وكأن مجرد التعرض لآراء هؤلاء ولو في شؤون الحياة من مأكل وملبس وزواج واقتصاد الخ .. هو تقويض لبنيان المجتمع وخيانة عظمى توجب الاعدام ..

لقد رفض الفكر الغربي منذ بداية العصر الحديث كل منهج قبلي وكل معطى سابق واكتشف زيف كثير من المسلمات السابقة .. وبذلك جعل طريق معرفته الوحيد مبنيا على التجربة ، مستبعداً كل معرفة ما ورائية ومؤمنا بالمعرفة الانسانية وحدها ، ولم يثن هذا الفكر عن مسيرته محاولات الكثيرين للدفاع عن المعرفة الالهية عن طريق الحدس او العقل البديهي . وبذلك جعل الطبيعة مصدر معرفته والميدان الخصب لتقرير ما يعتبره الحقيقة وبهذا وحده بنى فكره الحضاري ونشأ وتطور الى ما نشاهده الآن ، وبهذا أيضا كشف سطحية وزيف الكثير من المعطيات التي كانت تعتبر مقدسة في حياة الشعوب ، وكل ذلك ضمن مناهج علمية تستهدي بالحقيقة وحدها دون تهيب أو خوف من آراء وتيارات تستسلم بدَعةٍ الى خرافات وأساطير وقيم قديمة عفى عليها الزمن ، وبدون أن تترك ميدانا من ميادين المعرفة الانسانية المترابطة بمعزل عن البحث والاستقصاء .

ومن هنا تأتي ـ في رأينا ـ أهمية مثل هذا الكتاب الذي تصدينا لترجمته رغم ما نشعر به من قصور في هذا الميدان ولأنه الكتاب الأول الذي نمارس فيه الترجمة . وإذ نأمل لهذا المؤلف أن يصل الى أكبر عدد من القراء العرب نرجو أن يغفروا ما قد يصادفونه من هنات ، ويكفينا أنا من واقع ايماننا برسالة الفكر

وخدمة المجتمع كان اقدامنا على هذه الترجمة التي بذلنا فيها الجهد لتأتي بقدر الامكان واضحة مفهومة معبرة عن منهج المؤلف وقصده .

المترجم
المحامي : عبد الهادي عباس

مقدمة المؤلف

إن كل مظهر للمقدس هو بالنسبة لمؤرخ الأديان ذو محصلة ، فكل طقس ، وكل اسطورة وكل معتقد أو صورة الهية يعكس تجربة المقدس ، ومن ثم فهو يدخل مفاهيم التكون ، والمعنى والحقيقة . وكما أشرت في مناسبة أخرى ، «من الصعب أن نتصور كيف يمكن للنفس البشرية أن تتحرك دون الاقتناع بوجود شيء حقيقي لا يمكن انقاصه في هذا العالم ، ومن الصعب التصور كيف يمكن للشعور أن يبدو بدون أن يضفي دلالة لاندفاعات ولتجارب الانسان . ان الشعور بعالم حقيقي وذي معنى مرتبط صميمياً باكتشاف المقدس . وبتجربة المقدس ، أدركت النفس البشرية الفارق بين ما يتكشف كما لو أنه حقيقي ، قوي وغني وذي معنى ، وبين ما هو مجرد عن هذه الخصائص ، أي المد العمائي والخطير للأشياء ، وظهوراتها واختفاءاتها الطارئة الفارغة من المعنى» [كتاب الحنين الى الأصول ، ١٩٦٩ ص ٧] . وباختصار ، فإن «المقدس» هو عنصر في بنية الشعور ، وليس مرحلة في تاريخ هذا الشعور . وعلى المستويات الأكثر قدماً من الثقافة فان العيش بصفة كائن بشري هو في ذاته عمل ديني ، لأن التغذية ، والحياة الجنسية والعمل لها جميعها قيمة مرتبطة بالأسرار . وبعبارة أخرى ، ان تكون ـ أو بالأحرى، أن تصبح ـ انسانا يعني أن تكون «متديناً» .

لقد ناقشت جدلية المقدس وتشكله في مؤلفات سابقة ، منذ رسالة في تاريخ الأديان (١٩٤٩) حتى الكتاب الصغير المكرس لديانات الاستراليين (١٩٧٢) . والكتاب الحاضر قد بني وأقيم على منظور مختلف . فمن جهة ، حللت فيه مظاهر المقدس في نظام تسلسل تاريخي (ولكن يقتضي عدم الخلط بين «عصر» المفهوم الديني مع تاريخ أول وثيقة تثبته) ، ومن جهة أخرى ـ وفي المعيار الذي يسمح به التوثيق ـ أكدت بإصرار على الازمات في عمقها ، وبخاصة على الفترات الخلاقة لمختلف التقاليد وباختصار لقدحاولت أن أوضح الاسهامات الرئيسية في تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية .

كل مظهر للمقدس هام بالنسبة لمؤرخ الأديان ، ولكن ليس أقل وضوحا من ذلك ، أن بنية الالـه آنو Anu ، على سبيل المثال ، أو نسب الآلهة والنشكونية المنقولة في الاينوماإيلتش ، أو ملحمة جلجامش ، تكشف الابداعية والأصولية الدينية لشعوب ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) ولحسن الحظ أكثر من الطقوس الرسولية ضد لاماشتو Lama shtu أو ميثولوجيا الاله نوسكو Nusku . وتتجلى أحيانا أهمية الابداع الديني بتقييماته المثالية . فقد وصلتنا معلومات قليلة جدا حول أسرار ايلوزيس وحول الاورفية الاكثر قدما ، مع ذلك فان التخيل الذي فرضته على النخبة الاوروبية منذ أكثر من عشرين قرناً يشكل واقعاً دينياً ذي دلالة عليا لم نتحقق من نتائجها بعد . وبالتأكيد ، ان التلقين المساري الايلوزي والطقوس الاورفية السرية ، الممجدة من قبل بعض المؤلفين المتأخرين ، تعكس جميعها الغنوص (العرفان) المؤسطر والتوفيقية الاغريقية ـ الشرقية . غير ان هذا المفهوم للاسرار وللاروفية هو الذي أثر فعلا على هرمسية القرون الوسطى ، والنهضة الايطالية والتقاليد «المتسترة» للقرن الثامن عشر وللرومانسية ، وان الاسرار وأورفية الكتاب ، وصوفيات اللاهوتيين الاسكندرانيين هي التي ألهمت دائماً الشعر الأوروبي الحديث ، لريلكه و ت . س ـ اليوت وبيير ايمانويل .

ويمكن مناقشة صحة المعيار المختار لتأطير المساهمات الكبرى في تاريخ الأفكار الدينية . ومع ذلك ، فان تطور العديد من الديانات يؤكده ، لأنه بفضل

أزمات في الأساس وابداعات ناجمة عنها توصلت التقاليد الدينية لأن تجدد نفسها . ويكفي تذكر حالة الهند ، حيث أن التوتر واليأس المتفجران بانخفاض القيمة الدينية للاضحية البراهمانية آثارا سلسلة من الابداعات المتألقة (الاوباينشاد ، صياغة تقنيات اليوغا ، رسالة غوتا ما بوذا ، الورع الصوفي . . الخ) ومشكلا كل واحد منها بالفعل حلًا متميزاً وجريئاً للأزمة ذاتها (انظر الفصل ٩ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩) .

لقد تأملت خلال سنوات في وضع مؤلف قصير ومفهوم ، يمكن قراءته في عدة أيام . غير أن تواصل القراءة يكشف بامتياز الوحدة الاساسية للمظاهر الدينية وفي ذات الوقت التجدد الذي لا يمكن نفاذه لعباراتها ، وان قارىء مثل هذا الكتاب سيوضع بحضرة الاناشيد الڤيدية للبراهمانيين والاوبانيشاد ، وخلال ساعات بعد أن يكون قد ألقى نظرة على الأفكار والمعتقدات لأناس العصور الحجرية الأولى ، ولشعوب ما بين الرافدين ومصر ، سيكتشف سنقارا ، والثانثرية وميلاريبا ، والاسلام ، وجواشيم دي فلور أو باراسيلز ، وبعدأن يتأمل بزوغ زارادشت ، وغوتامابوذا والتاوية ، وحول الاسرار الهيللنسية وانطلاقة المسيحية والغنوصية ، والكيمياء أو ميثولوجيا الغرال ، سيلتقي بالمتنورين والرومانسيين الألمان ، هيجل ، وماكس موللر ، وفرويد ، وجونغ وبونهوفر ، وبعد قيل من الوقت يكتشف كيتنرالكوتل وفيراكوشا ، والاثني عشر الفارز وغريغوار بالاماس ، والقبالين الأول ، وابن سينا وعزاي .

ويا للعجب ! إن هذا الكتاب القصير والمفهوم لم يكتب بعد وفي هذه الوهلة أقنعت نفسي بتقديم كتاب بثلاثة أجزاء ، وبأمل اختصاره حسب الظروف بكتاب واحد بحوالي ٤٠٠ صفحة ، وقد اخترت هذه العبارة التوفيقية بخاصة ، لسببين : فمن جهة ، لقد بدا لي مناسبا ذكر عدد من النصوص الهامة وغير المعروفة بما فيه الكفاية ، ومن جهة أخرى أردت أن أضع بتصرف الدارس المراجع النقدية الجاهزة الى حد ما . وعليه اختصرت الملاحظات والحواشي الى أدنى حد في أسفل الصفحات ، وجمعت في القسم الأخير من كل جزء المراجع والتعليق على بعض المظاهر التي وردت أو أشير اليها باختصار زائد . وبهذه الطريقة ،

يمكن قراءة الكتاب بشكل متصل ، متجنباً التوقف حيال مناقشة المصادر وعرض المسائل . ان بنية هذا الكتاب (تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية) تطلبت أداة نقدية معقدة ، وبالنتيجة ، قسمت الفصول الى فقرات ، مزودة برقم وعنوان صغير . ويستطيع الدارس الرجوع اذا رغب الى المراجع المذكورة في القسم الاخير من كل جزء . لقد حاولت وضع ، الجوهري من المراجع ، تحت كل عنوان صغير دون أن تغيب عني الأعمال التي لا أشارك في توجهها المبدئي . وما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، لم أذكر المؤلفات المنشورة في اللغات السكندينافية أو السلافية أو البلقانية . ولكي تسهل القراءة اختصرت ترجمة الاسماء والمصطلحات الشرعية .

وباستثناء بعض الفصول ، فان هذا الكتاب يستجمع دروس تاريخ الاديان التي أعطيتها ، منذ ١٩٣٣ الى ١٩٣٨ في جامعة بوخارست ، وفي مدرسة الدراسات العليا في ١٩٤٦ وفي ٤٨ وحتى ١٩٥٦ في جامعة شيكاغو . انني أنتمي الى هذا الصنف من مؤرخي الأديان الذين مهما كان «تخصصهم» يجهدون أنفسهم لمتابعة النجاحات المحرزة في النطاقات المجاورة ولا يترددون عن تغذية الدارسين حول مختلف المسائل المطروحة من قبل نظامهم وأمل ، في الواقع ، ان تدخل كل دراسة تاريخية بعض المؤالفة مع التاريخ الشامل ؛ وبالنتيجة ، ان التخصص الاكثر «تضييقاً» لا يستثني العالم من الالتزام بإقامة بحوثه في منظور التاريخ العالمي . وأشاطر كذلك القناعة لأولئك الذين يفكرون ان دراسة دانتي او شكسبير ، لابل دوستويفسكي أو بروست ، هي موضحة بمعرفة الكاليدازا Kalidasa ، والنوكو Nok أو Singepéleruim . وليس هنالك مسألة عن موسوعية ـ مزيفة ، عابثة ، واجمالا ، قاحلة . أنه يتعلق ببساطة بعدم الغفلة عن الوحدة العميقة وغير المنظورة لتاريخ النفس البشرية .

ان الشعور بهذه الوحدة للتاريخ الروحي للبشرية هو اكتشاف حديث ، وما زال غير متمثل بما فيه الكفاية . وسنتحقق من أهميته بالنسبة لمستقبل نظامنا في الفصل الأخير من الجزء الثالث . وفي هذا الفصل الأخير ، نناقش الأزمات المثارة من قبل أسياد الانقسامية ـ منذ ماركس ونيتشه حتى فرويد ـ والمساهمات المقدمة

من قبل الاناسة /الانتروبولوجيا/ وتاريخ الأديان ، والفينومينولوجيا ، والتأويلية الجديدة ، التي لن تحسب الابداع الديني والوحيد وانما لها الهام للعالم الغربي الحديث . انه يتعلق بمرحلة كلية لالغاء صفة القداسة . وان العملية تقدم فائدة ملحوظة بالنسبة لمؤرخ الاديان : انها توضح ، في الواقع ، التغطية الكاملة «للمقدس» وبدقة أكثر تطابقه مع «المدنس» . .

انني خلال خمسين سنة من العمل ، تلقيت الكثير من معلمي ، وزملائي وطلابي ، ولكل هؤلاء ، أموات واحياء احفظ أسمى اعتراف بالاخلاص . وأكرر الشكر أيضا لمدام ميشيل فرومانتو ، وجان لوك . وبنيون بفليو وجان ـ لوك بيدور بايو الذين تحملوا مشقة مراجعة النص لهذا الجزء الأول . ككل كتاباتي الأخرى منذ ١٩٥٠ ، فان هذا الكتاب ما كان يصل الى نتيجة لولا حضور ، ومودة ، وتفاني زوجتي . ومع السرور والتقدير ، أسجل اسمها على أول صفحة من ما سيكون على الأرجح آخر مساهمة مني في نظام عزيز علينا .

م . أ

جامعة شيكاغو ايلول ١٩٧٥



الفصل الأول

من البداية . . . .
تصرفات سحر ـ دينية لأهالي العصور الحجرية

١ ـ أدوات لصنع الأدوات ـ /استخدام النار

لن نناقش هنا مسألة (التحول إلى بشر L'hominisation) رغم أهميتها لفهم الظاهرة الدينية . ويكفي التذكير بأن الوضع المنتصب للانسان سبق أن ميَّز الانتقال من طور الاوليات . فلا يمكنه البقاء واقفاً الا في حالة اليقظة . وبفضل وضع الانتصاب تنظم الفراغ في بنية متعذرة البلوغ لاسلاف الانسان : في أربعة اتجاهات أفقية موضوعة أبداً من محور مركزي //فوق// ـ //تحت// وبعبارات أخرى فإن الفراغ قد أنتظم حول جسم بشري ، وكأنه متجه للامام ، والخلف واليمين واليسار والأعلى والأسفل . إنه بدءاً من هذه التجربة الأصلية شعر أنه /ملقى/ في وسط امتداد ، هو حسب ظاهرة غير محدود ، ومجهول ، ومهدِّد ـ

تنبعث منه مختلف وسائل التوجه ، إذ لا يمكن العيش طويلاً في المتاهة المثارة بعدم التوجه . هذه التجربة الموجهة حول /مركز/ تفسر أهمية التقسيمات والتوزيعات المثالية للاقاليم والتجمعات والمساكن ولرموزها الكونية /١/ .

وهنالك فرق حاسم أيضاً بالنسبة لطريقة وجود الأوليات يبرز باستعمال الأدوات . فالانسان الأول لم يستخدم الاداة فقط وانما كان مؤهلاً لصنعها .
صحيح أن بعض أنواع القردة تستعمل أشياء كما لو أنها أدوات ، بل وتعرف حالات لها تصنع فيها مثل هذه الأدوات ، الا أن الانسان الأول صنع أكثر من هذا لقد /صنع أدوات ليصنع بها أدوات/ . ومن جهة أخرى فإن استعماله للادوات كان أكثر تعقيداً ، فهو يحتفظ بها قريبة منه ، جاهزة لاستخدامها مستقبلاً .

وباختصار فإن استعمال الأدوات غير محدد في وضع خاص أو ظرف معين كما هو لدى القردة . ويقتضي التأكيد على أن الأدوات لا تطيل اعضاء الجسد . أن أقدم الحجارة المعروفة قد صنعت لهدف وظيفة لم تكن مسبقاً ماثلة في تكوين جسد الانسان ، وبصورة خاصة تلك المتعلقة بالقطع «عمل مختلف عن التمزيق بالاسنان أو الخدش بالاظافر» /٢/ . ان التقدم البطيء جداً في التكنولوجيا لا يستدعي تطوراً مماثلاً في الذكاء . فمن المعلوم أن الانطلاقة المذهلة للتكنولوجيا في القرنين الأخيرين لم تترجم بتطور مماثل في ذكاء الانسان الغربي . ومن جهة أخرى ، وكما لاحظنا «ان كل تجديد كان يلازم خطر موت جماعي» كما يقول /اندريه فارانياك/ . ان مقاومة التجديد التكنولوجي قد ضمن استمرارية حياة أهل العصور الحجرية .

إن تأهيل النار بمعنى امكانية انتاجها والاحتفاظ بها ونقلها يمكن من القول بأنه ميَّز الفصل بين انسان العصور الحجرية عن أسلافه من الحيوانات . وأقدم الوثائق التي تدل على استعمال النار هي وثائق ، تشو- كو- تيين التي تعود لحوالي ستمائة الف سنة قبل المسيح ، غير أنه من المرجح أن /التأهيل/ للنار كان قدَ وجد قبل ذلك وفي اماكن مختلفة .

لقد توجب التذكير ببعض هذه الوقائع المعلومة جيداً كي لا نضل في قراءتنا للتحليلات التي سترد ، بأن انسان ما قبل التاريخ قد تصرف فيما سلف ككائن متمتع بذكاء وخيال . أما بالنسبة لنشاط اللاشعور - أحلام ، رؤى خيالات تصورات الخ . . . فيحتمل أنها لم تتميز لديه الا بحدتها واتساعها عما يوجد لدى معاصرينا . غير أنه يجب الفهم لمصطلحات الحدة والاتساع في معانيها الاكثر قوة والأكثر مأساوية . وذلك لأن الانسان هو الحصيلة النهائية لقرار متخذ منذ بدء الزمان وهو : أن يقتل لكي يستطيع العيش .

وفي الواقع ، ان البشريات (أجناس الانسان les hominiens) قد نجحوا في تجاوز اسلافهم بأن أصبحوا أكلة لحوم . فخلال زهاء مليونين من السنوات عاش أسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد ، وان الثمار والجذور والرخويات الخ ، التي كانت تجنيها النساء والأولادكانت غير كافية لضمان بقاء النوع . ان الصيد حدد تقسيم العمل تبعاً للجنس ، مدعماً بهذه الطريقة (التحول البشري l'hominisation) ؛ لأنه لدى الحيوانات الضارية ، وفي كل عالم الحيوان لا يوجد مثل هذا التفريق .

غير أن المطاردة المستمرة وأماتة الفريسة قد انتهيا بانشاء منظومة من العلاقات الخاصة suigenris بين الصياد والحيوانات المقتولة ، وسنعود لهذه المسألة إلا أننا نعيد للذاكرة هنا بأن «التضامن الصوفي» بين الصياد وضحاياه قد تكشف بفعل القتل ذاته ؛ فالدم المراق هو من كل جوانبه مماثل لدم الانسان . وفي اللحظة الاخيرة إن «التضامن الصوفي» مع الفريسة يكشف القناع عن القرابة بين المجتمعات الانسانية وعالم الحيوان . فقتل الحيوان المصاد أو فيما بعد ، الحيوان المدجن يماثل «التضحية» وتكون الضحايا فيها قابلة للتداول /٣/ ولنحدد بدقة ، أن كل هذه المفاهيم قد تكونت أثناء المظاهر الأخيرة من عملية التحول لبشر (l'hominisation) . وانها ما زالت ناشطة - محورة ، ومقومة من جديد ، ومموهة - منذ ألوف السنين بعد انقضاء حضارات العصور الحجرية .

٢ ـ /كثافة/ وثائق عصور ما قبل التاريخ

إذا كان أهل العصور الحجرية قد اعتبروا /كبشر كاملين/ ، فيستتبع ذلك أنهم قد امتلكوا معتقدات ومارسوا بعض الشعائر ، لأنه ، وكما ذكرنا ، ان تجربة المقدس تشكل عنصراً في بنية الشعور . وبعبارات أخرى ، إذا عرضنا مسألة /التدين/ أو عدم التدين لأناس العصور الحجرية ، فإنه يقتضي لمناصري/عدم التدين/ تقديم الأدلة المدعمة لفرضيتهم . ومن المرجح أن افتراض /عدم التدين/ لأناس العصر الحجري ـ قد طرح في عهود التطورية ، عندما اكتشفت المشابهات مع الرئيسيات . الا أنه يتعلق بسوء فهم ، لأن ما يحسب في هذه الحالة ، ليس هو البنية التشريحية ـ العظمية لاناس العصر الحجري«المماثلة بالتأكيد ، للبنية التشريحية العظمية للرئيسيات» وانما أعمالهم ؛ وان هذه الأعمال تثبت النشاط لذكاء لا يمكننا تعريفه سوى بأنه /انسانى/ .

غير أنه إذا كان من المتفق عليه اليوم ، حول واقعة أن أناس العصر الحجري كان لديهم دين ، فإن من الصعب ، إذا لم يكن عملياً من المستحيل ، تحديد ماهية محتوى هذا الدين . ومع ذلك لم يجرد الباحثون من سلاحهم ، فبقي عدد من الوثائق الشاهدة على حياة أناس العصور الحجرية ، وما زال يؤمل النجاح باكتشاف معانيها الدينية . وبعبارة أخرى أنه يؤمل أن تكون هذه الوثائق قابلة لتشكيل لغة ، تماماً كما ، بفضل عبقرية فرويد ، ان الابداعات المعتبرة حتى ذلك الحين وكأنها لغو أو غير ذات معنى عن اللاشعور ـ أحلام ، أحلام اليقظة ، خيالات ـ الخ ـ قد كشفت وجود لغة قيمة جداً لمعرفة الانسان .

في الواقع ، إن /الوثائق/ متعددة جداً ، غير أنها مبهمة وقليلة التنوع : تعظمات بشرية وبصورة خاصة ، جماجم ، ادوات حجرية ، اصباغ (بالدرجة الاولى مغرةOcre) أحمر (حجر يخضب به) وصباغ أحمر ،ـ ومختلف الأشياء التي وجدت في المقابر . ولم تتم سوى بدءاً من العصر الحجري المتأخر حيازة صور

ورسومات على الصخور ، وحصيات ملساء مرسومة وتماثيل صغيرة من العظام والحجارة ، وفي بعض الحالات ـ مقابر ، وأعمال فنية ـ وفي الحدود التي سنتفحصها فيها ، فاننا على الأقل متأكدون من مفهومها /الديني/ .

ولكن غالبية /الوثائق/ قبل الفترة الأوريغيناثية l'Aurignacien (ثلاثين الف قبل المسيح) ، أي الادوات لا تكشف شيئاً خارج قيمتها الاستعمالية .

وعلى الغالب ، فإنه من غير المعقول أن تكون هذه الادوات غير مثقلة ببعض القداسة وأن لا توحي ببعض المشاهد الميثولوجية . ان الاكتشافات التكنولوجية الأولية ـ تحويل الحجر الى اداة للفتك والدفاع وصناعة النار ـ لم تضمن فحسب استمرارية الحياة والتطور للجنس البشري ، بل أنها أيضاً انتجت عالما من القيم الاسطورية ـ الدينية ، وانها أثارت وغذت الخيال المبدع ، ويكفي تفحص دور الأدوات في الحياة الدينية والميثولوجية للبدائيين الباقين أيضاً في مرحلة الصيد والقنص من التطور .

إن القيمة (السحر ـ دينية) لسلاح ـ من خشب أو من حجر أو من معدن ـ ما زالت تعيش أيضاً لدى الشعوب الزراعية الأوروبية ، وليس في فولكلورهم فحسب . ولا نود هنا تقييم ما يتعلق بالحجارة والصخور والحصى ، حيث سيجد القارىء أمثلة عديدة في فصل خاص بها من هذا الكتاب .

إن (السيطرة على المسافة) المكتسبة بصورة خاصة بفضل السلاح القاذف ، هي التي اثارت عقائد لا عد لها من الاساطير والخرافات ، ولنعيد الى الذاكرة الميثولوجيات المصاغة حول الحراب التي تغوص في قبة السماء وتسمح بالصعود الى السماء ، أو الأسهم التي تطير عبر الغيوم مخترقة الشياطين ، أو مشكلة سلسلة حتى السماء الخ . . . لقد توجب على الأقل تذكر بعض المعتقدات والميثولوجيات للأدوات ، وفي المقام الأول منها الأسلحة ، كي نستطيع بشكل أفضل تقييم كل ما لم تستطع الحجارة المصنوعة من العصور الحجرية ان تصلنا به . ان عدم شفافية الدلالة لهذه الوثائق من عهد ما قبل التاريخ لا تشكل تفرداً . فكل وثيقة ، حتى

المعاصرة هي (غير شفافة روحيا) وقد يمر وقت طويل دون التوصل الى حل رموزها بادخالها في منظومة من الدلالات . إن أداة ، مما قبل التاريخ ، أو معاصرة لا يمكن لها أن تكشف سوى مقصدها التقني ؛ وكل ما فكر به منتجها أو مالكوها وكل ما شعروا به أو تخيلوه أو أملوا بعلاقتهم معها فيه ، يفوتنا . ومع ذلك يجب على الأقل محاولة /تصور/ القيم غير المادية لأدوات ما قبل التاريخ . وإذا لم نفعل ، فإن هذه الكثافة الاستدلالية يمكنها أن تفرض علينا معرفة مغلوطة وبشكل كامل لتاريخ الثقافة . اننا نخاطر ، مثلاً ، بخلط مظهر عقيدة مع التاريخ الذي تأكدت فيه بوضوح لأول مرة /٤/ . ففي عصر المعادن ، عندما المحت بعض التقاليد ، إلى أسرار المهنة ، ذات العلاقة مع العمل في المناجم ، والتعدين وصناعة الأسلحة ، سيكون طائشاً الاعتقاد أنه يتعلق باختراع لا سابقة له ، لأن هذه التقاليد تمدد ، أقله في جزء منها ، تراثاً من العصر الحجري .

فلزهاء مليونين من السنوات ، عاش أناس العصر الحجري ، على الصيد البري ، والبحري وعلى الجمع . غير أن الدلالات الأولية للحفريات المتعلقة بالعالم الديني لصياد من العصر الحجري ، ترجع للفن الجداري في الكهوف (ثلاثين ألف قبل المسيح) . وان ما هو أكثر من هذا ، اذا تفحصنا المعتقدات والمعطيات الدينية للشعوب التي تعيش على الصيد المعاصرة ، فإنه يعاد النظر في عدم الامكانية الشبه كاملة للبرهان على وجود أو غياب المعتقدات المماثلة لدى أناس العصر الحجري .

إن الصيادين البدائيين يعتبرون الحيوانات مشابهة للبشر ولكنها ممهورة بقدرات فوق طبيعية ؛ وهم يعتقدون أن الانسان يمكن له أن يتحول الى حيوان وبالعكس ، وان أرواح الموتى يمكنها الدخول في الحيوانات ، وفي النهاية يوجد علاقات سرية بين شخص وحيوان فردي . أما بالنسبة للكائنات المافوق الطبيعية المؤكدة في ديانات الصيادين ، فإنه يميز المرافقون أو (الأرواح الحارسة) ، والآلهة من نوع كائن أعلى رب للوحوش الكاسرة ، والحامي في آن واحد للطريدة وللصيادين ، والأرواح الدغل وأرواح أنواع الحيوان المختلفة .

وإضافة لذلك ، فإن العديد من التصرفات الدينية هي مميزة لحضارات الصيادين : اماتة لحيوان تشكل شعيرة ، الأمر الذي يقتضي الاعتقاد بأن رب الحيوانات المتوحشة يسهر على أن لا يقتل الصياد الا ما هو بحاجة إليه لغذائه ، وان الغذاء لا يجوز أن يبدد ، والعظام ، وبصورة خاصة الجمجمة لها قيمة شعائرية معتبرة (على الأرجح للاعتقاد بأنها تضم /الروح/ أو /الحياة/ للحيوان ، وانه بدءاً من الهيكل العظمي سيعمل رب الحيوانات على انبات لحم جديد عليها) ؛ وانه من أجل هذا تعرض الجمجمة والعظام الطويلة على الأغصان أو على المرتفعات ؛ ولدى بعض الشعوب ، ترسل روح الحيوان المقتول نحو /وطنه الروحي/ [«الاحتفال بالدب» لدى شعوب des Ainous و des Gilyaks] ؛ وتوجد كذلك العادة بتقديم قطعة من كل حيوان مقتول للكائنات العليا [البغمية les pygmés النيجريتو les Négritos في الفيلبين الخ] أو الجمجمة والعظام الطويلة (الساموید Samoyèds الخ .) ، ولدى بعض التجمعات السكانية في السودان يلطخ الرجل بالدم جوانب مغارته بعد أن يصطاد طريدته الأولى .

كم من هذه المعتقدات وهذه الحفلات يمكن لها أن تتماهى في وثائق الحفريات التي هي تحت تصرفنا ؟؟ والأكثر تقدمات الجماجم والعظام الطويلة .

لن نصر كثيراً على غنى وتعقيد الايديولوجيا الدينية للشعوب الصيَّادة ـ وعلى عدم الامكانية الشبه كاملة لاثبات أو انكار وجودها لدى اناس العصور الحجرية . فكما كررنا مراراً عديدة : المعتقدات والافكار ليست أبداً قابلة لاجراء حفريات فيها . ولقد فضل بعض العلماء أن لا يقول شيئاً حول الأفكار والمعتقدات لأناس العصور الحجرية ، وبدلاً من إعادة تكوينها بمساعدة المقارنات مع حضارات الشعوب التي تعيش على الصيد . هذه الوضعية المبدئية جذرياً ليست بدون خطر . فترك جزء ضخم من تاريخ الروح الانسانية على صفحة بيضاء يخاطر

بتشجيع الفكرة القائلة انه خلال كل هذا الزمن كان نشاط النفس محدوداً بالحفاظ على التكنولوجيا ونقلها . وعليه ، فإن مثل هذا الرأي ، ليس مغلوطاً فحسب بل هو تعيس بالنسبة لمعرفة الانسان . إن الانسان الصانع Homo Faber كان كذلك

الانسان العاقل sapiens والمتدين religiosus . وبما أنه لا يمكن إعادة تكوين معتقداته وممارساته الدينية ، فعلى الأقل يمكن الاشارة الى بعض المشابهات القابلة للايضاح بصورة غير مباشرة .

٣ - المعاني الرمزية للمدافن

إن الوثائق الأكثر قدماً والأكثر عدداً ، هي بوضوح ، عظام الموتى . فبدءاً من الفترة الموستيرية moustérien (٧٠,٠٠٠ - ٥٠,٠٠٠) ق.م . يمكن الكلام بشيء من اليقين عن المقابر . الا انه قد وجدت جماجم وفكوك سفلى في مراكز أكثر قدماً ، مثلاً في شو- كو- تين [في اورeur تعود الى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ - ٤٠٠,٠٠٠ ق.م . وقد طرح وجودها العديد من المسائل . وطالما انه لا يتعلق بالمقابر ، فإن حفظ هذه الجماجم يمكن أن يفسر بأسباب دينية . ان القس برويل l'abbé Breuil ووليام شميدت William Schmidt قد أعادا التذكير بالعرف المثبت لدى الاستراليين والشعوب البدائية الأخرى /٦/ . بحفظ جماجم اقربائهم الموتى وحملها معهم في تجوالهم . ومع أنه من المؤكد أن الفرضية غير مقبولة من أكثرية العلماء . وقد فسرت هذه الاعمال أيضاً كدليل لأكل لحم البشر الشعائري أو العادي . هكذا فسَّر أ.س بلان A.C.Blanc قطع جمجمة النياندر تاليان néander thalien : التي وجدت في مغارة مونت سيركو : فالانسان ، كان قد ضرب على رأسه بضربة كسرت له الجبين اليمين ، ومن ثم جرى توسيع الثقب القذالي لاستخراج النخاع ولأكله شعائرياً ، ولكن هذا التفسير لم يقبل بشكل عام . إن الاعتقاد بحياة ثانية يبدو أنه قد برهن على وجوده منذ العصور الموغلة في القدم باستعمال الصباغ الأحمر البديل الشعائري للدم والذي هو رمز الحياة . ان عادة رش الجثث بالتراب الامغر كانت منتشرة عالمياً وفي الزمان والمكان من شو- كو- تين حتى الشواطىء الغربية لأوروبا ، وفي افريقيا حتى رأس الرجاء الصالح ، وفي استراليا وتاسمانيا ، وفي أميركا حتى أرض النار ، أما بالنسبة للمعنى الديني للمقابر ، فقد عورض بقوة .

ولا يمكن الشك أن لحد الموتى يجب أن يكون له تبرير ، ولكن ما هو هذا التبرير بدئياً لا يجب أن ننسى أن (الطرح المجرد والبسيط للاجساد في الحفر ، والتقطيع ، واطعام الطيور ، والهرب العاجل من المسكن تاركا الجسد فيه ، لا يعني مطلقاً غياب الأفكار عن عودة الحياة)[٨] . وبالأولى فان الاعتقاد بعودة الحياة قد تأكد بالمقابر ؛ ومن جهة أخرى لم يعرف العناء الذي يحصل لكي يدفن الجسد . ان هذه العودة للحياة يمكن لها أن تكون روحية محضة ، بمعنى أنها مدركة كوجود مسبق للنفس ، وهو اعتقاد مؤكد بظهور الموتى في الأحلام . غير أنه يمكن كذلك تفسير بعض المدافن . كاحتياط ضد عود مفاجيء للميت ؛ في هذه الحالات كانت الجثث تطوى وربما تحزم . ومن جهة أخرى لا يستبعد أن وضعية الطي للميت بعيدة عن افشاء الخوف من (الجثث الحية) ـ خوف مؤكد لدى بعض الشعوب ، وتعني على العكس الأمل بولادة جديدة ؛ لأنه تعرف حالات عديدة من الدفن مقصودة بوضعية جنينية .

من بين أفضل الأمثلة للقبور ذات الدلالة السحر ـ دينية ، نشير الى قبر تشيك تاش Teshik Tash في الأوذبكستان «ولد محاط بحلية من قرون الماعز البري» وقبر كنيسة القديسين في كوريزا Correza «في الحفرة حيث كان الجسم ملقى وجدت عدة أدوات من الصوان وقطع من المغر الاحمر»[٩] وقبر دولا فيراسي ، في دوردونيا «عدد من القبور ذات الاكمات مع مستودعات للأدوات من الصوان»ونضيف لذلك مقبرةمغارةمونت كارمل مع عشرةقبور. جرى نقاش ايضا حول رسمية ودلالة تقدمات من الأطعمة أو الاشياء المودعة في القبور ، وان المثال المألوف كثيرا هو مثال جمجمة نسوية لماز دازيل du mas- d'Azil ذات عيون مستعارة موضوعة على فك وقرن غزال الرنة .[١٠] .

وفي العصر الحجري الأعلى يبدو ان ممارسة الدفن قد تعممت . الأجسام المرشوشة بالمغر الاحمر مدفونة في حفر حيث وجد معها عدد من أدوات الزينة ((أصداف ـ أقراط ـ عقود» . ومن الراجح أن الجماجم وعظام الحيوانات المكتشفة بجانب القبور هي بقايا وجبة شعائرية ان لم تكن تقدمات . ويقدر لوروا

غورشان Loroi Gowrchan أن «المنقولات الجنائزية أي الادوات الشخصية للمتوفين ، هي مجال جدل كبير» . ان المسألة هامة ؛ فوجود أشياء كهذه لا يعني فقط الايمان باستمرار حياة فحسب ، وانما أيضا القناعة بأن الميت سيتابع نشاطه المميز في العالم الآخر . ان أفكارا مشابهة قد تأكدت بغزارة ، وعلى مستويات مختلفة من الثقافة . وعلى كل حال فان الباحث نفسه يعترف برسمية القبر الأوريكناس aurigacienne في ليغوريا Ligurié حيث أن الهيكل العظمي مصحوب بأربع من هذه الاشياء الغامضة المسماة عصي القيادة (Baton de commendement) وعليه فان بعض القبور على الأقل تشير بطريقة لا يمكن جحدها إلى أن العقيدة في استمرارية بعد الموت ذات فاعلية خاصة .

وباختصار ، يمكن الاستنتاج بأن القبور تؤكد الاعتقاد بحياة أخرى سبقت الاشارة اليها باستعمال المغر الأحمر . . وثمة بعض التأكيدات الاضافية : مدافن موجهة نحو الشرق ، مشيرة للنية بتثبيت مصير الروح على مسار الشمس ، حيث الأمل بعودة الولادة ، أو من تجدد الوجود في عالم آخر ، عقيدة في استمرارية النشاط المميز وبعض الشعائر الجنائزية معينة بالتقدمات لأشياء من الزينة وبقايا وجبات الطعام .

ويكفي تفحص الدفن لدى شعب قديم معاصر لنرى مدى غنى وعمق الرمز الديني المطبق في حفلة تبدو على درجة من البساطة ، ولقد أعطى ريشيل دولماتوف Reichel - Dolmatoff وصفاً مفصلاً الى حد ما ، عن دفن مشابه في عام ١٩٦٦ عند هنود «كوجي» وهي قبيلة تنطق بلغة شيبشا chibcha ، تسكن في سيرا نيافادا من سانتا مارتا في كولومبيا[١٢] فبعد التوصل لاختيار مكان الحفرة ، ينفذ الشامان مجموعة من الاشارات الطقوسية ويعلن : «هنا قرية الموت ؛ هنا البيت الاحتفالي للميت ؛ هنا الرحم ؛ سأفتح الباب . إن البيت مغلق وسأفتحه» . وبعد هذا يعلن : «لقد فتح البيت» ثم يدل الرجال على المكان الذي يتوجب حفر الحفرة فيه ، ثم ينسحب . وقد غطيت الميتة بقماش ناعم أبيض ، والأب هو الذي يخيط الكفن . خلال كل هذا الوقت تدمدم الأم والجدة بأغنية

بطيئة ويدون كلمات تقريبا ، وفي عمق القبر توضع حجارة صغيرة خضراء ، وأصداف ، وقوقعة سلطعون . ثم يحاول الشامان بعد هذا عبثا رفع الجسد ، معطياً الانطباع بأنه ثقيل جداً ، ولا ينجح برفعه الا في المرة التاسعة . ويوضع الجسد والرأس باتجاه الشرق و(يغلق البيت) أي تملأ الحفرة ، وتجري حركات طقوسية أخرى حول القبر ، وأخيراً ينسحب الجميع،وقد دامت الحفلة زهاء ساعتين .

وكما لاحظ (ريشيل دالماتوف)، فان حفاراً في المستقبل ، لن يجد عند حفره القبر ، سوى هيكل عظمي مع رأسه المتجه للشرق وبعض الحجارة والصدف ، أما الشعائر وبصورة خاصة المعتقد الديني المطبق ، فلن يمكن الحصول على شيء منها استنادا لهذه البقايا[١٣] . ومن جهة أخرى ، فان رموز الحفلة ستبقى غير مدركة حتى للمراقب الأجنبي المعاصر الجاهل لدين الكوجي Koji ، ولأنه ـ كما كتب دالماتوف ـ يقتضي تحرير محضر للمقبرة باعتبارها (قرية الموتى) وبيت الاحتفال لهم ، وان تحرير المحضر للحفر سيكون بصفتها /بيتا/ و/رحما/ «وهذا ما يفسر الوضعية الجنينية Laposition Foetale للجسد النائم على جانبه الأيمن «المتبوع بمحضرمن التقدمات بما فى ذلك الأطعمة من أجل الميت» وبشعيرة (الفتح) و (الغلق) للبيت الرحمي . وان التطهير الشعائري النهائي بالخندق المحصن يكمل الحملة .

من جهة أخرى فان /الكوجي/ يماثلون العالم ـ رحم الأم الكونية ـ بكل قرية ، وكل منزل للطقوس ، وكل مسكن وكل قبر . فعندما يرفع /الشامان/ الجثة تسع مرات فانه يرمز بذلك لعودة الجسد الى حالته الرحمية ، مجتازا في اتجاه معاكس الأشهر التسع للحمل . وباعتبار أن القبر مشابه للعالم ، فان التقدمات الجنائزية تأخذ معنى كونياً . وإضافة لذلك ، فان التقدمات (أغذية للميت) لها أيضا معنى جنسي sexuel «في الأساطير ، والأحلام وقواعد الزواج ، و/فعل الأكل/ يرمز عند الكوجي للفعل الجنسي» . وبالنتيجة يكون بذرة /semence/ تخصب الأم . والاصداف مكلفة برمز تقليدي على شيء من التعقيد ، فليس هو

جنسي فقط : انها تمثل الأعضاء الحية للعائلة ، في حين أن قوقعة السرطان ترمز لزوج الميتة ، لأنها اذا لم توجد في القبر ، فان الفتاة ، ما تكاد تصل للعالم الآخر /حتى ستطلب زوجاً/ الأمر الذي يستدعي موت شاب من القبيلة ..» .

ونوقف هنا التحليل للرمزية الدينية التي يتضمنها دفن /كوجي/ . ولكنه يقتضي أن نشير الى أنه ـ مع الاعتماد على مستوى الحفريات فقط ، ان مثل هذا الرمز لا يمكن ادراكه ـ كما هو الأمر في قبر يعود للقرون الحجرية . تلك هي الطريقة الخاصة للوثائق الحفرية التي تحدد وتفقر /الرسائل/ القابلة للنقل . ولا يجوز مطلقا فقدان مرأى هذا الواقع عندما نواجه بفقر وكثافة مصادرنا .

٤ ـ الاختلاف حول مستودعات العظام ، القديمة

ان مستودعات عظام دببة المغاور ، المكتشفة في جبال الألب ، والمناطق المجاورة ، يشكل (الوثائق) الأكثر عددا ، ولكن الأكثر تناقضا أيضا ، فيما يتعلق بالأفكار الدينية للعصور الجليدية المتأخرة . ففي مغارة دراشتنلوش Drachanloch (سويسرا) ، وجد اميل بشلرEmile Bachlarمستودعات من العظام ، وبصورة خاصة جماجم وعظام طويلة ، وقد كانت مجمعة وموضوعة اما على طول الجدار واما في الأوكار الطبيعية في الصخور ، وإما في نوع من التجويف في الحجارة . ومن سنة ١٩٢٣ الى ١٩٢٥ اكتشف بشلر مغارة أخرى هي Wildenmannlislach ووجد فيها عددا من جماجم الدببة المنزوعة أفكاكها السفلى ، مع عظام طويلة موضوعة بينها . وقد حصلت اكتشافات مماثلة من قبل رجال آخرين يقومون بدراسة ما قبل التاريخ في مغارات في جبال /الألب/ وأكثر هذه الاكتشافات أهمية في Draclenloekil وفي Styrie وفي petesshochle في فرانكونيا حيث اكتشف ك . كويرمان K. Korman جماجم لدببة في أوكار على ارتفاع ١,٢٠م من سطح الأرض ، وكذلك فإن K. Ehranberg وجد في عام ١٩٥٠ في الألب

النمسوية (Salzofenhohle) ثلاثة جماجم لدببة مقيمة في أوكار طبيعية في الحائط ومتشاركة بعظام طويلة متجهة من الشرق الى الغرب .

وبما أن هذه المستودعات بدت غير مفهومة ، فقد عكف العلماء على استنباط معانيها . فالعالم Al. Gahs قارنها بالتقدمات من البواكير المقدمة من قبل عدد من الناس القدامى الى كائن أعلى . ان التقدمة ترتب بدقة في عرضها على مصاطب وهي مؤلفة من الجماجم والعظام الطويلة للحيوان الذي تم اصطياده، وكان يقدم منه للآلهة النخاع والمخ ، أي الأجزاء الأكثر تقديرا من قبل الصياد ، وقد قبل مثل هذا التفسير من عدد آخر من العلماء . . Wilheln sehmi وW. K oppers فبالنسبة لهؤلاء العلماء ، كان ذلك الدليل الذي اعتقد صيادو الدببة في مغاور العصر الجليدي الأخير معه بوجود كائن أعلى أو سيد للوحوش الكاسرة ، وهنالك باحثون آخرون قارنوا مستودعات الجماجم بشعيرة الدب كما هو أو كما كان حتى القرن التاسع عشر ، والمطبق في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، وهذه الشعيرة تقتضي الحفاظ على الجمجمة والعظام الطويلة للدب المصاد كي يتمكن رب الوحوش الكاسرة من احيائها في السنة التالية . لقد رأى كارل مولي Karl meuli . في ذلك مجرد شكل معيّن من (دفن الحيوانات) معتبراً أنها اقدم شعيرة من شعائر الصيد ، وهذه الشعيرة ؛ في رأي هذا العالم السويسري ، تبرز علاقة مباشرة بين الصياد والطريدة ، فالأول كان يدفن بقايا الحيوان بهدف إعادة احيائه . ولم يكن هنالك ادخال لأي كائن الهي .

كل هذه التفسيرات وضِعَت موضع الدرس من قبل الباحث F. Df. Kobj الذي رأى أن كثيرا من مستودعات الجماجم انما هي حصيلة صدفة ، ومن قبل الدببة نفسها الدائرة بين العظام والكاشطة لها . وقد أفصح Leroi- Gotlehan موافقته التامة على هذا النقد الجذري . فالجماجم المغلقة في صناديقها من الحجارة المجمعة بالقرب من الجدران ، أو المعلقة في الأوكار والمحاطة بعظام طويلة تفسر بعوامل جيولوجية وأهمال الدببة ذاتها . وقد يبدو هذا النقد لمفهوم المستودعات مقنعاً ، يضاف الى ذلك أن التنقيبات الأولى للمغاور كانت تركت

كثيرا مما يرغب به ، مع ذلك سيكون مثيرا ان نفس النموذج من (المستودع) قد يوجد في عدد من المغاور ، وحتى في الأوكار الموضوعة على علو أكثر من متر ، ومن جهة أخرى فان Lc roi- Gourlun يقر بأن «هناك تحريكات من قبل الانسان تبدو واضحة في بعض الحالات» . على كل حال ، ان تفسير المستودعات كتقدمات لكائنات عليا قد أهمل ، حتى من أنصار و- شميدت و- كوبر . وفي دراسة حديثة عن الأضحيات لدى البشر القدامى توصل جوهانز مارينجر Johanes maringer للنتائج التالية : أ- على مستوى الباليوليتيك القدامى (تورالبا Toraulba شو- كو- تين Chou- Kou- tin لوهيرنجن Lehringen) فان الأضحيات لم تتأكد ٢) ان وثائق الباليوليتك الوسطى (دراشنلوش Drachenloch وبيتر شول Peter eñalle الخ» تخضع لتفسير مختلف ولكن خاصيتها الدينية (أضحيات لكائنات ما ورائية) هي غير واضحة . ٣) ليس سوى في عصور الباليوليتك المتأخرة (ويلندورف Willendarf ، وميردوف meirdof ، ستيلمور Stellmoor مونتسبان montespuin الخ) يمكن التكلم (انما مع كثير أو قليل من اليقين) عن الأضحيات[١٥] .

وكما يتوجب الانتظار في هذا ، فان الباحث المذكور قد جوبه ان بغياب وثائق غير ممكن دحضها وإن بكثافة علم دلالة الوثائق التي تبدو رسميتها مؤكدة . إن النشاط الروحاني للانسان الحجري القديم - كما هو الأمر بالنسبة للبدائيين في عصرنا - قد ترك آثارا هشة جداً . ولكي لا نعطي سوى مثال واحد يمكن استحضار حجج ودلائل (لوروا - كوربان) وكولي ضد استنتاجها الخاص : فأعمال الجيولوجيا ومعطيات الدببة في المغاور تكفي لتفسير المستودعات الشعائرية . أما بالنسبة لكثافة الدلائل لمستودعات العظام التي لا مجال للشك في هدفها الشعائري ، فان ثمة متوازيات موجودة لدى صيادي القطب الشمالي المعاصرين . فالمستودع في ذاته ليس سوى تعبير عن قصدية سحرية - دينية ، وان المعاني الخاصة لهذا التصرف تبدو مقبولة لدينا بفضل معلومات تواصلت من قبل أعضاء المجتمعات المتتالية . فيعرف حسب الظرف ، ما اذا كانت الجماجم والعظام الطويلة تمثل تقدمات لكائن أعلى أو لرب الوحوش الكاسرة ، أو انها على

العكس ، قد حفظت بأمل أن تغدو مكسوة باللحم . وحتى إن هذه العقيدة الأخيرة هي قابلة لتفسيرات مختلفة : فالحيوان سيعاود الولادة بفضل رب الوحوش الكاسرة ، أو بفضل الروح المستكنة في العظام ، أو أخيرا بفضل العمل الذي أمّن فيه الصائد «قبراً» . (لكي يجنب العظام مغبة افتراسها من قبل الكلاب) .

ويجب أن يؤخذ في الحسبان دوما تعدد التفسيرات الممكنة لوثيقة يكون مدلولها السحري والديني محتملاً ، الا أنه يجب من جهة أخرى ، عدم النسيان بأنه مهما كانت الفوارق بين الصيادين في القطب الشمالي والعصر الحجري ، فانهم جميعا يتقاسمون ذات الاقتصاد ، وبوضوح بارز ذات الفكرة الدينية المميزة لحضارات الصيد . وبالنتيجة فان مقارنة وثائق ما قبل التاريخ مع الوقائع الاتنية هي مبررة .

لقد عرض بأن يفسر من هذا المنظور الاكتشاف الحاصل في سيليزيا لجمجمة متحجرة لدب أسمر صغير ، يرجع لمستوى عهد الادريجناسيان l'Aurignacen القديم ، في حين أن أنيابه وأسنانه كانت منشورة ، أو مصقولة ، وكانت الأضراس في حالة ممتازة . لقد أعاد و . كوبر الى الذاكرة أن (عيد الدب) عند الكيلياك lesKiliak في جزيرة ساخالين وعند الاينوا Lo Ainois في جزيرة Yesa قبل ذبح الدب الصغير ، تقطع الانياب والقواطع بنوع من المناشير ، وذلك لكي لا يستطيع جرح أحد من المشاركين في الاحتفال[١٦] . في حين يثقب الأطفال بالسهام ، أثناء الحفلة ذاتها ، الذئب الموثق ، وقد فسرت في ذات المعنى بعض الصور المنتشرة في مغارة الأخوة الثلاثة ، والتي تظهر دببة مضروبة بسهام وحجارة ، وتبدو وهي تتقيأ فيضاً من الدم[١٧] . غير أن مشاهد مماثلة قابلة لتفسيرات مختلفة .

إن الأهمية لفكرة دينية قديمة مقررة كذلك بقدرتها على (استمرارية العيش) في العصور التالية . وهكذا ، فالاعتقاد بأن الحيوان يمكن أن تعاد ولادته بدءاً من عظامه يصادف في عدد ملحوظ من الثقافات[١٨] . وتلك هي الحجة التي من أجلها يمنع كسر عظام الحيوانات التي ستكسى باللحم . ان ذلك يتعلق بفكرة

خاصة بحضارات الصيادين والرعاة ، ولكنها عاشت في أديان وميتولوجيات أكثر تعقيداً . ان هنالك مثلا معروفا جدا ، هو تيوس تور desboucs Thoer المذبوحة والمجمعة مساء ، ولكن الاله يحييها في الصباح بدءاً من عظامها . وكذلك فان رؤيا حزقيال الشهيرة (٣٧ ، ١ ـ ٨) : ان النبي قد نقل في واد مليء بالعظام ، وباطاعته لأمر السيد كلم هذه العظام قائلاً : «أيتها العظام المتيبسة ، اصغي لكلام الخالد ، هكذا تكلم الرب ، الخالد ، لهذه العظام : سأدخل فيك وستحيين . . وكانت رعدة ثم ضجة مرّنة ، فتقربت العظام من بعضها البعض ، نظرت ، وها هي قد تشكل عليها عضلات ولحم» .

٥ ـ الرسوم الصخرية : صور أم رموز

إن الوثائق التصويرية الأكثر أهمية والأكثر عددا، تجهزت باكتشاف المغاور المزوّقة décorées ، فهذه الكنوز من فن العصر الحجري paléolithique منتشرة في أقاليم ضيقة نسبياً ، بين الأورال والاطلنطيق ، وان موادا من فن الأمتعة وجدت في جزء كبير من أوروبا الغربية والوسطى ، وفي روسيا حتى الدون . غير أن الفن الجداري محدود في اسبانيا وفرنسا وايطاليا في الجنوب (مع استثناء مغارة ذات رسوم في الأورال اكتشفت في سنة ١٩٦١) . . . إن ما يذهل بدئيا هو الوحدة المدهشة للمحتوى الفني : المعنى الظاهر للصور لا يبدو أنه تغير من ٣٠,٠٠٠ ـ الى ٩,٠٠٠ ـ قبل عصرنا وبقي نفسه في آستوري aux Asturie وعلى الدون /٢٠/ .

وحسب رأي Leroi-Courban إنه يتعلق بالانتشار عن طريق احتكاك النظام الايديولوجي ذاته ، وبصورة خاصة ذلك الذي يميِّز (دين المغاور) وحيث أن الرسوم توجد بعيدة لحد ما عن المدخل ، فإن الباحثين قد اتفقوا على اعتبار المغاور كنوع من المقابر . ومن جهة أخرى فإن الكثير من هذه المغاور كان غير قابل

للسكن وإن صعوبات المرور دعّمت خاصيتها الدينية . للوصول أمام الجدران المزينة لا بد من اجتياز مئات الأمتار ، كما هو الشأن في مغارة نيوز Niaux أو الأخوة الثلاثة Trois frere وان مغارة Gabrerets تشكل متاهة حقيقية وتتطلب ساعات عدة لزيارتها . في لاسكو Lascaue أضيف للرواق الأسفل - حيث توجد أمهات أعمال الفن للعصر الحجري الباليولتيكي - النزول بواسطة سلم من حبل عبر بئر بعمق ٦,٣٠متراً . ان المقصد من هذه الأعمال المرسومة أو المنقوشة يبدو من غير المشكوك فيه ، ولكي يجري تفسيرها أعاد أكثر الباحثين الى الذاكرة موازياتها العرقية .

إن بعض المقارنات كانت غير مقنعة ، بصورة خاصة عندما جرى الاجتهاد لاكمال الوثائق الحجرية كي تتشابه بشكل متقدم مع مماثل عرقي . الا أن ايضاحات كهذه الغير عقلانية لا تخرج سوى باحثيها وليس الطريقة التي ادعوا استعمالها .

لقد فسرت الدببة ، والأسود والحيوانات الأخرى المتوحشة التي اخترقتها النبال ، أو القوالب الطينية الموجودة في مغارة مونتسبان montespans الممثلة لأسود ودب مخترق بثقب دائري وعميق ، فسرت كدلائل على /سحر الصيد/ . وهذه الفرضية محتملة ولكن يمكن تفسير بعض هذه الأعمال كإعادة تحيين لصيد بدئي .

وقد يكون مرجحاً ان الشعائر كانت موضع احتفال أو تبريك في المناطق الأكثر عمقاً لمقابر ، وربما قبل غزوة صيد أو بمناسبة ما يمكن تسميته بالتلقين أو المسارة Initiation .

وقد فُسِّر مشهد في مغارة (الأخوة الثلاثة) وكأنه يمثل راقصاً مقنعاً بهيئة ثور وحشي ولاعباً بأداة يمكن أن يكون نايا . ان التفسير يبدو معقولاً طالما أنه يعرف في فن للعصر الحجري paleolitique زهاء ٥٥ صورة لرجال يلبسون جلوداً ، وفي حالة رقص في عدد من المرات . ومن جهة أخرى يتعلق بتقدمة شعائرية خاصة معروفة لدى شعوب تعيش على الصيد في عصرنا .

إن القس برويل l'Abbé Breuil قد جعل /الساحر الأكبر/ لمغارة /الأخوة الثلاثة/ مشهوراً بصورته المثبتة على جدار بمقاس ٧٥ سنتمتر ارتفاعاً . ورسم /برويل/ يظهره مع رأس غزال حاملاً قروناً كبيرة ،ولكن مع وجه بومة ، وآذان ذئب ولحية شاموا . ان يديه تنتهيان كأقدام الدب وله ذنب حصان طويل . ولا يوجد سوى الاعضاء السفلى والجنس ، ووضعه كراقص يدل أنه يتعلق بوجه بشرى . الا أن الصور الحديثة لم تظهر كل العناصر التي سبق /لبرويل/ أن وصفها بدقة /٢٥/. ومن الممكن أن تكون بعض التفاصيل قد تضررت منذ اكتشاف النقش (مثلاً ، قرن الايل الثاني) الا أنه من غير المستبعد أن /برويل/ قد نفذ مشروع الصورة croquis بشكل سيء . وهذا ما نراه في الصور الحالية /للساحر الكبير/ التي تبدو أقل تأثيراً ، ومع ذلك يمكن له أن يفسر (كربٌ للحيوانات) أو كساحر يشخصه . ومن جهة أخرى ، وعلى صفيحة من الاردواز المنقوش ، نميز رجلا مغلفا بجلد غزال ، مع ذنب حصان ، ومصمم بقرون غزال .

كذلك فإنه قد اشتهر أيضاً ، وربما لا يقل مفارقة ، التركيب الشهير المكتشف حديثاً في لاسكو Lascaux في رواق أسفل من المغارة وبممر صعب للغاية . حيث يمكن رؤية ثور وحشي مجروح ، موجهاً قرونه صوب رجل يبدو ميتاً مضطجعاً على التراب ؛ وسلاحه نوع من الحربة المزودة بكلابة ومستندة على بطن الحيوان ؛ أو بقرب الرجل الذي ينتهي رأسه بشكل منقار ، طائر على غصن . وقد فسر هذا المشهد بشكل عام وكأنه معلن لحادث صيد . الا أنه في عام ١٩٥٠ طرح هورت كشنر Horst Kischner رأياً آخر في التفسير وهو أنه رأى في ذلك محضراً (شامانيا) ـ: فالرجل ليس ميتاً وإنما هو في رعدة extatiaue أمام الثور المضحى به بينما ان روحه ستذهب للآخرة . أما العصفور على الغصن فهو حافز متخصص بالشامانية السيبيرية ، وسيكون الروح الحامية للميت .

وحسب رأي كيشنر فإن المشهد كان مشروعاً ليصل منه الشامان للنشوة والوجد بالقرب من الآلهة وليطلب اليها التقديس ، أي نجاح الصيد . وان

الكاتب نفسه يعتبر أن /عصي القيادة/ السرية هي مطارق طبل . وإذا كان مثل هذا التفسير مقبولاً فإن ذلك يعني أن سحرة العصور الحجرية استعملوا طبولاً يمكن مقارنتها بطبول الشامانيين السيبريين /٢٦/ .

إن تفسير كيشنـر المشار اليه قد جوبه بمعارضة ، ولا نرى صلاحية لنا في محاكمته . مع ذلك فإن وجود بعض النماذج /للشامانية/ في العصر الحجري يبدو مؤكداً . ومن جهة أخرى فإن التجربة الوجدية بصفتها وبكونها عنصراً أصولياً مكونة من الشرط البشري ؛ فلا يمكن تصور عهد لم يكن للانسان فيه أحلام ، وأحلام يقظة ، وان لم يقع في رعدة ، بفقدان الوعي الذي فُسِّر وشرح كسفر الروح للماوراء ، أي الآخرة .

ان ما تغيّر وتحول مع مختلف أشكال الثقافة والدين ، هو التفسير والتقييم للتجربة الوجديـة extatique . فطالما أن العالم الروحي للعصور الحجرية القديمة كان محكوماً بعلاقات نظام /صوفي/ بين الانسان والحيوان ، فليس من الصعب كشف سر الوظائف المختصة بالوجد .

وكذلك وصفت بعلاقة مع الشامانية الرسوم المسماة (بأشعة X) ، أي مظهرة الهيكل العظمي والأعضاء الداخلية للحيوان . هذه الرسوم المثبتة في فرنسا خلال الفترة الماجدالينية Le mag dalan'en (١٣٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق.م)وفي النروج بين (٦٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ق.م)وتوجد في سيبريا الشرقية لدى الأسكيمو وفي أمريكا لدى الاودجيبوا o'djbwa ، وكذلك أيضا في الهند وماليزيا وفي غينيا الجديدة واستراليا في الشمال الغربي[٢٧] . انه فن مميز لثقافات الصيادين ، ولكن الايديولوجيا الدينية التي تغمره انما هي شامانية . وفي الواقع ، لا يوجد سوى (الشامان) الذي بفضل رؤاه الما فوق الطبيعية ، مؤهل «لرؤية هيكله العظمي الخاص»[٢٨] . وبعبارات أخرى ، انه مؤهل لأن يخترق برؤاه حتى منبع الحياة الحيوانية ، والعنصر العظمي . وإن تعلق هذا بتجربة أساسية لنوع من «الصوفية» ، قد ثبت أمره بين أمور غيرها ، وبواقع متوفر أيضاً في البوذية التيبتية .

٦ ـ الوجود النسوي

إن اكتشاف صور نسائية في العصر الجليدي الأخير قد طرح مسائل استمر الجدل حولها . وان توزيعها ممتد من جنوب غرب فرنسا حتى بوتيكال في سيبيريا ، ومن ايطاليا في الشمال حتى الرين . . وان التماثيل الصغيرة من ٥ ـ ٢٥ سم ارتفاع ، المنحوتة في الصخر وعلى العظم والعاج قد سميت بشكل مغلوط بالفينوسات des Venus ، والأكثر شهرة منها كان فينوسات ليسبوج de Lespages ويلندوروف في النمسا و/دوردوغم لوسيل/ . مع ذلك وبفضل الحفريات ، بصورة خاصة ، كانت القطع المكتشفة في /غاغارينو/ و/ميزين/ وأوكرانيا أكثر ايضاحا وارشاداً . انها متولدة على مستويات السكن ، وبالنتيجة فهي ذات علاقة بالدين الأهلي . ففي Gagarino وجدت بالقرب من جدران السكن ، ستة وجوه منقوشة على عظم مهموت mahmouth . وهي مفصلة مع بطن بنسبة مبالغ فيها والرأس مجرد عن الملامح ، وان القطع المكتشفة في (ميزين) مقولبة بقوة ، فبعضها يمكن أن يفسر كأشكال نسائية مختصرة لعناصر هندسية (هذا النموذج غالبا ما شوهد في اوروبا الوسطى) ، وغيرها ، يمثل بوضوح بارز جدا الطيور . إن التماثيل الصغيرة مزينة بمختلف الرسوم الهندسية من بينها الصليب المعقوف svastika لتشرح ظرفية وظيفتها الدينية ، وقد ذكر /هانكار Hancar) ان بعض قبائل الصيادين في آسيا الجنوبية نحتوا تماثيل صغيرة تشبيهية من خشب ، تسمى دزولي Dzuli . وفي القبائل حيث أن الدزولات les dzuli فيها هي نسوية ، فان هذه (الأصنام) تمثل الجسد الاسطوري الذي يفترض تحدر كل الاعضاء منه : انها تحمي العائلات والمساكن ، وعند العودة من أعمال الصيد الكبرى يقدم اليها تقدمات من الحبوب والدهن .

وأكثر دلالة هو اكتشاف /جيرازيموف/ في سيبريا . وهو يتعلق بقرية (مالتا mal'ta التي تظهر بيوتها مستطيلة وكانت مقسمة الى قسمين : الأيمن منها مخصص للرجال «لم يوجد فيها سوى الأشياء للاستعمال الذكوري» والايسر مخصص

للنساء ؛ والتماثيل النسوية وجدت حصرا في هذا القسم ، أقرانها في الحارة الذكورية يمثلون طيوراً ، ولكن بعضها قد فسرت كأعضاء تذكير .

ومن المستحيل تحديد الوظيفة الدينية لهذه التماثيل ، ويمكن الافتراض بأنها تمثل الى حد ما القداسة النسوية ، وبالنتيجة القدرات السحرية ـ الدينية للأمهات . ان الغموض المشكل بطريقة الوجود النوعي للنساء لعب دورا هاما في العديد من الأديان ، بدائية كانت أم تاريخية . وان ميزة /لوروا كورهان/ أنه استطاع إلقاء الضوء على الوظيفة المركزية لقطبية الذكورة ـ الأنوثة في جملة الفن /الباليوليتيكي/ ، رسوم نقوش صخرية ، تماثيل ألواح حجرية . لقد استطاع إضافة لذلك إظهار الوحدة لهذه اللغة الرمزية ، بدءاً من اقليم فرنسا حتى سيبريا . انه باستعماله للتحليل الطبوغرافي والاحصائي توصل لنتيجة أن الاشكال (أنواع ، وجوه الخ) والعلامات signes قابلة للتبادل ، فمثلا إن صورة الثور تملك ذات القيمة ـ (مؤنث) ـ مما (للجروح) والعلامات الأخرى الهندسية ، لقد لاحظ أيضا أنه يوجد اقتران بالقيم الذكورية الانثوية ، على سبيل المثال : ثور (مؤنث) وحصان (مذكر) . بتحليلها على ضوء هذه الرمزية ، تتكشف المغارة عن كونها عالماً منظما مثقلا بالمعاني .

ولا يوجد أدنى شك لدى /كورهان/ في أن المغارة هي مقبرة وأن صفائح الحجارة أو التماثيل الصغيرة تكون المقابر النموذجية ولها نفس البنيان الرمزي الذي للمغاور المزينة . مع ذلك فإن هذا الباحث قد قبل أن التركيب الذي ظن أنه أعاد تكوينه ، لم يعلمنا لغة دين العصر الحجري . إن منهجه منعه من الاعتراف (بالاحداث) المثارة في بعض الرسوم الصخرية . في /المشهد/ الشهير /للاسكو/ المفسر من قبل باحثين آخرين كحادث صيد أو مشهد (شاماني) ، لا يرى /لوروا كورهان/ سوى عصفور عائد / لجماعة طوبوغرافية/ والتي «تماثل رمزيا لانسان أو كركدن ، هم بحق جيرانه على الجدار» . ما عدا إكمال الرموز لقيمة جنسية مختلفة «والتي ربما تعبر عن الأهمية الدينية المعطاة لهذه التكاملية» ، فان كل ما استطاع (لوروا كورهان) تقديمه «هو أن التمثيلات تغطي نظاما معقدا جدا وغنيا ، وأنه أكثر غنى وأكثر تعقيدا مما لم يسبق تصوره حتى ذلك الحين» .

ان نظرية لوروا كورهان قد انتقدت من وجهات نظر مختلفة ، فقد انتقدت بصورة خاصة من عدم واقعية قراءة الأشكال والعلامات ، وفي الواقع أنها لم تقيّم الشعائر المصنوعة في المغاور على شكل رمزي(٣١) . ومهما يكن من أمر ، فان انجازه هام ، وأنه قد أظهر الوحدة الشكلية النموذجية والأيديولوجية لفن العصر الحجري ، وقد وضع في الضوء التكاملية للقيم الدينية المموهة تحت علامة /الذكورة/ و/الأنوثة/ . ان رمزية مشابهة تميز مدينة مالتا mal'ta مع قسميها المتميزين المعنيين للجنسين . إن الأنظمة المدخلة لتكاملية المبدئين الجنسيين والكونيات تنتشر أيضا في المجتمعات البدائية وسنصادفها كذلك في الديانات القديمة . ومن الراجح أن هذا المبدأ من التكاملية كان مثاراً في آن واحد من أجل تنظيم العالم ومن أجل تفسير سر خلقه وتجدده الدوري .

٧ ـ شعائر /فكر/ وتصور لدى صيادي العصور الحجرية

إن المكتشفات الحديثة لعلم الحفريات paléontologie تشترك فيما بينها في أنها ترجع دوما لما هو أكثر بعداً في زمن /بدايات/ الانسان والثقافة . فالانسان يظهر أكثر قدما ونشاطه النفسي ـ العقلي أكثر تعقيدا مما كان يُعتقد منذ بضع عشرات من السنين . ومنذ وقت قريب استطاع /الكسندر مارشان/ البرهان عن وجود نسق رمزي بملاحظات زمنية ، في العصر الحجري الأعلى ، مبني على ملاحظة المظاهر القمرية . هذه الملاحظات التي دل عليها الباحث باسم (time -factored) أي مجتمعة دون انقطاع على فترة طويلة ، تسمح بافتراض ان بعض الحفلات الفصلية أو الدورية كانت مثبتة لزمن طويل مسبقاً ، كما يحصل في أيامنا لدى (السيبريين) و/هنود امريكا/ الشمالية . إن هذا /النسق/ من الملاحظات اعتمد منذ أكثر من /٢٥,٠٠٠/ سنة من قبل أناس العصر الحجري المبكر (L'Aurignacien الأوريغناسيان) حتى الماجداليان magdilenien المتأخر . وحسب رأي مارشاك ، فان الكتابة والحساب والتقويم Calendrier بمعنى الكلمة

التي أخذت تظهر في الحضارات الأولى ، ترجع ، على الأرجح ، الى رمزية تغرق (النسق) من ملاحظات مستعملة أثناء العصر الحجري القديم (الباليولتيك)[٣٢] .

وكيفما كان التقييم للنظرية العامة /لمارشاك/ حول تطور الحضارة ، يبقى ان الدورة القمرية كانت قد حللت ، وأعيد التذكير بها ، واستعملت لغايات عملية منذ ١٥,٠٠٠ سنة قبل اكتشاف الزراعة . فمنذئذ فهم بشكل أفضل الدور البارز للقمر في الميثولوجيات القديمة وبخاصة الواقع الذي أدخله الرمز القمري في /نسق/ واحد للحقائق المتنوعة ما للمرأة ، والحياة ، والنبات ، والأفعى والخصب والموت و(عودة الحياة) الخ[٣٣] .

وبتفسير التعرجات المنقوشة على الأشياء ، أو المرسومة على جدران المغاور ، استنتج /مارشاك/ ان هذه الرسوم تشكل /نسقاً/ ، لأنها تمثل ميراثاً وتوضح مقصداً . وان هذا البنيان سبق تأكيده في الرسوم المنقوشة على عظم مكتشف في /بيش دي لازيه/ pech de l'Azé في /دوردونيا/ Dordogne/ ويعود لمستوى حقبة الأشولين Achuleane (حوالي ١٣٥٠٠٠ سنة ق.م) أي على الأقل ١٠٠,٠٠٠ سنة قبل التعرجات المشار اليها العائدة للعصر الحجري الأعلى . وأكثر من هذا ، فان التعرجات (les méandres) قد رسمت حول صور حيوانات وعليها ، مشيرة لبعض الشعائر (عمل فردي بالمشاركة) كما يذكر مارشاك . ومن الصعوبة بمكان تحديد معناها بدقة ، الا أنه بدءاً من ظرف ما (على سبيل المثال رسم بيتسفلدر بادن) فان التعرجات قد مثلت بزوايا متداخلة ومترافقة بأسماك . وفي هذه الحالة فان الرمز المائي aquatique واضح جدا . الا أنه حسب رأي الباحث ، لا يتعلق بصورة للماء فقط ؛ فالخطوط الغير ممكن حصرها والمتروكة بسبب الأصابع والأدوات المختلفة تدل على عمل فردي من مشاركة تلعب الرمزية والميثولوجيا المائية فيها دورها[٣٤] . .

من تحليلات كهذه تستخلص الوظيفة الشعائرية للعلامات والأشكال العائدة للعصور الحجرية ، ويبدو واضحا الآن ان هذه الصور والرموز تنعكس على بعض التواريخ ، أي على أحداث لها علاقتها مع الفصول ومع عادات

الطريدة ، والجنس ، والموت والسلطات الخفية لبعض الكائنات الماورائية ولبعض الشخصيات (المختصة بالمقدسات) . ويمكن اعتبار التقدمات الحجرية كقانون يعني في آن واحد القيمة الرمزية (سحرية ـ دينية) للصور ولوظائفها في الاحتفالات المتعلقة بتواريخ مختلفة . بالتأكيد لا نعلم مطلقا المحتوى الدقيق لهذه التواريخ أو القصص إن صح التعبير ، ولكن الانساق les systemes / التي تحاط بها مختلف الرموز تجيز لنا على الأقل اكتشاف أهميتها في الممارسات السحر ـ دينية للعصر الحجري .

إضافة لذلك فان العديد من هذه النماذج قد تقاسمتها مجتمعات الصيادين .

وكما لاحظنا سابقا ، فانه من المباح اعادة تكوين بعض المظاهر لديانات ما قبل التاريخ بمراقبة الشعائر والمعتقدات الخاصة بالصيادين البدائيين لعصرنا ، ولا يتعلق فقط بمتوازيات للدراسات البشرية éthnographiqué وهي طريقة ، قد طبقت بنجاح قل أو كثر ، من قبل كل الباحثين باستثناء /لوروا غورهان/ و/لامين اميرير/ Lamr'ng- Emerair[٣٥] . ولكن مع الأخذ في الحسبان لكل الفروق التي تفصل بين ثقافة ما قبل التاريخ عن ثقافة بدائية ، يمكن على الأقل تسجيل بعض التصورات الأساسية . لأن عدداً من الحضارات القديمة ، القائمة على الصيد ، والصيد البحري ، والجمع تعيش حاليا على هامش المسكونة في (أرض النار ، في أفريقيا ، وعند الهوكنتوت ، والبوشمان المدارية الخ) . فرغم التأثيرات للحضارات الزراعية المجاورة (على الأقل في بعض الحالات) فإن البنى الأصلية لم تتزحزح حتى القرن التاسع عشر . هذه الحضارات المتخلفة لها مرحلة مشابهة للعصر الحجري الأعلى ، وتشكل ، نوعا ما ، حفريات حية .[٣٦] وبالتأكيد ليست المسألة هي في نقل أناس الحجر القديم للممارسات الدينية والميثولوجيات /البدائيين/ . ولكن ، وكما لاحظنا سابقاً ، فان الوجد من النموذج /الشاماني/ يبدو مؤكدا في وجوده لدى أناس العصر الحجري . وهذا يقتضي من جهة ، الاعتقاد في وجود روح قابلة لأن تترك الجسد وتسافر بحرية في العالم ، ومن جهة أخرى الاقتناع بأنه ، في سفر كهذا ، تستطيع الروح أن تلتقي بعض الكائنات الأعلى من الانسان ، وأن تطلب اليها المساعدة أو التبريك . إن

النشوة أو الوجد الشاماني يقتضي إضافة لذلك امكانية / التملك/ deposseder أي الدخول في الاجساد البشرية ، وكذلك أن تُمتلك (Etre Possedé) من قبل روح ميت أو حيوان ، أو أيضاً من قبل روح أو إله .

ولكي نتذكر مثالاً آخر ، فان فصل الأجناس (٤٦) سمح بافتراض وجود شعائر سرية محجوزة للرجال ومكرسة قبل بعوث الصيد . إن شعائر مماثلة تكون الحصة المخصصة لمجموعات البالغين ، مشابهة لمجتمعات الرجال (Mamer bude) والأسرار تكشف لليافعين عن طريق الطقوس المسارية (initiateqnes) . وقد اعتقد بعض الباحثين أنه وجد الدليل على مسارة (تلقين) كهذا في مغارة (مونتسيان) غير أن هذا التفسير قوبل بمعارضة . ومع ذلك فان قدم الشعائر المسارية لا ريب فيه ، والمشابهات بين عدد من الحفلات المثبتة في نهايات المسكونة /استراليا/ وامريكا الجنوبية والشمالية ، ٣٧ تشهد على تقليد مشترك قائم منذ العصر الحجري .

ففيما يتعلق بالرقص الدائري (مهما كان تفسير آثاره المتروكة من أقدام الشباب على الأرض الغضارية للمغارة ، لا يشك (كورت ساش Curtsachs) في أن هذه الآثار الشعائرية معروفة تماما لأناس العصور الحجرية[٣٨] وعليه ، فان الرقص الدائري منتشر جدا في كل من (اوراسيا ، وأوربا الشرقية ، وماليينيزيا وعند هنود كاليفورنيا الخ» وهو مطبق في كل مكان من قبل الصيادين إن لأجل طمأنة روح الحيوان المفترس ، وان لضمان تكاثر الطرائد[٣٩] وفي الحالتين ، فإن استمراره مع الايديولوجيا الدينية لصيادي العصر الحجري واضحة ، اضافة لذلك فان التضامن /الصوفي/ بين جماعات الصيادين والطريدة يدعنا نفترض عددا من (أسرار المهنة) المحصورة بالرجال ؛ وعليه ، فإن /أسراراً/ مماثلة توصل لليافعين عن طريق المسارات الدينية des initiations .

ان الرقص الدائري يوضح بشكل مدهش استمرار الشعائر والمعتقدات مما قبل التاريخ في الثقافات القديمة المعاصرة . وقد صادفنا أمثلة أخرى . وهنا نعيد الى الذاكرة أن بعض الصور الحجرية في هوجار Hoggar وتاسيلي Tasili يمكن أن

تكون الغازها قد حلت بفضل أسطورة مسارية الرعاية بولز Peuls ، أسطورة منقولة من قبل أحد المتعلمين من مالي للمختصة بالدراسات الافريقية جيرمين ديتيرين Germaine Dieterlen التي نشرتها(٤٠) . ومن جانبه فإن هـ . فون سيكارد في مفكرة مخصصة (لليوي)a Luwe ، قد توصل لاستنتاج ان هذه الاله الافريقي يمثل أقدم عقيدة دينية للصيادين الاور ـ افريفيين Euro africais لعصر يضع له العالم السويدي تاريخا لما قبل ٨٠٠٠ سنة ق . م (٤١) .

وبالجملة يبدو معقولا التأكيد أن عددا من الاساطير كان مألوفا لدى شعوب العصر الحجري ، وفي المكان الأول أساطير المنشأ origine(أصل الانسان ، الطريدة الموت الخ . .) ومثال واحد على ذلك هو أن أسطورة متعلقة بنشأة الكون تخرج mettre en scéne الحياة الأولية ، والخالق ، انساني الشكل ، أو تحت شكل حيوان مائي نازلا لقاع المحيط لكي يجمع المادة الضرورية لخلق العالم . ان الانتشار الكبير لهذه النشكونية cosmogonie وتركيبها القديم يشير لتقليد موروث من أعلى ما قبل التاريخ(٤٢) . وبذات الأمر فان الاساطير والخرافات والشعائر ذات العلاقة مع ارتفاع السماء والطيران السحري (الأجنحة ، رئيس الطيور المفترسة ـ عقاب ـ نسر) . هي مؤكدة عالميا في كافة القارات بدءاً من استراليا وأمريكا الجنوبية حتى القطب الشمالي(٤٣) . وعليه فان هذه الاساطير المدعمة بتجارب حلمية ووجدية والخاصة بالشامانية وقدمها ليس موضع شك كذلك فان الاساطير والرموز لقوس قزح وانعكاساته الأرضية منتشرة جدا ، وهو يعتبر الجسر وصلة الوصل الممتازة مع العالم الآخر . كذلك أجيز افتراض (نسق) متعلق بعلم الكونيات cosmologie مصاغ بدءاً من التجربة الأساسية لمركز العالم centre de monde الذي نظم الفضاء من حوله . وقد سبق لِـ و . غيرت W. Gaerte أن جمع في عام ١٩١٤ عدداً كبيرا من العلامات والصور العائدة لما قبل التاريخ والقابلة لتفسيرها كجبال كوزمية ، وسرات Nombrils للأرض والأنهر النموذجية paradignatiquenls شاطرة العالم في اتجاهات أربع(٤٤) .

أما بالنسبة لاساطير أصل الحيوانات والعلاقات الدينية بين الصياد والطريدة ورب الوحوش الكاسرة ، فمن المرجع انها دونت بغزارة في قوانين مرموز لها في

مرجع دراسة الفن للعصور الحجرية . كذلك من الصعب أن نتخيل مجتمعا من الصيادين مجردا من أساطير حول أصل النار ، في حين أن الكثير من هذه الأساطير تبرز النشاط الجنسي . وأخيرا ، يجب أن يؤخذ دوما في الحسبان التجربة البدئية لقداسة السماء والظواهر السماوية والفضائية . انها واحدة من التجارب النادرة التي تظهر عفويا /العظمة/ والسمو . اضافة لذلك فان الصعودات الوجدية للشامان ، ورمز الطيران والتجربة الخيالية للارتفاع بصفته تحررا من الثقل ، كل ذلك يؤدي الى تكريس الفضاء السماوي كمنبع ومستقر ممتاز للكائنات الما فوق بشرية : آلهة ، أرواح ، أبطال محضرين . الا أن مما له أهميته ذات الدلالة هي (الكشوفات) révelations من الليل والظلمات ، وقتل الطريدة ، وموت عضو من العائلة ، والكوارث الكونية وحوادث أزمات الحماس ، من جنون أو وحشية قتل البشر من أفراد القبيلة .

لقد لعب دور حاسم بتقييم سحري ـ ديني للغة . ففيها سلف كان يمكن لبعض الاشارات أن تدل على التجلي لقوة مقدسة أو سر كوني . ومن المرجح ان اشارات الوجوه البشرية لفن ما قبل التاريخ كانت مثقلة لا بالمعاني فحسب وانما أيضا بالقوة . ان الدلالات الدينية لاشارات التجلي كانت معروفة أيضا من قبل بعض المجتمعات البدائية حوالي نهاية القرن التاسع عشر . وبالأولى فان الابتكار الصوتي أمكن له تكوين مصدر لا ينضب من السلطات السحر ـ دينية . حتى قبل اللغة الملفوظة ، كان الصوت الانساني قادرا لنقل معلومات ، وأوامر ورغبات ، وكذلك لاثارة عالم خيالي ، بنبراته الحادة وبتجديداته الصوتية ، ويكفي التفكير بالمخلوقات الخرافية السابقة للميثولوجيات والسابقة للشعر ، ولكنها رسمية أيضا موقوتة بممارسات أولية للشامانيين في تجهزهم لاسفارهم الوجدية ، أو بواسطة التكرار لمقاطع mandus أثناء بعض التأملات اليوجية مطبقة في آن واحد ايقاع التنفس (prâñaŷama) وتصويرية المقاطع الصوفية) .

وبمقدار إحكام صنعتها ، فان اللغة قد ضاعفت الوسائل السحر ـ دينية . والكلام الملفوظ يثير قوة ، من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل الغاؤها ، ان

معتقدات مماثلة ما زالت تعيش في عدد من الثقافات البدائية والشعبية . ونجدها كذلك في الوظيفة الشعائرية لتعابير سحرية للمديح ، والهجاء ، وفي المثالب واللعنة ، في المجتمعات الأكثر تعقيدا . ان التجربة المثيرة للكلام بصفته قوة سحر ـ دينية قادت أحيانا الى القناعة بأن اللغة جديرة بضمان النتائج المتحصلة من العمل الشعائري .

وباختصار يجب أن يؤخذ في الحسبان ، الفرق بين مختلف نماذج الشخصية . فأحد الصيادين قد يتميز بشجاعته وجرأته ، وآخر بتوتر أعصابه وبانتشائه الوجدي أورعدته الخ . . هذه الفوارق المميزة تستدعي بعض الاختلاف في تقييم وشرح التجارب الدينية . وفي نهاية المطاف ورغم بعض الأفكار الرئيسية الشائعة فان التراث الديني للعصر الحجري قد سبق له أن قدم صورة معقدة لدرجة كبيرة .

حواشي الفصل الأول

١ ـ رغم أن الانسان لم يعد يهتم كثيراً بقيمتها /الوجودية/ فإن تجربة الفضاء أو الحيز l'lopaco الموجه ما زالت مألوفة للانسان في المجتمعات الحديثة .

٢ ـ Karl. Narr . (Appoche to the social life of Ear liet mann . ص ٦٠٦ .

٣ ـ هذه الفكرة القديمة جدا ، كانت تعيش في مجتمعات البحر المتوسط القديمة : فليست الحيوانات فقط قد عوض بها عن الضحايا البشرية «العادة التي كانت منتشرة عالميا ، وانما كان يضحى بالبشر مكان الحيوانات (انظر والتربوركت Walter Burkest) ـ المرجع ص ٣٤ .

٤ ـ تطبيقات لهذه الطريقة بدقة سيتوصل إلى تاريخ القصص الجرمنية من ١٨١٢ ـ ١٨٢٢ بواسطة الاخوة Grirns .

٥ ـ ٦ ـ ر . مارينكر g. maringer ـ آلهة رجال عما قبل التاريخ ص ١٨ .

٧ ـ ان لوروا ـ غورهان لم يقتنع أن الانسان قد قتل وافترس (كتاب ديانات شعوب ما قبل التاريخ ص ٤٤) .

٨ ـ ذات المرجع ، ص ٥٤ .

٩ ـ المكتشفات الحفرية الحديثة برهنت على أن حجر الدم Heneatile كانت مستخرجة من منجم في /سويزرلاند/ منذ ٢٩,٠٠٠ سنة ، ويوجد ٤٣,٠٠٠ سنة في روديسيا . ان استخراج /الليماتيت/ من هذه المناجم في افريقيا قد امتد خلال ألوف السنين . واكتشاف استئجار مشابه بالقرب من بحيرة بالاتون في هنغاريا نحو ٢٤,٠٠٠ ق.م يعزز الامكانيات التقنية للانسان القديم واتساع معاملاته .

١٠ ـ حسب لوروا غورهان (يتعلق بكوب حطام مطبخي يرتكز عليه رفات بشرية غالبا ما يكون مخربا أو منقولا من مكانه /ص ٥٧ .

١١ ـ يشار الى أن علماء آخرون يقدرون أن عدد /الوثائق/ الرسمية المكتشفة في العثور هي أكثر من هذا بكثير.
١٢ ـ ريشيل ـ دولماتوف ص ٥٥٥ .
١٣ ـ في الواقع ، كان تقريبا غير معلوم قبل ملاحظات ريشيل دولماتوف .
١٤ ـ هذه العادة منتشرة جدا ، وهي تعيش ايضا في اوروبا الشرقية ، حيث أن الموتى من الشباب يزوجون شجرة صنوبر .
١٥ ـ ج ـ مارينجر ـ اسم المرجع ـ ص ٢٧ (آلهة رجال ما قبل التاريخ) .
١٦ ـ يتعلق بشعيرة هامة جدا ، روح الذئب قد أرسلت كرسالة من الأشخاص من قبل الآلهة الحامية بهدف ضمان نجاح الصيد في المستقبل .
١٧ ـ مارينجر (المرجع السابق) .
١٨ ـ م . الياد . الشامانية والتقنية القديمة للوجود .
٢٠ ـ لوروا ـ غورهان .
٢١ ـ ذات المؤلف اعتمد تاريخ تسلسل الاحداث ومظاهر أعمال الفن الحجري والمتميز في ، خمسة أدوار بدءاً من عصر gréfiguratise (٥٠,٠٠٠ ق . م) يتبعه العصر البدائي (٣٠,٠٠٠ ، م) حيث ظهرت صور نموذجية بدقة والفترة القديمة حوالي (٢٠,٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠) المميزة بدقة ، لصناعات فنية والفترة التقليدية naydelenc حوالي ١٥,٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠م مع واقعية الاشكال r النافرة ، لكي تنتهي وتحمي في الفترة المتأخرة حوالي (١٠,٠٠٠ ق . م) .
في الفترة المتأخرة حوالي (١٠,٠٠٠ ق . م) .
٢٢ ـ Casteret و Begonen اعادا تكوين كل شعيرة بدءاً من قالب الطين لدب مونتسبان .
٢٣ ـ Charet شرح انطباعات الاقدام البشرية في المغارة تدليل لمسارة أطفال ، وقد قبلت الفرضية من عدد من الباحثين .
٢٤ ـ Rosen feld و Ucko .
٢٥ ـ وجدت عصي طبول من العظم في جزيرة oleny في بحيرة Barons في مخبأ يعود لحوالي (٥٠٠ ق . م) .
٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ مراجع حول الشامانية .
٣١ ـ Rosafeld و U, Ko ص ١٩٥ .
٣٢ ـ جذور الحضارة ـ مارشان ص ٨١ .
٣٣ ـ م ـ الياد تاريخ الاديان فصل .
٣٤ ـ يقدر مارشان أن تقليد التعرجات لا تفسر بسحر الصيد أو الرمز الجنسي فجملة حبة الماء ـ المطر ـ الغيوم ، العاصفة توجد في العهد النيوليتي في استراليا وافريقيا والأمريكتين .

٣٥ ـ ما جذب انتقاد Uika أن هذا الكاتب بعد أن أعاد الى الذاكرة بعض الأمثلة حيث أن المقارنة الايتيوغرافية أضاءت بعض مظاهر المجتمعات لما قبل التاريخ ، قدم تحليلاً للفن الباليوليتكي على ضوء الوقائع الاسترالية والأفريقية .

٣٦ ـ يذكر أن مفهوم (الحفريات الحية) قد استعمل بنجاح في عدد من فروع البيولوجيا وعلى الأخص في السوسيولوجيا . ان سكان الكهوف الذي يسكنونها اليوم ينتمون الى جماعة خاصة fame (حيوان) منذ زمن طويل نص «انهم حفريات حقيقية حية ويمثلون غالبا مراحل قديمة جديا من تاريخ الحياة ثلاثي وحتى ثنائي» وان المغاور المحتفظة هكذا بجماعات قديمة هامة جدا اذا شيئا معرفة جماعات الزونورفيك البدائية الغير قابلين للمحو .

٣٧ ـ م . ابياد ـ نشأة الأساطر .

٣٨ ـ ٣٩ ـ تاريخ الرقص العالمي ـ كورث ساش . .

٤٠ ـ ٤١ ـ المراجع المذكورة .

٤٢ ـ انظر الشرح المقارنة لكل هذه المتغيرات في كتاب المؤلف من زالموسكي حتى جينكزخان .

٤٣ ـ انظر الشرح المقارن في كتاب المؤلف أساطير وأحلام وغرائب . والشامانية . والديانات الاسترالية .

٤٤ ـ W. Gderto ـ والأمثلة التي ذكرها تعود الى ثقافات ما قبل التاريخ الأقرب .

٤٥ ـ عند بعض القبائل الاسترالية في الشمال ، اما الشعيرة الرئيسة لادخال فتاة في الدين تتطلب احضارها منفردة ، امام المجموعة ويعرض انها راشدة او بعبارة اخرى مهيأة لتحمل المقتضيات الخاصة بالنساء أو اظهار بعض الاشياء الشعائرية والمتعلقة باشارة لموضوع أو حيوان وعندها يكون اعلان حضور مقدسي , . .

الفصل الثاني

أطول ثورة : اكتشاف الزراعة

العصر الحجري القديم الأوسط Mesolithi Que

العصر الحجري الجديد Neolithique e N

٨ ـ فردوس مفقود :

إن نهاية العصر الجليدي ، حوالي ٨٠٠٠ سنة ق .م قد غيرت الاقليم ومظهر الطبيعة بطريقة جذرية ، وبالنتيجة زراعة وحيوانات أوروبا في شمالي الألب . وان انحسار الثلوج والجليد استدعى هجرة الحيوانات نحو الاقاليم الشمالية . فأخذت الغابات تحل تدريجيا محل السهوب القطبية . وسيتبع الصيادون الطريدة ، وبصورة خاصة قطعان الرنة ، ولكن ندرة الحيوان أجبرهم علىٰ الاستقرار في سواحل البحيرات وعلىٰ الشطآن والعيش علىٰ الصيد البحري . ان الثقافات الجديدة التي تكونت خلال الألوف الأخيرة من السنين قد عرِّفت تحت

مصطلح العصر الحجري القديم الأوسط Més olithique . وهي في اوروبا الغربية أكثر فقراً من الابداعات الكبرىٰ للعصر الحجري الأعلىٰ ، وعلىٰ العكس ، ففي آسيا من الجنوب الغربي وبصورة خاصة في فلسطين ، فإن (الميزولتيك) يشكل عصراً محورياً : انه عصر تدجين الحيوانات الأولىٰ وبدايات الزراعة .

اننا نعرف القليل عن الممارسات الدينية للصيادين الذين لحقوا بقطعان الرنة في شمال اوروبا . ففي مستودع الطين لمستنقع في (ستلمور) بالقرب من (هامبورغ) وجد الباحث أ . روست A . Rust بقايا اثنيْ عشر رنة بكاملها ، غائصة مع الحجارة في القفص الصدري أو في البطن . وقد فسر (روست) وباحثون آخرون هذا العمل كتقدمة من البكوريات للآلهة ، وعلىٰ الأرجح الىٰ رب الوحوش الكاسرة . غير ان بوهلاوزن H . Pohlhausen قد أعاد إلىٰ الذاكرة أن الاسكيمو يحفظون المؤونة من اللحم في الماء المتجمد للبحيرات والأنهر[١] ، ومع ذلك ، ـ كما اعترف بوهلاوزن نفسه فإن هذه الايضاحات التجريبية لا تستبعد المقاصد الدينية لبعض المستودعات . وفي الواقع ان التضحية بالاغراق قد ثبتت بشكل واسع ، وعلىٰ عصور مختلفة من اوروبا الشمالية حتىٰ الهند[٢] .

إن بحيرة (ستيلمور) كانت معتبرة ، علىٰ الأرجح (مكانا مقدساً) من قبل صيادي الميزوليتيك وقد التقط (روست) من المستقر عدداً من الأشياء : سهاماً من خشب ، أدوات من عظم ، فؤوساً مقدودة في قرون الأيّل (الرنة) ، وبالتأكيد انها تمثل تقدمات . كما هي الحالة لموضوعات عصر البرونز ولعصر الحديد التي وجدت في بعض البحيرات والغدران من أوروبا الغربية .

بالتأكيد ، ان أكثر من خمسة آلاف سنة تفصل المجموعتين من هذه الأشياء ، ولكن استمرارية هذا النموذج من الممارسة الدينية ليست موضع شك . ففي النبع المسمىٰ (سانت ـ سوفور) أو القديس المنقذ في (غابه كومبين Foretde Compigne اكتشفت حجارة من الصوان تعود للعصر (النيوليتي) (مكسرة قصداً بعلامة نذر Ex - Voto) ، واشياء من زمن الغاليين والغالو ـ رومان Gaulois et des Gallo - Romains ، ومن القرون الوسطىٰ حتىٰ يومنا[٣] . ويجب أن يؤخذ

في الحسبان أيضاً واقعة أن الممارسة في هذه الحالة الأخيرة ، قد استمرت رغم التأثير الثقافي لروما الامبراطورية وعلىٰ الأخص ، رغم التحريمات المكررة من قبل الكنيسة . واضافة لفائدة هذا المثال الجوهرية فإن له قيمة نموذجية : إنه يعزز باعجاب استمرارية الأمكنة المقدسة وبعض الممارسات الدينية .

كذلك فإن (روست) قد اكتشف في المرقد الميزوليتيكي في (ستيلمور) إناء من خشب الصنوبر مع جمجمة غزال رنة موضوعة في القمة . وحسب رأي (مارينجر) فإن هذا الاناء الشعائري يدل على الأرجح علىٰ وجبات طعام شعائرية : كان لحم الرنة يؤكل ، وكانت رؤوسها تقدم لكائن الهي . وغير بعيد عن (اهرنبورغ هو فنباخ) ؛ في محطة نيوزيلتيكية تعود الىٰ ١٠,٠٠٠ سنة ق . م اكتشف (روست) في قاع المستنقع جذع شجرة صفصاف بطول ٣,٥ م منحوتة بخشونة : ويميز فيها الرأس ، وعنق متطاول وخطوط كبيرة مشققة ، وهي حسب رأي الباحث . مكتشفها ـ تمثل الأيدي . وقد غرس هذا (التمثال) في المستنقع ، الا انه لا يوجد حوله لا عظام ولا أشياء من أي نوع . إنه يتعلق بالتأكيد بصورة كائن مما فوق الطبيعة مهما استحال تحديد بنيته بدقة[٤] .

وإلىٰ جانب فقر هذه الوثائق القليلة لدىٰ صيادي الرنة ، فإن الفن الصخري لاسبانيا الشمالية يهيء لمؤرخ الأديان مادة هامة . ان الرسم الصخري من الباليوليتيك الأعلىٰ قد تحول ، في (الشرق الإسباني) إلىٰ فن هندسي صلب وشكلي : فالجدران الصخرية (لسيرا مورينا) مغطاة بصور أشكال بشرية وحيوانية (بصورة خاصة ما عزجبلي وغزلان) مختصرة ببعض خطوط ، وعلامات مختلفة (شرائط متموجة ، دوائر ، نقاط شموس) . وقد اوضح الباحث (هوغواوبرماير) ان هذه الصورالبشرية تتقارب من الرسوم المميزة للحصىٰ المرسومة في (الازيليين L , Azilien [٥]) . وطالما ان هذه الحضارة متفرعة عن اسبانيا فإن التقدمات البشرية المسجلة علىٰ الجدران الصخرية وعلىٰ الحصى يجب ان يكون لها مدلولات مشابهة . لقد جرى تفسيرها كرموز قضيبية (ذكورية) وكعناصر لكتابة أو اشارات سحرية . ويبدو اكثر اقناعاً مقارنتها مع التجوروكا Tjuruga الاوسترالية . ومعروف ان هذه الاشياء الشعائرية ، والتي هي غالبا

ما تكون من الحجارة ومزينة بمختلف الرسوم الهندسية ، تمثل الأجسام الاسطورية للاجداد . ان (التجورونكات) Les Tjurenga لا مخبأة في مغارات أو مدفونة في بعض أمكنة مقدسة ، ولا توصل إلىٰ الشباب إلا بنهاية فترة تلقينهم أومسارتهم في الدين . وعند (الأراندا Les Aranda) يتوجه الأب إلىٰ ابنه بهذه الكلمات : «ها هو جسدك الخاص الذي خرجت منه بولادة جديدة» أو : «ان هذا هو جسدك الخاص . انه الجسد الذي كنته ، أثناء وجودك السابق ، الذي سحت فيه . ثم تنزل في المغارة المقدسة لترتاح فيها[٦]» .

في حالة ما اذا كان للحصوات المرسومة بمغارة (ماز دازيل Mas d. Azil) ، كما يبدو مرجحا ، وظيفة مشابهة لوظيف (التجوروكا) ، فإنه من المستحيل معرفة ما اذا كان صانعوها قد تشاطروا الأفكار المتشابهة التي توجد لدىٰ الاستراليين . ومع ذلك ، لا يمكن الشك في وجود المعنىٰ الديني للحصيات الأذيلييه Azilien ففي مغارة (بيرسيك Birsek ، في سويسرا وجد ١٣٣ حصاة مرسومة ، وكلها مكسرة تقريبا . ويبدو من المقبول انها قد كسرت من قبل اعداء أومن قبل محتلين من خارج المغارة . وفي الحالتين قد اتبع ذلك إبطال القوة السحرية ـ الدينية الماثلة في هذه الأشياء . ومن المحتمل ان المغاور والأمكنة المزينة برسوم حجرية من الشرق الاسباني كانت تشكل أمكنة مقدسة . أما بالنسبة للشموس والعلامات الهندسية الاخرى التي ترافق التصويرات البشرية ، فإن معانيها مازالت غامضة[٧] .

وليس لدينا أية وسيلة كي نحدد بدقة أصل وتطور المعتقد بالاجداد في ما قبل التاريخ . وبتفحص هذا تبعاً للمتوازيات الاتنوغرافية ، فإن هذه المعضلة الدينية ، تكون قابلة لمقارنة وجودها مع العقيدة بالكائنات الما وراء طبيعية أو ارباب الوحوش الكاسرة . فلا يعرف لماذا ان فكرة الاجداد الاسطوريين لا تشكل جزءاً من نظام ديني للباليوليتيك : انها متضامنة بمتولوجيا ، الأصول ـ أصل العالم ـ أصل الطريدة . . الانسان ، الموت ، المميزة لحضارات الصيادين ، اضافة لذلك انها تتعلق بفكرة دينية واسعة الانتشار وخصبة ميتولوجياً ، لأنها قائمة في كافة الأديان ، حتىٰ الأكثر تعقيداً منها (باستثناء بوذية هينايانا) . قد يحصل ان

فكرة دينية قديمة تتفتح بطريقة غير منتظرة في بعض العصور وتبعاً لبعض الظروف الخاصة . واذا كان صحيحا ان الفكرة بالجد الاسطوري وعبادة الاجداد تسودان الميزوليتيك الأوروبي ، فمن المرجح ـ كما يعتقد مارينجر ـ ان الأهمية لهذا التعقيد الديني يفسر بتذكر العصر الجليدي ، عندما كان الاجداد القدامىٰ يعيشون في نوع من (فردوس الصيادين) .

وفي الواقع ، ان الاستراليين يعتبرون ان اجدادهم الاسطوريين قد عاشوا في العصر الذهبي ، في جنة ارضية ، حيث تكثر الطريدة ، وحيث ان مفاهيم الخير والشر كانت عمليا غير معلومة[٨] وان هذا العالم الفردوسي هو الذي جهد الاستراليون لاعادة احيائه خلال بعض الأعياد ، عندما يعلقون مسرىٰ القوانين والمحظورات .

٩ ـ العمل ، التكنولوجيا والعوالم الخيالية

كما قلنا ، في الشرق الأوسط ، وبصورة خاصة في فلسطين يسجل (الميزوليتيك) عصراً خلافاً محتفظا تماما بصفته ، كصلة بين نموذجين من الحضارات ، حضارة الصيد والجمع والحضارة المبنية علىٰ زراعة الحبوب . ان الصيادين في العصر الحجري الأعلىٰ ، في فلسطين ، يبدون انهم قد سكنوا المغاور لفترة طويلة . ولكن هؤلاء هم بصورة خاصة حملة الثقافة النطوفية[٩] الذين اختاروا وجوداً مستقراً صرفا . لقد سكنوا المغاور كما سكنوا منازل في الهواء الطلق (كما هو الحال في عينان Einan ، حيث ظهر للوجود قرية صغيرة مؤلفة من أكواخ دائرية مجهزة بمواقد) . ان النطوفيين قد اكتشفوا الأهمية الغذائية للحبوب البرية التي حصدوها بمناجل من حجر وقد استخرجوا الحبوب في جرن ومدقة[١٠] لقد كان هذا خطوة إلىٰ الأمام نحو الزراعة . ان تدجين الحيوانات قد بدأ أيضاً اثناء (الميزوليتيك) (رغم كونه لم يعمم الا مع بداية النيوليتيك) : الخروف في (زاوي شومي ـ شانيدر) ؛ نحو ٨٠٠٠ ق .م . والتيس في جرش .

الأردن حوالي ٧٠٠٠ ق .م والخنزير حوالي ٦٥٠٠ ق . م والكلب في (ستان كار) Stan Carvr ، في انكلترة حوالي ٧٥٠٠ ق .م[١١] .

ان النتائج الفورية لاستخدام النجيليات النباتية والقرنية ظهر مع انتشار السكان ونمو التجارة وهي مظاهر مميزة للنطوفيين .

وخلافاً للتخطيط الهندسي المميز لرسوم ولصور عهود (الميزوليتيك) الأوروبية ، فان فن النطوفيين هو فن طبيعي : فقد صنعوا تماثيل صغيرة للحيوانات وصور صغيرة للبشر ، أحيانا في وضع جنسي[١٢] . وان الرمز الجنسي لمدقات يد الجرن المنحوتة على شكل قضيب الذكر واضحة بما لا يدع مجالاً للشك حول معانيها السحر ـ دينية .

إن النموذجين من مقبرة نطوفية ـ أ) دفن الجسم بكامله في وضع منحني ، ب) طمر الجماجم ، كانا معروفين من عهد (الباليوليتيك) الحجري وامتدت في (النيوليتيك). وبشأن الهياكل العظمية المكتشفة في (عينان Einan[١٣] فقد افترض ان ضحية بشرية قد ضحي بها بمناسبة الدفن ولكن مدلولها الشعائري مجهول . أما بالنسبة إلى مستودعات الجماجم ، فقد جرت مقارنة الوثائق النطوفية مع المستودعات المكتشفة في (اوفنت Offent وبافير Baviere ومغارة هوهلنستن Hohlennten وفي ويرتنبورغ : كل هذه الجماجم كانت تعود لأفراد ربما ذبحوا من قبل صيادي الرؤوس أو من قبل أكلة لحرم البشر[١٤] . وفي الحالة الأولى كما في الحالة الأخرى ، يمكن استخلاص تصرف سحر ـ ديني ، باعتبار ان الرأس (النخاع ، كان معتبراً المركز للروح .

منذو قت طويل وبفضل الأحلام والتجارب الوجدية وما قبل الوجدية ، عرف وجود عنصر مستقل عن الجسم ، اشارت إليه اللغات الحديثة بمصطلحات (الروح) (النفس) (النفخة) الحياة ، المضاعف Double الخ . . . هذا العنصر الروحاني «يمكن تسميته باعتبار أنه متداخل في عدد من الخيالات الرؤوية الخ» كان ماثلا في الجسم بكامله؛ وكان يشكل بنوع ما المضاعف له (Son Double) . ولكن تحديد (الروح) في الدماغ كان له اعتبارات ذات شأن[١٥] : فمن جهة

اعتقد بامكانية تمثل العنصر (الروحي) للضحية باستهلاك دماغه ؛ ومن جهة اخرىٰ ، غدت الجمجمة كمنبع للقوة موضع طقس Culte .

واضافة لذلك في الزراعة ، اتخذت اختراعات اخرىٰ مكانها أثناء (الميزوليتيك) وأكثرها أهمية كان القوس وصناعة الحبال ، والشباك وصنارة الصيد للسمك والمراكب المؤهلة لسفرات طويلة ، وكبقية الاختراعات المسبقة (أدوات من الحجر ، بعض الموضوعات المصنعة من العظام وقرون الأيائل ، ثياب وخيام مصنوعة من الجلد الخ . . . » كذلك التي ستتم خلال (النيوليتيك) (بالمكان الأول الآنية) فكل هذه المكتشفات أثارت ميتولوجيات وأساطير وأحياناً أقامت معطيات طقوسية . ان القيمة التجريبية لهذه الاختراعات واضحة جداً ، وأقل من ذلك النشاط التخيلي المثار بالعلاقة الصميمية مع مختلف أشكال المادة . بالتعامل مع الصوان أو الابرة البدائية ، وبالوصل لجلود الحيوانات أو الواح الخشب ، وبتحضير صنارة الصيد أو حربة السهم ، وبصقل تمثال صغير من الطين ؛ يكشف الخيال عن مشابهات لا يشك فيها بين مختلف مستويات الواقع ؛ والأدوات والأشياء جميعها مثقلة بما لا يحصى من الرموز ، وعالم العمل ـ العالم الصغير Lemicro - Univers الذي يثير انتباه الصانع أثناء الساعات الطويلة ـ يغدو مركزاً سرياً ومقدساً غنياً بالمعاني والدلالات .

ان العالم الخيالي المخلوق والذي يثرى باستمرار بالصلة الصميمية مع المادة ، لا يكفي لتلمسه في المتبكرات التصورية ، أو الهندسية بمختلف ثقافات ما قبل التاريخ . الا انه مقبول بالنسبة لنا في تجارب خيالنا الخاص . ان هذه الاستمرارية بصورة خاصة علىٰ مستوىٰ النشاط الخيالي هي التي اجازت لنا ان (نعرف) بوجود اشخاص احياء في تلك العصور السحيقة في بعدها . ولكنه خلافا لانسان المجتمعات الحديثة ، فإن النشاط الخيالي لانسان ما قبل التاريخ كان مجهزاً بقاعدة ميتولوجية . ان عدداً من أشكال ما وراء الطبيعة والفصول الميتولوجية التي سنصادفها في التقاليد الدينية التالية ، تمثل برجحان كبير مكتشفات العصور الحجرية .

١٠ ـ تراث الصيادين الباليوليتيك .

ان النجاحات المتحققة اثناء (الميزوليتيك) وضعت نهاية للوحدة الثقافية لأهل (الباليوليتك) وأطلقت الفوارق والتباعدات التي ستصبح منذئذ الميزة الاساسية للحضارات . ان بقايا مجتمعات الصيادين الباليوليتيكية بدأت تخترق في المناطق الهامشية أو المقبولة بصعوبة : كالصحراء ، والغابات الكبيرة والجبال . ولكن هذه العملية من التباعد وعزلة المجتمعات الباليوليتيكية ، لا يستدعي فقدان المعطيات والروحانية الخاصة بالصياد . . فالصيد كوسيلة لاستمرار البقاء امتد في المجتمعات الزراعية .

ومن الراجح أن عددا من الصيادين ، الذين رفضوا المشاركة بفعالية في اقتصاد المزارعين ، استخدموا كمدافعين عن القرى ؛ في البدء ضد الحيوانات المتوحشة التي كانت تمزق المستقرين وتتلف الحقول المزروعة ، وبعدئذ ضد العصابات من النهابين ، كذلك من الراجح أن التنظيمات الحربية الأولى كانت تشكل بدءاً من هذه المجموعات من الصيادين المدافعين عن القرى . وكما سنرى بعد قليل فان المحاربين ، والفاتحين والارستقراطيين المحاربين مدوا رمزية وايديولوجيا الصياد النموذجي .

ومن جهة أخرى فان الأضحيات الدموية ، المخترعة أيضا من قبل المزارعين كما هي مخترعة من قبل الرعاة ، تعيد في آخر المطاف ، إماتة الطريدة من قبل الصياد . ان تقدمة ، اختلطت مع الطريقة البشرية (أو على الأقل الذكورية) أثناء مليون أو مليوني سنة في الوجود ، لا يمكن حذفها بسهولة

عدة ألوف من السنين بعد انتصار الاقتصاد الزراعي ، وتعاد الرؤية العالمية laweltanschauny(x)للصياد البدائي من جديد لتشعر بوجودها في التاريخ . وفي الواقع ، ان الغزوات والحروب الهندو ـ أروبية والتركو ـ منغولية ستكون مشروعات تحت علامة الصياد . آكل اللحوم بامتياز . ان اعضاء الأخوة confréries العسكرية mämerbeundeالهندو ـ أوروبية والفرسان البدو في آسيا الوسطى سيعتبرون في نظر

السكان المستقرين الذين هاجموهم كأكلة اللحوم التي تصيد ، وتخنق وتفترس ، أكلة العشب في السهوب أو قطعان المزارعين ، وان العديد من القبائل الهندو ـ اوروبية والتركو ـ منغولية كان لديهم رموز للحيوانات المفترسة (في المكان الأول منها الذئب) وكانوا يعتبرون أخلاف جد أسطوري حيواني . وإن المبادهات العسكرية للهندو اوروبيين استوجبت تحولا شعائريا بذئب : المحارب المثالي المتملك لمعطيات آكل اللحوم .

من جهة أخرى ، فان المطاردة ، واماتة حيوان متوحش أصهب تصبح النموذج الأسطوري لغلبة اقليم ولبناء دولة [١٦] . عند الاشوريين ، والايرانيين والتركو ـ منغول تتشابه تقنيات الصيد مع الحرب لدرجة أنها تتوحد . وفي كل مكان من العالم الاوروبي الاسيوي ، ومنذ ظهور الاشوريين حتى بداية العصر الحديث كان الصيد يشكل في آن واحد التعليم الأمثل والرياضة المفضلة للأقيال والكبراء والارستقراطية العسكرية . ومن جهة أخرى فان الاحترام الخرافي لوجود صياد بالنسبة للمزارعين المستقرين ما زال معتمدا ايضا لدى عدد من السكان البدائيين[١٧] . ان مئات ألوف السنين التي تعاش في نوع من التكافل الصوفي مع عالم الحيوان قد تركت آثارا لا تمحى . وأكثر من ذلك ، ان الوجد التهتكي قابل لتحيين المعطى الديني لأناس العصر الحجري الأوائل ، عندما كانت الطريدة تفترس نيئة ؛ الأمر الذي وصل لليونان ، عند عبدة ديونيزوس (١٢٤ ع م) أو أيضاً ، في بداية القرن العشرين لدى الايساووا les Aissaoua في مراكش

١١ ـ تدجين النباتات الغذائية ـ أساطير المنشأ

منذ عام ١٩٦٠ أصبح معروفا أن القرى قد سبقت في اكتشاف الزراعة . وهذا ما كان دعاه الباحث غوردون تشايلد Gordon Child (الثورة النيوليتيكية) وهذا ما تم تدريجيا ما بين ٩٠٠٠ ق .م و٧٠٠٠ق .م ، ومعروف أيضا أنه خلافا لما كان يظن حتى وقت قصير ، ان حضارة التدجين والتأهيل للحيوانات قد سبقت صناعة الآنية . ان

الزراعة ، بمعنى الكلمة ، أي زراعة الحبوب ، قد تطورت في آسيا من الجنوب الغربي وفي أميركا الوسطى . وزراعة الخضار التي تتطلب اعادة الجني النباتي للدرنات والجذور أو الساق الأرضية ، يبدو أنها حصلت على أصلها في السهول الرطبة الاستوائية من أمريكا وآسيا الجنوب شرق .

وما زالت غير معلومة جيدا قدمية الزراعة البقولية وعلاقاتها مع زراعة الحبوب . ان بعض علماء الاجناس ميّالون لاعتبار زراعة البقوليات كأنها أكثر قدما من زراعة الحبوب ، وبعضهم ، على العكس ، يقدرون انها تمثل تقليدا مضعفاً للزراعة . ان واحدة من الاشارات النادرة المتحققة قد قدمت من قبل الحفريات الجارية في أمريكا الجنوبية . ففي حقول (رانشو بيلودو) في فنزويلا وفي /موميل/ في كولومبيا ، اكتشفت بقايا آثار (المانيهوت manioc = نبات يستخرج من جذره نشويات) فوق مستوى زراعة الذرة الصفراء ، الأمر الذي يعني سبق زراعة البقوليات[١٨] . ومنذ وقت قريب ظهر في تايلاند دليل جديد عن قدم البقوليات : ففي (مغارة الأشباح) جرى نبش حمص مجنى ، وفول وجذور نباتات استوائية . وأظهر التحليل باشعاع الكاربون radiocarbon تواريخ لها تعود لما حوالي ٩٠٠٠ سنة ق .م ، من غير المفيد التأكيد على أهمية اكتشاف الزراعة بالنسبة لتاريخ الحضارة ، فعندما أصبح الانسان منتجا لغذائه توجب عليه تعديل معطيات أجداده . وقبل كل شيء ، توجب عليه اتقان تقنية بحساب الزمن ، الذي سبق اكتشافه في (الباليوليتيك) ولم يعد يكفيه ضمان دقة بعض التواريخ المستقبلة بمساعدة تقويم (روزنامة) قمرية متخلفة . فمنذئذ ، كان المزارع ملزماً لأن يُعد مشروعاته لعدة أشهر قبل تطبيقها ، وملزما بانفاذها ، في نظام دقيق ، ومجموعة من النشاطات المعقدة بهدف الوصول الى نتيجة متباعدة ، وعلى الأخص في البداية ، فلا شيء مؤكد : المحصول ، اضافة لذلك فان جني النباتات فرض تقسيماً للعمل مختلف التوجيه عما في السابق ، لأن المسؤولية الأساسية في ضمان وسائل العيش أصبحت منذئذ تعود على النساء .

ان نتائج اكتشاف الزراعة لم تكن قليلة الاعتبار بالنسبة للتاريخ الديني للبشرية ، ان تدجين النباتات قد أوجب حالة وجودية لم تكن مقبولة سابقا ؛ انها بالنتيجة حثت على (انشاءات) ، اختراعات ، وتغير أو قلب للقيم التي غيرت العالم الروحي للانسان ما

قبل النيولتيك تغييرا جذريا . وسنحلل قريبا هذه (الثورة الدينية) المتعشة بانتصار زراعة الحبوب . وهنا ، نعيد الى الذاكرة الأساطير التي تشرح المصدر لنموذجين من الزراعة . فبتلقينا الكيفية التي فسر بها المزارعون ظهور النباتات الغذائية لم نعرف في نفس الوقت التبرير الديني لتصرفاتهم . ان الأكثرية من أساطير المنشأ قد جمعت من لدن الشعوب البدائية المبتكرين سواء زراعة البقوليات وسواء زراعة الحبوب (ان أساطير من هذا النوع أكثر ندرة ، وأحيانا أعيد تفسيرها في الثقافات المتطورة) . ان ثمة موضوعا منتشرا لحد ما يوضح أن الدرنات والأشجار المثمرة الغذائية (جوز الهند والموز . . الخ) قد تولدت من آلهة مضحى بها . والمثل الأكثر شهرة يأتي من (ثيران) واحدة من جزر غينيا الجديدة : فمن جسم ممزق ومدفون لفتاة نصف الهة تدعى (هانيويل) نبتت نباتات غير معهودة حتى ذلك الحين ، وفي المكان الأول الدرنات . ان هذا القاتل الأول primordial قد غيّر جذريا الشرط الانساني ، لأنه أدخل الجنس والموت ، وأقام المؤسسات الدينية والاجتماعية التي ما زالت قائمة . ان الموت العنيف للفتاة (هاينويل) ليس موتا (خلاقا) فقط ، انه أجاز للربة لتكون باستمرار حاضرة في الحياة البشرية ، وحتى في الموت . بتغذيتها من النباتات الناتجة عن جسمها ذاته ، تتغذى ، في الحقيقة ، مادة الالوهية ذاتها .

لن نؤكد على الأهمية لهذه الأسطورة عن الأصل بالنسبة للحياة الدينية ولثقافة الباليوتيك المزارعين : وانما يكفي القول أن كل النشاطات المسؤولة (حفلات البلوغ ، التضحية بالحيوانات ، أو التضحية البشرية ، أكل لحم الانسان ، الحفلات الجنائزية الخ . .) انما تشكل بكل معنى الكلمة احياء لذكرى القتل الأول[٢٠] .

وان نمانه دلالته . إن المزارع يشرك القتل بالعمل ، العمل المسالم بامتياز ، الذي يضمن له الوجود ؛ بينما انه في مجتمع الصيادين تناط مسؤولية المذبحة بآخرٍ ، (بأجنبي) يعرف الصياد : بأنه يخاف انتقام الحيوان المصاد (وبدقة أكثر انتقام روحه) أو أنه سيحاكم أمام رب الحيوانات المفترسة أما بالنسبة لمزارعي العصر الحجري ، paloculivateursفان اسطورة القتل الأول تبرر بكل تأكيد بشعائر دموية مثل الأضحية البشرية وأكل لحم الانسان ، الا انه من الصعب التحديد بدقة لمفهومه الديني الاصلي .

ان موضوعاً اسطوريا مشابها يشرح أصل النباتات الغذائية ـ الدرنات كما هو الشأن في الحبوب ـ كما لو أن هذا الأصل جاء من فضلات (براز excrftions) أو شحم آلهة من جد اسطوري . وعندما اكتشف المتنفعون الأصل المثير للتقزز لهذه الأغذية قتلوا الفاعل ؛ الا انهم اتباعا لنصائحه ، قطعوا جسده ودفنوا الأجزاء المقطعة . فالنباتات الغذائية وعناصر أخرى من الزراعة (أدوات زراعية ، دودة الحرير الخ) نبتت خارج الجثة(٢١) .

ان معنى هذه الاساطير واضح : النباتات الغذائية مقدسة لأنها مشتقة من جسم الهي (لأن البراز والسخم تشكل أيضا جزءاً من المادة الالهية». فبالتغذية يأكل الانسان في اللحظة الاخيرة كائنا الهيا . ان النبات الغذائي ليس (معطى) في الدنيا كما هو بالنسبة للحيوان . انه الحصيلة لحادث مأساوي بدائي ، وبهذه الحالة : حصيلة قتل . وسنرى بعدئذ النتائج لهذه الديانة الغذائية .

ان عالم الأجناس الألماني (أودجنسن A degensen اعتبر أن أسطورة (هاينويل: هي خاصة مميزة لمزارع العصر المتجمد الزارع للدرنات .

اما بالنسبة للأساطير المتعلقة بأصل زراعة الحبوب ، فإنه يبرز على المسرح طيرانا أوليا : فالحبوب توجد ، ولكن في السماء ، وهي محروسة بغيرة من قبل الالهة ؛ فصعد بطل محضر civilisateur للسماء وسرق بعضاً من الحبوب ومنحها للبشرية . وقد اسمى (جنسن) هذين النوعين من المثيولوجيا (هاينويل وبروميثيه) وربطهما تباعا بحضارة مزارعي العصر الحجري (Vegeclure) وبالمزارعين بمعنى الكلمة ، مزارعي الحبوب(٢٢) . ان التمييز هو ، بكل تأكيد ، حقيقي . ومع ذلك فيما يتعلق بنموذجي أساطير الأصل ، فانها أقل صلابة مما فكر به (جنسن) لأن العديد من الأساطير يوضح ظهور الحبوب بدءاً من كائن بدائي مضحى بهimmoIe ، قربانا . ويضاف لذلك ، في ديانات المزارعين أن أصل الحبوب هو الهي أيضا ، وان منح الحبوب للبشر هو أحيانا موضوع بعلاقة التزاوج بين اله السماء (أو الفضاء) والأرض الأم ، أو مع مأساة اسطورية مثيرة لقران جنسي ، موت وقيامة .

١٢ ـ المرأة والنبات ، الفضاء المقدس والتجدد الدوري للعالم

ان أولى بل وربما أكثر النتائج أهمية من اكتشاف الزراعة ، يثير أزمة في قيم الصيادين الباليوليتك : فالعلاقات بالنظام الديني مع عالم الحيوان تضاعفت بواسطة ما يدعى التضامن الصوفي بين الانسان والنبات . فاذا كان العظم والدم حتى ذلك الحين يمثلان الجوهر والقداسة للحياة ، فانه من بعد ذلك أصبح المني sperme والدم المجسدين لها . إضافة لذلك ، فان المرأة والقداسة النسوية مرفعّان للصف الأول . وبما أن النساء قد لعبن دورا حاسما في تأهيل النباتات ، فقد أصبحن المالكات للحقول المزروعة ، الأمر الذي يرفع وضعهن الاجتماعي ويخلق مؤسسات مميزة مثل la matrilocation حيث أن الزوج كان ملزما بسكنى بيت زوجته .

ان خصوبة الأرض هي أيضا متضامنة بالخصوبة النسوية ، وبالنتيجة فان النسوة أصبحن مسؤولات عن وفرة المحاصيل ، لأنهن يعرفن سر الخلق . انه يتعلق بسر ديني ، لأنه يحكم أصل الحياة ، الغذاء والموت . فالحقل مُثِّل بالمرأة مؤخرا ، وبعد اكتشاف المحراث أصبح العمل الزراعي يمثل بالعمل الجنسي[٢٣] . ولكنه خلال ألوف السنين ، فان الأرض الأم قد ولدت وحدها بتوالد عذري = (بدون إخصاب) . ان ذكرى هذا السر عاشت أيضا في الميثولوجيا الأولبية (فهيرا) Hira حبلت لوحدها . وأولدت Héphaistais هيفيستس لأريس)Arés ، وتركت تترجم في العديد من الأساطير والعديد من المعتقدات الشعبية عن ولادة رجال من الأرض ، والولادة على الثرى . وايداع المولود الجديد على الأرض الخ . . إن الانسان المتولد من الأرض ، عند موته سيعود لأمه «ازحف نحو الأرض أمك» . هكذا هتف الشاعر الفيدي . [ريغ ـ قيدا ١٨ ـ ١٠] .

من المؤكد ، أن القداسة النسوية والأمومة لم تكن مجهولة عند (الباليوليتك) ولكن اكتشاف الزراعة انمى قوتها بشكل محسوس . ان قداسة الحياة الجنسية وفي الدرجة الأولى الجنسية النسوية ، تختلط مع اللغز العجيب للخلق . ان الحبل بدون لقاح part

L'orgie والقران بين الآلهة والبشر Le hieorogamas وطقس التهتك الشعائري ħenoǵenese توضح ، على مستويات مختلفة ، الخاصية الدينية للجنس ، ان رمزا معقداً ، من تكوين بشري كوني An thropocosmiqne يشرك المرأة والجنس مع الايقاعات القمرية ومع الأرض المثلة بالرحم وبما يجب أن يسمى سر النبات . انه سر يتطلب (الموت) للبذور بهدف أن تضمن لها ولادة جديدة ، وبأعجوبة أكبر ، انه سيترجم بتكاثر مدهش . ان تشبيه الوجود البشري، بالحياة النباتية يفسر بصور واستعارات أو مجازات لمأساة نباتية (الحياة هي كوردة الحقول . . الخ) ان هذه الصور الكثيرة قد غذّت الشعر والتأمل الفلسفي خلال الألوف من السنين ، وبقيت صحيحة كذلك بالنسبة للانسان المعاصر .

كل هذه القيم الدينية الانشائية لاكتشاف الزراعة قد تمفصلت وتلاحقت بوضوح وتباعاً عبر الزمن . ومع ذلك فقد ذكرناها منذ الآن كي نبرز الصفة المميزة لابداعات ميزوليتيكية ونيوليتيكية. اننا سنصادف باستمرار الأفكار الدينية، والميثالوجيات والسيناريوهات الشعائرية المتضامنة حول (سر) الحياة النباتي . لأن النشأة الدينية أثيرت ، ليس بواسطة العامل التجريبي للزراعة ، وانما بواسطة سر الولادة ، والموت وإعادة الولادة ، المتماهية في إيقاع النبات ، فالازمات التي توقع المحصول في الخطر (فيضانات ، جفاف الخ . .) ستترجم ، كي تكون مفهومة ومقبولة ومسيطر عليها ، بمآسي ميثولوجية . وان هذه الميثولوجيات والسيناريوهات الشعائرية المتعلقة بها ستسود خلال ألوف السنين حضارة الشرق الأدنى . والنغمة الاسطورية للآلهة التي تموت وتعود الى الحياة تصنف بين الأكثر أهمية منها . ففي بعض الحالات ستولد هذه السيناريوهات العتيقة ابداعات دينية جديدة (على سبيل المثال ايلوزيس ، والأسرار اليونانية الشرقية . . الخ) .

إن الثقافات الزراعية أبدعت ما يمكن أن نسميه دينا كونيا religion cosmique ، طالما أن النشاط الديني مركز حول سر مركزي : التجديد الدوري للعالم . وان الكون قد فهم كمؤسسة يجب لها أن تكون مجلدة دوريا ، وبعبارة أخرى ، كل عام . «ان الحقيقة المطلقة هي أن التجدد والخلود قابلان للاكتساب من قبل بعض المتميزين بشرط توفر نوع من ثمرة أو نبع بالقرب من شجرة . والشجرة الكونية يفترض لها أن توجد في

مركز العالم وتربط الاقطار الكونية الثلاثة لأنها تغرز جذورها في جهنم l'Enfer ورأسها يلامس السماء .[٢٦] ، (axi mundi)

طالما أن العالم يجب له أن يتجدد دوريا ، فان نشأة الكون cosmogonie ستكون مكررة شعائريا بمناسبة كل سنة جديدة وهذا السيناريو الأسطوري ـ الشعائري تأكد في الشرق الأدنى وعند الهندو ـ ايرانيين . الا أنه يوجد أيضا في مجتمعات المزارعين البدائيين الذين يصلون أو يمددون بنوع ما المفاهيم الدينية (للينوليتك) .

ان الفكرة الرئيسية ـ تجديد العالم بواسطة التكرار لنشأة الكون ـ هي بالتأكيد أكثر قدما أي ما قبل الزراعة . فهي توجد مع التغيرات التي لا يمكن تجنبها ، لدى الاستراليين ، كما توجد لدى عدد من القبائل في أمريكا الشمالية[٢٧] . فلدى مزارعي العصر الحجري paleocultivateurs، والمزارعين يقتضي السيناريو الاسطوري الشعائري للسنة الجديدة رجوع الموتى ، ومثل هذه الاحتفالات ما زالت حية في اليونان التقليدية ، ولدى الجرمن ، وفي اليابان . . الخ .

ان التجربة للزمن الكوني ، وبصورة خاصة في الأعمال الزراعية ، انتهى بفرض فكرة الزمن الدوري والدورة الكونية . وبما أن العالم والوجود البشري مقومان بمصطلحات من حياة النبات ، فان الدورة الكونية قد أدركت كتكرار لا نهائي للايقاع نفسه : ولادة ، موت ، عودة للحياة . .

ففي الهند قبل الفيدية، سيتمثل هذا المفهوم في مبدأين متضامنين : هي دوائر يوغا (Yuga) التي تتكرر الى ما لا نهاية ، والقائمة على ارتحال الأرواح . من جهة أخرى ، فان الأفكار العتيقة المصاغة حول التجديد الدوري للعالم ، ستعتمد ، وستفسر ، وستتدخل في العديد من الأنظمة الدينية للشرق الأوسط . ان علوم الكون والعقائد المتعلقة بالعالم الآخر وانتظار مجيء المسيحmessianismeالتي ستسود خلال مئات الألوف من السنين في الشرق وفي عالم البحر المتوسط ، تمد جذورها في مفاهيم (النيوليتك) .

كذلك فان التقييمات الدينية للحيز أو المكان ، أي بدئياً ، المسكن ، والقرية ، هامة جدا . ان وجودا مستقرا ينظم بشكل آخر العالم خلافا للحياة البدوية . فالعالم الحقيقي بالنسبة للمزارع ، هو الحيّز الذي يعيش ضمنه : البيت ، القرية ، الحقول المزروعة . ان مركز العالم هو المكان المكرس بالشعائر والصلوات ، لأنه هنا يتحقق الاتصال مع كائنات ما فوق الطبيعة . ان الدلالات الدينية التي نعت بها أناس (النيوليتك) في الشرق الأوسط بيوتهم وقراهم مجهولة ، ومن المعروف فقط ، بدءاً من فترة ما ، أنهم كانوا بنوا مذابح ومقابر . ولكنه في الصين يمكن إعادة بناء الرمز للبيت (النيوليتي) حيث يوجد استمرار أو تشابه مع بعض نماذج المساكن في اسيا الشمالية والتيبت . ففي الثقافة النيوليتكية ليانغ ـ شو yang - chao كان يوجد انشاءات دائرية صغيرة (بحوالي ٥ متر لقطرها) مع عواميد حاملة لسقف وممتدة حول ثقب مركزي يستخدم للموقد . ومن الممكن أن يكون السقف مجهزاً بثقب من أجل الدخان فوق الموقد . ان هذا المنزل كان من مواد قاسية ، وهو ذات بناء خيمة yourte المغول في أيامنا[٢٨] . وعليه فقد عرف الرمز الكوني الذي يرتديه اليورت layourte وخيام شعوب الشمال الاسيوي : فالسماء مدركة كخيمة لا نهائية مسندة بعمود مركزي ، ثقب الخيمة او الفتحة العليا لتصريف الدخان ممثلة بعمود الدنيا أو ثقب السماء أو النجمة القطبية وهذه الفتحة تسمى أيضا نافذة السماء ، وعليه فانهم يعتبرون فتحة السقف لمنازلهم (نعمة السماء) أو (باب السماء) .

إن الرمزية لكونية المسكن قد تأكدت لدى العديد من المجتمعات البدائية ، فبطريقة ظاهرة قليلا أو كثيرا ، يعتبر البيت صورة عالمية imaga mundi باعتبار أنه يوجد له أمثلة على كافة المستويات من الثقافة ، ولا يعرف لماذا أن (النيوليتيكيين) الأوائل للشرق الأوسط قد كانوا استثناء ، على الأكثر إذ أنه في هذا الاقليم ستعرف الرمزية الكونية للهندسة التزيينية أغنى التطور . ان فصل المساكن بين الجنسين (عادة سبق أن تأكدت من أيام الباليولتيك) كان لها على الأرجح معنى كونيا . وان التقسيمات ، التي تقيم الدليل عليها قرى المزارعين ، تتبع بصورة عاما تقسيما ثنائياً ، هو في ذات الوقت تصنيفي وشعائري : سماء وأرض ، مذكر ومؤنث الخ . . الا أنه أيضا الى صنفين متعارضين شعائرياً . وعليه وكما سنرى في مناسبات عديدة ، فان المعارك الشعائرية بين مجموعتين

متعارضتين تلعب دورا هاما ، على الأخص في مشاهد السنة الجديدة التي تقتضي التكرار لمعركة أسطورية ، كما هو الشأن في بلاد ما بين النهرين ، أو ببساطة ، المواجهة بين مبدأين كونيين صيف /شتاء ، ليل /نهار ، حياة/ موت . وان المعنى العميق هو نفسه : المواجهة ، فالألعاب والمعارك توقظ وتثير ، أو تزيد القوى الخلاقة للحياة[٣٠] . ان هذا المفهوم (البيوكوزمولوجي) ـ الحياتي الكوني ـ والذي هو معد ـ على وجه الاحتمال ـ من قبل الزراع النيوليتك ، وسيعرف مع مجرى الزمن العديد من إعادة التفسير ، بله التغيير ، انه يمكن الاعتراف به بصعوبة ، وعلى سبيل المثال ، في بعض نماذج الثنائية الدينية .

اننا لا ندعي بأننا قد أحصينا كل الابداعات الدينية المثارة باكتشاف الزراعة ، ويكفينا أن نظهر المصدر المشترك في النيوليتيك لبعض الأفكار التي ستعرف تفتحها أحيانا منذ ألوف السنين المتأخرة . ولنضف الى ذلك ان انتشار التدين بتركيبه الزراعي كان له كنتيجة ، بالرغم مما لا يمكن أن يحصى من المتغيرات والتجديدات ، تأسيس نوع من الوحدة الأساسية التي ، حتى يومنا تقرب بين المجتمعات الفلاحية المتباعدة جداً بين بعضها والبعض الآخر ، كالتي توجد في حوض المتوسط ، وفي الهند ، وفي الصين . . » .

١٣ ـ أديان نيوليتيك الشرق الأدنى

يمكن القول إنه ، منذ النيوليتيك حتى عصر الحديد ، يختلط تاريخ الافكار الدينية مع تاريخ الحضارة ، فكل اكتشاف تقني ، وكل تجديد اقتصادي واجتماعي ، هو على ما يبدو مزدوج بمعنى وبقيمة دينية . وعندما سنشير في الصفحات التالية الى بعض التجديدات /للنيوليتيك/ فإنه يجب الأخذ في الحسبان أيضاً اصداءها الدينية . ومع ذلك وبهدف أن لا نقطع وحدة الموضوع لن نعرضها دوماً بشكل بارز .

وهكذا على سبيل المثال ، فإن كل المظاهر لثقافة /جرش/ ستستحق تفسيراً دينياً . انها ربما كانت اقدم مدينة في العالم (٦٧٧٠ ـ ٦٨٥٠ق.م)[٣١] . ومع

أنها لم تعرف الخزف ، مع ذلك فإن التحصينات ، والبرج الضخم والابنية العامة الواسعة ـ التي واحد منها على الأقل ، يبدو أنه انشىء بهدف احتفالات شعائرية ـ تدل على تقدم اجتماعي وتنظيم اقتصادي يستهلان لدول المدن Cités-état المقبلة من بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) . لقد اكتشف كارستان وكاتلين كينون Garstang et Kathlen Kenon بضعة أبنية ذات بنية شبه عامة وقد اسمياها المعابد (temples) ، وكنيسة صغيرة عائلية . ومن بين الوثائق الدينية الواضحة ، هنالك تمثالان نسويان ، وغيرها ممثلة لحيوانات تدل على عبادة الخصوبة . ولقد أعطى بعض الباحثين معنى خاصاً لبقايا الصور من الجص المكتشفة من قبل /فارتان/ في السنوات الثلاثين الأخيرة : انها تمثل ذكراً ملتحياً وامرأة وولداً . العيون معلّمة بأصداف .

واعتقد /كارتان/ وجود امكانية لمماثلة هذه البقايا بأقدم ثلاثي الهي معروف ، مقدمة على الأرجح ، ميتولوجيا مشابهة لتلك التي ستسود بعدئذ في الشرق الأوسط ، إلا أن هذا التفسير قد جوبه بمعارضة أيضاً[٣٢] .

إن الأموات كانوا يدفنون تحت أرضية البيوت ، وان بعض الجماجم المنبوشة من /كاتلين كينون/ تمثل إعداداً متفرداً : فالأجزاء السفلى مقولبة بالجص ، والعيون ممثلة بأصداف لدرجة امكانية مقارنتها بصور حقيقية . وان هذا يتعلق ، بالتأكيد ، بطقس عبادة الجماجم[٣٤] . غير أنه سيقال أيضاً بأن ذلك محاولة للحفاظ على ذكرى الفرد حياً .

ويوجد طقس الجماجم في /تل رماد/ (في سورية بالقرب من دمشق) حيث كشفت الحفريات عن قلنسوات جمجمية des calottes crâniennes مع الجبهة مصوَّرة بلون أحمر والوجه مقولب[٣٥] . وفي سورية (تل رماد وجبيل) وبدقة أكثر لمستويات تعود للألف الخامسة ق . م ، ظهرت بعض التماثيل البشرية الصغيرة من فخار ، وان ما اكتشف /في جبيل/ من هذه التماثيل هو ثنائي الجنس[٣٦] . وبعض التماثيل الصغيرة النسوية ، الموجودة في فلسطين والتي يعود تاريخها لحوالي ٤٥٠٠ ق . م تمثل الربة الأم تحت مظهر مرعب وشيطاني .

ان عقيدة الخصب وعقيدة الموتى تظهران متضامنتين . وفي الواقع ، إن ثقافات (هاسيلار) و(ساتال هيويوك) (٧٠٠٠ ق . م) في الأناضول واللتان سبقتا ـ وعلى الأرجح أثرتا ـ على الثقافة الما قبل الخزفية pré Ćeramique لجرش ، تشيران الى وجود عقائد مماثلة . فعقيدة الجماجم Culte des cranes قد تأكدت على نطاق واسع في (سيلار) وساتال هيويون) . والهياكل العظمية كانت مدفونة تحت أرضيات المنازل مصحوبة بهدايا جنائزية : مجوهرات ، حجارة نصف ثمينة ، أسلحة منسوجات أقداح من خشب الخ[٣٨] . وقد وجد في الأربعين مقبرة التي حفرت حتى عام ١٩١٥ العديد من التماثيل من الحجارة والطين . ان الآلهة الرئيسية هي الربة ، ممثلة تحت ثلاث مظاهر : فتاة شابة ، أم ولود لطفل أو «ثور» وعجوز (مترافقة أحيانا بطائر صيد) . الآلهة الذكورية تبدو تحت شكل ولد أو يافع ـ الابن أو عشيق الربة ـ وبالغ له لحية ، وحينا يكون ممتطياً حيوانا مقدسا ، الثور . ان تنوع الرسوم على الجدران أمر مدهش ، حيث لا توجد مقبرتان متشابهتان . بروزات الربة تصل أحيانا لارتفاع مترين ، مقولبة بالجص ، أو الخشب أو الطين ورؤوس الثيران تجليات الاله كانت مثبتة على الجدران . والتصوير الجنسي غائب ، ولكن الصدر النسوي وقرن الثور ـ رمزي الحياة ـ هما مختلطان أحياناً . ان مقبرة تعود لحوالي (٦٢٠٠ ق . م) تضم أربعة جماجم لرجال متوضعة تحت رؤوس الثيران المثبتة على الجدران . وأحد الجدران مزين برسوم ممثلة لحدأات ذات أرجل بشرية تهاجم رجالا مقطوعي الرؤوس . انها ، بالتأكيد ، تتعلق بخليط أسطورة شعائرية هامة ولكن معناها غائب عنا .

في هاسيلار وعلى مستوى ٥٧٠٠ ق . م تظهر الربة جالسة على جلد فهد ، أو واقفة ممسكة فهداً صغيرا ، وتظهر لوحدها واقفة ، جالسة ، مقرفصة مضطجعة ، أو مصحوبة بطفل . وأحيانا تكون عارية أو مجهزة بغطاء لعضو الجنس (cache- sex) وهنا أيضا تكون ممثلة إما بشابة أو متقدمة في السن .

وعلى مستوى ما يقرب من (٥٤٣٥ ـ ٥٢٠٠ق . م) فان الصور الصغيرة للربة مع ولد أو مصحوبة بحيوان ، تماما كالتماثيل الذكورية تتوازع ، على العكس المظاهر الاخيرة لثقافة هاسيلار وهي مميزة بخزف بديع مزين بكثير من

الرسوم الهندسية[٣٩] . ان الثقافة المسماة ثقافة (تل حلف)[٤٠] . ظهرت بعد تبدد الثقافات الاناضولية ، وقد عرفت النحاس وبدت كأنها اختراع شعب نازل من الشمال ، ربما البقايا من (هاسيلار) و(ساتال هيويون) . إن التعقيدات الدينية لتل حلف لاتختلف كثيرا عن الثقافات التي وصلت الينا حتى الآن . فالموتى كانوا يدفنون مصحوبين بهدايا ، من بينها تماثيل من الطين . والثور الوحشي كان يمجد في أكثر من تجلي للخصب الذكوري . ان صور الثيران والتيوس ورؤوس الكباش والفأس المزدوجة كان لها جميعها بالتأكيد دور شعائري ذي علاقة مع رب العاصفة ، الهام جدا في كل ديانات الشرق الأدنى القديم . مع ذلك لم توجد تماثيل صغيرة ذكورية ، في حين أن صور الربة كثيرة مترافقة بحمائم مع أثداء مبالغ فيها ، وهي ممثلة أحيانا كثيرة في وضع القرفصاء ، من الصعب عدم معرفة الصورة المثلى للربة ـ الأم[٤١] .

ان الثقافة (الحليفية) قد تخربت أو انقرضت حوالي ٤٤٠٠ ـ ٤٣٠٠ ق .م وأثناء ذلك كانت الثقافة العبيدية d'obeid المتأصلة في العراق الوسيط ، تنتشر في كل (الميزبوتاميا) . لقد كانت تأكدت في الورقاء أو (ورك السومرية) و(ايريش السامية) حوالي ٤٣٢٥ق .م . ـ ان أية ثقافة أخرى من قبل التاريخ ، لم تمارس تأثيرا مماثلاً . ان النجاح في صنع المعادن هو محل اعتبار (فؤوس من نحاس ، مختلف الأشياء من الذهب ، وان الثروة قد تراكمت عن طريق الزراعة والتجارة ، وهنالك رأس رجل قريب من الرأس الطبيعي ، ورؤوس حيوانات من الرخام ، وكلها تحمل معنى دينيا مؤكدا ، ان بعض الاختام من نموذج (غاورا Gawra) يمثل مختلف مشاهد العقيدة (أشخاص حول مذبح ، مزين بجماجم ثيران ، رقصات شعائرية ، حيوانات رمزية شعارية الخ» . الوجوه البشرية مخططة بكثرة ، والاتجاه الغير تصويري يميز من جانب آخر كل ثقافة (العوبيد) d'obeid . فالمقابر مرسومة على تعويذات ليست النسخة لأبنية خاصة ، إلا أنها تمثل نوعاً من صورة نموذجية للمعبد .

وهنالك تماثيل صغيرة بشرية من الحجارة بشعورها وهي تمثل على الأرجح الكهنة. وفي الواقع ، ان التجديد الأكثر دلالة لعصر (العوبيد) هو بالفعل ظهور

المعابد الفخمة[٤٢] وان واحدا من أكثرها تميزاً هو المعبد الأبيض من ١٧,٥×٢٢,٣ م مقام على مصطبة من ٧٠م طولاً و٦٦م عرضا وبارتفاع ١٣م . وإن هذه المصطبة تجسد بقايا المقابر القديمة وتشكل زاقورة Ziqqurit و(جبلا) مقدساً كنا أشرنا سابقاً لرمزه .

١٤ ـ البناء الروحي لاناس العصر الحجري الحديث /النيوليتك/

في صدد موضوعنا سيكون من غير المجدي تتبع انتشار الزراعة ، ومؤخراً التعدين ، عبر ايجه L'Egée والبحر المتوسط الشرقي ، وفي اليونان ، وفي البلقان وأقاليم الدانوب وبقية أوروبا ، كذلك من غير المجدي تتبع انتشارها نحو الهند والصين وآسيا جنوب شرق . ولنعد الى الذاكرة فقط انه ، في البدء تدخلت الزراعة ببطء في بعض الأقاليم من أوروبا ، فمن جهة أن أقليم ما قبل المتجمد سمح للمجتمعات الميزوليتيكية في أوروبا الوسطى والغربية لأن تستمر بمنتجات الصيد والقنص ، ومن جهة أخرى ، توجبت ممارسة زراعة الحبوب في منطقة معتدلة ومغطاة بالغابات . ان التجمعات الزراعية الأولى تطورت على طول مجاري المياه وعلى أطراف الغابات الكبرى . مع ذلك ، فان انتشار الزراعة النيوليتيكية ، المبتدئة في الشرق الأدنى (٨٠٠٠ ق .م) أثار تطوراً لا مناص منه . ورغم مقاومة بعض السكان ، وعلى الأخص بعد تبلور الرعوية ، فان انتشار زراعة النباتات الغذائية تقرب من استراليا ومن /باتاغوينا/ عندما أشعر بآثار الاستعمار الاوروبي والثورة الصناعية .

لقد نقل انتشار زراعة الحبوب الشعائر ، والأساطير والأفكار الدينية المميزة . الا أنه لا يتعلق بسيرورة آلية . حتى باختصارها ، كما أوجزنا ، الى وثائق أثرية ـ وبعبارة أخرى ، ومع تجاهلنا الدلالات الدينية ، وفي المقام الأول منها الأساطير والشعائر ـ نلاحظ الفوارق ، التي تكون أحيانا هامة جداً بين الزراعات النيوليتيكية الأوروبية ومنابعها الشرقية .

فمن المؤكد ـ مثلا ـ ان عبادة الثور المثبتة بالعديد من الصور في أقاليم الدانوب أتت من الشرق الأدنى . ومع ذلك ليس لدينا دليل عن تضحية بالثور ، كما ابتدع في (كريت) أو في الثقافات النيوليتيكية في الهندس . وبذات الأمر فان أصنام الآلهة ، او مجموعة الايقونات التصويرية للربة أم الطفل ، هي أصنام عامة جدا في الشرق ، وهي نادرة في أقاليم الدانوب . حيث لم يوجد أبدا تماثيل في القبور من هذا النوع .

ان بعض المكتشفات الحديثة قد أبرزت بجلاء أصولية الثقافات القديمة لأوروبا جنوب ـ شرق ، أي الخليط الذي اسماه (ماريجا جينبوتاس) حضارة اوروبا القديمة . وفي الواقع ، إن حضارة تضم زراعة القمح والشعير وتدجين الأغنام والقطعان والخنازير ، تظهر بالتوازي حوالي ٧٠٠٠ سنة ق . م أو قبل ذلك علىٰ شطآن اليونان وإيطاليا وفي كريت والأناضول الوسطىٰ وفي سورية وفلسطين وفي الهلال الخصيب . وعليه ، وعلىٰ أساس التأريخات (بالراديوكاربون) باشعاع الفحم ، لا نستطيع الجزم ان هذه العقدة الزراعية قد ظهرت في اليونان متأخرة أكثر عما في الهلال الخصيب وسورية وسيليسيا وفي فلسطين .

ومازال مجهول أيضاً ماذا كان «الاغراءالأساس لهذه الزراعة[٤٣]»إلا انه لا يوجد دليل اثري مشير إلىٰ مدد من المهاجرين الواصلين من آسيا الوسطىٰ للاستحواز علىٰ النباتات المزروعة والحيوانات المستأنسة[٤٤] .

ومهما يكن من أمر أصلها ، فإن الحضارة الأوروبية القديمة قد تطورت باتجاه أصلي Originale ميِّزها أيضاً عن ثقافات الشرق الأدنى عما هو عن اوروبا الوسطىٰ والشمالية . ففيما بين ٥٣٠٠ ـ ٦٥٠٠ سنة ق . م كان هناك مجال لفورة ثقافية في شبه الجزيرة البلقانية وفي الأناصول الوسطىٰ . ان عدداً كبيراً من الأشياء (اختام مع رموزideogrammeوجوه أو صور حيوانية وبشرية ، آتية على هيئة حيوانية ، صور اقنعة الهية) تدل كلها علىٰ نشاطات عقائدية . حوالي وسط الألف الرابعة تكاثرت القرية المحمية بخنادق أو جدران ، وباستطاعتها استيعاب

حتىٰ الف من السكان(٤٥) . ان كمية من المذابح والمقابر ، وموضوعات شعائرية متعددة ، تشهد كلها على وجود دين منظم جداً . ففي المحطة الاينوليتيكية Enéolitiqueلكاسيوريل Casioarele علىٰ بعد ٦٠ كيلو متراً من جنوبي بوخارست ، ظهر معبد رسمت جدرانه الداخلية بلولبيات رائعة ، باللون الأحمر والأخضر علىٰ أساس أبيض ـ اصفر . ولم توجد تماثيل ولكن اسطوانة بطول مترين واخرىٰ أصغر منها تشير لشعيرة عمود مقدس رامز لقطب الدنيا Laxis Mundis(٤٦) . وفوق هذا المعبد كان يوجد معبد آخر ، ومنذ وقت قريب جداً ، وجد نموذج من الطين المشوىٰ لمقبرة . ويمثل نموذجها Lamaquetteعقدة معمارية ذات انطباع مؤثر : اربعة معابد تستقر علىٰ قاعدة مرتفعة .

وقد اكتشفت عدة نماذج من المعابد في شبه جزيرة البلقان . وباضافتها إلىٰ ما لا يعد من الوثائق (تماثيل ـ اقنعة ـ رموز مختلفة غير مصورة الخ) يستدل علىٰ غنى وتعقيد ديانة بقي مضمونها مجهولاً(٤٨) .

سيكون من العبث احصاء كل الوثائق النيوليتيكية الخاضعة لتفسير ديني . الا أننا سنعمد إلىٰ الاشارة إليها أثناء بحثنا لما قبل التاريخ الديني لبعض المناطق الصغيرة في (حوض المتوسط ـ الهند ـ الصين ـ اسيا جنوب شرق ـ اميركا الوسطىٰ) . ولنقل منذ الآن ، بالرجوع إلىٰ الوثائق الأثرية وحدها ، وبدون الأضواء المستمدة من النصوص أو التقاليد لبعض المجتمعات الزراعية ، تقاليد ما زالت حية حتىٰ مطلع هذا القرن ، إن الديانات (الينوليتيكية) تخاطر بالظهور مبسطة ورتيبة . ولكن الوثائق الأثرية تقدم لنا رؤية مجزأة ، وذات قيمة مقتطعة ، من الحياة ، والفكر الديني . ونأتي لنرىٰ ما تكشفه الوثائق الدينية للثقافات النيوليتيكية الأولىٰ : عبادة الموتىٰ ، والخصوبة المرموز إليها بتماثيل الربات ، وإله العاصفة(مع تجلياته الثور ، أعلىٰ الجمجمة) ، معتقدات وطقوس كلها ذات علاقة مع سر النبات . وإن التمثيل للمرأة ـ الحقل ـ النبات - Femne - glèbee Planteمشابهة للولادة ـ اعادة الـولادة (السر الديني Lnitiation) ؛ وراجح جداً ، الأمل بوجودتال وبعلم كوني ملائم للرمز (مركز الدنيا) والفضاء المسكون كصورة للعالم Imago mundi ويكفي ملاحظة مجتمع معاصر من المزارعين البدائيين لتقييم

التركيب والغنىٰ لديانة مصاغة حول أفكار الخصوبة تحت الأرض Ohtonréme ودورة الحياة والموت قبل الوجود(٤٩) .

من جهة اخرىٰ ، فإنه منذ أن أتت النصوص الأولىٰ لتنضم إلىٰ الوثائق الأثرية للشرق الأدنىٰ ، يلاحظ إلىٰ أي مدىٰ تكشف فيض من المعاني ليست معقدة وعميقة فحسب ، وإنما كانت موضوع تأمل وإعادة تفسير وأحيانا بطريقة تغدو غامضة ، ولدرجة كبيرة غير معقولة . ففي بعض الحالات ، تمثل النصوص الأولىٰ التي أمكن الوصول إليها ، الذكرىٰ التقريبية لابداعات دينية لا يمكن تذكرها ، وأصبحت غير مستعملة أو شبه مهملة . ويقتض عدم اغفال أن الروحية الكبرى لعصر النيوليتيك ليست (شفافة) ، من خلال الوثائق التي يتصرفنا . ان الامكانات الاستدلالية للوثائق الاثرية محدودة ، والنصوص الأولى تفصح عن رؤية للكون متأثرة بقوة بالأفكار الدينية المتضامنة مع التعدين ، وحضارة سكنى المدن ، والملكية وبجهاز كهنوتي Sacerdotal منظم .

الا انه اذا كان البنيان الروحي لعصر النيوليتيك (٥٠) غير ممكن . الامساك به بجملته فإن قطعاً متناثرة قد صانته في تقاليد المجتمعات الفلاحية . ان استمرارية الاماكن المقدسة وبعض الشعائر الزراعية والجنائزية ليست أكثر من دلالة على ذلك . ففي مصر القرن العشرين تحزم الحزمة الشعائرية بذات الطريقة التي ترى على الآثار القديمة ، والتي كانت فيما سلف تكون عادة موروثة مما قبل التاريخ . ولدى عرب البتراء ، ان آخر حزمة تدفن تحت اسم (العجوز Levi´eux) اي ذات الاسم التي كانت تحمله في مصر الفرعونية . ان الحبوب المسلوقة التي تقدم في الجنازات واعياد الموتى في رومانيا والبلقان تسمى (كوليفا) . وان الاسم (كوليفا) والتقدمة تأكدت في اليونان القديمة ، ولكن العرف هو بالتأكيد أكثر قدما (يعتقد وجوده في قبور دييلون) . ولقد اظهر (ليوبولد شميث) ان بعض المشاهد الاسطورية الشعائرية ، التي ما زالت قائمة عند فلاحي اوروبا الوسطى والجنوب الشرقي في بداية القرن العشرين ، حافظت على اجزاء ميتولوجية وشعائرية منقرضة ، في اليونان القديمة ، قبل (هومير) . ومن غير المفيد المتابعة ، ولكننا نشير فقط الى ان مثل هذه الشعائر قد تدعمت خلال (٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠) سنة حيث

ان الالف الى الف وخمسمائة سنة الأخيرة تحت يقظة دينين موحدين معروفين بفعاليتهما ، المسيحية والاسلام .

١٥ ـ نص ديني للتعدين : ميتولوجيا عصر الحديد

تلت ميتولوجيا المعادن ، ميتولوجيا الحجر المصقول ، وإن اغناها وأكثرها تميزاً أقيم حول الحديد . فمن المعلوم ان (البدائيين) كما هم أيضاً أهل ما قبل التاريخ قد استعملوا الحديد النيزكي Meteorique وقتا طويلاً قبل تعلمهم استعمال المعادن الحديدية السطحية . فقد عالجوا بعض الركاز للمعادن الأولية كحجارة ، أي انهم اعتبروها كمواد خام من أجل صناعة الأدوات . فعندما طلب (كورتيز Cortez) من رؤساء الأزتيك معرفة من أين يستخرجون سكاكينهم ـ أشاروا إلىٰ السماء . وفي الواقع ، ان الحفريات لم تكشف عن أية إشارة لحديد أرضي في طبقات الحديد مما قبل التاريخ للعالم الجديد[٥٢] .

ان شعوب العصور الحجرية الشرقية قد شاطرت ـ علىٰ ما يحتمل ، في أفكار مشابهة . فالكلمة السومرية آن ـ بار AN - BAR التي هي اقدم لفظ يدل علىٰ الحديد قد كتبت باشارات (سماء) (ونار) . وقد ترجمت بشكل عام (معدن سماوي) أو (معدن نجم) ، وخلال زمن طويل لم يعرف المصريون سوىٰ الحديد النيزكي . وذات الوضع بالنسبة للحثيين ، فإن نصاً من القرن الرابع عشر يشير إلىٰ ان الملوك الحثيين استعملوا (الحديد الأسود من السماء)[٥٣] . غير ان المعدن كان نادراً (وكان أيضاً ثمينا كالذهب) واستعماله كان أكثر ما يكون طقوسيا . وقد توجب اكتشاف اذابة المعادن الخام لاقامة مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية . وعلىٰ خلاف النحاس والبرونز ، فان صناعة تعدين الحديد غدت بسرعة صناعة . فما ان اكتشف سر اذابة اكسيد الحديد المغناطيسي (Mngnétite) أو حجر الدم Hematite ، حتىٰ لم يعد ثمة صعوبة بانتاج كميات كبيرة من المعدن ، لأن المناجم كانت غنية وسهلة الاستثمار . ولكن معالجة المعدن الأرضي لم تكن ذات المعالجة

للمعدن النيزكي ، وهي تختلف أيضاً عن اذابة النحاس والبرونز . وبعد اكتشاف الافران فقط ، وبصورة خاصة بعد تطبيق تقنية التصليب أو الدرفلة) للمعدن وتحويله من أحمر لأبيض ، نال الحديد وضعه السائد . وان صناعة التعدين للحديد الأرضي هي التي جعلت هذا المعدن قابلاً للاستعمال علىٰ مدىٰ الأيام .

لقد كان لهذا الفعل نتائج دينية هامة . فإلىٰ جانب القداسة السماوية ، المنبعثة من النيازك ، أصبحنا الآن بحضور القداسة الأرضية التي تتوازعها المناجم والمعادن . فالمعادن تنبت في جوف الأرض[٥٤] . والمغاور والمناجم مشبهة برحم الأرض الأم . والمعادن المستخرجة من المناجم هي بنوع ما(أجنة) ، إنها تنمو ببطء ، كما لو كانت تخضع لايقاع زمني اخر غير ما لحياة الاعضاء النباتية والحيوانية ـ انها علىٰ الأقل لا تنمو ، أنها تنضج في الظلمات الأرضية . وإن استخراجها من جوف الأرض الأم هو اذن عملية مبتكرة قبل أوانها ، ولو ترك لها الوقت لتنمو (أي الايقاع الجيولوجي للزمن) . فإن المعادن ستصبح معادن ناضجة كاملة .

إن المعدنين ـ عمال المناجم ، في أي مكان في العالم اخترعوا شعائر تحمل حالة من الطهارة : صيام ، تأمل ، صلوات وأعمال طقوسية . وان الشعائر موجهة بطبيعة العملية المقصودة ، لتدخل في بقعة مقدسة مشهورة بعدم جواز انتهاكها ، وتدخل في تماس مع قداسة لا تساهم في الشمول الديني المعهود ، قداسة أكثر حمقاً وأكثر خطراً أيضاً . والشعور بالمخاطرة فيها يقع في نطاق لا يعود لحق الانسان: لعالم تحت الأرض مع أسراره من الحمل البطىء التعديني الذي يجري في احشاء الأرض ـ الأم . ان كل ميتولوجيات المعادن والجبال ، وكل الجنيات التي لا حصر لها ، وكل العبقريات و الجنيات الصغيرة Elfes وكل الاشباح والأرواح ، هي تجليات متعددة للوجود المقدس الذي يواجه عند الدخول في المستويات الجيولوجية للحياة .

وإن المعادن المثقلة بهذه القداسة المظلمة قد توجهت صوب الأفران . وعندئذ بدأت العملية الأكثر صعوبة والأكثر مغامرة . فاستعاض الصانع عن

الأرض الأم لكي يسرع ويبدأ خلق (التنامي) . ان الأفران هي نوع من رحم جديد مصنع يكمِّل فيه المعدن جنينيته . ومن هنا العدد اللا متناهي من الاحتياطات ، تابوهات Tabous وشعائر ترافق عملية الصهر(٥٥) .

ان رجل التعدين ، مثله مثل الحداد ، ومثل ما قبله الخزاف ، هو (سيد النار) . فهو عن طريق النار يهيىءمرور المادة من حالة لأخرىٰ . أما بالنسبة للمعدن فإنه يسرع (نحو) المعادن . إنه يجعلها ناضجة خلال فترة قصيرة بمعجزة ان الحديد يظهر بأنه (يصنع بسرعة) ولكن أيضاً بأن يصنع شيئاً آخر مما كان قد وجد في الطبيعة . وهذا هو السبب الذي من أجله كان السباكون والحدادون في المجتمعات القديمة مشهورين بكونهم (معلموالنيران) Lesmaitres de fer ، وانهم إلىٰ جانب الشامان ، اطباء وسحرة . الا ان الصفة المتساوية الحدين للمعدن ـ المثقلة بقوىٰ هي في آن واحد مقدسة (وشيطانية) ـ قد نقلت إلىٰ المعدنين والحدادين : فهولاء كانوا يُقدرون عاليا ، ولكنهم موضع خوف ، متجنبين ، أو حتىٰ محتقرين(٥٦) .

في العديد من المتيولوجيات ، يصنع الحدادون الالهيون السلاح للآلهة ، ضامنين لها النصر بذلك ضد الغيلان أو الكائنات الكريهة الأخرىٰ . ففي الاسطورة الكنعانية صنع ركوشار وهاريس/ Koshar Na - Haris (المستقيم والمخادع) لبعل الدبوسين اللذين قتل بهما (يام/ رب البحار والمياه الجوفية في الأرض (ـ ٤٩ ع) .

وفي الترجمة المصرية للأسطورة أن بِتاح Ptah (الاله ـ الخزاف) صنع الاسلحة التي مكنت حوريس من الانتصار على (سيت) . كذلك فإن الحداد الالهي تفاستر Tvastr قدم الأسلحة (لمايندرا) اثناء معركتها مع (فرترا) و (هيفستوس) (حدد) أو صنع الصاعقة التي سينتصر (زوس) بها ضد (تيفون) (ـ ٨٤ م) . ولكن التعاون بين الحداد الالهي والآلهة لا يقتصر علىٰ لقائه في المعركة الحاسمة من أجل السيادة علىٰ العالم . ان الحداد هو أيضاً مهندس وصانع للآلهة ، يدير البنيان من قصر بعل ، وينظم المقابر للآلهة الأخرىٰ . واضافة لذلك

فإن هذا الآله الحداد له علاقات بالموسيقىٰ والغناء تماما كما في عدد من المجتمعات حيث ان الحدادين وصانعي القدور هم أيضاً موسيقيون وشعراء ومطببون وسحرة(٥٧) . وعلىٰ مستوىٰ ثقافات مختلفة (علاقة قديمة جداً) يبدو أن هناك علاقة صميميةبين صناعة الحدادة ، والتقنيات المستترة (شامانية ـ سحر ـ شفاء) وصناعة الغناء والرقص والشعر .

ان كل هذه الأفكار والمعتقدات المفصلة حول مهنة العاملين في المناجم والمعدنين والحدادين ، اغنت بشكل ملحوظ ميتولوجيا الإنسان الصانع الموروثة من العصر الحجري . .ن الرغبة بالمساعدة في تصنيع المادة كان لها نتائج هامة ، في قمتها المسؤولية بتغيير الطبيعة . فالانسان يستعيض عن الزمن ، وما كان يتطلبه من دهور Des Eons لما ينضج في أعماق الأرض يقدر الصناعي علىٰ امكانية الحصول عليه خلال اسابيع لأن الفرن يحل محل الرحم الأرضي .

ولألوف السنين بعدئذ ، لن يفكر الكيميائيون بخلاف هذا ، ان شخصية من قصة (بن جونسون) (الكيميائي) تعلن : «ان القصدير والمعادن الأخرىٰ ستصبح من الذهب اذا توفر لها الزمن لتصبح كذلك» . ويضيف كيميائي اخر : و«إن هذا هو ما يحققه فننا(٥٨)» . ان الصراع من أجل (تصنيع أو تطوير الزمن) ـ التي ستعرف نجاحها الكبير مع (المنتجات التركيبية) المتحصلة نتيجة الكيمياء العضوية ، هي مرحلة حاسمة في «التحضير التركيبي للحياة ، (التقزيم ، الذي هو حلم الكيميائين القديم) . هذا الصراع للتعويض عن الزمن ، والذي يميز الانسان في المجتمعات التكنولوجية الحديثة كان مرتبطاً فيما سلف بعصر الحديد وسنقيم فيما سيأتي معانيه الدينية .

حواشي الفصل الثاني

١ ـ Die elt .. ck : - A . Runt

٢ ـ Anlos الخ .

٣ ـ N . Elad ـ رسالة في تاريخ الأديان ص ١٧٤

٤ ـ A . Runt المرجع السابق .

٥ ـ حضارة الصيادين والقناصين هكذا سميت تبعاً لمحطة ماس داز يل Onas d z il مغارة في جبال البرينيه ـ الفرنسية .

٦ ـ تاريخ الديانات الاسترالية ـ الياد ـ ص ١٠٠ يلاحظ انه حسب «معتقدات الاستراليين ان الجد يوجد في ان واحد في الجسد الاسطوري Latynsmga وفي الرجل الذي تقمص فيه ، ويضاف لذلك انه يوجد أكثر من هذا تحت الأرض وتحت شمل (ولد الروح) ص ٦٠ .

٧ ـ يذكر ان الاستراليين كذلك عدد من القبائل في جنوب اميركا يعتقدون ان اجدادهم الاسطوريين قد مسخوا في نجوم أو انهم صعدوا للسماء ليسكنوا في الشمس والنجوم .

٨ ـ الديانات الاسترالية ـ الياد

٩ ـ اشتقاق من وادي النطف حيث عرف هذا الشعب العائد للميزوليتيك لأول مرة .

١٠ ـ عما نويل عناتي Anati فلسطين قبل اليهود ص ٤٩ .

١١ ـ كل هذه التورايخ امكن الحصول عليها بفصل (اشعاع الكربون) . وحول تدجين الحيوان ـ . Mnller ص ٢٧٠ ـ وحاليا اكتشف في وادي النيل الأعلىٰ خليط مما قبل الينوليتيك من الأطعمة المنشأة من الحبوب تعود الى ١٣٠٠٠ ق .م

١٢ ـ علىٰ سبيل المثال التمثال الذي وجد في Aimgalrhesi عين سقارة .

١٣ ـ أحد القبور يعتبر كأقدم اثر ميكاليتيك في العالم ـ أناتي ، ص ١٧٢

١٤ ـ آناتي ـ ص ١٧٤ وماريجر ـ آلهة رجال ما قبل التاريخ ص ١٨٣

١٥ ـ ليس فقط بالنسبة للمعتقدات المقسمة خلال ما قبل التاريخ . ان اليونان قد حجموا الروح أو بعدئذ مع Lospene , Alereon في الرأس .
١٦ ـ في افريقيا وغيرها (الصيد الطقوس ، يتم بمناسبة تعميد أو تنصيب رئيس جديد .
١٧ ـ كلمة دوليستنونع (تعني رؤية عالمية(نظرة ميتافيزيكية للعالم مرتبطة بمهفوم الحياة وقد اشتهر بها الفلاسفة الألمان الرومنسيون (قاموس ـ المنهل)
١٧ ـ ثم مثل مميز : ان Les Des an a delu eolonbie يعتبرون حيادين رغم ان ٧٥٪ من طعامهم يأتي من السمك والخضار ، ولكن في نظرهم ، أن حياة الصياد وحدها هي الجديرة بأن تعاش
١٨ ـ دافيد ر . هاريس ـ النظام الزراعي واصل الزراعية .
١٩ ـ Na llia Solhais ـ الحرم .
٢٠ ـ م ـ الياد ـ مظاهر اسطورية .
٢١ ـ ر . في مكان آخر Atsnhnk Jochika (براز الربة وأهل الزراعة) .
٢٢ ـ Ad . E . Jen jen ـ أساطير وطقوس الشعوب البدائية ص ١٨٨ .
٢٣ ـ انظر الأمثلة في رسالة تاريخ الأديان ـ م الياد ص ٢١٨
٢٣ ـ انظر الأمثلة في رسالة تاريخ الأديان ـ م الياد ص ٢١٨
٢٤ ـ ٢٥ ـ المرجع السابقة .
٢٦ ـ هذه هي العبارة الكثيرة الانتشار L,axn, mnndi : ولكنه من المرجع ان رمز محور AXe الكونية تسبق ـ أو أنها مستقلة عن الحضارات الزراعية لأنها توجد في بعض الثقافات القطبية .
٢٧ ـ انظر الأمثلة في مظاهر الأساطير ـ الياد ـ الاستراليون لا يعرفون نشأة الكون ولكن تكوين العالم من قبل كائنات فوق بشرية مشابهة لخلقها .
٢٨ ـ تزينيات فكرية دينية في الشرق الأقصىٰ ص ١٦٨ ـ R . Stein .
٢٩ ـ م ـ الياد الشامانية
٣٠ ـ فلسطين قبل اليهود ـ مرجع سابق .
٣١ ـ ٣٢ ـ K . Keyon اكتشافت قديمة في الأرض المقدسة .
٣٤ ـ حفريات جرش ص ٤٤ .
٣٥ ـ حفريات كوتينيون ملخصة من قبل Amvin ص ٥٩
٣٦ ـ حفريات تل الرماد ـ دونالد ـ جيسن
٣٧ ـ التماثيل الصغيرة Munhata وسارها كولان . اكتشافات كانفين .
٣٨ ـ الحضارات المبكرة للشرق الأوسط Jims mellad .
٣٩ ـ القرىٰ الينوليتية ص ٥١٤ Haciha
٤٠ ـ اسم موقع تل حلف ـ الدرباسية في الجزيرة السورية

٤١ ـ مولر كارب ص ٥٩ من أجل الرمز الديني للتماثيل وأسباب الايقونات الصورية
٤٢ ـ Mulles Karp ص ٦١ فجر ما بين النهرين ـ المعبد الأبيض ص ٤٠
٤٣ ـ اوروبا القديمة Menija Gimbetes ص ٥ .
٤٤ ـ فيما سلف كان للقطيع الخنازير ونوع من القمح كان لها أجداد أصلية في أوروبا
٤٥ ـ بالمقارنة بتجمعات السكان كما هو الشأن في البحيرات السويسرية تظهر كمزارع صغيرة
٤٦ ـ الاسطوانتان فارغتان من الداخل مما يدل على انها قوالب جذع شجرة ورمز Axri mndé يمثل الشجرة الكونية لعمود كوني التواريخ باشعة الكربون ما بين ٤٠٣٥ ـ ٣٦٣٠ ـ
٤٧ ـ (نموذج عن مقبرة مكتشفة في Cas eionel .
٤٨ ـ تبعاً لرأي Gimbntas (ان الحضارة الأوروبية القديمة) هي قد طبقت أيضاً الكتابة حوالي ٥٣٠٠ أي ٢٠٠٠ قبل سومر ص ١٢ . وتدمير الحضارة بدأ بعد ٣٥٠٠ بعد غزو شعوب السهوب البونيه
٤٩ ـ ان تحليلا مقارنا للايقونات والرمزية للبواعث التزينية المكتشفة على الآنية وعلي الموضوعات الاخرى من البرونز ، قابلة أحيانا للتوسع بحساسية لمعرفة دين ما قبل التاريخ ، ولكن هذا قد توضع بدءا من الخزف المرسوم وعلى الأخص في عصر المعادن .
٥٠ ـ يرجع بوضوح إلى النيوليتيك الأثري للشرق الأوسط وأوروبا
٥١ ـ م . الياد ـ حدادون وكيميائيون ص ٢٠
٥٢ ـ R . Fangas ـ التعدين لدى الشعوب القديمة ص ٤١
٥٣ ـ T . A R Kard ـ الانسان والمعادن ص ١٢٩
٥٤ ـ حدادون كيميائيون ـ مرجع سابق ص ٤٦
٥٥ ـ مرجع سابق ـ جارادون وليميانيون ـ بعض الشعوب الافريقية تقسم المعادن إلى ذكور داناس وفي العين القديمة . ميز /يو/ الكبير بن المعادن الذكورية والانثوية . . وفي افريقيا . العمل في اذابة المعادن ممثل بالفعل الجنسي ص ٦٢
٥٦ ـ عن الحالة المزدوجة للحدادين ـ مرجع سابق ـ الياد ص ٨٨
٥٨ ـ حدادون كيميائيون ـ م الياد ـ ص ٤٠ ـ انظر أيضاً الفعل عن الكيمياء القربية وحول التطبيقات الدينية للتقدم العلمي في آخر هذا الكتاب .



الفصل الثالث

أديان شعوب ما بين النهرين

١٦ ـ «التاريخ يبدأ من سومر . . . .»

كما هو معلوم أن هذا هو عنوان لكتاب س. ن كرامر S.N. KRAMER فقد أظهر هذا المستشرق الأميركي البارز أن اوليات المعلومات المتعلقة بعدد من المؤسسات ، ومن التقنية والمفاهيم الدينية قد حفظت في النصوص السومرية . وإنها تتعلق بالوثائق الأولى المكتوبة والتي يعود أصلها للآلف الثالثة . ولكن هذه الوثائق تعكس ، بالتأكيد ، عقائد دينية أكثر قدماً .

إن الأصل والتاريخ القديم للحضارة السومرية غير معروفين بشكل جيد . فيفترض أن شعباً يتكلم السومرية ، وهي لغة غير سامية ، ولا يمكن أيضاحها بأية عائلة لغوية أخرى معروفة ، نزل من الاقاليم الشمالية واستقر في أسفل ما بين

النهرين Basse mésoptamie ، وراجح جداً ، أن السومريين اخضعوا السكان الأصليين الذين نجهل مكوناتهم الإتنية athnique «ثقافياً كانوا يشاطرون في الحضارة المسماة عوبيد» . وخلال زمن غير طويل ، فإن جماعات من الرّحل الآتين من الصحراء السورية ، والذين يتكلمون لغة سامية ، الأكاديون بدءوا يتغلغلون في الأقاليم شمالي سومر ، متسللين فيها بموجات غامضة في المدن السومرية ، وحوالي وسط الألف الثالثة ، وبقيادة رئيس أصبح خرافياً /سارغون/ فرض الأكاديون سيادتهم في المدن السومرية . مع ذلك وحتى قبل الفتح كانوا قد انتظموا في اتحاد سومري ـ أكادي تنامى بقوة بعد توحيد البلدين .

ومنذ ٣٠ أو ٤٠ سنة تكلم العلماء أيضاً عن ثقافة واحدة /البابلية/ المحصلة لذوبان هاتين الأرومتين العرقيتين . ومن المتفق عليه اليوم ، أن تدرس منفصلة المعطيات السومرية والآكادية لأنه ، رغم واقع أن المحتلين تمثلوا ثقافة المغلوبين ، فإن العبقرية الخلاقة ، للشعبين كانت مختلفة .

وتلمس هذه الفوارق بصورة خاصة في الميدان الديني ، فمنذ العصور القديمة كانت العلاقة المميزة للكائنات الدينية ، تاج أو قلنسوة ذات قرون . وفي سومر كما في الشرق الأوسط كله ، تأكد الرمز الديني للثورمنذ النيوليتيك ، وقد نُقِل بدون انقطاع ، وبعبارة أخرى ، إن النموذج الالهي كان معرفاً بالقوة وبالعظمة المكانية ، مثل السماء المكفهرة حيث يقصف الرعد (لأن الرعد كان ممثلاً بخوار الثور/ . إن التكوين السامي /السماوي/ للكائنات الالهية قد اعتمد بالعلاقة المحددة التي تتقدم معتقداتهم والتي كانت مثلت ، في الأصل ، كوكيا . وتبعاً لمفردات اللغة ، فإن الدلالة الخاصة لهذا التحديد هي (سماء) . وبالنتيجة ، فإن كل الوهية كانت متخيلة ككائن سماوي ، ومن أجل هذا فإن الارباب والربات كانت تشع نوراً قوياً جداً .

إن النصوص السومرية الأولى تعكس عمل التصنيف والتنظيم المقدم من الكهنة . فيوجد بدئياً ثالثوث كبار الآلهة ، يتلوه ثالوث الآلهة الكوكبية . وكان

يوضع زيادة عن ذلك ، قوائم معتبرة للآلهة من كل نوع ، والتي غالباً ما نجهلها ما عدا أسماءها .

إن الدين السومري ، في فجر تاريخه كان يبدو آنئذٍ /قديماً/ . ومن المؤكد إن النصوص المكتشفة حتى عصرنا الحاضر . المجزأة جداً هي ذات تفسير متفرد بصعوبته. مع ذلك، وحتى بالاستنادعلى هذه المعلومات الغامضة، يطرح ان بعض التقاليد الدينية كانت على وشك اضاعة معانيها الأولى . وقد كُشفت هذه الحالة حتماً في ثالوث الآلهة الكبرى ، المشكل من آن ، وإنليل وإنكي . وكما يدل عليه اسمه (آن = سماء) فهو الآله الأول الأوري Ouranian . ويجب أن يكون الآله الأعلى بامتياز ، والأكثر أهمية في مجمع الآلهة . ولكن /آن/ مثل آنئذٍ تزامن إله قادر . والأكثر فاعلية والاكثر حضوراً هما /انليل/ رب الفضاء (المسمى أيضاً /الجبل الكبير/ و /انكى/ ، /رب الأرض/ ، آله (الاساسات) الذي كان قد اعتبر خطأ كاله للمياه لأن الأرض في المفهوم السومري كانت معتبرة قائمة على المحيط .

وحتى وقتنا لم يكتشف أي نص كوني بمعنى الكلمة ، ولكن بعض الاشارات تجيز لنا إعادة تكوين الفترات الحاسمة في الخلق كما فهمها السومريون . فالربه /نامو/ (التي يكتب اسمها باشارات تدل على (البحر الأول) ممثلاً (كالأم التي تحضن السماء والارض) . والجـد الذي أولد كل الآلهة . إن نغمة المياه الأولية ، المتخيلة كمجموعة كونية والهية في آن واحد ، هي نغمة مألوفة لحد ما في التكوينات القديمة . وفي هذه الحالة أيضاً ، فإن الكتلة المائية متماهية بالأم الأصلية التي ، أولدت بحمل ذاتي Parthénogénèse ، الزوج الأول lepremiercouple ، السماء /آن/ والأرض /كي/ مجسداً مبادىء الذكورة والانوثة ، وهذا الزوج الأول كان مرتبطاً ، وعلى أهبة الاختلاط في زواج إلهي بشري مختلط lehieros gamos ، ومن قرانهما ولد /انليل/ آله الجو .

إن فقرة أخرى ترشدنا إلى أن هذا الأخير فارق أهله : فرفع الرب /آن/ السماء إلى الأعلى ، وحمل /انليل/ والدته الارض معه هذا وإن النغمة النشكونية لفصل السماء عن الأرض منتشرة أيضاً ولحـد كبير ، ونجدها في الواقع على

مستويات مختلفة من الثقافة . إلا أن من المرجح أن النصوص المسجلة في الشرق الأوسط وفي حوض المتوسط ، تشتق ، في مرحلتها الأخيرة من التقليد السومري .

إن بعض النصوص تثير الكمال ونعيم البدايات : «الأيام القديمة عندما كان كل شيء تاماً . . . . الخ . . . .»[٢] . مع ذلك فإن الفردوس الحقيقي يبدو أنه (ديلمون) Dilmun ، بلاد حيث لا يوجد لا مرض ولا موت . هنالك (لا أسد يفترس ، ولا ذئب يختطف حملاً) . . . . ولا مريض في عينيه رمد . . أو عنده مرض في عينيه . ولا ساهر ليل لا يعود إلى زوجته . . . .»[٣] . مع ذلك ، إن هذا الكمال ، كان في جملته سكوناً . لأن الآله /انكي/ رب /الديلمون/ كان نائماً قرب زوجته ، التي مازالت عذراء ، كما أن الأرض ذاتها كانت عذراء ، ومع أن إتصال /إنكي/ (بالربة نين جور ساج) Nin- gur- sag ثم بالفتاة التي علقت هذه بها ، وأخيراً بأبنية هذه الأبنة ـ فلأن ذلك يتعلق بنسب آلهة يتوجب له أن يكتمل في هذه البلاد الفردوسية . ولكن حادثا ، في ظاهره لا معنى له ، أفسح المجال لأول مأساة الهية . يأكل الرب بعض النباتات التي ستكون مخلوقة : وعليه لقد توجب ان يحدد مصيرها» ، أي أن يثبت لها قالبها التكويني ووظيفتها . إن نين ـ جور ـ ساج زوجته الخارجة عن طورها بهذه الاشارة الغير معقولة ، أعلنت انها لن تنظر أبداً /ونكي/ /بنظرة الحياة/حتى مماته. وفي الواقع ، إن آلاماً غير معروفة أحزنت الاله ، وإن هزاله المتزايد أنبأ بموته الوشيك . أخيراً فإن زوجته دوماً هي التي تشفيه[٤] .

ذلك هوماأمكن النجاح باعادة تركيبه ، فهذه الاسطورة تشوهت من التصحيح الذي لم يمكن معرفة مقاصده . إن الترجمة الفردوسية المكتملة بنسب الآلهة،والمنتهية بمأساة ، تظهر المتاهة والعقاب لاله خالق متبوع بضعفه البالغ الذي يفضي به إلى الموت .

بالتأكيد أنه يتعلق بخطيئة قدرية طالما أن /انكي/ ليس معنياً وفقاً للمبدأ الذي يتجسد به . وهذه الخطيئة خاطرت لتصنع البنيان ذاته في أزمة من خلقه

هو . وإن نصوصاً أخرى نقلت لنا انتحابات الآلهة عندما سقطت ضحية المصير . وسنرى فيها بعد الاخطار التي واجهها /اينانا/ باجتياز حدود سيادته . وإن ما يفاجىء في مأساة /انكي/ ليس هو طبيعة موت الآلهة وإنما النص الميثولوجي الذي تعلنه هذه المأساة .

١٧ - الانسان أمام آلهته .

يوجد أربع قصص على الأقل تفسر أساس الانسان . وانها مختلفة ، مما يوجب افتراض تعددية التقاليد . فثمة اسطورة تقص ان الكائنات البشرية الأولى نبتت من الأرض مثل الاعشاب . وتبعاً لترجمة أخرى ، فإن الانسان قد صنع من الطين من قبل بعض الصناع الآلهة ، ثم أن الربة /نامو/ صنعت له القلب و/انكـي/ اعطاه الحياة . وتعين نصوص أخرى الربة /ارورو **Aruru**/ كخالقة للكائنات البشرية . وأخيراً وحسب الترجمة الرابعة ، إن الانسان قد صنع من إلهين مذبوحين لهذه الغاية (Lagma) وهذه الترجمة الأخيرة ستؤخذ وتشرح في القصيدة النشكونية /اينوما ايليتش/ [٢١ ع] .

كل هذه البواعث قد تأكدت ، مع العديد من المتغيرات ، في العالم كله تقريباً ، تبعاً لاثنين من الترجمات السومرية ، إن الانسان الأول تقاسم نوعاً ما الوجود الإلهي : النفخة الحية من /إينكي/ أو الدم من الآلهة **Lugma** الأمر الذي يعني أنه لم توجد مسافة غير ممكنة العبور بين طريقة التكوين من الآلهة والشرط الانساني ، صحيح إن الإنسان خلق لخدمة الآلهة ، الذين قبل الكل كانت بهم حاجة لأن يتغذواويرتدوا الثياب(٥) . وإن الديانة كانت مفهومة كخدمة للآلهة . مع ذلك إذا كان البشر خداماً للآلهة ، فهم ليسوا عبيداً لها . إن الأضحية تعني بصورة خاصة تقدمة وتكريم . أما بالنسبة للاعياد الكبرى الجماعية للمدينة المحتفل بها بمناسبة السنة الجديدة ، أو بمناسبة تشييد معبد ، فإن لها تركيباً كونياً .

ويؤكد (رايموند جستين Raymand Jastin على واقعة ان مفهوم الإثم والعنصر التفكيري وفكرة كبش المحرقة لم تتأكد في النصوص(٦) . وهذا يعني أن البشر ليسوا خدم الآلهة فحسب وإنما مماثليهم أيضاً وبالنتيجة أقرانهم . وطالما أن الآلهة مسؤولة عن النظام الكوني ، فإن على الاشخاص أن يتبعوا أوامرها ، لأنها ستنعكس على الأحكام وعلى المقررات التي تضمن بشكل حسن أيضاً عمل العالم والمجتمع البشري(٧) . إن المقررات تؤسس أي تحدد مصير كل كائن ، وبكل شكل من أشكال الحياة ، ولكل مشروع إلهي أو بشري . إن تحديد (المقررات) استكمل بعمل (نامتار Nam-tar) ، الذي ينشيء ويعلن القرار المتخذ . وبمناسبة كل عام جديد ، تثبت الآلهة القدر للأثني عشر شهراً التالية . بالتأكيد إن هذا يتعلق بفكرة قديمة موجودة في الشرق الأوسط ، ولكن العبارة الأولى التي صيغت بدقة انما هي سومرية وتبرز عمل التعميق والانتظام المنجز من قبل علماء اللاهوت .

إن النظام الكوني يضطرب باستمرار /بسبب الأفعى الكبيرة Le Grand Serpent/ البدئية ، التي تهدد بعودة العالم للعماء عن طريق الجرائم والآثام وأخطاء البشر الذين ينشدون التكفير عنهم والتطهير بمساعدة الشعائر المتنوعة . ولكن العالم يتجدد دورياً ، يخلق من جديد بواسطة عيد العام الجديد Nouvel An (الاسم السومري لهذا العيد à-ki-til الذي يعني «قوة تعمل على إعادة «احياء العالم» . تيل til تعني عاش ، وعاود الحياة ، وشفي . فكل دورة للقانون الخالد رجوع مطلوب(٨) .

وأن المشاهد الاسطورية الشعائرية للسنة الجديدة والمتشابهة إلى حد كبير قد تأكدت في ثقافات عديدة . وستكون لدينا فرصة لتحليل العيد البابلي [٢٢ع] akitu . إن السيناريو يقتضي الزواج المختلط le hi´eros gamos بين آلهتين سيدتين للمدينة، ممثلتين بتمثاليهما أو بالملك ـ الذي تلقى لقب الزوج من الربة عينانا Inana وتجسد بديموزي Dumuzi (٩) ـ وعبدة للمعبد unehiérodule . إن هذا الزواج المختلط hieros gamos كان يحيِّن الصلة بين الآلهة والبشر ، صلة عابرة ، بالتأكيد ولكن لها نتائج معتبرة. لأن الطاقةالاهيةتنفتح مباشرةعلى المدينة ـ

وبعبارة أخرى ، على (الأرض) ـ فتقدسها وتضمن لها الوفرة والسعادة بالنسبة للسنة التي بدأت .

وأكثر أهمية أيضاً من عيد العام الجديد كان بناء المعابد ، الذي كان أيضاً اعادة تكرار للنشكونية لأن المعبد ـ قصر الأله ـ يمثل الصورة الكلية l'image mundi العالمية خير تمثيل . إن الفكرة قديمة جداً وقد انتشرت بكثرة (سنجدها في أساطير بعل) [٥٠] . وحسب التقليد السومري ، بعد خلق الانسان أنشأ أحد الالهة خمسة مدن ، لقد انشأها (في امكنة طاهرة واعطاها اسماءها وعينها مراكز للعبادة[١٠] . ورغبت الآلهة بعدئذٍ أن توصل إلى الملوك مخطط المدن والمقابر . فرأى الملك (جودا Gudea) في المنام الربة نيدابا Nidaba التي أرته لوحة رسمت عليها النجوم المقدسة والها كشف له مخطط المعبد[١١] ، ويمكن القول أن نماذج المعبد والمدينة هي /سماوية/ trana cendantand ، لأنها سبق لها الوجود في السماء . فالمدن البابلية كان له نماذجها في الافلاك : سيبار Sippar في السرطان ، ينوي في الدب الأكبر اشور ، في الجوزاء الخ . .[١٢] . وهذا المفهوم هو مفهوم عام في الشرق القديم .

إن تأسيس المملكة كان بوضوح (نازلاً من السماء) ، في ذات الوقت مع شعاراتها التاج والعرش[١٣] . وبعد الطوفان اقيمت للمرة الثانية على الأرض . إن العقيدةفي سبق الوجود السماوي (للأعمال)وفي المؤسسات كان له أهميته L'agma بالنسبة (للانطولوجية) علم الكائن ـ القديمة ، وسيعرف تعبيره الشهير في الافلاطونية للافكار . ولقد تأكد للمرة الأولى في الوثائق السومرية ، ولكن أصوله تمتد على الأرجح في ما قبل التاريخ . وفي الواقع أن نظرية النماذج السماوية تمتد وتتطوّر مع المفهوم القديم ، وقد انتشرت عالمياً ، وتبعاً لها ، فإن أفعال الانسان ليست سوى التكرار لتصرفات كشفت من قبل كائنات إلهية . . . .

١٨ ـ أول اسطورة عن الطوفان :

لقد توجب ان ترد الملكية مجدداً من السماء بعد الطوفان ، لأن الكارثة الطوفانية ، تعادل (نهاية العالم) . وفي الواقع إن كائنا بشريا أوحداً يدعىٰ

زيسودرا Zisudra في النص السومري واوتنا بيشتيم Utnapishtimفي النص الأكادي ، قد نجا . ولكن خلافاً لنوح لم يسمح له مطلقاً بسكنى الأرض الجديدة التي كانت غمرت بالمياه . علىٰ جانب قل أو كثر من الألوهية ، ولكنه علىٰ كل حال متمتع بالخلود ، فإن (الناجي) قد نقل لبلادالديلمون Dilemon(زيسودرا) أو إلىٰ (مصب الأنهار) (اوتنا بيشتم) ولم يصل من النص السومري الينا سوىٰ بعض المقاطع : فرغم التحفظات أو مقاومة بعض اعضاء المجمع الإلهي (البانتيون) فإن كبار الألهة قرروا افناء البشرية بالطوفان . . . وآثار بعضهم مزايا الملك (زيسودرا) - «طاهر - متواضع - تقي» . وقد اعلم (زيسودراً) بالقرار الصادر عن (آن وانليل) أعلم بهذا القرار من قبل حاميه . . . وهنا ينقطع النص بفراغ طويل - ويبدو من الراجح ان زيسودرا تلقىٰ تعليمات دقيقة تتعلق ببناء السفينة . وبعد سبعة أيام وسبع ليال ، ظهرت الشمس مجدداً ، فخر (زيسودرا) ساجداً أمام إله الشمس (اوتو) . . . . وفي آخر القطعة المحفوظة . . . . ان (آن/وانليل) منحاه (حياة إله) و (نفخة الخلود) الإلهية واقراه في البلاد الخرافية من (ديلمون)[١٤] .

وسنجد ترجمة الطوفان في ملحمة جلقامش ، هذا العمل الشهير ، الذي حفظ بدرجة جيدة ، وهو يوضح بشكل أفضل المتشابهات مع القصة البابلية . ومن الراجح ان هذا يتصل بمصدر مشترك قديم جداً . وكما هو معلوم منذ تجميعات ، ر . أندرية R . Andree وهـ . اوزبر H . Usenerو ج ج فريزر . J . G Fruzer إن اسطورة الطوفان هي تقريبا منتشرة عالميا ؛ وقد تأكدت في كل القارات (مع كونها نادرة جداً في إفريقيا) وعلىٰ مستويات مختلفة من الثقافة . ان العديد من رواياتها المختلفة تبدو حصيلة الانتشار ، بدءاً من (ميزوبوتاميا) ما بين النهرين وبالتالي من الهند . ومن الممكن أيضاً ان كارثة أو عدة كوارث طوفانية قد أخذت مكانها في القصص الخرافية . غير انه سيكون من الغباء تفسير اسطورة منتشرة هذا الانتشار لم نجد آثارها الجيولوجية . ان الأغلبية من الأساطير الطوفانية تبدو أنها تشكل جزءاً من ايقاع كوني - نوعا ما : فالعالم القديم ، المسكون ببشرية منحطة غرق في الماء ، وبعد فترة من الزمن ، طفا (عالم جديد) من المتاهة المائية Du Chaos Aquatique Cosmique

في عدد كبير من القصص المختلفة ، ان الطوفان هو حصيلة الآثام أو (الخطأ الشعائري ، للبشرية . وأحيانا ينتج بكل بساطة عن رغبة كائن إلهي في ان يضع نهاية للبشرية . وانه لمن الشاق العسير التحديد بدقة لسبب الطوفان في تقاليد ما بين النهرين . إن بعض الاشارات تفهم بأن الآلهة اتخذت هذا القرار بسبب المذنبين . وفي تقليد آخر ان غضب(ينليل) قد اثير بسبب الضخب الذي لا يحتمل من الناس[١٦] . مع ذلك ، اذا تفحصنا الأساطير في بعض الثقافات الأخرىٰ ، التي تنبيء بطوفان قريب ، نلاحظ ان الأسباب الرئيسية ترد في آن واحد في ذنوب البشر وفي عجز العالم . فبالواقع البسيط الموجود ، أي ان الكون حي فهو ينتج ويفسد تدريجيا وينتهي إلىٰ التلف ، وهذا هو السبب الذي من أجله يجب عودة الخلق . وبعبارة أخرى إن الطوفان يحقق علىٰ المقياس الكوني الكبير Macro Cosmique ماينجز رمزياً اثناء عيد السنة الجديدة : (نهاية العالم) وبشرية مؤثمة ، لتجعل ممكنا خلقاً جديداً[١٧] .

١٩ ـ السقوط للجحيم : عينانا وديموذي :

ان ثالوث الآلهة الكوكبية كان يضم نانا ـ سوين (القمر) ، و ، اوتو Utu (الشمس) وعينانا Inanna ، ربة النجم فينوس والحب . وان آلهتي القمر والشمس سيعرفان أوج مجدهما في العصر البابلي ـ أما عينانا المماثلة (ishtar) لعشتار الأكادية وفيها بعد عشتارت Ashtarté ، فإنها ستتمتع بفعلية (Actualit´e) طقوسية وميتولوجية لم تصل إلىٰ مثلها ربة أخرىٰ في الشرق الأدنى . في عظمتها ، كانت عينانا ـ اشتار في آن واحد ربة الحب والحرب أي إنها تحكم الحياة والموت ، وللدلالة علىٰ كمال قدراتها يقال انها خنثى (Ishtar Basbata) = Hermaphrodite . لقد رسمت شخصيتها فيها سلف تماماً في العهد السومري وان اسطورتها المركزية تشكل واحدة من أكثر دلالات خلائق العالم القديم . هذه الاسطورة تفتح بتاريخ حب : إن (عينانا) الربة الوصية أو حامية ايريك Erech تتزوج من الراعي (ديموزي)[١٨] والذي يصبح بهذا ملك المدينة . وتبرز عينانا

عاليا كل هيامها وسعادتها : «انني امشى في سرور . . . سيدي جدير بحضن مقدس» . وغالبا ما تتوقع المصير المأساوي الذي ينتظر زوجها : «آه يا حبيبي . . . يا رجل قلبي . . . لقد قدتك . أنت . . . صوب قدر غاشم . . . لقد لامس فمي فمك . . . لقد ضغطت بشفتي على رأسك . . . ولهذا أدنت بمصير غاشم[١٨] . . . » . هذا (المصير الغاشم) قد أخر اليوم الذي قررت فيه الطامحة عينانا ان تنزل إلىٰ الجحيم لكي تخلف شقيقتها البكر (ايريشكيجال) Ereshkijal . ان ملكة (المملكة الكبرىٰ في الأعلىٰ) ، عينانا أملت ان تحكم أيضاً في العالم السفلي . لقد نجحت في الدخول إلىٰ قصر (ايريشكيجال) ولكنها ما أن اجتازت الأبواب السبعة (حتىٰ جردها البواب من ثيابها وحليها) . فوصلت (عينانا) عارية تماما ـ أي مجردة من كل سلطة ـ في حضرة أختها . فثبتت (ايريشكيجال) نظرة الموت عليها ، وأصبح جسمها خامداً . وفي خلال ثلاثة أيام ، أعلمت صديقتها الوفية (ننشوبور) مراعية التعليمات التي كانت أعطتها لها عينانا قبل سفرها ، أعلمت الالهين (اينليل /و/نالنين/ ولكنهما تنصلا ، ثم قالا : إن الدخول في نطاق ـ أرض الموتى ـ المحكومة بقرارات لا يمكن انتهاكها ، (ارتكبت عينانا أشياء ممنوعة) . ومع ذلك وجد (انليل) حلًا : فقد خلق رسولين ارسلهما للجحيم ، مجهزين (بغذاء الحياة) و (ماء الحياة) ، وبالحيلة توصلا لاعادة احياء (الجثة المعلقة على وتد) وتهيأت عينانا للصعود وعندها أمسك بها قضاة جهنم السبعة . (الانوناك) Les Annunak قائلين : «من هو الذي نزل للجحيم وصعد بدون خسارة ؟ ؟ فاذا أرادت (عينانا) الصعود من الجحيم فعليها واجب تقديم من يحل محلها[١٩]» .

عادت (عينانا) إلىٰ الأرض مخفورة بقطيع من الشياطين ، (الغالا) Les (Galla) : وكان علىٰ هؤلاء اعادتها اذا لم تقدم لهم كائنا إلهيا آخر . ولقد أراد الشياطين بدئيا سرقة نينشوبور Ninshubur ، ولكن (عينانا) منعتهم . فتوجهوا جميعاً بعدئذ نحن مدن اوما Umma وباد تيبيرا Bad - Tibira .

وقد انسحب الحماة المرعوبين من الخوف وقررت الربة الشفوقة البحث عنهم في كل مكان . واخيراً وصلوا إلىٰ ايرك Erech . ومع الدهشة والسخط اكتشفت

(عينانا) أن (ديموزي) بدلاً من ان ينتحب ، كان جالساً علىٰ عرشه بثيابه الفخمة ، راضيا بكونه ، كما قيل ، الملك الوحيد للمدينة . (فحدقت بعينها ـ عين الموت ـ عليه . وتلفظت بكلام ضده . . وهتفت بلعنه واشارت للشياطين هذا هو . . . احملوه[٢٠] .

فاستجار ديموزي بصهره ـ اله الشمس ـ اوتو أن يمسخه افعىٰ ، وهرب نحو مسكن (أخته) جيشتينانا Geshtinana ، ثم نحو حظيرة للخراف . وهنالك قبض عليه الشياطين ، فعذبوه وقادوه للجحيم . . . ويلي هذا فراغ في النص يمنع من تكملة القصة . . . «حسب كل احتمال ، فإن ايرشكيجال التي أشفقت علىٰ دموع ديموزي ، ألانت من مصيره المحزن فقررت ان هذا لن يبقىٰ سوىٰ نصف السنة في العالم السفلي ، وان اخته (جيشتينانا) ستحل محله خلال النصف الآخر . . . (كرامر ص ١٤٤) .

ان نفس الأسطورة مع بعض الاختلاف في المعاني ترد في النص الأكادي ، عن نزول عشتار إلىٰ الجحيم . وقبل طباعة وترجمة النصوص السومرية كان من الممكن الاعتقاد بأن الربة قد توجهت نحو (أرض اللا عودة) بعد (موت) تموز Tamuz وبدقة من أجل اعادته . ان بعض العناصر ، الغائبة في النص السومري بدت مشجعة لمثل هذا التفسير : وفي المحل الأول ، ان النتائج المأساوية لأسر (عشتار) المشار إليها في النص الأكادي : توقف كامل للانتاج الانساني والحيواني بعد اختفاء الربة .

ويمكن فهم هذه الكارثة كما لو انها تشكل تتمة لانقطاع الزواج المختلط Hieros gamos بين الهة الحب والخصب وبين تموز ، زوجها الحبيب . إن الكارثة كانت علاقات كونية . وفي النص الاكادي ، ان الآلهة المذعورة من الزوال الفجائي للحياة استمرت بالتدخل لتحرير (اشتار) .

ان مما يدهش في النص السومري ، هو القرار (النفساني Psy ehologique, أي البشري لادانة (دموزي) : كل شيء يبدو واضحاً بغضب (عينانا) عند رؤيتها

لزوجها مستقراً بابهة علىٰ عرشها . ان هذا التفسير الرومانسي يبدو انه يغطي علىٰ فكرة أكثر قدما : الموت ـ شعائريا ، اذن قابل للاعادة ـ يتبع لا محالة كل عمل من خلق أومن ولادة . ان ملوك سومر ، شأنهم شأن ملوك الأكاديين فيما بعد ، جسدوا ديموزي في الزواج المختلط Hieras gamos مع (عينانا[٢١]) . وهذا يستدعىٰ قليلاً أو كثيراً ، قبول (الموت) الشعائري للملك . وفي هذه الحالة يجب الافتراض انه خلف التاريخ المنقول في النص السومري (سر) منشأ من عينانا ، بهدف ضمان دورة الخصب الشامل . وقد يمكن الظن بوجود تورية لهذا (السر) في الجواب المزري ، لجلقامش ، عندما دعته (عشتار) ليصبح زوجها : لقد ذكَّرها بأنها هي التي قررت (المناحات) السنوية من أجل (تموز)[٢٢] . ولكن هذه المناحات كانت شعائرية : كان يندب فيها سقوط الاله الشاب للجحيم في الثامن عشر من تموز (حزيران ـ تموز) مع تمام العلم بأنه (سيصعد) ستة أشهر بعد ذلك .

ان عبادة تموز امتدت تقريبا إلىٰ الشرق الأدنى وفي القرن الرابع (ب م) أنَب حزقيال (٧ : ١٤) نساء أورشليم اللواتي كن يندبن حتىٰ على أبواب المعابد ، تموز المنتهىٰ باعتلاء الوجه المأساوي والرثائي للآلهة الشباب الذين يموتون ويبعثون سنويا . الا انه من الراجح ان نموذجه المحتذى السومري كانت له بنية أكثر تعقيداً : فالملوك الذين يجسدونه ، وبالنتيجة يقاسمونه مصيره ، كانوا يكرمون سنوياً اعادة خلق العالم . وعليه ، ولكي يمكن ان يخلق من جديد ، فإنه يتوجب على العالم ان يمحق ، فالعماء قبل النشكونية ادخل أيضاً /الموت ، الشعائري للملك ، نزوله للجحيم . ان النموذجين الكونيين ـ حياة/ موت ، عماء/ كون جدب/ خصوبة ـ كانت تشكل ، باختصار الفترتين لحالة أو سيرورة واحدة . وان هذا السر المدرك ، بعد اكتشاف الزراعة ، يصبح المبدأ لشرح موحد للعالم ، وللحياة والوجود البشري ، انه يصعد المأساة النباتية ، لأنها تحكم كذلك ايقاعات الكونية ، والمصير البشري والعلاقات مع الآلهة . ان الاسطورة تقص خيبة ربة الحب والخصب للغلبة على عرش /ايريشكيجال/ ، أي لالغاء الموت . وبالنتيجة فإن البشر ، كذلك بعض الآلهة ، توجب عليهم قبول التناوب حياة /موت . فديموزي ـ تموز غاب ليعاود الظهور بعد ستة أشهر . وهذا التناوب ـ

الحضور والغياب الدوري للاله ـ كان قابلاً لتكوين /أسرار/ هامة ، خلاص البشر ، مصيرهم المحتوم . ان دور ديموزي ـ تموز المجسد شعائريا من قبل الملوك السومريين الاكاديين كان معتبراً ، لأنه حقق التقارب بين النماذج الالهية البشرية . وفيما بعد فكل كائن بشري يستطيع أن يأمل بالتمتع بهذا الامتياز المحجوز للملوك .

٢٠ ـ التركيب السومري ـ الأكادي:

إن غالبية مدن المعابد السومرية قد جمِّعت تحت حكم /لوجالزاجيني/ Lugalzaggisi ملك /أوما/ ، حوالي ٢٣٧٥ق .م ، وهذا هو المظهر الأول للفكرة الامبراطورية المعروفة . وبعد جيل تكرر المشروع بنجاح أكثر ، من قبل (صارغون)sargon ملك أكاد . ولكن الحضارة السومرية احتفظت بكل مقوماتها ، فقد عني التغيير ملوك مدن ـ المعابد لوحدهم : لقد اعترف بهم كدافعي جزية للفاتح الأكادي . وقد انهارت امبراطورية (صارغون) بعد قرن من الزمان نتيجة هجمات (الغوتيان)Gutiens «البرابرة» الذين كانوا يتنقلون كبدو رحل في أقليم أعلى الدجلة . ومنذئذ فان تاريخ (ميزوبوتاميا) ـ ما بين النهرين ـ بدا بأنه سيتكرر . لقد تحطمت الوحدة بين سومر وأكاد من قبل البرابرة من الخارج وبدورهم ، فان هؤلاء الآخرون يقلبون نتيجة ثورات داخلية .

وهكذا فان سيادة /الغوتيان/ لم تدم سوى قرن وحل محلها لقرن آخر (٢٩٥٠ ـ ١٩٥٠) ملوك الأسرة الثالثة لأور . وانه خلال هذه الفترة وصلت الحضارة السومرية لأوجها . ولكن هذا كان المظهر الأخير للقوة السياسية لسومر . وقد انهارت الامبراطورية بعد أن تمزقت من قبل العيلامين في الشرق والعموريين في الغرب الذين جاءوا من الصحراء العربية السورية . وخلال أكثر من قرنين بقيت ميزوبوتاميا مقسمة لعدة دول . وليس سوى حوالي ١٣٠٠ ان حمورابي الملك العموري في بابل نجح في فرض وحدتها . فقد ثبت مركز الامبراطورية

في الشمال الأقصى ، في المدينة التي كان ملكها ، ان الاسرة المالكة المؤسسة من قبل حمورابي الذي ظهر قويا جدا ، قد حكمت أقل من قرن . فنزل برابرة آخرون من الشمال /القسيط/Leskassite وبدؤوا بتمزيق العمورين . وأخيرا حوالي ١٥٢٥ ق .م انتصروا وبقوا أسياد ميزوبوتاميا لأربعة قرون .

إن المرور من مدن ـ المعابد الى مدن ـ الدول والى الامبراطورية يمثل ظاهرة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ الشرق الأدني[٢٣] . وما يهمنا هنا هو التذكير بأن السومرية ، ـ مع أنه توقف الكلام بها نحو ٢٠٠٠ ق .م ـ فانها قد حافظت على وظيفتها كلغة طقسية وبالجملة لغة علم خلال خمسة قرون أيضا . ان لغات أخرى طقسية عرفت مصيراً مشابهاً : السنسكريتية ، العبرية ، اللاتينية ، السلافية القديمة . . الخ . وان الرجعية الدينية السومرية استطالت في البنى الأكادية ، فبقي الثالوث الأعلى ذاته : أنو ـ انليل ـ إيا = «انكى» . وان الثالث النجمي استعار في جزء منه الأسماء السامية للآلهة المتتابعة : القمر /سين/ المشتق من السومرية /سوين/ ـ الشمس ـ شمس ، النجمة فينوس ـ عشتار = عينانا . وان العالم السفلي يستمر محكوما من /ايرشيجال/ وزوجها /نيرجال/ . وان التغيرات النادرة ، المفروضة باحتياجات الامبراطورية ـ مثل تحول الأولوية الدينية الى بابل وابدال اينليل بمردوك marduk ـ (احتاجت الى قرون من الزمن لتحقيقها)[٢٤] . أما بالنسبة للمعبد ، «فلم يتغير شيء هام في النظام العام [. . . .] منذ الطور السومري ، ان لم يكن الاتساع وعدد الأبنية»[٢٥] .

مع ذلك ، فان معطيات العبقرية الدينية السامية ، أضيفت الى البنى السابقة ، وتشير بدئيا الى الالهين (الوطنيين) ـ ماردوك البابلي ، وبعدئذ أشور الأشوري ـ اللذين رفعا الى مصاف الآلهة العالميين . كذلك الأمر فإن الأهمية المكتسبة في العبادة لها دلالتها بالصلوات الشخصية ومزامير التوبة . إن واحدة من أجمل الصلوات البابلية موجهة الى كافة الألهة ، حتى تلك التي يقبلها المصلي بخشوع ولا يعرفها . . «أواه ! سيدي . . كبيرة هي ذنوبي . . أيها الاله الذي لا أعرفه ، كبيرة هي آثامي . . أيتها الربة التي لا أعرفها ، كبيرة هي ذنوبي . . الانسان لا يعلم شيئاً . . إنه لا يعلم فيها اذا كان يخالف الشريعة/القانون/ أو ما

اذا فعل الخير . . أواه . . يا سيدي ، لا تلفظ خادمك . . إن ذنوبي سبعة بسبعة . . أبعد ذنوبي عني . . »[٢٦] . وفي مزامير التوبة يقر المصلي بأنه مذنب ويعترف بذنوبه بصوت عال . ان الاعتراف مصحوب باشارة طقسية lutirgique محددة : ركوع ، سجود وتسطيح الأنف . إن الآلهة الكبرى - انو - انليل - ايا - فقدوا تباعاً التفوق في عبادتهم . . وأخذ المؤمنون يتوجهون بالأكثر إلى مردوك والى الآلهة الكوكبية عشتار وبصورة خاصة الشمس . ومع الزمن أصبح هذا الأخير الاله العالمي بامتياز . وهنالك دعاء يعلن ان الاله الشمسي مقدس في أي مكان ، حتى لدى الأجانب . شمس يدافع عن العدالة ، يعاقب المسيء ، يكافىء العادل[٢٧] . (إن الصفة النومينية Numineus للآلهة تتنامى : انهم يلهمون الخوف المقدس ، وبصورة خاصة بنورانيتهم المرعبة ، وان النور اعتبر كتابع ممتاز للألوهية ، وفي المعيار الذي يقتسم فيه الملك الشرط الالهي هو بذاته مشع Raynnant[٢٨] .

وثمة ابداع آخر للفكر الديني الأكادي هو العرافة أو التنجيم ، ويلاحظ أن تعدد الممارسات السحرية وتطور الأنظمة السرية (وعلى الأخص التنجيم) ، أصبح شعبيا في كل العالم الاسيوي وعالم البحر المتوسط .

وباختصار ، فان المعطى السامي يتميز بالأهمية المناطة بالعنصر الشخصي في التجربة الدينية وبتمجيد بعض الآلهة الى مستوى عال . ان هذا التركيب الجديد المتعالي الميزوبوتامي غالباً ما يمثل رؤية مأساوية للوجود البشري .

٢١ - خلق العالم

إن القصيدة النشكونية المعروفة تحت اسم /اينوما ايليش/ - حسب الاستهلال : عندما في العلى . . - تشكل مع ملحمة جلقامش الابداع الأكثر أهمية للدين الأكادي . وهي لا مثيل لها في العظمة ، وفي التوتر المأساوي ، وفي

الجهد لوصل أنساب الآلهة ، والنشكونية ، وخلق الانسان في الأدب السومري . إن اينوما ايليتش تروى بتفصيل أصول العالم لكي تمجد مردوك . ورغم اعادة تفسيرها ، فان الترجمات لها قديمة . بدئيا ، ان الصورة الأولى لشمولية مائية غير مميزة ، وفيها يميز أول زوجين أبسو Apsu وتيامات T iamat «مصادر أخرى تحدد بدقة أن تيامات تمثل البحر وأبسو الكتلة المائية الحلوة التي تطفو الأرض عليها» . وكما هو الشأن لآلهة أصلية أخرى فان /تيامات/ تحمل بذات الوقت كامرأة وكمزدوجةالجنس biesexûel . ومن خلط المياه الحلوة والمياه المالحة تولدت أزواج الهية أخرى . ويجهل تقريبا كل شيء عن الزوجين الثانيين ، /لاكهمو/ و/لاكهامو/ (حسب أحد التقاليد ، قد ضحي بهما من أجل خلق الانسان) . أما بالنسبة لثالث زوجين /آنشار/و/كيشار/ فان اسميهما يعني بالسومرية (مجموعة العناصر العليا) ومجموعة العناصر السفلى .

الزمن يمضي (تمتد الأيام ، وتتعدد السنون)[٢٩] . من هذا الزواج المختلط hierosgomos لهاتين المجموعتين المتكاملتين ولد اله السماء /آنو/ الذي ولد بدوره نوديمود = إيا[٣٠] وبلعب وصراخ هذه الآلهة الشابة ، تعكرت راحة /ابسو/ . فشكا هذا الى /تيامات/ «ان سلوكهم غير محتمل لدي ، ومن اليوم لا أستطيع أن أرتاح ، وفي الليل لا أستطيع النوم . فأريد إبادتهم بهدف وضع حد لضجيجهم وصخبهم . وليسود السكون بالنسبة لنا ، و/أخيراً/ نستطيع النوم» (١ ـ ٣٧ ـ ٣٩) . في هذه الأبيات من الملحمة يمكن استخلاص حنين «المادة» (أي طريقة التكون التي تناسب الجمود أو القصور الذاتي وعدم شعور المادة) للسكون الأولي ، ومقاومتها ضد كل حركة ، كشرط مسبق للتشكونية . وتأخذ «تيامات» بقذف الشتائم ضد زوجها ، وتطلق صرخة ألم [. . .] : «ماذا ! نحن ذاتنا سندمر ما خلقناه ! صحيح أن سلوكهم مزعج ولكن يجب أن نصبر بسرور (١ ـ ٤١ ـ ٤٦) . ولكن ابسو لم يقتنع . وعندما تبلغت الآلهة الصغيرة قرارأجدادها (وجمت ، سكنت هدأت (١ ـ ٥٨) ولكن /ايا/ اله الحكمة و/كلي العلم/ أخذ زمام المبادهة فرسم دائرة سحرية تحيط بالآلهة تقيها وتحرسها ، وألف رقية سحرية نوَّم بها /أبسو/بسبات عميق . ورفع عنه بريقه والبسته وبعد أن قيده قتله وهو

نائم . وأصبح /ايا/ الاله غير المنازع للمياه والتي كانت سابقاً تخص ابسو . «في غرفة الاقدار ، معبد النماذج» (١ ـ ٧٩)ـ جعل /إيا/ جثة أبسو مسكنا له مقاما يبنى عليه هياكله وعلى أبسو أقام ايا مع زوجته ، وعلى أبسو ولد مردوك من زوجته /دامكينا/ . ان النص يمجد العظمة الكبرى والحكمة والقوة الشاملة لهذا المولود الأخير للآلهة . انه عندئذ عاود /آنو/ معركته ضد أجداده . لقد استخدم الرياح الأربعة ، وخلق الظلمات ليزعج تيامات (١ ـ ١٠٨) جاء أبناء الآلهة الى أمهم تيامات وهم يضمرون السوء قالوا : عندما قتل أبسو أين كنت ، هل حميته ؟ لقد بقيت جانبا ـ دون كلمة (I ـ ١١٣ ـ ١١٤) .

سرت تيامات . تحرك في داخلها حب الانتقام . راحت تعد العدة . ولَدَت تيامات حيات مرعبة . أسنانها حادة ـ عوضاً عن الدم ملأت جلدها بالسم . خلقت الثعابين والأسود والكلاب المسعورة والعقارب على صورة بشر . خلقت أحد عشر نوعاً من هذه الحيوانات ـ الأسلحة وأمرت عليها الاله /كنجو/ رئيس مجمع الآلهة . علقت على صدره ألواح القدر وجعلته المقدم في مجلس الآلهة . وإزاء هذه التجهيزات فقد الآلهة الشباب الشجاعة . فلا آنو ولا أيا تجاسرا على مواجهة /كينجو/ . ولا أحد سوى ماردوك الذي قبل النزال للمعركة ولكن على

شرط أن يرسم أولاً الاله الأعلى ، وهذا ما سارع الآلهة بالموافقة عليه وأعلن أنه مقسم الأقدار ومطلق التصرف . ان المعركة بين الجيشين تقررت في المبارزة بين تيامات ومردوك (وكما فتحت تيامات فمها لابتلاعه«٩٧ ١٧») فإن مردوك قذف الرياح العاتية التي هبت في داخلها ، فلم تستطع أن تطبق فمها ، وانتفخ بطنها، فتحت شدقيهااذ ذاك رمى قلبهابنبله، فانشق قلبها وراح مردوك يجهز عليها ، ورمى بجثتها الهائلة على الأرض وانتصب فوقها . وحاول مساعدو تيامات أن ينجوا ولكن ماردوك «أوثقهم وكسر أسلحتهم» وقيد بعدئذ كينجو بالسلاسل ، وانتزع من صدره ألواح القدر المغتصبة وختمهامردوك بخاتمة ، وعلقها على صدره (اللوحة ٤) وأخيراً عاد الى تيامات ففصل جمجمتها وقطع شرايين القلب وأوردته وجعل الرياح تحمل الدم، تنثره في زوايا الأرض. شطر

جسدها شطرين ، اعلاهما ثبته في السماء ، منه خلق السماء والأسفل ثبته في الأرض منه خلق الأرض وفي السماء ثبت ثالوثاً مقدساً أنو وانليل وايا .

وجه مردوك الى السماء جواباً من قصر /ابسو/ وثبت مسيرة النجوم . واللوح الخامس من الملحمة يقرر تنظيم العالم النجومي وتحديد الوقت وتشكيل الأرض بدءاً من أعضاء تيامات «من عينيها سالت دجلة والفرات ، من خصلة من ذنبها ، خلق الرابطة بين السماء والأرض . وسلط القمر على الليل وجعله زينة في الليل به يعرف الناس موعد الأيام في بدء الشهر يطل القمر الخ» وأخيراً قرر مردوك خلق الانسان لكي يخدم الآلهة . . (٨ - VI) لقد انتظرت الآلهة المقيَّدة دوماً العقاب واقترح /ايا/ : الاله الذي أذنب الاله الذي ثار ، أسفك دمه ومن دمه تخلق الانسان . ويسؤالهم من منكم أوغر صدر تيامات ؟ وأثار الحرب وحرضها على العصيان . أشاروا جميعهم لأسم واحد . . كنجو ـ كنجو هو الذي ثار . فقطعت شراينه وسال الدم ومن الدم خلق /إيا/ الانسان /٣٠ ـ ٧١ ـ ٣١/ خلقه ليعبد الآلهة يخدمها وهكذا حرر مردوك الآلهة من العبودية . . وتروي الملحمة تعيين مردوك ثلاث مئة اله للسماء لحكمها وثلاثمائة لحكم الأرض . وان الآلهة تعبيرا عن شكرهم تنادوا لبناء مسكن له لبناء هيكل وفرح مردوك وفي السنة الأولى صنعوا اللبنات وفي الثانية بنوا هيكلاً أقاموه على جسد أبسو وأسماه مردوك /بابل/ ليكون مسكنا لثالوث ـ مردوك وانليل وايا .

باستعمالنا لكل النغمات الأسطورية التقليدية ، فان (الاينوما ايليتش) تقدم /كوزمولوجيا/ غامضة للغاية ، وانتروبولوجيا متشائمة . فلأجل تمجيد البطل الشاب (ماردوك) فان الالهة الاولى (عصر البدء) وفي المكان الأول /تيامات/ كانوا مثقلين بقيم /شيطانية/ . ان تيامات ليست المجموعة العمائية البدائية التي تسبق كل نشكونية cosmogonie لقد انتهت لتتكشف بأنها صانعة الغيلان التي لا حصر لها ، إن /ابداعيتها/ سلبية تماما . ذلك هو ما تثيره /الإينوما ايليتش/ فالتقدم الخلاق تعرض في وقت مبكر جداً للخطر برغبة /ابسو/ اعدام الآلهة الشباب ، أي باختصار لوقف خلق الكون في بذرته engerme .

(إن واحدا في /العالم/ كان موجودا عندئذ ، طالما أن الآلهة كانت تكاثرت وتملكت /مساكن/ ؛ ولكنه كان يتعلق بطريق للتكون شكلية بحتة . ان مقتل /أبسو/ فتح السلسلة (لقتلة خالقين) . لأن /ايا/ لم يأخذ مكانه فحسب ، ولكنه صمّم أول تنظيم في الكتلة المائية «في هذا المكان بنى محل اقامته [. . . .] وحدد المعابد» . ان النشكونية ، هي حصيلة نزاع بين مجموعتين من الآلهة ، ولكن مجموعة (تيامات) تتضمن مخلوقاتها الغيلانية والشيطانية وبعبارات أخرى /البدئية/ Primordlialit´e بحالتها التي ظهرت كمصدر /للمخلوقات السلبية/ . ومن سلخ تيامات شكل مردوك السماء والأرض . ان النغمة التي تأكدت في تقاليد أخرى قابلة لتفسيرات مختلفة . فالعالم ، المشكل من جسد آلهة أصلية ، يشاطر مادتها ، ولكن بعد /شيطنة/ تيامات ، هل يمكن التكلم عن مادة الهية ؟

ان الكوزموس (الكون) ينقسم اذن ، لطبيعة مزدوجة : /مادة/ متناقضة ، ان لم تكن شيطانية بكل صراحة ، و/شكل/ الهي ، لأنه صنعة مردوك . ان القبة السماوية مشكلة من نصف جسد تيامات ، ولكن النجوم والأفلاك تصبح (مقرات) او صور للآلهة . وان الأرض ذاتها تضم النصف الثاني من تيامات ، وأعضائها المختلفة ، ولكنها تقدست بالمدن والمعابد . وبنتيجة الحساب ، فان العالم يظهر حصيلة لخليط من (اولية) عمائية وشيطانية من جهة ، وابداعية ، حضور وحكمة الهية ، من الجهة الأخرى ، وهذه قد تكون الصيغة النشكونية الأكثر تعقيداً التي توصل اليها التفكير والتأمل /الميزوبوتامي/ اللذان جمعا في تركيب جريء كل مقومات مجتمع الهي والتي غدا بعضها غير مفهوم وغير قابل للافادة منه .

أما بالنسبة لخلق الانسان ، فانه مدد التقليد السومري (الانسان خلق لخدمة الآلهة) وبصورة خاصة فان النص الذي يشرح الأصل بدءاً من الالهين /لاغما/ Lagma المضحى بهما ، ولكنه يضم الى هذا العنصر المثقل : كينجو ، بالرغم من أنه كان واحداً من أوائل الآلهة ، وقد أصبح الشيطان العتيق L'archidemon رئيس قطيع الغيلان والشياطين التي خلقتها تيامات . فالانسان اذن مشكل من

مادة شيطانية دم كينجو . ان الخلاف مع النصوص السومرية هو ذي دلالة . ويمكن التكلم عن تشاؤمية مأساوية ، لأن الانسان يبدو قد أدين مسبقاً بأصل تكوينه الخاص . ان أمله الوحيد هو أنه صنعة إيا ؛ انه يملك اذن (شكلا) مخلوقا من قبل إله ، من هذه الوجهة النظر ، يوجد تناظر بين خلق الأنسان وأصل العالم . وفي الحالتين ، فان المادة الأولى مشكلة من المادة والجوهر لألوهية أولية ساقطة مشيطنة ومعرضة للموت من قبل الآلهة الشباب المنتصرين .

٢٢ ـ قداسة الملك /الميزوبوتامي/

في بابل كانت الاينوما ايليتش تتلى في المعبد ، اليوم الرابع من عيد أول العام . .

هذا العيد المسمى (زاكموك Zagmuk) (بدء السنة) في السومرية و /أكيتو/ Akitu في الأكادية كان يحدث خلال الاثني عشر يوماً من شهر نيسان Nisan . وكان يشتمل على عدد من الترانيم والتي نذكر أكثرها أهمية : ١) يوم التكفير من أجل الملك المناسب لأسر مردوك ٢) تحرير ماردوك ٣) معارك شعائرية وتطواف انتصاري تحت قيادة ملك ؛ في بيت أكيتو Bit Akitu (فترة عيد العام الجديد حيث تقام الوليمة) ٤ ـ الزواج المختلط le hirsos gamas للملك مع عبدة المعبد ممثلة الربة . ٥ ـ تحديد الاقدار من قبل الآلهة .

إن أول احتفال من هذا السيناريو الاسطورى ـ الشعائري ـ التمجيد للملك وأسر ماردوك ـ يرمز الى ارتداد العالم للعماء الما قبل كوني . في مقبرةماردوك كان الكاهن الاكبر يجرد الملك من شاراته (الصولجان ، والخاتم ، والسيف والتاج ، يضربه على وجهه . ثم يتلفظ الملك ، وهو راكع ، بتصريح عن براءته : «لم اذنب ، يا رب البلاد ، ولم أكن مهملاً تجاه الوهيتك» . وكان الكاهن الاكبر يجيب باسم ماردوك : (لا تخف . . . ان ماردوك سيسمع دعاءك . . وسينمي مملكتك»[٣٢] .

خلال هذا الوقت ، كان الشعب يبحث عن ماردوك ، معتقداً انه سجين في الجبل» وهذه صيغة تشير /لموت/الهة . وكما رأينا في شأن ـ (عينانا ـ عشتار) إن هذا الموت لم يكن نهائياً ، وغالباً ما كان يتوجب على الربة افتداءه من العالم السفلي . كذلك ، فإن مردوك كان مكرهاً للنزول (بعيداً عن الشمس والنور)[٣٣] . اخيراً كان قد تحرر وتجمعت الآلهة (أي جمعت تماثيلها) من أجل تحديد الاقدار . (إن هذا المشهد يتناسب ، في الاينوما ايليش مع ترفيع مردوك لاله اسمى» . وقد قاد الملك الطواف حتى بيت اكيتو ، وهو بناء قائم خارج المدينة . وان الطواف يمثل جيش الالهة المتجه ضد تيامات . وحسب تسجيل (لسنحاريب) يمكن الافتراض بأنه كان يقلد ايمائياً المعركة الاولى ، فالملك كان يشخص ، آشور ، (الاله الذي كان قد حل محل ماردوك)[٣٤] وان الزيجة المختلطة Hierosgamos كانت تحصل بعد العودة من مأدبة بيت اكيتو . ان الفعل الاخير كان يتركب في تحديد المصير لكل شهر من السنة . بتجديدها ، كانت تخلق السنة شعائرياً ، اي كان يضمن الحظ ، والخصب والوفرة للعالم الجديد الذي ولد .

إن (الاكيتو) l'Akitn يمثل الترجمة الميزوبوتامية لسيناريو اسطوري شعائري منتشر جداً ، وبصورة خاصة عيد العام الجديد المعتبر كتكرار للنشكونية[٣٦] فطالما ان التجدد الدوري للكون يشكل الأمل الكبير للمجتمعات التقليدية ، فإننا ستشير لأعياد العام الجديد . ولنحدد بدقة منذ الآن ان عدداً من مشاهد (اكيتو) تتلاقي ـ وبالتحديد في الشرق الادنى ـ وفي مصر ولدى الحثيين وفي اوغاريت وايران وعند المانديين mandeén وهكذا ، على سبيل المثال ، فإن (العماء) الذي حُيِّين شعائرياً في الأيام الاخيرة من السنة ، قد ، عني به الافراط التهتكي من نموذج الساتورناليا Saturnalia ، وبقلب كل النظام الاجتماعي باطفاء النيران وعودة الموتى (الممثلة بالاقنعة) . وان المعارك بين مجموعتين صوريتين تأكدت في مصر ، وعند الحثيين وفي اوغاريت . ان العرف بتثبيت المصائر لاثنى عشر شهراً تحصل خلال الاثني عشر يوماً الكبيس توجد كذلك في الشرق الاوسط وفي اوروبا الشرقية .

ان دور الملك في الاكيتوم غير معروف بما فيه الكفاية . وان تكريمهُ يتلاءم مع تراجع العالم /للعماء/ ولأسر مردوك في الجبل . فالملك يشخص الاله في المعركة ضد (تيامات) وفي الزواج المختلط Hieros gamos . مع خادمة المعبد ولكن التطابق مع الاله لا يشار اليه دوماً : فكما رأينا أثناء(تكريمه) كان الملك يتوجه الى مردوك . مع ذلك ، فإن قداسة الملك الميزوبوتامي قد تأكدت على نطاق واسع . وقد اشرنا للزواج المقدس للملك السومري ، ممثلاً (ديموزي) مع الربة (عينانا) ! هذا الزواج المختلط كان يجري اثناء عيد رأس السنة الجديدة (١٩ ع) . بالنسبة للسومريين ، كانت الملكية مشتهرة بانها نازلة من السماء ، وكان لها اصل الهي ، وهذا المفهوم استمر قائماً حتى انهيار الحضارة الاشورية ـ البابلية .

ان قداسة الملك كانت قد اعلنت بطرق عديدة . فكان يدعى (ملك البلاد) (اي العالم) او (اقطار العالم الاربعة) ، القاب موقوفة اصلياً على الآلهة[٣٨] . وتماماً كما هو لدى الآلهة ، فإن نوراً فوق الطبيعي ، كان يشع حول رأسه[٣٩] . وسبق قبل ولادته ان قدرت الالهة له السيادة . ان الملك ، وهو يعرف تماماً ذريته الارضية ، كان معتبراً (كابن الاله) اي (اعلن ان حمورابي حمل سين Sin وليبيتيشتار بانليل) هذا النسب المزدوج جعله الوسيط الممتاز بين الالهة والبشر . الملك يمثل الشعب امام الآلهة وهو الذي يغفر ذنوب رعاياه . وعليه احياناً ان يتحمل الموت من أجل جرائم شعبه ، وتلك هي الحجة التي كان لدى الآشوريين من أجلها (بديل للملك)[٤٠] . وتعلن النصوص ان الملك عاش في علاقة حميمية مع الآلهة في الجنة الاسطورية حيث توجد شجرة وماء الحياة[٤١] ، (في الواقع ، انه هو ومن يليه الذين يأكلون الاطعمة المقدمة يومياً لتماثيل الآلهة ، والملك هو المبعوث من قبل الله ، وهو راعي الشعب المسمى من الله ، بهدف ضمان العدالة والسلام على الأرض . «أما بالنسبة لأنو وانليل فقد دعيا (ليبيتيشتار) Lipitishtar لحكم البلاد بهدف اقامة العدل في البلاد [. . .] ؛ عندئذٍ ، انا ليبتشتار الراعي الطيب لنيبور Nippur [. . . .] اقمت العدل في سومر وفي أكاد اتفاقاً مع كلام انليل»[٤٣] .

ويمكن القول ان الملك كان يتوازع النموذج الالهي ولكن دون ان يصبح الهاً . انه يمثل الاله ، الامر الذي اقتضى في مراحل قديمة من الثقافة ، ان يكون بنوع ما ممثلاً لصورته . . . على كل حال ، وبوصفه وسيطاً بين عالم البشر وعالم الالهة فإن الملك (الميزوبوتامي) كان ينجز في شخصه ذاته ، اتحاداً شعائرياً بين الوضعين في الوجود ، الهي وبشري . . وانه بفضل هذه الطبيعة المزدوجة كان الملك يعتبر ، على الاقل مجازياً ، خالقاً للحياة والخصب . الا انه ليس الها ، عضواً جديداً في البانتيون (كما كان فرعون مصر ٢٧٠ ع) . ان المؤمنين لم يكونوا يتوجهون اليه بصلواتهم ، بل على العكس ، انهم كانوا يدعون الآلهة ليبارك مليكهم لأن الملوك رغم علاقتهم الصميمية مع العالم الالهي ، ورغم الزواج المختلط hieros gamos مع بعض الربات ، لم يتوصلوا لتحويل الشرط البشري . وفي نهاية المطاف ، لقد بقوا خاضعين للموت . ولا ننسى انه حتى ملك اوردوك الاسطوري جلقامش قد اخفق في مشروعه الهادف لاكتساب الخلود .

٢٣ ـ جلقامش في بحثه عن الخلود.

إن ملحمة جلقامش ـ هي بالتأكيد ، الاكثر شهرة ، والاكثر ابداعاً شعبياً بابلياً . فالبطل جلقامش ، ملك اوروك سبق ان كان مشهوراً في العصر القديم ، وقد وجدت الترجمة السومرية لكثير من مشاهد حياته الاسطورية . الا انه بالرغم من هذه السوابق ، فإن ملحمة جلقامش هي عمل عبقرية سامية . لقد الفت بالاكادية ، وبدءاً من مشاهد منعزلة مختلفة ، فإنها واحدة من اكثر القصص المثيرة في البحث عن الخلود ، او بدقة اكثر في الفشل النهائي لمشروع بدا انه حصل على كل خطوط النجاح . ان هذه القصة الشعرية Saga ، التي تبدأ مع الافراط الجنسي erotique لبطل مزدوج بطاغية ، تكشف في آخر لحظة عدم تلاؤم الفضائل البطولية الصرفة لان تفارق جذرياً الشرط البشري .

وعلى الأغلب ، فإن جلقامش كان بنسبته ثلثي اله ، ابنا للربة (Ninsin نينسين) واحد الفانين[٤٤] . في البداية يمجد النص علمه بكل شيء ويمجد

الانشاءات العظيمة التي كانت هي مشاريعه . ولكن بعد ذلك مباشرة ، يمثل لنا كطاغية يفترع النساء والشابات ويعذب الرجال بالاشغال الشاقة . لقد دعا اهالي البلاد الآلهة ، وهذه استجابت لهم لتخلق كائناً بقامة عملاقة ، قادر على مواجهة جلقامش ، وهذا الكائن النصف متوحش الذي تلقى اسم (انكيدو) يعيش مع الوحوش الكاسرة بسلام كلاهما يشرب من ذات الينابيع . لقد علم جلقامش بوجوده بدئياً في المنام ، وبعدئذٍ من صياد كان قد رآه . وارسل عاهرة لكي تسحره بمفاتنها ولتقوده الى اوروك Uruk . وكما هو مقدر من الالهة ، فإن البطلين تصارعا منذ ان التقيا . خرج جلقامش منتصراً ولكنه اتخذ انكيد وصديقاً وجعل منه رفيقه . وفي آخر المطاف فإن مخطط الالهة لم يحبط ، فمنئذ ، اخذ جلقامش يسرف في تبديد حيويته في مغامرات بطولية .

توجه مصحوباً بانكيدو ، صوب غابة الارز البعيدة جداً والاسطورية المحروسة بكائن غولي وكلي القدرة هيواوا Huwawa ، فخرَّ بها البطلان ، بعد ان قطعا ارزتها المقدسة . في دخولهما الى اوروك ، ميَّز جلقامش من قبل (عشتار) الربة التي دعته للزواج منها ، ولكنه رفض بوقاحة فدعت (عشتار) المهانة والدها (آنو) ليخلق الثور السماوي بغاية تدمير جلقامش ومدينته . وبدأ آنو بالرفض ، إلا أنه رضخ عندما هددته (عشتار) بأن تخرج الموتى من الجحيم . انقض ثور السماء على اوروك واسقط خواره رجال الملك بالمئات . نجح انكيدو بالأمساك بالثور من ذنبه ، وجلقامش غرس سيفه في عنقه . طار صواب عشتار فصعدت على اسوار المدينة ولعنت الملك . سكراناً بالنصر ، انتزع انكيدو فخذ (الثور السماوي) وطرحها امام الربة ، مجللاً اياها بالشتائم . هذه هي المرحلة الحاسمة في مجرى حياة البطلين ، غير ان هذا ايضاً هو الاستهلال لمأساة . ففي ذات الليلة يحلم انكيدو انه قد ادين من قبل الالهة . وفي الغد سقط مريضاً ومات بعد اثني عشر يوماً . ان تغييراً غير متوقع جعل جلقامش غير معروف ، خلال سبعة ايام بلياليها وهو يبكي صديقه ويرفض ان يدفن . وليس الا مع علامة تحلل الجسم ان قبل جلقامش دفنه . لقد كان يظن ان نواحه سيعيد انكيدو الى الحياة لقد كفَّن انكيدو بكل أسى . فترك الملك المدينة وتاه في الصحراء وهو ينتحب : «الا اموت انا ايضاً

كانكيدو ؟؟ (لوح × عود ٩١ـ٨) . . . لقد ارعبته فكرة الموت . ان الاكتشافات البطولية لم تجلب له العزاء مطلقاً. فمنذئذ كان همه الاوحد هو النجاة من المصير البشري ، وان ينال الخلود ـ لقد علم ان اوتنابيشتيم الشهير الناجي من الطوفان ، ؛ يعيش دوماً ، (فقرر) ـ الذهاب . للبحث عنه . ان سفره يذخر بتجارب من نوع مساري . فقد وصل الى جبال موشو Meishu ، ووجد الباب الذي تمر الشمس منه يومياً . كان الباب محروساً بزوج من الأشخاص العقارب التي يكفي منظرها لمجيء الموت (٩ ـ ١١ ـ ٧). لقد أفلج الخوف البطل الذي لا يقهر فسجد بتواضع ولكن الرجال العقارب تعرفوا على الجزء الالهي في جلقامش فسمحوا له بالدخول في النفق . وبعد اثني عشر يوماً من السير في الظلمات اجتاز جلقامش الجانب الاخر من الجبال الى حديقة غناء .

وبعد مسافة ، على شاطىء البحر، التقى حورية البحر (سيدوري) وسألها اين يوجد اوتنا بيشتيم . وحاولت سيدوري اقناعه بتغيير رأيه : «عندما صنعت الآلهة البشر ، وضعت الموت لهم واحتفظت بالحياة لها . انت يا جلقامش ، املأ بطنك ، واستسلم للفرح والمرور ليلاً نهاراً . اجعل لك في كل يوم عيداً . وارقص ليلاً نهاراً ارقص والعب [٤٦] .

ولكن جلقامش الح في طلبه وعندئذٍ تتوجه سيدوري صوب بحّار اوتنابشتيم ، الموجود في جوارها . فيجتازان مياه الموت ويصلان الى الشاطىء حيث يعيش (اوتنابشتيم) . ويسأله جلقامش كيف حصل على الخلود ويتعلم هكذا تاريخ الطوفان وقرار الآلهة بأن يجعلوا من اوتنابشتيم وزوجته اقارب لهم ، واسكانهما في مدخل الانهار . غير ان اوتنابشتيم يسأل جلقامش «بالنسبةلك، من هو من الآلهة سيضمك لجماعته لكي تحصل على الحياة التي تبحث عنها»؟(٩ ـ ١٩٨) . غالباً ان تتمة خطابه غير متوقعة : «اذهب ، وحاول ان لا تنام خلال ستة ايام وسبع ليال» (٨ ـ ١٩٩) بالتأكيد . ان ذلك يتعلق بأكبر تجربة مسارة (لتلقين السر) ؛ الانتصار على النوم ، والبقاء في حالة يقظة ، يعادل تحولاً عن الشرط البشري[٤٧] . هل يجب العلم ان توتنابشتيم ، عارفاً ان الآلهة لن تمنحه

الخلود ، فاقترح على جلقامش الانتصار عليه بواسطة مساره ؟؟ . لقد بقي للبطل الانتصار في بعض الامتحانات : المسيرة في النفق . محاولة سيدوري ، اجتياز حياة الموت . . . لقد كانت لحد ما تجارب من نوع بطولي . غير انها هذه المرة ، كانت تنتعلق بتجربة من نوع (روحي) . ذلك لأن قوة استثنائية وحيدة من التركيز ، تستطيع ان تجعل كائناً بشرياً مؤهلاً ليبقى (متيقظاً) ستة ايام وسبع ليال ، ولكن جلقامش ينام على الفور . ويهتف بتهكم : «انظروا الانسان القوي الذي يرغب بالخلود : ان النوم ، كريح عاتيه ـ تجلله» (٢٠٤-٢٠٣) لقد نام دفعة واحدة ستة ايام وسبعة ليال ، وعندما ايقظه اوتنابشتيم لامه جلقامش لايقاظه له ، كأنه جاء لينام . لقد عاد على الاغلب لصوابه ، وابتدأ مجدداً بالنحيب (ماذا اصنع يااوتنابشتيم) ؟ اين اذهب ؟ ان شيطاناً قد تملك جسدي ؛ في الغرفة التي نمت فيها يسكن الموت . وحيثما اذهب فالموت هنالك بالمرصاد» (٣٤ ـ ٣٨) .

واخذ جلقامش يستعد الآن لمعاودة السفر ولكنه في اللحظة الاخيرة وبناء على اقتراح زوجة اوتنابشتيم يكشف له هذا الاخير (سر الآلهة) المكان الذي توجد فيه النبتة التي تعيد الشباب . فينزل جلقامش الى قاع البحر ، ويقطفها[٤٨] ، ويأخذ طريقة بالعودة وهو سعيد جداً . وبعد بضعة ايام من المسير ، يرى نبع ماء عذب فيعجل بالاستحمام . فتخرج حية من الماء وقد جذبتها رائحة النبتة فتحملها وتنزع جلدها .[٤٩] . وبأسى يندب جلقامش حظه العاثر امام (اورشانابي) . وفي هذا المشهد يمكن استقراء اخفاق تجربة جديدة للمسارة . فالبطل لم يعرف كيف يستفيد من هبة غير مأمولة وباختصار لقد خانته الحكمة . ان النص يكمل بطريقة معقدة . بوصوله إلىٰ اوروك يدعو اورشانابي ليصعد على أسوارالمدينةويتأمل الابنية[٥٠] . لئد رؤيت في ملحمة جلقامش ابانة مأساوية للشرط الانساني معرفة بحتمية الموت . مع ذلك فإن هذا المؤلف الرئيسي من الادب العالمي يجعلنا نفهم انه بدون معونة الآلهة ، فإن بعض الكائنات ستكون قابلة لتحصل علىٰ الخلود ، شريطة الخروج منتصرة من مجموعة تجارب (مسارية) . ان تاريخ جلقامش منظوراً اليه من هذا المنظور سيكون دوماً القصة المأساوية لمسارة مفقودة .

٢٤ ـ القدر والآلهة :

مما يؤسف له ، اننا نجهل النص الشعائري للمسارة الميزوبوتامية مع افتراض وجودها . والمعنى المساري للبحث عن الخلود يمكن تكشفه في البنية الخاصة المميزة للتجارب التي تحملها جلقامش . وتقدم الروايات الارثرية romans Ar thurien حالة مشابهة : فالرموز والبواعث المسارية تفيض ، الا انه من المستحيل تقرير ما اذا كانت متضامنة بسيناريو شعائري ، او تمثل ذكريات الميتولوجيا السلتية ، أو الغنوصية الهرطقية ، او فيما اذا كانت ببساطة الحصيلة لنشاط خيالي . وعلى الاقل في حالة القصص الارثرية نعرف التقاليد المسارية التي سبقت كتابتها ، بينما اننا نجهل ما قبل تاريخ السيناريو الظرفي المساري المدخل في مغامرات جلقامش .

لقد اكدنا بحق على واقعة ، ان الفكر الديني الاكادي يشدد على الانسان . وفي بساط البحث الاخير ، تغدو قصة جلقامش نموذجية ، انها تعلن عرضية الشرط الانساني ، والاستحالة ـ حتى بالنسبة للبطل ـ ان يكتسب الخلود . فالانسان قد خلق للموت ، وتم خلقه لخدمة الآلهة فقط . ان هذه الانتربولوجيا المتشائمة كانت قد صيغت في الايتوما اليتيش . ونجدها في نصوص دينية هامة اخرى . ان الحوار بين (سيد وعبد) يبدو الحصيلة لعدمية مثقلة بمصاعب : ان السيد لا يعرف حتى ماذا يريد . انه منحصر بعبثية كل جهد بشري : «اصعد على كومات الخرابات القديمة وتنزه طولا وعرضا . انظر جماجم بشر الامس ولتلك التي في عصرنا : من هو السيء بينها ، ومن هو المحسن المحب للبشر ؟»[٥١] .

وهنالك نص شهير آخر من الحوار حول الشقاء البشري الذي سمي سفر الجامعة البابلي (Eccl´esiste babylonie) وهو ايضاً اكثر يأساً : «هل ان الاسد المتشامخ ؛ الذي يتغذى بخير اللحم ، يقدم تقدمته من اللبان بهدف تهدئة حزن ربته ؟ . . . (بالنسبة لي) هل اهملت القربان ؟ [كلا] . لقد صليت للآلهة ، ولقد قدمت الاضاحي المفروضة للربات . . .» .

هذا الصالح ، منذ طفولته ، وهو يفرغ الجهد ليعرف فكرة الاله ؛ بتواضع وشفقة بحث عن الربة ، غالباً (ما حملني الاله الفقر بدلاً عن الغنى) (سطر ٧١) . . . . . . وعلى العكس فإن الجاحد ، الكافر . . . هو الذي جمع الثروة (سطر ٢٣٦) . . . (الجمهور يمدح كلام رجل رفيع الشأن ، خبير في الجريمة ، ولكنه يزدري الكائن المتواضع الذي لم ينتهك . . .» . (ان فاعل الشر ينصف . وان الرجل العادل يطرد . ان اللص هو الذي يتلقى الذهب . . بينما الضعيف يعاني الجوع . . .

ان قوة المسيء تدعم . . ولكن الشريف يحطم وان الضعيف يضرب (سطر ٥٢/٢٦٧) هذا اليأس يبرز ليس من تأمل حول عبثية الوجود البشري . وانما من تجربة الظلم العام: ان المسيئين ينتصرون والصلوات ليس لها من نتائج ، فالآلهة تبدو غير مبالية بالشؤون البشرية . منذ الالفين ، انفجرت في مكان آخر ازمات روحية مماثلة (مصر اسرائيل ، الهند ، ايران ، اليونان) مع نتائج مختلفة ، لأن الاجوبة على هذا النموذج من التجربة العدمية قد اعطيت تبعاً للعبقرية الدينية النوعية لكل ثقافة . ولكنها في الادب الحكمي Sapientielle الرافدي ، لا تبدو الآلهة دوما غير مبالية . ان هنالك نصاً يبرر الآلام الطبيعية والنفسية لبرىء يماثل (ايوب) . انه الم حقيقي لأن اية آلهة لا تبدو انها تساعده . ان العديد من العاهات حلت به ليصبح «غارقاً بغائطه ذاته . لقد سبق ان ندب كميت من قبل خاصته عندما كشفت له سلسلة من الاحلام ان مردوك سينقذه . وكما في رعشة وجدية رأى بنفسه الاله يصرع شياطين المرض وينقذه من بينها ، وبالتالي فإن آلام الجسد تزول كما لو اقتلع نباتاً . . . واخيراً تعاوده صحته . ويرجع الرجل العادل بفضل مردوك مجتازاً شعائرياً الابواب الاثني عشر لمعبده في بابل .

وفي آخر المطاف ، وبالتشديد على الانسان ، تبرز الفكرة الدينية الاكادية حدود الامكانيات البشرية . والمسافة بين البشر والآلهة تبدو غير ممكنة العبور ، وعلى الاغلب ان الانسان ليس معزولاً في وحدته الخاصة . بدئياً انه يشاطر في عنصر روحي مما يمكن اعتباره كإلهي : هو (روحه = esprit) = ilu (لغويا اله Dig)[٥٤] . وبالتالي ، إنه بواسطة الشعائر والصلوات ، يأمل بالحصول على

مباركة الالهة . وبصورة خاصة ، يعلم ، انه يشكل جزءاً من عالم موحد بالمشابهات : انه يعيش في مدينة تشكل صورة للعالم Imagomundi حيث المعابد والزيغورات تمثل (مراكز للدنيا) وبالنتيجة تضمن الاتصال بين السماء والالهة . بابل كانت (باب ـ ايلا في) = باب الآلهة لانه هنا ، نزلت الآلهة على الأرض . ان عدداً من المدن والمعابد كانت تسمى (صلة بين السماء والأرض) . وبعبارات اخرى ، ان الانسان لا يعيش في عالم مغلق ، منفصلاً عن الآلهة ومعزولاً تماماً عن الايقاعات الكونية . اضافة لذلك ، ان نظاماً معقداً من المراسلة بين السماء والأرض جعل ممكناً في آن واحد ، فهم الحقائق الأرضية و(تأثيرها) عن طريق مثلها Protootype البدئية السماوية المتابعة . وعلى سبيل المثال : طالما ان كل كوكب كان يناسبه معدن ولون ، فإن كل ما كان ملون كان يوجد تحت (تأثير) كوكب . ولكن كل كوكب كان ينتمي لاله كان بالفعل ذاته ، (ممثلاً) ، بالمعدن المتابع[٥٦] وبالنتيجة ، فإن العديد من تقنيات التأليه ، التي يعود اكثرها للعصر الاكادي كانت تسمح بمعرفة المستقبل . وكان يظن اذن بان بعض المصاعب يمكن تجنبها . ان مختلف التقنيات والعديد البارز من الوثائق المكتوبة التي وصلت الينا ، تثبت الاحترام الذي كانت تتمتع به العرافة Lamantique في كل طبقات المجتمع . ان الطريقة الاكثر رفعة كانت تفحص احشاء الضحية ، والاقل كلفة تقتضي اهراق بعض الزيت على الماء ، وبالعكس ، وتفسير الاشارات التي يمكن قراءتها في الاشكال الناتجة عن السائلين . وان التنجيم الذي تطور فيما بعد اكثر من التقنيات الاخرى ، قد مورس على الاخص في اوساط الملوك . اما بالنسبة لتفسير الاحلام ! فقد اكملت ، منذ بدء الالف الثانية ، بوسائل من التعزيم لاستطلاع التنبؤات المحزنة[٥٧] .

كل التقنيات التنبؤية تابعت اكتشاف (العلاقات) التي كانت تحل طلاسمها حسب عدد من القواعد التقليدية . ان العالم كان يكتشف اذن مجهزاً ببنيات Structures ومحكوم بالقوانين . بحل رموز (العلامات Lesignes) ، تم التوصل لمعرفة المستقبل ، وبعبارة اخرى لقد جرى تطويع الزمن ، لأنه جرى التنبؤ باحداث ستتحقق فقط بعد احدى الفترات الزمنية . ان الانتباه المعطى

(للعلامات) توصل لاكتشافات ذات قيمة علمية حقيقية . فالبعض من هذه الاكتشافات اخذت واكملت فيها بعد من قبل الاغريق . ولكن العلم البابلي بقي «علما تقليدياً» ، وبهذا المعنى فإن المعرفة العلمية حافظت على بنية شمولية totalitaire . . اي مدخلة افتراضات كونية واخلاقية ووجودية[٥٨] .

حوالي ١٥٠٠ ق.م بدا العصر الابداعي للفكر الميزوبوتامي مغلقاً تماماً . وخلال القرون العشرة التالية ظهر النشاط العقلي مصادراً بالتبحر واعمال التقميش او الجمع . ولكن اشعاع الثقافة الرافدية ، المؤكدة منذ الازمنة الاكثر قدماً استمر ونما . افكار ومعتقدات وتقنيات من اصل ميزوبوتامي تحول من البحر المتوسط الغربي الى الهندكوش . ومما له دلالته ، ان الاكتشافات البابلية المهيأة لتصبح شعبية وتدخل قليلاً او كثيراً او مباشرة رسائل سماوية ارضية ، او الاصغر والاكبر Macrocome-microcosme .

حواشي الفصل الثالث

١ ـ انظر كرامر ، من ألواح سومر ص ٧٧ .
٢ ـ انظر ترجمة جديدة للقصيدة (جلقامش انكيدو والجحيم) في جيورجيو ص ٧٦ ـ ٨٠ .
٣ ـ ترجمة موريس لامبير ولادة العالم ص ١٠٦ .
٤ ـ اتبعنا التفسير المعطى من قبل .. جستين (الدين السومري) .
٥ ـ حول العقيدة ، انظر كرامر ، السومريين .
٦ ـ جستين ، ص ١١٤ مزامير التوبة ظهرت في الآداب المتأخرة ، ولكن التأثير السامي مثامي الخ .
٧ ـ حول le me لمختلف المهن ، تعابير ومؤسسات . ر كرامر . والمصطلح me قد ترجم به كائن (etre) أو (قوة الهية) وقد فسر (كمثولية الهية) في المادة الحية والميتة ، لا تتغير ، دائمة وانما غير شخصية لا يملكها سوى الألهة . (J. van Dijk) .

٨ ـ جيستين ص ١٨١ .
٩ ـ كرامر ـ (شعيرة الزواج المقدس لديموزي ـ اينانا) .
١٠ ـ النص مترجم من قبل كرامر .
١١ ـ Burrwo ـ بعض الكوزمولوجيا في بابل . ص ٦٥ .
١٢ ـ انظر قائمة الملوك السومريين ـ مترجمة من قبل كرامر .
١٤ ـ كرامر ذات المربع مترجمة من قبل كرامر .
١٥ ـ حول الرمزية المدخلة في بعض الأساطير الطوفانية انظر م . ايلياد تاريخ الاوريان
١٦ ـ سنرى (فقرة ٢١) انه (الضحية) دوما والصخب هذه المرة من قبل الآلهة الشباب منعهم من النوم الذي جعل ابسو يقرر ابادتهم .

١٧ ـ مظاهر الاساطير ـ حسب الترجمة المحفوظة لملحمة اترازيس . ان ايا قرر بعد الطوفان انقاذ الرجال السبعة والنساء السبعة ص ٢٥٩ ـ ٦٠

١٨ ـ حسب ترجمة أخرى ، كان من المفضل في البدء المزارع انكيمدو ، ولكن أخاه ، اله الشمس اوتو قد غيّر رأيه . ر . . . كرامر . . الزواج المقدس . «شعيرة الزواج المقدس ديموز ـ انانا» .

١٩ ـ ترجمة ـ جان بروتو .

٢٠ ـ ترجمة Bottero ص١٩ . في قول آخر ان الخوف الذي يبد شرح اشارة ايناناا . مثل الشياطين خافوا منها وهددوا بسحبها . (مزعورة ، تركتهم) قالت لهم قيدوا رجله الخ .

٢١ ـ كرامر ـ الزواج المقدس .

٢٢ ـ لوح ـ ترجم بوتيرو (تموز ، زوجة الأول ، انه انت الذي خلق له صرفا شاملا/ ص ٨٣ .

٢٣ ـ ان مؤسسات جديدة (مثل الجيش الممتهن والبيروقراطية) قد تأكدتا لأول مرة مع الزمن ثم تبنيهما من حكومات اخرى .

٢٤ ـ Jean Nougayral ـ الدين البابلي .

٢٥ ـ ذات المرجع .

٢٦ ـ ترجمة ستيفن في Anet .

٢٧ ـ انظر الترجمة في Anet .

٢٨ ـ ليو اوبنهايم ميثروبوتاميا القديمة ص ١٧٦ .

٢٩ ـ لوحة ١ ـ ١٣ ترجمة بول غاليري .

٣٠ ـ من الثالوث السومري الكبير يفقد اينليل ، أخذ محله ماردوك ابن ايا .

٣١ ـ نضيف انه يوجد تقاليد موازية تتعلق بالكوزمولوجيا وخلق الانسان .

٣٢ ـ نصوص ذكرها هـ ـ فرانكفورت ـ ممالك وآلهة . ص ٣٢٠ .

٣٣ ـ الكتاب الكلاسيكيون تكلموا من قبل بعل = ماردوك في بابل ، من الراجح أن الذيقورات لمعبد ايتمينانكن مقبرة القبر الموقت للاله .

٣٤ ـ بعض اشارات يفهم منها انه كانت تمثل ايماء المعارك بين مجموعتين صوريتين .

٣٥ ـ تماما مثل الاينوما ايليتش ماردوك حدد القوانين الحاكمة للعالم الذي تركه الياد اسطورة العود الابدي .

٣٦ ـ الياد اسطورة العود الابدي

٣٧ ـ ذات المرجع .

٣٨ ـ فرانكفورت ذات المرجع الملات

٣٩ ـ هذا النور يسمى ميلامو melomu في الاكاديمية يعادل Ravernna لدى الايرانيين
٤٠ ـ gabat الخاصية الدينية للملكية الاشورية البابلية .
٤١ ـ انه الملك بصفته بستانيا يعتني بشجرة الحياة .
٤٢ ـ مدخل لقانون حمورابي آنيت ص ١٦٤ .
٤٣ ـ استهلاك لقانون ليبتشبتار ـ آنت ص ١٥٩ .
٤٤ ـ ٤٥ ـ كاهن كبير لمدينة ادروك حسب التقليد السومري .
٤٦ ـ لوحة ١٠ ترجمة جان نوغيزول .
٤٧ ـ الياد ـ ولادة صوفية .
٤٨ ـ يمكن التساؤل لماذا لم يأكلها فور حصوله عليها ولكن جلقامش احتفظ بها لما بعد .
٤٩ ـ انه يتعلق بنغم فولكلوري معروف : خلع الأفعى لجلدها يعني تجدد حياتها .
٥٠ ـ اللوحة ١٢ مكتوبة بالسومرية أضيفت بعدئذ العلامات المشار اليها ولا علاقة لها مباشرة مع القصة التي لخصناها .
٥١ ـ ر . هـ ـ بفيفر . آنيب ص ٤٣٨ .
٥٢ ـ حوار حول آلام الانسان ترجمة آنيت
٥٣ ـ حوار حول آلام الانسان ترجمة آنيت
٥٢ ـ ذلك هو العنصر الأكثر أهمية للمسؤولية . فالآخرون هم (استارو) قدره ، ولامانو ، فرديته وتشابه تماله وسيدو ـ يقارن ـ بعبقريته .
٥٢ ـ الياد اسطورة الابديه .
٥٩ ـ الذهب كان يتعلق باكليل والفضة بآنو والبرونز بايا وعندما حل شمس محل اينكبل اصبح معلم الذهب .
٥٨ ـ مثلا الطبيب والكيميائي في الصين .



الفصل الرابع

أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة

٢٥ ـ الاعجوبة التي لا تنسى ـ الإيمان الأول:

إن ولادة الحضارة المصرية لم تكف عن إثارة دهشة المؤرخين . فخلال الألفين اللتين سبقتا التكوين لمملكة موحدة ، استمرت الثقافة النيوليتيكية بالتطور ، ولكن بدون تغييرات عميقة . مع ذلك فان الاحتكاكات مع الحضارة السومرية في الألف الرابعة أثارت تحولا حقيقياً. فقد استعارت مصر الخاتم الاسطواني وفن البناء من القرميد ، وتقنية صناعة الزوارق ، وعددا من الأشياء الفنية وبصورة خاصة الكتابة التي ظهرت فجأة ، بدون مقدمات في بداية حكم الأسرة الاولى حوالي ٣٠٠٠ ق .م[1] .

ولكن سرعان ما ابتكرت الحضارة المصرية نموذجا مميزا يظهر في كل مبتكراتها . بالتأكيد ان الجغرافيا ذاتها قد فرضت تطورا مختلفاً عما هو خاص بالثقافات السومرية ـ

الاكادية ـ وخلافا لميزو بوتاميا (ما بين الرافدين) المعرضة بل القابلة للعطب بالغزوات من كل جانب ، فان مصر ـ ويقول أكثر دقة ـ وادي النيل ـ كان معزولاً ومحمياً بالصحراء والبحر الأحمر والبحر المتوسط . وحتى غزوة الهكسوس (١٦٧٤ م) فان مصر لم تعرف الخطر القادم من الخارج . ومن جهة أخرى فان قابلية النيل للملاحة سمحت للملك أن يحكم البلاد بواسطة ادارة متمركزة أكثر فأكثر . اضافة لذلك ، فان مصر لم تعرف المدن الكبرى من الطراز الميزوبوتامي . ويمكن القول بأن البلاد كانت مؤلفة من كتلة زراعية موجهة بممثلي اله مجسد ، الفرعون .

ولكن الدين ، وبصورة خاصة عقيدة dogme ألوهية الفرعون ، أديا منذ البدء لقولبة البنية الحضارية المصرية . فحسب التقليد ، إن توحيد البلد وبناء الدولة كانا من صنع الملك الأول المعروف باسم /مينا/ . لقد جاء مينا من الجنوب وبنى العاصمة الجديدة الموحدة لمصر في /ممفيس/ بالقرب من مدينة القاهرة الحالية . وهنالك لأول مرة احتفل بحفلة التتويج . وتباعاً ، وخلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كان الفراعنة يتوجون في ممفيس ، ومن الراجح جدا ، ان الحفلة الرئيسية كانت تكراراً لتلك التي استعملها /مينا/ أول مرة . وما كان هذا إحياء للصنيع الباهر /لمينا/ وانما كان التجديد للمصدر الخلاق القائم في الحدث الأصلي .[٢] .

ان تأسيس الدولة الموحدة يتساوى مع النشكونية ، وان الفرعون ، الاله المجسد dieu - incarn´e أوجد عالما جديدا وحضارة معقدة الى ما لا حد له ، وهي أعلى من تلك الحضارة التي كانت للقرى النيوليتيكية . إن الأمر الأساسي كان ضمان استمرار هذا العمل المحدث تبعاً لنموذج الهي ، ويقول آخر ، لتجنب الأزمات القابلة لأن تهز مرتكزات العالم الجديد . إن الوهية الفرعون تشكل الضمانة المثلى . فطالما أن الفرعون كان خالدا فان موته لا يعني سوى صعوده للسماء . وان استمرار ـ إله ـ مجسد في إله مجسد آخر ، هو بالنتيجة استمرار للنظام الكوني والاجتماعي وضماناً له .

من الملحوظ أن أكثر الابداعات الاجتماعية ـ السياسية والثقافية أهمية حصلت في عصر الاسر الحاكمة الأولى ، وان هذه الابداعات هي التي ثبتت القوالب للخمسة عشر قرناً التالية . فبعد الاسرة الخامسة (٢٥٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق .م) لا يكاد يوجد شيء

ذي أهمية مضاف الى اللمة الثقافية . ان هذا الجمود هو الذي يميز الحضارة المصرية . ولكنه قد يوجد في الأساطير والحنين لماضي مجتمعات تقليدية أخرى مصدر ديني .

ان ثبات الاشكال الموروثة وتكرار الاشارات والانتصارات المصنوعة منذ فجر الزمن ، كلها نتيجة منطقية لتيولوجيا تعتبر النظام الكوني عملاً الهياً ممتازاً ، وترى في كل تغيير خطر انتكاص للعماء au chaos وبالتالي انتصاراً للقوى الشيطانية .

ان الاتجاه الذي عينه العلماء الاوروبيون /كجمود/ كان قد أجهد نفسه ليبقى على الابداع الأول دون مساس ، لأنه كان تاما من كل وجهات النظر ـ الكوزمولوجية والدينية والاجتماعية والأخلاقية . وان الصور المتتالية لنشأة الكون مثارة في مختلف التقاليد الميتولوجية . وفي الواقع ، إن الأساطير ترجع حصرا الى حوادث لها محلها في زمن اسطوري للبدايات . ان هذه الفترة المسماة /تيب زيبي/ Tep Zepi = المرة الاولى دامت منذ ظهور الاله الخالق فوق المياه الأولية وحتى تنصيب /حورس/ . فكل ما يوجد ، عناصر طبيعية ـ شأنها شأن الحقائق الدينية والثقافية (مخططات المعابد ، تقويم ، كتابة شعائر ، تعاليم ملكية الخ) .
يجب أن تكون حقيقتها واقرارها من فعل الذين ابدعوها أثناء فترة البداية . وبالتأكيد فان المرة الأولى تشكل العصر الذهبي للكمال المطلق «قبل أن يظهر الكلب la rage ، أو الضجة ، أو النزاع ، أو الاضطراب» . فلا الموت ولا المرض كانا موجودين أثناء العهد الممتاز المعين (زمن رع او اوزيريس أو حوريس)[٣] ولفترة ما، وتبعاً لتدخل البشر ، ظهرت الفوضى التي وضعت حداً للعصر الذهبي . لكن العصر الأسطوري (للمرة الأولى) لم ينتظم من بين رفات ماض قلب نهائياً وبما أن هذه الفترة تشكل حصيلة النماذج التي يجب احتذاؤها ، فهي ستتجدد باستمرار وربما يمكن القول إن الشعائر تابعت هزم القوى الشيطانية ، مستهدفة إعادة احياء الكمال الأصلي .

٢٦ ـ أصول الآلهة والنشكونيات

كما في كل الأديان التقليدية ، فان النشكونية ، وأساطير الأصول (أصل الانسان ، الملكية المؤسسات الاجتماعية ، الشعائر . . الخ) كانت تشكل الأساس في العلم

المقدس . وطبيعي انه كان يوجد العديد من الأساطير النشكونية واضعة في المقدمة ، الآلهة المختلفة ، ومؤقلمة بدء الخليقة في عدد من المراكز الدينية . إن الموضوعات الرئيسية تصنف بين الأكثر قدما : انبثاق من اكمة ، من زهرة لوتس ، أو من بيضة فوق المياه الأولية . أما بالنسبة للآلهة الخالقة ، فان كل مدينة هامة تقيم نفسها في المستوى الأول ، ان تغيرات الأسر الحاكمة كان في الكثير من المرات يتبعه تغيير العاصمة . ومن حدث كهذا يلزم علماء لاهوت للمدينة الجديدة لادخال عدد من التقاليد المتعلقة بنشأة الكون مماثلين ربهم المحلي والرئيسي بخالق للعالم . وعندما كانت توجد علاقة بآلهة أخرى خالقة ، فان التمثيل كان يبسط بمشابهتهم البنيوية .

غير أن علماء اللاهوت قد أعدوا زيادة على ذلك ، تركيبات جريئة ، بتمثيل أنظمة دينية غير متجانسة ومشركين صورا الهية مضادة . (٤) .

ان علم نشأة الكون المصري ، كما هو الشأن في تقاليد أخرى يبدأ مع الانبثاق لتلة أو أكمة في المياه الاولية . فظهور هذا المكان الأول ، فوق المساحة المائية الشاسعة الأبعاد ، يعني انبثاق الأرض ، ولكن ايضا النور ، والحياة والشعور .(٥) . في /هيليوبوليس/ سمى المكان (تلة الرمل) التي تشكل قسماً من معبد الشمس الذي تماهى بـا/التلة الأولية/ . ان هيروموبوليس اشتهرت ببحيرتها حيث تطفو اللوتس الكونية . ولكن أمكنة أخرى تتمتع بذات الامتياز(٦) .

وفي الواقع ، ان كل مدينة ، وكل معبد كان يعتبر كمركز للعالم ، والمكان الذي بدأ فيه الخلق

وان التلة الاساسية تغدو احياناً الجبل الكوني التي تسلق عليها الفرعون لمقابلة الاله الشمس .

ان بعض النصوص تتكلم عن البيضة الأولية التي كانت تحتوي /طائر النور/ وعن اللوتس الأصلي الحامل للطفل الشمس ، أو أخيراً الحية البدائية أول وآخر صورة للاله /آتوم/ .(وفي الواقع أن الفصل ١٧٦ من كتاب الموتى يعلن

أنه عندما سيعود العالم لحالة العماء ، فإن آتوم هو الاله الأعلى والمستور ، بينما ٠ع الشمس ، هو الاله الظاهر بامتياز .) ان مراحل الخليقة ـ نشأة الكون ، أنساب آلهة ـ خلق الكائنات الحية الخ ـ قد مثلت بشكل مختلف . فحسب التيولوجيا الشمسية لهيليوبوليس ، مدينة قائمة على طرف الدلتا ، ان الاله رع ـ اتوم ـ خبري[٨] خلق أول زوج إلهي ، شو ، (الفضاء) و /تفنوت/ ، قريبي الاله /جيب/ الأرض والربة /توت/ السماء . وان الخالق كوّن الخليقة إما باستمنائه en se masturbant أو بتقشيعه (تمخيطه) en expectorant . ان هذه العبارات عفوية بجلافة ، ولكن معانيها واضحة : إن الألوهية تولدت من المادة ذاتها للرب الأعلى ، وكل شيء كما في التقليد السومري (١٦ع) ، فالسماء والأرض كانتا متحدين في زواج مختلط Hiero gamos لا ينفصم ، حتى اللحظة التي انفصلا فيها من قبل /شو/ اله الفضاء. من اتحادهماأتى إلى العالم أوزيريس وايزيس و /سيت/ ، ونفتيس/ ابطال المسرحية الأولى ، في مأساة محزنة والتي ستطالعنا لزمن طويل .

في /هيرمو بوليس/ في مصر الوسطى أقام الفقهاء نظرية معقدة حول (الاغدوادا)L'ogdouade رهط الارباب الثمانية، الذين انضم إليهم /بتاح/ . ففي البحيرة الأولية من هرمو بوليس طفت نبتة /لوتس/ حيث خرج منها (الطفل المقدس ، الوريث الكامل المتولد من الاوغدواد/ بذرة الهية من كل الآلهة الأولى السابقة) «ذلك الذي عقد بذور الآلهة والبشر[١٠]» .

إلا أنه في /ممفيس/ عاصمة الفراعنة للاسرة المالكة الأولى ، صيغت حول الإله /بتاح/ الديانة الأكثر منهجية . ان النص الرئيسي لما سمي (التيولوجيا الممفيسية) قد نقش على حجر في عهد الفرعون «شاباك Chabak» (٧٠٠ ق . م تقريباً) . ولكن النص الأصلي كان قد دون قبل ذلك بزهاء ألفي سنة . ومن المدهش ان أقدم نشكونية مصرية عرفت حتى الوقت الراهن هي كذلك الأكثر فلسفة . لأن بتاح خلق بروحه (قلبه) وبلفظه (لسانه) . «إن الذي أظهر نفسه كالقلب (= نفس) هو الذي أظهر نفسه كاللسان (= كلمة) ، فتحت مظهر آتوم ،

هو بتاح القديم جداً . . .» (فبتاح) معلن أكبر اله ، وآتوم معتبر فقط كصانع لأول زوج couple الهي . ان بتاح (هوالذي جعل الآلهة توجد) . وتباعاً فإن الآلهة دخلت في أجسادها المرئية ، بدخولها (في كل نوع من النبات ، وكل نوع من الحجارة ، في كل نوع من طين ، في كل نوع ينبت على الأرض وبها جميعها تستطيع ان تظهر نفسها» .

وباختصار ، فإن نسب الآلهة ، والنشكونية قد أنجز بالقدرة الابداعية بفكر وكلام اله واحد . انه يتعلق بالتأكيد ، بالتعبير الأكثر سمواً من التفكير الميتافيزيكي المصري . وكما لاحظ (جون ويلسون) ـ فإنه من بدء التاريخ المصري نجد نظرية يمكن ان تقترب من علم اللاهوت المسيحي للكلمة (اللوغوس) .

إن الاساطير حول أصل الانسان تبدو متواضعة بمقارنتها بنسب الآلهة والنشكونية فالبشر /erme/ ولدوا من دموع /erme/ اله الشمس ، رع . وفي نص مؤلف حوالي /٢٠٠٠ ق . م ، في مرحلة الازمة ، جاء فيه : «ان البشر قطيع الاله كانوا بخير . فصنع (الاله الشمس) السماء والأرض ، على شرفهم . . . . صنع الهواء لإحياء انوفهم ، لأنهم صوره ses images وناتجين من لحمه . انه يشع في السماء ، لقد صنع النبات من أجلهم والحيوانات والطيور والأسماك لأجل غذائهم . .[١٢]

مع ذلك ، فإن رع اكتشف ان البشر قد تآمروا ضده ، فقرر ابادتهم . فكلف /هاتور/ بالمذبحة . ولكن بما ان الربة كانت هددت بافناء العرق البشري بالجملة فإن رع لجأ إلى ذريعة ، ونجح في اسكارها . . .[١] . ان عصيان البشر ونتائجه كان له مكانه اثناء العصر الاسطوري ، بناء عليه ، فأن /البشر/ كانوا أوائل السكان في مصر ، لأن مصر كانت البلد الأول الذي تكون ، اذن هي مركز الدنيا[١٤] ، والمصريون كانوا السكان الوحيدين بملء الحق ، وهذا ما يفسر المنع على الأجانب من ولوج المقابر ، الصور الكونية الصغرى micro cosmiques للبلاد[١٥] . ان بعض النصوص المتأخرة تعكس الاتجاه نحو الشمولية . فالآلهة (حورس ، سخمت) تحمي لا المصريين فحسب ، وانما أيضاً الفلسطينيين

والنوبيين والليبيين[١٦] . مع ذلك فإن التاريخ الاسطوري للبشر الأول لا يلعب دوراً هاما . في العصر العجائبي وللمرة الأولى كانت الفترتان الحاسمتان هما النشكونية ومجيء الفرعون .

٢٧ ـ مسؤوليات إله متجسد .

كما لاحظ /هنري فرانكفورت/[١٧] ، فإن النشكونية هي الحدث الأكثر أهمية ، لأنها تقدم التغيير الحقيقي الوحيد : انبثاق العالم . منذئذ . التغييرات المدخلة وحدها في ايقاعات الحياة الكونية مزودة بدلالة . غير انه في هذه الحالة ، يتعلق بفترات متتالية مصاغة بدورات مختلفة وضامنة لدوريتها : حركات النجوم ، دورة الفصول مظاهر القمر ، ايقاع النبات ، المد والجذر للنيل الخ . . . وعليه ، فإن هذه الدورية حقا للايقاعات الكونية هي التي تشكل الكمال المنشأ في أزمنة (المرة الأولى) . ان الفوضى ادخلت تغييراً لا فائدة فيه ، بل هو ضار ، في الدورة المتتالية لتغيرات منظمة تماما .

وطالما ان النظام الاجتماعي يمثل مظهراً من النظام الكوني ، فإن الملكية معنية بالوجود منذ بداية العالم . فالخالق كان الملك الأول[١٨] . وقد نقل هذه الوظيفة وخلق الفرعون الاول . هذه الوصاية تكرس الملكية كمؤسسة الهية . وفي الواقع أن اشارات الفرعون هي مقررات في ذات التعابير كذلك التي استعملت لتقرير اشارات الاله رع أو التجليات الشمسية . ونشير هنا لمثلين : ان ابداع /رع/ قد لخص أحيانا بصيغة دقيقة : «لقد وضع النظام (مات) «بدلاً من العماء» . وفي ذات المصطلحات يجري الكلام عن /توت عنخ آمون/ عندما أعاد النظام بعد /هرطقة/ اخناتون (ر . ٣٢ ع) أو ببي ٢ Pepi II : «لقد وضع النظام /مات/ محل الكذب (الفوضى)» . كذلك فإن فعل /فاي/ (لمع ـ أضاء) . استعمل بلا مبالاة لوصف انبثاق الشمس في فترة الخلق أو في كل فجر ، وظهور فرعون في حفلة التتويج ، وفي الاعياد ، أو في مجلس خاص[١٩] .

الفرعون هو التجسيد لمات ، وهذا التعبير يترجم بـ (الحقيقة) ولكن المعنى العام هو (النظام الجيد) وبالتالي (الحق) و (العدالة) . ان الـ (مات) ينتمي للخليقة الأصلية : انه يعكس ، اذن الكمال للعصر الذهبي . وطالما انه يشكل البناء نفسه للكون وللحياة ، فإن الـ (مات) يمكن أن يكون قد عرف من كل فرد على حدة . في نصوص عن الأصل وعن العصور المختلفة ، نجد اعلانات كهذه : «حث قلبك لمعرفة الـ /مات/» « انني أعمل لكي تعرف الشيء عن المات في قلبك ؛ هل تستطيع ان تفعل ما هو صحيح من أجلك» أو : «كنت رجلاً أحب الـ (مات) وأكره الخطيئة . لأنني كنت أعلم ان الخطيئة ممقوتة من الله» . وفي الواقع ، ان الاله هو الذي يمنح المعرفة الضرورية . ان اميراً معيناً «كواحد عرف الحقيقة (مات) وان الله علمه » . مقدم الصلاة لرع يهتف «هل يمكن ان تمنحني من الـ (مات) في قلبي)»[٢٠] .

فيما يخص التجسيد لـ(المات) ؛ فإن الفرعون يكون النموذج المثالي بالنسبة لكل رعاياه . وكما يعتبر الوزير ريكهمير Rethmir : «إنه لإله ذلك الذي يجعلنا نعيش بأفعاله»[٢١] . ان عمل الفرعون يضمن استقرار الكون والدولة وبالنتيجة استمرارية الحياة . وفي الواقع فإن النشكونية تمارس كل صباح ، عندما (يدفع) الاله الشمسي الافعى (ابو فيس) ، دون ان ينجح مع ذلك في اتلافها ؛ لأن العماء (= الظلمات) يمثل الكمونية (افتراضية العقل) . أنها إذن غير قابلة للتلف . ان الفاعلية أو النشاط السياسي للفرعون يعيد قدرة رع : هو أيضا (يدفع) الافعى ، وبعبارة اخرى ، إنه يسهر لكن لا يرجع العالم إلى العماء . عندما يظهر اعداء على الحدود ، فإنهم يمثلون بالافعى Apaphis ، وان نصر الفرعون يحقق النصر لرع . هذا الاتجاه لتفسير الحياة والتاريخ في عبارات ذوات قوالب مثالية ومقولات) مميز وخاص بالثقافات التقليدية[٢٢] . الفرعون بالتأكيد هو الصانع الوحيد لاحداث التاريخ المتفردة ، فعندما بنى رمسيس الثالث قبره ، اعاد وضع أسماء المدن المغلوبة ، التي كانت مكتوبة على المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني . حتى في عصر الامبراطورية القديمة ، فإن الليبيين الذين (ظهروا كضحايا لحروب بيبي الثاني حملوا ذات الاسماء الفردية التي تظهر على صخور معبد ساموري

لقرنين سالفين)[٢٣] . انه من المستحيل معرفة الملامح الفردية للفراعنة كما رسموا على الآثار وفي النصوص . وفي العديد من التفصيلات المميزة . كالشجاعة والمبادهة ، مثلا ، لتحتومس الثالث اثناء معركة ميجدو ، وقد تعرف أ . د . بوك A.de Buck على العناصر المتفق عليها لصورة ملك مثالي . ويلاحظ ذات الاتجاه نحو اللاشخصي في تمثيل الآلهة . وباستثناء اوزيرريس وايزيس فإن الآلهة الأخرى رغم اشكالهم ووظائفهم المتميزة فإنهم مطلوبون في الترانيم والصلوات بذات العبارات تقريباً .

ومن حيث المبدأ ، فإن الطقس يجب ان يحتفل به من قبل الفرعون ، ولكنه كان يوكل وظائفه الى الكهنة في مختلف المعابد . ومباشرة أو بصورة غير مباشرة كان الدفاع اهداف الشعائر إذن الاستقرار (للخليقة الأصلية) . وفي كل عام جديد كانت النشكونية تتكرر بطريقة أكثر نموذجية من النصر اليومي /لرع/ ، لأنه كان يتعلق بدورة مؤقتة اكثر اتساعاً . ان تنصيب الفرعون كان يعيد المشاهد لاشارة مينا : توحيد البلدين . واجمالاً كان يكرر شعائرياً بناء الدولة (٢٥ ع) . ان حفلة التقديس كانت تجري بمناسبة عيد سيد sed ، المكمل ثلاثين سنة بعد التنصيب ومتابعاً تجديد الطاقة الالهية للملك[٢٦] . أما بالنسبة للأعياد الدورية لبعض الآلهة (حورس ، مين ، انو بيس الخ) فلا نعلم عنها الكثير . ولقد كان الكهنة يحملون على اكتافهم في الطواف تمثال الاله أو الزوررق المقدس . والطواف يقتضي الاغاني ، والموسيقى ، والرقص ويجري وسط هتافات المؤمنين .

ان العيد الكبير لـ (مين) هو واحد من أكثرها شعبية في كل مصر ، وقد عرفناه بشكل جيد بالعمل الذي ادخل بعدئذ في الطقوس الملكية . لقد كان اساساً عيد حصاد الموسم ، وكان الملك والملكة وثور ابيض يشاركون في الطواف . فالملك يقص ضمة من الشوك ويقدمها للثور ، غير ان بقية الشعائر كانت غامضة[١٧] . وكان الفرعون يرأس الحفلات لبناء وتدشين المعابد ، ولسوء الحظ لانعرف سوى بعض الإشارات الرمزية في الخندق المفتوح على موقع معبد

المستقبل ، ويدخل الملك (ودائع التأسيس) (قرميدة مقولبة من قبل الملك وبعض حلق الذهب الخ) وللتدشين كان يكرس الاثر برفع يده اليمنى .

ان العبادة اليومية كانت توجه إلى تمثال الاله المحفوظ في الناووس ، وما ان تتم حتى يقترب التطهير الشعائري فيتقدم الموظف المسؤول عن الناووس ويكسر الختم من الطين ويفتح الباب . كان يخر ساجداً أمام التمثال ، معلنا انه دخل إلى السماء (الناووس) كي يتأمل الاله . وكان التمثال يطهّر على اثر ذلك (بالنطرون/ ـ كربونات الصوديوم ـ /ليفتح فم/ الاله . و اخيراً يغلق الموظف المكلف الباب ويلصق المزلاج وينسحب القهقرى[٢٨] .

ان المعلومات المتعلقة بالشعيرة الجنائزية هي أكثر غزارة بشكل ملموس . فالموت والآخرة شغلا المصريين أكثر من الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى . وبالنسبة للفرعون ، كان الموت يشكل نقطة البدء لسفره السماوي (ولخلوده) . ومن جهة اخرى ، كان الموت يدخل مباشرة واحدا من أكثر الآلهة المصرية شعبية : اوزيريس .

٢٨ ـ صعود الفرعون للسماء .

في المقياس الذي يمكن معه اعادة البناء للمعتقدات ، فإن أكثر هذه المعتقدات قدما المتناسبة مع الوجود بعد الموت post - morten كانت تماثل تقليدين تأكدا بشكل واسع في العالم : إقامة الموتى إن تحت الأرض وإن سماوية ، كانت بدقة أكثر كوكبية . فبعد الموت ، كانت الأرواح تنضم للنجوم وتشاطرها ابديتها . ان السماء باعتبارها متخيلة كربة أم ، فإن الموت يعادل ولادة جديدة ، وبعبارة اخرى اعادة ولادة في عالم الكواكب . ان امومة السماء ، ادخلت الفكر بأن على الميت ان يولد ثانية : بعد ولادته السماوية كان يرضع من قبل الربة ـ الأم (ممثلة تحت شكل بقرة[٢٩] .

إن الأقلمة التحت ارضية للعالم الآخر كانت عقيدة سائدة في الثقافات النيولتية ففيها سلف وفي عصر ما قبل الاسر الحاكمة (بداية الألف الرابعة) ، توضحت بعض التقاليد الدينية المتضامنة مع الزراعة في العقدة الاسطورية الشعائرية الأوزيرية . وعليه فإن اوزيريس ، الاله المصري الوحيد الذي تحمّل موتا عنيفاً ، كان حاضرا أيضاً في العقيدة الملكية ، وستتفحص فيها بعد النتائج لهذا اللقاء بين اله يموت والتيولوجيا الشمسية التي تفسر وتقيم الخلود للفرعون .

إن نصوص الاهرامات تفصح بصورة تكاد تكون مصرية عن المفاهيم المتعلقة بما بعد موت الملك post - mortem. . ورغم جهود الفقهاء فإن المبدأ غير منهج بشكل كامل . ويكشف بعض التعارض بين المفاهيم المتوازية والمتعاكسة احياناً . ان جلّ الصيغ تردد بقوة إن الفرعون ، ابن آنوم (ـ رع) المحدث من قبل الاله الكبير قبل خلق العالم لا يمكن ان يموت ، غير ان نصوصاً اخرى تؤكد للملك ان جسده لن يعرف الفساد . وبالتأكيد ان ذلك يتعلق بايديولوجيتين ، دينيتين متميزتين ، ايضا ، غير متكاملتين بما فيه الكفاية[٣٠] .

مع ذلك فإن غالبية العبارات ترجع للسفر السماوي للفرعون . إنه يطير تحت شكل طائر ـ حدأة ـ بلشون ، إوزة متوحشة (.pyr ٤٧ ـ ٣/ ٨٩٠ ٩١ /٩١٣ ١٠٤٨) جُعل (٣٦١/ أو جرادة ٨٩٠ ـ ٩١ الخ) . الرياح ، والغيوم والآلهة يجب ان تأتي لمساعدته . احيانا يصعد الملك للسماء متسلقاً سلما (٣٦٥ ـ ٣٩٠ ـ ٩٧١ ٢٠٨) . واثناء صعوده ، فهو اله من جوهر مختلف تماما عن الجنس البشري (٦٥٠ ـ ٨٠٩)[٣١]

مهما يكن من امر ، قبل وصوله إلى الاقامة السماوية ، في الشرق المسمى (حقول التقدمات) فإن على الفرعون تحمل بعض التجارب . فالدخول كان ممنوعا بسبب بحيرة (ذات محيط متعرج) . وكان لمن يمر سلطة القاضي . ولكي يقبل في القارب كان يتوجب عليه اتمام كافة التطهيرات الشعائرية (pge ٥١٩ ـ ١١٨٦) وعلى الأخص الاجابة على سؤال من بنية مسارية ، أي أن يجيب بعبارات مقولبة stereotypee كانت تستخدم كلمات للمرور . أحيانا كان الملك يرجع إلى

الدفاع (pge۱۱ ـ ۸۹) أو إلى السحر /۲۹۲ع/أو حتى الى التهديد . انه يسترحم الآلهة (وبصورة خاصة رع ، تحوت ، وحوريس) أو يطلب إلى الجميزتين اللتين تشرق الشمس من بينهما كل يوم ان تمرراه إلى حقول الازهار[۳۲] .

بوصوله إلى السماء يستقبل الفرعون بانتصار من قبل الاله ـ الشمس ، وان مبعوثين يتسارعون إلى أربعة أقطار العالم يعلنوا انتصاره على الموت . ان الملك يمدد في السماء وجوده الارضي : يجلس على العرش ويتلقى ولاءات رعاياه ويستمر في اصدار أحكامه واعطاء الأوامر[۳۳] .

وطالما انه الوحيد المتمتع بالخلود الشمسي ، فإن الفرعون يحاط بعدد من رعاياه ، وبالدرجة الأولى أفراد عائلته وكبار الموظفين[۳٤] وان هؤلاء وقد ماثلوا النجوم يدعون /الممجدين/ . حسب قول فاندير /ص ۸۰/ «إن الفقرات الكوكبية لنصوص الأهرام مستعارة من قصيدةذات صفة استثنائية : نجد فيها الصورة البسيطة والعفوية لشعب بدائي يتحرك بارتياح في الغموض . . .»

وكما أشرنا ، فإن مذهب الخلاص لنصوص الأهرام ليس متماسكا دائما . فبالتشابه مع (رع) تؤكدمتيولوجيا اللاهوت الشمسي على النموذج المتميز للفرعون : فهذا لن يخضع لولاية قضاء اوزيريس، ملك الأموات . «تفتح مكانك في السماء بين نجومها ، لأنك نجم . . . تنظر من فوق اوزيريس . . . تقود الفانين وانت بعيد عنهم ، انك لست منهم» (pge . ۲٥۱) . . . (رع ـ اتوم لا تستسلم لأوزيريس ، الذي لن يحاكم قلبك وليس له سلطة على قلبك . . . اوزيريس ، لن يُستولى عليك من قبله . . وابنك (حوريس) لن يستولى عليه منه .) (pge ۱٤٥ ـ ٤٦ ترجمة ويل ص ۱۱٦) . حتى ان بعض النصوص الأخرى تبدو عدوانية ، انها تذكر بأن اوزيريس هو اله ميت ، لأنه اغتيل والقي في الماء . مع ذلك ، فإن بعض الفقرات تشير إلى تطابق الفرعون مع اوزيريس . وتوجد عبارات كالآتية : «كما ان اوزيريس يحيا ، فإن هذا الملك أوناس U n us يحيا ، كما ان اوزيريس لم يمت ابداً ، كذلك فإن الملك اوناس لن يموت ابداً» (pge ـ ۱٦۷) .

٢٩ ـ اوزيريس الاله المغدور assassiné .

لكي نوضح معنى مثل هذه العبارات يجب ان نذكر باختصار الاساطير والوظيفة الدينية لأوزيريس . ولنذكر بدئياً ان النص اكثر اكتمالاً للاسطورة الاوزيرية هو ذلك المنقول من قبل بلوتارك (القرن ٢ ب . م) في قصةايزيس وأوزيريد . اذ كما لاحظنا بمعرض النشكونية (٢٦ع) . فإن النصوص المصرية ترجع إلى مشاهد منعزلة فقط وبالرغم من بعض التفكك والتناقضات القابلة للتفسير بالتوترات والتلفيقات التي سبقت انتصار اوزيريس النهائي ، فإن اسطورته المركزية قد اعيد بناؤها بسهولة . وتبعاً لكافة التقاليد ، فلقد كان ملكاً خرافياً ، مشهوراً بالحيوية والعدالة وبهما حكم مصر . إن (سيت) شقيقه نصب له فخاً وتوصل إلى اغتياله . وان زوجته (ايزيس) ساحرة كبرى ، نجحت بأن تجعل نفسها تخصب (تلقح) من اوزيريس الميت . وبعد ان كفنت الجسد التجأت إلى الدلتا ، وهنالك متخفية في أجمات البابيروس انجبت ولداً (حوريس) . بعد أن أصبح حوريس كبيراً أعلم بحقوقه تجاه آلهة الاينياد Les dieux des L'enneade وقتل خاله .

في البدء نجح (سيت) باقتلاع عينه (pyr ١٤٦٣) ولكن الصراع استمر ، وأخيراً انتصر حوريس فاسترد عينه وقدمها ألى اوزيريس . وهكذا عاد اوزيريس للحياة) (pyr ـ ٦٠٩) . وحكمت الآلهة على سيت بأن يحمل ضحيته الخاصة[٣٥] (مثلا تحول سيت إلى الزورق الذي نقل اوزيريس إلى النيل) . ولكنه ، مثل أبوفيس ، فإن سيت لايمكن ان يفنى نهائياً ، لأنه هو ايضاً يجسد قوة لا يمكن انقاصها . وبعد النصر ينزل حوريس لبلاد الموتى ويعلن الخبر السار : فيتوج ملكاً معترفاً به كخليفة شرعي لوالده . وهكذا كان (استيقاظ) اوزيريس : حسب النصوص (وضع روحه في الحركة) .

ذلك هو بصورة خاصة ، الفصل الأخير من مأساة توضح النموذج المتميز للكائن اوزيريس . لقد وجده حوريس في حالة من الحذر الغير واعي ، ونجح

في اعادة احيائه . «اوزيريس ! انظر ، اوزيريس ! انتبه ـ انهض . . . استيقظ . احيا» (pyr . ٢٥٨)

ان اوزيريس لم يظهر متحركاً مطلقاً . . فهو يبدو دوماً فاقد القدرة وسلبياً[٣٦] . بعد تتويجه ، أي بعد ان تم وضع نهاية لفترة الازمة (العماء chaus) فإن حوريس احياه : «اوزيريس ؛ لقد سافرت ، ولكنك عدت ، لقد نمت ولكنك استيقظت : لقد مت ولكنك عشت من جديد» (pyr . ١٠٠٤) . في هذه الأثناء عاد اوزيريس للحياة (كشخص روحي = روح) وقوة وحيوية . انه هو الذي سيضمن منذ الآن الخصوبة النباتية وكل قوى اعادة الانتاج . لقد وصف كما لو انه الأرض بكاملها ، أو مقارناً بالمحيط الذي يلف العالم . وفيما سلف حوالي ٢٧٠٠ ق . م كان اوزيريس يرمز لينابيع الخصب والنمو[٣٧] . وبعبارة اخرى ان اوزيريس الملك المغدور (= الفرعون الميت) يضمن سعادة العرش المدار من قبل ابنه حوريس (ممثلا بالفرعون الذي سينصب) .

تتكشف بخطوطها الكبرى العلاقات بين رع والفرعون والزوج اوزيريس ـ حوريس . ان الشمس وقبور الملوك كانت تشكل المنبعين الاساسيين للقداسة . وحسب اللاهوت الشمسي ، كان الفرعون ابن رع ، ولكن بما أنه يخلف الملك الميت (= اوزيريس) ؛ فإن الفرعون الحاكم كان ايضاً حوريس . ان التوتر بين هذين الاتجاهين للروح الدينية المصرية (الشمسية والأوزيرية)[٣٨] يبدو في وظيفته الملكية . فكما رأينا ان الحضارة المصرية هي النتيجة للاتحادين مصر السفلى ومصر العليا في عرش واحد . وفي البدء اعتبر رع كملك للعصر الذهبي ، ولكنه منذ الامبراطورية الوسطى (١٧٣٠ ـ ٢٠٤٠ ق . م) تقريباً ، تحول هذا الدور لأوزيريس .

في الايديولوجيا الملكية انتهت الصيغة الايزورية لتفرض نفسها ، لان توالد اوزيريس ـ حوريس حفظ استمرارية الاسرة المالكة ، وضمن السعادة للبلاد ، علاوة على ذلك . ولكونه كمنبع للخصوبة الشاملة ، فإن اوزيريس قد جعل حكم ابنه وحليفته مزدهراً .

ان نصاً يعود للامبراطورية الوسطى يعبر بشكل رائع عن تمجيد اوزيريس بصفته مصدراً وأساساً لكل خليقة : «سواء أعشت أم مت ، فأنا اوزيريس ، . . أدخل فيك وأعاود الظهور من خلالك : افنى فيك ، وأنمو فيك . . . ان الارباب تعيش فيّ لأنني اعيش وأنمو في القمح الذي يسندها . انني اغطي الأرض ؛ لأمت أو أعيش . فأنا الشعير . . لايفنى مطلقاً . لقد اخترقت النظام ، انني انبثق في النظام»[٣٩] .

انه يتعلق بتقييم جريء للموت ، يرتفع منذئذ كنوع من التحول الممجد للوجود للجسد . إن الموت يكمل المسيرة من دائرة اللامعنى نحو دائرة المعنى . ان القبر هو المكان الذي يكتمل فيه تحول الانسان (ساخ) لأن الموت يصبح (أخ) (روحاً مقلوبة) . وما يهمنا هنا ، هو واقعة أن اوزيريس يصبح بنجاح النموذج المثالي ، ليس بالنسبة للملوك فحسب ، وإنما بالنسبة لكل فرد . من المؤكد ، ان ديانته كانت شعبية آنئذ في ظل الامبراطورية القديمة ؛ وهذا مايفسر وجود اوزريريس في نصوص الاهرام ، رغماً عن ، مقاومة اللاهوتيين في هليوبوليس . ولكن أول أزمة عنيفة ، والتي سنشير اليها فيما سيلي ، قد وضعت نهاية للعصر الكلاسيكي للحضارة المصرية . فما أن أعيد النظام حتى وجدنا اوزيريس في قلب المشكلات الاخلاقية والآمال الدينية . وهذا هو البداية لتطور كان قد وصف وكأنه (دقرطة لأوزيريس) comme democratisation d'osiris .

وفي الواقع ، وإلى جانب الفراعنة ، يعلّم الكثيرون مساهمتهم الشعائرية في مأساة وتأليه اوزيريس . ان النصوص المسجلة منذ عهد قريب من على جدران الكهوف المخفية في الأهرام العليا للفراعنة ، قد أعيد جمعها الآن داخل نواويس الاشراف والاشخاص المجردين من الامتيازات . وان اوزيريس أصبح نموذج كل من يريد ان يقهر الموت . ان نصاً من أحد النواويس (١٧ ـ ٢٧٦) يعلن : « أنت الآن ابن ملك ، أمير ، وقلبك (روحك ، سيكون معك مهما طال الزمن) . باتباع مثال اوزيريس ، وبمساعدته فإن الموتى تنجح في التحول إلى (أرواح) أي إلى كائنات روحية متكاملة جداً ، وبالتالي غير قابلة للفناء . ان اوزيريس المقتول والمقطع قد اعيد (تكوينه) من قبل ايزيس واعيد للحياة من قبل حوريس . بهذه

الطريقة أحيا طريقة جديدة للوجود : في كل شبح لاقوة له ، أصبح (شخصاً) يعلم ، أصبح كائناً روحياً ، بناء عليه ، ملقناً بالسر .

ومن الراجح ان الاسرار الهلنستية لايزيس واوزيريس قد تطورت من أفكار مماثلة . ان اوزيريس يستعيد من رع وظيفة قاضي الأموات ؛ ويصبح سيد العدالة ، المستقرة في قصر أو على أكمة أولية ، أي في (مركز الدنيا) . مع ذلك وكما سنرى فإن التوتر رع ـ اوزيريس سيجد حلاً خلال الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة .

٣٠ ـ الاغماء : فوضى ، قنوط و (دقرطة) حياة ماوراء القبر .

كان بيبي الثاني الفرعون الأخير في الأسرة السادسة . وبعد قليل من الزمن من وفاته حوالي (٢٢٠٠ ق . م) كانت مصر قد تزعزعت بعنف بسبب الحرب الأهلية ، وانهارت الدولة . وإن ضعف السلطة المركزية شجع اطماع مؤسسي السلالات ، وخلال وقت قصير اكتسحت الفوضى البلاد . ولفترة ما ، كانت مصر قد قسمت إلى مملكتين ، مملكة الشمال وعاصمتها هيرا كليوبوليس ، ومملكة الجنوب وعاصمتها طيبة . وقد انتهت الحرب الأهلية بانتصار الطيبيين ونجح الملوك الأخيرون للأسرة التاسعة في اعادة توحيد البلاد . إن عصر الفوضى ، المسمى من قبل المؤرخين العصر الأول المتوسط أخذ نهايته في ٢٠٥٠ ق م مع مجيء الأسرة الثانية عشرة . وان اعادة احياء السلطة المركزية تميز ببداية نهضة حقيقية .

خلال العصر المتوسط حصلت (دقرطة) الوجود بعد الموت : كتب النبلاء على نواويسهم بل أعاد النبلاء كتابة النصوص من الأهرام ، المخصصة حصراً للفرعون . وكان هذا أيضاً العصر الوحيد من التاريخ المصري الذي اتهم فيه الفرعون بالضعف وحتى بقابليته للموت .

بفضل عدد من النصوص الأدبية ذات الفائدة الكبرى ، يمكننا تتبع التحولات العميقة التي كان لها محلها أثناء الأزمة . والنصوص الأكثر أهمية تعرف تحت العناوين التالية : تعليمات من أهل الملك ميري كاريmeri - Ka - ré ، نبوءات النبي ابو ويرIpu - Wer ، غناء عازف القيثارة ، خصام انسان متعب مع روحه . ان مؤلفي هذه النصوص يندبون المصائب المثارة نتيجة انهيار السلطة التقليدية ، وبصورة خاصة المظالم والجرائم التي تنبت عن الشك واليأس ، المؤدي للانتحار . غير ان هذه الوثائق تدل في ذات الوقت على وجود تغير في النظام الداخلي . على الأقل ان بعض أصحاب المقامات أو الموظفين أخذوا يتساءلون حول مسؤوليتهم في الكارثة ولايترددون عن الاعتراف بأنهم مذنبون .

إن أحد الأنبياء ابو ـ ويرا مثل أمام الفرعون لكي يقيِّم له حجوم أو نسبة المصائب : (هاهي البلاد مجردة عن الملكية من قبل بعض الأفراد غير المسؤولين ! . . . هاهم الرجال يعلنون العصيان ضد الأفعى الملكية) اورايوسUraeus ـ شعار الفراعنة ـ التي غمرت البلدين بالسلام . . . ان المقر الملكي يمكن أن يجتث في ساعة . . .» إن المقاطعات والمعابد لاتدفع الرسوم مطلقاً بسبب الحرب الأهلية . إن مقابر الأهرام قد نهبت بوحشية . «إن الملك غدا محمولاً من الفقراء . . انظر ، ذلك الذي دفن مثل (حدأة مقدسة) انه يرقد الآن على عربة بسيطة ، ان كنز الهرم هو فارغ الآن . .» . مع ذلك وبالتتابع الذي تكلم فيه فإن النبي (ابو ـ وير) غدا أكثر جرأة وانتهى إلى لوم الفرعون بسبب الفوضى العامة . لأن على الملك أن يكون راعي شعبه ، وربما قلده الموت بحكمة ، «السلطة والعدالة هما معك ، ولكن الفوضى التي اقمتها في كل مكان من البلاد مرتبطة بضجة المنازعات . انظر كل واحد ينقض على جاره ، ان الناس ينفذون ما أمرتهم به . ان هذا يظهر ان تصرفاتك قد خلقت هذه الحالة وانك قد نطقت بالأكاذيب»[٤٢] .

إن واحداً من ملوك العصر ذاته ألف أطروحة لأجل ولده ميكاريه mei - ka-re . انه يعترف بتواضع بذنوبه : «مصر تتصارع حتى في مدينة الأموات . . . . وانا أفعل الشيء نفسه» إن آلام البلاد «كان وجودها بسبب تصرفاتي وقد عرفت

(الألم الذي صنعته) فقط بعد أن صنعته !» . وهو يأمر ولده (لأن يعمل بعدل mat) لزمن طويل كي يعيش على الأرض «لاتثق في طول السنين ، لأن القضاة الذين سيحاكمونك بعد الموت ، يعتبرون الحياة كساعة . . » لايوجد سوى أعمال الانسان التي تبقى معه . . بالنتيجة (لاتفعل شراً) . فبدلاً من ان ترفع نصباً من الحجر «اعمل لدرجة ان يستمر نصبك بالحب» «أحبب كل الناس ! » لأن الآلهة تتحقق من العدالة أكثر من التقدمات . آسي من يبكي ولاتضغط على الأرملة . . . لاتطرد انساناً من ملك والده . . . . لاتعاقب بظلم لاتقتل أبداً . . .[٤٣]

إن بعض النزعات لتخريب الآثار روَّعت المصريين : خرَّب الناس قبور الأجداد ، طرحوا الأجساد وحملوا الحجارة من أجل قبورهم الخاصة . وكما لاحظ ابو ـ وير «إن عدداً من الموتى قد دفنوا في النهر . فالنهر أصبح قبراً . . » ونصح الملك ابنه (ميري كاري) : «لاتضر بأثر أحد . لاتبن قصرك من الخرائب» . ان اغنية عازف القيثارة تثير أمر نهب وتخريب المقابر ، ولكن لأسباب مختلفة جداً . ان الآلهة التي عاشت سابقاً (الملوك) تستريح في اهراماتها ، وان الموتىٰ المعتبرين (الاشراف)المدفونين في اهراماتهم ـ لم تعد توجد محلات اقامتهم ! انظر ماذا فعل بهم . . الجدران كسرت ، وبيوتهم لم تعد توجد ، كما لو أنهم لم يكونوا موجودين فيما سلف . . » . غير أنه بالنسبة لمؤلف القصيدة فان هذه الجرائم لا تفعل سوىٰ اعادة التأكيد علىٰ السر المغلق الذي لا يمكن اختراقه حول الموت . . «لا أحد يعود من هنالك ، ليستطيع أن يصف لنا حالتهم وليقل لنا عن حاجتهم ، لكي يطمئن قلوبنا حتىٰ الوقت الذي سنمضي نحن أيضا فيه باتجاه المكان الذي مضوا اليه . . » ويستنتج عازف القيثارة بالنتجية «اتبع رغبتك . . . طالما أنت علىٰ قيد الحياة . . لا تدع قلبك يذبل[٤٤]» .

ان نكبة كافة المؤسسات التقليدية تترجم في ذات الوقت بالشك والتشاؤم وبتجميد التمتع الذي لم يصل لاخفاء عمق اليأس . ان اغماء الملكية الالهية يقود قدرياً لانخفاض القيمة الدينية للموت . واذا كان الفرعون لا يعتبر بعد كاله

متجسد ، فان كل شيء يصبح موضع تساؤل ، وفي الدرجة الاولى ، معنى الحياة ، واذن حقيقة بعد الوجود لما وراء القبر ان اغنية /عازف القيثارة /تعيد الى الذاكرة أزمات يأس أخرى - في اسرائيل وفي اليونان وفي الهند القديمة - أزمات مثارة بانهيار القيم التقليدية .

بالتأكيد ان النص الأكثر اثارة هو (الخصام حول الانتحار) انه حوار بين انسان مثقل باليأس وبين روحه (با = ba) فيجهد الرجل لاقناع روحه بملاءمة الانتحار «لمن سأتكلم اليوم «ان الاخوة أشقياء ، ورفاق الأمس لا يتحابون . . ان القلوب جشعة : كل واحد يقبض الأموال من جاره . . لا يوجد عادلون . . ان البلاد قد تركت الى عمال الجور . . ان الخطيئة التي تجول على الأرض لا نهاية لها» . انه وهو واقع وسط هذه المصائب ، يظهر له الموت اكثر من مرغوب فيه : انه يغمره بسعادة بالغة منسية أو نادرا ما عرفت «الموت هو عندي اليوم مثل الشفاء بالنسبة لمريض . . مثل عطر المر . . مثل عبير زهر اللوتس . . مثل رائحة الحقول بعد المطر . . مثل الرغبة الحارة لشخص للعودة الى بيته بعد طول سنين من الأسر . .) وتذكره روحه بدئيا بان الانتحار يمنعه من الدفن والخدمات الجنائزية ، وتجهد بالتالي لاقناعه بنسيان همومه وذلك بالبحث عن اللذائذ الحسية ، وأخيرا تؤكد له الروح بأنها ستبقى بجانبه حتى في حالة التقرير باعطاءه الموت[٤٥] .

إن المؤلفات الأدبية للعصر المتوسط استمرت بأن تقرأ ويعاد نسخها لزمن طويل بعد إعادة احياء الوحدة السياسية في ظل فراعنة الامبراطورية الوسطى (١٧٣٠ - ٢٠٤٠ ق . م) . ان هذه النصوص كانت تمثل أكثر من شهادات لا مثيل لها عن الأزمة الكبرى ، انها توضح اضافة لذلك اتجاه الروح الدينية المصرية التي لم تتوقف عن الفيضان منذئذ . وان ذلك يتعلق بتيار فكري من الصعب وصفه باختصار ، ولكن المميز الرئيسي ، هو الأهمية المعطاة للشخص البشري بكونه مثل حي لنموذج مثالي هو شخص الفرعون .

٣١ ـ لاهوت وسياسة /التشميس/ :

إن الامبراطورية الوسطىٰ كانت قد حكمت من قبل مجموعة من الملوك العظام ينتمون جميعهم تقريباً إلىٰ الأسرة الثانية عشرة وتحت حكمهم عرفت مصر عهداً من التوسع الاقتصادي والاحترام الدولي الكبير(٤٦) . ان الأسماء المختارة من الفراعنة عند تتويجهم تترجم ارادتهم بأن يحكموا بعدل /مات/ تجاه الأشخاص والآلهة(٤٧) . وأثناء حكم الاسرة الثانية عشرة تسنم آمون العرش ، وهو واحد من ثمانية أرباب عبدوا في هيرموبوليس تسنمه في درجة عليا تحت لقب آمون ـ رع (مؤسس الأسرة كان يدعىٰ امينومهات Amenomhat«آمون هو في الرأس» . إن الاله المستور (فقرة ٢٦ م) قد تماهى بالشمس الاله الذي يظهر بامتياز . وبفضل /التشميس/Solarisation غدا آمون الاله الشامل للامبراطورية الجديدة . ومن المفارقة ، ان هذه الامبراطورية ـ الوحيدة التي تستحق غالبا هذا الاسم ـ كانت النتيجة المتأخرة ، ولكن الحتمية لأزمة ثانية انفجرت بعد انطفاء الاسرة الثانية عشرة . إن عدداً كبيراً من الملوك قد تتا بع بسرعة إلىٰ حين غزوة الهكسوس في ١٦٧٤ ق . م . وان أسباب تردي الدولة ظلت مجهولة لجيلين قبل غزوة الهكسوس . غير ان المصريين علىٰ كل حال لم يستطيعوا المقاومة لوقت طويل ضد غزوة هؤلاء المحاربين الأشداء مستعملي الحصان والعربة والقوس . . . وتاريخ الهكسوس غير معروف جيداً(٤٨) مع ذلك فإن اندفاعهم صوب مصر كان بالتأكيد النتيجة لهجرات هزت الشرق الأوسط في القرن السابع عشر .

بعد النصر استقر الفاتحون في الدلتا . من عاصمتهم «أفاريس» حكموا بواسطة امراء الاقطاع القسم الأكبر من مصر السفلىٰ . وان الهكسوس حملوا معهم بعض الآلهة السورية ، بعل وتشوب في المقام الأول والتي وحدوها بـ(سيت) Seth .

إن الترقية لأرفع درجة لقاتل اوزيريس تشكل ، بالتأكيد ، اهانة قاسية . مع ذلك يجب ان يحدد بدقة ان عبادة /سيت/ كانت قد طبقت سابقاً في الدلتا في زمن الأسرة الرابعة .

ان غزوة الهكسوس بالنسبة للمصريين مثلت كارثة يصعب استيعابها . وان الثقة بوضعهم المتميز المحدد سلفاً من قبل الآلهة ، قد انتهك بقسوة . واضافة لذلك فبينما ان الدلتا كانت مستعمرة من الاسيوين ، فإن الفاتحين الموزعين في حقولهم المحضة ، كان يتجاهلون باحتقار ، الحضارة المصرية . غير ان المصريين تفهموا الدرس وبنجاح تعلموا معالجة أسلحة الغزاة ، وبعد قرن من الكارثة (حوالي ١٦٠٠ ق .م) أعلنت طيبة ، حيث كان يحكم فرعون من الأسرة السابعة عشر ، حرب التحرير . ان النصر النهائي[٤٩] يتوافق مع مجيء الأسرة الثامنة عشرة (١٥٦٢ ـ ١٣٠٨ ق.م) وبناء الامبراطورية الجديدة .

ان التحرير قد ترجم بنمو الوطنية وكره الأجنبي Pa Xénophobie وقد توجب علىٰ الأقل مرور قرن من الزمن لتهدئة العطش للثأر ضد الهكسوس ففي البدء أخذ الملوك يلجأون لغزوات تأديبية ، إلا أنه في ١٤٧٠ ق . م افتتح تحتومس الثالث مجموعة الحملات الحربية بغزوة ضد المواقع القديمة القوية للهكسوس . ان الشعور بعدم الأمان المتولد بالاحتلال الأجنبي كان بطيء الزوال . وانه لكي يجعل مصر غير قابلة للعطب تجاه الضغوط الخارجية ، تصدى تحتومس الثالث لسلسلة من الغزوات التي وصلت للأمبراطورية : ومن الراجح ان الكبت ، والحرمان من الحقوق الذي تحملها المصريون خلال الـ ٢٢ سنة الأولىٰ من حكمه قد أثارت اطماعه العسكرية . ولأنه خلال كل هذه الفترة كان الملك الحقيقي عمته وحماته /حتشبوت/ الملكة الموهوبة والتي كانت بشكل خاص تفضل التوسع الثقافي والتجاري علىٰ الحروب والفتح . إلا انه بعد خمسة عشر يوماً من سقوط /حتشبوت/ كان تحتومس في طريقه لفلسطين وسورية ـ لكي يخضع /العصاة/ . وبعد قليل من الزمن ، انتصر في مجيدو Mejido ولحسن الحظ بالنسبة لمستقبل الامبراطورية فإن تحتومس بدا كريماً مع المغلوبين .

كانت تلك نهاية العزلة المصرية ، ولكن أيضا انحدار الثقافة التقليدية المصرية . ورغم المدة القصيرة نسبيا للأمبراطورية ، فإن اثارها كانت غير قابلة للانعكاس . ويتبع سياستها الدولية ، أن مصر انفتحت بنجاح علىٰ ثقافية عالمية . فبعد قرن من انتصار مجيدو ، تأكد الحضور الكثيف للأسيويين في كل مكان حتىٰ في الادارة وفي المقرات الملكية .

إن العديد من الألهة الأجنبية ، لم يسمع لها فحسب ، وانما تمثلت بالآلهة الوطنية . وأكثر من هذا فإن الآلهة المصرية بديء بعبادتها في البلدان الأجنبية وآمون ـ رع أصبح ربا عالميا . . .

ان /تشميس/ آمون سهَّل في آن واحد المعرفة الدينية ورفعت آلهاًشمسياً للصف الأول . ولأن الشمس كانت الاله الوحيد المقبول عالميا(٥١) ، فإن أجمل الترنيمات إلىٰ آمون ـ رع الممجدة له كخالق عام وعالمي ، قد أُلفت في بداية العهد الامبراطوري ، ومن جهة اخرىٰ ، فإن عبادة الاله الشمسي بصفته الرب السامي بامتياز قد هيأت بعض الوحدة الدينية : إن سيادة مذهب إلهي واحد فرض بنجاح ، من وادي النيل حتىٰ سورية ، وفي الأناضول ، وفي مصر ، وجد هذا اللاهوت الشمسي ذو الاتجاه الشمولي ، مطبقاً حتىٰ أو قضاء وقدراً في توترات النظام السياسي . اثناء الاسرة الثامنة عشر كانت معابد آمون ـ رع قد تنامت بشكل ملحوظ وكان مردودها متكاثراً . وكنتيجة لاحتلال الهكسوس وعلىٰ الأخص لتحرير مصر من قبل فرعون طيبة ، فإن الآلهة قد جرَّت لتوجيه اعمال الدولة بطريقة أكثر مباشرة . وهذا يعني ان الآلهة وبالدرجة الأولىٰ آمون ـ رع ـ أوصلو آراءهم بواسطة هيئة كهنوتية . وقد كسب الكاهن الاكبر لآمون سلطة هامة اذ كان يجلس مباشرة بعد الفرعون . ان مصر كانت علىٰ اهبة ان تصبح ثيوقراطية هذا ومن جهة اخرىٰ لم ينقص الصراع من أجل السلطة بين الكاهن الأكبر والفراعنة . ان هذا القسيس الحاد للتراتبية الكهنوتية هو الذي صلَّب التوتر بين مختلف الاتجاهات اللا هوتية في خصومات هي أحيانا غير قابلة للاصلاح .

٣٢ ـ اخناتون أو الاصلاح المفقود :

إن ما أسمي بثورة العمارنه (١٣٥٠ ـ ١٣٧٥) أي اعلاء آتون ، القرص الشمسي كاله واحد أعلىٰ ، يفسر في جزء منه بارادة الفرعون امنحولت الرابع كي يتخلص من الكاهن الأكبر . وفي الواقع فإنه بعد قليل من الزمن بعد التنصيب ، جرد الملك الشاب كاهن آمون الأكبر من ادارة أموال الاله وهكذا سحب منه مصدر سلطته ، وتباعاً غير

الفرعون اسمه (آمون الراخي) إلىٰ AKE - en - Aton (الذي يخدم آتون) وترك العاصمة طيبة (مدينة آمون) وبنى مدينة اخرىٰ على مسافة ٥٠٠ ك م للشمال واسماها اخيتاتون (حاليا تل العمارنة) حيث رفع القصور ومعابد آتون . وخلافاً لمقابر آمون فإن مقابر آتون لم تكن مغطاة ، فيمكن بذلك عبادة الشمس بكل مجدها . وليس هذا هو التجديد الوحيد لاخناتون . ففي الفنون التصويرية ، شجع النموذج المسمىٰ منذئذ (الطبيعية) للعمارنة ؛ وللمرة الأولىٰ فإن اللغة الشعبية دخلت في التسجيلات الملكية والقرارات الرسمية أو اضافة لذلك ، فإن الفرعون تراجع عن التقاليديةConventionnalisme القاسية المفروضة بالمراسيم étiquette وترك العفوية تحكم العلاقات مع أعضاء اسرته وحاشيته . إن كل هذه التجديدات بالقيمة الدينية التي اعطاها (اخناتون) للحقيقة (مات) ، اذن ، لكل ما هو طبيعي ينسجم مع ايقاعات الحياة . لأن هذا الفرعون الشحيح والممسوخ تقريبا ، والذي توجب عليه ان يموت وهو صغير السن جداً ، قد اكتشف المعنىٰ الديني السرور في العيش ، والسعادة بالتمتع بالابداع الذي لا ينضب لآتون ، وفي المحل الأول النور الالهي . ولكي يفرض أخناتون اصلاحه أبعد آمون وكل الآلهة الأخرى[٥٢] لمصلحة آتون ، الرب الأعلىٰ المشبه بقرص الشمس ، المنبع الشامل للحياة : مثلث مع أشعتها المنتهية بأيديتحمل للمؤمنين رمز الحياة (انخ) Ankh .

ان الجوهري في لاهوت اخناتون يوجد في ترنيمتين موجهتين إلىٰ (آتون) وهما الشيء الوحيد الذي احتفظ به ، انها ، بالتأكيد ، تتعلق بواحدة من أكثر العبارات الدينية المصرية نبلا «الشمس هي بدء الحياة» . اشعتها (تعانق كل البلدان) رغم كونك بعيدة جداً ، فإن اشعتك علىٰ الأرض ، مع كونك علىٰ وجوه البشر فإن آثارك غير مرئية[٥٣]» . إن آتون هو (خالق النطفة في المرأة) ، وهو الذي يحيي الجنين ويسهر علىٰ الولادة وعلى نمو الولد ـ وكما أنه من جهة أخرىٰ يعطىٰ النفَس إلىٰ الفرخ الصغير ويحميه بالتالي . «كم هي عديدة أعمالك ! ! انها محجوبة عن البشر . أيها الاله الأوحد ما عداك لا يوجد أبد آخر[٥٤]» . إن آتون هو الذي خلق كل البلدان ، والرجال والنساء ، ووضع كل واحد في مكانه الخاص ، آخذا العناية بحاجاته . (العالم يستمر بك . . . .) : «لكل واحد غذاؤه . . .» .

لقد قورنت هذه الترنيمة حقاً بترنيمة المزمور /١٠٤/ . وقد حصل كلام حول الخاصية التوحيدية لاصلاح اخناتون . إن أصالة وأهمية هذا (الفرد الأول في التاريخ) كما وصفه (بريستد) هي متضادة أيضاً ، الا إنه لا شك في حميته الدينية . فالصلاة التي وجدت في ناووسه تتضمن هذه السطور «سأتنشق النفس الحلو من فمك . كل يوم سأتأمل جمالك . . . اعطني يديك ، المشحو نتين بروحك ، كي اتلقاك ولكي أعيش بها نادى باسمي علىٰ طول الأزلية : فهو لن يهمل نداءك مطلقاً» . . بعد ثلاثة وثلاثين قرنا ما زالت هذه الصلاة محافظة علىٰ قوتها المثيرة .

خلال حكم (اخناتون) وتأكيدا بسبب سلبيته السياسية والعسكرية ، فإن مصر إضاعت الامبراطورية الأسيوية . ان خليفته توت عنخ آمون (١٣٥٧ ـ ١٣٤٩ ق . م) استعاد العلاقات مع الكاهن الأكبر لآمون في الجزء الأكبر منها . وبعد زمن قصير مات آخر فرعون في الأسرة الثامنة عشرة الطويلة والمجيدة .

وتبعاً لرأي عام لدىٰ العلماء فـإن زوال الأسرة ١٨ يشير أيضاً لنهاية العبقرية المصرية الابداعية . ففيما يخص الابداعات الدينية ، يمكن التساؤل عما اذا كان شحها وقلتها حتىٰ اقامة أسرار ايزيس واوزيريس لاتفسر بعظمة وفاعلية التأليفات المركزة اثناء الامبراطورية الجديدة(٥٥) . لأن هذه التأليفات من احدىٰ وجهات النظر ، تمثل قمة الفكر الديني المصري : انها تشكل نموذجاً مصاغاً بشكل تام ، والذي لا يشجع سوىٰ التجديدات الانشائية .

ولكي نتحقق بشكل أفضل من اهمية هذه التأليفات اللاهوتية نرجـع قليلاً الى التوحيد الآتوني . فيجب بدئياً التأكيد علىٰ ان العبارة المستعملة من قبـل اخناتون في صلاته ـ «الاله الأحد ـ لا اله الا هو» ـ كانت مطبقة قبل ذلك ، قبل ألف عام من العمارنة،الأمون ، ورع وآتوم ولآلهة اخرىٰ . واضافة لذلك وكما لاحظ جون ويلس Jhon Vihon ، كان يوجد علىٰ الأقل إلاهان ، (ربان) ؛ لأن اخناتون كان نفسه معبوداً كما لو انه اله معبود . وان صلوات المؤمنين (أي الجماعة المحصورة بالموظفين واعيان القصر) كانت توجه ليس لآتون ، وانما مباشرة لاخناتون . ويعلن الفرعون في صلاته الشهيرة أن آتون هو الهه الخاص : «انت في قلبي ولا

أحد آخر لا يعرفك باستثناء ولـدك (اخناتون) وإنك كشفت الأسرار في تصميماتك وقدرتك) . وهذا مايفسر زوال (الآتونية) بشكل خاطف تقريبا بعد موت اخناتون . وفي آخر المطاف ، كانت تقوى محدودة للأسرة الملكية ورجال البلاط .

يضاف الى ذلك أن آتون كان معروفاً ومعبودا لزمن طويل قبل اصلاح العمارنة . ففي كتاب / ما هو في الآخرة (Ce qui est dans l'audela) كان رع يسمى «سيد القرص (آتون)» . وفي نصوص أخرى من الاسرة ١٨ /ان آمون /الاله المستور/ مجهول ، بينما يوصف رع بالاله ذو (الوجه المحجب) والذي سيستتر في العالم الآخر ، وبعبارة أخرى ، ان الصفة السرية والغير قابلة للرؤية لرع هما مظهران معلنان ومتممان لآتون ، الاله الظاهر بالكمال في قرص الشمس»[٥] .

٣٣ ـ تأليف نهائي : اتحاد رع ـ اوزيريس:

إن علماء لاهوت الامبراطورية الجديدة يؤكدون على تكامل المتعارضين ، بل المتعاديين في صلاة رع la Litanie de Rê يدعى الاله الشمس (الواحد ـ الجامع الكل) ؛ وهو يمثل تحت شكل مومياء أوزيريس حاملا التاج لمصر العليا . وبعبارات أخرى ان اوزيريس قد تدخل بروح رع[٥٩] . ان التوحيد بين الالهين تكامل في شخص الفرعون الميت : بعد العملية الاوزيرية يعود الملك للحياة ، ويبعث كـ رع الشاب ، لأن مسيرة الشمس تمثل النموذج المثالي لمصير الانسان : مرور من نموذج ليكون في آخر ، من الحياة الى الموت ، وبالتالي الى ولادة جديدة . ان نزول رع في العالم تحت الأرضي يعني في ذات الوقت موته وبعثه . أحد النصوص يعلن «رع الذي سيستقر في أوزيريس وأوزيريس الذي سيستقر في رع» . وان العديد من الاشارات[٦٠] الميثولوجية تبرز المظهر المزدوج لرع : شمسي وأوزيري . بنزوله في العالم ، يصبح الملك الموازي للثنائي اوزيريس ـ رع .

وطبقاً لأحد النصوص المذكورة أعلاه ، فان رع سيختفي في العالم الآخر . ان العديد من موحيات الصلاة Litanie (٢٠ ـ ٣٠) تبرز الصفة المائية لرع وتشابه الاله الشمسي مع المحيط البدئي . ولكن اتحاد الاضداد قد عبَّر عنه بصورة خاصة بالتضامن المستور بين رع وأوزيريس ، أو بين حورس وسيت . ونعيد هنا التعبير الموفق لراندل كلارك Rundle Klark : «رع بصفته الها مفارقاً ، واوزيريس بصفته اليها منبثقا ، يشكلان المظاهر المتكاملة للألوهية» . وفي آخر المطاف فانه يتعلق بذات السر ، وبصورة خاصة بتعددية الأشكال الصادرةعن الاله الواحد[٦٢] . وتبعاً لأنساب الالهة وللتشكونية الفاعلة من قبل آتوم (٢٦ ع) فان الألوهية هي في الان ذاته واحدة ومتعددة ، وان الابداع يتكون في تعدد أسمائه وأشكاله .

ان اشتراك واتحاد الالهة عمليات مألوفة للفكر الديني المصري منذ العصور القديمة جدا . الأمر الذي يشكل الأصولية للاهوت الامبراطورية الجديدة وهذا هو ، من جهة الموضوعة لفعلة مزدوجة جعل اوزيريس رع osirisation de rê وتشميس اوزيريس ، ومن وجهة اخرى ، الاعتقاد الراسخ بأن هذه الفعلة المزدوجة تكشف المعنى السري للوجود البشري ، وبدقة التكامل بين الحياة والموت[٦٣] وحسب بعض وجهات النظر ، فان هذا التركيب اللاهوتي يؤكد انتصار اوزيريس ، باعطائه معنى جديدا ، ان انتصار الاله المغدور كان شاملاً فيما سلف في بداية الامبراطورية الوسطى . ومنذ الأسرة ١٨ أصبح اوزيريس قاض الموتى . ان الفصلين من مأساة ما وراء القبر ـ الدعوى ووزن القلب ـ تجري امام اوزيريس . ومشار اليها في نصوص النواويس، فالدعوى ووزن الروح تتجه لتذوب في كتاب الأموات . [٦٤] .

إن هذه النصوص الجنائزية ، حررت إبان الامبراطورية الجديدة ، ولكنها تحتوي على مواد أكثر تقدما ، وهي ستتمتع بشعبية غير متساوية حتى نهاية الحضارة المصرية . وان كتاب الموتى هو الدليل الممتاز للروح في الآخرة . والصلوات والعبارات السحرية التي يشتمل عليها تهدف لتسهيل سفر الروح ، وعلى الأخص ، لتضمن لها النجاح في الامتحانات (الدعوى) و/وزن القلب/ .

من بين العناصر القديمة لكتاب الموتى ، نبرز الخطر من موت ثان (فصل ٤٤ - ١٣٥ - ٦ - ١٧٥ - ٦) . وأهمية الحفاظ على الذاكرة (فصل ٩٠) وتذكر اسمه (فصل ٢٥) ؛ انها معتقدات تأكدت على نطاق واسع لدى البدائيين ، ولكن حتى في اليونان وفي الهند القديمة .

ان الكتاب يعكس مع ذلك التركيبات اللاهوتية للامبراطورية الجديدة . ان صلاة لرع فصل /١٥/ تصف الرحلة اليومية للشمس ، فعندما تدخل في العالم السفلي للأرض تنشر الفرح . ان الموتى «يفرحون عندما تشع هنالك من أجل الاله الأكبر اوزيريس سيد الابدية» . وليس بأقل من ذلك دلالة هو رغبة الميت بالتوحد مع الوهية : رع ، حوريس ، اوزيريس ، انوبيس تباح الخ . . ان هذا لا ينحصر أبدا باستعمال الصيغ السحرية . وفي الواقع ، ان معرفة الاسم لاله تعادل الحصول على بعض من قوة عليا . ان القيمة السحرية للاسم [٦٥] وبصورة عامة، الكلمة كانت معروفة على التأكيد منذما قبل التاريخ . وبالنسبة للمصريين . كان السحر سلاحاً مخلوقاً من قبل الآلهة من أجل الدفاع للانسان . وفي عصر الامبراطورية الاولى تشخص السحر باله رافق رع في قاربه ، بصفته تابع للاله الشمسي . وفي آخر الحساب ، فان السفر الليلي لرع في عالم ما تحت الأرض ، هو نزول خطر ، مزروع بالعديد من العقبات رد يشكل المثال النموذجي لسفر كل ميت نحو مكان التقاضي .[٦٦] .

إن أحد الفصول الهامة من كتاب الموتى (الفصل ١٢٥) مكرس لمحاكمة الروح ، في الغرفة الكبيرة المسماة (الثنائي مات)[٦٧] . يحمل قلب الميت على كفة الميزان ، وعلى الكفة الأخرى توجد ريشة ، أو عين ترمزان لمات . وأثناء العملية ، يتلو الميت ، صلاة ، متضرعاً لقلبه ان لا يشهد ضده ، وبعدئذ ، يجب أن يتلفظ باعلان البراءة خلافاً للأصول المعينة أي (اعتراف سلبي) .

لم أرتكب الجور ضد البشر
لم أجدف ضد الالهة
لم أفقر فقيراً

لم أقتل
لم أسبب ألماً لأحد
لم أنقص مداخيل المعابد من الأغذية

انني تقي . . انني طاهر . . انني طاهر . . ان الميت يخاطب اثنين وأربعين الها الذين تتشكل منهم المحكمة : «السلام عليكم ، أيها الالهة الحاضرون . انني عرفتكم ، عرفت اسمكم . لن أقع مطلقا تحت ضرباتكم . لن تقولوا انني سيء ، الهذا الاله الذي تتجمعون تبعاً له . ستقولون ان مات سيرجعني لحضرة السيد العالمي ، لأنني قمت بشعائر مات في مصر . ثم يتلفظ بمديحه الخاص :(لقد أرضيت الاله لأنه يجب أن يرى اقامة شعائره ، لقد أعطيت الخبز للجائع والماء للعطشان ، والثياب للعاري وقاربا لمن ليس عنده . . انقذوني اذن ، ارحموني اذن ، لا تضعوا تقريرا ضدي بحضرة الاله الكبير) وأخيرا يتجه صوب اوزيريس :«أيها الاله الذي يجلس عاليا على سناده . . ألا تستطيع حمايتي ضد هؤلاء المراسلين (المخبرين) الذين يذرعون الشقاء ويثيرون الاحقاد . . لأنني أقمت شعائر مات لأجل سيد مات . . انني طاهر» ويخضع الميت علاوة على ذلك لاستجواب عن نظام المسارة . فيجب عليه اثبات أنه يعرف الأسماء السرية لمختلف أجزاء الباب والعتبة لحارس باب القاعدة وللالهة [٦٩] .

بالتفكير حول سر الموت ، حققت العبقرية المصرية آخر تأليف ديني ، الوحيد الذي دعم سيادتها حتى نهاية الحضارة المصرية ، انه يتعلق تأكيداً ، بابداع قابل لشروح وتطبيقات متعددة .

ان المعنى العميق للثنائي رع ـ اوزيريس أو لاستمرارية تحولات حياة ـ موت لم يكن بالضرورة مقبولا لدى المؤرخين المقتنعين بعصمة الصيغ السحرية ، ومع ذلك فان هذه الاخيرة كانت تعكس ذات المعرفة الروحية المتعلقة بالعالم الآخر . وبتطوير المفهوم القديم للموت كتحول روحي ، فان فقهاء اللاهوت للامبراطورية الجديدة قد وحدوا النماذج بهذا /السر/ في آن واحد مع المعجزات اليومية لرع وفي المأساة البدئية لاوزيريس ، وبهذه الطريقة ، صاغوا في نموذج واحد ما ظهر

خالداً وما هو كلي الاحترام بامتياز ـ ان المسيرة الشمسية ـ التي ما كانت سوى مشهد مأساوي ، ولكنها في نهاية المطاف جريمة ـ قتل اوزيريس ـ وان هذا هو ما سيظهر بالتعريف آني وغير ذي معنى : الوجود البشري .

في هذه الصياغة لهذه المأساة (السوتيريولوجية) فان دور اوزيريس كان اساسيا ، فبفضله ، كل فانٍ يستطيع الأمل منذ الآن (بمصير ملكي) في العالم الآخر . وفي آخر المطاف ، فان الفرعون كان النموذج العالمي .

ان التوتر بين امتياز حكمة مسارية وأعمال طيبة ، قد حل بطريقة يمكن لها أحيانا أن تفهم ، لأنه اذا كانت العدالة مضمونة دوماً فان /الحكمة المسارية/ تستطيع أن تتناقض مع حيازة العبارات السحرية . ان الكل يتعلق بالمنظور الذي وضع فيه بالنسبة الى جملة العالم الآخر . غير أنها صيغت بطيش في كتاب الأموات وفي الكتب الأخرى المماثلة . وهذه النصوص جلبت الانتباه بعدد من القراءات المنشأة على مستويات مختلفة . فالقراءة السحرية كانت بالتأكيد الأكثر سهولة : انها لم تدخل سوى الايمان في القدرة الكلية للكلمة . وفي المعيار الذي بفضل متعلقات العالم الآخر الجديدة ، يصبح «المصير الملكي» . مقبولا بشكل شامل . ان التقدير والاحترام للسحر لم يتوقف عن التزايد . وان عصر الحضارة المصرية ستسوده المعتقدات والعبارات السحرية[٧٠] . ومن المناسب التذكر مع ذلك أن بتاح في اللاهوت الممفيسي (٢٦ ع) خلق الآلهة والعالم بقوة الكلمة . .

حواشي الفصل الرابع

١ ـ ولادة حضارة في الشرق الأدنى Frankfort ص ١٠٠ .

٢ ـ ٣ ـ ولادة حضارة في الشرق الأدنى H. Frankfort ص ٥٠ .

٤ ـ لم تكن الاساطير تروى بطريقة مستمرة ومتداخلة ، وذلك بهدف تكوين (ترجمات قانونية) كما يقال وبالنتيجة ، كان هنالك الزام لاعادة تكوينها بدءاً من المشاهد والاشارات الموجودة في المجموعات القديمة وعلى الأخص في نصوص الاهرام (٢٥٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق .م) في نصوص ساركوفاح (٢٠٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق .م) وفي كتاب للأموات .

٥ ـ Rnde Clark ـ ص ٣٦ .

٦ ـ النصوص ذكرها فرانكفورت في المرجع السابق الملكية ص ٢٠٦ .

٧ ـ ولادة العالم ـ Seoneron etyoy .

٨ ـ يتعلق بثلاثة أشكال للشمس Krépri الشكس المشرقة ـ Rê الشمس في السمت وآتوم الشمس في الغروب .

٩ ـ ان دور الفاصل لم يكن محصورا بشو .

١٠ ـ ١١ ـ عدد من المراجع اشار اليها المؤلف .

١٢ ـ التعاليم لأجل Méri Karel . . انظر شرح Merenz ـ وبصورة خاصة فرانكفورت .

١٣ ـ النص مترجم من قبل ويلسن . Anet ـ والتقاليد الكنعانية تعرف أسطورة مشابهة .

١٤ ـ الأمثلة التي ذكرها merenz وتتعلق بمفهوم خاص بالحضارات التقليدية .

١٥ ـ قطع مترجمة من قبل yoyde .

١٦ ـ ١٧ ـ فرانكفورت ـ مصر القديمة .

١٨ ـ في كتاب الأموات يعلن الاله «أنا آتوم ، عندما كنت وحيدا في نوم المحيط الأولى . انا رع في مظهره الأول عندما بدأ حكم ما أبدعه» وثمة تحشية تضيف الايضاح التالي : «هذا يعني

أن رع بدأ يظهر كملك ، مثل الذي كان يوجد قبل أن يرفع شو السماء فوق الأرض (مصر القديمة - فرانكفورت ص ٥٤ - ٥٥) .

١٩ - ٢٠ - المرجع السابق ص ٥٤ و١٦٧ - ١٦٠ .

٢١ - ٢٢ - انظر الأساطير عن العودة الخالدة فصل/١/ .

٢٣ - ملكية وآلهة - فرانكفورت .

٢٤ - المقارنة بين مين min و/سوبك/ عند فرانكفورت في كتابه الديانة المصرية القديمة ، تبين الأهمية للرؤية السكونية للعالم مفسرة كحركة ايقاعية داخل شمولية ثابتة . وقد عرض فرانكفورت شرحا عبقرياً لمظاهر الآلهة بشكل حيوانات : فبينما لدى البشر توازن الملامح الفردية والبنية المورفولوجية للوجه ، فان الحيوانات لا تتغير ، فهي تعطي دوما نوعها . وهكذا بنظر المصريين ان الحياة الحيوانية تبدو فوق البشرية طالما تشاطرها الحياة الكونية للعالم ص ١٣/١٤ .

٢٥ - ٢٦ - ذات المرجع . . ٢١٥ - ٢٢٠ .

٢٧ - حسب رأي غاردنر : كانت المهمة تتضمن أيضاً اتحاداً احتفاليا للزوجين الملكيين .

٢٨ - أ - مورتيل - شعيرة القصيدة الالهية اليومية في مصر ص ١٦٤ .

٢٩ - هذه الفكرة حققت الاتحاد المحرم للفرعون الميت المسمى الثور الذي أخصب أمه - فرانكفورت ص ٢٤٤ .

٣٠ - بعض النصوص تعلم انه يجب ضم عظام الملك ويتوجب استخراج أعضائه من اللفائف لضمان صعوده وأوضح فاندر انه يتعلق بعقيدة اسطورية اوزيرية .

٣١ - ذات المرجع . ص ٧٨ .

٣٢ - ذات المرجع . ص ٧٢ - فاندير - وبريستد يذكر تفصيلا ان حقل الورود وحقل التقدمات ص ١٦ - ومثل هذه التجارب معروفة في العديد من التقاليد القديمة . انها تفترض مسارة مقدسة تقتضي بعض الشعائر والتعليمات /ميثولوجية وجغرافية الخ/ وان بعض الاشارات التي توجد في نصوص الاهرام تشكل أقدم الوثائق المكتوبة المتعلقة بالحصول على قدر أو مصير متميز بفضل بعض المعلومات السرية . انه يتعلق بالتأكيد بارث لا يمكن تذكره تتقاسمه أيضا الثقافات النيولوثية قبل الأسر الحاكمة . في ايديولوجيا الملكية المصرية هذه الاشارات التكريسية تشكل رفات القديسين غير مفيدة ، وفي الواقع بكونه ابن الأمة واله مجسد فان الفرعون لم يكن به حاجة لتجارب مسارية للحصول على حق الدخول للجنة السماوية .

٣٤ - أي أولئك الذين دفنوا بقرب القبور الملكية .

٣٥ - حسب رواية مختلفة يؤكد عليها بلوتارك ، فان سيت يمزق جثة اوزيريس لأربعة عشر قطعة ويبعثرها . ولكن ايزيس تجدها (ما عدا عضو التذكير الجنسي ، الذي ابتلعته سمكة ،) وقد

كفنتها على حالها ذاتها وهذا ما يفسر بالفعل ان عددا من المقابر كان يشاع انها تضم قبر اوزيريس (انظر A. Brma ص ٦١٥) .
٣٦ ـ في النص لـ (١٠ ـ ١١) فقط بدأت الاسرة الحاكمة التكلم عن اسمه (انظر . راندل كلارك ص ١٠٠) .
٣٨ ـ من بعض وجهة النظر يمكن التكلم عن التلاحم بين اله ميت واله قابل للموت رع ـ ذلك لأن الشمس أيضا /تموت/ كل مساء ولكنها تولد مجددا في فجر اليوم التالي .
٣٩ ـ نصوص تقديسية ترجمة راندل ص ٣٣٠ .
٤٠ ـ فرانكفورت في كتابه ديانة مصر القديمة ص ٩٦٠ ويذكر بانه بوضع الميت في تابوته ، نضعه بين يدي أمه ربة السماء نوت (لقد أعطيت لأمك فوت باسمها في التابوت ـ نصوص الاهرام ٦١٦ . ونص آخر يقارن نت بفراش ينام الميت عليه بانتظار ان يستيقظ في حياة جديدة . ان الجوانب الأربع للتابوت قد تشخصت اضافة لايزيس بـ نفتيس ـ حوريس ـ ثوت والخشبة مثلت نجيب اله الأرض والغطاء بربة السماء ، وهكذا فان الميت كان محاطاً في تابوته بشخصيات الكون بأسره .
٤١ ـ عندما نزل حوريس الى العالم الآخر واعاد اوزيريس للحياة منحه سلطة المعرفة . ان اوزيريس كان ضحية سهلة لأنه لم يكن يعلم انه لم يكن يعرف حقيقة طبيعة سيت (انظر النصوص مترجمة ومفسرة من قبل كلارك ص ١١٤) . ٤٢/٤٣/٤٤/٤٥/ ويلسون ـ Anet ص ٤١٤ اظهازت .
٤٦ ـ نتيجة بقدر ما هي موضع تقدير اذا أخذنا بالحسبان واقعة الحكام لمختلف الأقاليم فقد حافظوا تماما على سيادتهم المحلية .
٤٧ ـ انظر الأمثلة التي ذكرها ويلسن ـ وصحيح ان المصريين كانوا يعتبرون أيضا كالكائنات الوحيدة التي هي في الحقيقة بشرية . أما الاجانب فكانوا يمثلون بالحيوانات وفي بعض الحالات كان من الممكن التضحية بهم .
٤٨ ـ المصدر الاشتقاقي للعبارة هو مصري هيكان ـ كهاسوت (حكم بلاداً أجنبية) واغلبية الاسماء المعروفة هي من أصل سامي ولكنه وجدت أيضا بكلمات حورية . الهيكوس غير مذكورين في أي وثيقة مصرية معاصرة . توجد اشارة لمدينتهم المحصنة «تانيس» في نص الأسرة ١٩ وفي قصة شعبية محررة حوالي ذات التاريخ ، وكما يتوجب الانتظار فان الفاتحية /البرابرة في نظر المصريين/ تمثلوا بالحية ابو فيس رمز العماء .
٤٩ ـ لا توجد وثيقة رسمية تسجل طرد الهكسوس ـ الشهادة الوحيدة هي السيرة الذاتية ـ المختصرة لمحارب متواضع في حرب التحرير . ان النص ترجم من قبل بريستو . (الحضارة المصرية القديمة) .

٥٠ ـ لاسباب كنا أشرنا اليها اننا فقرة (٢٠ع)

٥٢ ـ من حيث المبدأ ، لأنه حفظ /رع/ و/مات/ .

٥٣ ـ عندما تنام الأرض في الظلمات المشابهة للموت . أثناء الليل تجوب الوحوش الكاسرة والافاعي وعندئذ (يغوص العالم في الصمت) . اخناتون استدعى ، مع تفصيلات ، الرطوبة الاخاذة ، المجوبة الصباح ، السعادة المقتسمة بالاشجار والزهور والطيور والاسماك .

٥٤ ـ «لقد خلقت الأرض . . عندما كنت لوحدك ، صنعته السماء البعيدة لكي تقع هنالك عاليا ولترى كل ما صنعته» .

٥٥ ـ نعني بكل وضوح النخبة الدينية التي كان مقبولا بالنسبة لها المعاني العميقة لهذه الابداعات .

٥٦ ـ ٥٨ ـ ويلسون ـ وبيانكوف ـ انخ آمون ص ٢١٠ ـ ٢١٢ .

٦٢ ـ في نصوص الاهرام . . اتوم جعل الالهة تصدر عن ذاته . وتحت شكله الأول كأفعى . فان آتوم توحد أيضا مع اوزيريس (الأمر الذي يعني انه هو أيضا يمكن أن يموت ، وكنتيجة مع مورس .

٦٣ ـ عمل مشابه ، مع انه يهدف لأهداف أخرى فقد جرى في الهند بدءاً من عصر البراهمان .

٦٤ ـ انظر محاكمة الموتى في مصر القديمة (يوبون ص ٦٢) . وتشير الى ان محاكمة الموتى ومفهوم العدالة السماوية «تحصل بعد موت الجميع (ملوك وأفراد) وقد تأكدت بدءاً من الاسرة الرابعة Ganyates ص ٦٤.

٦٥ ـ فيها سيتبع كان دور العبارات السحرية يصبح عاليا بصورة خاصة في الأوساط الشعبية .

٦٦ ـ بعض الكتب الجنائزية ـ كتاب الابواب ـ كتاب من هم في الآخرة ـ وكلها تصف ممالك الموتى التي يطوف عليها رع بقاربه خلال الاثني عشر ساعة من الليل .

٦٩ ـ في عصر الامبراطورية القديمة كان الفرعون يتحمل استجوابا مسارياً .

٧٠ ـ انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب .



الفصل الخامس

الميغاليث[1] ، معابد ، مراكز احتفالية : الغرب ، البحر الأبيض المتوسط ووادي الاندس

٣٤ ـ الحجارة والموز :

إن الانشاءات الميغاليثية في اوروبا الغربية والشمالية ابهرت الباحثين منذ قرن من الزمن . وفي الواقع لا يمكن اعادة رؤية صورة فوتوغرافية جيدة لمرصوفات الكرنك ، أو الحجارة العملاقة ، بدون التنقيب عن موضوعها ومعانيها . وفي الواقع يبقى المرء منذهلاً امام المهارة التكنولوجية لهؤلاء المزارعين من عصر الحجر المصقول . كيف نجحوا بنصب كتل من ٣٠٠ طناً بشكل عمودي ورفعوا مناضد من ١٠٠ طن ؟؟

وبالتالي فإن مثل هذه الآثار لم تكن معزولة . انها تشكل جزءاً من كل

* الميغاليت (حجر غير منحوت مستخدم في الآثار الراقية لما قبل التاريخ .

ميغاليثي معقد ، ممتداً من شاطىء البحر المتوسط الاسباني ، مغطياً البرتغال ، ونصف فرنسا ، والشطآن الغربية لانكلترا ، وممتداً في ايرلندا ، والدانمارك والشطآن الجنوبية للسويد . وبالتأكيد ، إن هنالك متغيرات مورفولوجية لها دلالاتها . ولكن جيلين مما قبل التاريخ جهدا لكي يبرهنا عن استمرارية كل الثقافات الميغاليثية بدءاً من مركز قائم في لوس ميلار Los millares من مقاطعة الميريا d'ameria .

إن العقدة الميغاليثية تشتمل على ثلاثة اصناف من الانشاءات :

آ - المنهير lemenhir «من بريتونا السفلي» ، (مين = men = حجر وهير = طويل) وهو حجر كبير يرتفع احياناً لدرجة ٢٠ متراً ومغروسة عمودياً في الأرض .

ب - الكروملش leCromlech (من كروم = Crom = دائرة - منحني وليش = lech = محل» ويدل على مجموعة من المنهير موضوعة بشكل دائرة ، او نصف دائرة ، (وأكثرها اثرية) هو الكروملش لستونيهنيج Stotonehenge بالقرب من ساليزبوري ، واحياناً تكون مجموعةالمنهير مرصوفة بمجموعة صفوف متوازية كما للكرنك Carnac في بريتانيا[٢]

جـ - الدولمن leDolman (دول = dol طاولة ، ومين = حجر) وهي منشأة من بلاطة واسعة جداً مدعومة بعدد من الحجارة المرفوعة، متراصفة بطريقةتشكل نوعاً من السور او الغرفة . وفي الاصل كان الدولمن مغطى بأكمة .

ان الدولمن يشكل مدافن بكل معنى الكلمة . بعدئذ - وفي بعض المناطق - اوروبا الغربية مغطى ببلاطات كبيرة . ويوجد احجار دولمن عملاقة ، مثل تلك التي في سوتو Soto قريباً من اشبيلية بطول ٢١ م . ولها واجهة بارزة فوق المدخل ، كتلة من الغرانيت من ٣,٤٠ م ارتفاع و ٣,١٠ م عرض وبسماكة ٠,٧٢ م وهي تزن زهاء ٢١ طناً . وفي لوس ميلار تم نبش مقبرة كبيرة بحوالي مائة ممر مسقوف . وان اكثر القبور موضوعة تحت تلال ضخمة . وبعض المقابر تضم حتى مائة ميت ممثلة عدة اجيال من ذات الجنس . واحياناً يوجد لغرف الدفن عمود مركزي ، وعلى الجوانب يميز ايضاً بقايا رسوم . ان الدولمن توجد على

طول الاطلانطيق، بصورة خاصة في بريتانيا ، وحتى البلاد الواطئة . وفي ايرلندا لغرف الجنائز المرتفعة نسبياً ، جدران مزينة بتماثيل منحوته .

بالتأكيد انها تتعلق بعقيدة هامة جداً للموتى . وفي حين ان مساكن الفلاحين لعصر النيوليثيك ، الذين اشادوا هذه الآثار كانت متواضعة جداً ومؤقتة (وفي الواقع لا تكاد تترك اثراً) ، كانت مقرات الموتى مشادة بالحجارة . ومن الواضح أنه اريد بها بناء اعمال مقاومة ومتينة ، جديرة بقهر الزمن . ولقد عرفت العقدة لرمزية الليتيك والتكافؤات الدينية للحجارة والصخور(٣) .

ان الصخرة العالية ، والبلاطة الكبيرة dalle وكتلة الغرانيت تظهر ، الأجل اللا نهائي ، والثبات ، وعدم قابلية الفساد ، وفي آخر الحساب نموذجية للوجود مستقلة عن مصير موقت .

بالتأمل بهذه الاثار الميغاليثية العملاقة للفلاحين الاول ، في اوروبا الغربية لابدأن نعيد الى الذاكرة اسطورة اندونيسية : في البدء ، عندما كانت السماء قريبة جداً من الأرض ، كرّم الآله الزوجين الاولين بعطاياه التي علقها بطرف جبل . وفي ذات يوم ارسل لهما حجراً ، ولكن الاجداد ، مندهشين وساخطين رفضوها . وبعد بعض الوقت ادلى الاله مجدداً بالحبل ، وفي هذه المرة مع موزة فقبلت من الاجداد مباشرة . عندئذ سمع هؤلاء الاجداد صوت الخالق : طالما انكم اخترتم الموزة ، فإن حياتكم ستكون كحياة الثمرة . ولو انكم اخترتم الحجرة ، لكانت حياتكم تتمتع بوجود كوجود الصخر دائم وخالد(٤) .

لقد رأينا (١٢ ع) ان اكتشاف الزراعة غير جذرياً مفهوم الوجود البشري : فقد تكشف ايضاً سريع العطب وموقت مثل حياة النبات : ولادة ، حياة ، موت ، بعث . ويمكن تفسير الاثار الميغاليثية كجواب على الاسطورة الاندونيسية : فطالما أن حياة البشر هي مشابهة لحياة الحبوب ، فإن القوة والخلود تصبحان قابلتين للاكتساب عبر الموت . ان الاموات يعودون لحضن الأرض الام ، مع امل المشاركة بمصير البذور ، ولكنهم بالاضافة لذلك ، ؛ متشاركين

اسطورياً ، بكتل الصخر ، وبالنتيجة يصبحون اقوياء وغير قابلين للفناء مثل الصخور الكبرى .

وفي الواقع ان الاعتقاد الميغاليثي للموتى يبدو انه قدَّم ، ليس القناعة بعودة حياة الروح فحسب ، وانما القناعة بصورة خاصة بقوة الاجداد والامل بأنهم سيحمون ويساعدون الاحياء . ان مثل هذه القناعة تتميز جذرياً عن المفاهيم المثبتة لدى شعوب اخرى من العصور القديمة (ما بين الرافدين ـ الحثيين ـ العبرانيين اليونان الخ . . .) والذين كان الموت بالمنسبة لهم ظلالاً فقيرة بائسة وعديمة القدرة . وبأكثر من هذا : فبينما بالنسبة لبناة الميغاليت ، من ايرلندا حتى مالطة والجزر الايجية ، كان التشارك او (وحدة الشعور) الشعائري مع الاجداد يشكل مفتاح عقد القبة لنشاطهم الديني ، كان في ثقافات ما قبل التاريخ لاوروبا الوسطى ، كما هو الشأن في الشرق الاوسط القديم ، يعتبران الفصل بين الموتى والاحياء مقرر حصراً وبدقة .

ان العقيدة الميغاليثية للموتى أدخلت ، اضافة لذلك مختلف الحفلات (طوافات رقص الخ . .) والتقدمات (اغذية ـ سمك) واضاحي متممة قرب الانصاب ، ووقعات طعام شعائرية على القبور . ان العديد من المهير كانت مقامة باستقلال عن المقابر . ومن الراجح جداً ، ان هذه الحجارة كانت تشكل نوعاً من البديل لاجساد ستتقمصها ارواح الموتى[٥] وفي اخر الحساب ، ان (بديلاً) من الحجر كان جسماً مبنياً للابدية . واحياناً وجد منهيرات مزينة بصور بشرية ، وبعبارة اخرى ، انها المقر لأجساد أموات . وكذلك فإن الوجوه النموذجية المرسومة على جوانب الدولمن كما هو الشأن على الاصنام الصغيرة المستخرجة من القبور الميغاليثية لاسبانيا ، كانت تمثل الاجداد على الارجح . وفي بعض الحالات يمكن فك رموز عقيدة موازية : ان روح الجد قادرة لان تترك القبر من وقت لآخر[٦] . ان الحجارة المثقوبة التي تسد بعض القبور الميغاليثية والتي هي من جهة اخرى مدعوة (ثقوب الارواح) تسمح بالتواصل مع الاحياء .

ويجب ان يؤخذ في الحسبان ايضاً المعنى الجنسي للمنهيرات ، لأنها تأكدت

عالمياً ، وعلى مستويات ثقافية مختلفة . . . ان ارميا في مراثيه (٢ ـ ٢٧) يذكر اولئك «الذين يقولون للخشب : انت ابي ؛ والى الحجر : انت اولدتني»[٧] .

إن العقيدة بالفضائل المخصبة للمنهير كانت ايضاً مشتركة بين الفلاحين الاوروبيين في بداية هذا القرن . ففي فرنسا ، ولأجل الحصول على الاولاد ، كانت النساء الشابات يمارسن الانزلاق ـ «بأن يتركن انفسهن ينزلقن على طول حجرة» والدلك ، «بأن يجلسن على حجارة المونوليث ، او ان يفركن البطن ببعض الصخور الكبيرة»[٨] .

ان هذه الوظيفة الجنسية لا يجوز ان تفسر بالرمز القضيبي للمنهير رغم ان مثل هذه الرمزية تأكدت في بعض الثقافات . ان الفكرة الاولى والاساسية كانت (تحويل) الاجداد لحجارة ، ان بواسطة منهير (بديلاً عن الجسد) وان بإدخال في ذات البنية للمنشأ ، عنصراً اساسياً للموت : الهيكل العظمي ، الرماد ، (الروح) . ففي الحالتين كان الموت (يحيي الحجر) ، انه يسكن جسماً جديداً ، معدنياً ، واذن فهو لا يفسد . وبالنتيجة فإن المنهير او القبر الميغاليثي كان يشكل مستودعاً لا يستنفذ من القوة والحيوية . وبفضل القائها في بنيات الاحجار الجنائزية . فإن الموتى كانوا يصبحون السادة للخصوبة والوفرة . وفي لغة الاسطورة الاندونيسية ، نجحوا بتملك الحجر والموزة معاً .

٣٥ ـ مراكز احتفالية وانشاءات ميغاليثية :

إن بعض العقد الميغاليثية ، مثل الكرنك Carnac او مثل الأشدون Ashdown ، في بركشاير Berkshire (تضم ٨٠٠ ميغاليت متوازي الاضلاع من ٢٥٠ م و ٥٠٠ م للضلع) كانت بكل تأكيد تشكل مراكز احتفالية هامة . وكانت الاعياد تشتمل على اضاحي ، ويفترض ايضا رقصات وطوافات . وفي الواقع ، ان الوف الاشخاص كانوا يستطيعون المسيرة بطواف في الشارع الواسع للكرنك . ومن الراجح ان أكثر الاعياد كانت ذات علاقة مع ديانة الموتى .

وكأنصاب انكليزية اخرى مشابهة[٩] فإن الكروملش Cromlech hgyhw Stonehenge العائد لستونهج كان قائماً وسط حقل من الشواهد الجنائزية .

إن هذا المركز الاحتفالي الشهير كان يؤلف (على الاقل في شكله البدائي)[١٠] مقبرة مشادة بهدف ضمان العلاقات بين الاجداد . ومن وجهة نظر البنيان يمكن تقريب (ستونهنج) من العقد الميغاليثية المنشأة او المطورة ، في ثقافات اخرى ، بدءاً من مكان مقدس : معابد او مدن . ولدينا واقعة ذات التقييم للساحة المقدسة ، بكونها (مركزاً للعالم) ، مكاناً متميزاً ، حيث يتم التواصل مع السماء ومع العالم تحت الأرض ، اي مع الآلهة والربات الجهنمية (التي تعيش تحت الأرض Chtoniennes) ومع ارواح الموتى .

في بعض مناطق من فرنسا ، وفي شبه جزيرة ايبريا ، وامكنه اخرى اكتشفت الخطوط لعبادة الربة ، الآلهة الحامية للموتى . ومع ذلك ، فإنه لا يوجد في اي مكان اخر ، كما وجد في مالطا من بيان استعراضي لهندسة ميغاليثية معبرة عن عبادة الموتى وتمجيد الربة الكبيرة . فقد اظهرت الحفريات القليل من المساكن ، الا انه قد اكتشف حتى الآن سبعة عشر معبداً ، ويظن بان عددها أكبر من ذلك ، الامر الذي يؤكد رأي بعض العلماء من انه في العصر النيوليتي كانت مالطا المنعزل المقدس isola sacra . ان المصاطب الواسعة الاهليليجية التي تمتد امام او بين المقابر كانت تستخدم بالتأكيد من أجل الطوافات وتوقيع الرقص بالالحان الشعائرية . ان جوانب المعابد مزينة بحلزونيات مدهشة . في الجانب الاسفل حفر العديد من المقابر في الحجارة ممثلة نساء نائمات . ولكن الاكتشاف الاكثر تعبيراً هو التمثال الضخم لامرأة - هو بكل تأكيد ربه جالسة -

إن الحفريات كشفت طقساً مجهزاً باضحيات حيوانية وتقدمات غذائية واراقة خمور وشعائر حضانة وعرافة ، مشيرة لوجود هيئة كهنوتية هامة ومنظمة جداً . ان عبادة الموتى كانت تلعب على الأرجح الدور المركزي . وفي المقبرة الشهيرة هال سالفينين Hal Salfini المسماة الآن هيبوجه l'Hypogés والمحتوية على مجموعة غرف منحوتة في الصخور الكبرى ، استخرجت عظيمات لنحو من

٧٠٠٠ شخص . وفي الهيبوجه هذه وجدت تماثيل لنساء نائمات ، توحي بشعيرة الحضانة . وكما هو الأمر في آثار ميغاليثية اخرى ، فإن الغرف الداخلية لها جوانب او جدران داخلية منحوتة ومرسومة . وان هذه الاقسام الواسعة كانت استخدمت من أجل بعض الحفلات الدينية الموقوفة للكهنة وللمسارين inités ، لانها كانت منفصلة بحواجز نموذجية[١٢] .

وبما ان (الهيبوجه) كانت في ذات الوقت المقبرة والكنيسة ، فقد امكن اكتشاف مقابر في المعابد . ان البنية المنحنية الاضلاع للمقابر المالطية تبدو متفردة ، وان علماء الآثار قد وصفوها كأن (لها شكل الملكات) ، الا انه حسب رأي (زونتز Zuntz) ، هذه البنية تذكر أكثر بشكل الرحم . وكما ان المعابد كانت مغطاة بسقف ، والغرف الخاصة محرومة من الشبابيك ومظلمة لدرجة كبيرة ، فإن الدخول في مقبرة كان يعادل الدخول في احشاء الارض ـ اي في رحم ربة الجحيم . غير ان القبور المنحوتة في الصخر كان لها ايضاً شكل الرحم . ويقال ان الميت قد اعيد وضعه في جوف الأرض من أجل حياة جديدة . «ان المعابد تمثل ذات النموذج على درجة أكبر . فالاحياء الذين يدخلون المعبد يدخلون في جسد الربة» . وفي الواقع ـ يستنتج (زونتز) ـ ان هذه الآثار تشكل المسرح (لعبادة الاسرار في المعنى الدقيق للكلمة)[١٣] .

ويضاف الى ذلك انه على جدران الدولمن والمنهير في ايبريا واوروبا الغربية ، وجدت ايضاً اشارات ورموز سحرية ـ دينية اخرى ، على سبيل المثال ، صورة شمس مشعة ، واشارة الفأس (الخاصة بآلهة العاصفة) والافعى رمز الحياة المترابطة بصورة الاجداد ، الغزال الخ . . . وتأكيداً ان هذه الصور اكتشفت في اقاليم مختلفة وتعود لثقافات عصور مختلفة ، الا ان لها شيء مشترك هو واقع كونها متضامنة بذات العقد الميغاليثية . ان هذا ما يمكن له ان يفسر اما بتنوع الافكار الدينية الموزعة بين مختلف الشعوب (الميغاليثية) واما بواقع ان عبادة الاجداد رغم اهميتها الملحوظة كانت مترابطة او متشاركة بعقد دينية اخرى .

٣٦ - لغز الميغاليث :

هنالك ايضاً ايضاحان ، فقد فسر علماء الآثار الثقافات الميغاليثية بتأثيرات مستعمرين وصلوا من البحر المتوسط الشرقي ، حيث تأكدت في الواقع المقابر الجماعية انئذ منذ الألف الثالثة[١٤] . فبانتشارهم صوب الغرب ستتحول انشاءات الدولمن (غرف ، قبور) لهندسة ضخمة وخرافية . وحسب رأي (جلين دانيل Glym Daniel) فإن هذا التحول كان له مكانه في مالطا ، وفي شبه الجزيرة الايبرية وجنوب فرنسا . والكاتب نفسه يقارن انتشار الهندسة المغاليثية بالاستعمار اليوناني والفينيقي في البحر المتوسط او بانتشار الاسلام في اسبانيا . «فلقد كان ديناً قوياً ، من الهام ايجي ، ذلك الذي الزمهم لبناء قبورهم ـ معابدهم tombes Temple ـ مع مثل هذا العناء ولحفظ صورة ربتهم الوقائية والجنائزية . ان صورة الربة والفأس والقرون والرموز الاخرى تسير بنا من الحوض الباريزي ، من جافرميز Gavermis ومن انجهلوروجو في كريت ومن بحر ايجه حتى طروادة . وبعيد عن الشك ، ان اعتقاداً صلباً يمتد بأصوله للبحر المتوسط الشرقي . قد قولب وألهم بناة المقابر الميغاليثية آنئذ والذين انتشروا عبر اوروبا الغربية»[١٥] . غير ان الدين لم يكن السبب الاول في هجراتهم ، ان الدين لم يكن سوى «العزاء لنفيهم في اقصى الغرب وشمال اوروبا» . لقد فتش المهاجرون عن بلاد جديدة لكي يعيشوا أو عن معادن من أجل تجارتهم[١٦] .

وفي آخر كتاب لغوردن تشايلد تكلم عن (دين ميغاليثي) انتشر بواسطة المستكشفين والمستعمرين من البحر المتوسط . وما ان قبلت الفكرة بانشاء مقابر ميغاليثية حتى تبنتها مختلف المجتمعات ، بدون الأضرار بمنشآتهم المميزة ، على ما يبدو . ان كل قبر كان يعود على الارجح لنبيل او لرئيس الاسرة ، وكان التعب او العناء مقدماً من رفاقه . «ان قبراً ميغاليثياً يجب مقارنته بكنيسة اكثر مما هو بقصر وان شاغليه اقرب الى القديسين السلتين مما هو الى البارونات النورمان»[١٧] ان المبشرين بالدين الميغاليثي ، الدين الممتاز للربة الأم ، جذبوا لجماعاتهم عدداً

كبيراً من المزارعين ، وفي الواقع ، ان الدولمن والكروملش هما قائمان في الاقاليم الاكثر تناسباً مع المزارع النيوليتيكي[١٨] .

ان تفسيرات مماثلة للعقدة الميغاليثية قد طرحت من قبل عدد من دارسي ما قبل التاريخ المميزين[١٩] مع ذلك فإن هذه التفسيرات اصبحت غير ذات قيمة باكتشاف التاريخ بمساعدة النشاط الاشعاعي للفحم[٢٠] . فقد اصبح من الممكن اظهار ان المقابر الميغاليثية (غرف ـ مقابر) لبريتانيا قد بنيت قبل ٤٠٠٠ ق.م وانه في انكلترا والدانمارك كانت قد بنيت قبور من الحجارة قبل ٣٠٠٠ ق.م[٢٧] . اما بالنسبة لعقدة stonhenge العملاقة، فيظن بانها معاصرة لثقافة ويسيكس Wessex ، المرتبطة بالحضارة الماسينية mycenéné . وعليه فإن التحليلات المبنية على الاساليب الراهنة تثبت ان (ستونهنج) قد اكملت قبل ميسين Mycine ، وان اخر تصحيح لها يؤرخ ١٩٠٠ ـ ٢١٠٠ ق.م[٢٢] ، وكذلك في مالطا ، فانَّ العصر الممثل بمعابد تاكسيان Taxien ومقبرة هال سافلين قد اتمتا وانتهيتا قبل ٢٠٠٠ ق.م ، وبالنتيجة لا يمكن تفسير البعض من هذه الخطوط المميزة بتأثير العصر البرونزي المتوسط Minoean[٣ت؟٢] ، فيجب الاستنتاج اذن بان العقدة الميغاليثية الاوروبية تسبق المعطى الايجي . واننا في معرض مجموعة من الابداعات الاصلية والمحلية . ومع ذلك فإن جوهر دراسة الاحداث التاريخية القديمة ، والبرهنة على اصول الشعوب الغربية لم يقدما التفسير للآثار الميغاليثية .

وقد جرىٰ نقاش واسع حول الأفكار المتعلقة بستونهنج Stonehenge ، الا انه ، رغم بعض المعطيات المعتبرة ، فإن الوظيفة الدينية والرمزية لهذا الأثر متعارضة . زيادة علىٰ ذلك ، ويعكس الفرضيات المغامرة (علىٰ سبيل المثال : فرضيات سير جرافتون Sir Grafton واليوت سميث Elidt Smthالتي تفترض ان كل الانشاءات الميغاليثية هي من نبع واحد ، مصر الفرعونية) ، فإن الباحثين لا يجرؤون مطلقاً على مماشاة هذه المسألة في مجملها . وعليه فإن هذا الخوف ، مؤسف ، لأن /الميغاليثية/ تشكل موضوعاً نموذجيا للدراسة ، بل ربما كان نموذجاً وحيداً . وفي الواقع ، ان بحثا مقارنا سيكون أهلاً لأن يوضح في أي معيار يجري التحليل لمجموعة ثقافات ميغاليثية استمرت مزدهرة

في القرن التاسع عشر ويمكن لها ان تعطي المعقولية للمفاهيم الدينية التي يشترك فيها الباحثون في آثار ما قبل التاريخ .

٣٧ ـ عِراقة وما قبل التاريخ :

يعاد التذكير بأن أحجارالميغاليت من أصل ما قبل التاريخ في خارج حوض المتوسط وأوروبا الغربية والشمالية ، قد توزعت علىٰ نطاق غير محدود في المغرب ، فلسطين ، الحبشة ، ديكان آسام ، سيلان تيبت وكوريا أما بالنسبة للثقافات الميغاليثية التي ما زالت حية مع مطلع القرن العشرين ، فإن الأكثر بروزاً منها قد تأكد في أندونيسيا ومالينزيا .

ان (Robest Heine - Gebdoen) روبرت هيد جيلدين الذي كرس شطراًمن حياته لدراسة هذه المسألة ، يقدر ان المجموعتين من الثقافات الميغاليثية ـ تلك التي تعود لما قبل التاريخ . والثقافات علىٰ المستوىٰ العرقي للشعوب همامتضامنتين تاريخيا ، اذ إنه حسب رأيه ، ان العقدة الميغاليثية كان عليها ان تنتشر بدءاً من مركز واحد ، من المرجح انه البحر المتوسط الشرقي .

سنعود فيما بعد لفرضية (هين ـ جيلدين) أما هنا فيحسن ان نذكر نتائجها حول المعتقدات الخاصة بالمجتمعات الميغاليثية الحية . ان الميغاليثات Les méglithes هي ذات علاقة ببعض الأفكار المتعلقة بالوجود بعد الموت . ففي أكثريتها ، نشأت في أثناء الحفلات المعينة للدفاع عن الروح في مسيرتها إلىٰ الآخرة ، ولكنها تضمن أيضاً بعد ـ وجود Post–existfn ce أبدي لأولئك الذين يقيمونهاأثناءحياتهم أولأولئك الذين من أجلهم ترفع الانصاب بعد الموت . واضافة لذلك فإن (الميغاليثات) تشكل الصلة الممتازة بين الأحياء والأموات ، إنها معنية بادامة الفضائل السحرية للأشخاص الذين اشادوها ، أو لمن شيّدت من أجلهم ضامنة هكذا الخصب للاشخاص ، والقطعان والمحاصيل . وفي كل الثقافات الميغاليثية المزدهرة أيضاً ، فإن عبادة الاجداد تلعب دوراً هاماً(٢٥) .

إن الآثار كانت تستخدم مقراً لأرواح الموتى عندما تعود لزيارة القرية ، ولكنها كانت مستعملة أيضاً من قبل الأحياء . إن المكان الذي توجد فيه الميغاليثات هو في آن واحد المكان الطقوسي الممتاز (المقصود توقيع الرقص الاحتفالي والاضاحي الخ . .) والمركز للنشاط الاجتماعي . في عبادة الموتى من طراز الميغاليث تلعب سلسلة الأنساب دوراً هاماً ، وحسب رأي هين ـ جيلدن ، فإنه من الراجح تلاوة ـ انساب الأجداد شعائريا ، أي بناة القرى وبعض العائلات .

ويقتضي الاشارة لهذه الواقعه : ان الانسان يأمل أن يذكر اسمه بتوسط الحجر . وبعبارة أخرى فإن الصلة مع الأجداد مضمونة بالذكرى لاسمائهم وأعمالهم ، ذكرى مجمدة في الميغاليث .

وكما يقال ، فإن /هين ـ جيلدن/ يستندْ على استمرارية الحضارات الميغاليثية ، منذ الألف الخامسة حتى المجتمعات البدائية المعاصرة . مع ذلك فهو يرفض النظرية الما قبل مصرية التي قال بها غيره . واضافة لذلك ، انه نيكر وجود /دين ميغاليث ، بسبب بسيط هو ان المعتقدات والمفاهيم (الميغاليثية) قد تأكدت علاقتها بعدد كبير من الأشكال الدينية بدائية كانت أم عليا . لقد قارن هذا العالم النمسوي العقدة الميغاليتية ببعض الحركات (الأسطورية) على سبيل المثال التانترية Tantrisme ، التي يمكن ان تكون حيادية مطلقة ، هندية كانت أم بوذية . وهو ينكر أيضاً وجود(دائرة ثقافية ميغاليثية)مشكله تبعاً لرأي بعض الباحثين ، بأساطير متخصصة ، ومؤسسات اجتماعية أو اقتصادية مميزة ، وفي الواقع ، إن افكاراً وتطبيقات ميغاليثية قد تأكدت لدى شعوب تتوازع خلافات كبرى من الأشكال الاجتماعية والبنى الاقتصادية والمؤسسات الثقافية[٢٦] .

ان تحليل العقدة الميغاليثية المنجز من قبل (جيلدين) ما زال يحتفظ بقيمته . ولكن فرضياته حول وحدة الثقافات الميغاليثية العريقة في قدمها والحديثة ، هي اليوم محل خلاف ، أو ببساطة هي مهملة من قبل العدد الكبير من الباحثين . ان مسألة الاستمرارية للعقدة الميغاليثية هي موضع اعتبار ويجب ان تبقى مفتوحة . لأنه وكما اوضح ، حديثا ، أحد الباحثين ، انه يتعلق بـ (أكبر لغز لما قبل التاريخ) . وعلى كل حال ومهما كانت الفرضية المعتمدة ـ استمرارية أو تباعد ـ لا يمكن الكلام عن ثقافية

ميغاليثية واحدة . وبرأينا يقتضي ملاحظة انه ، في الديانات الميغاليثية ، قد قدرت أو قوِّمت ، قداسة الحجارة بصورة خاصة بعلاقتها مع الوجود التالي ، مع بذل الجهود لبناء طريقة خاصة للوجود بعد الموت ، /بالانطوفانيL,Ontophanie/ الخاصةبالحجارة . إن السحر أو الاغراء المارس بالكتل الصخرية في الثقافات الميغاليثية ، أمر واضح ، الا انه يتعلق باغراء مثار برغبة تحويل القبور الجماعية لآثار خاصة وغير قابلة للتخريب . وبفضل الانشاءات الميغاليثية ، فإن الموتى يتمتعون بقوة استثنائية ؛ ومع ذلك ، وطالما ان الاتصال مع الاجداد مضمون شعائريا ، فإن هذه القوة لا يمكن لها أن تكون موزعة من قبل الاحياء . بالتأكيد ، يوجد أشكال أخرى لعبادة الأجداد . وهذا ما يميز الديانات الميغاليثية ، وذلك هو الفعل الذي تمسكت به الأفكار عن الخلود والاستمرارية بين الحياة والموت عبر التمجيد للاجداد المتشبهين أو المتشاركين مع الحجارة . ومع ذلك نضيف إن هذه الأفكار الدينية لم تتحقق بوضوح ولم يعبر عنها تماما سوى ببعض الابداعات المتميزة فقط .

٣٨ ـ المدن الهندية الأولى :

ان البحوث الحديثة جداً حول ما قبل التاريخ للحضارة الهندية قد فتحت آفاقاً لم تكن متوقعة منذ عشرات السنين . لقد طرحت أيضاً مسائل لم تجد حتى الآن حلولاً مقنعة . ان التنقيب عن المدينتين ـ القلعتين هارابا Harappa وموهنجور ـ دارو Mohenjo-Daro اظهر حضارة مدينية Urbaine متقدمة ، هي تجارية وثيوقراطية في آن واحد . إن القصص التاريخية متعارضة ، ولكنه يبدو محققاً إن حضارة الأندوس كانت مكتملة التطور حوالي ٢٥٠٠ ق.م وان ما أذهل القائم بأولى الحفريات ، هو وحدة الشكل أو انتظام وركود هذه الحضارة . إن أي تغيير ، أو أي تجديد لم يلاحظ في عشرات الوف السنين من تاريخ الحضارة (الهاربنيية Harappinne . وان المدينتين ـ القلعتين كانتا على الأرجح العاصمتين لامبراطورية . وان الانتظام والاستمرارية الثقافية لا يمكن ان تفسرا الا بافتراض نظام قائم على نوع من السلطة الدينية(٢٧) .

واليوم يعرف ان هذه الثقافة قد امتدت إلىٰ ما بعد وادي (الاندوس) وانها في كل مكان كانت تمثل نفس الرتابة أو الانتظام . وكانت التكنولوجيا (الهاربنية) قد لوحظت من قبل /غوردن تشايلد Gardon Child/ وكأنها مساوية للتكنولوجيا المصرية والميزوبوتامية . ومع ذلك فإن اكثرية المنتجات تفتقد الخيال . «معتبراً ان شعوب الهارابا لم تركز علىٰ أشياء هذا العالم[٢٨]» .

أما بالنسبة لمنبع أو أصل هذه الحضارة المدنية الأولىٰ المتطورة في الهند ، فقد اتفق علىٰ البحث عنها في /بلوخستان/ . وحسب رأي العالم (فيرسير فى Fairservis) ، فإن أجداد الهاربيين قد كانوا تحدروا من المزارعين من ما قبل الآريين من ايران . ان بعض مظاهر ثقافة ما قبل الهاربيين بدأت تعرف بشكل أحسن بفضل الحفريات المنجزةفي بلوخستان الشمالية . ومن الملاحظ أن التجمعات الأولىٰ الهامة قد بنيت بالقرب من منشآت لها وظيفة احتفالية . ففي العقدة الأثرية الهامة المحفورة في إقليم نهر بورالي

Porali والمعروفة تحت اسم (اديث شابر كومف) (Edith chabr comph) اكتشف تل بارتفاع من ٧ ـ ١٢ متراً وعدد من انشاءات محاطة بسور . وفي القمة كان البناء مصنوعاً بشكل زاقورة ، توصلها عدة درجات نحو المصطبة . ان المنشأت من الحجارة تبدو كأنها قد سكنت قليلاً وافراديا ، وهذا ما يدل علىٰ الوظيفة الاحتفالية للبناء بكاملة . والمظهر الثاني لذات العقدة ، يتميز ببروز دوائر كبرىٰ من الحجارة لأكثر من مائة بناء باتساع من ٣ ـ ٨ أمتار وبممرات من صخور بيضاء . وهذه الأبنية تبدو أيضاً انها قد استخدمت لاهداف دينية فقط[٢٩] .

ان /فيرسيرفى Firervis ، يقرب هذه المحلات المقدسة ، وبصورة عامة الأبنية المكتشفة في وادي /كيتا/ (الممثلة للمظاهر الما قبل هاربية للسند بلوخستان) من موهنجو دارو ، وهاربا المدينتين اللتين قدر أنهما قد بنيتا أصلاً بهدف احتفالات طقوسية . ان هذه الفرضية قد جوبهت ايضاً بمعارضة ، ومع انه لا يشك بالوظيفة الدينية للقلعة ، فإن المصطبة تتضمن انشاءات متميزة ، كذلك في المدنتين . وما يهم موضوعنا هنا ، ان التناقض ليس بذي فائدة كبرىٰ ، وذلك لأن الأصل الطقوسي للتجمعات الما قبل هاربنية (اذن المدن) قد تأكد من جهة ،

ومن جهة أخرىٰ قد اتفق العلماء اليوم علىٰ رؤيتهم لعقد احتفالية في اقدم المراكز .

ان /بول ويزلى Paul Wheatley قد برهن بوضوح عن القصد وعن الوظيفة الدينيـة للمـدن الأولىٰ في الصين وما بين النهرين ومصر واميركا الوسطىٰ الخ(٣٠) . فأقدم المدن قد بنيت حول معابد أو مزارات Sanctuaires أي بوضوح في فسحة مقدسة (لوسط العالم) الذي قدر انه يمكن من الاتصال بين السماء والأرض والمناطق التي هي تحت الأرض(٣١) . واذا أمكن اظهار ان المدينتين العاصمتين للأندوس تتميزان بوضوح عن نموذجهما المسبق لما قبل (الهاربين) ومدن قديمة اخرىٰ ، فإنه يجب اعتبار (هارابا) وموهنجودارو كالمثلين الأولين لدنيوية بنية مدينية وعنصر حديث بامتياز .

ومما تجدر الاشارة اليه الآن ، هو التنوع المورفولوجي للحيِّز المقدس وللمركز الطقوسي . ففي الثقافات الميغاليثية للبحر المتوسط واوروبا الغربية ، كان المركز الاحتفالي ، المتضامن مع عبادة الموتى مكرساً بالدولمن والمنهير ، ونادراً بالمزارات ، وفيما يتعلق بالتجمعات فإنها لم تتجاوز علاقات القرى(٣٢) . وكما رأينا فإن المدن الميغاليثية (الحقيقية) كانت مبنية من أجل الأموات : انها كانت مدافن . .

٣٩ ـ مفاهيم دينية ما قبل تاريخية وموازيها في الهندوسية :

ان الديانة (الهارابية) اي العائدة للحضارة المدينية الاولى في الهند ، هامة ايضاً بسبب آخر ، وهو علاقتها مع الهندوسية بصورة خاصة . ورغم شك بعض الباحثين ، فإن الحياة الدينية للموهنجو ـ دارو والهارابا مقبولة لدينا ، اقله في خطوطها الكبرى ، وهكذا ، على سبيل المثال ، فإن العدد الكبير من التماثيل الصغيرة والرسوم المسجلة على الاختام تدل على عبادة ربه ام . اضافة لذلك وكما سلف للسير جون مارشال Jhon Marshall ان اعترف به ، فإن صورة ذكورية itsy phallique جالسة في وضع

يوجي ومحاطة بوحوش كاسرة ، تمثل الها كبيراً ، على الأرجح انه مثال محتذى prototype لشيفا . وقد لفت الانتباه (فير سيرفيس) على العدد الكبير من مشاهد العبادة او الاضحيات المرسومة على الاختام . واكثرها شهرة يظهر صورة جالسة (او راقصة ؟) على مصطبة بين مساعدين راكعين وكل منهما مصحوب بأفعى كوبرا . وان اختاماً اخرى تبرز شخصية غير قابلة للحركة ، مثل جلقامش ، وغرين ، أو إله له قرون ، مع افخاذ وذنب ثور ، مذكراً بانكيدو الميزوبوتامي ؛ واخيراً ، مختلف الارواح لأشجار ، تقدم اليها الاضاحي ، وطوافات الافراد الحاملين للاعلام الخ . .(٣٤) وفي المشاهد المرسومة على بعض المباخر المكتشفة في هارابا اعتقد فاتس Vats بإمكانية مضاهاتها بارواح الموتى وهي تتهيأ لعبور نهر(٣٥) .

ومنذ سيرجون مارشال ابرز العلماء **الخصائص الهندوسية ، لديانة الهاربين . واضافة للامثلة التي سبقت الاشارة اليها ـ الربة الكبرى ، وسابق ـ** لشيفا Un Proto-Sliva **في** وضع يوجي ، **والقيمةالشعائرية للاشجار ، والافاعي** ، والليغام **du lingam ـ اضافة لهذه الامثلة يمكن ان نذكر «الحوض الكبير** le grand Bath» **لموهنجو ـ دارو** الذي **يذكر بالاحواض لمعابد الهندوس في** ايامنا وشجرة بيبال **Pipal ، واستعمال العمامة (الغير معروفة في النصوص** الفيدية ، **والمؤكدة فقط بعد عصر البراهمانا) . وتزيينات الانوف ، ومشط العاج الخ . .**(٣٦) **. ان السيرورة التاريخية التي حققت النقلة لجزء من التراث الهارابي واستغراقه في الهندوسية لم تعرف بما فيه الكفاية . ولقد ناقش الباحثون ايضاً** اسباب الانحطاط والخراب النهائي للمدينتين العاصمتين . وقد تزرعوا بالفيضانات المدمرة لنهر الهندوس وبنتائج جفاف التربة والتحركات الزلزالية(٣٧) ، واخيراً غزو الفاتحين الآريين . وبوجه الاحتمال فإن اسباب السقوط كانت متعددة . وفي كافة الاحوال حوالي ١٧٥٠ ق.م كانت حضارة الهندوس محتضرة . وان الهندو ـ آريين اعطوها طلقة الرحمة فقط .(١٤ع) . الا انه يجب التأكيد من جهة اخرى ، بأن اجتياح القبائل الآرية كان له مكانه الفعال خلال عدة قرون ومن جهة اخرى استمرت في الجنوب ، في الاقليم الذي عرف في زمن آخر باسم سوراتسترا Saurashtra استمرت ثقافة مشتقة من عقدة نووية هارابية في تطورها ، بعد الضغط الآري(٣٨) .

منذ عشرين عاماً ، كتبنا حول خراب الثقافة الاندسية : «ان انهيار حضارة مدينية لا يعادل الاستئصال البسيط والصرف للثقافة »، وانما ببساطة الى تراجعها الى اشكال زراعية بدائية larvaire شعبية . (وهذه ظاهرة تحققت بشكل واسع في اوروبا خلال وبعد الغزوات البربرية الكبرى) . ولكنه ، سرعان ما طعّمت ارينة aryanisation البنجاب لحركة من التركيب الذي يجب ان يصبح يوماً الهندوسية . ان العدد البارز من العناصر الهاربية المؤكلة في الهندوسية لا يمكن تفسيرها الا باحتكاك بدأ باكراً بين الفاتحين الهندو- اوروبيين ، وبين ممثلي ثقافة الاندوس . وان هؤلاء الممثلين لم يكونوا بالضرورة منشئي ثقافة الاندوس او اخلافهم المباشرين : انهم قد يكونوا التابعين ، بالاشعاع لبعض الاشكال الثقافية الهاربية ، التي احتفظوا بها في الاقاليم المنحرفة عن المركز ، والناجية من الموجات الآرية الاولى وان هذا ما يفسر الواقع التالي بمظهر ، الغريب : فعبادة الربة الكبرى ، وشيفا وعضو التذكير والاشجار والزهد واليوغا الخ . . . كل ذلك يظهر لاول مرة في الهند كتعبير ديني لحضارة مدينية رفيعة ، هي حضارة الاندوس- في حين ان اكثرية هذه العناصر الدينية هي ، في هند القرون الوسطى والحديثة ، مميزة للورع الشعبي . بالتأكيد لقد وجد منذ العصر الهارابي تركيب بين روحانية سكان البلد الاصليين وبين روحانية الاسياد منشيء الحضارة المدينية ، الا انه يجب الافتراض ان ليس هذا التركيب فحسب هو الذي حفظ ، وانما ايضاً المعطى الخاص والحصري تقريباً للمعلمين : ولا يمكن ان تفسر بغير هذا تلك الاهمية المعتبرة التي اخذها البراهمان بعد العصر الفيدي . ومن الراجح جداً ، ان كل هذه المفاهيم الدينية الهارابية - التي تتعارض بقوة مع الهندية الاوروبية - انها قد حفظت ، مع الانكفاء المحتوم ، بصورة خاصة في الطبقات الشعبية ، التي على هامش المجتمع والحضارة ، المعلمين الجدد ذوي اللغة الآرية : من هنا قد عملت بموجات متتابعة خلال التآليفات الخارجية التي توصلت لتكوين الهندوسية»[٣٩] .

ومنذ عام ١٩٥٢ تجمع عدد من الادلة على الاستمرارية . وأكثر من هذا فإن نجاحات مماثلة ، قد تأكدت من جهة اخرى ، وعلى الاخص في كريت وفي ايجة واليونان القارية . وفي الواقع إن الثقافة والدين الهيلليين هما الحصيلة للتكافل Symbiose بين النحيزة substrat المتوسطية (البحر المتوسط) والفاتحين الهندو اوروبيين

النازلين من الشمال . وكما في الهند ، فإن الافكار والمعتقدات الدينية للسكان الاصليين يمكن قبولها على الأخص عبر الشهادات الاثرية ، بينما أن أقدم النصوص ، وبالمكان الأول ، هومير وهزيود ، تعكس في جزء منها تقاليد الفاتحين الآريين . ويحسن أن نشير بدقة مع ذلك إلى أن هومير وهزيود كانا يحتلان آنئذ المظاهر الأولى للتركيب الهيلليني .

٤٠ ـ كريت ـ مغارات مقدسة ـ متاهات ربات .

تأكدت الثقافة النيوليتيكية في كريت منذ الألف الخامسة ، وأخذت حدها حوالي منتصف الألف الثالثة ، وقد كانت الجزيرة استعمرت من قبل المهاجرين القادمين من الجنوب والشرق . وان القادمين الجدد علموا التقنيات المعدنية للنحاس والبرونز . لقد اسمى السير ارثر ترايفان Sir Artheur Evan ثقافتهم الثقافةالمينونيية Minoenne تبعاً للملك الخرافي مينس Minos وقد قسمها إلى مراحل ثلاثة(٤١) . مينونية قديمة (حوالي نهاية الألف الثالثة) ومينونية متوسطة منذ تشييد قصوركنوصوص Cnosoos وماليا Mallia (٢٠٠٠ حتى ١٥٨٠ ق .م) والمينونية الحديثة (١٥٨٠ ق . م ـ ١١٥٠) . وخلال المينونية الوسطى استعمل /الكريتيون/ كتابة هيروغليفية ، اتبعت حوالي ١٧٠٠ ق . م بكتابة خطية (الحرف : أ) ؛ والاثنتين لم تفك رموزهما حتى الآن . وانه اثناء هذه الفترة (ما بين ٢٠٠٠ ـ ١٩٠٠ق .م) تسرب الاغريق الأول المانيين les minyens ، تسربوا في اليونان القارية . انهم يمثلون الطليعة لجماعات هندو ـ اوروبية ، جاؤوا بموجات متتالية ليستقروا في هيلاد Hellade ، وفي الجزر وعلى شاطىء آسيا الصغرى . ان الصورة الأولى للمينوين الاخيرين (١٥٨٠ ـ ١٤٥٠ ق .م) تشكل الأوج للحضارة المينونية Minoenne . ان هذا هو العصر الذي بنى فيه الغزاة المتكلمون بالآرية ميسين Mycéne في البيلوبونيز Pe'loponése وأقاموا علاقات مع كريت . وبعد فترة قصيرة من الزمن (١٤٥٠ ـ ١٤٠٠ ق .م) فان الميسينيين Les Mycéniens (أو اشيين)Acheéns قد استقروا في كنوسوس Conossos وادخلو الكتابة المسماة حرف : ب . وان الصورة الأخيرة للمينوين المتأخرين المسماة عصر الميسينين

des Doriens اكتملت بغزوة الدوريان (١٤٠٠ ـ ١١٥٠ ق .م) Perioe mycanény
حوالي (١٥٠ ق .م) ومع التدمير النهائي للحضارة الكريتية .

الى أن تم حل رموز الخط : ب من قبل فانتريس Ventris في ١٩٥٢ ، فإن الوثائق الوحيدة عن الثقافة والدين المينويين كانت تأتي من الحفريات الأثرية . وما زالت` أيضا هي الأكثر أهمية . ان الشهادات الأولى للصكوك ذات الأغراض الدينية قد اكتشفت في المغاور . وفي كريت ، كما هو الشأن في كل مكان في البحر المتوسط ، فإن المغاور قد استخدمت لزمن طويل ، كمساكن ، ولكنها أيضاً ، وبصورة خاصة منذ عصر النيولوتيك ، استخدمت كمقابر (عادة امتدت حتى العصور الحديثة) . مع ذلك فان عدداً كبيراً من المغاور كانت كرست لمختلف الآلهة المحلية . ان عدداً من الشعائر ، والأساطير والخرافات ، المرتبطة بهذه الكهوف ذات الاحترام ، قد أدخلت بعدئذ في التقاليد الدينية للاغريق ، وهكذا فان واحدة من أشهرها ، بل أكثرها شهرة مغارة امينزوس Amenisos بالقرب من كنوسوس كانت موقوفة لإيليزيا Eilaithyia ربة الولادات لما قبل الهيللينية .

وثمة مغارة أخرى ، على جبل ديكتية Dicta[٤٢] كانت مشهورة بأنها حمت الطفل زيوس : فهنالك أتى الى الدنيا سيد الأولمب المقبل ، وصرخات الوليد الجديد غطيت بالجلبة الناتجة عن تصادم دروع الكورتيس Courétes . ان الرقص المسلح للكوريت كان يشكل على الأرجح حفلة تلقين يحتفل بها من قبل الشباب . وذلك لأن بعض المغاور كانت تستخدم لجمعيات الأخوةconfréries **من أجل طقوسهم السرية أو على سبيل المثال ، مغارة الايدا** L'yda **de حيث كان يتجمع الداكتل Des Dactyles كتشخيص ميثولوجي لجمعية معلمي التعدين .**

وكما هو معلوم ، فان المغاور قد لعبت دوراً دينياً منذ الباليوليثيك . وان المتاهة Lnbyrinthe استعادت وضخمت هذا الدور : إن الولوج في مغارة أو متاهة ، كان يماثل سقوطاً في جهنم ، وبعبارة أخرى يماثل موتا طقوسياً من نموذج مساري (متعلق بالمسارة) . ان ميثولوجيا المتاهة الشهيرة لمينوس Minos **غامضة ومجزأة ، ولكن المشاهد**

الأكثر مأساوية تتعلق بمسارة . ان المعنى الأصلي لهذا السيناريو الأسطوري الشعائري كان على الأرجح قد أهمل قبل الأدلة الكتابية الأولى . فقصة تيزيه Thésée ، وبصورة خاصة ، دخوله المتاهة ، ومعركته المظفرة ضد المينوثور Minotaure ستطالعنا فيا بعد (ر . فقرة ٩٤) . ولكنه من المناسب التذكير منذ الآن بالوظيفة الطقوسية للمتاهة بصفتها تجربة أو ممارسة مسارية .

إن حفريات /كنوسوس/ لم تكشف أي أثر للعمل الاسطوري لديدال Dédale . مع ذلك ، فان المتاهة ، تظهر على النقود الكريتية للعصر الكلاسيكي ، وان المتاهات مشار اليها كذات علاقة بمدن أخرى . وبالنسبة لعلم الاشتقاق اللغوي فقد فسرت الكلمة وكأنها تدل على (منزل الفأس المزدوجة) ، وبتعبير آخر ، تشير الى القصر الملكي لكنوسوس . غير أن الكلمة القديمة اشيني acheén بالنسبة للفأس كانت بيليكس Pelekys (ر . الكلمة الميزوبوتامية)Pilakka . من الراجح جدا أن العبارة تشتق من الاسبانية لابرا/ لورا/ = لابرا (حجر ـ مغارة) .فالمتاهة كانت تدل اذن على مقلع حجارة تحت الأرض ، مصنوع بيد الانسان . وفي الواقع ، وحتى يومنا هذا ، تدعى أيضاً «متاهة» ، مغارة امبيرلوزا Ampelousa بالقرب من /غورتين/ Gortyne[٤٣] . واننا اذ نثبت هنا الدور القديم الشعائري للمغاور ، سنعود للتأكيد على هذا الدور ، لأنه سيوضح بشكل مدهش استمرارية بعض الأفكار الدينية والحفلات المسارية منذ ما قبل التاريخ وحتى العصور الحديثة (ق . ٤٢ع) إن التماثيل النسوية الصغيرة تتكاثر خلال عصر النيوليتيك : انها تتميز بتنورتها على شكل جرس تاركة الأثداء عارية ، والذراعان مرتفعان في اشارة من التعبد ، وهذه التماثيل النسوية وان كانت تمثل نذوراً ex-vote أو أصناماً (idoles) فانها تدل على رفعة دينية للمرأة ، وبصورة خاصة ، على أولوية الربة . ان الوثائق المتتالية تؤكد وتثبت هذه الأولوية . واذا بحث ذلك على ضوء مشاهد الطوافات واعياد القصور ومشاهد الاضاحي ، فان الشخصية النسوية كانت تلعب دوراً بارزاً[٤٤] . ان الربات قد ظهرت محجبات أو عاريات جزئياً ضاغطات أثداءها أو رافعات الأذرع بعلامات التعبد .[٤٥] وان صوراً أخرى تمثلها (كربة للوحوش الكاسرة)Potrnia theron

ان خاتماً من كنوسوس يبرز سيدة الجبال محنية صولجانها نحو معبود ذكر وهو يغطي عينيه .[٤٦] وعلى الحجارة المحفورة تشاهد الربة مسبوقة بأسد. أو ممسكة كلبة أو كبشاً .

أو واقفة بين حيوانين . الخ . . وكما سنرى فان /سيدة الوحوش الكاسرة/ ما زالت تعيش في الميثولوجيا والديانة الاغريقية (ر . ف . ٩٢ع) .

لقد كان يحتفل بالطقوس على رؤوس الجبال كما في كنائس القصور أو في سور المساكن الخاصة . وفي كل مكان توجد الربات داخل النشاط الديني . وفي بداية المينوين الأوسط (٢١٠٠ ـ ١٩٠٠ ق .م) تأكدت المعابد الأولى على الأمكنة العالية ، وفي البدء كانت مجرد أسوار متواضعة ومن ثم بعد ذلك أبنية صغيرة . في معابد بتسوفا Petsofa ، وكذلك على جبل جوكتاس Jonktas في طبقة سميكة من الرماد ، اكتشف عدد من التماثيل من الطين المشوي ، بشرية وحيوانية . وان الباحث /نيلسون/ يظن أنهم كانوا يعبدون آلهة الطبيعة ، بالقاء التماثيل الصغيرة المنذورة في النيران الملتهبة بشكل دوري[٤٧] . وأكثر تعقيداً ، ومما يشكل لغزاً أيضاً ، تلك العبادة المسماة زراعية أو المتعلقة بالنبات . فمن أصل زراعي ، أدخلت هذه الطقوس ، بطريقة رمزية على الأقل ، في مهمة متعلقة بالبلاط . الا أنها كانت موضع احتفال ـ بصورة خاصة في الحلقات المقدسة . وبتفحص الرسوم وبروزات الانية على المحفورات الحجرية ، يبدو أن هذه الطقوس كانت تتضمن بصورة خاصة رقصات ، وطوافات وموضوعات مقدسة وتطهيرات . .

لقد كانت الأشجار تلعب دوراً مركزياً . والوثائق الايقونية تظهر مختلف الاشخاص على أهبة لمس الأوراق ، أو لعبادة ربة النبات أو تنفيذ رقصات شعائرية . وان بعض المشاهد تشير الى الخاصية الخارقة ، بل الوجدية للشعيزة : امرأة عارية تمسك بشغف جذع شجرة ، ومحتفل بالقداس ، يتأمل مشيحاً برأسه بينما أن رفيقته تظهر وهي تندب على قبر . وفي الحقيقة قد لوحظ[٤٤] في مشاهد مماثلة ، ليس المأساة السنوية للنبات فحسب ، وانما ايضاً التجربة الدينية المثارة بالاكتشاف التضامني الاسطوري بين الانسان والنبات (ف ١٢ و١٤ع) .

٤١ ـ الخطوط المميزة للديانة المينوونيتية:

حسب رأي بيكار picard «لا يوجد لدينا دليل حتى الآن ، عن وجود اله ذكر بالغ» ان الربة هي محروسة أحيانا من قبل قندلفت (حارس) مسلح ، ولكن دوره غامض ، مع ذلك ، فان بعض آلهة النبات كانت بالتأكيد معروفة لأن الاساطير الاغريقية تصر على عادة تعدد الازواج التي كان لها مكانها في كريت : تعدد الازواج مميز للديانات الزراعية .

وقد جرب بيرسون persuon إعادة تكوين المشهد الطقوسي للموت وإعادة البعث الدوري للنبات ، وذلك على أساس تمثيلات ايغنوغرافية . وأعتقد هذا العالم السويدي بأنه يستطيع إقامة المشاهد المختلفة للعقيدة في الفصول الزراعية الدورية : الربيع عيد تجلي ربة الطبيعة وإقامة شعائرها من قبل المحتفلين . والصيف : تجلي اله النبات الخ .. والشتاء منادب طقوسية ومشاهد تظهر سفر الآلهة الخ ، (٥١) . ان بعض التفسيرات مدهشة الى حد كبير ، ولكن إعادة تركيب المشهد المتكامل جوبهت بمعارضة الكثيرين من الباحثين .

وان ما يبدو مؤكداً ، هو أن أكثرية الوثائق الايقونية كان لها دلالتها الدينية ، وان العقيدة كانت مركزة على أسرار الحياة والموت والبعث ، متضمنة بالنتيجة شعائر مسارية ومراثي جنائزية واحتفالات جنسية ووجدية . وكما أشار اليه فرانسيس فيان Francis vian بحق : «سيكون من الخطأ الاستنتاج ، تبعاً لضيق الأمكنة ثم أن الدين كان يأخذ مكانه القليل في المساكن المترفة ، ففي الواقع ان القصر في مجموعه مقدس ، لأنه هو المقر للربة السيدة والملك الكاهن الذي يستخدم كشفيع بينها وبين البشر . ان سطوح الرقص المحاطة بدكات (مقاعد) والباحات الداخلية حيث تنتصب المذابح ، والمخازن ذاتها ، هي مستقرات دينية . ان العرش كان يشكل موضوعاً للاحترام ، وكما تثبت العنقاوات الرمزية griffons symboliquf في كنوسوس وبيلوس . وحتى انه يمكن أن تكون موقوفة للتجلي الشعائري لربة القصر بأكثر مما هو للملك(٢٢) .

وتجدر الاشارة الى وظيفة القصر كمركز احتفالي . ان /المباريات/ المقدسة ، للثور بدون إماتته ، كان يحتفل بها في الأفنية ذات المقاعد المسلة /مسارح القصور/ . وان الرسوم في /كنوسوس/ تظهرلنا لاعبين من الجنسين يتطايرون فوق الثور ، ورغم شكوك /نيلسون/ فان المعنى الديني للبهلوانية غير قابلٍ للشك . فاجتياز الثور في المسيرة يشكل (تجربة مسارية ممتازة)[٥٣] . ومن المرجح جداً ، ان خرافة رفاق /تيزيه/ سبع شباب وسبعة شابات هي تقدمات الى المينوتور يعكس الذكرى لمثل هذه التجربة المسارية . وبكل أسف فاننا نجهل ميتولوجيا الثور الالهي ودوره في العقيدة ومن المرجح أن الموضوع الشعائري الكريتي بصورة خاصة المسمى (قرون التكريس (النذر) يمثل النموذج الجبهوي للثور . ان كلية وجوده تؤكد الأهمية لوظيفته الدينية : القرون كانت تستخدم لتكريس الأشياء الموضوعة في الداخل .

إن المعنى الديني والرمزي لبعض الموضوعات الطقوسية قد انتقدت وقد عارضها بعضهم . . فالفأس المزدوجة أو الفأس المجنحة (الرومانية) كانت مستعملة بلا ريب في الاضاحي وهي تصادف على مصطبة متسعة خارج (القمة) . ففي آسيا الوسطى ، اضافة الى كونها رمز الصاعقة . فانها صولجان إله العاصفة . ولكنه حتى في عصر الباليولتيك وجدت أيضا في العراق في /تل الارياشين/ بالقرب من ربة عارية . وفي كريت أيضا رؤيت الفأس المجنحة في أيدي نساءكاهنات أو ربّات ـ أو موضوعة على رؤوسهن . ومع الأخذ بعين الاعتبار لحدها المزودج فان /ايفان/ فسرها كصولجان مرمزٍ لاتحاد مبادىء متكاملة . ذكر وانثى .

ان الاسطوانات والأعمدة كانت تتقاسم على الأرجح الرمزية الكونية /للقطب الكوني/ التي سبق أن تأكد منذ ما قبل التاريخ (فقرة ١٢ ع) . وان الاسطوانات الصغيرة التي تعلوها عصافير هي قابلة لتفسيرات مختلفة ، طالما أن العصفور يمكن أن يمثل الروح كما يمثل الصعود للربة . وفي كل الأحوال فان الاسطوانات والأعمدة تحل محل الربة (لأنه هكذا نراها أحياناً ، مثلها بدئيا ، متلاصقة بأسود أو عنقاوات مرتبطة شعائرياً»[٥٤] .

إن عبادة الموتى كانت تلعب دورا بارزاً ، فكانت الأجساد تدخل من الأعلى إلى غرف عميقةكمستودعات تحفظ فيها عظام الموتى. وكما سبق ممارسته في آسيا الوسطى والبحر المتوسط فإن الموتى كانوا يفادون بإراقة خمور تحت الأرض . وكان يمكن للأحياء النزول الى بعض الغرف المزودة بمقاعد من أجل العبادة . ومن الراجح أن المهمة الجنائزية كانت تجري تحت (رعاية الربة (ف . /٣٥ع) . وفي الواقع أن قبر الملك الكاهن لكنوسوس المنحوت في الصخر يتضمن قبواً بأعمدة ، دهن سقفه باللون الأزرق الممثلة لقبة السماء ، وأقيم في القسم الأعلى معبد مماثل المعابد البلاطية (الخاصة ببلاط) الربة الأم[٥٥] .

إن الوثائق الأكثر قيمة ، والأكثر غموضا في لغزها حول الديانة الكريتية ، مكونة من صفيحتين مزينتين لنـاووس ، اكتشف في /هاجيا تريادا/ فهذه ، الوثيقة ، تعكس ، بالتأكيد ، الافكار الدينية في عصرها (القرن الثالث عشر الثاني عشر ق .م) عندما كان الميسنيون lesmycénieus قد استقروا في كريت . مع ذلك ، وفي المقياس الذي تكون المشاهد المرسومة على الصفيحتين قابلة لتفسير متماسك ، فانها تثير معتقدات وعادات مينونية وشرقية . على احدى الصفيحتين . فعلى احدى الصفيحتين مثلت التضحية بثور ، تتقدم نحوه بطواف ثلاث كاهنات . ومن الجانب الآخر للضحية المذبوحة قد رسمت أضحية دموية قبالة شجرة مقدسة . وعلى الصفيحة الثانية ، يشاهد عملية انجاز لاراقة الخمر الجنائزية : كاهنة تفرغ السائل الأحمر من باطية cratére في طنجرة كبيرة . والمشهد الأخير هو الأكثر غموضاً : الميت بثوبه الطويل ، يساعد بالتقدمة الجنائزية أمام قبره : وثلاثة مضحين ذكور يقدمون له زورقاً صغيراً وعجلين صغيرين[٥٦] .

إن عددا من العلماء ، وقد حكموا على الأمر بظاهره اعتبروا أن الميت قد اعتبر إلهاً وأنه قد عُبد. وهذه الفرضية قد تكون مقبولة . وفي هذه الحالة سيتعلق الأمر بأحد المتميزين ، كالملك الكاهن لكنوسوس ، أو بعض أبطال الاغريق (هرقل ـ اخيل ـ مينلاس) . ومع ذلك يبدو مؤكدا أن المشاهد لا تستدعي تأليه الميت، وانما إتمام حفلة المسارة . حفلة من نموذج ديني (ذي أسرار) يمكن لها أن تضمن له وجوداً تالياً سعيداً . وفي الواقع ، ان ديودور الصقلي (القرن الأول

ق . م) كان قد لاحظ تشابه الدين الكريتي مع الديانات (ذات الأسرار) . وعليه فان هذا النموذج من الدين سيصبح محصورا فيها بعد بالاغريق الذين يسمون /دوريين)doricne ولن يستمر في العيش الا في المجتمعات المغلقة ، التيازيس les thisses (كلمة ربما مما قبل الهيلنية)[٥٧] .

إن التقليد الموصوف من قبل تيودور ذو فائدة كبرى : لأنه يدل على حدود عملية تمثل الأفكار الدينية الشرقية والبحر المتوسط ، من قبل الفاتحين الآريين .

٤٢ ـ استمرارية التركيبات الدينية الماقبل الهيللينية :

إن حل رموز الخط /ب/ قد برهن على أن الاغريق حوالي ١٤٠٠ ق . م كتبوا وتكلموا عن كنوسوس ، ويتبع هذا أن الغزاة الميسينيين قد لعبوا دورا حاسما لا في تخريب الحضارة المينوبية فحسب ، وانما أيضا في فترتها الأخيرة ، وبعبارة أخرى ، فان الحضارة الكريتية ، في مظهرها الأخير احتوت اليونان القارية . واذا أخذنا في الحسبان واقع أنه ، قبل غزو الميسنيين ، كانت التأثيرات المصرية وآسيا الوسطى قد توصلت الى تركيب اسيوي ـ متوسطي ، يقاس به قدم وتعقيد المظهر الثقافي الاغريقي . إن الهيللنية تمد جذورها في مصر وآسيا ، ولكن تقدمة الغزاة هي التي ستنتج الأعجوبة الاغريقية . فالألواح المكتشفة في كنوسوس ، وفي بيلوس وفي ميسن تسمى الآلهة الهوميرية بأسمائهم التقليدية : زوس ـ هيرا ، اتينا ـ بوزويدون ديونيزوس الا أن مما يؤسف له أن المعلومات الميثولوجية والعقائديةمتواضعة جداً : انها تجعل من تسميةزوس ديكتاتوس ومن ديدالوس /عبيداً للاله/ ومن /عبد آثينا/ أسماء الكاهنات الخ . . ومما له دلالة شهرة /كريت/ في المثيولوجيا وديانة الاغريق الكلاسيكية . ففي كريت ولد زوس وفيها مات ، وديونيزوس ، وابولون ، وهرقل كلهم كانت طفولتهم فيها ، وفيها أيضا أحبت ديميتر Démater ايازيون Iasion ، وتلقى مينوس شرائعه ومع رادمانتيس ، أصبح قاضياً في الجحيم . ومن كريت دائما ، وفي أوج العصر

الكلاسيكي أرسل المطهرون البررة[٥٩] . فهذه الجزيرة كانت تتمتع بتقدير ومزايا أسطورية منذ البدء : بالنسبة لليونان الكلاسيكية ، كانت كريت المينونيية تشاطرها معجزات /الأصول/ .

ومما لا مجال للشك فيه أن التقاليد الدينية لليونان قد تغيرت بالتعايش مع السكان المحليين في كريت كما حصل من جهة أخرى في /ايجه/ . ولقد لاحظ /نيلسون/ أنه من بين أربع مراكز دينية في اليونان الكلاسيكية ـ دلفى دوينوس ، وايلوزيس ، واوليمبي كانت الثلاثة الأولى منها موروثة من الميسيين de mycenienes . وإن استمرارية بعض التركيبات الدينية المينونية توضحت بشكل ملائم ، وقد أمكن إظهار امتداد المعبد المينوى ـ الميسيني في المعابد الاغريقية ، وتواصل الطقس الكريتي للموقد مع طقس القصور الميسينية. إن صورةبشيسه ـ فراشة psyché- papillon كانت مألوفة للمينونيين . وان أصول عبادة ديميتر تأكدت في كريت ، وان أقدم معبد في ايلوزيس يرجع بتاريخه للعصور الميسينية «بعض المعالجات الهندسية أو غيرها ، لمعابد الاسرار الكلاسيكية ، تبدو مشتقة لحد قل أو كثر من التزيينات المتحققة في كريت[٦٠] .

وكما في الهند ما قبل الآرية ، فإن طقوس وشعائر الربات ذات العلاقة بالاخصاب والموت وخلود الروح هي التي استمرت بصورة خاصة . وفي بعض الحالات تتأكد الاستمرارية مما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة . ولكي لا نبرز سوى مثل واحد ، نشير الى أن مغارة سكويتنو SK oteino (واحدة من أجمل وأكبر ما في كريت) بعمق ٦٠ م تحتوي على أربع طوابق ، وفي نهاية الطابق الثاني يوجد «صنمان للعبادة) منتصبين فوق وأمام مذبح من الحجارة» : امرأة و(تمثال نصفي امرد بحاله ابتسام تهكمي» . وأمام هذين التمثالين بقايا من آنية يصل ارتفاعها لعدة أمتار . . وغيرها ينتشر على أرض الطابق الثالث تحت الأرض . . وحسب التسلسل التاريخي تتابعت بدون انقطاع من بداية الألف الثانية ق .م حتى نهاية العصر الروماني» .[٦١] .

إن قداسة المغارة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا . وبالقرب منهاترتفع كنيسة صغيرة بيضاء موقوفة للقديس باراسيف paraséve وفي مدخل المغارة يتجمع في ٢٦ تموز «كل أهالي وادي أبو سيليمي Aposelemi ، ومن اقليم /كيرسوهيروس/ : يجري الرقص على مصطبتين تحت القبة ، ويحصل الشرب والغناء بأغاني الحب بشكل شعائري أيضاً ثم يتلو ذلك الصلاة في الكنيسة المجاورة(٦٢) .

وتتأكد الاستمرارية بمعرض تعبيرات خاصة للتدين الكريتي القديم . وقد أكد السير ارثر ايفان Arthur Evans على وجود التضامن بين عبادة الشجرة وتمجيد الحجارة المقدسة . ويوجد تضامن مماثل في طقس /اثينا بارتينوس/ في آثينا : عمود متحد بالشجرة المقدسة (الزيتونة) والبوم ، الطائر الشعائري للربة . وقد أوضح /ايفان/ إضافة على ذلك ، بأن استمرارة حياة طقس العمود حتى العصر الحديث ، وعلى سبيل المثال ، إن العمود المقدس /لتيكيوا/ بالقرب من /سكوبلج/ skoplje هو استجابة للاسطوانة المينونية المحترمة من قبل المسيحيين والمسلمين . إن العقيدة بأن الينابيع المقدسة مشاركات للربات ، توجد في اليونان الكلاسيكية، حيث كانت النيابيع تعبد بصفتها نيريدات Néréides ، وقد استمرت حتى أيامنا هذه : فالجنيات ما زالت تسمى نيريدات Nérädes .

وسيكون من غير المفيد ضرب الكثير من الأمثلة . ونعيد الى الذاكرة أن زيادة مماثلة لاستمرارية البنى الدينية القديمة يميز كل الثقافات (الشعبية) في أوروبا الغربية والبحر المتوسط حتى سهول الغانج والصين (ف . ٤١ع) . ويكفي أن نشير هنا الى أن واقع هذه العقيدة الدينية ـ آلهة ربة الخصب والموت ، والشعائر والمعتقدات المتعلقة بتعميد وخلود الروح ـ لم تدخل في الدين الهوميري . وبالرغم من التكافل synbiose مع ما لا يحصى من التقاليد الما قبل الهيلينية ، فان الفاتحين الاريين قد نجحوا بفرض معبدهم وبدعم (نموذجهم الديني) المتميز والخاص بهم (الفصل ١٠ ـ ١١) .

حواشي الفصل الخامس

١ ـ ان المنهير الكائن قرب Locmariaqwer يقيس أكثر من ٢٠ متراً ارتفاعاً ، في بريطانيا بعض المنهيرات متشاركة بمقابر .

٢ ـ صفوف الكرنك تحتوي ٢٩٥ منبر موضوعة على أرض بطول ٣٩٠٠ م .

٣ ـ انظر فقرة ٧٤ من هذا الكتاب .

٤ ـ الاعتقاد بالخلود ـ فريزر ص ١٩٣ .

٥ ـ Hand Kirilen ـ عن المنهير .

٦ ـ لقد فسرت بعض المنهيرات في بريطانيا، المقامة أمام غاليري من الدولمن، بالعقيدة المصرية التي تبعاً لها ان أرواح الموتى ، الممسوخة بالطيور ، كانت تترك القبور لتذهب وتستريح على تلة في ضوء الشمس «ويبدو أن عقيدة مماثلة كانت منتشرة في كل حوض المتوسط وفي أوروبا الغربية» ـ ر . مارينجر ـ انسان ما قبل التاريخ وآلهته ص ٢٥٤ . وقد فسر Corl Jchnchlat في ذات المعنى الأعمدة المرسومة المقبرة Haya Trila (فقرة ٤١ ع) التي علقت عليها طيور ومع ذلك ـ ر . تعد كيرشبر في كتابه الثقافات الميغالينية في اسيا الجنوبية الشمالية . . . المنهير المستخدمة سياجا لأرواح أو مقراً .

٧ ـ مع ذلك حتى ان أطروحة يهودية متحمسة مثل Dentorononono تستعمل أيضا المسخ الانطولوجي للحجارة عندما يعلن الحقيقة المغلقة للالهة من حيث هو المتبع الوحيدللخليقة : «هل نسيت الصخرة التي وضعتك في العالم ، ألا تذكر أن الله الذي أولدك» ٣٢ ـ ١٨ .

٨ ـ ر . بعض الأمثلة التي ذكرت في المرجع . .

٩ ـ على سبيل المثال Arlor low- Avrbury, Woodhenge (مارينجر) ص ٢٥١ .

١٠ ـ لأن ستونينهج لم تبنى لمرة واحدة ، فالمعلوم الآن ان العمل في الأصل تعرض لعدد من الاصلاحات .

١١ - غونتر ذونتز ص٤ .

١٢ - J. D. Fnans مالطة ص ١٣٨ .

١٤ - المقابر الجماعية المينونية هي إما مغاور طبيعية واما حفر دائرية تسمى tholo .

١٥ - ١٦ - Damiel ص ١٣٦ .

١٧ - إن الباحث غوردون تشايلد في كتابه المجتمعات الأوربية لما قبل التاريخ يقرب القبور الميغائيية من الكنائس الصغيرة المبنية من قبل القديسين الغولوا والايرلنديين في ذات الأقاليم من الجذر البريطانية .

١٨ - ١٩ - ذات المرجع - وستيوارت Piggat اعتبر الاثار الميغاليثية مشتقة من البحر المتوسط الشمالي ، وقارنها بالكنائس المسيحية أو بالمقابر الجماعية المتشاركة بطقوس الربة الأم والتي انتشرت في الغرب عن طريق المبشرين ومكتشفى وتجار المعادن .

٢٠ - انظر أطروحة واضحة نشرت من قبل collin renfrvc وفي الانكليزية tree- ringculibnation of radiocercon - ان الثورتين الفخم la dendrcrnoloyis غيرنا جذريا تبلسلّ الأحداث التاريخية لما قبل التاريخ الأوروبي .

٢١ - يذكر في مصر ، ان الاهرامات الأولى من الحجر قد رفعت حوالي ٢٧٠٠ ق .م وصحيح أن هذه الاهرامات كانت لها سابقات من القرميد ، ولكن الواقع يبقى أنه قبل ٣٠٠٠ ق .م لم تكن تعرف أي أثر مصري من الحجارة مقارن بالميغاليت في أوروبا الغربية (ر . Ronfrem ص ١٢٨) .

٢٢ - المرجع السابق .

٢٣ - المرجع السابق وان زونتز Zuntz يظن غالبا بتأثير مصري أو سومري .

٢٤ - في الواقع طالما أن البناء التقني لـ stonohenge يبدو مدخلاً أيضاً وخليفة مرتب للنجوم ، فانه من الراجح أن الأعياد الرئيسية كانت على علاقة مع تغيرات الفصول كما هو عند الهوبي وعند الشيروكس (المرجع السابق) .

٢٥ - R. fleine Celden بحوث عما قبل التاريخ في نيزرلاند ص ١٤٩ .

٢٦ - R. Fleine Celden عن الميغاليث في نيزرلاند ص ١٦٤ .

٢٧ - م . ريبار - اليوجا ص ٣٦٨ .

٢٨ - B et A. Allchin - ولادة الحضارة الهندية .

٢٩ - W. A Furinermin جذور الهند القديمة ص ١٩٥ وحول العلاقات لهذه المظاهر بالثقافة لما قبل الهاربنية والميغاليت في الهند الشمالية ص ٣٧٥ .

٣٠ - Thipinot of the four guards. Panl Whenlthy .

٣١ - م - الياد - مركز العالم .

٣٢ ـ المدن الأولى المنشأة في هذه الأقاليم كانت هي أيضا (مدن مقدسة) أي مركز العالم انظر (وارنر موللر) .

٣٣ ـ سيرجون مارشال ـ موهنجودارد .

٣٤ ـ Faurevio ـ ص ٢٠٤ .

٣٥ ـ Allachin ص ٣١٢ .

٣٦ ـ ٣٧ ـ انظر المناقشات لهذه الفرضيات ـ عند هويلر .

٤٠ ـ ٤١ ـ عن هذا العصر انظر R. W. Hunthionp ـ كريت ما قبل التاريخ .

٤٣ ـ انظر ، كريت والانسانية P. Fowr ص٤٧ .

٤٤ ـ بيكارد Picard ص٧١ .

٤٥ ـ ايفان ـ قصر مينوس ص ٢٧٧ . والربات يمثلن أحيانا بأعمدةِ اسطوانية (نيلسون).

٤٦ ـ ولكن نيلسون يعتبر أن هذه الاستعارة متأخرة ـ وهاتشيسون يعتبرها مينسية .

٤٧ ـ نيلسون ـ أساطير ومعتقدات ص ٧٥ .

٥٠ ـ التماثيل الصغيرة المذكرة تمثل المتعبدين .

٥٢ ـ F. Krans تاريخ الاديان كذلك فان Evans كان يسمى ملك كنوسوس ـ ملك كاهن .

٥٣ ـ ريغان دافرن .

٥٤ ـ بيكار ص ٧٧ .

٥٥ ـ ايفان قصر مينوس ص ٩٦٢ ويذكر /بيكارد/ بالتقليد المنقول من قبل ديودور والذي تبعا له كان مينوس مكفنا في قبر ـ قبو يرتبط فيه معبد خاص لأفروديت الورثية للربة الايجية ص ١٧٣ .

٥٦ ـ ر . الايضاحات عند Pariboni ويقول بيكارد أن الرحلة البحرية خارج القبر قد تركت آثارها في المفهوم الاغريقي (الجزر السعيدة) وانظر هزيود الماء دايا .

٥٨ ـ نشير هنا الى أن التأثيرات كانت تمارس بالتساوي في اتجادمات دايا .

٥٨ ـ نشير هنا الى أن التأثيرات كانت تمارس بالتساوي في اتجاهات مضادة .

٦٠ ـ بيكارد ص ١٤٢ .

٦١ ـ بيكارد ص ١٤٢ .

٦٢ ـ P. Fonr عادات كريتية وانسانية ص ٤٠ .

٦٣ ـ العديد من المغاور موقوفة للقديسين في حانة كنيسة مقامة في المغاور .

الفصل السادس

ديانات الحثيين والكنعانيين

٤٣ ـ تكافل اناتولي ، وتوافيقية حثية :

أشرنا للاستمرارية الدينية المدهشة في الأناضول منذ الألف السابعة حتى غرس المسيحية ، «لا يوجد ، في الواقع ، حل صحيح للاستمرارية بين التماثيل الصغيرة المشوهة لألوهة ذكورية منتصبة على ثور كتلك التي وجدت أمثلة عليها في ساتال هويوك Çatal Hoyuk ، على مستوى VI (حوالي ٦٠٠٠ ق . م) ، وبين صور اله العاصفة من العصر الحثي وتماثيل جوبيتر دولشينوس Jupeter Dolichenus ، الذي كان يعبده جنود الكتائب الرومانية ، ولا بين الربة ذات الفهود لساتال هويوك ، والربة هِبَّات Hepat الحثية وسيبيل la Cybéll من العصر الكلاسيكي»[1] .

إن هذه الاستمرارية ، أقله في جزء منها ، هي **النتيجة لإلهام** مدهش بالنسبة للتوفيقية الدينية . فالعرق الهندو ـ اوروبي المعيَّن في نتاج المؤرخين الحديث تحت اسم الحثيين ، **ساد اناتوليا** خلال الألف الثانية (المملكة القديمة ١٧٤٠ ـ ١٤٦٠ق .م) والامبراطورية ١٤٦٠ق .م حوالي ١٢٠٠ ق .م) . وباخضاع هؤلاء الحثيين ـ أقدم سكان اناضوليين عرفت لغتهم ـ دشّن الغزاة الآريون عملية من التكافل الثقافي الذي امتد **زمناً طويلاً** بعد انهيار ابداعاتهم السياسية . فبعد زمن قصير من تغلغلهم في أناضوليا ، تحمل الحثيون التأثيرات البابلية . وبعد ذلك بزمن طويل ، وبخاصة أثناء الامبراطورية ، تمثلوا جوهر ثقافة الحوريين Hurrite، **وهم شَعب** من غير الهندو أوروبي**كان مقيماً في**الأقاليم الشمالية من ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) وسورية ، وبالنتيجة ، وفي مجمع الآلهة للحثيين ، فان الآلهة ذات الأرومة السومرية الأكادية تقاربت من الآلهة الأناضولية والحورية . إن غالبية الأساطير والشعائر الحثية المعروفة حتى وقتنا الحاضر ، لها موازياتها ، **بل نماذجها** ، في التقاليد الدينية الحثية والحورية . وان التراث الهندو ـ أوروبي يبدو مع ذلك الأقل دلالة ، ورغم التباين في المصادر فان الابداعات العبقرية الحثية ـ بالدرجة الأولى في الفن الديني ـ لا تخلو من الأصولية .

فالآلهة كانت تتميز بقوتها المرعبة والمنيرة التي كانت تصدر عنها [انظر : الاشراق الالهي] ميلامو melammu**(ف .** ٢٠ع). ان مجمع الآلهة كان رحباً واسعاً ، ولكن بعض الآلهة يجهل عنها كل شيء ما عدا اسمها . كل مدينة هامة كانت تشكل المقر الرئيسي لألوهة أسطورية ، محاطة ، بالتأكيد ، بشخصيات ربانية أخرى . وكما هو الشأن في كل مكان في الشرق الأدنى القديم ، فان الالهة كانت تقيم في المعابد ، وان الكهنة وأعوانهم كانوا مكلفين بغسلها ، وباكسائها ، وبتغذيتها والتسرية عنها بالرقص والموسيقى . من وقت لآخر كانت الآلهة تترك معابدها وتسافر ، وأحياناً ، كان غيابها يطلب لتفسير خيبة بعض الاسترحامات .

كان مجمع الآلهة مدركاً كأسرة كبيرة يرأسها الزوج الأول سيدا البلاد الحثية : رب العاصفة وربة كبيرة . ورب العاصفة كان معروفاً بصورة خاصة تحت

اسمه الحوري /تشوب Teshup وهو اسم سنفضل استعماله . وزوجته كانت تدعى في اللغة الحورية هبات Hepat . حيوانات الزوجين المقدسة ـ الثور ، ولأجل هبات الاسد (أو الفهد) ـ كانت تؤكد على الاستمرارية منذ ما قبل التاريخ (ف . ١٣ع) . والربة الأكثر شهرة كانت معروفة باسم الربة «الشمسية» لأرينا d'Arinna (في اللغة الحيثية وروسيما)Wurusema .

وفي الواقع انها كانت تجسيدا لذات الربة الأم[٢] باعتبار انها كانت تمجد /كملكة للبلاد/ ملكة الأرض والسماء ، حامية ملوك وملكات الحثيين» الخ . . ومن الراجح أن تشميسها solarisation يمثل عملاً تمجيدياً يتم عندما تصبح ربة آرنيا سيدة المملكة الحثية .

ان رمز الفكرة البابلية (عشتار) كانت مستعملة لتدل على عدد من الربات المحلية ، والتي تجهل أسماؤها الاناضولية . والاسم الحوري كان شانشكا Shanshka ولكنه يجب أن يؤخذ في الحسبان ، ان عشتار البابلية ، ربة الحب والحرب كانت معروفة في الأناضول ، وبالنتيجة ، وفي عدد من الحالات تكون في معرض توفيقية ـ أناضولية ـ بابلية . فالاله ـ الشمس ابن تيشوب ، كان معتبراً ، كشمش ذاتهShamsh ، ومدافعاً عن الحق والعدالة . وليس بـأقل شعبية منه كان تلبينو Telepino ، وهو أيضا ابن تيشوب ، الذي تجعله الأسطورة دونه بقليل .

وفيما يتعلق بالحياة الدينية ، فان المصادر لا ترشدنا سوى على العقيدة الدينية حصراً . فالصلوات التي حفظتها النصوص تعود للأسر المالكة . وبعبارة أخرى اننا نجهل المعتقدات والشعائر الشعبية . مع ذلك ، لا مجال للشك في الدور المنتقل لربات الخصب واله العاصفة . ان الاعياد الفصلية ، وبصورة خاصة عيد السنة الجديدة ، كانت موضع احتفال من قبل الملك ، ممثل الفاتحين الآريين ، الا أن حفلات مماثلة كانت قد مورست في البلاد منذ عصر النيولوتيك .

إن /السحر الاسود/ كان ممنوعا بموجب قانون الشرائع Code de Lois وكان المجرمون يعاقبون بالاعدام . وانه لمن المؤكد أن بعض الممارسات الموغلة في القدم ، كانت بصورة غير مباشرة تتمتع بشهرة خارقة في الاوساط الشعبية ، وعلى العكس ، فان السحر الابيض كان مباحاً ويمارس كثيراً كما يدل على ذلك العديد من النصوص المكتشفة حديثاً ، وهذا السحر كان يتضمن على الأخص شعائر تطهير وابعاد المرض .

ان احترام الملك ودوره الديني كانا بارزين . فالملكية هبة من الآلهة . «إلي . . انا الملك . . أوكل إله العاصفة واله الشمس ، أوكلا إلي البلاد وبيتي . . لقد منحتني الآلهة ـ أنا الملك ـ كثيراً من السنوات . . هذه السنوات لا حد لها . .»[٣] . فالملك حبيب اله كبير . . (مع ذلك فان «النزول الالهي» الخيالي من النموذج الميزوبوتامي ، لم يتأكد) . رفاهية الملك تطابقت مع رفاهية الشعب بكامله ، فالملك هو ممثل الآلهة على الأرض ، ومن جهة أخرى فهو يمثل الشعب امام مجمع الآلهة .

لم يوجد حتى الآن نص يصف احتفال التكريس ، ولكنه عرف أن الملك كان يدهن بالزيت ، وهو مرتدٍ لباساً خاصاً ومتوج ؛ ثم يتلقى اسما ملكيا . لقد كان الملك أيضاً كاهناً كبيراً ، وكان وحده ، أو مع الملكة ، يفتتح الأعياد الأكثر أهمية في السنة . وقد كان الملوك بعد موتهم يؤلهون . وعند الكلام عن موت ملك كان يقال ، لقد أصبح إلها . وكان تمثاله يوضع في المعبد وكان الملوك الحاكمون يقدمون إليه تقدماتهم . وحسبما تذكر النصوص ، فإن الملك كان معتبراً ، خلال حياته ، كأنه التجسيد لأسلافه المؤلهين .

٤٤ ـ الرب الذي غاب :

إن أصولية الفكرة الدينية (الحثية) يمكن اكتشافها بصورة خاصة ، في اعادة تفسير بعض الأساطير الهامة . وثمة نص ، من أكثرها أهمية ، يدور حول الرب

الذي غاب . ففي الترجمة المعروفة أكثر من غيرها أن بطل الرواية هو تيليبينو Telipinu . وثمة نصوص أخرى تعطي هذا الدور لوالد ، اله العاصفة ، واله الشمس أو لبعض الربات . ان السريرة ـ كالأسم تيليبينو ـ هي حثية . فالنصوص الحثية تآلفت بعلاقة مع مختلف الشعائر ، وبعبارة أخرى ، إن تلاوة الاسطورة كانت تلعب دوراً اساسياً في ممارسة الطقس .

إن بداية الحكاية مفقودة ، وغير معلوم سبب قرار/تيلبينو/لأن يختفي . ربما لأن البشر قد أغاظوه . . ولكن نتائج اختفائه شُعر بها مباشرة . فالنيران اطفئت في مواقدها ، والآلهة والبشر شَعروا بالإرهاق والضنى؛ والشاة أجهضت حملها والبقرة عجلها ، «والشعير والقمح لم ينضجا بعد» والحيوانات والبشر كفت عن التزاوج ، والمراعي أصبحت هشيماً ، والينابيع استنزفت . (قد يكون هذا أول ترجمة أدبية للباعث الميتولوجي الشهير ـ«gaste pags» leوالذي غدا شهيراً بروايات الغرال du Graal . . . عندئذ أرسل الاله ـ الشمس ـ أرسل رسله ـ بدئيا النسر ، ويليه رب العاصفة نفسه ـ من أجل البحث عن (تيليبينو) ، ولكن بدون جدوى . وأخيراً ، أرسلت الربة الأم ، النحلة ، وهذه وجدت الاله نائماً في أجمة ، وقد أيقظته بلسعتها له . لقد أثار (تيليبينو) مثل هذه الكوارث في البلاد وهو غاضب ، وقد أسرعت الآلهة التي تملكها الخوف لتهدئته بالسحر . وعن طريق حفلات وأشكال سحرية تطهر توليبينو من السعار ومن الشر(٧) . وبعد أن عاد إلى روعه ، رجع أخيراً لعند الآلهة ـ وعادت الحياة لتجدد ايقاعاتها . . . . .

إن تيلبينو اله ولكنه بإغتياظه قد أخفى نفسه ، بمعنى انه غاب عن العالم المجاور . إنه لا ينتمي إلى صنف آلهة النبات ، التي تموت وتبعث دورياً ! مع ذلك فإن غيابه كان له ذات النتائج المفجعة على كل المستويات الحياة الكونية . من جهة أخرى فإن الغياب والقيامة تعنى على السواء ، هبوطاً في الجحيم وعودة للأرض (ر . ديونيتروس فقرة ١٢٢ع) غير ان مما يميز (تيليبينو) عن آلهة النبات ، واقعة أن اكتشافه واعادة شفائه عن طريق النحلة يثقل الحالة : فشعائر التطهير هي التي تتوصل لتهدئته .

إن الخط المميز (لتيليبينو) هو سعاره الشيطاني ، الذي هدد بخراب البلاد بأسرها . انه يتعلق بهيجان طائش وغير عقلاني لإله الخصب ضد خليقته الخاصة ، الحياة بكل أشكالها . وان مفاهيم مماثلة من التناقض الوجداني الالهي تصادف في أماكن أخرى ، وستكون جاهزة في الهندوسية بصورة خاصة (شيفا . وكالي) . وفي الواقع ان دور (تيليبينو) قد تحول أيضاً لآلهة العاصفة والشمس وبعض الربات ـ إذن ـ وبشكل واسع ، إلى آلهة تحكم مختلف قطاعات الحياة الكونية ـ وهذا ما يؤكد ان هذه الاسطورة ترجع إلى مأساة أكثر تعقيداً من تلك التي للنبات ؛ انها توضح في الواقع ، السر الغير مفهوم لاتلاف الخليقة من قبل من خلقها .

٤٥ ـ الانتصار على التنين :

بمناسبة عيد السنة الجديدة(بوروللي purulli) كانت تتلى شعائريا اسطورة المعركة بين إله العاصفة والتنين (بوليانكا polianka)[٨] . ففي أول لقاء ، يُغلب اله العاصفة ، فينشد المساعدة من آلهة أخرى ، وتجهز الربة اينارا وليمة وتدعو التنين . ومسبقاً طلبت مؤازرة فانٍ هوباشياhupashia . وقد قبل هذا شريطة أن تنام معه وقبلت الربة . أكل التنين وشرب بشراهة حتى لم يستطع العودة إلى وكره ، فربطه هوباشيا بحبل . وعندها تحرك اله العاصفة ، وقتل التنين بدون معركة . إن هذه الصيغة للاسطورة تكتمل على حادث معروف جداً في حكايات الجنيّات : هوباشيا يأتي ليسكن منزل (اينارا) ولكنه لم يحترم توجيه الربة بأن لاينظر من النافذة أثناء غيابها . فقد رأى زوجته وأولاده وتضرع إلى اينارا لتدعه يذهب إلى بيته . . . وتتمة النص غير معروفة ويظن ان هوباشيا قد قتل . . . . وتقدم الصيغة الثانية هذا الايضاح : إن التنين غلب اله العاصفة وأخذ منه قلبه وعينيه . وعندئذ تزوج الاله ابنة رجل فقير وأولدها ولداً ، وعندما كبر هذا الولد قرر الزواج من ابنة التنين . إن الابن الشاب ، وقد تعلَّم من والده ، ما كاد

يدخل منزل الزوجة حتى طالب بقلب وعيني اله العاصفة فحصل عليها . وبحيازة اله العاصفة لقواه نازل التنين مجدداً (بالقرب من البحر) فنجح في التغلب عليه ، الا أنه ، بزواجه من ابنته ،كان الزوج قد التزم بأن يكون قانونياً مع التنين ، فطلب من أبيه أن يعفو عنه . «عندئذ قتل إله العاصفة التنين وابنه نفسه»[٩] .

إن المعركة بين اله العاصفة وبين التنين تشكل مسألة اسطورة شعائرية معلومة جداً . وان أول خيبة للاله واخصاءه تجد موازيات لها في المعركة بين زوس والجبار تيفون (العاصفة) : فهذا ينجح بأن يقطع له أوتار يديه ورجليه ويرفعه على كتفيه وينقله إلى مغارة في (سيليسيا) . ويخبىء تيفون الأوتار في فروة دب ، ولكن هرمس Hermes وايجيبان Egipan يختلسانها . فيستعيد زوس قوته ويجندل الجبّار[١٠] . ان الباعث لسرقة عضو معروف لحد كبير . ولكن التنين في الصيغة الحثية ليس الوحش المرعب الذي يصادف في عدد من الأساطير النشكونية أو المعارك من أجل السيادة على العالم . (تيامات ـ لوفيانان ، تيفون الخ) . لقد سبق ان مثل بعض الخيوط المميزة للتنانين في القصص الفولكلورية : ايللوانكا Illuyanka ينقصه الذكاء وهو شره لقوم[١١] .

إن اله العاصفة المقهور في أول مرة (مسألة مؤكدة في أمكنة أخرى) ينتهي إلى النصر ، ليس بفضل شجاعته وانما بمساعدة كائن بشري (أو ابنة من كائنة فانية) . صحيح انه في النصين ، يشار إلى ان الشخص البشري متصل بقوة ذات أصل الهي : انه العشيق للربة اينارا ، أو الابن لاله العاصفة . ففي الحالتين ، ومع اختلاف الاسباب ، يحرم المساعد من قبل صانعه ذاته من شبه الوهيته . فهوباشيا بعد ان نام مع اينارا لم بكن له حق بالعودة لاسرته ، بمعنى ، المجتمع البشري . لأنه ، وقد شارك في الشرط الالهي ، يمكنه ان يحوله إلى غيره من البشر .

ورغم هذه (الصبغة الشعبية) Folklorisation الجزئية فإن اسطورة ايللويانكا لعبت دوراً مركزياً : فقد تليت شعائرياً في نطاق عيد السنة الجديدة . وان بعض

النصوص تصور معركة شعائرية بين مجموعتين متقابلتين[١٢] مماثلة لاحتفال بابلي بأكيتو . ان المعنى (الكوني) للاسطورة واضح في صراع مردوك ضد تيامات ، وقد أبدل بالمنافسة من أجل سيادة العالم (زوس ، تيفون) . وان نصر الاله يؤكد ثبات ورفاهية البلاد . ويمكن الاستنتاج ان الاسطورة قبل صبغها بالشعبية كانت تمثل حكم التنين كفترة (عمائية) تضع منابع الحياة ذاتها بخطر (التنين يرمز ايضاً للافتراضية والظلام كما للجدب وتعليق المعايير وإلى الموت)

٤٦ - كوماربي والسيادة :

ومما له فائدة استثنائية ذلك الذي يسمى (نسب الآلهة) الحوري - الحثي . أي تعاقب الحوادث الاسطورية التي لها كبطل قصة (كوماربي) «أب الآلهة» . إن المشهد الأولي - «الملكية السماوية» - تفسر تتابع الآلهة الأول . ففي البدء كان آلالو Alalu ملكاً ، وان آنو Anu ، الاكثر أهمية من بين الآلهة سجد أمامه وقام بخدمته . ولكن آنو هاجمه بعد تسع سنوات وغلبه . عندئذ التجأ (الالو) إلى العالم السفلي ، وأصبح (كوماربي) الخادم للملك الجديد . وفي السنوات التسع الماضية ، هاجم كوماربي بدوره (آنو) وقد بادر هذا إلى الهرب ، بطيرانه نحو السماء ، الاأن كوماربي لحق به ، وأمسك برجليه وطرحه ارضاً بعد ان قضم أعضاءه التناسلية . وبما انه قد ضحك وسر من اكتشافه ، فقد أعلمه آنو بأنه كان **ملقحاً . فبصق كوماربي مابقي في فمه ، ولكن جزءاً من الرجولة تسرب في جسمه وأصبح حاملاً بثلاثة آلهة . . . بقية النص مبتورة بشكل كبير . . . ولكنه يظن بأن أولاد (آنو) مع تيشوب ، اله العاصفة ، اعلنوا الحرب على كوماربي واسقطوه عن عرشه .**

والمشهد الثاني غناء أوللي كومي chant d'ullikumi التي تروي بتفصيل جهود كوماربي من أجل استعادة الملكية المختطفة من قبل تيشوب وبغاية خلق خصم

قادر على قهر تيشوب لقّح من منيه صخرة ، وكان من نتاج هذا القران (ايللوكومي) وهو انساني الشكل من الحجر . وموضوع على كتف العملاق اوبللوري Upelluri الذي ، يغوص نصف جسده في البحر ويسند السماء والأرض (وهذا هو المشابه الحوري لأطلس) ، وأن اولليكومي ينمو بسرعة حتى أدرك السماء . عندئذ توجه تيشوب صوب البحر وجابه الحجر العملاق الا أنه غُلب . . . . إن النص يظهر فراغات كبرى . . . مع ذلك يمكن اعادة تكوين تتالي الاحداث . يهدد ايللوكومي بتدمير البشرية جميعها ، وتجتمع الآلهة مذعورة وتقرر استدعاء ايا Ea ، ويبدأ هذا بلقاء انليل Enlil وبعدئذ اوبللوري ويسألهم عما اذا كانوا قد علموا بأن عملاقاً من صخر قد قرر الفتك بتيشوب . وضاع جواب اينليل . أما بالنسبة لأبيللوري ، فإنه يقدم تفصيلاً ذي نتيجة كبرى . «عندما رفعت السماء والأرض علي ، لم أكن أفقه شيئاً . وعندما فصلت السماء عن الأرض بسكين ، لم أكن أفقه شيئاً أكثر . والآن فإن كتفي الأيمن يؤلمني ، ولكني أجهل من يكون هذا الاله» . عندئذ يطلب آيا Ea إلى الآلهة القدامى ، فتح مخازن الآباء والأجداد القديمة ، وجلب السكين التي كانت قد فصلت السماء عن الأرض بها . ونشرت أرجل (ايللوكومي) وبهذا غدا عاجزاً ، ولكن الصخر يتباهي دوماً بأن الملكية السماوية قد اسندت إليه من قبل والده كوماربي . . . وأخيراً جندله تيشوب أرضاً .

هذه الاسطورة متميزة لعدة اعتبارات ، بدئيا من أجل بعض العناصر القديمة التي تشتمل عليها : عملية تخصيب كوماري بابتلاعه العضو الذكوري للاله الذي جاء لاسقاطه عن عرشه ، والقران الجنسي بين كائن الهي وكتلة صخرية ، كان من نتيجة ذلك تولد غول بشكل انساني معدني ؛ والعلاقات بين هذا الحجر البركاني الجبار والأطلسي الحوري ايبوللوري .

ان المشهد الأول يمكن تفسيره كتورية على ثنائية جنس كوماري ، وهو الخط المميز للآلهة الأولى (ر . على سبيل المثال تيامات ـ ذورفان) . وفي هذه الحالة فإن تيشوب الذي حصل نهائياً على السيادة ، هو ابن الاله السماوي (آنو) من آلهة خنثى[١٥] . أما بالنسبة لاخصاب صخرة من قبل كائن فوق البشر ، فإنه يوجد له

اسطورة مشابهة في فريجيا Phrygia : باباس papas (= زوس) يلقح صخرة تدعى أجدوس Agdos ، وهذه تحمل بغول خنثى هي أجديتيس Agditis . ولكن الآلهة تخصي اجديتي بتحويلها هكذا إلى الربة سيبيل Cybéle .(انظر بوزانياس Pausanias ٧ ، ١٧ : ١٠ - ١٢)

إن الاساطير التي تروي ولادة أشخاص من الحجارة كثيرة جداً ونصادفها من آسيا الوسطى حتى الشرق الأقصى وفي بولينيزيا . انه يتعلق ، على الأرجح ، بنص اسطوري للمواطنيةالأصلية Antochtonie للبشر الأول، الذين تولدوا من قبل ربة كبرى جهنمية chtonienne . وبعض الآلهة (على سبيل المثال ميثرا Mithra) ، هم كذلك قد صوروا بأنهم متحدرون من صخرة تماماً كالشمس الذي يشع ضوءها كل صباح من فوق الجبال . غير انه لايمكن رد هذه النغمة الاسطورية إلى تجلي شمس[١٦] . ويمكن القول بأن الأبوة المولدة le petra genétrix تدعم قداسة الأرض - الأم مع الفضائل الكريمة التي يفترض انها كانت قد بللت الحجارة . وكما رأينا (ف ٣٤ ع) . ان قداسة الصخر لم تكن ممجدة في أي مكان سوى في الديانات (الميغاليتية) . وليس من باب الصدفة اذا كان اولليكومي قد وضع على كتف العملاق الذي يسند السماء ؛ فإن حجر الديوريت يتهيأ ليصبح هو أيضاً عموداً عالميا Columna universalis . مع ذلك فإن هذا الباعث ، الخاص بالديانات الميغاليتية ، قد ادخل في نص كامل أكثر سعة : الصراع من أجل وراثة السيادة الالهية .

٤٧ - النزاعات بين اجيال الآلهة .

منذ الترجمة الأولى للنص الحوري/ الحثي ، لوحظ التشابه مع نسب الآلهة theogonie الفينيقي من جهة ، وكما كان مثل من قبل فيلون الجبيلي Philon de Byblos ومع التقليد المنقول من قبل هزيود Hésiode من جهة أخرى . فحسب فيليون[١٧] إن الاله الأعلى كان ايليون Eliun (هيبسيتوسHypsitos في اليونانية

الأعلى) المماثل في الميتولوجيا الحورية/ الحثية لآلالو Alalu . من قرانه مع بروس Bruth أتى للعالم اورانوس ouranos (المناظر لآنو ، وجي Ge(Gai'a) . وبدورهما أنجب هذان الأخيران أربعة ابناء ، أولهم ، ايل El (أو كرونوس) المناظر لكوماربي وعلى أثر خصومة مع زوجته حاول أورانوس تدمير ذريته ، ولكن (ايل) صنّع منشاراً (أو حربة) وطرد والده وأصبح الحاكم[١٨] . وأخيراً أتى بعل (الممثل للجيل الرابع والمناظر لتيشوب ولزوس) فنال السلطة . بحظ استثنائي أي نالها بدون معركة .

حتى اكتشاف الأدب الأوغاريتي ، كانت صحة هذا التقليد المنقول من قبل فيلون موضع شك . ولكن توارث أجيال الهية قد تأكد في الميتولوجيا الكنعانية (ف ٤٩ ع) . وفي الواقع ان هنريود (ف ٨٣ ع) تكلم عن ثلاثة أجيال فقط ممثلة باورانوس ، كرونوس وزوس ـ فعاود تأكيد النص الذي أورده (فيلون) «سانشونياتون» Sanchoniaton لأن هذا النص يذكر ، قبل اورانوس (= انو) حكم ايلون Elyun (= ألالو) . ومن الراجح ان النص الفينيقي لاسطورة السيادة الالهية مشتق من الاسطورة الحورية أو أنها متأثرة بها بقوة . أما بالنسبة لهزيود فيمكن الافتراض انه استعمل ذات التقليد المعروف في اليونان سواء بتوسط الفينيقيين ، أو سواء مباشرة من الحثيين .

ويقتضي الاشارة إلى الصفة الخاصة ، والتوفيقية معاً لهذه الاسطورة ، وليس فقط في صيغتها الحورية الحثية (حيث يوجد اضافة لذلك عدد من العناصر السومرية الاكادية)[١٩] . ان الاينوما ايليتش تبرز بوضوح :

١ ـ سلسلة من الأجيال الالهية .
٢ ـ المعركة بين الآلهة (الشباب) ضد المسنين
٣ ـ انتصار مردوك الذي تسلم هكذا السيادة

الا انه في الاسطورة الميزو بوتامية ، تكتمل المعركة الظافرة بحدث نشكوني ، وبدقة أكثر بخلق للعالم كما عرفه البشر . ان هذه الاسطورة تحاط في

سلسلة من النشكونيات التي تقتضي معركة بين اله وتنين ، ومتبوعة بتمزيق الخصم المقهور . وفي انساب الآلهة لهزيود فإن الفعل النشكوني ـ فصل السماء (اورانوس) عن الأرض (جيا) باخصاء اورانوس ـ كان له مكانه في بداية المأساة ، وقد اطلق ، في الواقع ، الصراع من أجل السيادة . ذات الحال في الاسطورة الحورية/ الحثية : الحدث الكوني أي فصل السماء عن الأرض ، له محله لزمن طويل سابق ، في عصر الالهة القدامى .

واجمالاً فإن كل الأساطير التي تحكي عن النزاعات بين الأجيال المتعاقبة للآلهة من أجل السيطرة على السيادة العالمية ، تبرر ، من جهة ، الوضع الممجد لآخر إله منتصر ، ومن جهة أخرى تفسر البنية الحاضرة للعالم والشرط الراهن للبشرية .

٤٨ ـ مجمع آلهة كنعاني : اوغاريت .

قبل ٣٠٠٠ سنة ق . م بقليل أطلت على الحياة حضارة جديدة من العصر البرونزي القديم ، وذلك في فلسطين : وهي تميز الاقامة الأولى للساميين . وحسب التوراة يمكن تسميتهم (الكنعانيين) ؛ غير أن هذه التسمية اتفاقية[٢٠] . فقد استقر الغزاة ومارسوا الزراعة وطوروا حضارة مدنية . وخلال قرون عديدة تدخل مهاجرون جدد فيما بينهم في الأقاليم ، وقد تضاعفت المبادلات مع البلدان المجاورة وبصورة خاصة ، مصر . وحوالي ٢٢٠٠ ق . م تخربت حضارة البرونز القديمة من جراء غزو شعب سامي جديد ، العموريون ، المحاربون نصف الرحل ، والزراع بالتناوب ، ولكن الرعاة بصورة خاصة . إن هذه النهاية لحضارة تشكل مع ذلك البداية لعصر جديد . ان غزو سورية وفلسطين من قبل العموريين (مارتو marto في السومرية وأمورو Amuru في الأكادية) ليس سوى مشهد من تحرك أكثر اتساعاً تأكد حوالي ذات العصر في ميزوبوتاميا ومصر . انها غزوات من قبل رُحَّل ، عنيفة و (متوحشة)[٢١] ومتدفقة موجة بعد أخرى ، من

الصحراء السورية ، مفتونة وحانقة في آن واحد بثروة وغنى المدن والأراضي الزراعية . ولكنها بغزوها تتبنى طراز حياة السكان الأصليين ثم تتحضر . وبعد فترة من الزمن فإن اخلافهم سيصبحون ملزمين بالدفاع ضد الغزوات المسلحة لشعوب (بربرية) اخرى متجولة على طرف الأراضي الزراعية . ان العملية ستتكرر في القرون الأخيرة للألفين الثانية ، عندما بدأ الاسرائيليون يتسربون في أرض كنعان .

ان التوتر والتكافل بين ديانات الخصب والزراعة المزدهرة على الشاطىء السوري ـ الفلسطيني ، وان الايديولوجيا الدينية للرعاة الرحل المحكومة بالآلهة السماوية والكواكب ، ستعرف اتساعاً جديداً مع استقرار العبرانيين في أرض كنعان . ويمكن القول ان هذا التوتر المتوصل في العديد من المرات إلى التكافل ، سيرتفع إلى مستوى نموذج مثالي ؛ لأنه هنا ، في فلسطين ، اصطدم نوع جديد من تجربة دينية بتقاليد قديمة ومحترمة للتدين الكوني

•

حتى عام ١٩٢٩ ، كانت المعلومات حول الدين السوري ـ الكنعاني واردة عن طريق العهد القديم ، ومن قبل بعض المؤلفين الاغريق (بصورة خاصة فيلون من بنت جبيل = بيبلوس في القرن الأول والثاني ق . م وبواسطة بعض التسجيلات الفينيقية . وكذلك ايضاً عن طريق لوسيان الساموزي Lucien de Samosaze في القرن الثاني ق . م ونومار البانوبالوس Nommar de Panopalas من القرن الخامس) . ولكن العهد القديم يعكس الجدال ضد الوثنيين ، واما المصادر الأخرى فهي اما مجتزأة جداً واما متأخرة . ومنذ عام ١٩٢٩ اكتشف عدد كبير من النصوص الميتولوجية ، وذلك عن طريق حفريات رأس شمرة ، اوغاريت القديمة والمدينة ـ المرفأ على الشاطىء الشمالي لسورية . انها تتعلق بنصوص محررة في القرون (١٢ ـ ١٤) ق . م وهي تتضمن مفاهيم اسطورية دينية أكثر قدماً . إن الوثائق التي حلت رموزها والتي ترجمت حتى الآن هي غير كافية ايضاً لكي تعطى نظرة مفهومة للدين والميتولوجيا الاوغارتية . ان فراغات سيئة تقطع الروايات ؛ فبدايات ونهايات الأعمدة كانت قد تكسرت ، وحتى انه لم يتفق على

ترتيب المشاهد الميتولوجية . ورغم هذه الحالة المتيسرة ، فإن الأدب الاوغاريتي ذو قيمة كبرى . مع ذلك يجب الأخذ في الحسبان واقع أن الدين الاوغاريتي لم يكن مطلقاً هو دين كل الكنعانيين .

ان فائدة الوثائق الاوغاريتية تتحصل بصورة خاصة من واقع انها تبرز مظاهر مرور من بعض الايديولوجيا الدينية إلى ايديولوجيا أخرى . إيلEl هو رئيس مجمع الآلهة وان اسمه يعني (اله) في السامية ، ولكنه عند الساميين الغربيين اله شخصي . وهو يسمى (القوي) (الثور) «أب الآلهة والبشر»[٢٢] (ملك) (أب السنوات) . انه (مقدس) . (رحيم) حكيم جداً) . وقد مثل على مسلة من القرن الرابع عشر ، جالساً على العرش ، معظماً ، ملتحياً ، مرتدياً ثوباً طويلاً ، مع التاج المحاط بقرون[٢٣] . وحتى الآن لم يوجد أي نص متعلق بالنشكونية[٢٤] . مع ذلك ، فإن خلق النجوم بالزيجات المشتركةpar hiérogammie يمكن تفسيره كعاكس للمفاهيم النشكونية الكنعانية . وفي الواقع ان النص = ٥٢ (ولادة الآلهة الرحيمة والجميلة) تصف (ايل) ملقحاً امرأتيه عشيرةAsherat وعناةAnat . نجمة الصبح ونجمة المساء[٢٥] . عشيرة نفسها حبلت من ايل وهي تسمى ام الآلهة (٥١ =) ، لقد ولدت سبعين ولداً الهيا . وباستثناء بعل ، كل الآلهة تحدرت من القران الأول ، ايل ـ عشيرة .

رغم الصفات التي تظهره كإله قوي ، وسيد حقيقي للأرض ، ورغم واقعة ان اسمه في اللوائح القربانية هو مذكور دائماً في المقدمة ، فإن (ايل) كان يظهر في الأساطير كأحد الضعفاء طبيعياً ، فهو غامض ، هرم منقاد . وبعض الآلهة تعامله باحتقار . وأخيراً فإن زوجتيه عشيرة وعناة قد اختطفتا منه حيث خطفهما بعل . وعليه يجب الاستنتاج ان الصفات التمجيدية تعكس وضعاً سابقاً . عندما كان ايل فعلاً هو سيد مجمع الآلهة . ان ابدال اله قديم خالق ومدير كوني بإله شاب ، أكثر حيوية وتخصصاً في الخصوبة الكونية ، هو ظاهرة شائعة إلى حد كبير . ففي العديد من الحالات غدا الخالق إلها مفارقاً deus otiosus وتباعد تباعاً عن خليقته . واحياناً يكون التبديل نتيجة منازعة بين أجيال الهية أو بين ممثليها . وفي المعيار الذي يمكن فيه اعادة تكوين النصوص الأساسية للميتولوجيا

الاوغاريتية ، يمكن القول بأن النصوص تبرز ترقية بعل إلى الصف الأعلى ولكنها ترقيه خاصة بالقوة والدهاء وانها غير خالية من بعض الغموض .

ان بعل هو الاله الوحيد ، الذي مع احتسابه تماماً بين ابناء ايل (باعتبار ان هذا هو أب كل الآلهة) يدعى (ابن داكان) . وهذا الاله ، الذي يعني اسمه (حبة ، بذرة) كان معبوداً في الألف الثالثة في الأقاليم العليا والوسطى للفرات[٢٦] ومع ذلك فإن (داكان) لم يلعب أي دور في النصوص الميتولوجية الاوغاريتية حيث ان بعل هو بطل الرواية الأول . إن اسمه العام بعل (سيّد) أصبح اسمه الشخصي ، وان له لقب ايضاً (حدو) أي حداد Hadad . وهو يسمى راكب الغيوم (أمير ، سيد الأرض) . وان إحدى صفاته (العليان Alyan ـ القوي ، السيد ، والملك) (الملك القدوس المؤمن المهيمن) . انه مصدر ومبدأ الخصب ، ولكنه محارب ايضاً . كذلك فإن اخته وزوجته عناة هي في آن واحد ربة الحب والحرب . وإلى جانبهما فإن الأشخاص الأكثر أهمية ميتولوجية هم (يام = أمير البحر) ويحكم الأنهر و (موت Mot) ـ (الموت) الذي ينافس الاله الشاب على السلطة العليا . وفي الواقع ، إن جزءاً كبيراً من الميتولوجيا الاوغارتية قد خصص لنزاع ايل وبعل ولمعارك بعل مع يام وموت ليفرض ويدعم سيادته .

٤٩ ـ بعل يزيل سيادة وانتصار التنين :

حسب نص مبتور جداً[٢٧] فإن بعل وشركاءه هاجموا (ايل) مباغتة في قصره على جبل سابان ونجحوا في تقييده وجرحه . وفي الظاهر (ان شيئاً ما) سقط على الأرض الأمر الذي يمكن تفسيره كعملية اخصاء لأب الآلهة . وهذه الفرضية مقبولة ، ليس لأنه في النزاعات المشابهة من أجل السيادة ، اورانوس والاله الحوري/ الحثي قد اخصيا ، ولكن ايضاً ، رغم الكراهية التي اظهرها تجاه بعل ، فإن ايل لم يحاول ابداً اعادة وضعه الأعلى ، حتى عندما يعلم بأن بعل سيقتل من قبل (موت)[٢٨] . ولأنه في الشرق القديم ، كان إخصاء كهذا يجرد

الضحية من السيادة . زد على ذلك وباستثناء النص ٥٦ = حيث يثبت ايل رجولته في احتوائه الآلهة الأجرام السماوية ، فإن الوثائق الأوغاريتية تجعل منه عنيفا ، وهذا يفسر حالته الخضوعية والمترددة ، وايضاً واقعة ان بعل قد خطف زوجته .

باغتصاب بعل عرش ايل على قمة (سابان) أجبره ايضاً لأن يلتجىء على طرف العالم «على مصب الينابيع في حفر المتاهات ، والذي سيصبح محل اقامته منذئذ»[٢٩] . لقد انتحب ايل واستغاث بأعوانه . وكان يام Yam أول من استجاب له واعطاه لكي يشرب شراباً قويا ، فباركه ايل ومنحه اسماً جديداً واعلنه خليفة له . وعهد اليه اضافة إلى ذلك تشييد قصر . ولكنه حرضه ايضاً على طرد بعل عن عرشه .

إن النص الذي يصف المعركة بين يام وبعل قد قطع بفراغات . . . ومع ان يام يبدو الآن ملكاً ، فإن إيل يوجد مع أكثرية الآلهة على جبل ، هو بالتأكيد جبل سابان . وطالما ان بعل كان قد شتم (يام) معلناً انه كان رفعه لمركزه بازدهاء وعجب ، وأنه سيدمره ، فقد أرسل يام رسله وطلب إلى بعل الاستسلام .

لقد كانت الآلهة خائفة خجلى فوبخهم بعل قائلاً ، (ارفعوا رؤوسكم يا آلهة من فوق ركبكم ، وأنا نفسي سأخيف رسل يام[٣٠] . وربما أن أيل اعاد استقبال الرسل وأعلن أن بعل هو عبدهم وأنه سيدفع ضريبة ليام . وكما أن بعل سيبدو على الأرجح مهدداً فإن أيل يضيف بأن الرسل يستطيعون معاملته بدون صعوبة ، مع ذلك وبمساعدة عناة فإن بعل تجهز لمواجهة يام . و «تبعاً للوحة أخرى ، فإن يام طرد بعل عن عرشه وإن عناة هي التي ستغلبه»[٣١] . ولقد حمل آله الحدّاد الالهي المعروف بلقب كوشار ـ واز ـ هينز Koshar- Was- Hains (المستقيم والذكي) دبوسين سحريين ، اللذين لهما خاصية الانطلاق مثل السهام من يد من يستعملها . وأصاب أول دبوس يام في كتفه إلا أنه لم يسقط ، وضربه ثاني دبوس في جبهته، وبذلك انسحق أمير البحر على الأرض ، فأجهز عليه بعل وطلبت الربة ازتات Athztrt منه تقطيعه ونثر جيفته[٣٢] .

إن /يام/ يمثل في آن واحد /كإله/ و/كشيطان/ . انه الابن المدلل من قبل إيل . وباعتباره إلهاً ، فهو يتقبل الاضحيات كبقية أعضاء مجمع الآلهة . من جهة أخرى فهو غول مائي تنين بسبعة رؤوس (أمير البحر) ، المبدأ والتجلي للمياه تحت الأرض . ان معنى المعركة متعدد ، فمن جهة ، وعلى مستوى الصورة الفصولية والزراعية ، فان انتصار بعل يدل على انتصارات المطر ، ضد /البحر/ والمياه الجوفية للأرض ، وان الايقاع المطري الممثل للمعنى الكوني ، يعوض لا نهائية العماء وجدب /البحر/ والفيضانات المدمرة . فبانتصار بعل تنتصر الثقة في النظام وفي استقرار الفصول . ومن جهة أخرى فان المعركة ضد التنين المائي تبرز تأرجح اله شاب باعتباره بطلاً . ومن ثم سيداً جديداً لمجمع الآلهة ، وأخيرا يمكن في هذا المشهد حل رموز انتقام الأول البديء (يام) ، ضد المعتدي الذي أخصى والده /ايل/ وأسقطه عن عرشه[٣٣] .

لمثل هذه المعارك النموذجية ، أي القابلة لأن تتكرر بما لا نهاية له . سيعاود /يام/ الظهور في النصوص . ورغم أنه قد قتل من قبل بعل . وزيادة على ذلك فليس هو الوحيد الذي عليه أن يتمتع /بوجود دوري/ . وكما سنرى فان بعل و/موت/ يتشاطران كينونة متماثلة .

٥٠ ـ قصر بعل.

بهدف الاحتفال بالنصر ضد /التنين/ تولم /عناة/ وليمة على شرف بعل ، وبعدئذ تغلق الربة أبواب القصر ، وبثورة جنونية تتملكها لقتل البشر ، تشرع بقتل الحرس والجنود والشيوخ ، وفي الدم الذي وصل للركب تتوشح بأيدي ورؤوس الضحايا . ان هذا المشهد بالغ الدلالة .[٣٤] وله موازياته في مصر ، وبصورة خاصة في الميثولوجيا والصور الايقونية للربة الهندية دورجا Durga[٣٥] . ان المذبحة وأكل لحم الانسان هي خطوط مميزة لربات الخصب القديمة . من هذه الوجهة النظر ، فان أسطورة عناة يمكن تصنيفها بين العناصر العامة للحضارة

الزراعية القديمة التي كانت تمتد من البحر المتوسط شرق حتى سهل الغانج . وفي مشهد آخـر، تهدد عناة والدها /ايل/ بأن يجلل بالدم شعره وذقنه . وعندما وجدت جسد بعل بدون حياة بدأت بالانتحاب وهي (تلتهم لحمه بدون سكين وتشرب دمه بدون كأس) .(٣٦) . وبسبب سلوك عناة الوحشي والدموي ـ كما هو الأمر بالنسبة لربات أخرى للحب والحرب ـ كانت مزودة بأعوان ذكور وبالتالي كانت معتبرة كخنثى . وان النص بعد فراغ جديد ، يظهر بعل مرسلاً لها رسلاً مع هدايا ، وهو يعلمها ان الحرب كانت كريهة لديه ، فلتلقى /عناة/ السلاح اذن ولتقدم تقدمات من أجل السلام وخصب الحقول . لقد أعلمها بأنه سيخلق الصاعقة والرعد لكي تتعرف الآلهة والبشر عن اقتراب المطر . وتؤكد له عناة أنها ستتبع تعليماته ، ونصائحه .

مع ذلك ورغم كونه ملكاً /فإن بعل/ لم يكن عنده لا قصر ولا معبد ، في حين أن الآلهة الأخرى تملك ذلك . وبعبارة أخرى أنه لا يحوز معبداً كافيا لاعلان سيادته . وتحكي مجموعة من المشاهد قصة إشادة المعبد . وهذه القصص لا تخلو من تناقضات . وفي الواقع ، ومع أنه أزاح ايل عن عرشه ، فان بعل كان بحاجة لاجازة منه ، فأرسل عشيرة لترافع في قضيته . وتمجد /أم الآلهة/ العمل الذي اعتباراً من الآن «سيعطي بعل غزارة في المطر» . فيقبل ايل وبعل يكلف /كوشار واز هازير/ بأن يبنى له القصر . وفي البدء يرفض بعل أن يزود مقره بالنوافذ ، خوفاً من أن يدخل يام منها . ولكنه مع ذلك ينتهي بالموافقة(٣٧)

إن تشييد معبد ـ قصر بعد انتصار الاله ضد التنين ، يعلن عن ترقية للصف الأول . فالآلهة تشيد المعبد ـ القصر على شرف ماردوك بعد فشل /تيامات/ وخلق العالم (ف/ ٢١ع) . ولكن الرمزية التشكونية بارزة في أسطورة بعل ، ان بناء القصر ـ المعبد بصفته صورة كونية im ago mundi يتفق لحد ما مع تشكونيه . وفي الواقع ، انه بانتصاره ضد العماء المائي ، وبتنظيمه لايقاع المطر ، كوّن بعل العالم كما هو الآن(٣٨) .

٥١ ـ بعل يواجه (موت) : موت وعودة للحياة :

عندما اكتمل القصر ، استعد /بعل/ لمواجهة موت = الموت ، وهذا الأخير كان ربا هاماً جداً . وكان ، كما هو هو معلوم ، ابن إيل ويحكم العالم السفلي ، ولكنه يمثل المثل الوحيد المعروف في الشرق الاوسط لتشخيص الموت (والذي هو تأليه أيضا) . فأرسل بعل إليه رسلاً ليعلن بأنه منذ الان هو الملك الوحيد للآلهة والبشر (بغاية أن تتمكن الالهة من السمنة ، وأن يتمكن البشر واحياء الأرض من الشبع) . وقد أمر بعل رسله بالتوجه نحو الجبلين المميزين لأطراف الكون ، ولرفعهما والنزول الى ما تحت الأرض . وجد الرسل (موت) جالساً على عرشه فى الطين، في بقعةمغطاة بالخضرة،ولكنهم تحاشوا الاقتراب منه كثيرا،ولو أنهم فعلوا عكس ذلك فانه كان سيلتهمهم بفمه الكبير جدا . وكما أضاف بعل بقوله لهم ، لا تنسوا أبدا انه هو المسؤول عن الأموات بسبب الحرارة الملتهبة .

وقد رد /موت/ الرسل منذراً بعل بالمجيء لملاقاته ، لأن بعل كما أوضح لهم قتل /يام/ وأن دوره الان أن يسقط في الجحيم ، (٣٩) . وان ما يكفي ليحير بعل ويثير سخطه «تحية /موت/ ابن إيل التي أوصلها اليه عن طريق رسله ـ وقوله انني عبدك وتابعك للأبد» . ويصرح /موت/ مبتهجاً ، ما أن يصل بعل الى الجحيم مرة واحدة حتى يفقد قوته وينهار . فأمره بأن يأخذ معه أبناءه وموكبه من الرياح والغيوم والأمطار ـ وقبل بعل بذلك . . ولكنه قبل أن ينزل الى الجحيم جامع عجلة فحملت بولد . فألبسه بعل ثوبه وأرسله لايل . ويقال أنه في فترة الخطر الجسيم ، استعاد بعل شكله الأول ، كثور كوني ؛ وأنه في ذات الوقت ضمن وجود خليفة له ، في حالة عدم عودته إلى الأرض من غير المعلوم كيف مات بعل ، وما إذا كان قد غلب في المعركة أو أنه ببساطة قد جندل أرضاً ـ لمجرد الحضور المرعب /الموت/ . إن فائدة الأسطورة الاوغاريتية تتحصل من واقعة أن بعل ، الرب الشاب للعاصفة والخصب ، والذي هو في ذلك الوقت رئيس لمجمع الآلهة ، ينزل الى الجحيم ويهلك مثل /تموز/ وبقية آلهة الزراعة . فلا (بعل ـ

حداد) ولا (حداد)Adad المعبود في ميزوبوتاميا ولا الحوري /تيشوب/ قد عرف أحدهم مصيراً مشابهاً. (إلا أنه وبتاريخ متأخر غاب مردوك هو أيضاً، وسنوياً منعزلا في الجبل) . ويظن أن في هذا النزول إلى الجحيم ، إرادة بتكليف بعل بمزايا متعددة ومتكاملة : بطل منتصر ضد /العماء/ المائي ، وانطلاقاً من هنا إله ومدير كوني لا بل /نشكوني/ ؛ اله العاصفة ، والخصب الزراعي «ويذكر بأنه ابن داجان (البذرة)» ولكنه أيضا إله سيد مقرر له أن يمد سيادته على العالم كله و(إذن على الجحيم) .

وفي كل الأحوال ، وبعد هذا المشروع الأخير ، فإن العلاقات بين إيل وبعل قد تغيرت . واضافة لذلك ، فان بنية وإيقاعات العالم حصلت على شكلها الحالي . وعندما يعاود النص بعد فراغ جديد ، فان مبعوثين يحملان الى إيل أنهما وجدا جسمان بعل . فيجلس إيل على الأرض ، وهو يمزق ثيابه ، ويضرب على بطنه ويجرح وجهه، وباختصار، فإنه يعلن الحداد الشعائري كما كان قد مورس في أوغاريت . «أخذ يصرخ ، ان بعل قد مات ! فماذا سيحصل لاعداد البشر الكثيرة ؟ وفجأة يبدو إيل متحرراً من إحساسه ورغبته بالانتقام . انه يسلك مسلك إله مدير للكون وقد تأكد بنفسه أن الحياة العالمية قد وضعت في حالة خطر بموت بعل . ويطلب إيل من زوجته ان تسمي أحد أبنائها ملكاً ، مكان بعل . فتعيِّن عشيرة آذار Athar (الرهيب) ولكنه عندما يصعد على العرش يكتشف انه ليس كبيراً بما فيه الكفاية لاشغاله ويعرف أنه لا يستطيع أن يكون ملكاً .

في هذه الفترة تذهب عناة للبحث عن الجسد ، وعندما تجده ، ترفعه على كتفها وتتجه نحو الشمال ، وبدفنها له تضحي بعدد كبير من القطعان من أجل المأدبة الكبرى الجنائزية. وبعد بعض الوقت تلتقي عناة بموت. فتمسك له و«بحرية (سكين) تقطعه ، وبمذراة تنسفه ، وبالنار تشويه ، وبالمطحنة تطحنه وفي الحقول تنثره ، والطيور تأكله»[٤١] .

إن عناة تنفذ نوعاً من القتل الشعائري ، بمعاملتها لموت كحزمة من الحبوب ، وبصورة عامة ، فان هذا الموت متخصص بالآلهة وأرواح النبات[٤٢] .

ويمكن التساؤل فيما اذا كان هذا بالفعل بسبب هذا القتل من نوع زراعي ، ان موت *سيعود بعدئذ للحياة .

ومهما يكن من أمر ، فان اماتتة (موت) ليست بدون علاقات مع مصير بعل . فإيل يحكم بأن بعل حي وان (السّمن كان يمطر من السماء والعسل يسيل في مجاري ضيقة»و(هذا مايذكربالصور التوراتية-(سفر حزقيال٣٢ : ١٤وأيوب ٢٠ - ١٧) . لقد انفجر من الضحك وأعلن بأنه سيجلس ويرتاح،لأن (بعل، بعل المنتصر هو حي • فأمير الأرض موجود . ولكن وكما أن (يام) يعود للحياة ، فإن /موت/ عاود الظهور بعد سبع سنوات ، ولقد تحسر أيضاً من انتزاع بعل للسيادة منه ، فعاود الخصمان صراعهما ، ولقد تواجها ، وتضاربا بالرؤوس والأرجل كثيران وحشية ، وتعاضا كالأفاعي ، الى أن تدحرجا على الأرض ، وبعل فوق موت ، الا أن شاباش Shapash ، ربة الشمس ، تنصح /موت/ بواسطة /إيل/ بأنه من غير المجدي متابعة الصراع ، ويرضخ موت ويعترف بسيادة بعل . وبعد بضعة مشاهد مفهومة جزئياً فقط ، تعلم عناة بأن بعل سيكون ملكاً للأبد ، مفتتحاً عهدا من السلام ، عندما «سيكون للثور صوت غزال وللحدأة صوت عصفور» .

٥٢ - رؤى دينية كنعانية .

لقد اعتقد بعض الباحثين أنهم عرفوا في هذه الاسطورة انعكاس الموت وإعادة الترميم السنوي للنبات . الا أن الصيـف في سورية وفلسطين لا يحمل /الموت/ للحياة النباتية ، وانما على العكس ، هو فصل الفواكه . فليست الحرارة المحترقة هي التي تخيف المزارع، ولكن الجفاف المتمادي. فيبدو اذن أكثر معقولية ان انتصار /موت/ ينعكس على دورة سبع سنوات من الجفاف ، التي يوجد لها أصداء في العهد القديم (تكوين ٤١ - ١١ صموئيل ٢٤ - ١٢)(٤٤) . ولكن الفائدة من الاسطورة تتجاوز علاقاتها الظرفية مع ارتفاع النبات . وفي

الواقع ان هذه الحوادث المثيرة للعواطف والاستعراضية أحيانا ، تكشف لنا طريقة خاصة من الوجود الإلهي ، وبصورة خاصة طريقة الوجود التي تستوجب خيبة و/موتا/ وفراقاً بجنازة /بعل/ او بتقطيع /موت/ متبوعاً بإعادة الترميم الدوري قل أو كثر . إن هذا النموذج من الوجود الذي هو في آن واحد متقطع ودوري ، يذكر بنموذجية الآلهة الحاكمة لدورة النبات . انه يتعلق مع ذلك ، بخليقة دينية جديدة ترمي لتنمية المظاهر السلبية للحياة في نموذج موحد للايقاعات المضادة .

وفي آخر المطاف ، فإن معارك بعل ، بهزائمه وانتصاراته ، تضمن له السيادة في السماء وعلى الأرض ، ولكن (يام) يستمر بالحكم على /البحر/ و/موت/ يبقى سيدا أعلى للعالم التحت أرضي للموتى . ان الأساطير توضح أولوية بعل ، ومن هنا الخلود والمعايير التي تدير الكون (كوزموس) والمجتمع البشري . بهذا الواقع ذاته فان (المظاهر السلبية) الممثلة /بيام/ و/موت/ تجد دليلها . ان الواقعة بأن /موت/ هو ابن /إيل/ وعلى الأخص أن بعل لم ينجح بإبادته ، تعلن طبيعية الموت ، وتظهر في التحليل الأخير وكانها الشرط اللازم Sineqn non للحياة(٤٥) .

ومن الراجح أن الاسطورة التي تروي المعركة بين بعل ويام كانت تتلى أثناء العام الجديد ، ونزاع بعل ـ موت بمناسبة المحاصيل ، ولكن أي نص معلوم حتى الآن لم يذكر هذه الوقائع . وبذات الأمر يمكن إدراك أن الملك ، الذي يعلم أنه كان يلعب دوراً هاما في العبادة ، كان يمثل بعل في هذه السيناريوهات الاسطورية الشعائرية ، ولكن الدليل هو أيضاً موضع خلاف. ان الأضحيات كانت تعتبر كأطعمة مقدمة للآلهة . وأن النموذج للتضحية يبدو مشابهاً لما هو في العهد القديم : انه كان يستوجب المذبحة ، والتضحية أو التقدمة لسلام أو لتناول القربان والتضحية التكفيرية .

وقد كان للكهنة ذات الاسم في العبرية (Kohn = كوهن) ، والى جانب الكهنة كان يوجد الكاهنات (Khant) والقديسون qadecim من الأشخاص

المكرسين . «في التوراة يدل هذا المصطلح على العهر المقدس ، ولكن النصوص الأوغاريتية لا تدل على شيء مشابه» وأخيرا يشار إلى الكهنة المتنبئين أو الأنبياء والعرافين . وأن المعابد كانت مزودة بمذابح ومزينة بصور الآلهة والرموز الدينية . وخارج الأضحيات التي ستحرض فيها بعد الأنبياء على الغضب . ولكنه لا يجب أن ننسى أن الفراغات الوثائقية تسمح لنا فقط بتقدير تقريبي للحياة الدينية الكنعانية . اننا لانحوز أية صلاة ، ومعلوم ان الحياة عطاء إلهي ولكننا نجهل أسطورة خلق الانسان .

إن رؤية مماثلة لم تكن حصراً كنعانية . ولكن أهميتها ودلالتها قد ارتفع شأنها بالعمل الذي جابه الاسرائيليين بدخولهم في أرض كنعان ، ومع هذا النموذج من القداسة الكونية ، مثيراً نشاطاً معقداً ، وبالرغم من الافراطات التهتكية الغير مجردة من العظمة . وبما أن العقيدة في قدسية الحياة كانت مشتركة مع الاسرائيليين ، فإن هنالك مسألة طرحت نفسها منذ البدء : كيف يحافظ على عقيدة مماثلة بدون اكتمالها بالفكر الديني الكنعاني ؟ إن هذا الفكر الاديولوجي أدخل، كما سنرى، لاهوتا مميزاًمركزاً على نموذجيةمتقطعة ودائرة للاله الاساسي (بعل) رمز الحياة بكاملها . وعليه فإن يهوه لم يشاطر بهذه الطريقة في التكون . (وايل كذلك ، ولكن إيل تحمل تحولات أخرى مشينة) . وإضافة لذلك ، ورغم أن عبادته استوجبت بعض الأضاحي ، فإن يهوه لم يدع نفسه يُعارض بالتصرفات الشعائرية ، لقد طلب التحول الداخلي للمؤمن عبر الطاعة والايمان(ف ١١٤ع) .

وكما سنرى (ف ٦٠ع) فإن الكثير من العناصر الدينية الكنعانية قد تمثلها الاسرائيليون «ولكن هذه الاستعارات نفسها كانت مظهراً للنزاع : فبعل قد حورب بسلاحه الخاص . واذا اعتبرنا أن كل الجماعات الغريبة ، حتى الغير سامية مثل الحوريين وبعدئذ الفلسطينيين lesphilistins قد نسوا جميعهم دينهم الخاص ، بعد فترة قصيرة من وصولهم الى كنعان ، فسيحكم انه فوق العادة انسانيا كون هذا الصراع بين يهوه وبعل قد تمدد لزمن طويل ، وأنه رغم التسويات وعبر الكثير من انعدام الوفاء ، انتهت بانتصار اليهودية .(٤٦)

حواشي الفصل السادس

١ ـ Manrice vierir (ديانات أناطوليا القديمة) ص ٢٥٧ .

٢ ـ في صلاة جميلة ، تتقمص الملكة الربة ـ (Anet ص ٣٩) وذلك على الأغلب الشهادة الوحيدة بهذا المعنى، في الشعائر ولائحة التقدمات وأسماء الرتبين مذكورة إحداها بعد الأخرى . وهذا ما يمكن أن يفسر الأهمية المتحصلة ، في ظل الملوك الحثيين ، بواسطة التعميدين الشهيرين للربة الأم .

٣ ـ شعيرة لأجل ترميم قصر جديد ترجمة غوتر Anot ص ٧٣٥ .

٤ ـ غورني . . المملكة الحثية ص ١١٥ .

٥ ـ لقد أضفنا الهلالين للدلالة على أثر يتعلق بعدد من الحالات بأساطير حثية أو حورية مترجمة ومتبناة في اللغة الحثية .

٦ ـ نستعمل ترجمة غروتر وغيرها مما ذكر الصفحة ١٥٦ .

٧ ـ شعائر مماثلة من التهدئة تمت بواسطة الكاهن .

٨ ـ illuy amnka موت ـ حية ، وأيضا اسم علم .

٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ترجمة غوتز ـ ص ١٠أبولو وزوس .

١٢ ـ نصوص مترجمة من قبل /كاستر/ .

١٣ ـ المقصود ترجمات حثية ونصوص حورية منجزة حوالي ١٣٠٠ ق .م ونسب الآلهة الحوري يعكس التوفيقية مع التقاليد السومرية في الشمال السوري القديم .

١٤ ـ التراجمة الأول اقترحوا (الركب ، genous) . والعبارتان هي تورية بالنسبة للعضو الجنسي المذكر .

١٥ ـ تبعاً لبعض المقاطع الميتولوجية ، يبدو أن الآلهة التي كانت توجد في الداخل من كوماربي ، قد تناقشوا معه لمعرفة من أية فتحة من جسمه يجب أن يخرجوا . (Gutermook ص ١٥٧ ـ ٥٨) .

١٦ ـ في الواقع أن أول معركة لميترا وهي ما تكاد تخرج من الصخرة كانت مع الشمس : ومنتصرة رفعت لها تاجها المشع ولكن بعد وقت قصير ، فان الالهين كرسا صداقتهما بالشد على أيدي بعضهما البعض .

١٧ ـ بعض المقاطع من تاريخ الفينقيين قد حفظت من قبل Fuseleino وفيلون يؤكد أنه يلخص كتابات المثقف الفينيقي الذي عاش قبل حرب طروادة .

١٨ ـ ليس سوى بعد ٣٢ سنة حيث نجح ايل في امضاء اورانوس . والعملان اخفاء أب والاستيلاء على السلطة المتضامنة في الاساطير الحورية/ الحثية والاغريقية .

لا!ظ ـ أسماء الآلهة أنو عشتار وربما الالو . وان الها الا لا يمثل في قائمة كواحد من أجداد اتو ـ غوتربروك ص ١٦٠ .

٢٠ ـ كنعان لم يشر اليها في النصوص قبل وسط الألف الثانية ـ التاريخ القديم لاسرائيل R. devanx . وانهم لم يعرفوا القمح ولا المساكن . . نص اشار اليه R. de Vanx .

٢٢ ـ العنوان ab ـ أب هو نعت شائع جداً كذلك ab admo أب الانسانية .

٢٣ ـ شيشعر ـ نصوص رأس شمرة .

٢٤ ـ في الكتابات السامية الغربية إل يدعى أيضا (خالق الأرض) .

٢٥ ـ هذه الاسطورة نموذج شعيرة مصاغة في بداية دورة جديدة من سبع سنوات ، الأمر الذي يثبت أنه في تاريخ قديم ، كان إل أيضا معتبراً . كخالق الخصب الأرضي ، تقديراً عيد بعدئذ لبعل انظر /كوردون/ الميثولوجيا الكنعانية . ص ١٨٥٠ الخ .

٢٦ ـ في ذات الأقاليم تأكد أيضاً اسم /عناة/ . ومن الممكن أن بعل ابن داكان قد أدخل من قبل العموريين ، انظر اولونبرغ ص ١٥١ ، في هذه الحالة سيكون لصيقاً لبعل ـ حداد محلي ، لأنه لا يمكن فهم الدين القديم الكنعاني بدون هذا الاله السامي الشهير للعاصفة ، والمنطلق من الخصب . انظر أيضاً (كردس) الاسطورة الكنعانية واليهود .

٢٧ ـ يتعلق باللوحة ٧١ ـ AB المعلنة لأول مرة من قبل شيفر وترجمة اولدنبرغ ص ١٨٥ ـ ١٨٩ وقد شرح النص من قبل كاسينو كمقر لها لمهاجمة بعل وسقوط إيل عن عرشه .

٢٨ ـ يخاطب عشيرة (أعطني واحداً من أبنائك لكي أجعل منه ملكاً) .

٢٩ ـ باعتبار أن الجبل هو رمز سماوي وان إضاعته تعادل بالنسبة للاله السيد السقوط .

٣٠ ـ درايفر ـ للأديان الكنعانية .

٣١ ـ (ألم اسحق يام حبيب ايل المفضل ؟ ألم أفني الاله الكبير ، ألم اكمم تانان = التنين ؟ لقد

كممته لقد دمرت الأفعى المعلقة القوية برؤوسها السبعة ، ترجمة اولدنبرغ ص ١٩٨ . . هذا النص يشير بتورية الى أول انتصار ليام ضد بعل المتبوع بسقوطه (في هذه الحالة بفضل عناة) وهذا ما يماثل نصاً ميثولوجياً معروفاً جدا : خيبة وأسر انتصاري لاله ضد وحش مائي .

٣٣ ـ عن هذا القصد انظر اولدنبرغ ص ٣٨٩ .

٣٤ ـ الدم باعتباره أصل الحياة ، طرح رؤية شعيرة في هذه المذبحة كهدف للمرور من جدب الصيف السوري المتأخر الى خصب الفصل الجديد .

٣٥ ـ كما نقلته الاسطورة المصرية ، فانها لا تمثل مرحلة بدائية انظر فقرة ٢٦ ع ان التقريب مع دورغا الذي أكد عليه maruir ـ سبق أن جصل للهيكل والتردوستال ص ٧٤ .

٣٦ ـ نص دوّن من قبل Viallenal (مشهد جديد لاسطورية اوغارتية) بعلص ١٨٢ .

٣٧ ـ ان النوافذ يمكن أن ترمز للفتحة في الغيوم التي من خلالها يرسل بعل الأمطار . كان معبده في أوغاريت مزود بكوة ـ نافذة ـ بحيث أن المطر كان يسقط على وجه الاله ممثلا في مسلة (شيفر) . ولكن رمزية ووظيفة النوافذ هي أكثر تعْقيدا .

٣٨ ـ R. Fisher يتكلم عن إبداع (نموذجي بعلي) المميز عن حلق نموذج ايل . ابداع اوغاريت ص ٣٢٠ .

٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ Dhine ص ١٢١ ـ ٢٥ ـ ١١١ .

٤٢ ـ افترض بعضهم أن /موت/ روح المحصول ولكن آثاره الجنائزية واضحة : انه يسكن العالم الأرضي والصحراء .

٤٣/٤٤ ـ Driver الميثولوجيا الكنعانية .

٤٥ ـ لا نجد سوى في الميثولوجيا البوذية الها كبيراً آخر للموت mara الذي يدين بقوته اللامحدودة فعلا للحب الأعمى للحياة من جهة البشر، ولكنه بكل وضوح ، في المنظور الهندي قبل الأوبانيشاد فان دورة الحياة الحتمية موت ورجوع للحياة تشكل العقبة الكبرى في طريق التحرر . انظر ما سيلي في هذا الكتاب .

٤٦ ـ R. ov vani ـ التاريخ القديم لاسرائيل ص ١٤٧ ـ ٧٤٨

الفصل السابع

«عندما كان اسرائيل طفلاً» . .

٥٣ ـ الفصلين الأولين من التكوين :

ديانة اسرائيل هي ديانة الكتاب بامتياز . فتلك المدونة المختصة بالكتاب المقدس هي مشكلة من نصوص العصر والتوجهات المختلفة الممثلة بالتأكيد ، لتقاليد شفهية قديمة جدا ، ولكنها معاد تفسيرها ، ومصححة ومسجلة خلال عدة قرون وفي أوساط مختلفة[1] . إن المؤلفين المحدثون يبدأون تاريخ ديانة اسرائيل بإبراهيم . وعليه ، وتبعاً للتقاليد فإنه هو الذي اختير من قبل الرب ليصبح جد الشعب الاسرائيلي وليأخذ ملك كنعان . غير أن الاحدى عشر فصلاً من التكوين تروي الأحداث الخرافية التي سبقت اختيار ابراهيم منذ الخليقة حتى الطوفان وبرج بابل . ان تحرير هذه الفصول ، كما هو معلوم ، أكثر حداثة من كثير من

نصوص الأسفار الخمسة الأخرى pentateuque . ومن جهة أخرى ، فإن بعض الكتاب ، وممن هم أكثرهم اعتباراً ، أكدوا بأن النشكونية cosmo gonie وأساطير الأصل(خلق الانسان أصل الموت الخ . .) قد لعب دورا ثانوياً في الوعي الديني لاسرائيل . واجمالاً ، فإن العبرانيين قد اهتموا بالأولى «بالتاريخ المقدس» ، أي بعلاقتهم مع إله أكثر من اهتمامهم بتاريخ الأصول الراوي للأحداث الأسطورية والخرافية البدئية .

ويمكن لهذا أن يكون صحيحاً من بداية بعض العصور ، وعلى الأخص بالنسبة لبعض النخبة الدينية . إلا أنه لا يوجد حجة للاستنتاج بأن أجداد الاسرائيليين كانوا غير مبالين بالمسائل التي استهوت كل المجتمعات القديمة ، وبخاصة النشكونية ، وخلق الانسان أو أصل الموت وبعض المشاهد الأخرى العظيمة . ولأيامنا أيضا ، بعد ٢٥٠٠ سنة من /الاصلاحات/ ، فان الأحداث المقررة في الفصول الأولى من التكوين تستمر في تغذية الخيال والفكر الديني لورثة ابراهيم . واتباعاً للتقليد السالف نبدأ الموضوع مع الفصول الأولى من التكوين . إن التاريخ المتأخر لتدوينها لا يشكل مطلقاً أية صعوبة ، لأن المحتوى قديم ؛ وهو في الواقع يعكس المفاهيم الأكثر قدماً من قصة ابراهيم .

إن سفر التكوين يفتتح بهذا المدخل الشهير :«في البدء ، خلق الرب Elohim السماء والأرض . وكانت الأرض خالية وخاوية ، والظلمات تغطي الغمر L abime وروح الله ترفرف planait على المياه» [١ - ١ : ١ - ٢] .

إن الصورة للمحيط الأولي الذي يرفرف فوقه إله خالق ، هي صورة قديمة جداً[٢] . مع ذلك فإن فكرة الاله الطائر فوق الهوة المائية (الغمر) لم تتأكد في النشكونيات الميزوبوتامية ، مع أن الأسطورة المروية في /الاينوما ايليتش/ كانت على الأغلب مألوفة لدى كاتب النص التوراتي : «في الواقع ، أن المحيط الأولي يشار اليه بالعبريةteha^m، وهو تعبير متوافق اشتقاقاً مع البابلي (تيامات) . * وان الخلق بمعنى الكلمة ، يعني تنظيم العماء (töhu wâ bôhîn) قد حصل بقدرة كلمة

* - التهمة الأرض المتصوبة إلى البحر وكأنها مصدر من تهامة (لسان العرب)

الأله . لقد قال : ليكن نور ، وكان النور (١ + ٣) والمراحل المتتابعة من الخلق تمت دائماً بكلمة إلهية . فا(لعماء) المائي ليس مشخصاً (ر . تيامات) ، وبالنتيجة ، إنه لم /يُغلب/ في معركة نشكونية . هذه القصة التوراتية تمثل بنياناً متميزاً : ١ - خلق عن طريق الكلمة[٣] ٢ - لعالم طيب ٣ - لحياة/ حيوانية ونباتية/ جيدة وقد باركها الرب . وأخيراً توج العمل الكوني بخلق الانسان . وفي سادس وآخر يوم قال الرب : (لنصنع الانسان على صورتنا ، كمثالنا ، وليتسلط على أسماك البحر وطيور السماء والقطعان الخ . . (١ - ٢٦) . وبدون أي عمل باهر استعراضي (من نموذج مردوك - تيامات)[٤] . وبدون أي عنصر تشاؤمي في النشكونية أو البشرية (العالم المشكل بدءاً من كائن أولي /شيطاني/ - تيامات - ، الانسان مقولب من دم سيد - شيطان كينجو Kingu(. ان العالم هو «طيب» والانسان هو صورة للاله imago dei ، انه يقطن ، كخالقه ومثاله ، في الجنة . مع ذلك ، وكما أن سفر التكوين لا يتأخر بالاشارة اليه ، فان الحياة صعبة ، رغم كونها مباركة من قبل الرب ، وان البشر لن يسكنوا الجنة بعد . الا أن كل هذا كان النتيجة لسلسلة من أخطاء وذنوب الأجداد . إنهم هم الذين حوروا شرط الانسان . وان الاله لا يتحمل أية مسؤولية في هذا الافساد لأول وخير صنيعة له وكما هو الأمر بالنسبة للفكر الهندي الماقبل الاوبانيشاد فإن الانسان وبعبارة أدق ، الجنس البشري ، هو نتيجة أفعاله الخاصة . والقصة اليهيوية الأخرى (٢ : ٥) هي أكثر قدماً وتختلف بوضوح عن نص كهنوتي نلخصه باختصار . فلا يوجد هنالك مسألة في خلق السماء والأرض ، وانما عن صحراء حولها الرب /يهوه/ لأرض خصبة بمياه ارتفعت من الثرى . ولقد قولب يهوه الانسان (âdâm) من الصلصال واحياه بالنفخ . (نسمة الحياة في أنفه) ثم ان يهوه «غرس حديقة في عدن» وأنبتها كل أنواع الأشجار الممتازة (٢ : ٨) وأقام الانسان في الحديقة (لكي يزرعها ويحرسها) (٢ - ١٥) . وبعدئذ عجَن يهوه الحيوانات والطيور ، دائماً من الأرض ، وقادها الى آدم الذي أعطاها اسماء[٥] . أخيراً ، وبعد أن ألقى عليه النوم ، أخذ يهوه أحد أضلاعه وصنع امرأة تلقت اسم (حواء بالعبرية Hawah كلمة مرتبطة اشتقاقاً بعبارة تعنى الحياة .

وقد لاحظ شراح الكتاب المقدس أن القصة اليهيوية ، ببساطة أكثر تقاوم ليس (العماء) المائي لعالم (الأشكال) ، وانما الصحراء والجفاف للحياة وللنبات ، ويبدو من المعقول اذن ، ان هذه الاسطورة حول الأصل قد تولدت في اقليم صحراوي . أما بالنسبة لخلق الرجل الأول من الغضار ، فإن الفكرة كانت معلومة وقد رأينا هذا في سومر [ف ١٧ع] . وثمة أساطير مشابهة قد تأكدت تقريباً في أمكنة عديدة من العالم ، بدءاً من مصر القديمة واليونان حتى الشعوب /البدائية/ . فالفكرة الاساسية تبدو نفسها : الانسان تشكل من مادة أولية (أرض ، خشب ، عظم) وانه أعطي الحياة بنفَس الخالق . وفي العديد من الحالات ، ان شكله هو ذات شكل خالقه . وبقول آخر ، كما سبق ولاحظنا في معرض أسطورة سومرية ، إن الانسان /بشكله/ و/بحياته/ يشاطر بنوع ما شرط الخالق . ولا ينتمي الى المادة سوى جسده . وان خلق المرأة من ضلع استل من آدم يمكن تفسيره كدليل على خنثوية الرجل الأول .

إن المفاهيم المماثلة تأكد في تقاليد أخرى ، بما في ذلك تلك التقاليد المنقولة من قبل بعض الميدراشيم midrashim . وان أسطورة الخنثى تبرز معتقداً منتشراً جداً : كمال البشرية المتماهية في الجد الأسطوري تستوجب وحدة وهي في ذات الوقت جماعية . وسنعالج أهمية الخنثى في معرض مناقشتنا لبعض النظرات الغنوصية والهرمسية . ولنؤكد بدقة أن الخنثى البشرية لها كمثال الثنائية الجنسية الالهية ، وهو مفهوم تتقاسمه ثقافات عديدة .[٧] .

٥٢ ـ الفردوس المفقود ـ قايين وهابيل:

إن جنة عدن ، مع نهرها الذي كان ينشطر الى أربعة فروع ، وكان يحمل الحياة الى أقاليم الأرض الأربعة ، مع أشجارها التي كان على آدم حراستها واستثمارها ، تذكر بالصورة الميزوبوتامية . ومن الراجح في هذه الحالة أيضا ، ان القصة التوراتية تستعمل نوعاً من التقليد البابلي . غير أن أسطورة الجنة

الأصلية ، المسكونة كانتا معروفتين في ما وراء الفرات والبحر المتوسط . وككل /الجنائن/ توجد جنة عدن[٩] في مركز الدنيا ، هنالك حيث يبرز النهر ذو الأربعة أذرع . وفي وسط الحديقة كانت ترتفع شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر (٢ : ٩) . ووجه (يهوه) هذا الأمر الى الانسان : «تستطيع أن تأكل من كل أشجار الجنة . ولكن من شجرة معرفة الخير والشر ، لن تأكل أبدا لأن اليوم الذي ستأكل فيه منها ستموت فيه حتماً» (٢ : ١٦ ـ ١٧) وقد انطلقت فكرة من هذا المنع كانت غير معروفة : القيمة الوجودية للمعرفة ، وبعبارات أخرى ، إن العلم يستطيع التغيير الجذري لبنية الوجود البشري .

مع ذلك ، فقد نجحت الحية في إغراء حواء «فقالت الحية للمرأة لن تموتا ، انما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر» (٣ : ٤ ـ ٥) . وهذا المشهد الغامض ، أفسح المجال لتفسيرات لا حصر لها ، وان خلفيته تذكر برمز أسطوري معروف جدا : الربة العارية ، والشجرة العجيبة وحارسها ، الأفعى . الا أنه من جهة أخرى ، أو بديلا عن بطل ينتصر وينتزع رمز الحياة (ثمرة سحرية ، نبع الشباب ، كنز الخ . .) فإن القصة التوراتية تمثل آدم ، ضحية ساذجة لخديعة أفعى . وإجمالا هنالك صلة بتخليد مفقود ، كمشكلة جلقامش (ف : ٢٣ ع) . لأنه ، ما أن يصبح كلي المعرفة مساويا (للآلهة) حتى يتمكن آدم من اكتشاف شجرة الحياة «التي لم يحدثه يهوه عنها» ويصبح خالداً . ان النص واضح وصريح «وقال الرب الاله هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا الى الدهر» (٣ : ٢٢) «فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها» (٣ : ٢٤) وهكذا قضى عليه بأن يعمل ليعيش .

ولكي نعود للسيناريو المثار حالاً ـ الربة العارية والشجرة العجيبة المحروسة من قبل تنين ـ فان الحية في التكوين قد نجحت جدا في نهاية المطاف ، في دورها كحارس وكرمز للحياة أو الفتوة . ولكن هذه الاسطورة القديمة قد حورت جذريا من قبل كاتب القصص التوراتية . فالسقوط المساري لآدم قد أعيد تفسيره

كعقاب برر على نطاق واسع : معصية خذلت طموحه الشيطاني برغبة التشبه بإله . وقد كان هذا هو أكبر ذنب يمكن لمخلوق أن يرتكبه ضد خالقه . لقد كانت تلك هي (الخطيئة الأصلية) وهي فكرة ضخمة بالنتائج بالنسبة للاهوت العبري واللاهوت المسيحي .

إن رؤية كهذه الرؤية عن السقوط لا يمكن لها أن تفرض نفسها الا في دين مركز على القدرة الكلية وعلى غيرة الرب . وكما نقلت إلينا ، فان القصة التوراتية تدل على السلطة المتنامية للتوحيد اليهيوي(٩) .

وحسب محرري الفصول ٤ ـ ٧ من التكوين ، فان هذه الخطيئة الأولى لم تؤد الى فقدان الجنة وتبدل الشرط البشري فحسب ، وانما غدت بنوع ما المنبع لكل الآلام التي تكبل البشرية . فقد ولدت حواء قايين الذي كان /يزرع الأرض/ وقابيل /راعي القطيع الصغير/ . وعندما قدم الأخوان أضحية الشكر ـ قايين من منتجات الأرض ، وقابيل المواليد الأولى من قطيعه ـ قبل يهوه تقدمة هذا الأخير ولم يقبل تقدمة قايين . وبثورة من غضب (انقض قايين على أخيه وقتله) (٤ : ٨) . عندئذ نطق يهوه «والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك . وإذا حرثت الأرض فلا تعطيك قوتها أيضا . تائهاً شارداً تكون في الأرض» (٤ : ١١ ـ ١٢) .

ويمكن في هذا المشهد قراءة التعارض بين مزارعين ورعاة وضمنا لتمجيد لهؤلاء الأخيرين ، مع ذلك إذا كان اسم قابيل يعني (راع) فإن قايين يعني (حداد) . وإن نزاعهما يعكس الحالة المتناقضة للحداد في بعض المجتمعات الرعوية ، حيث كان ، إما مزدرى به ، وإما محترماً ، ولكنه مرهوب الجانب دوماً(١٠) . وكما رأينا (فـ ١٥ع) ، فإن الحداد كان معتبراً /كسيِّد للنار/ ويمتلك سلطات سحرية هائلة . وفي كل الأحوال ، إن التقليد المحفوظ في القصة التوراتية يعكس تصور الوجود (البسيط والطاهر) للرعاة ـ الرحل والمقاومة ضد حياة الاستقرار للمزارعين وسكان المدن . إن قايين (أصبح بان لمدينة) ـ «وعرف قايين امرأته فحملت وولدت أخنوخ . ثم بنى قرية فسماها باسم ابنه أخنوخ»[٤ـ ١٧] وأن واحداً من

أخلافه هو (توبل ـ قاين) «الأول صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية» [٤ ـ ٢٢] . فأول قتل إنسان تم إذن من قبل من يجسد بنوع ما رمز التكنولوجيا والحضارة المدينية . وضمنياً فإن كل التقنيات متهمة (بالسحر) .

٥٥ ـ قبل وبعد الطوفان :

سيكون من غير المفيد تلخيص حبل النسب من قايين وشيت الولد الثالث لآدم . وباتباع التقليد المثبت في ميزوبوتاميا ومصر والهند ، والذي بحسبه يصل الأجداد الأول لسن اسطوري ، فإن آدم سيلد (شيت) في سن (١٣٠) سنة ويموت عن عمر مقداره (٨٠٠) سنة بعدئذ (٥ : ٣ ع) . كل أخلاف شيت وقايين تمتعوا بوجود من ٨٠٠ ـ ٩٠٠ سنة . وثمة مشهد مثير يميز هذا العصر الماقبل الطوفان : قران بعض الكائنات السماوية (ابن الرب) مع بنات من البشر اللواتي انجبن لهم أبناء «أبطال العصر السابق » ـ «ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات ، رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فأتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . فقال الرب لاتحل روحي على الانسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة» (٦ : ٤) وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولائك الجبابرة المذكورون منذ الدهر (٦ ـ ٥) . إنه يتعلق على الراجح جداً ، بملائكة مخلوعين (angesdechus)

إن تاريخهم سيروي بشكل موسع في كتاب متأخر (اينوش ٦ ـ ١١) الأمر الذي لايعني بالضرورة سوى أن الاسطورة كانت معروفة سابقاً . وفي الواقع ، توجد معتقدات مماثلة في اليونان القديمة والهند : أن عصر (الأبطال) ، أشخاص أنصاف ـ آلهة semi - divins انقضى نشاطهم فعلاً قبل بداية العصور الراهنة «في فجر التاريخ» . أي في الفترة التي كانت فيها المؤسسات المتميزة بكل ثقافة على أهبة الانشاء . ومن أجل العودة للقصة التوراتية ، فإنه على أثر هذه القرانات بين

الملائكة الهابطة وبنات البشر الفانين ، قرر الاله تحديد عمر الإنسان حتى ١٢٠ سنة . ومهما كان الأصل لهذه القصص الاسطورية «قايين وقابيل ، الأباطرة لما قبل الطوفان ، نزول أبناء الآلهة ، ولادة الأبطال» . فإن مما له دلالته ، أن المؤلفين أثبتوها في النص الأخير من التكوين ، وذلك رغم بعض الخيوط الانسانية الشكل التي أرهقت يهوه

إن الحدث الأكثر اعتباراً لهذا العصر كان الطوفان . «ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض وإن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام ، فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الأرض ، الانسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم . أما نوح فنال حظوة في عيني الرب . . وهؤلاء مواليد نوح . كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله» (٦ : ٥ ـ ١٠) وأولاد نوح مع زوجاتهم كانوا (سام ، وحام ، ويافث ، هم وحدهم انقذوا لأن نوح كما ذكر النص كان طيباً مع الله ، وبإتباع تعليمات يهوه الدقيقة صنع نوح الفلك L'arche وملأه بنماذج ممثلة لكل أنواع الحيوانات «وفي السنة ستمائة من حياة نوح ، الشهر الثاني ، اليوم السابع عشر من الشهر ، هذا اليوم سالت كافة الينابيع من الغمر الكبير du grand abime وسدود السماء فتحت . . . المطر سقط على الأرض خلال أربعين يوماً وأربعين ليلة (٧ : ١١ ـ ١٢) وعندما انسحبت المياه توقف الفلك على قمة جبل أرارات فخرج نوح وتقدم بأضحية «فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لاأعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الانسان بما أن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ولاأعود أهلك كل حي كما صنعت (٨ ـ ٢١) وأقام عهداً مع نوح وذريته ، وعلامة هذا العهد كان قوس قزح : «أنتم فانموا وأكثروا وتوالدوا في الأرض ، وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً ، هاأنا مقيم عهدي معكم ومع نسلكم من بعدكم ، ومع كل ذي نفس حية . . » وقال الله هذه علامة العهد الذي أنا جاعله بيني وبينكم . . تلك قوس جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض» . (٩ : ـ ٩ ـ ١٣)

إن القصة التوراتية تظهر العديد من العناصر المشتركة مع الطوفان المروي في ملحمة جلقامش . ومن الممكن أن يكون الكاتب قدعرف النص الميزبوتامي ، أو أن مايبدو أيضاً أكثر رجحاناً ، أنه استعمل مصدراً قديماً محفوظاً منذ أوقات لايمكن تذكرها في الشرق الأوسط . إن أساطير الطوفان هي كما لاحظنا سابقاً (فـ١٨ ع) منتشرة جداً وهي تتوازع أساساً الرمزية نفسها : الضرورة للتدمير جذرياً لعالم ولبشرية فاسدة ، وذلك بهدف إعادة خلقها ، أي إعادة الاستقامة الأولية لها .

غير أن هذا العلم الكوني الدوري يبدو أنه سبق أن تحور في النصوص السومرية والأكادية . فمؤلف القصة التوراتية يستعيد ويمدد إعادة تفسير الكارثة الطوفانية : إنه يرفعها إلى مصاف مشهد من التارخ المقدس . إن يهوه يعاقب فساد الانسان ولا يتألم لضحايا كارثة أرضية Cataclysme «كما فعل الآلهة في النص البابلي ـ ملحمة جلقامش اللوحة (١٠ : ٢٥ ـ ١١٦ ـ ٣٧ ـ ١٣٦) . إن الأهمية التي ينيطها بالنقاء الأخلاقي وبالطاعة ، تستبق (القانون أو الشريعة) التي ستتكشف لموسى . وكالعديد من الأحداث الخرافية الأخرى ، فإن الطوفان قد جرى فيما بعد ، أو باستمرار إعادة تفسيره وإعادة تقييمه من منظورات مختلفة . إن أبناء نوح أصبحوا أجداد بشرية جديدة . وفي ذلك الزمن كان العالم كله يتكلم لغة واحدة . ولكن قرر البشر في أحد الأيام بناء برج تخترق قمته السماوات . «وقالوا تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً . رأسه الى السماء ونقيم لنا اسماً كي لانتبدد على وجه الأرض كلها» [١١ ـ ٤] . لقد كان هذا آخر صنيع شيطاني . وقد نزل (يهوه) ليرى المدينة والبرج» وعرف منذ الآن فصاعداً «أن أي مشروع لن يصبح غير قابل التحقيق بالنسبة لهم» . . » فنزل الرب ينظر المدينة والبرج اللذين كان بنوآدم يبنونها . وقال الرب هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة ، وهذا ماأخذوا يفعلونه . والآن لايكفون عما هموا به حتى يصنعونه . هلم نهبط ونبلبل هنالك لغتهم حتى لايفهم بعضهم لغة بعض» (١١ـ ٥ ـ ٦) . عندئذ بلبل لسانهم ولم يعد البشر يتفاهمون مطلقاً ، بعضهم على الأخر ، وعلى أثر ذلك شتتهم يهوه «على كل وجه الأرض وانعطفوا عن بناء المدينة» (١١ ـ ٧ ـ ٨) التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم بابل .

ففي هذه الحالة نجد الصلة بنص اسطوري قديم أعيد تفسيره من المنظور اليهيوي . إنه يتعلق بدئياً بالتقليد القديم الذي تبعاً له ارتفعت بعض الكائنات المتمتعة بامتيازات (أجداد ، أبطال ، ملوك اسطوريون ، شامان) ارتفعت الى السماء بواسطة شجرة ، أو رمح ، أو حبل ، أو بسلسلة من الأسهم . ولكن الصعود الى السماء /مادياً in concreto / قد انقطع بنهاية العصر الاسطوري الأولي [١] . فبعض الأساطير تقرر سقوط المشاريع اللاحقة للتسلق إلى السماء بمساعدة مختلف الصقالات échafoudages . ومن المستحيل معرفة ما إذا كان محرر القصة التوراتية يعرف هذه العقائد العريقة في نفسها . وفي كل الأحوال كانت مألوفة مع الزيقورات Ziqqurat البابلية التي كانت تحتمل رمزاً مشابهاً . وفي الواقع أن الزيقورة كانت معتبرة وكان لها قاعدتها في سرة nombrile الأرض ورأسها في السماء .

وكان الملك أو الكاهن بتسلقه لطوابق زيقورة منها يصل شعائرياً (أي رمزياً) للسماء . وعليه ، وبالنسبة لمحرر القصة التوراتية ، فإن هذه العقيدة ، التي فهمها بدقة كانت في آن واحد بغاية التبسيط والارجاس . انها كانت إذن جذرياً مجددة التفسير وبدقة أكثر منزوعة القداسة والاسطورية .

وتحسن الاشارة لهذا الواقع وهو : رغم العمل الطويل والمعقد من الاختيار ، وحذف وتقييم مواد قديمة جداً موروثة أو مستعارة ، فإن المحررين المتأخرين لسفر التكوين قد حافظوا على كل ميتولوجيا من نموذج تقليدي . إنها تبدأ مع التشكونية وخلق الانسان ، وتستدعي الوجود الفردوسي للأجداد ، تقص مأساة (السقوط) مع نتائجه القدرية (الموت - الالزام بالعمل من أجل العيش الخ) تذكر بالانحطاط الأصلي الفاحش للانسانية الأولى التي أوجبت الطوفان ، وتستنتج مع مشهد خرافي أخير : ضياع الوحدة اللغوية والتشتت للبشرية الثانية ، مما بعد الطوفان ، كنتيجة لمشروع (شيطاني) جديد . وكما في الثقافات القديمة والتقليدية ، فإن هذه الميثولوجيا تشكل بالجملة (تاريخاً مقدساً) : إنها تفسر أصل العالم وبذات الوقت الشرط البشري الراهن . وتأكيداً أن (هذا التاريخ المقدس) أصبح بالنسبة للعبرانيين نموذجياً بعد ابراهيم وبصورة خاصة مع

موسى ، ولكن هذا لم يبلغ أبداً البنية والوظيفة الميثولوجية للفصول الاحدى عشر الأولى من سفر التكوين .

إن عدداً من الباحثين أصر على واقعة ان الدين الاسرائيلي (لم يخترع) أية اسطورة . مع ذلك إذا كانت عبارة (اخترع inventer) قد أدركت وكأنها تدل على خلق روحي spriritueІІe فإن العمل بالانتقاء والنقد للتقاليد الميثولوجية والتي لا يمكن تذكرها ، يعادل انبعاث (اسطورة) جديدة .

٥٦ ـ دين الآباء (البطارقة):

إن الفصل الثاني من سفر التكوين ، يدخلنا في عالم ديني جديد . يقول يهوه لابراهيم : «وقال الرب لابرام انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك إلى الأرض التي أريك ، وأنا أجعلك أمة كبيرة ، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة . وأبارك مباركيك وشاتمك العنه ويتبارك به جميع عشائر الأرض » . ١٢ ـ ١ ـ ١٣ . وهذا النص بشكله الماثل هو على التأكيد قد دون بعد قرون من الحدث الذي يرويه . ولكن المفهوم الديني المضمر في اختيار ابراهيم يمتد لمعتقدات وعادات مألوفة في الشرق الأدنى من الألف الثانية . ان ما يميز القصة التوراتية هو الرسالة الشخصية من الرب ونتائجها .

فبدون ان يدعى بادىء ذي بدء يتكشف الاله لكائن بشري ، ويقدم إليه مجموعة مطاليب متبوعة بوعود سخية . وحسب التقليد ، فإن ابراهيم يطيعه ، كما سيطيعه فيما بعد عندما يطلب الرب إليه التضحية بابنه اسحق . إننا هنا نواجه بنموذج جديد للتجربة الدينية : الايمان الابراهيمي ، كما فهم بعد موسى والذي سيصبح ، مع الزمن ، التجربة الدينية المميزة لليهودية والمسيحية .

لقد ترك ابراهيم أور ، للخالديين des chaldéens اذن ، ووصل الى حران ، في الشمال الغربي لما بين الرافدين (موزوبوتاميا) . ثم سافر بعدئذ صوب

الجنوب . وأقام لبعض الوقت في سيشيم . وبالتالي قاد قافلته بين فلسطين ومصر [تكوين ١٣ : ١-٣] .

إن تاريخ ابراهيم ومغامرات ابنه اسحق ، وحفيديه يعقوب ويوسف تشكل المرحلة المسماة مرحلة الآباء (البطاركة) Patriarches . وخلال زمن طويل اعتبر النقد الآباء كأشخاص خرافيين . ولكن منذ نصف قرن ، وبصورة خاصة ، بفضل الاكتشافات الاثرية ، أصبح لدى بعض الباحثين ميل للقبول ، أقله في جزء منها ، تاريخية التقاليد البطريركية ، وهذا لا يعني ، قطعاً ، ان الفصول ١١ - ٥٠ من التكوين تشكل «وثائق تاريخية» .

بالنسبة لموضوعنا يقتضي على الأقل معرفة ما إذا كان اجداد العبريين ، عابيرو les Apiru مربي حمير وتجار قوافل[١٣] أم رعاة قطعان صغيرة وفي طريق الاستقرار[١٤] . ويكفي التذكير بأنه يوجد عدد من المشابهات بين الاعراف البطريركية والمؤسسات الاجتماعية والقانونية للشرق الادنى . وقد اتفق عل ان العديد من التقاليد الميتولوجية كان قد عرف وطبق من قبل الآباء (البطاركة) خلال اقامتهم في (ميزوبوتاميا) . أما بالنسبة لديانة الاباطرة فإنها تتميز بعبادة اله الأب[١٥]. وان هذا قد دعي ، أوأنه يظهر ، مثل (اله ابي ، ابوك ابوه) «وقال لهما أرى وجه أبيكما ليس كما كان أمس فما قبل ولكن اله أبي لم يزل معي» [تكوين ٣١ : ٥] . وبعض العبارات الأخرى تتضمن اسماً علما ، مسبوقة احيانا بكلمة أب «اله ابراهيم واله ناحور واله ابيهما يحكم بيننا وحلف يعقوب بمهابة أبيه اسحق (٣١-٥٣) . اله ابيك ابراهيم : (٢٦ : ٣٢٤) اله اسحق (٢٨ : ١٣) . اله ابي ، ابوك اسحق (٣٢ : ١٠ الخ) أو «اله ابراهيم ، اسحاق يعقوب» [٣٢ : ٢٤ الخ] . هذه العبارات لها ما يوازيها في الشرق القديم[١٦] . فرب (الأب) هو بدئيا إله الجد المباشر الذي يعترف به الابناء . وبكشفه نفسه للجد ، يكون قد شهد بالقرابة . إنه اله البدو الرحل الذي لم يرتبط بمعبد ، وانما بجمع من الرجال يرافقهم ويحميهم. انه(يرتبط تجاه المؤمنين به بعهود»[١٧]. وبعض اسماءاخرى، يمكن انها اكثر قدماً ايضاً هي باهاديشاك Pahadyisñak التي ترجمت «رعب اسحاق» ولكنها تعني على الاكثر (اقارب اسحاق) و(آب هيريا اكلاك abhir ya'agallz) (قوي ، أو حامي يعقوب (تكوين ٣١ : ٤٢-٥٣) وبدخولهم في ارض كنعان ، إن هؤلاء الآباء قد جوبهوا

بعبادة الاله /إيل/ وان (رب الآب) انتهى بالتماهي به . ان هذا التمثيل يترك مجالاً للافتراض بأنه كان يوجد بعض التشابه البنيوي بين نموذجي الآلهة . وعلى كل حال ، ما أن توحد /بإيل/ حتى حصل رب الآب على البعد الكوني الذي لم يستطع الحصول عليه بصفته اله اسرة وقبيلة . وان هذا هو المثل الأول المؤكد تاريخيا بتركيب قد اغنى الارث البطريركي (الأبوي) وهو لن يكون الوحيد .

ان العديد من الفقرات تصف ، باختصار زائد ، الممارسات الدينية (للآباء) . فالبعض من هذه الفقرات غالباً ما يعكس حالة متأخرة . ومن الملائم اذن مقارنة الملف التوراتي مع الممارسات المميزة للثقافات الرعوية القديمة ، وفي الدرجة الأولى تلك العائدة للعرب قبل الاسلام .

فحسب سفر التكوين ، إن الآباء كانوا يقدمون الاضاحي ، ويرفعون المذابح وينصبون الحجارة ويمسحونها بالزيت . ومن المرجح تطبيقهم للذبيحة (Zabah) الدموية حصراً ، من نموذج فصحي Pascal وبدون كهنة ، و(حسب بعضهم) بدون مذبح : «فكل ناذر كان يذبح ضحية المتخذة من القطيع ، بذاته ، ولم تكن تحرق ، وانما كانت تؤكل من قبلهم مجتمعين ، المضحى واسرته»[١٩] .

ومن الصعب تحديد المعنى الأصلي للحجارة المنصُوبة (مذبح ـ مصطبة massebah) لأن نصوصها الدينية تختلف . فالحجر يمكن ان يشهد على اتفاق مبرم (سفر التكوين ٣٠ : ٤٥/٥١/٥٢) ويستخدم كقبر (٣٥ : ٢٠) أو يدل على تجلي ، كما في مشهد يعقوب . فقد نام هذا واضعاً رأسه على حجر ؛ فرأى سلما يصل اعلاه للسماء ، وهناك (وقف يهوه امامه) ووعده بهذه البلاد . ومع استيقاظه ، نصب يعقوب الحجر الذي نام عليه ، ودعاه مكان (بيت ايل Beith-el)«بيت الاله» [تكوين ٢٨ : ١٠-٢٢] إن الحجارة المنصوبة كانت تلعب دوراً في الدين الكنعاني ولكن هذه العادة كانت توجد عند العرب قبل الاسلام[١٩] . ولذلك يكون من الواضح انها كانت موزعة بالتساوي من قبل اجداد الاسرائيليين[٢٠] .

٥٧ ـ ابراهيم ، أب الايمان :

مع ذلك فإن الشعيرتين اللتين لعبتا دورا بارزا في التاريخ الديني لاسرائيل هما أضحية العهد وأضحية اسحق (تكوين ١٥ : ٩) «فقال له خذ لي عجلة ثنية وعنزة ثنية وكبشا ثنيا الخ» وأولى الاضحيتين كما يلاحظ من نص الآية . . . قد حددت مباشرة من قبل رب ابراهيم . وهي تقتضي القسمة بعجلة وعنز وكبش . . وهذه شعيرة لها مثيلاتها في امكنة أخرى (على سبيل المثال : لدى الحثيين (ف ٤٣ع) . ولكن العنصر الحاسم قد تشكل بتجلي ليلي : (فلما غابت الشمس وخيَّم الظلام ، اذا بتنور دخان ومشعل نار سائر بين تلك القطعان الخ الخ . . .

فالمسألة ليست مسألة عقد . لأن الرب لم يعرض على ابراهيم أي التزام : ولم يرتبط أحد سواه . وهذه الشعيرة التي لا يوجد لها مثيل آخر في العهد القديم ، قد طبقت حتى زمن (ارميا) yérémie «أحد انبياء اليهود التاليين الذي اشتهر بمراثيه المعتبرة سفراً من التوراة» . ان العديد من الباحثين يعارضون بأنها كانت معلومة في عصر الآباء . وبالتأكيد ان الاضحية تمثلت في نص يهيوى ، ولكن اعادة التفسير اللاهوتي لم ينجح في حذف صفتها البدائية .

في سفر التكوين ، اضحية وحيدة ، وصفت بالتفصيل : هي اضحية اسحق (٢٢ : ١ـ١٩) . طلب الرب إليه ان يقدم ابنه محرقة (Olah) ، وقد هيأ ابراهيم نفسه للتضحية به ، عندما تم ابدال اسحق بكبش . ان هذا المشهد قد افسح مجالاً لمعارضات لا حصر لها . فقد لوحظ بين ملاحظات اخرى (ان النص محرقة holocouste قد ردد ست مرات) . وعليه فإن ، هذا النموذج من التضحية يبدو انه مستعار من الكنعانيين بعد الاستقرار النهائي للقبائل[٢١] وقد جرى الحديث ايضا عن «التوصيف بمثالية الماضي» . مع ذلك ، لا يسوغ ان ينسى أن سفر التكوين يشتمل على العديد من التواريخ القذرة والمقززة . «والتي تظهر ان المؤلفين كانوا مهتمين بالدرجة الأولى بالنقل الأمين للتقاليد اكثر من اهتمامهم باعطائها القيم المثلى»[٢٢] . ومهما يكن من أمر أصله ،

فإن المشهد يوضح بقوة لا مثيل لها في العهد القديم المعنى العميق للدين ، (الابراهيمي) . إن ابراهيم لم يتهيأ للتضحية بابنه بهدف نتيجة محددة ، كما فعل ميخا Mesha ملك المؤابين ، بتضحيته بابنه البكر لتقوية الانتصار (ملوك ١٨، ٣: ٢٧) . أو يفتاح yephté الذي التزم تجاه يهوه بأن يقدم له محرقة الشخص الأول الذي يصادفه اولاً بعد عودته منتصراً ، بدون ان يتصور ان هذا سيكون ابنته الوحيدة (القضاة ١١،٢ : ٣٠) انه لا يتعلق بالتضحية بالابن البكر ، الشعيرة التي لم تعرف الا بعد فترة متأخرة جداً والتي لم تصبح ابداً شائعة لدى الاسرائيليين . ان ابراهيم شعر بأنه مرتبط بربه بالايمان . وانه لم يفهم ابداً معنى للتصرف الذي طلبه منه الرب ، بينما ان اولئك الذين كانوا يقدمون باكورتهم لآلهتهم يضعون في اعتبارهم تماماً المعنى والقوة السحرية ـ الدينية الشعيرة .

ومن جهة أخرى فإن ابراهيم لم يشك ابداً بالقداسة، وبالكمال والقدرة الكلية لربه. وبالنتيجة ، اذا كان التصرف المعين له كل مظاهر قتل الولد ، فإن ذلك كان يسبب عدم قدرة الادراك البشري : ان الرب وحده كان يعرف المعنى والقيمة لحركة ، هي بالنسبة للآخرين كافة ، لا تتميز مطلقاً عن الجريمة .

وان ما يهمنا هنا في حالة خاصة من جدلية المقدس : ليس ان (المحرم) قد تحول إلى (مقدس) فحسب ، مع احتفاظه ببنيته الأولى «ان حجراً مقدساً لا ينقطع عن كونه حجراً» ولكن (القداسة) ليست مدركة بالعقل : ان قتل الولد لم يتحول إلى شعيرة هادفة لنتيجة معينة (كما كانت الأمور تجري عند اولئك الذين كانوا يضحون بأوائل ما يتولد لديهم) . ولم يتم ابراهيم الشعيرة (لأنه لم يرمِ لأي هدف ولم يعرف معنى هذا التصرف) ؛ ومن جهة أخرى فإن ايمانه طمأنه إلى انه لم يرتكب جرماً . وقد قيل بأن ابراهيم لم يشك ابداً بقداسة حركته ؛ ولكنها كانت (متضادة) وبالنتيجة غير قابلة للفهم .

ان التأمل حول هذا العجز عن معرفة (المقدس) (طالما ان «المقدس» قد وجد بتمامه مع «المحرم») وستكون له نتائج ذات أهمية بارزة وبالتأمل بمثال ابراهيم ، في فترة

متأخرة جداً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، لمس بعض المفكرين المسيحيين الخاصية المتناقضة ، وبعبارة اخرى ، «الغير قابلة للفهم» من ايمانهم . فكيركجارد kierkegard كان تخلى عن خطيئته بأمل انها ، في حالة غير ممكنة التصور ، سترد إليه . وعندما اكد (ليون شيستوف) أن الايمان الصحيح يقضي بقناعة واحدة : «بالنسبة للرب كل شيء ممكن» ، ولم يفعل سوى أن يترجم باختصار ، تجربة ابراهيم .

٥٨ ـ موسى والخروج من مصر

إن بدايات الدين الاسرائيلي ، قد رويت في الفصول ٤٦ـ٥٠ق سفر التكوين ، وفي سفـر الخروج وفي كتاب العدد . انها تتعلق بمجموعة احداث ، أغلبها مثار مباشرة من قبل الرب . ولنعيد إلى الذاكرة اكثرها اهمية : اقامة يعقوب وأولاده في مصر ؛ والاضطهاد المثار ضدهم بعد بضعة قرون من الزمن من قبل فرعون مصر الذي أمر باستئصال المواليد الأول للاسرائيليين ، والتغيرات الفجائية لموسى (بأعجوبة انقذ من المذبحة وربي في قصر الفرعون) وبعد ان قتل الجندي المصري الذي وجه ضربات لأحد اخوته ، وبصورة خاصة هربه في صحراء مدين ، وظهور العليقة المتوهجة (اول لقائه مع يهوه)والبعثة المهمة التي كلفه بها الرب ، لاخراج شعبه من مصر وكشف اسم الله ، والجروح العشرة المثارة من يهوه ليجبر فرعون بالموافقة؛ ورحيل الاسرائيليين واجتيازهم بحر القصب حيث اغرقت المياه عربات وجنود المصريين الذين لحقوا بهم ، والتجلي على قمة سيناء ، والعهد المقرر من يهوه مع شعبه ، متبوعاً بتعليمات تتعلق بمحتوى الكشف والعبادة ؛ وأخيراً التيه اربعين عاماً من المسير في الصحراء ، وموت موسى والمعركة مع كنعان بقيادة إشعيا .

منذ اكثر من قرن من الزمن ، افرغ النقد جهده ، لفصل العناصر المحتملة وبالنتيجة (التاريخية) لهذه القصص التوراتية عن الكتلة المتراكمة من الزيادات والرسوبيات (الاسطورية) و(الفلولكلورية) ، وقد استعملت ايضاً الوثائق الفلسفية والحفريات

والمتعلقة بالتاريخ السياسي ، والثقافي والديني للمصريين ، والكنعانيين والشعوب الأخرى في الشرق الادنى ، وبمعونة امثال هذه الوثائق حصل الأمل بانارة وتحديد ، بل وربما اعادة تكوين التاريخ لمختلف الجماعات العبرانية ، بدءاً من اقامة يعقوب في مصر (القرن ١٨-١٧ ق.م) حتى الاحداث التي يوجد صداها في تقاليد سفر الخروج والدخول في ارض كنعان ، حوادث يحددها عدد من الباحثين في القرن ١٢ ق.م[٢٤] .

إن الوثائق اللاتوراتية l'Extra- biblique قد ساعدت ، بالتأكيد ، في ادخال أقله في جزء منه ، الخروج وغلبة الكنعانيين في نص تاريخي . ولقد طرحت على سبيل المثال ، تواريخ دقيقة لحد ما بالنسبةللخروجمن مصر على اساس المعلوماتالمتعلقةبالحياة العسكرية والسياسية لبعض الفراعنة المتمين للأسرة الثانية . التاسعة عشرة ، فقد تشابهتمراحل التدخل في كنعان ، مع الاخذ في الحسبان نتائج الحفريات ، بالدرجة الأولى بتاريخ خراب بعض المدن الكنعانية. الا ان العديد من هذه العلاقات المتبادلة والاتفاقات التاريخية قد جوبهت بمعارضة .

ولا يتوجب علينا اتخاذ موقف من الجدل حيث أن القليل من الاختصاصيين اتفقوا بشأنه . ويكفي التذكير بأن النجاح لم يتم ، كما كان يؤمل ، لاقامة تغطية تاريخية لبعض الأحداث ذات الأهمية الأولى بالنسبة للديانة الاسرائيلية ، الأمر الذي ، من جهة أخرى ، لم يثبت مطلقا عدم تاريخيتها . . ولكن الأحداث والأشخاص التاريخية قد احتذيت لحد ما تبعاً لأصناف نموذجية ، حتى أنه في الكثير من الحالات لم يكن من الممكن الامساك بحقيقتها وواقعيتها الأصلية . وأنه لا موجب للشك بواقعية شخصية عرفت تحت الاسم (موسى) ولكن سيرته الذاتية والخيوط المميزة لشخصيته تفوتنا . إن حياته بالواقع البسيط الذي أصبح فيه كارزميا Charismatique وخرافيا ، تبدأ بانقاذه الاعجازي في سلة من البابيروس موضوعة بين قصب النيل وتحتذي نموذج عدد من /الأبطال/ [تيسيه ، بيرسيه ، سرجون ، الاكادي ، روميلوس ، سيروس الخ] .

إن اسم /موسى/ كما هي أسماء أعضاء آخرين من أسرته ، هو اسم مصري ، يحتوي العنصر msy «مولود ـ ابن ، وهو قابل للمقارنة بأحموسس أو رمسيس (Ra - mces) = ابن ـ رع) . واسم أحد أبناء ليفي ، ميراري ، هو المصري ، رمري ، (المحبوب جداً) . وبينحاس حفيد هارون هو ب ـ ن . هيس (العبد) . ومن غير المستبعد أن الشاب موسى عرف /الاصلاح الديني/ لاخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٠) . هذا الاصلاح الذي أبدل عقيدة /آمون/ /بالتوحيد/ الشمسي لأتون . ومن الملاحظ التشابه بين الديانتين[٢٥] : آتون نفسه ، أعلن /الآله الأوحد/ مثل يهوه ، فهو الاله (الذي خلق كل ما هو موجود) ، وأخيرا فان الأهمية المعطاة باصلاح اخناتون للتعليمات قابلة للمقارنة بدور التوراة في اليهودية . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الشاذ الذي تربى فيه موسى ، بعد مرور جيلين من حظر اصلاح /اخناتون/ لم يستطع أن يجتذبه . ان العالمية والتوفيقية الدينية (على الأخص بين ديانات مصرية وكنعانية) وبعض الممارسات الجنسية (ختان الجنسين) ، و/عبادة/ الحيوانات كلها شكلت مزيداً من الكراهية بالنسبة لبعض من نشأ وتربى في ظل /ديانة الآبـاء/ . أما بالنسبة للخروج من مصر ، فيبدو على التأكيد ، أنه يعكس حدثا تاريخياً . مع ذلك ، لا يتعلق بخروج شعب بكامله ، وانما جماعة فقط ، وبدقة جماعة من أولئك الذين /قادهم/ موسى وجماعات أخرى كانوا قد بدأوا الدخول بشكل أو بآخر ، بطريقة سلمية في أرض كنعان . وفيما بعد ، فان الخروج قد طالبت به مجموعة القبائل الاسرائيلية كمشهد لتاريخها المقدس . وان ما يهم بالنسبة لموضوعنا ، هو أن الخروج من مصر قد وضع بعلاقة مع احتفال عيد الفصـح ، وبعبارة أخرى ، ان أضحية قديمة مختصة بالرعاة الرحل ، وموروست منذ ألوف السنين من قبل أجداد الاسرائيليين قد اعيد تقييمها وأدخلت في التاريخ المقدس / لليهـويـة . ان شعيرة متضامنة مع التدين الكوني (عيد رعوي في الربيع) قد اعتمدت كذكرى لحدث تاريخي . وان تحول البنيات الدينية من نموذج كوني لحدث من التاريخ المقدس هو أمر مميز للتوحيد اليهودي ، وستأخذ به المسيحية وتستمر عليه .

٥٩ ـ أنا هو الكائن

بينما كان موسى يقوم برعاية اغنام (تيرو) حميّه وكاهن مدين ، ساق الغنم الى ما وراء الصحراء ، الى جبل حوريب ، وهنالك رأى (شعلة نار تنبثق من وسط عليقة وسمع صوتاً يناديه باسمه . وبعد بضع لحظات ، عرّفه الله بنفسه بأنه «رب أبيك ، رب ابراهيم ، رب اسحق ، رب يعقوب») [خروج ٣ : ٦] مع ذلك ، ستر موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله . وقبل الأمر بالذهاب لايجاد أبناء اسرائيل وليقول لهم : «إن رب آبائكم أرسلني نحوكم ، ولكن اذا طلبوا ما هو اسمه فبماذا أجيبهم ؟» (٣ : ١٣) عندها قال له الرب : أنا هو الكائن je suis celui qui suis . وقال له كذا قل لبني اسرائيل ، الكائن أرسلني اليكم . (٣ : ١٤ ع)

لقد جرى نقاش كثير حول هذا الاسم[٢٦] . وإن جواب الرب غامض لدرجة كبيرة : لقد أجرى تورية ليكنونته ، وانما بدون أن يكشف شخصيته . وكل ما يمكن قوله أن الاسم الالهي يوحي ، اذا استعملنا عبارة حديثة ، جملة أو كلية totalite الكائن والوجود . وقد يكون يهوه أعلن أنه رب ابراهيم والآباء الآخرين ، وهذه الهوية قد قبلت اليوم من كل أولئك الذين ادعوا الارث الابراهيمي . وفي الواقع يمكن كشف بعض الاستمرارية بين رب الأب والرب الذي تجلى لموسى . وكما لاحظنا «يوجد بدئيا الواقع الذي ولدت فيه اليهيويه ضمن وسط من الرعاة وتطورت ونمت في الصحراء . ان العودة لليهيوية الصرفة ستبدو ماثلة كعودة لحالةِ الصحراء : وسيكون هذا (المثل الأعلى البدوي ، للأنباء)[٢٧] . وتماما مثل رب الأب . فإن يهوه لم ولن يرتبط بمكان متميز ، وعلاوة على ذلك ، فإن له علاقة متفردة مع موسى بصفته رئيس مجموعة .

غير أن للفوارق دلالتها . ففي حين كان رب الأب مغفلاً anoyme ، فإن يهوه اسم علم أوضح سره وعظمته . إن العلاقات بين الاله والمؤمنين قد تغيرت : فلم يعد الكلام مطلقا عن (رب الأب) وانما عن /شعب يهوه/ . وان فكرة الاختيار الالهي الماثلة

في العهود المقطوعة لابراهيم (تكوين ١٢ : ١ - ٣) تتحقق : يهوه يدعو ذرية البطارقة (الآباء) «شعبي» انهم ، حسب تعبير ر . دي فو R. de Vaux «ملكيته الشخصية» . وبتتبعنا عملية تمثل رب الأب لإيل فإن يهوه أيضاً قد تماثل به . وقد استعار من إيل البنية الكونية وأخذ منه لقب الملك ومن ديانة إيل ، أخذت اليهوية أيضاً فكرة اللطف الالهي cour divine الذي صنعته «البيني ايلوهيم ، les beñe élohim»(٢٨) . ومن جهة أخرى ، فإن الصفة الحربية ليهوه تحدد دور الاله الأب كحامي المؤمنين بامتياز .

إن جوهر الكشف قد تركز في الوصايا العشر Decalogue (خروج ٢٠ : ٣ - ٧و٣٤ : ع/٢١) . وهذا النص في شكله الحالي لا يمكن أن يعود في تاريخه لعصر موسى ، غير أن أهم الأوامر فيه تعكس بالتأكيد الروحية اليهيوية البدائية. إن أول مادة من الوصايا العشر (لا يكن لك آلهة أخرى غيري) ، تبرهن انها لا تتعلق بالتوحيد في المعنى الوثيق للكلمة . فوجود آلهة أخرى غير مجحود . ففي أغنية النصر المرددة بعد عبور البحر يهتف موسى :«من مثلك في الآلهة يا رب . من مثلك جليل القدس مهيب التسابيح صانع المعجزات (خروج ١٥ : ١١) . ولكن الايمان مطلوب لأن يهوه /اله غيور/ (خروج ٢٠ - ٥) [لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء في البنين الى الجيل الثالث والرابع من مبغضي» [٢٠ - ٥] ان المعركة ضد الآلهة المزيفة قد بدأت مباشرة بعد الخروج من الصحراء في (بعل بيور) . فهنالك دعت بنات المؤابيين الاسرائيليين للتضحية لآلهتهن . «وأقام اسرائيل بشطيم وأخذ الشعب يفجرون مع نبات مؤاب» فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلق اسرائيل (ببعل بور) فاشتد غضب الرب على اسرائيل » [سفر العدد ١ - ٤] . وباظهار غضب يهوه على اسرائيل ابتدأت المعركة في بعل بيور وهي ما زالت قائمة .

وإن معنى الأمر الثاني (لا تصنع أية صورة . . . » ليس من السهل إدراك دلالته . إنه يتعلق بمنع عبادة الأصنام . فكان معلوماً أن الصور المألوفة في عبادات الوثنيين لم تكن سوى دعاء للألوهية . وعلى الأرجح ، فان الفكرة المستكنة في هذا الأمر تستوجب تحريم تمثيل بشيء طقوسي . وكما أنه لم يكن له /اسم/ فإن يهوه يجب أن لا يكون له /صورة/ . ان الرب يمكن من رؤيته بعض المتميزين بصورة مباشرة ، وبالنسبة لبقية

البشر ، فانه يظهر عبر أفعاله . وخلافاً لبقية الآلهة في الشرق الأدنى ، التي كانت تظهر في آن واحد تحت شكل بشري وحيواني أو كوني ، فإن يهوه قد أدرك استثناء بشكل بشري . وانما يوجد أيضا عودة للتجليات الكونية لأن العالم بكامله هو خليقته .

إن تجسيم يهوه له مظهر مزدوج . فمن جهة يظهر مزايا وعيوب بشرية خاصة : شفقة وحقد ، سرور وحزن تسامح وانتقام . «مع ذلك لا يظهر عيوب وضعف الآلهة السومرية ، ولا يقبل أن يكون هزأة كبعض آلهة الأوليمب»[٢٩] . ومن جهة أخرى ، فان يهوه لا يعكس أبداً ، مثل أكثرية الآلهة ، الوضع البشري : فليس له عائلة ، وانما مجرد بلاط سماوي . فيهوه واحد . أيتوجب رؤية أثر بشري في واقعة أنه يطلب من المؤمنين به طاعة مطلقة ، كطاغية شرقي ؟؟ انه يتعلق بالأولى برغبة لا انسانية من كمال وطهارة مطلقين . ان عدم التسامح والتعصب المميزين للأنبياء ومبعوثي الأديان التوحيدية الثلاثة يجدان نموذجهما وتبريرهما في مثال يهوه .

كذلك فان عنف يهوه قد فجّر البنى البشرية . فغيظه يبدو أحيانا غير معقول لدرجة أنه أمكن القول بشيطانية يهوه .

من المؤكد ، أن بعضاً من الملامح السلبية قد تصلبت بعد فترة من احتلال أراضي الكنعانيين . ولكن هذه الملامح السلبية تعود للبنية الاصلية ليهوه . وفي الواقع ، انه يتعلق بعبارة جديدة ، وإن أكثرها تأثيراً ، الربوبية المختلفة تماما عن خليقته ، و«كالآخر المتميز» . ان ترابط /الصفات/ المتضادة ، وعدم عقلانية بعض أفعاله ، تميز يهوه عن كل (مثال للكمال) على المستوى البشري .

من هذه الوجهة النظر ، فإن يهوه يشبه بعض الآلهة الهندوسية ، انه يشبه «شيفا» على سبيل المثال أو كالي دورغا Kali - Durga ، وانما مع فارق ملحوظ : هذه الآلهة الهندية تقع ما وراء الأخلاق ، وبطريقة تكوينها تشكل نموذجاً مثالياً لا يتردد المؤمنون بها من احتذائه . وعلى العكس فإن يهوه يعطي الأهمية الكبرى للمبادىء الأخلاقية . والى الأخلاق العملية : على الأقل إن خمسة أوامر من الوصايا العشر تعكس ذلك .

حسب القصة التوراتية ، فانه بعد ثلاثة أشهر من الخروج من مصر في صحراء سيناء ، حصل التجلي . «جبل سيناء برمته كان مجللاً بالدخان ، لأن يهوه كان قد نزل عليه تحت شكل نار . فالدخان ارتفع كما لو أنه من أتون وكل الجبل ارتعد بعنف ، لقد كان هنالك صوت البوق آخذاً في الاشتداد جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بالصوت [الخروج ـ ١٩ ـ ١٨ ـ ١٩] . عندئذ ظهر يهوه للاسرائيليين الذين بقوا في أسفل الجبل وأبرم معهم عهداً وبإملاء نصوص العهد، الذي افتتح بالوصايا العشر وتضمن عدداً من المقررات المتعلقة بالعبادات (خروج ٢٠ : ٢٢ ـ ٢٦ ـ ٢٤ ـ ٢٦)[٣٠] . وبعدئذ ، كان لموسى لقاء آخر مع يهوه ، وتلقى منه (لوحي العهد لوحان من حجر كتبت باصبع الاله) [٣١ : ١٨] . وهنالك نص آخر ٣٤ : [١ ، ٢٨] . وقد لاحظ ميندلهال Mendelhall[٣١] ان الشكل الانشائي لقانون العهد يذكر بمعاهدات الملوك الحثيين للسنة الألفين مع اتباعهم في آسيا الوسطى . ولكن المشابهات بين الصيغتين رغم واقعيتها لا تبدو حاسمة .

لا يعلم شيء دقيق عن العقيدة المتبعة من قبل الاسرائيليين خلال السنوات الأربعين التي مرت في التيه (الصحراء) . وان سفر الخروج (٢٦ ، ٣٨ : ٨ ـ ٣٨) يصف بالتفصيل معبد الصحراء : إنه يتكون في خيمة اللقاء التي تستظل تابوت العهد الذي هو صندوق من خشب يحتوي ـ حسب تقليد متأخر ـ لوائح الشريعة (سفر تثنية الاشتراع Donteromono ١٠ ـ : (ـ ٥) الخ . ومن الراجح جداً ، أن هذا التقليد يعكس حالة واقعية . إن الخيمات أو الهوادج العقائدية ، التي كانت تحمل بها الأصنام من الحجارة مؤكدة لدى العرب قبل الاسلام . وان النصوص لا تذكر التابوت l'arehe والخيمة مجتمعتين ، الا أنه من المرجح أن كل ذلك كما كان عند العرب حيث كانت الخيمة تجلل أو تغطي التابوت . وكما حصل في مرة أخرى فإن رب الأب يهوه قد قاد شعبه . إن التابوت كان يرمز لهذا الحضور الغير مرئي ، ولكنه يستحيل معرفة محتواه .

وتبعاً للتقليد ، فإن موسى مات في وهاد مؤاب بمواجهة (جرش) فقد أراه يهوه بلاد كنعان : «لقد أريتها لك بعينيك ولكنك لن تجتازها» [تثنية الاشتراع ٣٤ ـ ٤ والاعداد ٢٧ : ١٢ ـ ١٤] . إن هذا الموت يتناسب أيضا مع الشخصية الأسطورية والنموذجية لموسى. وكل ما يمكن قوله عن الشخصية المعروفة بهذا

الاسم ، انه قد تميز باللقاءات المأساوية والمكررة ، مع يهوه . فالكشف الذي كان موسى فيه الوسيط ، جعل منه في آن واحد نبياً وجدياً (شطحوياً) extatiqne ووسيط وحي oraculaire وساحراً ونموذج اللاوي (كاهن المعبد) ورئيساً لدنياً charismnatique بامتياز ، نجح في تحويل جماعة من القبائل الى نواة أمة وهو شعب اسرائيل .

٦٠ - الدين في ظل القضاة : المظهر الأول للتوفيقية

من المتفق عليه تسمية عصر القضاة بالفترة التي تمتد بين ١٢٠٠ ق . م عندما دخلت جماعة موسى بلاد كنعان بقيادة يوشع حتى ١٠٢٠ ق .م عندما أعلن شاؤول ملكاً . ان القضاة كانوا رؤساء عسكريين مستشارين وقضاة حكم وانه خلال هذه الفترة ، قبلت بعض القبائل اليهيوية . وبصورة خاصة على اثر بعض الانتصارات المدوية ، ان يهوه يتدخل مباشرة في المعركة . لقد أكد ليوشع : «لا تخافهم لقد أسلمتهم لقوتك . (سفر يشوع : ١٠-٨) . وفي الواقع ، فإن يهوه أطلق من السماء حجارة . . «وفيما هم منهزمون من وجه اسرائيل وهم في منهبط بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء الى عزيقة فهلكوا وكان الذين هلكوا بحجارة البرد أكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف) (يوشع - ١٠ : ١١) . بعد النصر ضد /يابين/ Yabin ، ملك الكنعانيين ، أنشد ديبورا وباراك Deboretbarak الغضب الالهي : «يهوه ، عندما خرجت من سير Sër. . . .] اضطربت الأرض وارتعدت السماوات ونضحت الغمائم ماء» (قضاة ، ٥ : ٤) واجمالا فان يهوه تبدى أكثر قوة من آلهة الكنعانيين . واكتملت الحرب باسمه أنها حرب مقدسة[٣٢] : فالرجال تقدسوا (qidde¨s) وعليهم أن يحترموا الطهارة الشعائرية . أما بالنسبة للسلب (الغنيمة) فهو «محرم» أي أنه بكامله يتلف ، تقدمة في محرقة يهوه .

ولكنه بممارسة نموذج جديد من الوجود ، فإن اليهيوية قد تطورت وتغيرت . ويلاحظ بدئياً ردة ضد القيم الممجدة من قبل كل المجتمعات الرعوية . فقانون الضيافة

قانون مقدس عند كل البدو الرحل ، ولكنه انتهك بخيانة من يائيل Yäel التي دعت لخيمتها الرئيس الكنعاني /سيزل/ الذي هرب بعد فشله ، وقتلته أثناء نومه (قضاة ٤ : ١٧) . والمعبد المتنقل منذ عهد موسى سقط بعدم الاستعمال . والآن مورست العبادة في المعابد والمستقرات المقدسة . ، ولكن ، وكما أنه يتوجب الانتظار ، فإن المواجهة بصورة خاصة مع الدين الكنعاني سيكون لها نتائج بارزة . ومن جهة أخرى فإن هذه المواجهة تتمدد حتى القرن السابع قبل المسيح . على اثر الاتحاد يهوه - ايل ، فإن المعابد الما قبل اليهيوية عائدة لعبادة ايل ، كذلك فإن عدداً من المعابد الكنعانية ، أوقفت ليهوه[٣٣] . وأكثر إثارة للدهشة ذلك الخلط الذي حصل في عصر القضاة ، بين يهوه وبعل : فيصادف أسماء مؤلفة مع بعل حتى في العائلات المشهورة بعقيدتها اليهودية . فجدعون الشهير يسمى أيضا يور بعل Yorubbaal (معركةبعل) (قضاة ٦ : ٣٢) . ءاں هذا ما يدعو للافتراض بأن الكلمة بعل (سيد) كانت مفهومة كنعت أو صفة يهوه ، أو أن بعل كان ممجداً الى جانب يهوه[٣٤] . في البدء ، يمكن أن يكون بعل قد قبل «كاله مزدرع» اختصاصي ممتاز للخصب . ولم يمض وقت طويل حتى مورست عبادته وأصبح الدليل المثالي للردة .

ان النموذج التضحوي الكنعاني قد تم تبنيه في شطر كبير منه ، وكان الشكل الأكثر بساطة للتضحية يجري في تقديمها على مكان مخصص لكافة التقدمات ، كما كان يحصل في إراقة الزيت أو الماء . .

إن التقدمات كانت تعتبر كأغذية للآلهة (قضاه ٦ : ١٩) ولكن الاسرائيليين بدأوا الآن بممارسة المحرقة التي فسروها كقربان مقدم ليهوه . وقد استعاروا إضافة لذلك ، عدداً من الممارسات الكنعانية ذات العلاقة بالزراعة ، وحتى بعض الطقوس التهتكية . ان عملية التمثل تتكشف بشكل خارج عن الحد في ظل الملكية عندما سمع الحديث عن الختان المقدس للجنسين .

إن المعابد قد بنيت طبقاً للنماذج الكنعانية ، فهي تحتوي على مذبح massebah (حجارة منصوبة) وعلى عشيرة (asherah) (آنية من الخشب ترمز للربة الكنعانية بذات الاسم) وآنية للاراقة . وبين الأشياء الطقوسية ، يشار إلى أكثرها

أهمية : التيرافيم teraphim (صورة أو أقنعة) والايفود ephode (هي في الأصل ثوب موضوع على الصورة) . وحول المعابد التي يقوم عليها حراسها ينتظم التشخيص الشعائري . وهو بالدرجة الأول يتعلق بالكهنة واللاويين : فهم يقدمون الاضاحي ويسبرون إرادة يهوه عن طريق القرعة والايفود . وإلى جانب الكهنة واللاويين يوجد متنبئون أو متبصرون (رؤاة) Röeh ولكنه لا يعرف الكثير عن مهمتهم . إن الرائين لم يكونوا مرتبطين بالمعابد مثل الأنبياء (nâbûm) وان النموذج الأكثر تألقاً هو البالعوم Balaam : (سفر الاعداد : ٢٢ ـ ٢٤) انه يرى يهوه في المنام أو في حالة اليقظة ، ويجب أن يرى الاسرائيليين لكي يدعو لهم . وإن هذا النموذج من الوجد قد تأكد في مجتمعات بدو رحل أخرى (مثلاً ـ الكاهن عند العرب)[٣٦] . إن وظيفة (النبي) Nabi كانت الأكثر أهمية وسنعود لهذه الوظيفة فيما سيأتي (ف . ١١٦ ع) . ونشير هنا فقط إلى أن النبوة الوجدية الاسرائيلية تغوص جذورها في الديانة الكنعانية[٣٧] وفي الواقع ، أن عبادة البعل تتطلب انبياء (الملوك ١ ـ ١٨ : ١٩ والملوك ٢ ـ ١٠ ـ ١٩) إلا أنه يتعلق بنموذج للتجربة الوجدية الشائعة لحد ما في الشرق الأدنى القديم ما عدا مصر . إن السومريين كانوا يعرفون (الرجل الذي يخترق السماء) وتلك اشارة تدل على سفر وجدي قابل للمقارنة بالشامان . ففي حفريات ماري Mari ، تتكلم نصوص تعود إلى القرن الثامن عشر عن (الأبيلوم apilium الذي يجيب ، وعن الملهم mulhuem والمهتم muhhitum ، رجال أو نساء يتلقون الوحي الالهي في الحلم أو في رؤاهم . وإن هؤلاء المستجيبون والمهمون muhhim àpilum يناظرون الأنبياء nabéim . وهم كأنبياء اسرائيل يستعملون جملاً من الموحيات أكثر إيجازاً ويرسلون رسائلهم للملوك ، حتى ولو تعلقت بأخبار سيئة أو انتقادات ضد بعض الملوك[٣٨] .

وفيما سبق في القرون الأولى من الغزو والاستعمار يلاحظ تأثير كنعاني هو في آن واحد ، عميق ومتعدد الاشكال . وفي الواقع ، لقد أخذ عن الكنعانيين النظام الشعائري ، والمزارات المقدسة والمعابد ، وان الطبقة الكهنوتية تنظمت طبقاً للنماذج الكنعانية ، وأخيرا ، فإن الأنبياء ، الذين لم يتأخروا عن معاودة

العمل ضد سيادة الكهنة وضد التوفيقية مع طقوس الخصب ، هم ، نفسهم أيضا ، حصيلة التأثير الكنعاني . ومع ذلك ، فان الأنبياء يظهرون بأنهم اليهويين الأكثر نقاء . وقد كان لديهم حق ، من بعض وجهات النظر ، ولكن اليهويـة التي أعلنوها كانت قد تمثلت العناصر الأكثر إبداعاً للدين والثقافة الكنعانيتين ، اللتين مورستا بفظاظة من قبل الأنبياء .

حواشي الفصل السابع

١ ـ ان المسائل المطروحة في مصادر وكتابة الاسفار الخمسة من كتاب التوراة هي محل اعتبار ويكفي التذكير هنا بأن المصادر قد عينت بعبارة : يهيوية Yahuiti ، لأن هذا المصدر الأكثر قدما (القرنين ١٠و١١). يسمى الاله يهوه ايلوهيت ولفترةغير بعيدةيستعمل اسم (يلوهيم(رب كهنوتي و(أكثر حداثة : عمل الكهنة . . وتصر على العبادة والشريعة) وسفر التثنية . . والمعتمد هنا في هذا الكتاب بالدرجة الأولى توراة أورشليم ، ان لم يكن هنالك دليل مخالف .

٢ ـ في العديد من التقاليد ، ان الخالق قد تخيل بشكل طائر ، إلا أنه يتوجب تصليب الرمز الأصلي : الروح الالهي تفارق الكتلة المائية ، انه حر لأن يتحرك ، وبالنتيجة يطير كعصفور. ولنتذكر أن الطائر هو احدى الصور القديمة للنفس .

٣ ـ ونضيف أن الكلمة الخالقة للآلهة قد تأكدت في تقاليد أخرى ، ليس في اللاهوت المصري فحسب ، وانما أيضا لدى البولينزيين (م ـ الياد ـ الأساطير ص ٤٤)

٤ ـ ولكنه يوجد نصوص أخرى تثير الانتصار ضد غول افعواني يسمى تنين Tannin أو رحاب أو ليفياتان والذي يذكر بالتقاليد الميزوبوتامية والكنعانية (انظر على سبيل المثال المزامير) .

٥ ـ انه يتعلق بخط مميز لعلوم الكائن القديمة (الانطولوجيا القديمة . فالحيوانات والنباتات بدأت في الوجود حقيقة بدءاً من الفترة التي أعطيت لها أسماء (انظر على سبيل المثال القبيلة الاسترالية في كتاب الاساطير لالياد . . أحلام وغوامض ص ٢٥٥) .

٦ ـ ولنضف إلى هذا تبعاً لتقاليد متعددة بوفاة الروح ترجع لحضرة خالقها السماوي ، وان الجسم يرجع للأرض ، ولكن هذه الثنائية الانتروبولوجية قدرفضت من قبل كتاب الأناجيل ، وكما هو من أكثرية معاصريهم في الشرق

الاوسط . وليس الا في وقت متأخر قد طرحت مفاهيم انتروبولوجية جديد أكثر جرأة .

٧ ـ ثنائية الجنس الالهي واحدة من صيغ متعددة من الكلية التي تعني باتحاد ، أزواج ، متعارفة : نسوي ـ ذكوري ، مرأي ـ غير مرئي ، سماء ـ أرض ، ضوء ـ ظلام ، وأيضاً ، طيبة ـ خبث ، خلق ـ تدمير الخ . . والتأمل لهذه الازواج المتعارضة ، قاد في أديان مختلفة إلى نتائج جريئة تتعلق أيضاً بالشروط الظاهرة التناقض للألوهة أكثر مما بإعادة التقييم للشرط البشري .

٨ ـ جنة عدن ـ إن الكلمة متقاربة في العبرية من كلمة لذيذة éden . وعبارة فردوس باللغة الأجنبية paradi هي من مصدر ايراني (بيرى ـ دايزا) وهي متأخرة جداً . . وان صورا موازية مألوفة بصورة خاصة في الشرق الأدنى والعالم الايجي ، تمثل ربة كبيرة بالقرب من شجرة الحياة ومن نبع متجدد الحياة ، أو شجرة الحياة محروسة من قبل غيلان وعنقاوات .

٩ ـ يضاف لهذا بأن أسطورة /السقوط/ لم تكن مفهومة دوماً تبعا لتفسير توراتي . على الأخص بدءاً من العصر الهللنستي وحتى العصور الاشتراكية ، وأن إيحاءات غير محصورة قد جربت لاحياء ميثولوجيا أولية أكثر جرأة وأكثر أصالة بمئات المرات .

١٠ ـ م . الياد ـحدادون وكيميائيون ص ٨٨

١١ ـ حتى يومنا هذا فإن الشامان يتعاطى هذا السفر السماوي (بالروح) أي في رعشة وجديو .

١٢ ـ بالتأكيد ن (يلون) هو مفارقة تاريخية Onachroni sme . هنا وفي كل المقاطع التي سبق ذكرها . لأن هذا الاسم قد تكشف مؤخراً لموسى .

١٣ ـ كما يثبته البرايت ablright في عدة أعمال . انظر في مكان آخر يهوة والآلهة الكمنعانيين .

١٤ ـ ١٥ ـ المرجع ـ ablright والحصاد وأثر ذكرها .

١٦ ـ في القرن ١٩ ق م اتخذ الآشوريون في قبدوسية كشهود (إله أبي) أو (أبوك ، أبوه الخ)

١٧ ـ ديغو ص ٢٦١ (نص العهد يرد بشكل مألوف في التكوين ويظهر تحت أشكال مختلفة : عهد بالذرية ، بالأرض أو بالأثنين معاً»

١٨ ـ القصص البطريركية تسير لأسماء مؤلفة من العنصر el ايل متبوعاً باسم . . .
راشكوني ١٦ : ١٣ ٢١ ـ ٣٣ ـ ٣١ ـ ١٣ . . الخ .

١٩ ـ R.de vaux ص٢٧١ «في الجزيرة العربية الوسطى ، كانت الضحية تذبح على حجر منصوب رمز الحضور الآلهي ، وكان الدم يراق على الحجر أو ينثر في حفرة محفورة على قدم هذا الحجر . ومثل هذه الضحايا كانت تقدمم على الأخص في الأعياد التي كان العرب الرحل يحتفلون بها في الشهر الأول من الربيع لضمان الخصب ونمو القطيع . ومن المراجح أن أجداد اسرائيل ، الرعاة نصف الرحل كانوا يحتفلون فيما سلف بعيد مشابه .

٢٠ ـ إن القصص (الأبوية) البطريركية تتكلم عن بعض الأشجار المقدسة : على سبيل المثال بلوطة مورة chêne de more (١٢ : ٦) بلوط حمرا (١٣ ـ ١٨) هذه الأشجار للآباء التي غدا تقديسها مزعجاً ، قد حرمت فيما بعد عندما أدينت ، أمكنة عبادة الكنعانيين المستقرين (على التلال) تحت كل شجرة خضراء . . (التينة : ١٢ : ٢)

٢١ ـ R . de Vaux ص ٢٧٠ (العبارات الأولى في النصوص القديمة بالتأكيد تعود في تاريخها لعهد القضاة)

٢٢ ـ H . Rovilcg ـ الديانة في اسرائيل ص ٢٧ . وفي الواقع أن النص يعطينا القليل عن اشباع حول الدين المطبق من قبل بعض أبناء يعقوب ، ولكننا لانذكر الكثير من التاريخ الذي يشير لهم وعلى سبيل المثال قصة سيميون وليفي في سيعشين تكويني ٣٤ ويهوذا وثامار تكويني ٣٨

«ونذكر قصة سيميون وليفي حسب التكوين ٣٤ : وهي تروى : أن دينة بنت يعقوب التي ضاجعها عنوة شكيم بن حمود ثم تزوجا ودخل بالدين واختتن هو وجماعته ودفع المهر وظن الأمر منتهياً ولكن أولاد يعقوب أغاروا على المدينة وأحرقوها وقتلوا شكيم ونهبوا المدينة الخ . .

وقصة تامار (الفصل ٣٨) التي مات زوجها ولم يتزوجها شقيقه ، ثم كيف احتالت لصبغة بغي على يهوذا فضاجعها وحملت منه توأمين . . الخ . .»

٢٣ ـ إن أعمالاً بسيطة مثل الجروح العشر أن اجتياز بحر القصب لايمكن اعتبارها كأحداث تاريخية . وعلى العكس فإن تفسير حادث تاريخي للنصوص التوراتيةسيتكشف عن متعةلاحد لها . . لقد ميَّز التحليل العديد من التأليف المنشأة في عصور ومنظورات لاهوتية مختلفة . إضافة لذلك لقد وحدت الانطباع بعدد من الأنواع الأدبية وإن الظاهرة التاريخية لمشهد أصبحت خاضعة للعناية عندما يكتشف أن الكاتب قد استعمل كليشيهات بعض أنواع من الأدب ، قصة ـ أمثال . الخ .

٢٥ ـ انظر على سبيل المثال . Albright من عصر الحجارة ـ الى المسيحية ص ٢١٨ ـ المرحلة التوراتية من ابراهيم لعذرا .

٢٦ ـ ٢٧ ـ انظر المراجع المتعددة التي سجلها Ringgien ص ٤٣ وفوهرر . . الخ

٢٨ ـ ولكنه لايبدو دقيقاً إن ايل أعطى لطفة وشفقة ليهوة الذي كان بدائياً وآلهاً متوحشاً وعنيفاً . وفي النص القديم على الأرجح من الخروج ٣٤ ـ ٤٦ يبرز يهوه نفسه كإله للرحمة أو التسامح ص ٤٢٨ ـ

٢٩ ـ دين اسرايل R. de Vanx

٢٩ ـ Fohrer ص . ٧٨

٣٠ـ من غير المفيد التأكيد بأن كل هذه النصوص قد حررت أدامليت بعدئذ .

٣١ ـ كان C . E . Mendohall قد قبل مع غيره الفرضية التي تشير لعلاقة الكنعانيين الخ .

٣٢ ـ تعبير محرم Rérêm يشتق من جذر يعني مقدس . والظاهرة اعتبرت من قبل رنغيرن ـ نموذج اسرائيلي . ولكن lodis يشير لأمثلة أخرى وليس لدى الساميين فقط

٣٣ـ انظر قائمة بهذه المعابد في Fohrer ص ١١١ ـ ١١٣

٣٤ ـ Ringgreu ص ٥٦

٣٦ـ بيد رسون (الدور الذي يلعبه أشخاص ملهمون بين الاسرائيليين والعرب . .الخ .

٣٧ ـ A . Hldar ـ مشاركة عبادة الأنبياء بين الساميين القدامى

٣٨ ـ Lim Illen . . وغيره . . يذكرون أمثلة أخرى من البابليين والآشوريين

الفصل الثامن

ديانة الهندو - اوروبيين
الآلهة الڤيدية

٦١ - ما قبل التاريخ الهندو - الأوروبيين .

إن غزوة الهندو - أوروبيين في التاريخ متميزة بتخريبات مرعبة . فبين ٢٣٠٠ و ١٩٠٠ ق م ، في اليونان وآسيا الوسطى وميزوبوتاميا ، نهبت واحرقت مدن عديدة ، وهذا ما حصل لطروادة حوالي ٢٣٠٠ ق م وبيدي سلطان وترسوس وثلاثمائة مدينة وتجمعات في أناطوليا . وتشير الوثائق إلى تجمعات عرقية تسمى الحثيين واللويين والميتانيين . ولكن عناصر ايرانية قد تأكدت هي أيضاً في جيوش أخرى للغزاة . إن تبعثر الشعوب الهندو - أوروبية كان قد بدأ قبل عدة قرون ، وامتد خلال الفي عام . فنحو ١٢٠٠ ق م تغلغل الآريون في سهل الهند

الغانجي ، والايرانيون كانوا قد توضعوا بثبات في فارس ، وان اليونان والجزر كانت هندية ـ ومتأوربة Inda- europhanisées .

وبعد بضعه قرون امتدت الهندو ـ أوروبية في الهند وفي شبه جزيرة ايطاليا ، ولشبه جزيرة البلقان والاقاليم الكارباتية ـ الدانوبية وأوروبا الوسطى ، الشمالية والغربيه ـ بدءاً من الفيستولا حتى بحر البلطيق وإلى الاطلنطي . . . . وإن هذه العملية المتميزة ـ هجرة ، غزو أقاليم جديدة ، احتلال ، المبتوعة بتمثل للسكان لم ينقطع إلا في القرن التاسع عشر من عصرنا . ولا يعرف مثل آخر مشابه للتوسع اللغوي والثقافي .

ومنذ أكثر من قرن اهتم العلماء وبذلوا ما في وسعهم لاعطاء هوية للوطن الأصلي للهندو ـ أوروبيين ، ولحل رموز ما قبل تاريخهم ولتوضيح مظاهر هجراتهم . لقد جرى البحث عن الوطن الأصلي في شمالي ووسط أوروبا ، وفي سهوب روسيا وفي آسيا الوسطى وأناطوليا ، الخ . . . . وقد اتفق اليوم على تعيين المقر الأصلي للهندو أوروبيين في أقاليم شمالي البحر الأسود ، بين جبال الكاربات والقوقاز[1] . ففي شمالي البحر الأسود نمت ما بين الألف الخامسة والثالثة ، الثقافة المسماة التومولي Tumuli (بالكورجانية Kurgan) وحوالي ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق . م يلاحظ امتدادها الغربي حتى تيزا Tiza . خلال الألف التالية ، تسرب ممثلوا الثقافة (الكوجان) في أوروبا الوسطى ، وفي شبه جزيرة البلقان وفي ترانسكوكازيا Transcaucasie وفي اناطوليا Anatolie ، ولشمالي ايران (حوالي ٣٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق م) ؛ وفي الألف الثالثة أدركوا الشمال الأوروبي ، والمنطقة الايجية (اليونان وشطآن اناضوليا) والبحر المتوسط الشرقي . وحسب رأي الباحث ماريجيا جيمبوتا Marigia Gimbutas ، فإن الشعوب التي نطقت وحملت ثقافة (التومولي) لا يمكن أن تكون سوى شعوب ما قبل هندو ـ أوروبية وفي المظاهر الاخيرة للشتات ، الهندو ـ أوروبي .

ومهما يكن من امر ، فمن المؤكد أن أصول الثقافة الهندو ـ أوروبية تغوص في العصر الحجري الجديد النيوليتيك وربما حتى الميزوليتيك . ومن جهة أخرى ،

فمن المؤكد أيضاً انها خلال عصر تشكلها ، كانت هذه الثقافة قد تأثرت بالحضارات الأعلى للشرق الأدنى . إن استعمال العربة والمعدن[٢] قد انتقلت بواسطة ثقافة من اناضوليا [الثقافة المسماة (كورو ـ آراكساس Kuro- Araxas)] . وفي الألف الرابعة . تبدو معارة لشعوب اقليم البلقان ـ والبحر المتوسط تماثيل تظهر ربة جالسة مصنوعة من الطين أو الرخام أو المرمر . وإن الكلمات العامة تظهر ان الهندو أوروبيين كانوا قد مارسوا الزراعة ، ودجنوا القطعان (ولكن أيضاً ، الخنزير وعلى الأرجح الغنم) . وقد عرفوا الحصان المتوحش أو المدجن . ومع انها لم تستطيع التنازل أبداً عن المنتجات الزراعية ، فإن الشعوب الهندو ـ أوروبية قد طورت إلى الافضل اقتصاداً رعوياً . إن البداوة الرعوية ، والبنية الأبوية للاسرة والولع بالغزوات والتنظيم العسكري بهدف الغزو ، كل ذلك يشكل خطوطاً مميزة للمجتمعات الهندو ـ أوروبية . وقد لوحظ أن هناك فارق اجتماعي جذري ، ولحد كبير يبرز ، التباين بين التومولي Timuli (مقابر منشآة بشكل بيت ومزخرفة بمظاهر غنى) وبين المقابر الأكثر فقراً . ومن المرجح جداً ان التيمولي (كورجان) كانت مخصصة لجثث الرؤساء

والذي يعنينا هنا ، هو أن نحدد في أي مقياس شجعت وسهلت هذه الطريقة من الحياة ـ بداوة رعوية ، منظمة بصرامة ، وبهدف الحروب والغزوات ـ انبثاق القيم الدينية المميزة . من الواضح أن خلق المجتمعات الزراعية لايتلاءم أبداً مع التساميات الدينية لمجتمع رعوي . ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد أبداً مجتمع رعوي مستقل تماماً بالاقتصاد وبالدين عن المزارعين . وأكثر من هذا ، إن الهندو أوروبيين في هجراتهم وغزواتهم اخضعوا وتمثلوا باستمرار الشعوب الزراعية المستقرة . وبعبارة أخرى ، فإن الهندو اوروبيين سرعان ما كانوا ، في تاريخهم ، يعترفون بالتوتر الروحي المثار بتكامل التوجهات الدينية المتنافرة بل المتضادة .

٦٢ ـ أول مجمع للآلهة والمفردات الدينية الشائعة :

يمكن اعادة تكوين بعض بُنى Structures الديانة الهندو ـ أوروبية العامة . فيوجد بدئياً ، دلالات موجزة ولكنها قيمة ، معطاة بالألفاظ الدينية . فمنذ بداية

الدراسات ، تم التعرف على الجذر الهندوأوروبي (المختصر منذئذٍ) : ديفوس Deiwos (سماء) في المصطلحات الدالة على الله (dieu) [فى اللاتينية deus وفي السنسكريتية deva ،وفي الايرانية div ، وفي الليتوانية diewas ،وفي الجرمنية القديمة tivar] وفي الأسماء للآلهة الأساسيين : دايوس Dyaus (زوس Zous) جوبيتر . ففكرة الآله تبدو متضامنة مع القداسة السماوية ، أي النور ، والمفارقة أو التصاعد والسمو ، وبتوسيع الفكرة للسيادة والابداعية ، في معناها المباشر : نشكونية وابوة . فرب السماء هو بامتياز الأب : ر . الهندي ديوسبتيار Dy auspitar ، الاغريقي زوس الأب ، والايلليرى ديباتورا ، واللاتيني جوبيتر والسينري زوس ـ بابايوس ، والتراقي ـ الفريجي زوس ـ بابوس[٣] .

وبما أن الظواهر السماوية والجوية تلعب دوراً أساسياً ، فإنه من غير المفاجىء ان عدداً من الآلهة قد عيّن باسم الرعد : في الالمانية طهور ـ دونار Thors-Donar . وفي السلتية تارانيس Tarani . . وفي السلافية القديم : Perum بيروم . . الخ . . . . ومن الراجح في العصر الهندو ـ أوروبي ان آله السماء ـ آله أعلى لأنه خالق العالم ومدير الكون ـ قد تخلى أمام آلهة العاصفة : الظاهرة شائعة جداً في تاريخ الاديان . كذلك الأمر ، فإن النار المثارة بالصاعقة هي معتبرة ذات أصل سماوي . إن عبادة النار عنصر مميز للاديان الهندو ـ أوروبية . ثم إن اسم الآله القيدي الهام أجني Agni يوجد في اللاتينية ignis يغنيز واللتيوانية اوغنيز ugnis والسلافية القديمة ogni[٤] . ويمكن الافتراض أيضاً بأن الاله الشمس كان يحتل مكاناً مرموقاً منذ ما قبل التاريخ (ر . في القيدية سوريا Sürya وفي اليونانية هليوس Helios ، وفي الجرمنية القديمة سانيل Sanil . وفي السلافية القديمة سالنس Salence وكلها تدل على الشمس) . ولكن الآلهة الشمسية قد عرفت تاريخاً متحركاً لحد ما ، لدى مختلف الشعوب الهندو ـ أوروبية ، وبخاصة بسبب الاحتكاك مع ديانات الشرق الادنى[٥] . أما بالنسبة للأرض (GHEM جيم) فقد كانت معتبرة كطاقة حياتية مقابلة للسماء ، ولكن الفكرة الدينية للأرض الأم هي أكثر حداثة بين الهندو أوروبيين وتصادف في منطقة (Zone) محددة . ويوجد عنصر كوني آخر ، الريح ، المعبود في الليتوانية ويجوباتيس wejopatis «سيد

الريح» وفي الايرانية فايو Vayu وفي الهندية فايو Vàyu ، ولكنه في حالة هذين الأخيرين ، يتعلق بأكثر من التجليات الكونية : انهما يمثلان ، بصورة خاصة الايراني فايو ، الملامح الاساسية للآلهة العليا . إن الهندو ـ أوروبيين قد أقاموا ميتولوجيا وتيولوجيا متميزتين . فقد قدموا اضحيات ، وعرفوا القيمة السحر ـ دينية للكلمة وللغناء (Kan) . لقد نالوا مفاهيم وشعائر سمحت لهم بتكريس الفضاء واضفاء الصفة الكونية cosmiser على الأقاليم التي كانوا يستقرون فيها (هذا المشهد الاسطوري الشعائري قد تأكد في الهند القديمة ، وفي روما ولدى السلت). مما سمح لهم اضافة لذلك ، باعادة تجديد العالم دورياً (بمعركة شعائرية بين مجموعتين من المحتفلين ، شعيرة استمرت ملامح لها في ايران وفي الهند) .

إن الآلهة كانت معتبرة كما لو أنها حاضرة في الاعياد ، بالقرب من البشر ، وكانت اضاحيها تحرق . ولم يرفع الهندو ـ أوروبيين معابد : ومن الراجح جداً ، إن العقيدة كانت يحتفل بها في مكان مكرّس ومغلق تحت السماء الحرة . وثمة علامة أخرى مميزة : النقل الشفهي للتقليد ، ومنذ اللقاء مع الحضارات في الشرق الادنى ، تحريم استعمال الكتابة .

ولكنه ، كما توجب انتظار ، رؤية العديد من القرون التي تفصل الهجرات الهندو أوروبية الأولى (حثيين ، هندو اوروبيين ، اغريق ايتاليك) عن الهجرات الاخيرة(جرمن بالطوسلاف)، فإن التراث المشترك لم يكن دائماً قابلًا للاعتراف به في اللغة ، ولا في الثيولوجيات والميثولوجيات للعصر التاريخي . ويجب أن يؤخذ في الحسبان ، من جهة ، مختلف الاحتكاكات الثقافية المحققة خلال الهجرات ، ولا يسوغ أن ينسى ، من جهة أخرى ، أن أي تقليد ديني لم يتحدد إلى ما لا نهاية بدون تغييرات ، متحصلة إما بإبداعات روحية جديدة ، وإما باستعارة تكافل أو الغاء .

إن مفردات اللغة تعكس هذه العملية من الافتراق والتجديد المبتدىء على الارجح منذ ما قبل التاريخ . وإن المثل الاكثر دلاله في معناه هو الغياب لمصطلح مميز ، في الهندو أوروبية الشائعة ، الدال على (المقدس). ومن جهة أخرى ، فإنه

يوجد لدينا في الايرانية واللاتينية والاغريقية مصطلحات : قديمة Spenta yaozđata (ر . أيضاً haih weih) ؛ في اللاتينية . Sacer sanctus ؛ وفي الاغريقية hagios hdgios) . «إن دراسة كل واحد من الأزواج المؤكدة . . . . يقود لأن يطرح ، في ما قبل التاريخ ، مفهوماً ذي وجهين : ايجابيي «ما هو مكلف بحضور إلهي ، وسلبي «ما هو محرم على الاحتكاك بالبشر ،»[٧] . كذلك ، وتبعاً لرأي بينيفينست Benvenite ، فإنه لم يوجد مصطلح مشترك ليدل على «الأضحية» . ولكن هذا الغياب «له ما يعارضه في مختلف اللغات ، وغالباً داخل كل منها ، العديد من الدلالات المناسبة لمختلف اشكال العمل التضحوي : اراقة (في السنسكريتية juhati في الاغريقية Spendo) ارتباط لفظى رسمى (في اللاتينية Uoueo وفي الجرمنية Eùkhomai) ، قارب النجاة (في اللاتينية daps) ، تدخين (في الاغريقية thûo) ، شعيرة النور (في اللاتينية lustro)[٨] . أما بالنسبة (للصلاة) فإن اللفظ قد تشكل بدئياً من جذرين مختلفين . وباختصار ، ومما قبل التاريخ المشترك ، فإن مختلف الشعوب الهندو اوروبية كانت تميزت بالاتجاه لاستمرارية إعادة تفسير تقاليدها الدينية . وإن هذه العملية قد تكثفت خلال الهجرات .

٦٣ ـ مذهب التثليث الهندو اوروبي

إن قطعاً متناثرة من مختلف الميثولوجيات الهندو أوروبية تشكل مصدراً هاماً . فبالتأكيد ان هذه القطع هي من عصور مختلفة وقد انتقلت الينا بوثائق متنافرة وبقيم غير متساوية : ترانيم ، ونصوص شعائرية وقصائد ملحمية ، وتعليقات لاهوتية ، وخرافات شعبية ، وصور تاريخية وتقاليد متأخرة مسجلة من قبل كتاب مسيحيين بعد اعتناق شعوب اوروبا الوسطى والشمالية للديانة المسيحية . ومهما يكن من أمر فإن كل هذه الوثائق ثمينة ، لأنها تحفظ أو تعكس (حتى بشكلها المشوه) عدداً من المفاهيم الدينية الأصلية .

إن المبالغات والاخطاء في (الميثولوجيا المقارنة) كما فهمها ماكس موللر وتابعيه ، لا يمكن لها أن تحول دون استعمال هذه المواد . فيكفي عدم اغفال قيمتها الوثائقية . إن اسطورة مؤكدة في (الريغ فيدا) لا يمكن لها أن تكون أكثر حداثة عن الألفين ق.م ، في حين أن التقاليد المحفوظة من قبل تيت ـ ليف بالملحمة الايرلندية أو بالسنوري سنورلوزن Snorristurluson ، هي من وجهة نظر السرد التاريخي أكثر حداثة وبشكل ملحوظ . ولكن إذا كان لمثل هذه التقاليد أن تتوافق في كل نقطة مع الاسطورة الفيدية ، يكون من الصعب الشك بخاصيتها الهندو أوروبية الشائعة ، بخاصة إذا كانت مثل هذه الاعادة للتسجيل غير معزولة ، وإنما جرى التعبير عنها في منظومة .

وهذا ما برهن عليه (جورج دوميزيل G. Dumézel) في مجموعة مؤلفات جددت جذرياً الدراسة المقارنة للميثولوجيات والأديان الهندو أوروبية ، ولا مجال هنا لتلخيصها وانما يكفي القول بأن بحـوث هذا العالم الفرنسي قد كشفت بنية أساسية للمجتمع وللأيديولوجيا الهندو أوروبية . فتقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات ـ كهنة ، محاربين ، مزارعين ـ كان يناسبه ايديولوجيا دينية ثلاثية الوظيفة : وظيفة السيادة السحرية والقانونية ، وظيفة آلهة القوة الحربية ، وأخيراً تلك الألوهية للخصب والرخاء الاقتصادي . إن هذا التقسيم الثلاثي للآلهة والمجتمع يلمس بشكل أفضل لدى الهندو ـ ايرانية . وفي الواقع أن في الهند القديمة ، يتناسب مع الطبقات الاجتماعية للبراهمان (الكهنة ـ مقدمون الاضاحي) وطبقة الكساتريا Ksatrya (المحاربون ، حماة الجماعة ، وطبقة المنتجين (Vaisya) . يتناسب الألهة فارونا وميترا ، والتوأمين نازاتيا أو (الاسفينس les Asvins) . . . .

إن الآلهة نفسها توجد مذكورة في ذات النظام ، ففي المعاهدة المبرمة من قبل ملك حثي ، نحو ١٣٨٠ ق . م مع رئيس اسلاف الهنود (ميتاني Mitani) في آسيا الوسطى : ميترارفارونا [متفير اورافانا] ، اندارا ، النازاتيا الاثنين . كذلك الأمر ، فإن الابستاق l'Avesta تميز الكهنة (اتاهرا ـ فان) ، والمحاربين (مقاتلين في العربات رازي ـ ستار) ومربوا الحيوانات المزارعون (فاستريو ـ فسويان) ؛ ومع

الفارق عما هو في ايران ، فإن هذا التقسيم الاجتماعي لم يتصلب في نظام للطوائف . وحسب هيرودوت (IV ، ٥ ـ ٦) فإن السيت les seythes الايرانيين كانوا هم أيضاً يعرفون ، التقسيم لثلاث طبقات ، وان التقليد استمر حتى القرن التاسع عشر لدى أوسيت القوقاز lesOsse`tes du Caucase ، الأخلاف المتحدرين مباشرة من السيث des Sythes .

لقد كان (السلت) يوزعون المجتمع إلى كهنة قضاة (druides درويد) وإلى ارستقراطية عسكرية (فليت flaith تعنى لغوياً سلطة) المماثلة إلى الكساترا Ksatra في السنسكريتية) وإلى البو إيريج bo airig رجال أحرار (airig) مالكوا الابقار (B^O) . وحسب رأي (دوميزيل) يمكن الاشارة إلى تقسيم اجتماعي مماثل في التقاليد الأسطورية ، ولكنها السحيقة في تاريخها ، من بناء روما : الملك رومولوس ، المحمي من قبل جوبيتر ؛ الاتروسكي لوكومون ، الاختصاصي بالحزب ؛ وتاتيوس والسابينيين الذين جلبوا النساء والثروات . إن الثلاثي في الكابيتول ـ جوبيتر ـ ومارس ـ وكورينوس ـ يشكلون بنوع ما النموذج الالهي «السماوي» للمجتمع الروماني . وأخيراً ، فإن تثلثياً مشابهاً يسود ديانة المثيولوجيا السكندينافية : الآله الأعلى (اوتان) ، و (طهور) البطل و (فراير) سيد الخصب .

ان تقسيم الوظيفة الأولىٰ إلىٰ قسمين أو اتجاهين متكاملين ـ سيادة سحرية وسيادة قانونية ـ متألقة بوضوح بالزوج ڤارونا وميترا . فبالنسبة لقدامى الهنود ، ميترا وهو في الواقع ، الاله الأعلىٰ . «تحت مظهره يدرك ، مضيء ، منظّم ، هادىء ، يقظ كهنوتي ـ وڤارونا السيد تحت مظهره المنقض ، مظلم ، ملهم ، عنيف ، مرعب ، محارب[١٠]» . وإن ذات اللوحة وجدت في روما بصورة خاصة مع نفس التناقضات ونفس التناوبات : انه ، من جانب ، تعارض بين ـ شباب يركضون عراة عبر المدينة ويضربون المارات بسوط من جلد الماعز لتخصيبهن ـ وبين الكهنة بامتياز ، (les Flamines) وهذه هي من جانب آخر ، البنى والمعطيات المختلفة للملكين الأولين : روميلوس ، الذي اسس عبادتي جوبيتر الرهيب ، ونوما Numa) الذي يؤسس معبداً (للفايدس بوبليكا Fides publica) ويبشر بورع خاص جدا لهذه الربة التي حفظت الايمان الصحيح

يسجل المواعظ . ان التعارض ـ رمولوس ـ نوما يغطى في مبدآيه التعارض لو بيركس ـ فلامين ومن جهة أخرىٰ ، انه يتناسب من كل الوجوه مع تناقض قطبيه : قارونار ـ مترا .

إن (دوميزيل) في معرض تحليله للمظهرين من السيادة الالهية لدىٰ الهنود ولدىٰ الرومان ، اشار بحذق للفوارق . ففي الهند الفيدية كما في روما ، عرفت ذات البنية الهندو اوروبية ولكن الساحتين الايديولوجتين غير متجانستين «فالرومان يفكرون تاريخيا ، في حين ان الهنود يفكرون اسطوريا . الرومان يفكرون وطنيا والهنود يفكرون كونيا» . وان الفكر التجريبي ، النسبي والسياسي والقانوني للرومان ، يقابله الفكر الفلسفي ، المطلق ، الدوغمائي الأخلاقي والأسطوري للهنود[11]» . وقد وصفت فوارق مشابهة «للميادين الايديولوجية) لدىٰ شعوب هندو اوروبية اخرىٰ .

وكما قلنا سابقاً ، فإن الوثائق التي نحوذها تشكل العبارات المميزة الخاصة لمختلف الشعوب الآرية عبر التاريخ . واجمالا ، ليس سوىٰ البنية العامة للايديولوجيا الهندو اوروبية التي يمكن الامساك بها ، وليس الفكرة والممارسات الدينية للجماعات الأصلية . ولكن هذه البنية تعلمنا عن نموذج التجربة والايحاء الديني الخاص للهندو اوروبيين . وانها تسمح لنا ، اضافة لذلك ، بالتحقق من ابداعية مميزة لكل واحد من الشعوب الآرية .

وكما امكن توقعه ، فإن أكبر تنوع مورفولوجي قد تأكد علىٰ مستوى الوظيفة الثالثة ، لأن العبارات الدينية ذات العلاقة بالوفرة والسلام والخصب ، مرتبطة بالضرورة بالجغرافيا . وبالاقتصاد والحالة التاريخية لكل جماعة . أما بالنسبة للوظيفة الثانية فإن القوة الطبيعية ، وبصورة خاصة استعمال القوة في المعارك ، قد اوضح (جورج ديموزيل) عدداً من التوافقات بين الهند (سابقا لدىٰ الهندو أوروبيين) وروما والعالم الجرماني . وهكذا فإن التجربة المسارية بامتياز تكونت على أكبر احتمال في معركة المحارب الشاب ضد ثلاثة خصوم أو ضد غول ثلاثي الرؤوس (ممثلاً بدمية . . ؟) وفي الواقع ، ان سيناريو مماثل ، أمكن حل رموزه

في التأريخ لمعركة مظفرة لبطل ايرلندي كوشوليين Cuchulain ضد ثلاث اخوة ، ومعركة هوراس ضد الأخوة الثلاثة كورياس ، وكذلك في اساطير (اندرا) والبطل الايراني تاريتونا Tharetaona ، فكل منهم يقتل غولاً بثلاثة رؤوس . ان النصر يرفع لدىٰ كوشولين وهوراس «رعبا»[باللغة السلتية Furae = Fery] خطراً بالنسبة للمجتمع والذي يطلب أن يكون شعائريا معزماً عليه . اضافة لذلك ، فإن القصة الاسطورية (للآثام الثلاثة) تجد مثيلات لها ، في اسكندينافيا ، في اشارة البطل ستار كاذروس Star catherus ، وفي اليونان ، في ميتولوجيا هرقل(١٢) . ومن الراجح جداً ، ان هذه النصوص الاسطورية ـ الشعائرية لم تستنزف ميتولوجيا وتقنية المحارب من العصر الهندو اوروبي . الا انه من المهم ملاحظة انها قد حفظت في طرفي الشتات ، الهند وايرلندا .

وبمقدار ما يمكن الحكم فيه ،فإن الإيديولوجيا الثلاثية كانت تشكل نموذجاً متماسكا ولكنه قابل للتكيف ، وقد اكملت بشكل مختلف بالعديد من الأشكال الإلهية ، ومن الأفكار والممارسات الدينية . وسيكون لدينا فرصة للتحقيق في عددها وأهميتها بدراسة منفصلة لمختلف الديانات الهندو اوروبية . ومن الحق الاعتقاد بأن الايديولوجيا بالتثليث مع أنها انطلقت في العصر الشائع فإنها كانت استبعدت أو أعادت التفسير جذريا لمفاهيم مقدسة وعلىٰ سبيل المثال مفهوم اله السماء ، خالق وسيد وآب . ان اقصاء داسبوتار لمصلحة قارونا ، التي نجد ملامحها في (الريغ فيدا) ، تبدو انها تعكس أو تحدد عملية أكثر قدما .

٦٤ ـ الآريون في الهند :

كانت القبائل الهندو ـ ايرانية تعرِّف ، في عصرها المشترك ، بعبارة ذات مدلول «رجل ، شريف» airya في اللغة الآفستيقية ، (Avestique)وفي السنسكريتية ârya . وقد كان الآريون بدؤا تغلغلهم في الهند من الشمال ـ الغربي ، في بداية الألفين ، وبعد أربع أو خمس قرون احتلوا اقليم (الانهر

السبعة) Sapta Sindhavah[١٣] ـ أي حوض الهندوس الأعلى ، البنجاب . وكما لاحظنا(ف/ ٣٩ ع) فإنه ممكن ان يكون الغزاة قد غزوا بعض المدن الهارابية Harappiennes . وان النصوص الفيدية تذكر المعارك ضد الداسا Les dâsaأو الداسيووDasyu ، وفيها يمكن التعرف على المتممين أو المبقين على قيد الحياة لحضارة الهندوس . لقد وصفوا بأن لهم جلد أسود (بدون أنف) وان لغتهم بربرية ويعتنقون عبادة عضو الذكر (Sismadeva) . وهم أغنياء بالقطعان ويسكنون تجمعات محصنة (بور Pur) . وان هذه (التحصينات) هي التي كان غزاها اندار Indra ـ الملقب بواراندار Purandura «مدمِّر الحصون» ـ ودمَّرها بالمئات . لقد حصلت المعارك قبل تأليف الأناشيد لأن ذكراها تأسطرت كثيراً .

وان (الريغ فيدا) le Rigveda تذكر أيضاً ان شعباً معاديا آخر : باني Les Pani نهب الابقار ونبذ العبادة الفيدية . ومن الراجح ان هاروبيا Haryûpiyaهو بعينه (هارابا) . واضافة لذلك ، فإن النصوص الفيدية تشير لخرائب (ارمار آرماكا) المسكونه من قبل السحرة ، الأمر الذي يظهر ان الآريين قد شاركوا في المدن المدمرة للسكان القدامى من الاقليم[١٤] .

مع ذلك فإن التكافل مع أهل البلاد الأصليين يبدأ متأخراً ، واذا كان في الكتب المتأخرة من الريغ فيدا ان كلمة/داسا/ تعني (عبد) مشيرة إلىٰ مصير الداسا المغلوبين ، ولاعضاء آخرين من السكان الخاضعين الذين يبدون بشكل مناسب انهم قد ادخلوا في المجتمع الآري ؛ فإن الرئيس داسا Dâsa علىٰ سبيل المثال هو شخص محمود لأنه حمى البراهمان les Brahman (ريغ فيدا ٧٧ ـ ١١١ ٣٢ ٤٦) . ان التزاوج مع السكان الأصليين قد ترك آثاره في اللغة . وان السنسكريتية تمتلك سلسلة من الاصوات Phonèmes وبصورة خاصة الحروف الصامتة المخية الدماغية les Consomes cérébrales التي لا نجدها في أي اصطلاح تعبيري idiome هندو ـ اوروبي ، ولا ايراني . ومن الراجح جداً ، ان هذه الحروف الصامتة تعكس لفظ أهالي البلاد الأصليين الذين اكرهوا على تعلم لغة اسيادهم . كذلك الأمر ، فإن المفردات الفيدية تحتفظ بعدد كبير من الكلمات الما قبل الآرية Ân aryes . وما هو أكثر من ذلك ان بعض الاساطير هي من

مصدر وطني[١٥] . وان هذه العملية من التكافل العرقي raciale والثقافي والديني المؤكد منذ العصور القديمة ، سيتوسع أولاً بأول حسب تقدم الآريين مستقبلاً صوب السهل الغانجي .

إن الهنود الفيديين قد مارسوا الزراعة ، ولكن اقتصادهم كان رعوياً ، بصورة خاصة وكانت الماشية تقوم مقام النقد ؛ وكان اللبن ومشتقاته يستهلك ، وكذلك ايضاً لحوم البقريات . وكان للحصان تقدير رفيع المستوىٰ ، ولكنه كان يحافظ عليه حصراً للحرب ، وللغزوات وللشعائر الملكية (ف /٤٧٣) . ولم يكن لدىٰ الآريين مدن ، وكانوا يجهلون الكتابة . ورغم بساطة ثقافتهم فإن النجارين وحدادي البرونز كانوا يتمتعون باحترام كبير[١٦] . وقد بدىء باستعمال الحديد حوالي ١٠٥٠ ق .م فقط .

لقد كانت القبائل تقاد وتوجه من قبل رؤساء عسكريين راجا Râja وسلطة هؤلاء المليكيين Roitelets كانت تتوازن بمجالس شعبية (سابها وساميتي) Sabhâetsamti . ونحو نهاية العصر الفيدي ، كان قد اكتمل تنظيم المجتمع في اربع طبقات . ان العبارة (فارنا) الدالة على الطبقات الاجتماعية ، يعنى اللون : اشارة على التعدد العرقي الذي كان اساس المجتمع الهندي .

إن الأناشيد لا تكشف سوىٰ بعض مظاهر الحياة في العصر الفيدي . وان التصوير كان موجزاً : فالآريون يحبون الموسيقىٰ والرقص : وهم يعزفون على الناي والمزهر والقيثارة . انهم مولعون بالمشروبات المسكرة سوما وسورا Soma et Surâ والسورا لا معنى ديني لها . وكانت لعبة النـردشعبية جداً ، إن أنشودة كاملة في الريغ فيدا (١٠ ، ٣٤) مكرسة لهذه اللعبة . وان عدداً من الأناشيد تشير الى نزاعات بين مختلف القبائل الآرية . وأكثرها شهرة قبيلة بها راتا Bharata وكانت قد انتصرت في ظل مليكها سوداس Sudas علىٰ عشر امراء متحدين ، ولكن المعطيات التاريخية للريغ فيداً فقيرة جداً . بعض اسماء القبائل الفيدية ـ مثلا اسم بها راتا ـ تعاود ظهورها في الأدب المتأخر . وان الماها بها راتا Mahâbharata ، المؤلفة علـى الأقـل بعد خمسة أو ستة قرون من العصر الفيدي ، تروي الحرب

الكبرىٰ بن الكورو Les Kuru وابناء عمومتهم الباندافا les Pândavaوحسب التقليد المحفوظ لدى (البورانا) ، فإن هذه الحرب يمكن ان تكون قد حصلت حوالي ١٤٠٠ ق .م في المادهيا ديزا Ma dhya desia ، في وسط شبه الجزيرة ، الأمر الذي يدل على تدخل الآريين لما بعد الغانج . وفي الوقت الذي حررت فيه الاطروحة اللاهوتية الكبرىٰ المسماة (ساتاباتا براهمانا) ما بين ١٠٠٠ ـ ٨٠٠ق .م

فإن مقاطعتي كوزالا وفيديها كانتا قد اصبحتا آريتين ، ومن جانبها فإن (الرامايانا) تظهر ان التأثير الآري كان قد امتد نحو الجنوب .

وكما ان خصوم الآريين قد تحولوا اسطوريا ، ومسخوا (شياطين) و (سحرة) فإن المعارك الناشبة خلال غزو الاقليم كانت قد تحولت صورها ، وبدقة أكثر قد تمثلت بمعارك ندار ضد فرترا وكائنات شيطانية اخرىٰ .

وسنناقش فيما بعد التطبيقات الكونية لمثل هذه المعارك النموذجية (ف ٦٨ ع) . أماهنافنشيرالى أن احتلال اقليم جديد كان سيصبح شرعيا باقامة مذبح (جاراباتيا) موقوف علىٰ آغني Agni «يقال بأنه قد استقر عندما بنى مذبح ، وان كل الذين بنوا مذبح النار قد استقروا» [ستابازا ٨٠ ، ١١ ـ ٤] غير ان اقامة مذبح موقوف على (أغني ليس شيئاً آخر سوىٰ التقليد الطقوسي للخليقة ، وبعبارة أخرىٰ ، فإن الإقليم الممثل هو بادىء ذي بدء متحول من العماء إلىٰ نشكوني وبفعل الشعائر يتلقى شكله ويصبح حقيقة .

وكما سنرى ، فإن مجمع الآلهة الڤيدي محكوم بالآلهة . إن بعض الربات المعروفة باسمها تلعب دوراً يكاد أن يكون متلاشياً : الغامضة آديتيAditi ، أم الآلهة ؛ وأوزاس Usas(ربة الغجر) و(باتري) التي كرست لها الإنشودة الجميلة في الريغ ڤيدا (١٠ ـ ٥ : ـ ١٢٧) . وأكثر من هذا دلالة هو أذن الوضع السائد للربة الكبرى في الهندوسية : إنها تبرز ، تأكيداً ، انتصار التدين الماقبل براهمانية ، وأيضاً المقدرة الخلاقة لروح الهندية . وبالتأكيد ، يجب أن يؤخذ في الحسبان واقعة أن النصوص الفيدية تمثل النموذج الديني لنخبة كهنوتية كانت استخدمت

أرستقراطية عسكرية ، وباقي المجتمع ـ أي الأكثرية ـ الفيسيا والسودرا ـ تقاسمت على الأرجح أفكاراً ومعتقدات مماثلة لتلك التي ستوجد ، بعد ألفي سنة في الهندوسية[١٨] . إن الأناشيد لاتعكس الديانة الفيدية في مجملها ، وقد تألفت من أجل اجتماع مشغول مسبقاً بالخيرات الأرضية في المقام الأول صحـــة ، طول العمر ، تكاثر الأولاد ، وفرة الماشية ، الثروات[١٩] . ومن المعقول إذن التفكير بأن بعض المفاهيم الدينية التي ستصبح شعبية بعدئذ ، كانت قد صيغت في العصر الفيدي .

إن القدرة الخلاقة للروح الهندية التي سنشير إليها ، تبدو بصورة خاصة في عملية التكافل والتمثل وإعادة التقييم الذي يؤدي إلى جعل الهند آرية ، وبعدئذ ألى جعلها هندوسية . لأن هذه العملية تحقق ذاتها . في حوار مع النموذج الديني الذي أحياه البراهمان على قاعدة (الكشف) الفيدي (سروتيSruti) . وفي آخر المطاف ، أن الوحدة الدينية والثقافية للهند كانت النتيجة لسلسلة من التركيبات المنجزة تحت دلالة الشعراء الفلاسفة والطقوسيين من العصر الفيدي

٦٥ ـ فارونا إله أولي : ديفا وآزورا :

إن الأناشيد لاتمثل الشكل الأكثر قدماً للديانة الفيدية ، فدايوسDyaus ، الاله الهندو ـ أوروبي للسماء ، سبق اختفاؤه من العقيدة . ويدل اسمه الآن على السماء أو النهار . وإن اللفظ يدل على تشخيص لقداسة أورانية انتهت بالدلالة على ظاهرة طبيعية . إنه يتعلق بعملية مألوفة لدرجة مافي التاريخ الآلهة السماوية : إنها تمحي أمام آلهة أخرى وتصبح (dii Otiosi) . مفارقة . وليس سوى في المعيار الذي أجِلَ فيه بصفته إلهاً أعلى ، أن نجح إله سماوي بالحفاظ على مزيته الأساسية . مع ذلك فإن الشعراء الفيديين يتذكرون أيضاً عن «السماء التي تعرف كل شيء» (آذار ڤاڤيد ـ ١ ، ٤٣٢) ويدعون «السماء الأب» ، ديوسبيتارDyuspitar (ذات المرجع ٤ ، ٤ ، ٣) أو بصورة خاصة دايوس Dyaus هو ماثل في الزوج

الأولي ، ديافا بريزيفي ، Dyâvâprithivi (السماء والأرض) (رينغ فيدا ، ١ - ١٦٠) .

وسرعان ماأخذ فارونا مكان دايوس وأصبح الاله السيد بامتياز . ولاتعرف بشكل جيد المراحل التي سبقت ترقيته لصف ملك عالمي سامراج samraj (ر . ف ٧ - ٨٢ ٢) وفارونا يعرف بصورة خاصة بلقب آزوراasura ، لقب محاز من جهة أخرى من قبل آلهة أخرى ، على سبيل المثال آغني (أ . ف . ١ - ١٠ - الخ) . وعليه فإنالآزورات les Asuraa كانوا يشكلون العائلة الالهية الأكثر قدماً (أ . ف . ١٠٠ ، ٣) إن النصوص الفيدية تشير للنزاع الذي تواجه فيه الآلهة devas مع الالهة Asuras . وأن هذا النزاع سيروى على شكل واسع وسيفسر ، في العصر مابعد الفيدي ، في البراهماناس les Brahmanas وهي بحوث مخصصة لسر الأضحية . وفي الواقع إن نصر الآلهة قد تقرر عندما ترك آغني بناء على دعوة من أندرا ، عندما ترك الآزوراس الذين لم يكونوا يملكون الأضحية (ر . ف . ١٠ ، ١٤٤ ، ٧٠ ، ٥٠) وبعد وقت قصير رفع الديفاس الكلام التضحوي (فاك Vac) إلى الآزوراس . وعندئذ دعا أندرا فارونا ليمر في مملكته (ر . ف ٧ -٥) . إن نصر الديفاس على الآزوراس قد تمثل بانتصار أندرا على الدازيوس الذين كانوا مستقرين في الظلمات الأكثر عمقاً . (٤ ، ٩٩ ، ٨ ، ر . ف و أ - ف ٩ ، ٢ ن الخ) هذا النزاع الاسطوري يعكس معركة (آلهة الشباب) الذين يقودهم أندرا ضد مجموعة آلهة بدئيين ، إن واقعة شهرة الآزوراس بأنهم سحرة بامتياز (٤, ٩ ، ٣ - ٨٧٠) وأنهم تمثلوا بسورا suras ، هذه الواقعة لاتعني بالضرورة أنهم يمثلون الآلهة للسكان الوطنيين الأصليين لما قبل الآرية . ففي الفيدا يستعمل لقب آزورا كصفة لأي إله كان ، حتى لدايوس وأندرا (وهذا الأخير سمي سيد الآزوراس) (أ . ف . ٤ ، ٣٨٣) . وبعبارة أخرى فإن مصطلح آزورا يوحي بالسلطات ، أو القوى المقدسة المميزة لمركز أولي ، وعلى الأخص ذلك الذي وجد قبل التنظيم الحالي للعالم . إن الآلهة (الشباب Divas) ، لم يتوانوا عن انتزاع هذه السلطات المقدسة ، وهذا هو السبب الذي من أجله يتمتعون بلقب آزورا . وتقتضي الاشارة إلى أن (زمن الآزوراس) يسبق العصر الحالي ، المحكوم من

الديفاس . وفي الهند ، كما في عدد من الديانات القديمة والتقليدية ، يفسر المرور من عصر بدئي للعصر الحالي بمصطلحات نشكونية cosmogonique أي مرور من (حالة) عمائية chaotiqne إلى عالم منظم cosmos . وسنجد هذه الخلفية الكونية في المعركة الاسطورية لأندرا ضد التنين الأولي فرترا Vrtra (ف ـ ٦٨ ع) . وعليه ، فإن فارونا بكونه إلها بدئياً ، الآزورا بامتياز ، فقد توحد بفرترا وهذا التوحد قد جعل من الممكن وجود سلسلة كاملة من تأملات باطنية سرية حول سر ثنائية الوحدة الالهية .

٦٦ ـ فارونا ـ ملك كوني و(ساحر) : «رتا» و«مايا» :

إن النصوص الفيدية تقدم فارونا بصفته إلهاً أعلى : إنه يحكم على العالم ، الآلهة Devas والبشر . ولقد «مطَّ aetire الأرض كجزار يصنع الجلد ، لتكون سجادة للشمس .» إنه وضع الحليب في الأبقار ، والذكاء في القلوب ، والنار في المياه ، والشمس في السماء ، والسوما على الجبل» (ر . ف ١ ـ ٢ ٧٨٥) . إنه كمدير كوني cosmo Crate يحوز بعض الأتباع من الآلهة السماوية : إنه فيزفا دارساتا Visivadarsata «قابل لأن يرى في كل مكان» (ر . ف ١ ـ ٢ ٧٨٥) . كلي العلم (أ ف ، ٤ ـ ١٦ ـ ٢ ـ ٧) ولايغلب (ر . . ف . ١٦ ـ ٢ ـ ٧) . «إنه ذو ألف عين» (ر . ف ـ ٧ ـ ٣٤ ـ ١٠) . تعبير اسطوري للنجوم . باعتباره (يرى كل شيء) وأي ذنب لاتفوته رؤيته مهما أخفي . فالبشر يشعرون كعبيد في حضرته (١ ـ ٢٥ ، ر ـ ف) ، (سيد مرعب ، حقيقي) سيد العلاقات له السلطة السحرية يربط ضحاياه عن بعد ، ولكن لتحريرهم أيضاً . إن العديد من الأناشيد والطقوس يقوم موضوعها على حماية أو تحرير الانسان من شباك فارونا[٢١] . وقد مثل ، بحبل في يده ، وكل مايربط في الحفلات للبدء بالعقد يسمى (فارونين) Varunien .

بالرغم من هذه المزايا الاستعراضية ، فإن فارونا كان في انحدار في العصر الفيدي . إنه بعيد عن التمتع بشعبية (أندرا) مثلاً . ولكنه مرتبط بمعنيين دينيين

سيكون لهما مصير استثنائي : (رتا) و(مايا) . إن الحكمة رتا . هي اسم المفعول من فعل تكييف أو تآلف وتدل على نظام للعالم ، هو في آن واحد كوني وطقوسي وأخلاقي[٢٢] . لايوجد نشيد موجه إلى رتا ولكن الاشارة إلى المصطلح مألوفة جداً (أكثر من ٣٠٠ مرة في الريغ فيدا) . فيشار إلى أن الخليقة قد صنعت بالتوافق مع (رتا) ويردد بأن الآلهة تعمل حسب الـ(رتا) وأن الرتا يدير بشكل حسن الايقاعات الكونية وكذلك السلوك الأخلاقي . إن ذات المبدأ يحكم أيضاً العبادة . وإن مقر رتا هو في أعلى سماء أو في مذبح النار .

وعليه فإن فارونا رقي في بيت رتا وهو يعلن أنه يحب الـ (رتا) ويشهد من أجل الـ (رتا) . إنه يدعى ملك الرتا . ويقال بأن هذا العنصر العالمي المتوحد بالحقيقة قد أسس فيها . إن من يخالف القانون مسؤول تجاه فارونا وإن فارونا هو وحده دائماً الذي يعيد /إقامة النظام المتضرر بالخطيئة ، وبالذنب أو الجهل . إن المجرم يأمل الغفران بواسطة الأضاحي « التي هي من جهة أخرى ، معينة من قبل فارونا نفسه» . كل هذا يوضح بنية إلهه للادارة الكونية . ومع مرور الزمن أصبح فارونا إلهاً عالمياً مفارقاًdius otiosus مستمر الحياة وبصورة خاصة في العلوم الشعائرية وفي الفولكلور الديني . مع ذلك فإن علاقاته مع فكرة النظام العالمي تكفي لتضمن له مكاناً هاماً في تاريخ الروحانية الهندية[٢٣] .

ومن النظرة الأولى يبدو متناقضاً، وإن حارس الرتا هو في ذات الوقت مرتبط صميميا بمايا. إن المشاركة هي على الأغلب قابلة للفهم إذا أخذنا في الحسبان واقعة أن الخليقة الكونية (لفيرونا) لها مظهر سحري أيضاً . ومن المتفق عليه ، اشتقاق العبارة مايا من الجذر may (غيَّر) . وفي الريغ فيدا أن مايا تعني (التغيير المدمر أو المنكر المنافي للأواليات الحسنة ، والتغيير الشيطاني والمخادع ، وأيضاً فساد الفساد)[٢٤] . وبعبارات أخرى يوجد مايات سيئة ومايات حسنة ، في الحالة الأولى ، تتعلق بالجيل وبالسحر . وبخاصة أنواع السحر المتعلق بالتحول لنموذج شيطاني مثل تلك التي للأفعى فرتر التي هي الماين mayin أي الساحر . وبامتياز أن مايا من هذا النوع تفسد النظام الكوني ، وعلى سبيل المثال تعيق مسير الشمس أو تمسك المياه حبيسة الخ .

أما بالنسبة للمايات الحسنة فإنها على نوعين :

١ـ مايات المعركة ، ومايات (ضد ـ مايا) المستعملة من قبل أندرا عندما يتبارى ضد الكائنات الشيطانية[٢٥] .

٢ـ المايا الخالقة لأشكال وكائنات والمتميزة عن الآلهة العليا . وفي الدرجة الأولى عن فارونا . فهذه المايا الكوزمولوجية يمكن اعتبارها كمعادلة لـ (رتا) . وفي الواقع ، أن العديد من المشاهد تمثل تعاقب الليل والنهار ومسيرة الشمس وسقوط المطر وعناصر أخرى مدخلة إلى رتا كنتيجة للمايا الخالقة .

في الريغ فيدا إذن ، وحوالي ١٥٠٠ سنة قبل الفيدانتا الكلاسيكية حيث عرف المعنى الأول للمايا «التغيير المراد» أي الفساد ـ خلق أو تدمير ـ وفساد الفساد . وليلاحظ منذ الآن أن أصل المفهوم الفلسفي للمايات تورية كونية . عدم حقيقة ، غير كائن ـ توجد في آن واحد في فكرة «التغيير» وفي فساد العنصر الكوني ، إذن تغيير سحري أو شيطاني ، وفي الفكرة للقوة الابداعية لفيرونا ، الذي بواسطة ماياه يعاود بناء النظام الكوني . ومن هنا نعرف لماذاأن (مايا) قد وصلت لتعني الخيال الكونيl'illusion cosmique، لأن هذا ، منذ البدء يتعلق بمفهوم مختلط بله متناقض : ليس مجرد فساد شيطاني للنظام الكوني ، وإنما ابداعية إلهية أيضاً . وفيما بعد فإن الكون ذاته سيصبح ، بالنسبة للفيدانتا ، تحولاً وهمياً ، وبعبارة أخرى نظاماً من التغيرات مجرداً عن الحقيقة .

وللعودة إلى فارونا ، نؤكد أن طريقة تكونه ـ ملك رهيب ، ساحر ومعلم الأنشوطات ـ يجيز تقارباً مفاجئاً مع التنين فرترا . ومع الظن بالتقارب الاشتقاقي اللغوي لأسميهما[٢٦] ، يحسن أن نشير إلى أن الاثنين يوجدان بعلاقة مع المياه ، وفي المكان الأول مع المياه الحبيسة) . «فارونا الكبير خبأ البحر» (ر . ق ٩ ٧٣ ، ٣) . الليل (الغير ظاهر)[٢٧] المياه (بالامكانية ، البذور) «المفارقة» و «عدم العمل» (المميزة للآلهة العليا) ولها علاقة متضامنة أسطورية وفلسفية في آن واحد ، مع العلاقات من كل نوع ، من جهة ، ومع التنين فرترا من جهة أخرى ، الذي كما سنرى ، كان قد (حبس) و (أوقف) أو (قيد) المياه .

وأكثر من هذا أن (فيرونا) قد تمثل بالأفعى آهي Ahi وبفرترا[٢٨] . وفي الأتهارفا فيدا (١٢ ـ ٥٧ ـ ٣١) قد نُعت بحية سامة . إلا أن فارونا بصورة خاصة في الماهابهارراتا ، قد تماهى بالأفاعي . لقد دعي «سيد البحر» و«ملك الناغاس Nagas» ، أو المحيط هو «محل إقامة الناغاس»[٢٩]

٦٧ ـ أفاعي وآلهة . ميترا ، آريمان ، آديتن .

إن هذا الغموض وهذا التضاد لفارونا ، هام جداً من وجهات نظر متعددة ، ولكن الصفة النموذجية بصورة خاصة لتوحيد الأضداد هي مايجب إن يلفت الانتباه . إنها تشكل في الواقع واحدة من المميزات للفكر الديني الهندي ، ومن زمن طويل قبل أن تصبح موضوعاً للفلسفة النسقية . إن التنافر والوحدة بين الأضداد ليست خاصة بفيرونا فقط . إن الريغ فيدا (١ ، ١٧٩) سبق أن وصفت آغني بالأفعى الغاضب. وتؤكد (آيتاريا براهمانا) (٣-٣٦) إن الأفعى آهي بودهنايا هي بطريقة غير مرئية (باروكسينا) اكثر مما هي آغني بطريقة مرئية (براتياتا). وبعبارات أخرى ، إن الأفعى هي إمكانية للنار ، في حين أن الظلمات هي النور الغير ظاهر ، وفي الفاجاساني سامهيتا (ف ، ٣٣) أن آهي بودهنايا والشمس (آجا إيكاباد) هما متوحدين . فعندما تشرق الشمس في الفجر «تتحرر من الليل . . تماماً مثل آهي يحرر نفسه من جلده» (سات . بر . ٢ ، ٣ و ١ ٣ و ٦) . كذلك الأمر فإن الاله سوما Soma «تماماً مثل آهي ، يزحف خارج جلده القديم» (ر . ف ١٠ ٨٦ ، ٤٤) .

إن الساتاباثا براهمانا توحده بفرترا (٣ ، ٤ ، ٣ ١٣ الخ) . ويؤكد بأن الآديتياس les Aditgas كانت في الأصل أفاعي . بتغييرها لجلودها القديمة الأمر الذي يعني أنها اكتسبت الخلود («أنا قهرت الموت») ـ أصبحات آلهة ، ديفاس (بانكافيسها . بر ٢٥ ، ١٥ . ٤) . وأخيراً تعلن الساتافا براهما (١٣ ، « إن علم الأفاعي (ساربا ـ فيديا) هو (الفيدا)»[٣٠]. وبعبارات أخرى ، إن المبدأ

الآلهي هو بتناقض متوحد مع « علم » الذي ، في البداية على الأقل ، كانت له صفة « شيطانية ».

بكل تأكيد ، إن تمثيل الآلهة بأفاعي يمدد لحد ما الفكرة المثبتة في االبراهي نارياكا أو بانيشاد (١ ، ٣ ، ١ ،) بأن الديفاس والآزوراس هم أبناء براجاباتي ، وأن الآزوراس هم الأبكار من هؤلاء الأبناء . إن الاسقاط العام للصور المتضادة يشكل واحداً من التعابير المفضلة لايضاح الوحدة الكلية الأولية . وسنجد مثلاً استعراضياً بدراسة الشروح اليتولوجية للمعركة الأسطورية الشهيرة بين «أندرا» و «فرترا» .

أما بالنسبة الى ميترا mitra ، فان دوره ثانوي عندما انعزل عن /فارونا/ . فقد كرس له نشيد واحد في الفيدا [ر . ف ٣ ـ ٥٩] . ولكنه يشاطر مع فارونا ملحقات السيادة ، بتجسيده للمظهر المسالم ، العطوف ، والقانوني والكهنوتي . وكما يدل عليه اسمه ، (العقد) مجسداً ، تماما مثل ميترا mithra في الابستاق avestique . إنه يسهل المعاهدات بين البشر ويجعلهم يلتزمون بتعهداتهم . ان الشمس هي عينه [ت . ب . ٣ ـ ٥١ ، ١] انه كلي الرؤية لا يفوته شيء . ان أهميته في النشاط والفكر الديني تظهر بصورة خاصة عندما يستدعى مجتمعاً مع فارونا الذي هو في آن واحد الضد والمكمل . ان الثنائي ـ ميترا ـ فارونا ، الذي كان فيما سلف في عصر أكثر قدما ، يلعب دوراً بارزا بصفته تعبيراًممتازاً عن السيادة الالهية ، قد استعمل بعدئذ كتعبير نموذجي من أجل كل نوع من الازواج المتضادة والمتعارضات المتكاملة .

ان لميترا شركاء ، اريمان وبهاكا ، أولهما يحمي مجتمع الآريين : فهو يدير على الأخص الأعمال القانونية التي تقيم الضيافة وتهتم بالزواجات . وبهاجا Bhaga ، الذي يعني اسمه /جزء/ ، وهو يضمن توزيع الثروات .

إن أريمان وبهاجا مجتمعين مع ميترا وفارونا (وأحيانا مع آلهة أخرى) يشكلون جماعة الاديتاس des Adityas أو أبناء الربة (آديتي ج)Aditi الغير مرتبطة

ـ آي الحرة . وقد سبق آن نوقشت باستفاضة بنية هذه الربة منذ ماكس موللر . فالنصوص تماهيها بالأرض أو حتى بالعالم ، انها تمثل الامتداد ، والعرض ، والحرية[٣١] . ومن الراجح جدا أن آديتي كانت ربة كبيرة أما والتي ، بدون أن تنسى تماما ، نقلت صفاتها ووظائفها لأبنائهاles Adityas .

٦٨ ـ اندرا ، بطل ، وخالق العالم.

ان اندرا هو الاله الأكثر شعبية في الريغ فيدا . وقد وجه اليه حوالي ٢٥٠ نشيد . ومع المقارنة لـ ١٠ موجهة الى فارونا و٣٥ الى ميترا وللاديتاس مجتمعين ، فهو البطل بامتياز ، ونموذج مثالي للمحاربين ، وخصم عنيد للدازيوس . ان انصاره الماروت maruts تعكس ، على مستوى أسطوري المجتمعات الهندو ـ ايرانية للمحاربين الشباب /ماريا/ . ولكن /اندرا/ هو أيضا خالق العالم dimiurge ومخصب ، وتشخيص للحيوية المفرطة للحياة ، وللطاقة الكونية والبيولوجية ، لا يعرف التعب متمم لسوما/ النموذج القديم للقوى التناسلية ، لقد أطلق العواصف الهوجاء وأراق الأمطار وقاد كل البشرية .[٣٢] .

إن الأسطورة المركزية لاندرا ، والتي هي إضافة لذلك الأكثر أهمية من أساطير الريغ فيدا ، تروي قصة معركته المظفرة ضد (فرترا) التنين الجبار الذي حبس المياه في /حفرة الجبل/ . ومدعما بسوما فان اندرا جندل التنين فرترا أرضاً .

وبواسطة مدفعه الصاعقة ، السلاح الذي كان قد حدد forgé من قبل تفاستر Tvastr شق رأسها وحرر المياه التي سالت نحو البحر (كابقار خائرة) . [ر . ف ٥ ـ ١٣] إن معركة ضد إله غول افعواني أو بحري تشكل ، كما نعلم ، لازمة أسطورية منتشرة جداً . ويمكن أن نعيد الى الذاكرة المعركة بين رع وأبو فيس وبين الاله السومري نيفورتا وأساج ، ومردوك وتيامات والاله الحثي للعاصفة والأفعى ايلويانكا . وزوس وتيفون والبطل الايراني ترايتونا والتنين ذي الرؤوس الثلاثة .

وفي بعض الحالات (ماردوك ـ ثيامات ، مثلا)، يشكل نصر الاله الشرط المسبق لعلم الكون . وفي حالات أخرى ، الرهان هو افتتاح لون جديد ، أو الاقامة لسيادة جديدة (زوس ـ تيفون ـ بعل ـ يام) وبالاجمال ، فانه باماتتهَ غول افعواني ـ رمز ضمور العماء ولكن أيضا الوطني ـ يتكون وضع جديد ، أو وضع تأسيسي ، إن خطا مميزاً ، وشائعاً في كل هذه الاساطير ، هو الخوف ، أو خيبة أولى للبطل ، فماردوك ورع ترددا قبل المعركة ، وفي الشوط الأول توصلت الأفعى (ايلليانكا) لبتر عضو من الاله ، ونجح تيفون بقطع واستئصال عرقوبي زوس . وحسب الساتاباتا براهمانا (١ ـ ٢٦ ـ ٣ ـ ١٧) هرب اندرا عند مشاهدته لفرترا ، هرب لأبعد ما يمكن وقد وصفته ماركيندايا بورانا كمريض من الخوف وتمنت له السلام[٣٣] .

وسيكون من غير المجدي الوقوف عند تفسيرات الطبيعيين لهذه الاسطورة : لقد رأينا في الانتصار ضد فرترا ، سواء أطلقت المياه بالعاصفة ، سواء بتحرير مياه الجبال ، (أولدنبرج) وسواء بانتصار الشمس ضد البرد الذي كان /حبس/ المياه بتجميدها (هيل براندت) . لقد رأينا أن عناصر طبيعية ، هي بالتأكيد ، ماثلة طالما أن الأسطورة متعددة القيمة ، ان انتصار اندرا يعادل ، بين انتصارات اخرى ، انتصار الحياة ضد الحرب والموت ، نتيجة لعدم تحرك المياه من قبل فرترا . ولكن بنية الاسطورة هي هي بنية كونية . ففي الريغ فيدا (١/٣٣/٤) قيل انه ، بنصره ، خلق الاله الشمس والسماء والفجر . وحسب أنشودة أخرى (١٠ ـ ١١٣ ـ ٤ ـ٥) فإن اندرا ، منذ ولادته فصل السماء والأرض ، وثبت القبة السماوية وباطلاقه الصاعقة (فارجرا) ـ مزق فرترا الذي كان يحبس المياه في الظلمات . وعليه فان السماء والأرض هما آباء الآلهة . (١ ـ ١٨٥ ـ ٦) واندرا هو الأكثر شبابا (٣ ـ ٣٨ ـ ١) وأيضا هو آخر اله يولد ، لأنه وضع نهاية لزواج السماء بالأرض . «بقوته نشر هذين العالمين ، السماء والأرض ، وجعل الشمس تشع» (٨ ـ ٦٣) . وبعد هذا العمل لخلق العالم فإن أندرا عين فارونا كمدير للكون وحارس دِرتا (الذي بقي مختبئاً في العالم السفلي) [١ ـ ٦٢ . ر . ف] .

وكما سنرى (ف ٧٥ع) يوجد أيضا نماذج أخرى لعلوم الكونيات الهندية تفسر خلق العالم بدءاً من مادة أولية ، وهذه ليست حالة الأسطورة التي لخصناها ، لأنه ، هنا ، نموذج واحد من /العالم/ كان يوجد مسبقاً . وفي الواقع ان الأرض والسماء كانتا مكونتين وقد حملتا بالآلهة . واندرا لم يفعل سوى فصل الآباء الكونيين وبتفجيره لفرترا وضع حداً للجمود بله الضمور المرموز اليه بطريقة الكينونة للتنين[٣٤] . وحسب بعض التقاليد ، فان «الصانع» للآلهة تفاستر Tvastr ، الذي لم يكن دوره واضحا في الريغ فيدا ، كان قد أنشأ لنفسه بيتا وخلق /فرترا/ كنوع من سقف ولكن ايضاً جدارا من أجل هذا المسكن . وفي داخل المسكن ، المحاط بفرترا ، كانت توجد السماء والأرض والمياه[٣٥] . وقد جعل اندرا هذه العوالم تنبثق بكسره مقاومة ومعاندة فرترا . وبعبارة أخرى ، ان العالم والحياة لم يمكن لهما أن يتولدا الا بإماتته كائن أول عديم الشكل . وفي ظل ما لا حصر له من المتغيرات ، تنتشر هذه الأسطورة كثيرا ، وفي الهند ذاتها سنجدها في تقطيع بوروسا Purusa من قبل الآلهة وفي تضحية براجاباتي . ومع ذلك فان اندرا لم يكمل الأضحية ، وانما بصفته محاربا قتل الضد النموذجي ، التنين الأول ، التجسيد /للمقاومة/ و/العناد/ .

إن الأسطورة متعددة ، القيم فإلى جانب مدلولها الكوني يوجد متكافئات طبيعية وتاريخية . وان معركة اندرا كانت تستخدم كنموذج للمعارك التي استمر الآريون يعتمدونها ضد الدازيوس DASYS (المسماة من جهة أخرى فراتاني) . «فمن ينتصر في معركة يقتل فرترا فعلاً» . ومن الراجح ، أن المعركة في العصر القديم بين أندرا وفرترا كانت تشكل السيناريو الأسطوري الشعائري لأعياد السنة الجديدة التي تضمن تجدد نسل العالم[٣٦] . واذا كان هذا الاله هو في آن واحد بطل لا يتعب ، وخالق العالم ، وتجلى القوى الجنسية والخصب العالمي ، فان هذا التكوين بالعنف ينشىءالحياةوينميها ويجددها. إلاأنه سرعان مايستعمل التأمل الهندي هذه الأسطورة كتمجيد للوحدة ـ الثنائية ـ الالهية ، وبالنتيجة كمثال تأويلي hermeneutique للنصوص ، والهادف لكشف الحقيقة الكلية .

٦٩ ـ آغني الكاهن : نار التضحية ، النور ، العقل

إن الدور الثقافي للنار /الأهلية/ المنزلية كان هاما فيما سبق العصر الهندو- أوروبي . وهو يتعلق ، تأكيدا ، بعرف يعود لما قبل التاريخ ، وقد تأكد من جهة أخرى على نطاق واسع في عدد من المجتمعات البدائية . إن الاله/آغني/ يمثل في الفيدا قداسة النار بامتياز ، ولكنه لا يدع نفسه محصورا بهذه التجليات الكونية والشعائرية . فهو ابن دايوس (ر . ف ٢٦ ، ١٠) تماما كشبيهه الايراني آتار الذي هو ابن لآهـورا ماذدا (الينساق ١٢/ع) ولقد ولد في السماء ونزل منها على شكل نور ، ولكنه وجد كذلك في الماء ، وفي الخشب ، وفي النباتات . وزيادة على ذلك توحد بالشمس .

إن آغني وصف ، في آن واحد ، بتجلياته النارية وبنعوته الالهية المميـزة له . ويذكر ان «شعره من لهب» و«فكه من ذهب» والضجة والرعب الذي ينتجه . «عندما تنقض على الأشجار كثور هائج ، فإن ذيلك أسود» [ر . ف ١ ـ ٥٨ ـ ٤] . إنه الرسول بين السماء والأرض وعن طريقه تصل التقدمات للآلهة . ولكن آغني هو بصورة خاصة النموذج القديم للكاهن ، ويسمى المضحي أو الكاهن ـ (بورهيتا) . لهذا فإن الأناشيد المكرسة له وضعت في بداية الريغ ـ فيدا النشيد الأول الذي يفتتح بهذه العبارة : «اغني لآغني ، الكاهن ، رب الأضحية ، الكاهن المنذور للخدمة الذي يغمرنا بالهبات» [ترجمة جان فارينا] . انه شاب خالد الشباب «الرب الذي لا يشيخ» [ر . ف ٢ ـ ٥٢] لأنه يعاود الولادة مع كل نار جديدة . بكونه سيد البيت (غريها سباتي) فان آغني يطرد الظلمات ، ويبعد الشياطين ، ويكافح ضد الأمراض والرقية . ولهذا السبب فان علاقات البشر مع آغني هي أكثر صميمية مما هي مع الآلهة الأخرى . «انه هو الذي يوزع بعدل الأموال المرغوبة» [١ ـ ٣ ٥٨] انه يدعى بثقة : «أوصلنا يا أغني للثروة بالطريق الصحيح ، قنا الاخطاء التي تضل . .قنا من الأمراض . . أحمنا دوما يا أغني ، بواسطة حراسك الذين لا يتعبون . . لا تتركنا للأشرار للمخرب للقاتل ولا لسيء الحظ» [ترجمة فارين ١ ـ ١١٨٧ ـ ٥][٣٧] .

ومع كونه كلي الحضور في الحياة الدينية ـ لأن نار التضحية تلعب دوراً بارزاً ـ فإن آغني لا يمتلك ميتولوجيا قابلة للتحديد . ومن بين الأساطير النادرة التي تخصه مباشرة ، فان أكثرها شهرة هي /ماتا ريزفان/ الذي حمل النار من السماء(٣٨) وفي ميدان علم الكون ، فان دوره كما يبدو مشوش ولكنه هام . فمن جهة سمي (جنين المياه) (أبو نجار باه) [٣ ـ ١ ـ ١٢ ـ ١٣] وهو يستدعي منبثقاً من رحم المياه ، الامهات [١٠ ـ ٩١ ـ ٦] . ومن جهة أخرى يعتبر انه قد اخترق المياه الأولية ، وانه أخصبها . وهذا يتعلق ، تأكيدا ، بمفهوم كوني قديم : الخلق عن طريق قران عنصر ناري igné (نار ، حرارة ، ضوء ، مني رجولي) مع مبدأ مائي (مياه ، كمون = امكان فعل سوما) . ستوجد بعض الصفات لآغني (حرارة ، لون ذهبي لأنه ينسب اليه جسم من ذهب [ر . ف : ٤ ، ٣، ١ ـ ١٠ ـ ٩٢] ـ قدرات منوية spermatiqes وخلاقة) في التعليمات التشكونية المثارة حول هيرانيا جاربها (الجنين الذهبي) وبراجاباتي (ف ٧٥ ع) .

وتبرز الاناشيد القدرات الروحية لآغني : انه رزي Rsi موهوب ذكاء خارقاً وبصيرة . وللتأكد من مقياس أمثال هذه التعليمات بشكل سليم ، يجب أن يؤخذ في الحسبان الصور العديدة والرموز المكتشفة (بالتخيل الابداعي) والتأملات حول موضوع النار ، واللهيب والحرارة . ان كل هذا كان قد شكل من جهة أخرى تراثاً انتقل مما قبل التاريخ . ان العبقرية الهندية لم تفعل سوى اعداد وتوضيح وتنسيق هذه المكتشفات السحيقة في قدمها . وستوجد في التأملات الفلسفية الأخرى بعض هذه الصور الأولية ذات العلاقة مع النار ، كالمفهوم للعبة الهية خالقة (لايلا lila) على سبيل المثال ، المفسرة بدءاً من /لعبة/ النيران المدمرة . اما بالنسبة لتمثل نار (نور) ـ ذكاء ، فهو منتشر على نطاق عالمي .(٣٩) .

وهذا ما يدعو للحكم بشكل أفضل على أهمية «آغني» في الديانة والروحية الهندية : فلقد أثار ما لايحصى من التأملات والافكار الكوزمو بيولوجية أو سهل التركيبات الرامية لارجاع مخططات متعددة ومختلفة الى مبدأ أساسي واحد . وبالتاكيد ، ليس آغنى هو الاله الهندي الوحيد الذي يتغذى من أمثال هذه الأحلام والتخيلات ، ولكن يقع في الصف الأول من بينها . ففيما سلف في العصر

الفيدي كان قد توحد في (تيجا) (طاقة نارية) وعظمة ، وفاعلية وسمو وقدرة فوق الطبيعة» الخ . . وفي الأناشيد يدعى كي يبارك هذه السلطة(٤٠) [ر . ف ٤/٨٩/٩]ولكن سلسلة التوحدات ـ والتمثلات ـ والتضامنات هي عمليات مميزة وخاصة بالفكر الهندي وهي فيه أكثر اتساعاً . ان آغنى ، أو واحد آخر من أمثاله ، الشمس ، قد أدخل في عملية التفلسف الرامية لتوحيد الضوء في اثمان وفي المني الذكوري Semenvirile . بفضل الشعائر والتنسكات المتبوعة بزيادة /الحرارة الداخلية/ إن آغنى مرتبط أيضا بالتقييم الديني الحرارة التنسك /تاباز/ والممارسات اليومية ، رغم أن ذلك هو أحيانا بصورة غير مباشرة .

٧٠ ـ الاله سوما وشراب من لا يموت

مع ال ١٢٠ نشيد المكرسة لسوما فإنه كان يظهر كالثالث في مجمع الألهة الفيدي . . إن كتاباً كاملا من الريغ فيدا (التاسع) مخصص لسوما بافامانا : «السوما على أهبة الصفاء» أيضا وبأكثر مما هو في حالة آغنى ، من العسير فصل الحقيقة الشعائرية ـ النبات والري ـ عن اله يحمل بنفسه هذا الاسم . ان أساطيره يمكن اهمالها . وأكثرها أهمية يقص عن الأصل السماوي /لسوما/ : عقاب (طائر من السماء) يندفع «مع سرعة الفكر ويغتصب معقل البرونز [ر . ف ٨ـ ١٠٠] . ويقبض الطير على النبتة ويعيدها الى الأرض . ولكن نموالسوما مفروض أن يكون في الجبال(٤١) وهذا ما يشكل تناقضاً كما يبدو ، لأن القمم تنتمي الى العالم المتصاعد ، فهي اذن ممثلة بالسماء . ومن جهة أخرى ، فإن نصوصاً أخرى تؤكد على أن /السوما/ ينبت في /رحم الأرض على الجبال [ر . ف ١٠ ـ ٣١] أي في مركز العالم حيث أن المرور بين الأرض والسماء هنالك قد جعل ممكنا .(٤٢) .

ان سوما لا يحوز سوى صفات معتادة تطلق على الألهة بصورة عامة : فهو بصير ، ذكي ، عاقل ، منتصر كريم الخ . . انه معتبر الصديق والحامي لألهة أخرى ، وفي الدرجة الأولى هو صديق إندرا . ويدعى أيضا الملك سوما ، وذلك

بلا ريب بسبب أهميته الشعائرية ، ان توحده مع القمر ، غير معروف في الابستاق avesta، ولم يتأكد الا في العصر ما بعد الفيدي . ان كثيراً من التفاصيل هي على علاقة مع عصر النبات قد وصفت في آن واحد في مصطلحات كونية وبيولوجية : الضجة المخنوقة بالرحى السفلى المشبهة بالرعد ، وصوف المصفاة يمثل الغيوم ، والعصير هو المطر الذي ينبت النبات الخ . . إن عملية العصر قد شبهت أيضا بالقران الجنسي . ولكن كل هذه الرموز للخصب البيو ـ كوزمية ترتبط في لحظتها الأخيرة بالقيمة الاسطورية لسوما .

إن النصوص تصر على الحفلات التي تسبق وتصاحب شراء النبات ، وعلى الأخص تحضير المشروب . ومنذ (الريغ فيدا) كانت أضحية سوما هي الأكثر شعبية «روح ومركز التضحية» (جوندا) . ومهما كان النبات المستعمل في العصور الأولى من قبل الهندو ـ آريين ، فمن المؤكد أنه بعدئذ قد أبدل بأنواع نباتية أخرى . ان السوما هاوما هو الصيغة الهندو ـ ايرانية لمشروب عدم الموت ـ آمارتا ، وقد استعيض عنه ، على الأرجح ، بالشراب الهندو ـ اروبي ، مادهو ، [نبيذ العسل] .

إن كل فضائل /سوما/ متكافلة بالتجربة الوجدية (النشوية) الحاصلة نتيجة شربها «لقد شربنا السوما ، ـ كما نقرأ في نشيد شهير (٨ ـ ٤٨) ، لقد أصبحنا خالدين ، بوصولنا للنور ، وجدنا الآلهة . ماذا يستطيع أن ينقل الالحاد لنا الآن ، أو ماذا يستطيع أن يفعل الخبث لفانٍ أيها الخالد ؟؟(فقرة٣) . اننا نتضرع لسوما ليمد في عمرنا ، لأنه (حارس أجسادنا) وان المتاعب ـ الغباء والأمراض قد أخذت في الهرب» . ان السوما تنعش الفكر ، وتعيد نشاط الشجاعة للمحارب ، وتزيد الحيوية الجنسية ، وتشفي الأمراض . ان شربها من قبل الكهنة والآلهة معاً ، يقرب الأرض من السماء ، ويقوي ويمد في 'أجل الحياة ، ويضمن الخصب . وفي الواقع ان التجربة الوجدية تكشف في ذات الوقت عن الكمال الحيوي ، وعن معنى الحرية بلا حدود ، وعن امتلاك قوى طبيعية وروحية لا يتسرب اليها الشك . من هنا الشعور بالمشايعة مع الآلهة ، بل الانتماء إلى عالم الألوهية ، واليقين بعدم الموت . أي بحياة كاملة في الدرجة الأولى ممتدة الى ما

لانهاية له . من هو الذي يتكلم في النشيد الشهير /س/١١٩ ، الاله أو النشوية التي جاءت من احتساء الشراب المقدس ؟؟ «ان القبائل الخمس (البشرية) لم تظهر لي جديرة حتى بالقاء نظرة ـ ألم أشرب السوما اذن ؟» ان صاحب الشخصية يعدد مفاخره : «لقد سدت السماء بقامتي ، سدت الأرض الواسعة . . سأخرب هذه الأرض بضربات كبرى . . لقد رسمت أحد جناحي في السماء والآخر رسمته هنا تحت . . انني كبير ، كبير . . . لقد اندفعت حتى الغيوم ، ـ ألم أشرب السوما إذن ؟» /ترجمة رينو/[٤٣] .

لن يُتوقف ابداً على المتابعات وعلى التعويضات للنبات الأصلي في العبادة . فهذا هو الدور الذي لُعب عن طريق هذه التجارب السومية في الفكر الهندي وهو دور هام . ومن الراجح جداً ان مثل هذه التجارب كانت محددة للكهنة وإلى عدد من المضحين .

ولكنه كان لها رجع صدى معتبر بفضل الاناشيد التي مجدتها ، وبصورة خاصة التفسيرات التي أثيرت ، ان الكشف لوجود كامل وطوباوي ، بمشاركة الألهة ، قد استمر بمصاحبة الروحية الهندية لزمن طويل بعد اختفاء المشروب الأصلي . وقد جرى البحث للحصول على وجود من هذا النوع بمساعدة وسائل أخرى : الزهد أو التقشف ، أو الافراط في التهتك ، أو التأمل ، أو تقنيات اليوجا ، أو الورع الاسطوري وكما سنرى (ف ٧٩ ع) فإن الهند القديمة عرفت العديد من النماذج الوجدية .

واضافة لذلك ، فإن البحث عن الحرية المطلقة قد أفسحت المجال لمجموعة من الطرق و(الفيلوزفيا) التي تنفذ في نهاية المطاف على المنظورات الجديدة ، التي لم تكن موضع شك في العصر الفيدي . وفي كل هذه التطورات الخارجية لعب الاله سوما دورا لايكاد يمحي ؛ إنه المبدأ الكوني والتضحوي الذي يعنيه والذي انتهى بجذب انتباه رجال اللاهوت والميتافيزيكيين .

٧١ ـ إلهان كبيران من العصر الفيدي : رودراشيفا وڤيشنو

تذكر النصوص الفيدية اضافة لذلك عدداً من الآلهة ، وأغلبية هذه الآلهة ستفقد تباعاً اهميتها وستنتهي إلى النسيان ، في حين ان بعضها ستكسب فيما بعد وضعاً لا مثيل له . من بين الأول نذكر ربة الفجر اوزاس Usas ابنة السماء (دايوس) ؛ وفايو ، Vayu اله الريح ومشابهاته ، (النفخ) و(الروح الكوزمية) ؛ وبارجانيا Parajnya اله العاصفة والفصل الممطر ؛ وسوريا Ŝurya وسافيتر Savitr ، الهان شمسيان ، وبوزان P̂usan ، الاله الراعي القديم وانما على أهبة الاختفاء (ليس له عبادة تقريباً) ، وحارس الطرق ودليل الموتى ، الذي قورن بهرمس ؛ والتوأمان اسفين Acvins (او نازاتيا) ، ابن دايوس ، بطل عدد من الأساطيروالخرافات التي ضمنت لها مكاناً مرموقاً (ماريا marya) الذين فسرّهم سيتج ويكاندر stigwrkander كنموذج اسطوري «لجمعية من الرجال» من نوع هندو ـ أوروبي .

وإن الصنف الثاني مثل برودارارشفيا وفيشنو. انهما يشغلان مكاناًمتواضعاً في النصوص الفيدية ، ولكنهما في العهد الكلاسيكي يصبحان الهان كبيران . ان فيشنا يبدو في الريغ ڤيدا كاله محسن تجاه البشر (١ـ١٨٦ ، ١٠) ، صديق وحليف لاندرا ، يساعده في معركته ضد فرثرا ، ماداً على اثر ذلك الفضاء بين السماء والأرض (٦ ، ٦٩ ، ٥) . لقد اجتاز الفضاء في ثلاث قشخات ، مدركاً في الثالثة ، قصر الآلهة (١ ، ١٥٥ ، ٦) . ان هذه الاسطورة تستوحي وتبرر شعيرة في البراهمانا : فيشنو تماهي بالاضحية [ساتاباتابر ١٤٠٠ ، ١ ، ١ ، ٦] والمضحي ، محتذياً شعائرياً خطواته الثلاث ومتمثلاً بالاله ويدرك السماء [١ـ٩ـ٣/٩ـ٩]إن فيشنو يبدو مرمزاً في آن واحد لامتداد الفضاء الغير محدد «الذي يجعل من الممكن تنظيم الكون» ؛ وللطاقة الخيِّرة والكلية القدرة التي تبجِّل الحياة ، والقطب الكوني الذي يسند العالم . ان الريغ فيدا [٧ـ٩٩ـ٢] تؤكد أنه يسند الجزء الأعلى من الكون[٤٤] . وتصر البراهمانا على علاقاته مع براجاباتي المؤكدة منذ العصر

الفيدي . ولكنه مؤخراً ، وفي الاوبانيشاد فقط من الصنف الثاني (المعاصرة للبهاجافاد جيتا ، أي حوالي القرن الرابع ق.م) ، وإن فيشنوقد عُبد كاله أعلى من بنية توحيدية . وسنؤكد فيما بعد على هذه العملية ، المميزة من جهة أخرى للابداعية الدينية الهندية .

تشكليا morphologiquement ، يمثل رودرا ألوهة من نوع معاكس . فليس له اصدقاء بين الآلهة ، ولا يحب البشرية ، التي يرعبها بغضبه الشيطاني ، ويبيدها بالامراض والكوارث .

ان رودرا يحمل شعراً مجدولاً [ر.ف ١-١١٤، ١، ٥] ولونه اسمر غامق (٢-٣٣-٥) : بطنه اسود وظهره أحمر . وهو مسلح بقوس وسهام ويرتدي جلد حيوان ويسكن الجبال ، محل اقامته المفضلة ، انه شريك عدد من الكائنات الشيطانية .

ويعبر الأدب التالي للفيدية ايضاً عن الطباع الشريرة للاله . ان رودرا يقيم في الغابات والاجمات ويسمى «سيد الحيوانات المتوحشة [ر.ف ١٢-٧، ٣] ويحمي أولئك الذين يبقون خارج المجتمع الآري . وفي حين ان الآلهة تسكن في الشرق ، فإن رودرا يسكن في الشمال (الهملايا) . انه مستثنى من اضحية السوما ويتلقى فقط تقدمات من الأطعمة التي تلقى على الأرض (بالى) أو بقايا التقدمات والمشروبات التضحوية المعطوبة . [ساتا . بر . ٧١، ٣٥] . إن صفاته تتراكم : فيدعى شيفا (المحسن) وهارا (المُخرب) وشامكارا (الشافي) ومادها ديفا (الاله الكبير) .ـ وحسب النصوص الفيدية والبراهمانية ، فإن رودرا شيفا يبدو كتجلي للقوى الشيطانية (أو على الأقل المتضادة) الساكنة في الأمكنة المتوحشة والمهجورة، إنه يرمز لكل ماهو عمائي، خطر غير مرئي؛ وهويُشعر بالخوف، ولكن سحره الغامض يمكن توجيهه ايضاً نحو الأهداف الخيِّرة [أنه «طبيب الاطباء»] . ولقد جرى نقاش مطول حول الأصل والبنية الأولى لرودراشيفا ، فاعتبر من قبل بعضهم كالهللموت وكذلك للخصب ، مثقل بعناصر ما قبل آرية ، معبود الطبقة الغامضة من النساك المتقشفين ڤراتيا. ان المحطات التي

تحول بها رودرا شيفا الفيدي إلى اله أعلى كما يظهر في القاتفاتارا او بانيشاد ، تفوتنا معرفتها . ويبدو ، مؤكدا ، انه خلال مجرى الزمن ، مثل رودراشيفا ـ كأكثرية الآلهة الأخرى ـ عدداً من عناصر التدين الشعبي الآري أو ما قبل الآري . ولكنه ، من جهة اخرى ، سيكون من غير التبصر الاعتقاد بأن النصوص الفيدية قد نقلت الينا (البنية الأولى) لرودراشيفا . ويجب التذكر دوما بأن الأناشيد الفيدية والاطروحات البراهمانية قد ألفت لأجل نخبة من الارستقراطية والكهنة ، وان جزءاً كبيراً من الحياة الدينية للمجتمع الآري كان بدقة مجهولاً . ومع ذلك فإن ترقية (شيفا) إلى صف اله أعلى للهندوسية لا يمكن تفسيره بأصله ، سواء أكان مما قبل الآرية أو شعبيا . انه يتعلق بإبداع سنحاول بحث اصوليته في تحليلنا للجدلية الدينية الهندية ، كما تبدو في اعادة التفسير واعادة التقييم المستمرين للاساطير ، وطقوس الأشكال الإلهية .

حواشي الفصل الثامن

١ ـ المفردات العامة لبعض الحيوانات (ذئب ، دب ، وزة ، سلمون النهر ، زنبور نحلة) واشجار ـ سندر رزان ـ بلوط ـ صفصاف .

٢ ـ عبارات النحاس والفأس سومريه واستعيرت قبل فصل مجموعات لغوية اوروبية جرمنة ايطالية ـ سلنية ـ ايرلية ـ يونان وسلاف .

٣ ـ المقطع اللغوي اليوناني theas لا يرد في ذات المجموعة ـ انه يشتق من جذر كلمة تشير للروح (نفس الميت) ـ في الليتورية deusin ـ وفي السلافية القديمة dush بمعنى نفس أو dusa : روح ، وعليه يمكن الافتراض ان ثيوس اله . متطور بدءاً من فكرة الأموات المؤلهين .

٤ ـ في ايران ، اسم اله النار آثار Atas ولكنه يوجد اشارات في لغة اكثر قدماً للديانة كانت تسمي النار آغني Agni وليس آثار .

٥ ـ اضافة لذلك فإن القداسة الممثلة بالشمس قد سمحت في ازمان السنسكريتية . اليونانية ـ الشرقية . لاعادة احياء لاهوتي وفلسفي الدرجة يمكن معها القول ان الاله الشمس كان آخر تجلي كوني يغيب ، امام اتساع التوحيد اليهودي المسيحي .

٦ ـ يضاف ، انه مؤخراً ، ان الانسان بكونه كائنا ارضيا كان مقابلاً في الغرب للكائنات السماوية ، بينا في المشرق نجد مفهوم الانسان مخلوقاً جذريا (m'nu) مقابلاً للحيوانات (رنيوز ص ٢٦٤)

٨ ـ ص ٢،٣ ايربك هامب يأتي غالباً لاعادة تركيب العبارة العامة لأجل التضحية .

٩ ـ التجمع الجدلي الأصلي ـ الحثي ـ السلافي ـ البلطيقي ـ الدرمني (الجرمني ؟) يؤكد اشكالاً متقاربة مع الحثية المالطية (صلى) بينما الايراني ، السلتي اليوناني يمثل عبارات مشتقة من الجذر (صلى ، رغب)

١٠ ـ ميترا ـ فارونا ـ ج ـ لوميزيل ص ٨٣١

١١ ـسيفرفيوس ص ١٩٠
١٢ ـ هذه الذنوب الثلاثة ترتكب بعودة ثلاثةوظائف ، وعليه فهي تقع في نطاقات النظام الديني ، المحارب المثالي عن الخصب ، الأمر الذي يقرر الفرضية ذات الوظائف الثلاثة . ولنضف إلى ذلك بأن توحيد باعث هندو- اوروبي عام في ميتولوجيا هرقل هو ذي علاقة بايديولوجيا التثليث لأنها اليونان كانت غير معتمدة كنتيجة للتوفيقية من الثقافة الهمجية
١٣ ـ الاسم معروف ايضاً في الابستاق باسم Haptahindu
١٤ ـ ب. ور Alehri في مولد الحضارة الهندية ص ١٥٥ ، ان تحول الاعداء الأرضيين لشياطين (اشباح) و(سحرة هو عنصر شائع ـ رم ـ الياد . اسطورة العودة الابدية
١٥ ـ م الياد ـ اليوجا ص ٣٤٨
١٦ ـ من المعلوم وجود اكمال لهذا الوصف للثقافة المادية الموازية ، للقيم السحرية ـ الدينية للآلات واساطيرها
١٧ ـ كوماراسوامي ، ص ٢٢ ـ من اسطورة العودة لألياد .
١٨ ـ انظر لويس رينو ـ ديانات الهند القديمة
١٩ ـ وهذا مما يذكر بحالة الدين الاغريقي في العصر الهوميري : فالقصائد كانت توجه إلى نخبة عسكرية مهتمة قليلاً او غير مهتمة باسرار الخصب الكونية وبسبب الوجود للروح ، اسرار مع ذلك قد حكمت النشاط الديني لزوجاتهم ولرعاياهم .
٢١ ـ صور ورموزها ١٢٤ ـ بيترسون ، قد شرح اسمه بدءاً من الجذر الهندو اوروبي lier
٢٢ ـ «لرؤية المكان البارز الذي يأخذه هذا المفهوم ذاته تقريباً تحت ذات اللفظ حتى لدى ما قبل الهنود في الميزوبوتامي وسورية كما هو لدى الايرانيين من كلمة divus فقد تأكد انها شكلت فيها سلف الاساس لأفكار وشروح للهندو ايرانيين الهندية (ريموزيل ص ١٤)
٢٣ ـ في اللغة التقليدية مصطلح (رتا) سيوضع مكانهالمصطلح (دهارما) الذي سنرى فيها بعد عظمة مصيره في الريغ فيدا وهامان ودهارمان قد ذكرا على التوالي ٩٦ و٥٤ مرة
٢٤ ـ دوميزيل ص ١٤٢
٢٥ ـ «لقد نصر المايبون بواسطة مايا» تلك هي اللازمة لعدد من النصوص ... . بين (انواع السحر) لاندرا يضاف في الدرجة الأولى قدرته بالتحول والتغيير .
٢٦ ـ ٢٧ ـ بعض المشاهد من الريغ فيدا ترى في فيرنا الغير ظاهر المعمر والخالد
٢٨ ـ انظر المراجع المذكورة ص ٣٩١
٢٩ ـ ماها باراتا ١١ ـ ٢١ ـ ٢٥/٤ في مشاهد اخرى يعتبر قارونا بين الأكثر قوة واستمرارية وقد ذكر مع الافاعي الاسطورية المؤكدة سابقاً في المصادر الفيدية ـ جوهنسون ـ قارونا ودراتاشية ص ٢٦

٣٠ ـ حول هذا النص ر.ـ الياد . م ميستوفيليس ص ١٠٨٠
٣١ ـ ر.ح كوندن ، قوى وآلهة ص ٧٥
٣٢ ـ يدعى ساهاسراموسكا (ذي الألف خصية) [٤٦ـ ٧٧ـ ٧٠ ر.ف] انه سيد الحقول وسيد الأرض ، مخصب الحقول والحيوانات والنساء .
٣٣ ـ وفي الواقع ارسلت إليه رسلا اقاموا ما بينهما من صداقة واعتراف ، مع ذلك انتهك اندرا العقد بقتله فرترا بحيلة ومكر وهذا هو ذنبه الكبير وثمة خط آخر مميز للأسطورة الهندية : فبعد الموت يرتعد اندرا من الخوف فيطير فوق حدود الارض ويختبيء في زهر لوتس «مرتدياً شكلاً دقيقاً جدا»
٣٤ ـ يصادف اندرا فرترا (غير مجزا ، غير يقظ نائم ـ غارق في ثباته (ر.ف ١٧، ٢٩ ٣)
٣٥ ـ انه على الاخص نورمان رو ـ براون ـ الذي حاول اعادة تركيب هذا المفهوم الكوني
٣٦ ـ يرى Huiper في كتابه الآريين القدامى ص ٢١١ ـ المناظرات الخطابية في الهند الفيدية كانت تكرر كذلك الصراع الأولي هذه ضد القوى المقاومة . ويقارن الشاعر بأندرا (أنا قاتل اعدائي بدون جراح صحيح وسليم مثل اندرا) هوبو ـ (ر.ق ١٢ ـ ١٤٦ ـ ٢١)
٣٧ ـ بسبب دوره في تحريق الجثث سمي (مفترس اللحوم ويقارن احيانا بالكلب وابن آوى وهذا هو مظهره الوحيد التعيس)
٣٨ ـ ولكنه في نصوص اخرى Agni ذاته هو رسول (موتاستاف)
٣٩ ـ ان التأمل الديني حول النار للتضحية يلعب دوراً في الزرادشتية (ر فقرة ١٠٤)
٤٠ ـ G. Gonda ـ قوة وآلهة ص ٥٨
٤١ ـ لقبه many avatar يدل على اسم جبل كما لو انه مفاجئة لسوما . وان التقليد الايراني يؤقلم النبات laoma في الجبال (باسنا ٤٠ ـ ياست ١٧:٩ الخ)
٤٢ ـ في نصوص ١١ yajurventa تجرى عادة تورية لتضحية سوما بالآلهة ، وميترا وحده رفض المشاركة فيها ولكنه اقتنع اخيراً . وقد يمكن حل الرموز في هذا المشهد لاثارة اسطورة عن الأصل : خلق مشروب (الخلود) بتضحية كائن أولي . هذا الميت الأول اكتمل بالآلهة بمالانهاية له وهو متكرر في المصير الشعائري لنبات السوما .
٤٣ ـ النشيد يبدو انه يتوجب ان يكون في فهم الاله Agni الذي في اثناء الاضحية سيد عمان قبل الشاعر ليعبر عن الآثار التي سيحققها من شرابه للسائل الالهي
٤٤ ـ انظر G. Gondes الفيشنوية ص ١٠ الاناء التضحوي Yupa يعود إليه . أو ان Yupa هو اجابة لقطب الكون

الفصل التاسع

الهند قبل غوتاما بوذا : من الأضحية الكونية إلى التماثل الأعلى اتمان ـ براهمان

٧٢ ـ علم تشكل (مورفولوجيا) الشعائر الڤيدية :

إن العقيدة الفيدية لم تعرف المعبد مطلقاً ؛ وكانت الشعائر تتم إما في منزل المضحي ، وإما في أرض مجاورة معشبة ، وكانت تقام عليها النيران الثلاثة . وكانت التقدمات النباتية ، اللبن ، الزبدة ، الحبوب ، والكعك . وكان يضحى أيضاً بالماعز ، والبقرة والثور والكبش والحصان . إلا أنه منذ عصر الريغ فيدا ، فإن (السوما) كانت تعتبر الأضحية الأكثر أهمية .

إن الشعائر يمكن أن تصنف إلى صنفين : منزلية (جرليا grlya) ورسمية (سروتا Srouta) وكانت الأولى تنجز من قبل رب البيت (جراباتي grhapati)

وتتحقق بالتقليد (سروتي تعني الذكرى) . وعلى العكس من هذا فإن الشعائر الرسمية كانت تنجز عادة من قبل المحتفلين بالقداس[1] . وكانت سلطة هؤلاء تبنى على الكشف المباشر (رسمي : سروتي) عن الحقيقة الخالدة . ومن بين الشعائر الخاصة ، خارج تغذية النار المنزلية ، والأعياد الزراعية ، كانت الأسرار هي الأكثر أهمية ، أو (النذور : سامكارا) ذات العلاقة بالحمل وولادة الأولاد ، وبإلحاق شاب ذكر (أونبياما) بمعلمه البراهماني ، والزواج والخطوبات . وكانت ذلك يتعلق بحفلات بسيطة : قربانات ، وتقدمات نباتية ، وبالنسبة للأسرار ، حركات شعائرية مصحوبة بصور وبدمدمات من قبل سيد البيت .

من بين الأسرار كانت الأوبانايانا ، هي بالتأكيد ، الأكثر أهمية . وهذه الشعيرة كانت تشكل المكافىء لمسارات initiations عند بلوغ سن الرشد المميزة للمجتمعات القديمة . إن (الأذار فافيدا ١١ ـ ٣ ـ ٥) التي أثبتت الأوبانايانا لأول مرة ، تؤكد أن المعلم يحول الولد إلى جنين ويحتفظ به ثلاث ليال في بطنه . . . وهي تقدم الايضاحات التالية : المعلم كان يحمِل concait الولد في اللحظة التي يضع فيها يده على كتفه ، وفي اليوم الثالث ، سيولد هذا الولد في شرط البراهمان .

وتصف الأذرفافيدا (١٩ ، ١٧) الذي أنجز الأوبانايانا (بمولود لمرتين) (دفيدجا dvi - ja) ، وإنه هنا ظهر لأول مرة هذا المصطلح الموعود بنصيب متميز .

والولادة الثانية هي بوضوح ، نظام روحي ، وأن النصوص التالية تؤكد على هذه النقطة الرئيسية . وحسب قوانين مانو Loisde mann (٢ ـ ١٤٤) . . إن الذي يوصل كلام الفيدا (أي البراهمان) للرضيع (الملقّن) يجب أن يعتبر كأب وأم له : مولّد ومعلم البراهمان ، وهذا الأخير هو الأب الحقيقي (١١ ، ١٤٦) ، فالولادة الحقيقية[3] وبعبارة أخرى الولادة للخلود ، تعطى بصيغة سافيترى (١١ ـ ١٤٨) . أثناء كل فترة الدراسات على المعلم ، يكون التلميذ (براهما كارين) ملزماً باتباع بعض القواعد : أن يتسول الطعام من أجل معلمه ومن أجله هو ، وأن يحافظ على الطهارة ، الخ .

إن الشعائر الرسمية تشكل أنظمة طقوسية ، على جانب كبير من التعقيد والرتابة . وإن الوصف المفصل لنظام وحيد منها يتطلب بضع مئات من الصفحات . وعليه يكون من العبث محاولة تلخيص الأضحيات (سروتا) . والأكثر بساطة هو (الأغنيهورتا) L'agnihorta (القربان بالنار(الذي يجري في الفجر وعند الغسق ويقتضي تقدمة من اللبن (لآغني). وإضافة لذلك توجد شعائر ذات علاقة بالايقاعات الكونية : الأضحيات المسماة «المطر والقمر الجديد» ، حفلات فصلية (كاتور ماسيا) وشعائر للبواكير (أغرايانا) . ولكن الأضاحي الأساسية ، المميزة للعقيدة الفيدية ، هي أضاحي (السوما) . وتجري (الآغنيتوما)= (مديح آغني) مرة في السنة ، في فصل الربيع . وتتكون ، خارج العمليات الأولية ، في ثلاثة أيام من التسبيح (أوبازاد) . ومن بين العمليات الأولية ، أكثرها أهمية (الديكسا diksa) ، الذي يقدس المضحي بجعله يولد من جديد . وسنتفحص فيما بعد هذه الشعيرة المسارية . وتعصر السوما في الصباح ، والظهر والمساء ، وفي عصير الظهر توزع إكراميات (داكسينا daksina) : ٧ - ٢١ - ٦٠ أو ١٠٠ بقرة وفي بعض الاحوال كل أموال المضحي . كل الآلهة مدعوون وهم يشاركون في العيد ، بدئياً منفردين ثم مجتمعين[٤] . وقد عرفت أضحيات أخرى (لسوما) : بعضها لايتجاوز ليلة واحدة ، والآخر يدوم على الأقل ١٢ يوماً ، وفي كثير من المرات لسنة ونظرياً إثنى عشرة سنة . وزيادة على ذلك يوجد نماذج شعائرية أدخلت في مهمات (سوما) أو على سبيل المثال الماهافرتا (المراعاة الكبرى) التي تتركب من موسيقى ورقص وإشارات مأساوية ، ومحاورات ومشاهد داعرة وكان يحصل إتصالات جنسية . . الخ) . ويدوم (شرب النصر) Vajapca من سبعة عشر يوماً حتى سنة ويشكل مشهداً اسطورياً شعائرياً : سباق خيول مقرونة لـ ١٧ عربة (صعود للشمس) يتم من قبل المضحي وزوجته التي تتسلق إحتفالياً العمود المقدس الخ . . . وإن التكريس الملكي (راجازاديا) كان يجسد أيضاً بنظام إحتفالي سومي . وفي هذه الحالة أيضاً تصادف مشاهد متحركة (صورة مشروع غزوة من قبل الملك على قطيع من البقر ؛ ملك يلعب النـرد مع كاهن ويربح) . . الخ . . إلا أن الشعيرة ترمي في أساسها لاعادة الحياة الأسطورية للملك . (ف ٧٤ع) . وهنالك نموذج إحتفالي آخر ، كان يشارك ،

رغم كونه إختيارياً في قداس السوما : هي الأغنيكاينا «تنضيد ، قرميد من أجل المذبح ، للنار» . وتؤكد النصوص أنه كان يجري في زمن آخر خمس أضحيات من بينها رجل ، وإن رؤوس الأضحيات كانت تخفى أو توضع في أول مدماك من القرميد . وقد كانت التمهيدات لذلك تستمر سنة . وكان المذبح ينشأ من (١٠٨٠٠) قرميدة منضدة في خمسة مداميك ، تمثل أحياناً شكل طير ، رمز صعود المضحي أسطورياً للسماء . إن الآغنيكايانا قد أفسح المجال إلى تأملات نشكونية كانت حاسمة بالنسبة للفكر الهندي . وإن القربان (و (الذبيحة) برجل كانت تعيد تضحية براجاباتي ، وإن بناء المذبح كان يرمز لخلق العالم (ف . ٧٥)

٧٣ ـ الأضحيات المثلى : «سفاميدها ، وبيروساميدها» :

إن الشعيرة الفيدية الأكثر أهمية والأكثر شهرة هي (أضحية الحصان) أسڤاميدها Asva,mdha ولم يكن من الممكن إنجازها إلا من قبل ملك مظفر ، والذي كان يكتسب هكذا تقديره (ملكاً عالمياً) ، وكانت نتائج الأضحية تشع على المملكة بأثرها ، وفي الواقع كان يفترض بالأسفاميدها التطهر من القذارات ، وضمان الخصب والرخاء في كل البلاد . وكانت الحفلات التمهيدية تندرج على مدار السنة ، وكان حصان السباق خلالها يترك طليقاً مع مائة حصان آخر ويسهر أربعمائة شاب كي لا يقترب من أناث الخيول . وكانت الشعيرة ، بمعنى الكلمة ، تستمر ثلاثة أيام . وفي اليوم الثاني ، بعد بضعة إحتفالات خاصة «تعرض إناث الخيول على الحصان ، ويقرن إلى عربة ، ويقوده الأمير إلى مستنقع . . الخ» ويجري ذبح العديد من الخيول . وفي النهاية فإن حصان السباق ، الذي يجسد منذئذ الإله برجاباتي يكون جاهزاً لأن يضحى به نفسه ، ويخنق . وكانت الملكات الأربعة وكل منهن مصحوبة بمائة وصيفة يطفن حول جيفته وتتمدد الزوجة الرئيسية إلى جانبه ، وهي مغطاة بمعطف وتمثل الإتصال الجنسي . خلال هذا الوقت ، يتبادل الكهنة والنساء التسليات الداعرة . وحين تقف الملكة ، يقطع الحصان والأضحيات الأخرى . وفي اليوم الثالث تجرى شعائر أخرى ، وأخيراً

توزع الإكراميات (داكسينا) على الكهنة ، الذين يتلقون على ذلك الملكات الأربعة ووصيفاتهن .

إن الحصان القربان ، تأكيداً ، هو من أصل هندو ـ أوروبي ، وتوجد آثار له عند الجرمن ، والايرانيين والإغريق واللاتين والأرمن ـ والماساجيت والدالمات . ولكن هذا المشهد الأسطوري الشعائري لم يحصل سوى في الهند على كل معتبر في الحياة الدينية وفي التعاليم اللاهوتية . ومن الراجح أن الأسفاميدها كانت ، في الأصل عيداً ربيعياً ، وبدقة أكثر ، شعيرة يحتفل بها بمناسبة العام الجديد . إن تركيبتها تتضمن عناصر نشكونية : فمن جهة ، أن الحصان موحد بالكون cosmos (= براجاباتي) وإن التضحية به ترمز (أي تعيد إنتاج) فعل الخلق . ومن جهة أخرى ، فإن النصوص الريغفيدية والبراهمانية تشير إلى العلاقات بين الحصان والمياه . وعليه ، فإن المياه ، في الهند تمثل الجوهر النشكوني بامتياز . ولكن الشعيرة المعقدة تشكل أيضاً (سراً) من نموذج باطني . «وفي الواقع أن الأسفاميدها هي الكل ، وأن من هو براهماني ولا يعرف شيئاً عن الأسفاميدها ، فإنه لا يعرف شيئاً من لاشيء ، وهو ليس براهمان ويستحق أن ينهب» [ساتف . . با . ١٣ ـ ٤ ٢ ١٧] . إن الأضحية مخصصة لتجديد الكون بكامله ، وفي ذات الوقت لإعادة بنيان الطبقات الاجتماعية وكل الإرشادات الربانية في نصابها المثالي(٥) .

إن الحصان ، ممثلاً بالقوة الملكية (كاسترا) يتوحد إضافة لذلك مع ياما Yama وآديتيا (الشمس) وسوما (أي مع رب الأرباب العليا) وهو بنوع ما نائب للملك . ويجب أن يؤخذ في الحسبان مثل هذه القواعد من التمثل والنيابة عندما يحلل مشهد موازي البوروسهادها Purus,maha ؛ وفي الواقع إن الأضحية بالإنسان تتبع من قرب الأسفاميدها . فزيادة عن الأضحيات الحيوانية ، كان يضحى ببراهمان أو بواحد من الكزاتريا Ksatrya يشترى بثمن من ألف بقرة ومائة حصان . وكان هو أيضاً يترك حراً خلال عام ، وما أن كان يقتل حتى تنام الملكة بقرب جثته . إن البوروسهادها كانت مشهورة بالحصول على كل ما لا يمكن الوصول إليه بالأسفاميدها .

ويرد التساؤل عما إذا كانت مثل هذه الأضحية قد مورست دائماً . إن البوروساميدها قد وصفت في عدة (ستروتا سوترا plusieurs srautssiutras ، ولكن (السنكيانا) و (الفيتانا) وحدهما وصفتا أماتة الضحية . وفي الأطروحات الشعائرية الأخرى ، كان يفرج عن الرجل في آخر لحظة ، ويضحى بدلاً عنه بحيوان . ومماله دلالته البالغة أنه أثناء البوروساميدها كانت تتلى الأنشودة النشكونية الشهيرة بيروسيكتا [ر . ف ١٠ ، ٩٠] . وإن توحيد الأضحية مع بيروزا براجاباتي يؤدي لتوحيد المضحي ببراجاباتي . ولقد أمكن إظهار أن السيناريو الأسطوري الشعائري للـ بيروساميدها قد وجد موازياً صارخاً له في التقاليد الجرمنية[٦] بأوثان Othin الجريح برمح والمشنوق على شجرة العالم خلال تسعة أيام ، «يضحي بنفسه لذاته» بهدف الحصول على الحكمة وتطويع السحر (هافامال ، ١٣٨) . وحسب رأي آدم دي بريم Aadam Breme الذي كان قد كتب في القرن الحادي عشر ، أن هذه الأضحية قد أعيد إجراؤها في (أوبسالا) كل تسع سنوات بشنق عشر رجال وضحايا حيوانية أخرى . إن هذا الموازي الهندو- أوروبي يجعل الفرضية بأن البوروسيميدها كانت منجزة أدبياً ، فرضية ممكنة القبول . إلا أن التضحية بضحايا بشرية ، في الهند ، حيث الممارسة والنظرية للأضحيةكانتا باستمرار يعاد تقييمهما ، إنتهى بإبراز ماورائية من نوع إفتدائي Soteriologique .

٧٤ - بنية مسارّية للشعائر : التكريس (ديكسا) رسامة الملك (راجا سويا) .

لكي تفهم هذه العملية بشكل أفضل ، يقتضي إيضاح الإفتراضات المسارية الشعائرية (سروتا) . هذه المسارية تشرك (الموت) و (البعث) للرضيع ، أي ولادته على طريقة من التكون الأسمى . يحصل على (الموت) الشعائري

(بالتضحية) أو par un regressus ad uterun بانكفاء رحمي رمزي . وإن المعادلة لهاتين الطريقتين تدخل تمثل (الموت التضحوي) بـ (ولادة) . وكما تصرح به الستاباثا براهمانا (١١ ، ٢ ، ١١) «يولد الانسان ثلاث مرات : أول مرة من أبويه ، وثاني مرة عندما يضحى . . . وثالث مرة عندما يموت ويوضع على النار ، وهنالك من عليها يأتي من جديد للوجود» . وفي الحقيقة . يتعلق بالعديد من (الميتات) لأنه في كل (مرتين يولد) يطبق أثناء حياته ، عدداً من التضحيات (سروتا)

إن التكريس (ديكسا) ، يشكل الأولوية التي لا بد منها لكل تضحية (سومية) إلا أنها تطبق كذلك في مناسبات أخرى(٧) . ويجدر التذكير بأن المضحي على أهبة تلقي الديكسا سبق له أن ولد مرتين بفضل (أوبانياه) عندما تحملت الإنكفاء إلى الرحم المساري . . . وعليه فإن ذات العودة إلى الشرط الجنيني كان لها مكانها أثناء الديكسا . «وكان الكهنة يحولون إلى جنين ذلك الذي يعطونه الديكسا» . فقد كان يرش الماء عليه ، والماء هو البذرة الرجولية . . . وكان يدخل في عنبر خاص : وهذا العنبر الخاص هو الرحم لمن يعمل الديسكا . وكان يغطى بثوب . والثوب هو السابياء أو الغشاوة التي تغلف الجنين amnnios . . وكانت قبضتاه تغلقان ؛ وفي الواقع ، أن للجنين قبضتين مغلقتان طالما هو في الرحم» . . الخ . [إيتاريا براهمانا ٣٠] . إن النصوص الموازية تشير للخاصية الجنينية وللتوليدية للشعيرة . «الديكستيا(من يطبق الديكسا) هو مني semence»]ميترايانا ـ سامهيتا ٣ ـ ١ ، ٦] ؛ «الديكستيا هو جنين ، ثيابه هي المشيمة . . » الخ . . [تيتريا ـ سوما ، ١ ـ ٣٢] . إن منطق هذا الإنكفاء الرحمي معاد ومكرر باستمرار : «الانسان في حقيقته غير مولود ، إنه يولد بالتضحية» [ميت ـ سام ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨] . هذه الولادة الجديدة من نظام اسطوري ، والتي تتكرر في كل أضحية ، تجعل من الممكن تمثيل المضحي بالآلهة . «نقدر للمضحي أن يولد حقيقة في العالم السماوي» [سارت ـ بر ـ ١٢ ، ١ ، ٣] «من يتم تكريسه (مسارته) يقترب من الآلهة ويصبح واحداً منهم» [٣ ، ١ ، ٢ ، ١٨] . وذات الأطروحة تؤكد على أن المضحى الذي على أهبة أن يولد من جديد لا بد أن يرتفع

إلى الجهات الأربع من الفضاء . . وأن يُخضِع العالم [٧١ ، ٧ ، ٢ ، ١١] . ولكن الديكسا هو كذلك موحد بالموت . «فعندما يكرس المضحي ، فإنه يموت للمرة الثانية»(٩) [جيم ـ أريزاد براه ٣ ، ١١ ، ٣]

وحسب بعض المصادر الأخرى ، فإن (الديكستيا) هي «القربان» [تيت سامهيتا ٤٠ ، ١ ، ١٥] لأن «الضحية هي في الحقيقة نفس المضحي» . [أيت ـ برال ٢ ، ٢] . وإجمالاً فإن المسَّار له هو القربان ذاته» [أيت ـ برال ـ ٣ ، ٦٦] المقدم للآلهة(١٠)[أيت ـ برال ٣ ، ٦ ، ٣ ، ١] وقد أعطي المثال من قبل الآلهة : «يا أغني ضحي بجسدك الخاص [ف . ، ٣] لأنه «بالتضحية قدم الآلهة الفداء» [١٠ ـ ٨٠ ـ ١٦] . إن موتاً شعائرياً هو إذن الشرط المسبب للوصول إلى قرب الآلهة والحصول في ذات الوقت على وجود ذي قيمة في هذا العالم . في العصر الفيدي ، «إن التأليه» العابر والمتحصل من جهة أخرى بالتضحية لم ينقص قيمة الحياة والوجود البشري بل على العكس ، لقد كان بتصاعدات شعائريةمن هذا النوع يصل للسماء بالقرب من الآلهة، إن المضحي، كذلك المجتمع برمته، والطبيعة ، كانوا مباركين ومتجددين . وقد لوحظت إية نتائج تحصلت على أثر تضحية أسفاميدها . (ر . حاشية٥) . ومن الراجح أن التجديد الكوني وتدعيم السلطة الملكية كانا يشكلان أيضاً لهدف من الأضحيات البشرية المطبقة في االأوبسالا uppsala الوثنية . ولكن كل هذا كان يحصل عليه بالشعائر التي ، بتطلعها لتكرار عودة الخلق ، كانت تقتضي في ذات الوقت (الموت) ، والحمل الجنيني وإعادة ولادة المضحى .

إن سيامـة الملك الهندي /راجاسونيا/Rajausnuya ، كانت تشتمل على سيناريو مشابه ، فكانت الاحتفالات تجري مع السنة الجديدة . وكان الدهن أو المسح onction يسبق الديسكا بسنة ويتلوه عادة بسنة أخرى من احتفالات الختام . وان الراجاسويا هي بالتأكيد الخلاصة لمجموعة من الاحتفالات السنوية المعينة لاعادة بعث العالم . وكان للملك دور مركزي لأنه ، تماماً كالمضحي (سروتا) . انه يجسد الكون (كوزموس) لحد ما . وان المظاهر المختلفة للشعيرة كانت تتم تباعاً ، انكفاء الملك المقبل للحالة الجنينية والحمل به géstation لسنه

وإعادة ولادته الأسطورية بصفته مديراً كونيا متوحداً في آن واحد مع براجاباتي ومع الكون . وكان الدور الجنيني للحاكم المقبل يتناسب مع عملية نضج العالم ، ومن الراجح جداً ، انه كان أصلاً على علاقة مع نضج المحاصيل . وكانت الصورة الثانية أو المظهر الثاني للشعائر يكمل تشكيل جسد جديد للعاهل : جسد رمزي ، يتم الحصول عليه إما تبعاً لزواج أسطوري للملك مع طبقة البراهمان أو مع الشعب (زواج يسوغ له أن يولد من رحمهما) . وإما تبعاً لقران الحياة الذكورية مع الحياة الأنثوية ، أو من قران أو اتحاد الذهب ـ يعني النار والماء .

وكان المظهر الثالث يشكل من مجموعة شعائر يحصل الملك بفضلها على السيادة على العوالم الثلاث ، وبعبارة أخرى ، كان يجسم الكون ، كذلك كان يتوطد في ذات الوقت تماماً كمدير كوني . وعندما كان الملك يرفع ذراعه ، فإن هذه الاشارة كان لها معنى كونياً : انها ترمز لرفع قطب الكون ، وعندما يتلقى المسح أو الدهان فان الملك كان يبقى جالساً على العرش ، مرفوع الذراعين : إنه يجسد القطب الكوني المثبت في سرة الأرض ـ أي أن العرش هو مركز الكون ـ ويلامس السماء . وإن رش المياه يتصل بالمياه المتساقطة من السماء ، على طول القطب الكوني ـ الممثل بالملك ـ بغاية تخصيب الأرض . وهكذا يجري الملك خطوة نحو النقاط الأربع الاساسية ويصعد رمزيا الى السمت Ze´nith، وتبعاً لهذه الشعائر ، فإن الملك ينال السيادة على الجهات الأربع للفضاء وعلى الفصول ، وبعبارة أخرى يخضع مجمل العالم الفسيح ـ الموقت» .

وقد كنا لاحظنا الصلة الوثيقة بين الموت والبعث الشعائريين من جهة ، ونشأة الكون وتجدد العالم من جهة أخرى . إن كل هذه الأفكار متلاحمة بالأساطير النشكونية والتي سنحاول بحثها فيما سيلي . وهي ستعلن وتصاغ من قبل المؤلفين البراهمانيين ، في المنظور الخاص بهم ، وبخاصة ، التمجيد الذي لا حد له للتضحية .

٧٥ ـ النشكونيات وما وراء الطبيعة

تبرز الأناشيد الفيدية ، مباشرة أو بتورية فقط ، مجموعة نشكونيات . وهي تتعلق بأساطير منتشرة جداً ، ومؤكدة على مستويات مختلفة من الثقافة . وسيكون عبثاً التفتيش عن الأصل لكل واحدة من هذه النشكونيات ، وحتى أن ما يمكن افتراض نقله من قبل الآريين تجد موازاياتها في ثقافات أكثر قدماً ، أو أكثر (بدائية) . ان الكوزمولوجيات ، كما هو الشأن في الأفكار والمعتقدات الدينية الأخرى . تمثل في كل مكان في العالم القديم ، ارثاً منقولاً منذ ما قبل التاريخ . وما يهم في موضوعنا ، هو التفسيرات والتقييمات الهندية لبعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون . ونذكر بأن قدم نظرية (نشكونية) لا يسوغ أن يعتبر تبعاً للوثائق الأولى التي تقدمها . إن إحدى الأساطير الأكثر قدما والأكثر انتشارا (الغطس النشكوني) أصبحت شعبية في الهند منذ زمن متأخر ، وعلى الأخص في الملحمة وفي /البورانا/ ـ les puranas .

أساساً ، إن أربعة نماذج من النشكونية تبدو أنها أغرت الشعراء وعلماء اللاهوت الفيديين ويمكن الاشارة اليها كما يلي :

١ ـ خلق عن طريق تخصيب المياه الأصلية .
٢ ـ الخلق بتقطيع جبار أولي بيروزا Purusa .
٣ ـ الخلق بدءاً من واحديه ـ كلية Unité — totalité ، كائن ولا كائن في ذات الوقت .
٤ ـ الخلق بفصل السماء عن الأرض .

ففي الانشودة الشهيرة للريغ فيدا [١٠ ـ ١٢١] ان الاله المتخيل مثل هيرانيا غاربها Hiranya garbha («الجنين الذهبي») يرفرف من فوق المياه ، وباختراقها يخصب المياه التي تولد اله النار آغني Agni (فقرة ٧) . وتوحد

الاتهارفافيدا [١٠ ـ ٧ ـ ٢٨] الجنين الذهبي مع العمود الكوني سكامبها . وتضع الريغ فيداً [١٠ ـ ٨٢ ـ ٥] البذرة الأولى التي تلقتها المياه في علاقة مع الصانع العالمي (فيزفا كارمان) Visiva karman ، ولكن صورة الجنين لا تتفق مع هذه الشخصية الالهية المتعددة الصفات بامتياز . في هذه الأمثلة ، يهمنا الفوارق لأسطورية أصولية كانت تمثل الجنين الذهبي كبذرة الاله الخالق الهائمة على المياه الأولية(١٢) .

إن التعبير الثاني عن النشكونية قد فسر جذرياً في منظور طقوسي ، وهو يوجد أيضا في نشيد شهير (بوروساسوكتا purusasükta [ر . ف ١٠ ـ ٩٠] . فالجبار الأولي بيروزا «الرجل» قد صُور في آن واحد كجمع كوني (فقرة ١ ـ ٤) وكائن خنثى . وفي الواقع (فقرة ٥) ان بيروزا حمل الطاقة النسوية الخلاقة (فيراج) وبالتالي تولد بها .(١٣) . ان الخلق بمعنى الكلمة هو نتيجة تضحية كونية cosmique . وإن الألهة قد ضحت (بالانسان) : من جسده المقطع انبثقت الحيوانات ، والعناصر الطقوسية والطبقات الاجتماعية ، والأرض ، والسماء الألهة . «فمه أصبح البراهمان ، والمحارب كان نتاج يديه ، وفخذاه كانا الصانع ، ومن اقدامه ولد الخادم» [فقرة ١٢] إن السماء انبثقت من رأسه ، والأرض من أقدامه ، والقمر من ضميره ، والشمس من نظرته ، واندرا وأغني من فمه ، والريح من نفخته الخ . . (فقرة ١٣ ـ ١٤) وقد ذكرت الوظيفة المثالية لهذه التضحية في الفقرة الأخيرة(١٦) : «ان الألهة تضحي الأضحية بالتضحية» . وبعبارة أخرى ، ان بيروسا ، كان في آن واحد ذبيحة قربانية وألوهية التضحية . إن النشيد يذكر بوضوح أن «بيروسا» يسبق الخلق ويتجاوزه ، مع أن الكوزموس والحياة والبشر تستمد من جسده الخاص ، وبعبارات أخرى ، ان بيروسا هو في آن واحد متعالي وماثل . إنها طريقة تكوّن متناقضة ولكنها خاصة بالألهة النشكونية الهندية [ر . براجاباتي] . إن الأسطورة التي نجد موازيات لها في الصين (بان ـ كو) ولدى الجرمن القدامي (يمير Ymir) وفي ميزوبوتاميا (تيامات) تشير بوضوح لنشكونية من نموذج قديم : الخلق بتضحية كائن إلهي بشري . إ البيرو ساسوكاتا le Purusaŝukata أثار تأملات لا حصر لها . ولكنه في حين أن الأسطورة في المجتمعات القديمة تستخدم كنموذج مثالي لكل نوع من الخلق ،

كذلك فإن هذا النشيد قد تلي في أحد الطقوس التي تلت ولادة ابن ، وفي الاحتقالات لانشاء المعبد (المنشأ من جهة أخرى على شاكلة بيروسا) وفي الشعائر التطهيرية للتجديد(١٤) .

في النشيد الأكثر شهرة من (الريغ فيدا [١٠ ـ ١٢٩] برزت النشكونية كما وراثية . لقد كان الشاعر يتساءل كيف يمكن للكائن أن يخرج من اللاكائن ، طالما ، أنه في البدء ، لم يكن يوجد لا غير الكائن ولا الكائن . [فقرة ١ ـ ١] «لم يكن يوجد في ذلك الحين لا موت ولا لا موت : أي «لا بشر ولا آلهة» ، لم يكن يوجد سوى المبدأ الحيادي المسمى (واحد Un) . . «الواحد كان يتنفس من اندفاعه الخاص دون أن يكون له نفس» وخارجاً عن هذا لا يوجد شيء آخر (فقرة ٢) . «فمن الأصل ، كانت الظلمات مختبئة في الظلمات» ، ولكن الحرارة «المثارة بالتقشف تابا tapas» أولدت «الواحد l'un» «الموجود بالقوة abhû» ـ يعني (جنين) ـ «مغطى بالخواء» (ويمكن أن يفهم ذلك ، محاطا بالمياه الأولية) . من هذه البذرة («الموجودة بالقوة») تكونت الرغبة (كاما Kâma). وان هذه الرغبة ذاتها هي التي كانت «البذرة الأولى» (ريتا retas ، للوعي (مانا ـ)manas ، وهذا كله تخريج مدهش يقدم أطروحات أساسية للفكر الفلسفي الهندي . إن الشعراءبتأملهـم قد (عرفوا اكتشاف مكان الكائن في اللاكائن) (فقرة ٤) . وان البذرة الأولى ، انقسمت أيضاً في أعلى وفي أدنى ، في مبدأ ذكوري ومبدأ أنثوي [ر . ف ٤ ، ٧٢] ولكن لغز (الخلق الثانوي) يدوم ، أي من الخلق الظاهراني . إن الآلهة قد ولدت بعدئذ (فقرة ٤) وعليه فهي ليست صانعة خلق الكون إذن . ويستنتج الشاعر حول نقطة من التساؤل : «هل الذي يحرس هذا (العالم) من أعلى عليين يعرفه وحده (أي يعرف أصل «الخليقة الثانوية») ـ بأقل مما لا يعرفه أبداً ؟» .

إن النشيد يمثل أعلى نقطة تم التوصل اليها بالتعليم الفيدي . فالحقيقة المقررة لكائن أعلى لا يمكن معرفتها ـ و«الواحد»(١٥) «هو» ـ مفارق للآلهة كما هو مفارق الخليقة ، وهي ستتطور في الأوبانيشاد وفي بعض الأنظمة الفلسفية . وكما /البوروسا/ في الريغ فيدا [١٠ ـ ٩٠] فإن الواحد يتقدم العالم ، ويخلق الكون

بانبثاق من ذات كينونته ، دون أن يفقد تساميه مطلقاً . ولنأخذ هذه الفكرة الرئيسية بالنسبة للتعليم الهندي التالي : إن الشعور هو بذات المقدار كالعالم هما حصيلة رغبة خلاقة (كاما) . وهنا نتعرف على بذور فلسفة السمخيا - يوجا والبوذية .

أما بالنسبة لرابع نص عن نشكونية - فصل السماء عن الأرض ، أو تقطيع فرثرا من قبل اندرا - فإن هذه الأسطورة تتقارب مع البيروساسوكتا purusasukta : انها تتعلق بالقسمة العنيفة لكلية totalité بهدف خلق أو تجديد العالم . ان النص قديم جداً ، وهو قابل لاعادة التفسيرات والتطبيقات المدهشة . وكما رأينا (ف ٦٨ ع) ، فإن عمل اندرا الخلاق الذي أصعق وقطّع التنين البدئي . يستخدم نموذجاً لأعمال مختلفة أيضاً عن إنشاء منزل أو عن مبارزة خطابية .

ويذكر أخيرا الخلق عن طريق كائن إلهي (الصانع العالمي) /فيزفاكارما/ [ر.ف ١٠ - ٨١] الذي صنع العالم كمثّال او حداد أو نجار ، غير أن هذا العمل الأسطوري الشهير في ديانات أخرى ، موصول من قبل الشعراء القيديين بالنص ، الذي أصبح شهيراً بالبيروزاسوكتا ، لخلق الأضحية .

إن تعدد النشكونيات يتوافق مع تعددية التقاليد المتعلقة بنشأة وأصل الانسان . وحسب الريغ - فيدا ، فإن الآلهة كانت حملت بالزوج البدئي السماء والأرض ، أو أنهما انبثقتا من الكتلة المائية الأصلية او من اللا كائن وعلى كل حال ، قد أتت للوجود بعد خلق العالم . ان نشيداً متأخراً من الريغ - فيدا [١٠-٢-٦٣] يروي أن الآلهة ولدت من الربة آديتي Aditi ومن المياه والأرض . ولكن لم يكن كل الآلهة خالدين . ان الريغ - فيدا تنص على انها تلقت هذه المنحة من سانيتري Saintri [٤-٢-٥٤] او من آغني [٤، ٧-٤] او من شرب السوما [٩-١٠٦-٨] . وان اندرا حصل على الخلود بالزهد (Tapas) ثابا [١٠-١١٧-١] . وان الآتهارفا - فيدا تعلن ان كل الآلهة الأخرى قد اكتسبت الخلود بذات الطريقة [٩، ٥-١٩-١٧[٧ وحسب البراهمان فإن بعض الآلهة أصبح خالداً بانجازه لبعض الأضحيات .

ان البشر ايضاً تحدروا من الزوجين الأولين سمأ ـ ارض وان جدهم الاسطوري هو مانو Manu ابن الاله فيفاسفا أول مضح وأول رجل [ز. ف ١٠ ٧٣٦] . وثمة نص آخر يوحد الآباء الاسطوريين في ابناء فيفاسفا ، ياما واخته يامي [١٠-١٠] . واخيراً وكما رأينا ، فإن البوروزا سوكتا [١٠، ٩٠، ١٢] تفسر أصل البشر (أي الطبقات الاجتماعية الاربعة) بدءاً من اعضاء جبار أولي مضحى به . في البدء ، كان البشر يستطيعون هم ايضاً ان يصبحوا خالدين بالتضحية ، ولكن الآلهة قررت ان هذا الخلود سيكون روحياً صرفاً ، او مقبولاً للبشر بعد الموت فقط (سوثاباثا ١٠-٣٤-١) . ويوجد تفسيرات اسطورية اخرى عن اصل الموت . ففي الماها بهارتا ، إن الموت قد ادخل من قبل براهما بهدف عزاء أو مواساة الأرض المثقلة بكتلة بشرية كانت تهدد بجعلها تنزحل الى المحيط .

إن بعض هذه الاساطير المتعلقة بولادة الآلهة والبشر ، وضياع او اكتساب الخلود ، تتواجد لدى شعوب هندو ـ اوروبية اخرى . ومن جهة اخرى ، فإن اساطير مشابهة قد تأكدت في عدد من الثقافات التقليدية . ومع ذلك ، ففي الهند فقط ، اثارت هذه الاساطير تقنيات تضحوية ، وطرائق تأملية وتلقينات حاسمة ليقظة وعي ديني جديد ايضاً .

٧٦ ـ مبدأ التضحية في البراهمانا :

إن البوروساسوكتا هي نقطة البدء والتحقيق المبدأي لنظرية الاضحية المثارة في البراهمانا (حوالي ١٠٠٠ ـ ٨٠٠ ق.م) . فالكل مثل بوروزا سلم نفسه للآلهة وتركها تضحي بها بهدف ان يخلق العالم ، وان براجباتي سيعرف الفناء المهلك بعد العمل الكوني . وكما تظهره البراهمانا ، فإن براجاباتي وكأنه ابداع من التأمل الواعي ولكن بنيته قديمة . ان (سيد الخالقين) هذا يقترب من كبار الآلهة الكونية . وهو يشبه بحد ما «الواحد ، L'um في الريغ فيدا [١٢٩ ـ ١] والفيسفا كارمان ، ولكنه بصورة خاصة ، امتداد لبوروزا . ومن جهة اخرى فإن توحد

بوروزا ـ براجاباتي ، قد تأكد بالنصوص : «بوروزا هو براجاباتي ، بوروزا هو السنة» (ج.ب.١١ـ٥٦ وستاباتا ٤ـ٥,١١) . وفي البدء كان براجاباتي الوحدة الشاملة ، غير ظاهر ،وظهوره روحي بحت . ولكن الرغبة (كاما) دفعته لأن بتكاثر ، ولأن يعاود تكونه [سا.من.٤ـ١١] . انه يحمِّي نفسه بدرجة قصوى من النسك «تابا ـ لغة حرارة»ويخلق بالانبثاق(١٦) ، وتمكن معرفته بالتعريق ، كما في بعض النشكونيات البدائية ، أو بالبث المنوي . لقد أبدع بدئياً البراهمان ، أي المعرفة المثلثة (فيداس) وبعدئذٍ خلق المياه بالكلمة ، ومن رغبته بإعادة التعريف بنفسه بالمياه فقد اخترقها ، ونشأت بيضة في صدفة اصبحت الأرض ، وبعدئذٍ خلق الآلهة لتسكن السماورات والآزورات Asura بهدف إعمار الارض [١٠ ـ ١ ـ ١ ١٦] .

وفكر براجاباتي : «في الحقيقة ، لقد خلقت واحداً متدلياً من ذاتي ، انه السنة» [ذات المرجع ١١،١،٦،١٣] . ولهذا يقال : «براجباتي هو السنة» . وباعطائه ذاته الخاصة (أثمان ، للآلهة ، خلق متدلياً آخر منه ، هو الاضحية ، ولأجل هذا يقول الناس : «الاضحية هو براجاباتي» . واضافة لذلك يُؤكد بأن تمفصلات (بارفام) الجسد الكوني لبراجاباتي هي الفصول الخمسة من السنة والدعائم الخمسة لمذبح النار [سات.بر.٦ـ١ـ٢] .

إن هذه المماثلة الثلاثية لبراجاباتي مع الكون ، الازمنة الدورية (السنة) ومذبح النار ، تشكل تجديد النظرية البراهمانية الكبير للأضحية . انها تميز انعطاف المفهوم الذي كان يشكل الطقوسية الفيدية ، ويمهد لاكتشافات تحققت من قبل مؤلفي الاوبانيشاد . والفكرة الرئيسية هي انه ، بالخلق /بالتحمية/ و /بالبث/ المتجددين ، ينمحق براجاباتي ـ وينتهي باستنزاف ذاته . ان المصطلحين ـ المفتاحين ـ تابا (حرارة تنكسية) وفيزريج Visrij (بث مبعثر) ـ يمكن ان يكون لهما مفاهيم جنسية غير مباشرة أو مضمرة ، لأن التنسك والجنس متصلان بصميمية في الفكر الهندي الديني . وان الاسطورة وصورها تترجمان النشكونية بعبارات بيولوجية ، وان الطريقة الخاصة بتكوينها تجعل العالم والحياة يغنيان بأجلهما ذاته . ان استنفاذ براجاباتي ـ، عُبر عنه بصور أخّاذة : (فبعد أن أبدع الكائنات الحية ،

انخلعت مفاصله . وعليه ، فإن براجباتي هو بالتأكيد السنة ، ومفاصله هي الليل والنهار (أي الصبح والغسق ، والقمر البدر ، والقمر الجديد ، وبدايات الفصول ، ولقد كان غير قادر لأن يعاود صعوده بمفاصله المسترخية : فأشفته الآلهة بواسطة شعائر الاكينهوترا agnihotra) وذلك بتثبيت مفاصله» [ساسر، ابر . ١-٦-٣-٣٥-٣٦] . وبعبارات اخرى فإن اعادة التكوين واعادة تمفصل الجسم الكوني لبراجاباتي قد انجز بالتضحية أي بناء مذبح قرباني لتمجيد الآغنيكا يانا Agnicagna [ف. ٧٢] . وان الكتاب نفسه [١٠-٤-٢٢] يؤكد بأن «براجاباتي هو السنة ، وهو مشكل من ٧٢٠ يوماً وليلة ، ولأجل هذا فإن المذبح يضم ٣٦٠ حجرة للسور و ٣٦٠ قرميدة» . «ما أن تصبح أوصال براجاباتي منخلعة حتى يتوجب عندها بناء مذبح النار» . والكهنة ترمم براجاباتي (تجمعه /سنسكري/ وذلك بوضعها الطبقات من القرميد التي تشكل المذبح . واجمالاً ، فإن كل قربان يعيد العمل الأول للخلق ويضمن استمرارية العالم للعام الجديد .

ذلك هو المعنى الأصولي للقربان أو التضحية في البراهمان : اعادة خلق الكون (المخلوع المفاصل) /المستنفذ/ بالزمن الدوري (السنة) . فعبر التضحية - أي النشاط المدعوم من الكهنة - يستمر العالم حياً ، ومتنامياً وخصباً ايضاً . وان هذا هو تطبيق جديد لفكرة موغلة في قدمها يتطلبها التكرار السنوي (أو الدوري) للنشكونية . وهذا هو أيضاً التحقيق لمفخرة البراهمان المقتنعون بالأهمية الحاسمة للشعائر . لأن «الشمس لن تشرق ابداً اذا لم يقدم الكاهن «ضحية في الفجر» [١٥و٢- سائر - بره] .

إن الآلهة الفيدية في البراهمانا مجهولة أو تابعة للقوى السحرية وخالقة للأضحية . ويذكر ، ان الآلهة في البدء كانت فانية [تريت . سام ٤-١٢] وانها اصبحت خالدة ومؤلهة بالتضحية [٤-٧/٤]الخ . . . ومنذئذ تمركز الكل في القوة الغامضة للشعيرة : الأصل وجوهر الآلهة ، والقوة المقدسة ، والعلم ، والطيبة في هذه الدنيا وعدم الموت في الآخرة . غير ان الأضحية يجب ان تنجز تماماً وبإيمان ، إن أقل شك حول فاعليتها يمكن ان يكون له نتائج مؤلمة . وبهدف ابراز هذا المبدأ الشعائري ، الذي هو في آن واحد نشكوني وتجلى وفدائي فإن مؤلفي البراهمانا

أكثروا من الأساطير أو أجزاء الأساطير او صنعوا منها مجدداً بدءاً من اشتقاق خيالي إلى تورية ذكية للغز .

٧٧ ـ الاخروية : تقمص نفسي براجاباتي بالاضحية:

وبعد فترة وجيزة ، ظهرت فكرة جديدة للوجود : التضحية لا تجدد قوى براجاباتي وتضمن استمرارية العالم فحسب ، وانما هي مؤهلة لخلق كائن روحي غير قابل للفناء ، «الشخص» ـ أتمان ، وليس للأضحية هدف نشكوني وحيد ووظيفة اخروية فحسب ، ولكنها تجعل ممكنا الحصول على طريقة جديدة للتكون . ببناء مذبح النار /أغنيكانيا/ يتقمص المضحى براجاباتي ، وبدقة اكثر ، فإن براجباتي والمضحى يتطابقان في العمل الشعائري ذاته : المذبح هو براجاباتي وبذات الوقت يصبح المضحي هذا المذبح . وبالقوة السحرية للشعيرة ، يتكون المضحى ، جسداً جديداً : يرتفع للسماء ، أو يولد مرة ثانية [ساتر. بر. ٧ ، ٣ ـ ١ ـ ١٢) ويحصل على الخلود (١٠ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٨) . وهذا يعني انه بعد الموت سيعود للحياة ، والى عدم الموت ، أنه نوع من الوجود يتجاوز الزمن ، والمهم ـ وهذا هو هدف الشعيرة ـ ان تكون كاملاً (سارفا) تاما ، وان تحافظ على هذا الشرط بعد الموت [١٩] .

إن المضحي بارجاعه سوية (سامدها ، وسنسكرى) براجاباتي ، ينجز ذات العملية من التكامل والتوحيدعلى شخصه الخاص ، وبعبارة أخرى انه يصبح « كاملا » ، وكما ان الاله يستعيد شخصه (اتمان) ، بالتضحية ، فإن المضحي يكون ذاته (اتمانه كذلك (كوزيتاكي ـ براهمانا ٣ ـ ٨) . ان /صنع/ الاتمان ، يشابه الى حد ما ، معاودة التوحيد لبراجاباتي ، المبعثر ، والمستنفذ بالعمل النشكوني . ان مجموعة الأعمال الشعائرية (كارما) ، عندما تستكمل وتتقن ، تشكل الشخص (الأتمان) ، وهذا يعني انه عبر النشاط الشعائري ، تتجمع وتتوحد الوظائف النفسية ـ الفيزيولوجية للمضحي ، وان تجمعها هذا يشكل

(الأتمان) (ساترا . بر . ا . ١١) وان المضحي بفضل /اتمانه/ يصبح خالداً ، إن الآلهة ، هي ايضاً كسبت الخلود بالاضحية ، محصلة براهمان (سات . بر اا ، ٢ ـ ٦٣) . وبالنتيجة ، فان براهمان وآتمان هما بشكل مضمر متوحدان ، منذ عصر البراهمانا /٢٠/ . وهذا ما قد تأكد بسلسلة من التقمصات . فبراجاباتي مثله مثل مذبح النار ، هما ممثلان في الريغ قيداً : فمقاطع الحروف /للريغ/ مشبهة ، بقـرميدات المذبح . ولكن بما ان براهمان هو ممثل ايضا بـ ٤٣٢٠٠٠ مقطع من الريغ ، فإنه ينتج عن ذلك انه ايضاً موحد ببراجباتي وفي آخر المطاف بالمضحى ، أي بأ /تمانه/ [٢١] .

واذا كان براجباتي (براهمان) وأتمان هما متماثلين ، فإن ذلك لكونهما نتيجة النشاط نفسه : (اعادة تكوين) ، توحيد ، ومع ان المعادن مختلفة : قرميد المذبح لأجل براجاباتي ـ براهمان ، والوظائف العضوية والنفسية العقلية لأجل الاتمان » . ولكنه يقتضي الاشارة الى ان هذه هي اسطورة نشكونية والتي تشكل في آخر المطاف النموذج المثالي (لبناء) الأتمان . وان مختلف التقنيات اليوجية تطبق ذات المبدأ : « تركيز » و« توحيد » لأوضاع جسدية ، وانفاس ، ونشاط نفسي ـ عقلي .

ان اكتشاف الهوية بين الهو (اتمان le soi atman) وبراهمان سيجري استثماره بدون كلل وسيقوم بأشكال مختلفة في الأوبانيشاد . (و . ٨٠ ع)ويكفي ان نضيف هنا ، بأن براهمان في البراهمانا يدل على عملية من التضحية الكونية ، وبالتوسع ، على القدرة الخفية التي تمسك العالم ، ولكن براهمان سبق ان اعتبر بل وسمي صراحة في الفيدا بأنه الغير قابل للفناء والثابت الذي لا يتغير ، والاساس ، والمبدأ لكل وجود . ومما له دلالته ان براهمان في عدة اناشيد من الأتهارقا فيدا (١٠ ـ ٧ ـ ٨الخ) قد شبه بسكامبها (skambha) (التي تعني لغوياً ، دعامة ، مستند عمود) ، وبعبارات اخرى ، فان براهمان هو الغروند Grundeالذي يسند العالم ، وهو في آن واحد قطب كوني وأساس انطولوجي ، « في السكامبها انه كل ما هو مجاز بالنفس (اتمانفا) ، إنه كل ما يتنفس » (آتهارفا فيدا ٧ ، ٨ ، ٢) . « من يعرف البراهمان في الانسان يعرف الكائن الأعلى

(باراميستين paramistin الرب) والذي يعرف الكائن الأعلى يعرف السكامبها »
(التهارفا فيدا ، ١٠ ٠ ٨ ـ ٤٣) . ويلمس الجهد لعزل الحقيقة الكلية :
براهما ، عرِّف ، كعمود الكون ، والسند ، والقاعدة ، والعبارة براتيستها
paratistha ، التي تعبر عن كل هذه المعاني ، قد سبق استعمالها على نطاق واسع
في النصوص القيدية . فالبراهماني شبه ببراهمان لأنه يعرف بنية وأصل الكون ،
ولأنه يعرف الكلمة التي تعبرعن كل هذا . لأن الكلمة فاك Logos =Vac يمكنها
ان تحول شخصاً إلى براهماني (ر. ف ١٢٥ ـ ٥) « ولادة براهماني هو تجسيد
خالد لدهارما » (مانو ١ ـ ٩٨) ٢٣٠

إن سلسلة خاصة من المؤلفات المسماة آريانياكا les Aranyaka(تعني لغويا
متعلق بالغابة) ، تسمح لنا بتتبع النقلة من نموذج تضحوي (كارما ـ كاندا ،
للبراهمانا إلى أولية المعرفة الماوراء طبيعية (جنانا ـ كاندا) المعلن عنها
بالاوبانيشاد . ان الارانيكات les Aranyakaكانت تعلم في السر ، بعيداً عن
القرى ، وفي الغابة . ان تعاليمها تركز الاشارة على الهو le Soi ، صاحب
الاضحية ، وليس على الحقيقة الملموسة للشعائر ، وبحسب (الآرانياكا) ، ان
الآلهة مختبئة في الانسان ، وبعبارة أخرى فإن العلاقة المتبادلة بين الاكبر والاصغر
macrocosme-microcosms التي هي اساس التعليم القيدي ، تكشف الآن التشابه
بين الآلهة الكونية وتلك الماثلة في الجسد البشري (ايتاريا ارنياكا ١ ـ ٣ ـ ٧ ، ٢
٣ ,ع وسانيكيانا ارياناكا ٧ ـ ٦ الخ) ، وبالنتيجة فإن استبطان الأضحية (٥ ٧٨
ع) يسمح بتوجيه القرابين في آن واحد إلى الآلهة في الباطن والآلهة في الخارج ،
وان الهدف الكلي هو الاتحاد (سمهيتا) بين المستويات المختلفة للألوهيات ـ
الكونية والأعضاء والوظائف النفس ـ طبيعية للانسان .

وبعد عدد من المطابقات والتقمصات ، نصل الى نتيجة ان (وعي الذات)
(برانجناثمان) هو ذات الشيء الوحيد مما للشمس) (ايت . آ ـ ٣ ـ ٣٢ ـ
وساند . آ ـ ٨ ، ٣ ـ ٧) ، وهذه معادلة جريئة ، سيعاد اعلانها وستعاد صياغتها
من قبل مؤلفي الأوبانيشاد .

٧٨ - (تابا): تقنية وجدلية انواع التقشف :

لقد أشرنا مراراً الى التقشف - تابا - لأنه لا يمكن الاطناب في الكلام حول الآلهة والأساطير أو الشعائر الهندية الأكثر اهمية بدون ذكر هذه (التحمية) ، الشعائرية ، وهذه الحرارة أو السخونة المتحصلة عن طريق التقشفات . إن عبارة تابا من الجذر تاب : حمي غلي ، وهي مؤكدة بدقة في الريغ قيدا (مثلا ٨ - ٦٥٩ - ١٠ ١٣٦ . . الخ) . وان هذا يتعلق بتقليد هندو- اوروبي ، لأن « الحرارة القصوى » او « الغضب » (في اللغات أوروبية - Wut ‹ nénos ‹ fery ‹ ferre cole´re) في نص مواز ، يلعب دوراً في الشعائر من النوع البطولي[٢٤] . يضاف إلى ذلك ان (التحمية » بمختلف التقنيات النفس - فيزيولوجية ، بل بتغذية مفلفلة بافراط ، قد تأكدت لدى رجال - الطب والسحرة في الثقافات البدائية[٢٢] . وإن الحصول على القوة السحر - دينية تصاحبت بحرارة داخلية قوية ، وان هذه « القوة » ذاتها يعبر عنها بمصطلحات تعني « الحرارة » و« الحريق » « شدة الحرارة الخ . . » .

لقد أعدنا التذكير بهذه الوقائع لنبرز الأقدمية والانتشار الملحوظ للتقشفات من نوع تابا . وان هذا لا يشرك البتة أصلاً غير آري للتقشف الهندي . إن الهندو - اوروبيين ، وبخاصة الهنود الفيديين ، قد ورثوا تقنيات ما قبل تاريخية وقد قيّموها بشكل مختلف . ونؤكد هنا على أنه لم تصل التحمية الطقوسية في أي مكان آخر إلى المضمون الذي ستعرفه (التابا) في الهند ، منذ العصور الموغلة في القدم وحتى عصرنا .

ان التحمية التنسكية تجد نموذجها او مثيلها ، في الصور والرموز والاساطير ذات العلاقة بالحرارة التي تنضج المحاصيل وتحضن البيض ضامنة تفقسه ، مع التحريض الجنسي وبصورة خاصة اضطرام الانتعاظ او هزة الجماع ، ومع النار المشتعلة باحتكاك قضيبين من الخشب .

ان /التابا/ « خالقة » على عدة مستويات : نشكونية ، دينية وميتافيزيقية وكما رأينا فان براجاباتي ، خلق العالم متحمياً بالتابا وان النضوب الذي تلى ذلك قابل للتمثيل بالتعب الجنسي (ف . ٧٦ ع) . وعلى مستوى الطقس أو الشعيرة فإن التابا تجعل من الممكن عودة الولادة ، اي العبور من هذه الدنيا الراهنة إلى عالم الآلهة ، ومن محيط الدناسة إلى محيط القداسة . واضافة لذلك فإن التنسك يساعد محب التأمل (المتصوف) لأن (يحضن) اسرار المعرفة الباطنية فتكشف له الحقائق العميقة . « إن آغنى قدم للتابي « حرارة الرأس بجعله بصيراً ، بعيد النظر » -

وان التنسك يغير جذرياً ، لمن يمارسه ، طريقة التكوين ، ويمنحه « قوة » فوق بشرية يمكن ان تصبح مريعة وفي بعض الأحيان « شيطانية » ٢٦ . وإن اوليات الاضاحي الاكثر اهمية هي حفلة المسارَّة ، التدريب البراهماني Brahmacaris وهما تستوجبان التابا .

والتابا ، تتم اساسا ، بالصوم ، والسهر قرب النار ، أو الوقوف تحت الشمس ، ونادراً جدا بشرب مواد مسكرة . بيد ان « التحمية » تتحصل بحبس النفس ، وهذا ما يفتح الطريق الى مماثلة جريئة للشعائر القيدية مع تطبيقات اليوجا . وهذا التماثل غدا ممكنا ، بصورة خاصة ، بالتأملات البراهمانية حول القربان .

فمنذ زمن مبكر ، مثلت الاضحية با (التابا) وأعلن ان الآلهة حصلَت على الخلود ليس بالأضحية فحسب (ف ٧٦غ) وانما بالنسك ايضا . واذا كانت النسوما تقدم للآلهة في العقيدة القيدية ، مع السمن الذائب ، والنار المقدسة ، ففي التطبيق التنسكي تقدم لها « تضحية باطنية » والتي تبدل فيها الوظائف الفيزيولوجية بالاراقة وبالموضوعات الشعائرية . فالتنفس مطابق ، على الغالب ، « لاراقة غير منقطعة »[٢٧] . ويحكى عن البرانا غنيهوترا prânâ gnihotra أي « القربان للنار (المكتمل) بالتنفس » . (فيكها ناسهارا سوترا ٢ ـ ١٨) ان مفهوم هذه « التضحية الباطنية » تجديد غني بنتائجه ، انه يسمح للمتنسكين والصوفيين

حتى لأكثرهم غرابة ، أن يبقوا على ذات الحالة ، في حضن البراهمانية ، ومن ثم في الهندوسية . ومن جهة أخرى فإن (التضحية الباطنية) ستمارس من قبل البراهمانيين « ساكني الغابة » أي من قبل الذين يعيشون كنساك (سامیازي) دون ان يتركوا هويتهم الاجتماعية « اسياد البيت » . [٢٨] .

وأجمالاً فإن التابا قد ادمجت في سلسلة من المطابقات المنجزة على مستويات مختلفة . فمن جهة ـ وطبقاً للاتجاه المميز للروح الهندية ـ فإن البنيات والظواهر الكونية قد تمثلت باعضاء ووظائف الجسم البشري ، واضافة لذلك ، بعناصر الاضحية (جذع نار ، قربان ، ادوات شعائرية ، صيغ ترتيلية الخ . . .) ومن جهة اخرى فإن التنسك ـ الذي كان قد طبق (منذ ما قبل التاريخ) كنموذج متكامل من تطابقات (الاصغر ـ الاكبر) . (الصغير ممثل بالريح . . الخ) هذا التنسك مماثل بالتضحية . وبعض اشكاله ، على سبيل المثال ، حبس التنفس ، هو نفسه معتبر اسمى من التضحية ، وقد اعلن عن نتائجه بأنها اسمى من الأضحية ، وبأن ثماره اكثر قيمة من ثمارها . ولكن كل هذا المطابقات والمماثلات تبدو صالحة ، بمعنى انها غدت « حقيقة » وفعّالة دينياً ، فقط اذا ، فهمت الجدلية التي ابرزتها .

وفي آخر المطاف ، يهمنا ان نذكر عددا من الانظمة التي هي من جهة متماثلة ، ومن جهة اخرى مصنفة في سلسلة تراتبية متغيرة . ان الأضحية قد مثلت بالتنسك ، ولكنه بدءاً من فترة ما فإن ما يعتبر اكثر هو عقل المبدأ الذي يبرر امثال هذه المماثلات . وبعد فترة متأخرة ، مع الاوبانيشاد ، فإن الادراك ، لمعرفة (جنانا) سترتفع لمنزلة مرموقة ، وان النظام التضحوى مع اللاهوت الاسطوري الذي طبقه ، سيفقد الأولوية الدينية . بيد ان هذا النظام المبني على سيادة المعرفة لن ينجح مطلقاً في دعم هذه السيادة ، اقله بالنسبة لبعض اقسام المجتمع . فاليوجيون ، على سبيل المثال ، يعطون اهمية حاسمة لتنسك ولتجربة حالات « صوفية » ، وبعض « الوجديين » أو انصار الورع من نوع ألوهي « بهاكطي » سيرفضون ، كلا أو جزءاً ، الشعائرية البراهمانية كما سيرفضون التعليم الماورائي للأوبانيشاد ، كما يرفضون التنسك (تابا) والتقنية اليوجية .

ان هذه الجدلية القابلة لأن تكشف مالا يحصى من التطابقات والتمثيلات والاتصالات على مستويات مختلفة من التجربة البشرية (فيزيولوجيا ، بسيكولوجيا ، نشاط شعائري ، ترميز « تجربة صوفية » الخ . .) ، كانت قيد العمل منذ العصر القيدي ، ان لم يكن مما قبل التاريخ الهندو- اوروبي . ولكنها ستكون مدعوة لأن تلعب دوراً بارزاً في العصور التالية . وكما سنرى ، فان الجدلية للتطابق ستكشف عن امكانياتها « الخلاقة » وبصورة خاصة في فترات الازمات الدينية والميتافيزيكية ، أي عندما ينتهي نظام تقليدي بضياع صحته وبإنهيار عالم قيمه .

٧٩ - نساك وشطحيون : موني ، فراتيا .

اذا كانت أعمال التقوى الشعائرية تشكل جزءاً لا يتجزأ من العبادة القيدية ، فيجب عدم اغفال انواع أخرى من التنسكات والشطحيات لم يشر اليها الا لماماً في النصوص القديمة . وأن العديد من هذه التنسكات والشطحيات كانت تعيش على هامش المجتمع الآري ، بدون ان تعتبر مطلقاً (هرطقية) . بيد أنه كان يوجد أخرى مما أمكن اعتبارها (غريبة) ، مع انه من غير الممكن عمليا التقرير فيما اذا كانت تنتمي الى طبقات بلدية اصيلة او أنها تعكس المفاهيم الدينية لبعض قبائل آرية فقط ، كانت قد تطورت على هامش التقليد القيدي .

وهكذا فان نشيدا من الريغ فيدا (١٠ - ١٣٦) سيتكلم عن ناسك (muni)ذي شعر طويل (Keseir) يرتدي (الزبل الاسمر) « مزنر بالريح » (أي عاريا) وفيه (تدخل الآلهة) ، انه يهتف : « في سكر من الوجد صعدنا على الرياح . أما انتم أيها الفانون ، فلا تستطيعون مشاهدة سوى جسدنا » .

ان الموني Le muni يطير عبر الرياح ، انه حصان عنصر الريح (فاتا) وصديق فايو (رب الريح) . انه يسكن في المحيطين المحيط في المشرق والمحيط

في المغيب (ستر . ٥ فيدا ١١ ـ ٦ ٥ الخ) . « يمضي على خطى الابسارات de Apsaras ، والجاندهارفات des Gandharvat والحيوانات المتوحشة ، ويعرف افكارها » [(ستر . ٦] . انه « يشرب مع رودرا Rudra بكأس من السم » [ستر ٧] وان هذا مثال نموذجي من وجد : نفس موني تترك الجسد ، وتنحدر الى فكر الكائنات النصف إلهية والحيوانات المتوحشة ، وتسكن « المحيطين » . وهذه الاشارات لحصان الريح وللآلهة التي تتجسدها تدل على تقنية شامانية .

وتستدعي الفيدا كذلك تجارب أخرى ما فوق الاعتيادية ، ذات العلاقة مع الشخصيات الأسطورية (ايكافرايتا ، براهماكارين ، فينا ، الخ) التي تمثل على الأرجح النماذج المؤلهة لبعض النساك والسحرة . لأن الانسان ـ الاله يبقى باعثا سائداً في التاريخ الروحي للهند . ان ايكافراياتا هو ، على الارجح ، النموذج القديم تلك الجماعة السرية ، الفراتيا ، التي أريد أن يرى فيها نساك سيفايتس ، و« صوفيون » وروّاد ، وويوجيون او ممثلو شعوب غير آرية . ان سفراً كاملاً من الأتهارفا [السفر ١٥] قد كرِّس لهؤلاء ، ولكن النص غامض ، ومع ذلك يستخلص منه ان الفراتيات lesvratya يمارسون التنسك (يبقون واقفين لمدة سنة الخ . . .) ويعرفون نظاماً من النفثات souffles (ممثلة لمختلف الأقاليم الكونية) [أق ١٥ ـ ١٤ ـ ١٧] . ويماثلون اجسادهم بالعالم الاكبر macrocosm [١٨ ـ ١] . وان هذه الأخوية confre´rie كانت ، مع ذلك ، هامة ، لأن اضحية خاصة اقراتيا ستوما ، كانت قد اقيمت لدمج اعضائها في المجتمع البراهماني /٢٩/ . واثناء الفراثيا ستوما ، كانت شخصيات اخرى حاضرة ، وكان الاساسيان فيها ، ماجادها un magadha الذي يقوم بدور المغني ، وعاهرة [انها ـ فيدا ـ ١٥ ـ ٢] . وبمناسبة شعيرة متعلقة بمدار الشمس (ماهافراترا) كانت العاهرة تضاجع شعائريا الماجادها او براهما ، كاران ٣٠ .

والبراهما كاران هو ايضاً معروف كشخصية على درجة كونية . مطلع على السر ، مرتد جلد ظبي اسود ، مع ذقن طويلة ، يسافر من المحيط الشرقي الى المحيط الشمالي و« يخلق العوالم » ، وهو يمجد «كجنيـــن في رحم الخلود» ،

ومرتديا اللون الأحمر ، يطبق التابا [آت ـ ٥ ـ ١١ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧] . الا انه ، وكما يحصل غالباً في الهند ، فإن « ممثله » الأرضي ، البراهما كاران (الذي أول نذر له هو الطهارة) ، كان يقترن شعائرياً مع العاهرة .

ولقد كان الاقتران الجنسي يلعب دوراً في بعض الشعائر القيدية (الاسفاميدها) ويقتضي التمييز بين القران الزوجي المعتبر مشتركا hierogqmie ، والقران الجنسي من نوع تهتكي الهادف اما للخصب العالمي ، واما لخلق « دفاع سحري »[٣٢] . وفي الحالتين ، هو مع ذلك مسألة شعائر ، ويمكن القول (تقديسات) ، منجزة بهدف اعادة تقديس الشخصية الانسانية او الحياة . وبعد فترة متأخرة من الزمن ، ستعد التانترية tantrisme تقنية كاملة متطلعة الى تحول الجنسية لسر مقدس .

أما بالنسبة لمختلف طبقات النساك ، والسحرة والصوفيين الذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع الآري ، والتي انتهت اكثريتها للاندماج في الهندوسية ، فاننا لا نعلم عنها سوى القليل . ان المصادر الاكثر غني متأخرة ، الأمر الذي ، من جهة اخرى ، لا ينقص مطلقاً فوائدها لأنها تعكس بالتأكيد وضعاً اكثر قدما . وهكذا ، فأن الـ«(فيكها ـ ناسا سمارتا سوترا ، Vaïkhânasamârta tsutraتقدم قائمة طويلة بالنساك والرهبان ، الذين يتميز بعضهم بشعرهم الطويل وثيابهم الممزقة أو بالاكتفاء بقشرة شجرة ، وآخرون يعيشون عراة ، يتغذون ببول الابقار وبالروث ويسكنون المقابر الخ . . . وآخرون ايضاً يمارسون اليوجا أو شكلا من ما قبل التانترية proto - tantrisme[٣٣] .

وباختصار نقول ، انه منذ العصور الموغلة في القدم تأكدت اشكال مختلفة من التنسك ، والتجارب الوجدية والتقنيات السحر ـ دينية ، ويمكن التعرف على التنسكات من نموذج /كلاسيكي/ وبعض البواعث المتطبعة بالشامانية ، الى جانب تجارب وجدية خاصة بالعديد من ثقافات اخرى وبعض ممارسات يوجية قاسية . ان التنافر والتعقيد في التصرفات ، وان التقنيات والعقائد المتعلقة بالخلاص والمدافع عنها من قبل اولئك الذين تركوا الدنيا لم تتوقف عن النمو في

العصور التالية . وبايجاز ، يمكن القول بأن الطرائق الوجدية تبرز وتحدد التجربة الممجدة باحتساء السوما أو مواد اخرى مسكرة ، مقدمة بعض اشكال الورع الاسطورى ، في حين ان التقشفات والانظمة التنسكية تهيء لاعداد تقنيات يوجية .

ويجب ان نضيف على هذا انه بدءاً من عصر الاوبانيشاد ، انتشرت العادة بالتخلي عن الحياة الاجتماعية والاقامة في الغابة ، بهدف القدرة على التكريس للتأمـل بالكلية . وقد غدت هذه العادة منذ زمن طويل مثالاً يحتذى وهي ما زالت متبعة في الهند الحديثة . بيد انه من الراجح ان العزلة في (الغابة) من قبل اشخاص لم يكونوا لا (صوفيين وجديين) ولا نساك او يوجيين بالنذر ، قد شكلت ، في بداياتها ، تجديداً مدهشاً . وفي الأساس ، ان ترك الحياة الاجتماعية كشف ازمة عميقة في الدين التقليدي . ومن الراجح جداً أن هذه الأزمة كانت قد ثارت على اثر تعليمات براهمانية حول التضحية .

٨٠ ـ الأوبانيشاد والبحث عن الريشي (القديسين) : كيف يمكن للمرء الخلاص من ثمرة افعاله الخاصة :

ان الآلهة القيدية في البراهمانا قد انقصت قيمتها جذريا لمصلحة براجاباتي . وقد مدد واكمل كتاب الاوبانيشاد هذه العملية . بيد انهم قد ذهبوا بعيداً : فهم لم يترددوا عن انقاص قيمة الأضحية الكلية القدرة . وان بعض النصوص الاوبانيشادية تؤكد انه ، بدون التأمل حول « الاتمان » ، فان الأضحية غير كاملة [ميترى اوبانيشاد ١ ـ ٢]وتؤكد الشاندوجيا Chandogya [٨ ـ ١ ـ ٦] كما انه تماما « كما يتلف العالم المكتسب بالأعمال « كارمان » كذلك سيتلف العالم المتحصل بالتضحية . وحسب الميتري آب le maitri up [١ ـ ٢ ، ٩ ـ ١٠] فإن

اولئك الذين يبنون اوهاماً على أهمية الأضحية سيندمون ، لأنهم ، بعد ان تمتعوا ، في السماوات بالمكان المرموق المكتسب باعمالهم الطيبة ، سيعودون الى الأرض او سيسقطون في العالم السفلي . فلا الآلهة ، ولا الشعائر ، لن تحتسب بالنسبة لقديس رشيrshiحقيقى . ان مثله الأعلى مصاغ باعجاب في الصلاة المنقولة بالاوبانيشاد الأكثر قدما البرهادارا نياكا la Brhadara nyaka [١ - ٣ - ٢٨] : « من اللاكينونة (أزات) قدنى الى الكينونة /سات/ ، ومن الظلمة قدنى الى النور ، ومن الفناء قدني الى الخلود » .

ان الأزمة الروحية التي تفجرت في الاوبانيشادات تبدو مثارة بالتأمل حول قوى الأضحية . وقد رأينا ، تماما كما ان براجاباتي قد اعيد تكوينه وتقمص شخصه /أتمان/، بفضل الأضحية ، كذلك فإن المضحى كان قد وحِّد بالأعمال الشعائرية /كارمان/ ، وظائفه النفس - فيزيولوجية وبنى ذاته (ف . ٧٧ ع) .

وفي البراهمانا تعنى عبارة (كارمان) النشاط الشعائري ونتائجه الطيبة « لأن المضحي يعود الى عالم الآلهة بعد موته » . ولكنه بالتأمل حول العملية الشعائرية «للسبب ومفعوله» ، كان لا مفر من اكتشاف ان كل عمل ، بالفعل البسيط الذي تحصلت نتيجة عنه ، يندمج في سلسلة لا محدودة من الاسباب والنتائج . وما ان عرف قانون السببية العالمية في الكارمانا ، حتى كان اليقين المبني على الآثار الملائمة للاضحية قد انهار . ولأن الوجود التالي للروح في السماء كان الوصول من النشاط الشعائري للمضحي ، ولكن أين « تحققت » منتجات كل هذه الأعمال الأخرى ، المنجزة اثناء الحياة بكاملها؟؟ ان الوجود التالي والطوباوي، المكافىء من نشاط شعائري صحيح، يجب له ان يحصل كل نهاية . ولكن ماذا يحصل للروح الغير متجسدة عندئذ؟ على أي حال لايمكن لها ان تزول نهائيا . لقد بقي لها عدد غير محدود من الأعمال المنجزة اثناء الحياة ، وهذه الأعمال شكلت كمية من «الاسباب» التي يتوجب لها ان تحصل على « آثار » ، وبعبارة اخرى ، يتوجب لها ان تحقق في وجود جديد ، هنا على الأرض ، او في عالم آخر . وان النتيجة تفرض نفسها من ذاتها :
فبعد ان تمتعت بوجود سابق طوبادي او تعيش في عالم خارج - ارضي ، كانت

الروح مكرهة لأن تعاود تجسدها . وهذا هو قانون انتقال الروح (تقمص) سامسارا samsara، الذي ؛ ما ان اكتشف حتى ساد الفكر الديني والفلسفي الهندي التقليدي وكذلك الهرطقي (البوذية والجاينية) . ان عبارة (سامسارا) تظهر فقط في الأوبانيشاد . اما اصل النظرية فهو غير معلوم . وقد جرت عبثا محاولة لتفسير العقيدة التقمص استنادًا على عناصر سابقة للآرية . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الاكتشاف قد فرض نظرة تشاؤمية للوجود . ان المثل الأعلي للانسان القيدي ـ ليعيش ١٠٠ سنة الخ ـ يظهر باطلاً . ففي ذاتها ، لا تمثل الحياة بالضرورة « الشر » شريطة استعمالها كوسيلة للخلاص من علاقات كارمان .

ان الهدف الوحيد الجدير بانسان حكيم هو الحصول على الخلاص ، موكشا moksha ـ وهي عبارة أخرى ، مع مماثلاتها (موكتي الخ) تصنف بين الكلمات ـ المفاتيح للفكر الهندي .

بما ان كل عمل (كارمان) ديني او دينيوي يؤكد او يديم التقمص /سمسارا/ ، فإن الخلاص لا يمكن الحصول عليه لا بالأضحية ، ولا بالعلاقات الصميمية مع الآلهة ، ولا حتى بالتنسك او الاحسان . ان الريشي richi في رهبانيتهم كانوا يفتشون عن وسائل أخرى كي يتحرروا . وان اكتشافاً هاما قد تم بالتأمل حول القيمة المتعلقة بالخلاص للمعرفة التي سبق تمجيدها في الفيدا والبراهمانا . بديهي ان مؤلفي البراهمانا كانوا قدرجعوا للمعرفة (الباطنية) لمطابقات مضمرة في العملية الشعائرية . فالجهل بالاسرار التضحوية كما تقول البراهمانا ، كان قد أدان البشر (بموت ثاني) ولكن الريشي ذهبوا بعيداً ، فأحلوا (المعرفة الباطنية) من نصوصها الشعائرية واللاهوتية ، وأصبح العرفان الروحي (الغنوص gnos) هو القادر للامساك بالحقيقة المطلقة ، برفعه النقاب عن البنى العميقة للحقيقة . ومثل هذا العرفان ينتهي ، باتلاف الجهالة (افيديا) لغويا ، والتي تبدو وكأنها تصيب البشر (الغير مسارين ، بالبراهمانا » . إنه يتعلق ، تأكيداً ، بجهل نظام ما وراء الطبيعة لأنه يرد للحقيقة الشاملة وليس الى الحقائق التجريبية المتعلقة بالتجربة اليومية .

وفي هذا المعنى من (جهالة نظام ما وراء الطبيعة) طرحت عبارة (أفيديا) في المفردات الفلسفية الهندية . إن (الأفيديا) كانت تكتم الحقيقة الشاملة ، وان « الحكمة ـ غنوص » كشفت الحقيقة ، اذن ، الواقع . ومن احدى وجهات النظر كانت هذه المعرفة خلاقة : خلقت البنى والدينامية للوجود البشري . وبفضل الافيدبا عاش البشر وجوداً غير مسؤول ، جاهلين نتائج اعمالهم (كارمان) . وبعد بحوث مشوقة وترددات ، فإن /الريشي/ ، مستنيرين باشراقات فجائية ، قد طابقوا في الأفبديا (العلة الأولى) « كارمان ، وبالنتيجة ، الأصل لدينامية التقمص . فالدائرة قد اكتملت : الأفيديا « الجهالة » « ابدعت » او دعمت قانون « السبب والنتيجة » كارمان ، والذي بدوره حكم السلسلة المتواترة للتقمصات (سمسارا) . ولحسن الحظ فإن الخلاص (موكشا) من هذه الدائرة المأساوية كان ممكنا بصورة خاصة بفضل العرفان = غنوص (جنانا ، فيديا) . وكما سنرى ، فإن جماعات او مدارس أخرى أعلنت اضافة لذلك الفضائل التحررية لتقنيات اليوجا والورع الاسطوري . ولقد دأب الفكر الهندي منذ زمن مبكر على مماثلة « الطرق » (مارجا) المختلفة المؤدية الى الخلاص . وقد توصل الجهد فيما بعد بعدة قرون الى التركيب الشهير المعلن في البهاجافاد رجيتا Bhagavad — Geta (القرن الرابع ق.م) . الا انه يقتضي الاشارة منذ الآن ان اكتشاف المتتالية المصيرية (افيديا ـ كارمان ـ سامسارا ، واكتشاف دوائها ، الخلاص (موكشا) بواسطة « الغنوص » ، المعرفة لنظام ما وراء الطبيعة (جنانا ، فيديا) ، اكتشاف منجز ، رغم كونه غير مبرمج بشكل كامل ، في عصور الاوبانيشاد ، ويشكل جوهر الفلسفة الهندية التالية ، وإن التطورات الاكثر أهمية هي المتعلقة بوسائل الخلاص ، وبتناقض ، « الشخص » (او « الوكيل ») المعني بالتمتع بهذا الخلاص .

٨١ ـ المطابقة « اتمان » ـ براهمان وتجربة « النور الداخلي »

لقد عمدنا الى الاختصار ، بهدف ان ندرك بدئيا قصد واصولية الريشي . ففي الادبانيشادات الأكثر قدما ،[٣٤٤] يميز بين مجموعة خطوات . مع ذلك لا يجب

الاعتماد كثيراً على هذه المفارقات ، لأن نظام التمثيلات والتطابقات المسبقة السيادة في البراهمانات ، تبقى صالحة ايضاً في الأوبانيشادات . ان المشكلة المركزية هي ، بشكل واضح او مضمر ، ماثلة في كل نص . إنه يتعلق بادراك وفهم الكائن الأول / الواحد/ الكل ، L'u,n/tout ، الذي هو وحده ولذاته يفسر العالم والحياة ومصير الانسان . ومنذ الريغ فيداً جرت مماثلة في أل تاد ايكام Le tad elq, ـ الواحد (حيادي) ـ وذلك في النشيد الشهير ١٠ ، ١٢٩ . وإن البراهمانات اسمته براجاباتي او براهمان . ألا انه في هذه المصنفات المدرسية ، كان الكائن الأول في علاقة مع الأضحية الكونية والقداسة الشعائرية . وإن الريشي Le rishis قد بذلوا كل ما في وسعهم لضبطه بواسطة تأمل موجه بالعرفان/ غنوص) [٣٥]

ان الكائن الأول هو بكل وضوح ، لا يمكن تصوره ، وهو غير محدود ، وهو أزلي ، انه في آن واحد ، الكل والأحد « خالق » و (رب) العالم ، وقد ماثله بعضهم حتى مع الكون univers وبعضهم الآخر بحث عنه في الشخص (بيروزا Purvsa) الماثل في الشمس ، والقمر والكلمة الخ . . . ويبحث عنه غيرهم في اللا محدود الذي يسند العالم ، والحياة ، والضمير . . . ومن بين اسماء الكائن الأول الذي وضع منذ البدء كان براهمان . وفي مقطع شهير من الشاندوجيا آب [٣ ـ ١٤] ، وصف براهمان كما لو انه « العالم بكامله » وغالبا هو من طبيعة روحية ، « الحياة جسده ، والنور شكله ، والفضاء روحه » ، انه يشتمل في ذاته على كل التصرفات والرغبات ، والروائح والمذاقات الخ . . . بيد أنه في ذات الوقت « اثماني في القلب ، أصغر من حبة شعير ، ان لم يكن من حبة خردل » ومع ذلك هو « اكبر من الأرض ، بكثير ، واكبر من الفضاء ، واكبر من هذه العوالم » . « محتويا كل الأعمال ، وكل الرغبات [. . . .] محتويا هذا العالم بكامله [. . . .] . . هذا هو اتماني mon atman في القلب ، هذا هو براهمان . . وبالوفاة سأدخل فيه »[٣٦] . إن يجنافالكيا yajnanalkya تتكلم عنه ايضاً عن « ذلك الذي يسكن في الأرض ، ولكن الأرض لم تعرفه ، والذي جسمه ، هو الأرض ويراقب الأرض من الداخل » . وتماثله مع الـ « اثمان ،

المراقب الداخلي والخالد » [برهاداران ياكا أب . Brhadaranyqka up ٣ ـ ٧ ـ ٣٢] .

وتماما كما هو بوروزا Purusn في الريغ فيدا [١٠ ـ ٩٠] ، فإن براهمان يكشف عن ذاته في آن واحد علة وجود (« هذا العالم ») ومفارق له ، متميز عن الكوزموس ومع ذلك كلي الحضور في الحقائق الكونية . واضافة لذلك ، بصفته أتمان ، فهو يسكن قلب الانسان ، الأمر الذي يقتضي الهوية او التطابق بين الذات الحقيقية والكائن العالمي . وفي الواقع ، ان اتمان (من يعلم » يتحد في الموت ببراهمان ، وان أرواح الآخرين الغير مستنيرة ، ستسلك قانون التقمص /سامسارا/ . وتميز عدة نظريات حول الوجود ـ السابق بدون عودة على الأرض . وحسب بعض هذه النظريات ، إن الذين عرفوا الرمزية الباطنية « للنيران الخمسة »[٣٧] يجتازون مختلف الأقاليم الكونية وحتى « عالم النور » . وانهم هنا يلتقون « شخصا روحيا » (بوروزا ماناساه أي « متولد من الروح ») وهذا الشخص يقودهم حتى عوالم براهمان ، حيث سيعيشون زمنا طويلاً ولن يعودوا أبداً . ان هذه النظرية ، وقد تحورت ، سيعاد أخذها من قبل المدارس التنسكية المختلفة . ولكنه حسب تفسيرات اخرى ؛ فإن اتحاد أتمان ، بعد الموت ، مع الكائن العالمي (براهمان) يشكل لحد ما (خلوداً غير شخصي » : فا « الهو » يمتزج في مصدره الأصلي ، براهمان .

ويقتضي التحديد بدقة أن التأملات حول مطابقة اتمان ـ براهمان تشكل « تمرينا روحيا » وليس « سلسلة » من « المعقولات » . أن ادراك المرء لذاته الخاصة يترافق بتجربة من « نور داخلي » (أنتاه ـ جيوتيف) . وان النور هو الصورة بامتياز لأتمان كما هو لبراهمان . وبالتأكيد ، انه يتعلق ، بتقليد قديم لأنه منذ العصور القيدية ، كانت الشمس وكان النور معتبرين كتجليات للكائن وللروح ، وللخلود وللخلق . وحسب الريغ فيدا [١ ـ ١١٥ ـ ١] ، ان الشمس هي الحياة أو الأتمان ـ الذات ـ لكل شيء[٣٨] إن الذين شربوا السوما يصبحون خالدين ، ويصلون الى النور ويجدون الآلهة (ر. ق ٨ ـ ٤٨ ـ ٣) وعليه ، تقول [الشاندوجا او بانيشاد ٧ ـ ١٣ ـ ٧] « ان النور الذي يشع خارج هذه السماء ، وخارج كل

شيء ، في أعلى عليين من العوالم والتي لا يوجد بعدها ما هو أعلى ، هو في الحقيقة ذات النور الذي يشع داخل الانسان (انتاه بوروزا)(٣٩) . إن [البرها دارنياكا ، وبانيشاد ٤٠ ـ ٣ ـ ٧] تطابق ، هي ايضا الأتمان بالشخص الذي يوجد في قلب الانسان على شكل « نور في القلب » . « هذا الكائن ، الصافي ، المرتفع من جسده والمدرك النور الأعلى ، يبدو تحت شكله الخاص . انه هو الأتمان . إنه الخالد ، الذي لا يخاف إنه براهمان » [الشانديوجا ـ ادب . ٧ ـ ٤ ـ ٣](٤٠) .

٨٢ ـ النموذجان لبراهمان ـ وسر « الاتمان » ، الاسير » في المادة:

الهوية اتمان ـ براهمان ، المدركة تجريبيا في « النور الداخلي » تساعد الريشي لفك رموز سر الخلق وبذات الحين بطريقة تكونه الخاص . لأنه يعلم ان الانسان هو أسير الكارمان وعلى الأغلب حائز لذات خالدة ، فإنه يكشف في براهمان حالة مماثلة . وبعبارة أخرى ، انه يتعرف في براهمان على طريقتين للتكون هما بحسب ظاهرهما متنافرتين : « مطلق ونسبي » ، « روحي ومادي » ، « شخصي ، ولا شخصي » الخ . وفي البريهاد ، ريياكا ، وبانيشاد [٢ ـ ٣ ـ ١٠] ، ان براهمان قد ضبط تحت شكلين : مادى (وقابل للفناء) وخالد . وان الاوبانيشادات المتوسطة(٤١) تطور بطريقة منهجية اكثر هذا الاتجاه ـ الذي سبق أن تأكد في الريغ فيدا ـ بارجاع الكلية الكونية والوعي إلى مبدأ واحد . فالكاتا أوبانيشاد [بصورة خاصة ٣ ـ ١١] ، تحضر علم كائن (انطولوجيا) كوني أصولي جداً : الروح العالمية « بوروزا » كائنة في القمة ، ومن تحتها ، « غير الظاهر » (أفياكتا) ، الذي يبدو مشاركاً في « الروحي » كما هو مشارك في «المادي»، وفي الأدنى ايضا ، ان الذات الكبرى (ماهان أتما) ، الروح الظاهرة في المادة ، متبوعة ، على مستويات متدنية تباعاً ، بأشكال اخرى من وعي ، باعضاء الحواس ، الخ . وبحسب السفيتا شفاترا، ادبا . [٥ ـ ١] في

الأزلي واللانهائي براهمان توجد ، مختبئة ، المعرفة [التي تضمن الخلود] والجهالة ، الممثلة للفناء .

ان هذا النموذج الجديد من المطابقات يقتضي اعادة تفسير المماثلة القديمة بين العالم الكبير والعالم الصغير ، وفي هذه المرة ، هنا ، يتعلق ، بالنسبة للريشي ، بأن يدرك (حالته الوجودية) بتأمله حول البنية المتناقضة للبراهمان . وان التفكير يتتابع على مستويين متوازين . فمن جهة ، نتبين انه ليست فحسب ، المشاعر والادراك الحسي تشكلان قسماً من صنف الظواهر « الطبيعية » وانما النشاط النفسي ـ العقلي ايضاً . (هذا الاكتشاف الملخص في الميثري او بانيشاد سيتار بصورة خاصة في فلسفتي » السمخيا واليوجا) . ومن جهة أخرى سيمدد الاتجاه (المؤكد عليه في الريغ فيدا ١٠ ـ ٩ ـ ٣) . ليرى في الروح والطبيعة صنفين للكائن الأولي ، والكل / الواحد[٤٢] ، وبالنتيجة فإن الكون والحياة تمثلان النشاط المتزاوج لهذين النوعين من الكائن الأولي . وفي الاساس ، إن الانقاذ يتكون في معرفة هذا السر ، وما ان يتكشف مرة هذا المظهر المتناقض للواحد / الكل ، حتى يتم النجاح بالتخلص من دواليب العملية الكونية . ومن منظورات مختلفة يمكن اعتبار هذه العملية الكونية كلعبة (ليلا) الهية ، وكوهم (مايا) يرجع الى عدم علم أو إلى « تجربة » تهدف لاجبار الانسان لأن يبحث عن الحرية المطلقة (موكسا)٣[٤٣] . ان ما يهم قبل كل شيء ، هو ، ان اقتران الوجود المتناقض للنموذجين المتضادين في الكائن الأولى ، يسمح باعطاء معنى للوجود الانساني (ليس اقل تناقضا ، لأنه محكوم بقانون الكارمان ، مع كونه (محتويا اتمان) واضافة لذلك يجعل الخلاص ممكنا . وفي الواقع ، بفهمنا المشابهة بين براهمان وظهوره ، والخلق المادي ، والأتمان المتخذ في شبكة التقمص . بفهمنا هذه المشابهة نكتشف الخاصية العرضية والغير دائمة للتعاقب المرعب : « افيديا ـ كارمان ـ سمسارا .

من المؤكد ـ إن الاوبانيشادات الوسيطة تستثمر بشكل مختلف هذه الاكتشافات الجديدة . فالنموذجان لبراهمان يفسران احيانا وكأنهما ـ يمثلان الها شخصيا ، أعلى من المادة (طريقة تكوُّنه غير شخصية) ، وانه في هذا المعنى يمكن

فهم الكاتا أوبانيشاد [١,٣ ـ ١١] التي تطرح المبدأ الشخصي ، بيروشا Purusha ، فوق قوالبه « اللاشخصية » (أفياكتا ، لغونا « غير ـ ظاهر »)[٤٤] .
ان السفيتا شعاتارا Svitassatara هي ايضاً اكثر دلالة ، لأنها تشرك التأملات حول الكائن المطلق (براهمان) بالورع من أجل إله شخصي ، رودرا شيفا . ان « الثلاثي براهمان » [١ ـ ١٢] ، اله منبثق في كل الطبيعة وكل اشكال الحياة ، أما بالنسبة للطبيعة [براكستي] فإنها مايا الرب (رودرا شيفا) « سحر » خلاق يكبل كل الكائنات الفردية [٤٠٩ ـ ١٠] . وبالنتيجة ، فإن الخلق الكوني ، يمكن ان يدرك ، اما كصدور إلهي ، وإما كلعبة (ليلا) تترك فيها البشرية العمياء بجهالتها ، عرضة لتقع في المصيدة . وان الخلاص يمكن الحصول عليه بالسمخيا وباليوجا ، أي بالمعرفة الفلسفية والتقنية النفس ـ فيزيولوجية للتأمل (٦ ـ ١٣]٤٥) . وتجدر الاشارة الى ان ترقية التطبيقات اليوجية لصنف من طرق الخلاص ، إلى جانب العرفان (غنوص) طريقة مألوفة في الأوبانيشادات القديمة . فالكاتها او بانيشاد تبرز هي ايضاً ، تطبيق اليوجا الى جانب التأمل من نوع عرفاني (غنوصي) [١٣ ـ ١٣] . وإن بعض التقنيات اليوجية معروفة بطريقة اكثر دقة في السقيتا شعاترا ، والماندوكيا وبصورة خاصة الميتري اوبانيشاد .

ومن هنا يظهر كم هي متطورة الابحاث والاكتشافات المسجلة في الاوبانيشادات الأولى . وهنالك اجبار من جهة ، لفصل المبدأ الروحي (اتمان) عن الحياة العضوية والنفسية ـ العقلية . دينا ميات أعيد « تقييمها » تباعاً باحتوائها في غرائز الطبيعة (براكريتي) . وليس سوى الذات المطهرة بالتجارب النفسعقلية التي كانت قد تماثلت مع براهما ، وبالنتيجة ، يمكن لها ان تعتبر خالدة . وقد بذل الجهد من جهة اخرى لحل رموز ، ولتحليل العلاقات بين الكائن الكلي (براهمان) وبين الطبيعة ، وان التقنيات التنسكية وطرائق التأمل ، المتابعة لانحلال ذات التجربة النفسعقلية ، ستقام وتتمفصل في اطروحات اليوجا ، الأولى .

وان التحليل الحاد لشكل التكوين للذات (اتمان ـ بوروشا) والبنى والديناميات للطبيعة (براكريتي) ، تشكل كلها الموضوعية لفلسفة السمخيا (Samkhya) .

حواشي الفصل التاسع

١ ـ كان عدد المختلفين تغيراً والاكثر اهمية بينهم هو الـ /هوتر/ أو الذي يريق السائل وقد اصبح فيها بعد الراوي بامتياز وكانت تترتب عليه مسؤولية الاضحية ، ثم أبدل بمغذى النيران . والبراهمان يمثل السلطة المقدسة كما يدل عليه اسمه « حيادي » والحارس الصامت للعقيدة . يجلس في وسط البهو وهو طيب . حقيقي للاضحية لا يتدخل الا اذا ارتكبت اخطاء ، وعندها يكمل الترتيبات الضرورية . والبراهمان يتلقى نصف التقدمات وهذا ما يبرر اهميته .

٢ ـ ان جزئتاً من التقدمات الذي يلقي في النار كان يتحول عن طريق آغنى للآلهة . وكانت البقايا تستهلك من قبل المضحي وجميعهم يشاطرون هكذا بغذاء الهي .

٣ ـ يتعلق بمفهوم ما قبل هندي وقد اعتمد من قبل البوذيين ، ويترك اسم العائلة يصبح الرضع ابنا لبوذا .

٤ ـ هنالك طقس آخر برافرجيا ادخل متأخراً في الاغيستوما ولكنه كان يشكل على الأرجح حفلة مستقلة هدفها تدعيم الشمس بعد فصل الامطار .

٥ ـ اثناء الاضحية تيلوكاهن « ليستطيع البراهمان الولادة مطهر . . يستطيع الامير الولادة بعظمة ملكية ، بطل . محارب باسهام قوى بالعربات التي لا تقهر . ولادة البقرة حلوبة ـ وتوليد الثور قويا والحصان سريعاً ويخصب المرأة وينصر الجندي وينصح الشاب ليستطيع هذا المضي ان يكون له ولد قوي وليعطنا بارمانيا في كل وقت المطر المرغوب . ومن أجلنا لينمو القمح غزيراً الخ .

٦ ـ جيمس سوفييه ـ الأضحية الالهية . . . وقد ذكر كل المشاهد المتعلقة بالمصادر الجريئة والسنسكريبر المتعلقة بالتضحيات البشرية .

٧ ـ الولادات الاسطورية ـ غوندا ـ ص ١١٥ . ويبدو ان الريغ فيدا جهلت الديكا ، ولكن لا

يجب نسيان ان هذه النصوص الشعائرية لا تمثل الدين القيدي في مجمله . والحفلة تأكدت في الاتهافافيدا .

٨ ـ كل هذه الشعائر المسارية لها بشكل طبيعي نموذج اسطوري : انه اندرا الذي ، لكي يتجنب ولادة الغول المرعب نتيجة القران بين الهكمة فاك والاضحية ياخبا قد حول نفسه الى جنين ودخل في رحم فاك .

٩ ـ انظر النصوص المذكورة من قبل / غوندا/ .

١٠ ـ ان المضحي (يطرح بذاته تحت شكل بذرة (ممتلأ بحبات رمل ، في النار المنزلية بهدف ضمان اعادة ولادته هنا على الأرض ، ويطرح في المذبح القرباني بهدف اعادة ولادته في السماء ـ كومار سواء .

١١ ـ الهند الملكية المحافظة ح . هيدرمان ص ١٧

١٢ ـ صورة الجنين الذهبي ـ في الهند التقليدية ، والبيضة الكونية ـ المحتضنة بالمياه (الابدبايشار)

١٣ ـ فيراج ـ نوع من (الساكتي) تزوجت بيروزا

١٤ ـ النصوص عرضها / غوندا/ ص ٢٧

١٥ ـ في الريغ فيدا يلاحظ مسبقا اتجاه لاختصار مقدوية الآلهة مبدأ الهي (ليس سوى واحد والشعراء الملهمون اسموه المتعهد » . [١ ـ ١٦٤ ـ ٤٦]

١٦ ـ المصطلح المستعمل uinj من جذر Ovi — snj ـ تشير للتشتت في كل الاتجاهات .

١٧ ـ تؤكد نصوص اخرى ان السماء خرجت من رأسه والفضاء من صدره والأرض من قدمية ـ بتأثير التضحية ولكنها تؤكد تشابه التكوين لهذين الالهين .

١٨ ـ معلوم ان مفاهيم مشابهة تميز الثقافات القديمة وبالدرجة الأولى منها ـ ثقافات الزراع الأوائل .

١٩ ـ غوندا ـ ديانات الهند ص ٢٣٦

٢٠ ـ ليليان سلهون ـ اللحظة وللسبب ص ٧٤

٢١ ـ ان نصاً آخر من ساتابات براهمان يصف بوروز / الذهبي / في قلب الانسان مثل حبة رز ، مضيفا مع ذلك انها اكبر من السماء والأرض والاثير وكل الاشياء « انها النفس هي ذاتي وبالموت احصل على هذه الذاتية » والنص هام جداً ، لأنه من جهة بوروزا مماثل براهان (حيادي) ومن جهة اخرى ان المعادلة (اتمان ـ براهمان قد ضمنت اذن .

٢٣/٢٤ ـ انظر ـ اليوجا ـ الياد ص ١٢٥

٢٥ ـ انظر ـ اشامانية ـ الياد ص ٣٦٩

٢٦ ـ ان العبارة šonti تدل بالسنسكرينية على الهدوء ، وسلام الروح وغياب الانفعال ، وتحمل

الآلام وهو مشتق من الجذر sam الذي كان يتوجب اصلا مع اطفاء (النار ، الغضب ، الحمى) ، وفي آخر المطاف (الحرارة/ المثارة بالقوى الشيطانية .

٢٧ ـ في الواقع « طالما هو يتكلم ، فإن الانسان لا يستطيع التنفس ، وعندئذ يقدم كلامه لتنفسه . وهذه هي التضحيتان المستمرتان والخالدتان في اليقظة والمنام ، يقدمها « الانسان بدون انقطاع . وكل التضحيات الاخرى لها غاية وتساهم بطبيعة الفعل « كارمان) . ان القدماء بمعرفتهم لهذه التضحية لم يكونوا يقدمون الاغنيهورتا . وبرأي بعضهم ان التضحية الحقيقية تقع في القرابين بالصغير « ان من يقدم الاغنيهورتا بودن ان يعرف فإن ذلك مثل الذي [. . . . .] يجعل التضحية في الرماد .

٢٨ ـ وضعهم الديني عكس في الاطروحات ارياناكا

٢٩ ـ الفراتيا كانوا يرتدون عمامة ، وكانوا يلبسون السواد ويطرحون على اكتافهم جلدي كبش احدهما اسود والآخر ابيض ، وكعلامة كان لديهم قضيب حاد الطرف ، وزينة حول العنق وقوس متدلي . ان عربة يجرها حصان وبغل كانت تخدمهم في مكان الاضحية .

٣٣/٣٠ ـ المراجع متعددة مشار اليها في كتاب اليوجا ـ لألياد . ص ١١١

٣٤ ـ أي ان الابانيشادات في النشر وجميعها حررت بين ٨٠٠ ٥٠٠ق.م

٣٥ ـ مع ذلك لايجب ان ننسى ان (الريش) في الهوبانيشاد هم خلفاء العرافين والشعراء الفلاسفة للعصر الفيدي ومن بعض وجهات النظر يمكن القول ان الاستقراءات المركزية للاوبانيشاد وجدت سابقاً تحت شكل غير نظامي في الفيدا . وهكذا مثلاً فإن المعادلة ـ (ـ روح= اله/١ جقيقة = ضوء الخ غوندا ص ٤٠

٣٨ ـ الضوء خلق مسبق ـ منه القوة السابقة الخلاقة ـ ساتنبتا [٧ ـ ٢٧]

٣٩ ـ الشاندوجيا اوبانيشاد تذكربيتين من الشعر الريجفيدية فيهما يجري الكلام عن بالتأمل والضوء الذي يشع في العلاء في السماء » وتضيف بالتأمل بهذا الضوء العالي جداً بما وراء الظلمات نصل للشمس ، بين الآلهة . ان تعقل المطابقة بين الضوء الباطني والضوء عبر الكوني قد ترافق بعنصرين معروفين من الفيزيولوجيا المناسبة (التحمية للجسد واستماع الاصوات الاسطورية)

٤٠ ـ ذات الشيء في المونداكا [٦ ـ ١٠١] فإن البراهمان هوندر صاف للانوار .

٤١ ـ الاكثر أهمية هي كاتا ، برازنا ميتري ماندوكيا ـ تاري كتابها صعب التحقيقات منه وعلى الارجح حوالي ٥٠٠ ـ ٥٠ق.م

٤٢ ـ قد وضع هذا مبدأ في المقدمة من قبل /غوندا/ ـ الفلسفة الهندية ص ١٣١

٤٣ ـ كل هذه الشروح ستصبح شعبية فيما بعد .

٤٤ ـ ٤٥ ـ ان الصفة المميزة للسافيتاسفاترا هي مع ذلك التفاني من أجل شيفا .

الفصل العاشر

زوس والديانة الأغريقية

٨٣ ـ نسب الآلهة وصراعات بين أجيال الهية :

إن اسم (زوس) Zeus ذاته يفصح عن طبيعته: إنه ، إله سماوي ، هندو ـ أوروبي بامتياز (ف ـ ٦٢ع) . وقد استطاع تيوقريط (١٧٤٣) أن يكتب أيضا بأن زوس يشع تارة ويسقط مطراً تارة أخرى . وحسب هومر «ان النصيب الذي حصل عليه زوس هو السماء اللامتناهية ، بصفائها وغيومها معاً» [الالياذة ١٥ ـ ١٩٢] . إن عدداً من ألقابه يشير الى بنيته كاله للفضاء : ombsios et Hyettios «ماطر» . وUrios (الذي يرسل الرياح الطيبة) ، وAttiapios (الذي يعصف ، وBronton (الذي يرعد) الخ . . بيد أن زوس هو أكثر بكثير من تشخيص للسماء كعنصر كوني . إن صفته (الأورانية Uranien) تحققت عن طريق سيادته وعن زيجاته التي لا يمكن حصرها مع مختلف الربّات المحليّات .

مع ذلك وبمعزل عن الاسم والسيادة (المكتسبة من جهة أخرى بمعارك شرسة) ، فإن زوس لايشبه الآلهة الهندو ـ اوروبية القديمة في السماء ، مثل دايوس Dayus القيدي فهو ليس خالقاً للكون فحسب ، وإنما هو لا ينتمي حتى الى مجموعة الآلهة الاغريقية الأولية .

وفي الواقع ، وحسب هزيود ، لم يكن يوجد في البدء سوى العماء Chaos حيث انبثق جايا Gaia (الأرض) «ذات الأحضان الواسعة» وايروس Eros . وبعدئذ ولدت جايا كائناً مساوياً لها ذاتها قادراً ليغطيها بكاملها ، أورانوس (السماء) المرصعة بالنجوم . ولقد وصف هزيود اورانوس «كله شره للحب ، حاملاً معه الليل ، تقرب من الأرض واحتضنها» [تيوج . ١٧٦] من هذا الزواج الكوني hierogamie[1] أتى للدنيا جيل ثانٍ إلهي ، هي الأوراينداث des ouranides : التيتان الستة . (الأول اوقيانوس والأخير كرونوس) ومن بين التيتانات الستة ريّا Rheia وتيميز Themis ومنيموزين mne mosyne والسيكلوبات trois cyclopes ذات العين الوحيدة والثلاثمائة ذراع .

خصب لا حد له ، مخيف أحياناً ، كان يميز العصور الأولية . غير أن اورانوس كان يكره أبناءه «منذ اليوم الأول» فأخفاهم في جسد جايا . وصنعت الربة المرهفة مشذباً كبيراً وتوجهت بالقول لأولادها :«يا أولادي المتولدين مني ، ومن مجنون [. . . .] لنقاصص على الاهانة ، الجرمية للأب الذي هو أبوكم ، حيث أنه أول من صمم أعمالاً مخزية» . ولكن الأولاد والمرتعبين خيفة «لم ينبس أحدهم ببنت شفة» ما عدا كرونوس الذي أخذ المهمة على عاتقه . وعندما اقترب أورانوس «مخموراً من اختراقه جسد الأرض» [اشيل ـ نوك ف . ٤٤] . خصاه كرونوس بمنجله . ومن الدم الذي سال على (جايا) أتى الى العالم الايرينيات الثلاثة lestrois Erinyes ربات الانتقام ، والجبابرة ، وحوريات شجر الدردار . ومن أجزاء اورانوس الجنسية الملقاة في البحر والمحاطة بزبد أبيض ولدت أفروديت [تيو . ١٨٨] .

إن المشهد يمثل ترجمة مثيرة ، بصورة خاصة ، للأسطورة القديمة جداً عن انفصال السماء عن الأرض . وكما كنا لاحظنا (ف . ٤٧ع) انها تتعلق بأسطورة منتشرة على شكل واسع ومؤكد عليها في مستويات مختلفة من الثقافة . إن اخصاء اورانوس وضع حداً لانسال غير منقطع[٢] . وفي آخر المطاف /عابث/ لا طائل تحته ، جيث أخفى الأب المواليد الجديدة في الأرض . ان قطع عضو اله من مديري الكون ، من قبل ولده ، الذي يغدو بذا خليفته ، يشكل قصة سائدة في آنساب الآلهة الحورية والحيثية والكنعانية [ف ـ ٤٦ ع] . ومن الراجح أن هزيود كان قد عرف هذه التقاليد الشرقية[٣] ، لأن عائلته الالهية قد تركزت حول نزاع بين أجيال الآلهة والصراع من أجل السيادة العالمية . وفي الواقع ، أن كرونوس بعد أن جعل والده عديم القدرة، استقر في مكانه وتزوج شقيقته ريّا Rheia وتولد له منها خمس أولاد : هستيا وديميتر وهيرا وهادس وبوزيدون ، ولكن وبما انه بفضل جايا وأورانوس ، كان يعلم أنه قدر عليه أن «يرزح يوماً تحت ضربات ابنه الخاص» [تيو . ٤٦٣] ،فإن كرونوس ابتلع ابناءه منذ ولدوا . ولكن ريا المستشاطة غضباً اتبعت عندئذ مشورة جايا وفي اليوم الذي وجب أن تلد فيه زوس ، انكفأت الى /كريت/ وأخبأت الولد في مغارة لا يمكن العثور عليها ، ثم لفت حجراً كبيراً بأقمطة وألقت به الى /كرونوس/ الذي ابتلعه .

وعندما كبر زوس أجبر كرنوس بأن يتقيأ إخوته وأخواته . واعتق تباعاً الأخوة من أبيه الذين كان أورانوس قيَّدهم . وكدليل للعرفان قدم له هؤلاء الرعد والصاعقة . وبحصول زوس على هذه الاسلحة اصبح في مكنته منذئذ « قيادة الفانين والخالدين معا » [تيو . ٤٩٣ ـ ٥٠٦] الا انه توجب بدئيا اخضاع كرونوس والتيتان . فتتابعت الحرب سجالاً لعشر سنوات عندما ذهب زوس والآلهة الشباب يبحثون حسب نصيحة جايا لهم عن ذات الثلاثمائة ذراع الحبيسة من قبل اورانوس في اعماق الأرض . وبعد زمن قصير جُندِل التيتان ودفنوا في التارتار تحت حراسة (مئات ـ الايدي) [تيو . ٦٤٧ ـ ٧٢٠] .

إن وصف التيتانوماشي le Titanomachie [٧٠٠ ـ م] يعطي انطباعاً عن تراجع على مستوى ما قبل نشكوني . فانتصار زوس ضد التيتان ـ تجسيد للقوة التي لا

قياس لها وللعنف ـ المعادل من حيث النتيجة تنظيماً جديداً للكون . وبمعنى آخر ، ان زوس خلق العالم من جديد [ف . ٦٨ع] . وهذا الخلق كان مع ذلك مهدداً بالخطر مرتين . وفي نص اعتبر لزمن طويل كنص محرف (نحو ٨٢٠ ـ ٨٨٠) ، ولكن المحرر الأخير للتيوجوني la Theogonie قد برهن على رسميتة ، في هذا النص ان كائنا غوليا تيفون Tyfon ، ابن لجايا وتارتار قد ثار ضد زوس . « من اكتافه خرج مائة رأس ثعبان ، وحيتان مرعبة راشقة ألسنة حالكة السواد ، وعيونا [. . . . .] تسيل منها اشعة من نار » الخ . . . [تيو ٨٢٤٠] ـ فضرب زوس هذا الكائن بصواعقه ، وقذف به في التارتار ، واخيراً وحسب الجيجانتوماشي la gigantomashe ، المشهد الغير معرف من قبل هوميروهزيود ، والمذكور لأول مرة من قبل بندار (بنمنس ١ ـ ٦٧) ان العمالقة Geants المتولدة من جيًا المخصبة بدم اورانوس ، قد اثيروا ضد زوس واخوته . ويؤكد ابو لودور Apo llodor ان جيا قد ولدت العمالقة للثأر من التيتان وانها بعد هزيمة العمالقة انجبت تيفون . [ب . ١ ـ ٦ ـ ١٠٣]

ان مكائد جيا ضد سيادة زوس ، تفشي غيظ ألوهية أولية تجاه العمل النشكوني أو بعث نظام جديد (ر . القصة الميزوبوتامية ق ٢١ع) . ومع ذلك ، فإنه بفضل جايا وأورانوس نجح زوس في المحافظة على سيادته، بوضعه هكذا ، حداً نهائيا للوراثة العنيفة للعائلات الالهية .

٨٤ ـ انتصار زوس وسيادته .

في الواقع ان زوس ، بعد أن أهلك تيفون قسم السيادة على الأقاليم الكونية الثلاثة بالاقتراع . فعاد المحيط لبوزيدون ، وعاد الجحيم او عالم ما تحت الأرض الى هادس ، وعادت السماء لزوس ، وعادت الأرض والأوليمب لهم مجتمعين [الالياذة ١٥ ، ١٩٧] . وقد اتخذ زوس بعد ئذ سلسلة من الزيجات . فكانت زوجته الأولى ميتيس Métis (الفطنة) ولكنها عندما حملت بأتينا ابتلعها

زوس . وذلك لأنه كان اصغى لمشورة جيا وأورانوس ، عندما أنبآه بالولادة التالية « لولد بقلب عنيف كان ملك البشر والآلهة » [تيو . ٨٨٦] . واذن ، توطدت بفضل نصيحة الزوجين الأولين سيادة زوس بشكل نهائي . واضافة لذلك فقد امتزج بشكل دائم بالفطنة [٧] أما بالنسبة لأتينا ، فإن ضربة فأس اخرجتها من جبهة والدها [تيو . ٩٢٤] . وتزوج زوس بعدئذ التيتانه تيميس Themis (الانصاف) ومنيموزين اورينونيه Mnémosyne Eurynoné (التي انجبت له ربات الفن التسعة) واخيراً تزوج هيرا [تيو ٥٠١] . ولكنه قبل ان يتزوج هيرا ، احب ديمتر Demeter التي علقت بيرسيفونة ، وليتو والدة التوأم الالهي ابولون وارتميز [ت٩١٠٠] . وقد كان له اضافة الى ذلك العديد من الصلات مع ربات اخرى ، واغلبهن من بنية محلية « ديا ، اوروبا ، سيميليه الخ » . ان هذا القرانات تعكس تعدد الزيجات المختلطة hierogames لآلهة العاصفة ، من آلهات الأرض . وان معنى هذه الزيجات المتعددة والمغامرات الايروسية هي دينية وسياسية معا .

ان زوس ، بامتلاكه للربات المحليات لما قبل الهيللينية ، والمقدسات منذ ازمنة موغلة في القدم ، قد حل محلهن ، وبعمله هذا طعم عملية التكافل والتوحيد الذي سيعيد للدين الاغريقي خاصيته المميزة .

ان انتصار زوس والأوليمبيين لم يترجم بتبعثر الألهة والمعتقدات القديمة ، ذات الأصل الما قبل الهليني في قسم منها . بل على العكس ، ان قسماً من التراث الموغل في قدمه انتهى ليندمج في النموذج الديني الأوليمبي . وسنشير الى دور زوج أولي في مصير زوس . وسنقدم أمثلة أخرى ونكتفي بتذكر مشهد ولادة زوس وطفولته في كريت . انه بالتأكيد ، يتعلق بسيناريو اسطوري ـ شعائري ايجي مركز حول الولد الالهي ، ابن وحبيب ربة كبرى . وحسب التقليد الاغريقي فإن صراخات الوليدالجديد قد غطيت بالفرقعة . التي صنعها الكوريت le Coretes بتصادم تروسهم « اسقاط اسطوري لجماعات مسارية ولشباب محتفلين برقصهم المسلح » . ان انشودة باليكاسترو palaikastro (القرن ٣ ـ ٤ ق . م) تمجد قفزات زوس ، الكوريت الأكبر[٩] « انه يتعلق على الارجح بشعيرة قديمة

للخصب » . وما هو اكثر من ذلك عقيدة زوس ايدايوس Zeus idaios المجدة في مغارة بجبل ايدا وقد كان لها تركيب مسارة متعلقة بالاسرار[١٠] وعليه ، فإن زوس لم يكن مطلقاً إلها للأسرار . وفي كريت أعلن فيها بعد عن قبر زوس ، فالإله الأوليمبي الكبير كان اذن ممثلاً لأحد آلهة الأسرار التي تموت وتبعث .

ان التأثيرات الايجية تؤكد وجودها حتى في العصر الكلاسيكي ، وعلى سبيل المثال ، انها تميز في التماثيل المصورة لزوس شاباً وامرداً . ولكن ذلك يتعلق باستمرار حياة مقبولة ان لم تكن مشجعة بالعمليات الواسعة والتي لا يمكن نضوبها من التوفيقية » . ولأنه سبق لدى هومير ، أن استعاد زوس اعتبارات إله هندو-اوروبي حقيقي سام . فهو اكثر من اله (لسماء غير محدودة) انه « أب الأرباب والبشر » [الالياذة ١ - ٥٤٤] وفي مقطع من (هيليداته ses helides يعلن أخيل : « زوس هو الاثير l'ether ، زوس هو الأرض ، زوس هو السماء . نعم ان زوس هو كل ما هو فوق كل شيء » . انه سيد العناصر الجوية ، انه يدير خصب الأرض وانه يدعى بصفته زوس اشتيونيوس zeuseehtonios عندما تبدأ اعمال الزراعة [هزيود - اعمال ٤٦٥] . وتحت اسم كيتزيوس Ktewios هو حامي المنزل ورمز الوفرة . انه يسهر على حقوق وواجبات الاسرة ويضمن احترام الشرائع ، وبصفته بوليوس polieus . يحمى المدينة ، ومن زمن اكثر قدما كان الها للطهارة زوس كازارزيوس zeus katharsios ، وكذلك إله العرافة وبخاصة في دودون ، وايبير ، حيث كان يتم التنبؤ بواسطة « ورق الشجرة الالهي لبلوطة زوس الكبيرة » . [الأوديسة ١٤ ، ٣٢٧ - ٢٩٦١٩] وهكذا ورغم واقعة كونه ليس خالقاً للكون ، ولا خالقاً للحياة ولا للانسان ، فإن زوس يرتفع لمرتبة رئيس لامراء فيه للآلهة وسيد مطلق ، للعالم . ان اكثرية المعابد المكرسة لزوس تثبت خاصيته اليونانية pall-he'llenique[١٢] . وان الاعتقاد بقدرته الكلية اشتهرت باعجاب بالمشهد الشهير من الالياذة [٨ - ١٧]حيث اطلق زوس هذا التحدي الذي تحدى به الاوليمبيين : « علقوا في السماء إذن ، حبلاً من ذهب وتعلقوا به جميعكم أرباب وربات : فلن تسحبوا زوس من السماء إلى الأرض ، السيد الاسمى ، مهما بذلتم من جهود . ولكن اذا آردت أنا ، بحرية اسحبها ، ان الأرض والبحر

في آن واحد سأسحبها معكم ، بعد ذلك سأربط الحبل بقمة الأوليمب ، والكل من أجل عنائكم ، سيطير على هوى الرياح . فطالما هو صحيح ، فلأحمله على الآلهة كما على البشر » .

ان التعبير الاسطوري (الحبل الذهب ، قد افسح مجالاًلما لا يحصى من التفسيرات منذ افلاطون ، عبر بزيدو دينيس pseudo Denys الاريوباجيت L' areopagyte وحتى القرن الثامن عشر /١٣/ . وما يعنينا هنا انه تبعاً لقصيدة اورفيه تسمى La theogonie rhapsquedio يطلب زوس من الربة الأولية نيز nyse [الليل] عن كيفية اقامتها « لسلطتها المتكبرة على الخالدين » وعلى الأخص كيف نظمت الكون cosmos بهدف ان « الكل يكون واحداً ويكون الأجزاء المتميزة ؟ » .
فأرشده الليل عن أسس علم الأكوان ، وحدثه ايضاً عن الحبل الذهبي الذي يجب ان يربطه بالاثير [١٤] . انه يتعلق ، بالتأكيد ، بنص متأخر ، ولكن التقليد الذي يقرره هو تقليد قديم . ان الالياذة [١٤ ـ ٢٥٨] تبرز الليل كربة قادرة : زوس نفسه يتحاشى اغضابها . ومما له دلالته ان الاعلان الشهير لكلية القدرة لزوس يقرب المواجهة المثارة من قبل السيد الأعلى لألوهة اولية . وتكرر التوجهات الكوزمولوجية لليل بنوع ما اعلان جيا Gaia واورانوس الذي وضع حداً نهائياً . للنزاعات من أجل السيادة .

وكما سبق ولاحظنا فإن بعض الآلهة الأولية قد استمرت بالحياة بانتصار الأوليمبيين . فبدئياً . ان الليل ، الذي ذكرنا بقوته واحترامه ، تم (بونتوس ، pontos (البحر الغير مخصب) ، وسيتيز steyse الذي ساهم بالمعركة ضد التيتان ، وهيكاتية المكرمة من قبل زوس والأوليمبيين الآخرين . أوقيانوس okeqnus الوليد الأول بين ابناء جيا واورانوس . كل واحد منهم كان يلعب دوراً ـ متواضعاً غامضا ، هامشيا ـ في اقتصاد العالم . وعندما شعر زوس بسلطته الموطدة نهائيا ، حرر اباه كرونوس من سجنه تحت الأرض ونصبه ملكاً في بلاد خرافية ـ جزر السعداء في اقصى الغرب .

٨٥ ـ اساطير العروق الأولى ـ بروميتيه ـ باندورا :

لن يعرف « تاريخ » كرونوس مطلقاً . انه بالتأكيد إله قديم ، بدون عقيده ، تقريباً ، وتشكل اسطورته الوحيدة الهامة مشهداً من التيوماش La theeomachie مع ذلك ، فإن كرونوس مرتبط بعلاقة مع العرق البشري الأول « العرق الذهبي » la raced'or وهذه الاشارة هامة : انها تكشف لنا البدايات والمظهر الأول للعلاقات بين البشر والآلهة . وحسب هزيود « ان للآلهة والفانين اصل واحد » [الأعمال ـ ١ ـ ٨] لأن البشر ولدوا من الأرض (gegeneis) تماما كما أن الآلهة الأولى قد تولدوا من جيا. وباختصار، ان العالم والآلهة اتوا الى الوجود بانشطار بدئي متبوعاً بعملية انسال . وكما انه كان يوجد مجموعة أجيال الهية ، كذلك كان يوجد خمسة عروق من البشر : عروق الذهب والفضة والبرونز وعرق الابطال وعرق الحديد [الأعمال ـ ١٠٩] .

وعليه فإن العرق الأول كان يعيش تحت حكم كرونوس [تيو ٣٠٠] أي قبل زوس . هذه البشرية من العصر الذهبي ، هي ذكورية حصراً ، سكنت بالقرب من الآلهة « اشقائها الأقوياء » . وكان البشر « يعيشون كالآلهة ، قلوبهم متحررة من الهموم ، وبمنجاة من الآلام والاحزان » [تيو . ١ ـ ٥٠] . لم يكونوا يعملون ، لأن الأرض كانت تقدم لهم كل ما هم بحاجة اليه . حياتهم كانت تمضي بالرقص والاعياد والمسرات من كل نوع . ولم يكونوا يعرفون لا الامراض ولا الشيخوخة ، وعندما كانوا يموتون كانوا كما لو أنهم مستغرقون في نومهم [الأعمال ١٣٠٠] .

غير ان هذا العصر الفردوسي ـ الذي نجد موازياته في عدد من التقاليد ـ اخذ نهايته ، بسقوط كرونوس .

ويروي هزيود بعدئذ ان بشر العصر الذهبي (قد تدثروا بالارض) ، فانتخبت الآلهة عرقاً أقل نبلاً ، هو بشر عصر الفضة . وهؤلاء بسبب ذنوبهم

وايضاً لأنهم لم يشاؤا ان يضحوا للآلهة ، وهم رجال عنيفون محبون للحرب والذين انتهوا نتيجة القتال فيما بينهم حتى الاخير . فخلق زوس جنساً جديداً ، الابطال ، الذين اصبحوا مشهورين بفضل معاركهم العظيمة ، أمام طيبة وطروادة . كثيرون منهم ذاقوا طعم الموت ، ولكن الآخرين استقروا بواسطة زوس على اطراف الأرض في «جزر السعداء» وقد نصب كرونوس نفسه ملكاً عليهم [الأعمال ـ ١٤ ـ ١٦٩] . ولم يتكلم هزيود عن خامس وآخر عرق ، هو عرق الحديد ، ولكنه أسف لأنه قدر له ان يولد في هذا العصر [الأعمال ـ ١٧٦] .

ان التقاليد المعروفة من قبل هزيود تطرح العديد من المسائل ، ولكنها جميعها لا تعنى موضوعنا هنا . وان اسطورة (كمال) البدايات) والنعيم الأولي ، المصاغة بعد حادث او ذنب هي اسطورة منتشرة . والمفارقة التي صنعها هزيود تؤكد ان التدهور يتم تباعاً ، في اربع محطات ، وهذا ما يذكرنا بالمذهب الهندي لليوغا yugas الاربع . بيد انه مع الكلام عن الوانها ـ ابيض ـ احمر ـ أصفر ـ أسود ـ فإن اليوغاس ليست متشاركة بالمعادن . بل بالعكس ، توجد المعادن بصفتها كعلامات مميزة لعصور تاريخية في حلم نبوختنصر [سفر دانيال ٢ : ٣٢ ـ ٣٣] . وفي بعض النصوص الايرانية المتأخرة ، ولكنه ، يتعلق في الحالة الأولى بعائلات ملكية وفي الحالة الثانية بتوارث امبراطوريات مطروح في المستقبل .

وقد اوجب هزيود ادخال عنصر الابطال بين جنس البرونز وجنس الحديد ، لأن ذكرى الاسطورة من العصر الخرافي البطولي كانت قوية جدا ولا يمكنه ان ينساها . ان عصر الابطال يقطع ، بطريقة غير قابلة للتفسير ، عملية التدرج العنيف المنطلق مع ظهور عصر الفضة . مع ذلك ، فإن المصير المتميز للابطال يموه بشكل اخروية بشكل سيء : لا يموتون وانما يتمتعون بوجود نعيمي في جزر السعداء الاليزيوم l'Elyzuim حيث يحكم كروفوس الآن . وبعبارة اخرى ان الأبطال يستعيدون ، في معيارما ، الوجود البشري للعصر الذهبي تحت حكم كرونوس . ان هذه النظرية المتعلقة بالآخرة ستنتشر فيما بعد بشكل واسع وبصورة خاصة تحت تأثير الأورفية . فالجنة l' Elysee لن تكون ابداً الامتياز المحجوز

للآلهة ، وانما ستصبح قابلة لامكانية الحصول عليها من قبل ارواح الاتقياء والمسارين Initi es انه يتعلق بعملية مألوفة في تاريخ الاديان [مصر . الهند . . . و ٣٠* الخ] .

ويجدر ان نضيف أن اسطورة العصور المتتابعة لا تمثل الرأي الشامل المتعلق بأصل البشر . وفي الواقع ، ان مسألة دراسة المجتمعات البشرية لا تبدو أنها شغلت اليونانيين : كانوا على الاكثر ، مهتمين بالأصل لبعض تجمع اثني ، المدينة ، او لأسرة . ان عدداً من العائلات كانت تعتبر متحدرة من ابطال ، كانوا بدورهم متحدرين نتيجة قران بين آلهة وفانين . وبعض الشعوب (الميرميدون) Les mermidons متحدرة من النمل ، وبعضها من شجر الدردار . وبعد الطوفان ، اعاد دكاليون اسكان الأرض بـ «عظام أمه» أي بـ «الحجارة» . واخيراً . وحسب تقليد متأخر (القرن ١٧) . فإن بروميته promethee صنع البشر من الصلصال . . . .

ولأسباب مجهولة ، فإن الآلهة والبشر قرروا ان ينفصلوا عن بعضهم حيناً في ميكونية mokone (تيو . . . ٥٣٥) . لقد قدم البشر الأضحية الأولى بهدف ان يثبتوا بطريقة نهائية علاقاتهم مع الآلهة . وبهذه المناسبة تدخل بروميتيه لأول مرة /١٠/ . فقد ضحى بثور وقسمه قطعتين . ولكن ، وكما انه اراد حماية البشر ، وبذات الوقت خداع زوس ، غطى بروميتيه العظام ثانية بطبقة من الدهن ، كما غطى المعدة والاحشاء واللحم بهذا الدهن . وقد اختار زوس من اجل الآلهة ، منجذبا بالدهن ، الحصة الاكثر فقرا ، تاركا للبشر اللحم والاحشاء . ويؤكد هزيود انه من أجل هذا ، ومنذئذ يحرق البشر العظام كتقدمة للآلهة الخالدة [تيو ٠٠٠ ٥٥٦]

لقد كان لهذه القسمة المتميزة نتيجتان مرموقتان بالنسبة للبشرية . فمن جهة كانت اعلاء لنظام أكل اللحوم ، بصفته كعمل ديني نموذجي ، وتكريم أعلى مقدم للآلهة ، الا انه في آخر المطاف قد ادخل ترك التغذية النباتية التي كانت تمارس خلال العصر الذهبي . من جهة اخرى ، ان حيلة بروميتيه ، اثارت زوس

ضد البشرية ، فسحب منهم استعمال النار . [١٧] ولكن المحتال بروميتيه استعاد النار من السماء باخفائها في تجويف سوط [تيو ٥٦٧ . ٥٢] . وقرر زوس الخارج عن طوره ان يعاقب البشر وحاميهم معا . فقيد بروميتيه وسلط نسرا عليه ينهش يوميا « كبده الخالد » الذي يعاود تكوينه ليلاً [تيو . ٥٢٠] . وفي احد الأيام اعتق من قبل هرقل ، ابن زوس ، كي يسمو مجد البطل ايضا .

أما بالنسبة للبشر ، فإن زوس أرسل لهم المرأة (هذه المصيبة) [تيو ٥٨٥] تحت شكل باندورا (الممثلة لكل الآلهة) «احبولة عميقة وبدون بداية مقدرة للبشرية » بهذا يعبر هزيود « لأنه من هذه خرج جنس الطبقة المحتقرة الملعونة من النساء ، كارثة مرعبة مستقرة وسط البشر الفانين » [١٨] .

٨٦ ـ نتائج الاضحية الأولية .

واجمالاً . وبعيد عن ان يكون بروميتيه محسنا للبشرية ، فإنه هو المسؤول عن سقوطها الحالي . وفي ميكونه mekona رتب الفصل النهائي بين البشر والآلهة . وباختلاسه للنار فيما بعد اغضب زوس وحرض على تدخل باندورا ، أي ظهور المرأة ، وبالنتيجة ، انتشار كل انواع الهموم والاضطرابات والآلام . وتفسر اسطورة بروميتيه عند هزيود اقتحام الشرفي العالم ، وفي آخر المطاف ، فإن الشر يمثل انتقام زوس/١٩/ . غير ان هذه الرؤية المتشائمة للتاريخ البشري المدان نجديعة احد التيتان لم تفرض نفسها بشكل نهائي . فبالنسبة لأخيل ، Echyle الذي يبدل مسألة التقدم لاسطورة العصر الذهبي الأولى ، ان بروميتيه هو اكبر بطل حضاري ، ان بروميتيه يؤكد « ان البشر الأوائل كانوا يعيشون « تحت الأرض ، في قاع المغاور المغلقة عن الشمس » انهم لم يكونوا يعلمون حتى دورة الفصول ، ولا تدجين الحيوان ولا الزراعة ، وان بروميتيه هو الذي لقنهم كل الصناعات وكل العلوم [بروميتيه مقيدا ٤٤٢س ق] . انه هو الذي اعطاهم النار [٢٠] واعتقهم من الخوف من الموت [ذات المرجع ٢٤٨] . ان زوس غيرة من كونه ليس صانع هذه

الأمور للانسان فقد اراد ابادتها من أجل ان يخلق غيرها [٢٩٣ ذات المرجع] وبروميتيه وحده جرؤ لمعارضة مخطط سيد العالم . ومن أجل تفسير غضب زوس وعناد بروميتيه اعار اخيل بندار الذي اضاف تفصيلاً مأوسايا : لقد حاز بروميتيه على سلاح رهيب ، وبصورة خاصة السر الذي اوصلته له والدته تيميز themes وهذا السر كان يتعلق بالسقوط المحتم لزوس ٢١ في مستقبل قريب او بعيد [٥٢٢ - ٧٦٤]وقد اعلن التيڤان بتشدق ان زوس ليس امامه سوى امكانية واحدة لتجنب هذه الكارثة : ان يعتقه من اصفاده [٧٦٦ - ٧٠] وكما ان الجزئين الأخيرين من الثلاثية المأساوية بروميتد Prometuide لم يحافظ عليهما ، فإننا لا نعلم كيف ان الخصومة بين الوجيهين الالهيين قد تحققت بالتوفيق بينهما . الا انه في القرن الخامس ، في آثينا ، كان لبروميتيه عيده السنوي ، وكان اضافة الى ذلك مشاركا لهيفسيوس Hephsios وآتينا . . ومن جهة اخرى يمكن ، تحت تأثير بعض الحركات الروحية التي شغفت النخبة المثقفة اضافة الى جمهور الشعب ، كان هنالك اصرار منذ زمن على حكمة وطيبة زوس . فلم يندم السيد الأعلى فحسب ، بوضعه كرونوس ملكافي الاليزيه وانما عفا عن التيتان . ويعلن بندار ان « زوس الخالد قد اعتق التيتان » [المقطع ٤ - ٢٩١] وفي بروميتيه طليقاً ، تشكلت الجوقة من قبل التيتان المحررين من اصفادهم »[٢٢] .

إن اقتسام أول ضحية تضحوية في ميكونيه mekone قد ترجمت ، من جهة بالانقطاع بين الآلهة والبشر ، ومن جهة اخرى بالادانة لبروميتيه . مع ذلك فإن سخط زوس يبدو حاداً جداً ، لأن هذه القسمة الشعائرية كما برهن على ذلك كارل مولي karl moli ، تناسب الاضاحي المقدمة للآلهة السماوية من قبل الصيادين البدائيين في سيبريا ومن قبل الشعوب الرعوية في آسيا الوسطى . وفي الواقع ، فإن هذه تقدم الى الكائنات العليا ، العظام ورأس الحيوان . وبعبارات أخرى ، ان ما كان يعتبر تكريما ممتازاً لإله سماوي في مرحلة قديمة من الثقافة ، قد غدا في حركة بروميتيه جرم قدح في الذات الملكية ، ضد زوس ، الاله الأعلى . ومن غير المعلوم في أية فترة حصل هذا الانعطاف بالمعنى الشعائري الأصولي . ويبدو ، على الأغلب ، ان حنق زوس كان قد اثير ليس بالقسمة بذاتها ، وانما

بالفعل الذي دبره بواسطة بروميتيه ، وبعبارة اخرى بواسطة تيتان ، عضو من (الجيل القديم) الالهي الذي فضلاً عن ذلك ، كان قد أخذ جانب البشر ضد الاوليمبيين . ان مثال بروميتيه كان يمكن له ان يحصل على نتائج مزعجة ، فالبشر المشجعين بهذا النجاح الأول امكنهم المزايدة على التيتان . ولكن زوس لم يتسامح مع بشرية قوية ومتكبرة . وعلى البشران لا ينسوا ابداً طريقة وجودهم الأولية والموقتة . وعليهم بالنتيجة حفظ مسافة حدودهم .

وفي الواقع ، وبعد زمن متأخر ، قدم دوكاليون ابن بروميتيه وهو الوحيد الناجي من الطوفان الذي اثاره زوس ، قدم اليه اضحية شبيهة بالاضحية التي قدمت في ميكونيه وقد رضي . « استقبل زوس الطلب من دوكاليون مع التقدير ، ولكن الاسطورة تشير الى انه رضي ضمن المقياس الدقيق بحيث تبقى المسافة قائمة ». [٢٤] منذئذ تكرر الأضحية الأكثر شيوعاً (لاتيزيا la thysia) هذا النموذج الاسطورى : قسم من الضحية ، متضمنا الشحم ، يحرق على المذبح ، والقسم الآخر يستهلك من قبل اولئك الذين يقدمون الضحية مجتمعين مع رفاقهم [ك٢٥ك] . وللآلهة ايضا حضورها : انها تتغذى من الاضحيات [الالياذة ١ - ٤٢٣ - ٢٤ - ٨ - ٥٤٨ - ٥٢ الخ] أو من دخانها المثار من الشحم ت]الالياذوه ٦٦ - ٦٧ - الخ] .

إن الانقطاع الحاصل في ميكونية ، قد أعيد تحقيقه ، نوعا ما ، بفضل وبدقة دوكاليون . وان اولاد بروميتيه اقاموا الآلهة في الشروط التي تناسب زوس . « من جهة اخرى فان البشرية المعاصرة في القسمة المقدورة قد هلكوا في الطوفان » وان مما له دلالته ، ان بروميتيه ، بعد اخيل ، قد لعب دوراً متواضعاً ، ان لم يكن مطموساً . ومن الممكن ان النجاح حتى للبروميتيه DELE Promelheite قد ساهم في هذا الوضع . لأن اخيل اذا كان قد مجد العظمة الوحيدة لهذا البطل المحضر والحامي للبشر فإنه قد أبرز أيضاً طيبة زوس والقيمة الروحية للمصالحة النهائية ، المستعلية بكونها نموذجاً مثاليا للحكمة البشرية . فبروميتيه لن يجد قوامه السامي - ضحية ابدية للطغيان - الامع الرومانسية الأوروبية .

ففي الهند تركب التأملات حول الاضحية نشكونية مميزة وتفتح الطريق لميتافيزيك وتقنيات يوجية (ف . ٧٦*) . وعند العبرانيين تشرح وتقوم الاضاحي الدموية باستمرار ، حتى بعد نقد الانبياء ، اما في المسيحية ، فإنها ستتشكل بدءا من التضحية الاختيارية للمسيح . أما الأورفية والفيثاغورية فإنهما باصرارهما على الفضائل من نموذج نباتي اعادتا الاعتراف ضمنا (بالخطيئة) المرتكبة من قبل البشر لقبولهم قسمة ميكونية . مع ذلك ، فإن عقاب بروميتيه لم يلعب سوى دور ثانوي في التأملات حول عدالة زوس . وعليه فإن مسألة (العدالة) الالهية مع رديفها /القدر/ الانساني قد شغلت الفكر الاغريقي منذ هومر .

٨٧ ـ الانسان والقدر ـ معنى (الفرح بالحياة) :

ان الدين الاغريقي ـ منظوراً اليه في المنظور اليهودي المسيحي ـ يبدو انه تشكل تحت علامة من التشاؤم : الوجود بتعريفه زائل ومثقل بالهموم . وقد قارن هومر الانسان بـ « اوراق تذروها الريح على الأرض » [الياذة ـ ٦ ـ ١٤٦] .

وقد اعيد استعمال المقارنة من قبل الشاعر ميميرم الكولوفوني (القرن السابع) mimmerem le clofone ففي احصائه الطويل للآلام ، فقر ، امراض ، احزان ، شيخوخة الخ . . . وجد « لا يوجد انسان لم يرسل اليه زوس ألوف الآلام » . وبالنسبة لمعاصر سيمونريد Semonride ان البشر « مخلوقات ليوم » يعيشون كالقطيع « غير عارفين على أية طريق سيقود الاله كل واحد منهم الى مصيره »[٣٦] . ان احدى الامهات دعت ابولون ان يثيب تقواها بأن يمنح ولديها منحة كبرى من قوته ، فقبل الاله ، وعلى التو اختنق الولدان دون عذاب (هيرودوت ١ ـ ٣١ ـ ٥٠] . وأعلن تينوجي كما أعلن بندار وسوفوكل ، أن أحسن مصير بالنسبة للبشرية ، سيكون عدم الولادة ، واذا ولد المرء مرة ان يموت بالسرعة الممكنة .[٣٧] .

ان الموت ـ على الأغلب ، لن يحل شيئاً ، لأنه لا يوصل الى الفناء الشامل والنهائي ، وبالنسبة لمعاصري هومير ، ان الموت كان وجودا متأخرا منقوصا ومذلاً في الظلمات تحت الأرض من هاديس المسكونة بالظلمات الصفراء المجردة من القوة والذكرى . (اخيل ، الذي نجح او ليس في استحضار شبحه يعلن بأنه سيفضل ان يكون على الأرض عبداً لرجل عادي « من ان يكون ملكا على كافة الموتى »[٢٨] . من جهة اخرى ، ان الخير المنجز على الأرض لم يثاب عليه ، وان الشر يعاقب عليه . ان المدانين الوحيدين بالعذابات الأبدية كانوا ايكيسون ، تانتال ، سيزيف ، لأنهم كانوا قد شتموا زوس بشخصه .

واذا كان مينيلاس menelas . لم يسقط الى الهادس ، وانما نقل الى الأليزيه ، فإن ذلك لكونه ، بزواجه من هيلين ، أصبح صهر زوس ، وحسب التقليد المنقول من قبل هزيود [ف . ٨٥*] . فأن ابطالاً آخرين يتمتعون بذات المصير . ولكن ذلك يتعلق بكائنات ذات امتيازات .

ان هذا المفهوم التشاؤمي طرح قدريا عندما وعى الاغريق عرضية الشرط البشري . فمن جهة ، ليس الانسان بالمعنى الدقيق ، المخلوق من الوهية (فكرة مشتركة في عدد من الاديان القديمة وبالاديان التوحيدية الثلاثة) ، وبالنتيجة ، لا يتجاسر ان يأمل في ان تستطيع صلواته اقامةصميميةمع الآلهة . ومن جهة اخرى ، هو يعلم ان حياته قد سبق تقريرها بالقدر ، la maira ou l aisa ، « المصير » او « النصيب » الذي انيط به ـ أي ، اجمالاً ، الزمن الممنوح له حتى موته .[٢٩] . وبالنتيجة فإن الموت كان مقرراً منذ لحظة الولادة ، وان مدة الحياة مرموز لها بالخيط الذي نسجته الآلهة ٣٠ . مع ذلك فإن بعض العبارات مثل «MOIRUDES» [اوزيه ٣ ـ ٢١] أو «OISADE ZEUS»[اليازدة ٧ (٣٢٢ ـ ٥٢ ـ) تجعل من المفهوم ان زوس نفسه يحدد الاقدار . ومن حيث المبدأ انه يستطيع تغيير المصير كما استعد ليفعل في حالة ولده سار بدون sarpedon [الاليازه ١٦ ـ ٤٣٣ ـ[في الفترة التي وصلت فيه حياة هذا الى حدها . ولكن هيرا جعلته يلاحظ ان اشارات مماثلة سيكون لها كنتيجة الغاء قوانين الكون ـ أي العدالة (dike۱ ـ واعطاها زوس الحق بهذا .

ان هذا المثل يظهر ان زوس ذاته كان يعلم سمو العدالة ، ومن جهة فإن /ديك/ العدالة/ ليست سوى المظهر الحسي في المجتمع البشري ، للنظام الشامل ، وبعبارة اخرى للقانون الالهي (تيميز themi . ان هزيود يؤكد ان زوس قد كافأ البشر بالعدالة ، وبهدف ان لا يتصرفوا كحيوانات متوحشة . فالواجب الأول للانسان ان يكون عادلاً وان يثبت انه شريف (تيميه time) تجاه الآلهة ، وبخاصة ان يقدم لها الاضحيات . من المؤكد ان معنى العبارة Dke عدالة ، قد تطورت عبر القرون التي تفصل هومير عن اوريبدس ، وهذا الاخير لم يتردد في ان يكتب : « اذا كانت الآلهة تفعل كل ما هو قبيح (أو : دون) فليست هي بآلهة !) [فقرة ٢٩٢ من البيروفون) . وقبل اوريبيدس كان اخيل قد أعلن ان زوس لا يعاقب الأبرياء (اغاممنون ٧٥٠] . ولكنه سبق في الاليازة ان اعترف بزوس حاميا /لديك/ طالما انه هو الذي راعى المواثيق وحمى الغرباء ، والضيوف والمبتهلين(٣١) ، والخلاصة ، ان الآلهة لا تضرب البشر بلا سبب ، مهما طال الوقت الذي لا ينتهك فيه القانون الحدود المقررة بطريقتهم في الوجود . الا انه من الصعب ان لا تنتهك الحدود المفروضة ، لأن المثل الأعلى للانسان هو « السمو » (ARETE) . وعلى ذلك فإن السمو المفرط يخاطر باثارة الفخر اللامحدود والوقاحة اللتي حصلت لأجاكس Ajax، عندما فاخر بافلاته من الموت رغماً عن الآلهة ولكنه كان عرضة للفتك به من قبل بوزيدون [اوفرنسية ٤ - ٤٩٩ - ٥١١] ان الوقاحة (hy Bris تثير جنونا آيناً (ATE) يعمي الضحية ويقودها للكارثة ،(٣٢) . وهذا يعيد الى القول بأن الوقاحة (LYBRIS) وصلتها ، الجنون الموقت ATE . هما الوسيلتان اللتان تتحقق بهما في بعض الحالات (ابطال ملوك مغامرون الخ . .) الموارا LA MOIRA أي نصيب الحياة الممنوحة منذ ولادة هؤلاء الفانين الطامعين او ببساطة المخدوعين بالمثل الأعلىٰ «للسمو» .

وفي آخر المطاف ، لا يتصرف الانسان الا في حدوده الخاصة ، هذه الحدود المعنية له بشرطه البشري ، وبخاصة بنصيبة sa moira، ان الحكمة تبدأ مع الشعور بالنهاية ، وبالوقتية لكل حياة بشرية . انه يقتضى اذن ، الافادة من كل ما يستطيع ان يقدمه الحاضر : شباب صحة افراح طبيعية ، او مناسبات لانماء

الفضائل . وهذا هو درس هومير : عش بالكلية Vivretoutalement ، ولكن بشرف ، في الحاضر . من المؤكد ان هذا المثل الأعلى المنبثق من اليأس ، قد عرف تحولات ، وسنتفحص فيها بعد اكثرها اهمية ، ولكن الوعي بالحدود المقدرة سلفاً ، والوعي بسرعة عطب الوجود لم تمح ابداً . وبعيداً عن كبح القوى الخلاقة للعبقرية الدينية الاغريقية ، قادت هذه النظرية المأساوية الى اعادة تقييم متناقض للشرط الانساني . فطالما ان الآلهة اجبرته على ان لا ينتهك حدوده ، فإن الانسان قد انتهى ليحقق الكمال وبالتالي القداسة للشرط الانساني . وبعبارة اخرى ، انه اعاد اكتشاف واكمال المعنى الديني (فرح العيش ، وقيمة شعائرية اسار التجربة الايروسية ،وجمال الجسدالبشري،والوظيفة الدينيةلكل استمتاع جماعي منظم ـ مواكب ، العاب ، رقص ، اغاني ، مباريات رياضية ، مشاهد مسارح الخ . ان المعنى الديني لكمال الجسد الانساني ـ الجمال الطبيعي ، انسجام الحركات ، الهدوء الصفاء ـ الهمت القانون الغني . وان تجسيد الآلهة اليونانية بالشكل البشري ، كما فهمت في الاساطير وفيها بعد ، اصبحت منتقدة بعنف من قبل الفلاسفة ، وستجد معناها الديني في التمثال الالهي . ومن التناقض ان يعلن دين عدم امكانية ردم المسافة بين العالم الالهي وعالم الفانين ، ثم يجعل من كمال الجسم البشري التمثيل الاكثر جمالاً للآلهة .

ولكن هذا هو بصورة خاصة التقييم الديني للحاضر الذي تقتضي الاشارة اليه . فالواقع البسيط للوجود ، وللعيش في الزمن ، يمكن له ان يلائم مسافة دينية . وهذه المسافة غير واضحة دائماً . طالما ان القداسة هي بنوع ما (مموهة) في المباشر وفي (الطبيعي) واليومي . انّ « فرح العيش » المكتشف من قبل الأغريق ليس متعة من نموذج دنيوي : انه يكشف السعادة بالوجود ، والمساهمة ـ حتى بطريقة هاربة ـ بعفوية الحياة وعظمة الكون . وكالعديد غيرهم من قبل ومن بعد ، فإن الاغريق قد تعلموا بأن اكثر وسيلة ثقة للخلاص من الزمن ، هي باستثمار الثروات للحظة المعاشة ، التي تبدو للوهلة الأولى غير قابلة للشك .

ان تقديس النهاية البشرية وتفاهة « الوجود العادي » يشكل ظاهرة مألوفة نسبيا في تاريخ الاديان . ولكنها في الصين بصورة خاصة وفي اليابان من الألف

الأولى حتى عصرنا كان اضفاء القداسة على الحدود ، والظروف » ـ مهما كانت طبيعتها ـ قد مس بالسمو وأثره بعمق في الثقافات المتتالية . وتماما كما هو في اليونان القديمة قد ترجم هذا التحول من « المعطى الطبيعي » بانبثاق جمالية خاصة [٣٣]) . . .

حواشي الفصل العاشر

١ - ولكن Taia فيما سبق حملت لوحدها الجبال والبحر العقيم والحوريات .
٢ - ان اخطاء اورانوس توضع مع كونها طريقة وحشية ، الاتجاه من الآلهة الخالقة لأن تتراجع للسماء وتصبح آلهة حيادية بعد ان اكملت مهمتها الكونية .
٣ - عائلة هزيود الالهية - m.Wat.
٤ - عائلة هزيود الالهية - m. Wat.
٥ - يذكر ابومودور (١-٦-م) ان قبران يغلب رتجج تيغون في سرقة كعبي زوس وهذا يعيد إلى الذاكرة مشهداً من اسطورة حثية : معركة اله العاصفة والحوت اللوياني (ف - ٤٥) .
٦ - بل يمكن ايضاً تفسير غضب رجيا ، كانعكاس ضد عنف وقسوة زوس .
٧ - على المستوى الميثولوجي يفسر هذا المشهد التحول الخارجي لزوس والمصدر / لحكمته /
٨ - ٩ - حول زوس الكريتي انظر : شارل بيكارد (الاديان قبل الهيلنية ص ١٧٠)
١٠ - اوريبيديس فقرات من /الاعمال/
١١ - في البحر المتوسط الشرقي ستسمح هذه العملية بادخال الارث الروماني الهيلليني والايراني في الكنيسة الامبراطورية البيزنطية وبعدئذ تحفظات واستنتاجات بيزانطية . . . وبعدئذ عثمانية
١٢ - لقد عبد في كل مكان في اليونان ، وبخاصة فوق قمم الجبال الاكثر ارتفاعاً وبصورة خاصة في الأوليمب وفي اثينا وحتى في كريت واسيا الوسطى وفي الغرب .
١٣ - حول ترجمة هذا الحبل انظر دراسة الياد . (حبال وألعاب)
١٥ - يمكن ان يبدو متساقطاً ان الاله المتوحش الذي ابتلع ابناءه منذ ولدوا قد حكم دوما حسب هزيود في العصر الفرودسي للبشرية ، ولكنه يجب ان لاينسى ان كرونوس في انساب الآلهة

يعكس تأثيرات شرقية قوية وانه من المدهش ان الآلهة مثلوا (كاشقاء اقوياء) للبشر . إن قولي هذا والرأي العام يبرز الفرق الجذري لنظام الانطولوجيا بين الآلهة والبشر ، .ولنؤكد ان التمييز الاساسي كان يوجد سابقاً في العصر الذهبي . فالبشر كانوا يتمتعون بالسعادة وبصداقة الآلهة ولكن ليس بالخلود . ومن جهة أخرى فإن الآلهة كانوا ينتمون إلى الجيل الثاني الالهي أي التيتان . وبعبارة أخرى فإن بنيان الكون وطرائق الوجود لم تكن بعد قد تحددت بدقة .

١٧ ـ هذا ما ابطل مكاسب انفسهم ، لأنهم مكرهون لالتهام الشحم وفي عدم القدرة للتضحية الإلهية ، فإن البشر اعادوا ادخال شرط الحيوانات المتوحشة .

١٨ ـ عبثاً حكم بروتييد شقيقه أن لايقبل شيئاً من زوس ولكن الأحمق برويبيمتيه استقبل باندورا وتزوجته . وبعد قليل من الوقت فتحت الجرة السرية حيث انطلقت كل الشرور التي انتشرت في العالم وعندما اعادت باندورا الغطاء كان الأمل وحده ما زال باقياً في قعر الجرة ولاحظ (لوفيك) « ان هذا بحق هو ما أراد زوس الغاضب حصره أبدياً بالانسان (بالعمل الشاق) ولهذا أدخل الأمل في الاناء الذي يغذي الجهود العابثة للفانين » ـ آلهة اليونان الكبرى ص ٥٤٠ .

١٩ ـ هزيود هو مصنف ، فمنذ اليوم الذي رؤى فيه زوس رؤي مخدوعاً من قبل بروتييه ومنذ ذلك اليوم يحضر الهموم المؤلمة .

٢٠ ـ لم يعدها لهم ، كما عند هزيود ، يحمله لها من السماء « وأخيل ترك مشهداً يتوافق مع نغمة المأساة والذي سيمكن له انقاص الاحترام للبطل » ـ اسطورة بروتييه ص ١٢٠

٢١ ـ حول مصدر وتطور هذا الباعث أنظر (سيشان) ص ٤٢

٢٢ ـ حول مصدر وتطور هذا الباعث انظر (سيشان) ص ٤٢

٢٣ ـ K.meuli

٢٤ ـ رودرهات (الأساطير اليونانية بالنسبة للاضحية) ص ١٤ . من جهة اخرى فإن زوس لم يحب معاشرة دوكاليون ارسل هرمس لمعرفة ماذا يريد .

٢٥ ـ المشابه الاكثر قربا هو الذبيحة Ze'bah للعبرانيين (ق ٥٧٠)

٢٦ ـ الشعراء الايونيون يبدون مرعوبين بالتعاسة والامراض والشيخوخة ، التعزيات الوحيدة الممكنة لهم ـ الحرب والنصر ـ والتمتع الناتج عن الثروة .

٢٧ ـ بذار ١٥٧ ـ سوفوكل ـ اوديب ـ تيوموني ٤٢٥ ـ ٢٨ .

٢٨ ـ الاوديسة (١١ ـ ٤٩٩ ـ ٩١) كلام أصبح شهيراً ولكنه سيحدث بوقت متأخر الانتقاد القاسي من سقراط ـ أفلاطون الجمهورية (٣٨٦ ـ ٣٨٧) .

٢٩ ـ المعنى لعبارتي موارا moira و ais'a تغير منذ هومير ، هذه القوى الشيطانية تقريباً التي تدفع

البشر إلى انعدام العقل ، قد تشخصت بعدئذ واصبحت ثلاث ربات les br´us maitruis ظهرت لأول منرة عند هزيود وهن بنات زوس وتيمس

٣٠ ـ في البدء كان الغزل قد صنع من الآلهة أو الشيطان واما بواسطة maru´e . ولكنه في النهاية ، كما في تقاليد أخرى هندو ـ اوروبية ولكنها شرقية ايضاً فإن الغزل للمقدر عليهم أصبح التابع للنساجين أو de mai´sai وانظر : (نسج المصير لأحدهم) ربطه . وبعبارة اخرى تعني عدم التحرك من مركز يستحيل تغييره .

٣١ ـ عدالة زوس ـ ص ٦٠ ـ « هو نموذج الملك بصفته مسؤولاً عن اتباعه وهو الحامي بقوة لحقوق وعادات تقليدية وبعبارة اخرى هو ملزم لاستعمال الـ Dik .

٣٠ ـ عندما قال هيرودوت (١ ـ ٣٠) قال لسومون : (أعلم ان الالهة خاضة للجسد ولعدم الاستقرار) وقد انتقد بصورة خاصة عدم الذكاء لأولئك الذين نسوا الشرط الانساني وتركوا العنان لانفسهم لاساءة الاستعمال بواسطة L'hybris .

٣٣ ـ انظر ما سيلي من هذا الكتاب . .



الفصل الحادي عشر

الأوليمبيون والأبطال

٨٨ ـ الاله الكبير المخلوع والحداد ـ الساحر : بوزيدون وهيلفيستوس

إن بوزيدون Poséidon هو اله قديم كبير ، وقد أضاع سيادته العالمية الأصلية ، لعدد من الأسباب[١] . وفي كل مكان توجد آثار عظمته السابقة ، ويبدو ذلك من اسمه الذي فسره أحد العلماء بأنه يعني «زوج الأرض» posis Das . في الاليازة [١٥ ـ ٢٠٤] أن زوس أكبر منه ، ولكن هزيود يعكس بالتأكيد تقليدا أكثر قدما مظهراً زوس وكأنه الأصغر سنا [تيو . ٤٥٦] . على كل حال ، فإن بوزيدون وحده تجاسر بالاحتجاج ضد سوء استعمال زوس لسلطته ، مذكراً إياه بأن ميدانه الخاص محدد في السماء[٢] . ويمكن أن يكتشف في هذا التفصيل ، الذكرى عن مقاومة إله سيد قديم ضد صعود اله أكثر قوة وأكثر غنى .

ان بوزيدون بحصوله على السيادة على البحار ، نتيجة اقتسام العالم ، أصبح إلهاً هو ميريا حقاً ، ومع التسليم بأهمية البحر بالنسبة للهيلينيين ، فقد كان واثقاً بأنه لن يفقد أبدا نشاطه الديني ، مع ذلك ، فان بنيته الأولية قد تغيرت جذريا ، وان الأرث الأسطوري ـ الديني الشمالي الذي كان قد جاء به الى اليونان كان قد تبعثر بالكلية تقريبا أو أنه قد أعيد تفسيره .

وفي الواقع ان الشعب الهندو ـ اوروبي الذي عبد بوزيدون لم يكن يعرف البحر قبل الوصول الى اليونان الشرقية . وان العديد من الملامح المميزة لبوزيدون ليس لها شيء مما يرى في البحر . فهو اله الخيول Hippios ، وفي العديد من الأمكنة ، وبخاصة في أركاديا كان يعبد تحت شكل متعلق بالخيول . ففي اركاديا التقى بوزيدون بديميتر Déméter وهو هائم في بحثه عن بيرسيفونة perséphoné . ولكي تهرب الربة منه مسخت نفسها الى فرس ، ولكن بوزيدون المتحول الى شكل حصان نجح في احتواءها . ومن قرانهما تولدت فتاة وفرس السباق آريون Arion [انتيماتوس في بوزاكايناس ٨ ـ ٢٥ ، ٩] . ان العدد الكبير من مغامراته الغرامية يقرب بوزيدون من زوس . مظهراً بنيته الأصولية «زوجاً للأرض» و«مزعزع التراب» . وحسب هزيود ، فقد تزوج ميدوزا méduse ، والتي هي أيضاً ربة قديمة للأرض وثمة تقليد آخر يقرر بأن أنتيوس Antuios هو ناتج من قرانه مع جيGe .

هذه العلاقات مع الحصان تشير لأهمية هذا الحيوان بالنسبة للغزاة الهندو ـ اوروبيين . فبوزيدون قد مثل كخالق ، وكالأب أو موزع الأحصنة ، وعليه ، فإن الحصان هو في علاقة مع العالم السفلي ، وهذا ما يوضح مجددا صفة «سيد الأرض» من إله . ان قوته البدئية كذلك قد أشير اليها بأشكال جبارة أو غولية من أبنائه : أوريون ، بوليفيم ، تريتون ، انتيوس ، الهاربي . الخ . . بصفته زوج الأرض Pasis Das ، النفس الذكورية للخصب الساكن في الأرض كما فهمه ويليام ويتز ، Willamowitz ، فإن الاله المصطحب من قبل الهندو ـ اوروبيين يمكن له أن يقارن بالالهة العليا والمخصبة «أسياد الأرض» ، لديانات البحر المتوسط والشرقية[٣] ان بوزيدون وقد أصبح حصراً الها بحريا ، لم يستطع أن

يحافظ من صفاته الاصلية الا على تلك التي ارتبطت بالبحر : القوة الطائشة والسيادة على مصائر البحارة .

وهيفستوس Héphaistos يتمتع بمركز وحيد في الديانة والميثولوجيا الاغريقية . فقد كانت ولادته متفردة : حسب هزيود . حملت به هيرا «بدون اتصال حب ، بغضب وتحد لزوجها»(٤) . إضافة لذلك فان هيفستوس يتميز من كل الاوليمبين ببشاعته وعجزه . إنه أعرج من الرجلين وأهوج أو مجنون وبحاجةلمن يسنده كي يعيش ، وهذه العاهة هي نتيجة لسقوطه على جزيرة ليمنوس Lemnos : فزوس كان قذف به من أعلى الأوليمب لأنه كان قد تعصب مع والدته هيرا [الياذة ١ ـ ٥٩ ـ ٩] . وحسب نص آخر ، أن هيراً هي التي رمت به الى البحر ، أثناء ولادته ، خجلى من تشوهه [الياذة ١٨ ـ ٣٩٤] . وقد التقطه اثنان من النيريدس Nereids ، وتيتيس Thétio ، وايرينوميه Eurymoné في مغارة عميقة وسط المحيط . وهنالك خلال تسع سنوات أجرى هيفيستوس تدريبه كحداد وصانع . ولقد لوحظت المشابهات مع لازمة «الولد المضطهد» ومع ذلك «المولود الجديد التعيس» : في الحالتين ، يخرج الولد منتصراً من محنته . انه يتعلق ، بالتأكيد بتجربة مساره(٥) قابلة للمقارنة بالسرعة العظيمة في أمواج ديونيزوس أو تيزيه(٦) . ولكن هذه المسارة من نوع سحري وشاماني هي التي تفسر تشويه هيفستوس . وقد قربت الباحثة ماري ديلكور العراقيب المقطوعة أو الأرجل الملتوية لهفيستوس من التعذيبات المسارية لشامان المستقبل(٧) . وكأرباب سحريين آخرين ، فإن هفيستوس قد اشترى علمه بالحديد والصناعة بتشوهه الطبيعي . وان أعماله هي الأعمال الرئيسية للفن والعجائب السحرية في آن واحد . وقد صنع الى جانب القلائد والاساور والزهيرات الترس العجيب لأخيل [اليا . ٣٦٩] وكذلك صنع الكلاب الذهبية والفضيةالتي تلازم باب قصر الالسيونور Alcyoneur [اوديسة ٧ ـ ٩٢] والمقرات المتألقة للآلهة ، والأناس الآلية التي منها أكثرها شهرة الركائز ذات الثلاثين رجل من الذهب والتي تتحرك من ذاتها و«الخادمين من الذهب» [الياذة ١٨ ـ ٤١٧] . المشابهة لصبايا تتهادى في مشيتها . وبناء على طلب زوس صنع من الغضار باندورا وأحياها . ولكن

هيفستوس هو بصورة خاصة معلم حازم ، قيد آلهة وربات إضافة للتيتان بروميثيه وذلك بما صنعه من عروش ، وسلاسل وشبكات . . وقد قدم لهيرا عرشا من ذهب وصلاته غير مرئية ، وما ان جلست عليه هيرا مرة ، حتى أخذت هذه الوصلات الربة أسيرة . وحيث ان أي اله لم يستطع تخليصها ، استدعي ديونيزوس الذي نجح باسكار هيفستوس وسحبه الى الأوليمب حيث أطلق والدته نهائيا . [بوزانياس ١ ـ ٢٠ ـ ٢] ان العمل الباهر الأكثر شهرة هو أيضا الأكثر سخرية : حبس هيفستوس آريس Arés وزوجته افروديت ، في شبكة غير مرئية ، ودعى الاوليمبيين لمراقبة قرانهما الأثم [اوديسة ٨ ـ ٢٦٦] . وانفجر الآلهة من الضحك ، ولكنهم في ذات الوقت كانوا خائفين أمام هذا العمل الذي بدا صانعه ساحرا كبيرا أكثر من اعتباره صانعاً كبيراً .

إن هفستيوس إلهاً ساحرا هو في ذات الحين رازم ومفكك ، وبالنتيجة إنه إله مولِّد «هو الذي خلص زوس من أتينا) . هذا ولا يوجد مكان آخر كان فيه قيمة مماثلة للسحر والاتقان التكنولوجي كما هي في ميتولوجيا هيفستوس .

فبعض من الآلهة العليا (فارونا ، زوس) هم معلمو روابط ،ولكن القدرة على الحل والربط مقسمة بصور أخرى إلهية أو شيطانية (على سبيل المثال في الهند فرترا ، ياما ، نيترى) . ان العُقد ، والشبكات ، والأحابيل ، والحبال ، والفخوخ ، تصنف بين التعبيرات المصورة للقوة ـ السحر ـ دينية التي لا بد منها لامكانية قيادة ، أو حكم ، أو إيقاع قصاص ، أو شل أو ضرب بالموت ، تعبيرات حاذقة ، وجميلة بتناقص ، لقدرة رهيبة ، وغير محدودة ، وفوق الطبيعة(٨) . ان ميثولوجيا هيفستوس تشرك المصدر للقوة السحرية المشابهة (لأسرار المهنة) للمعدنين والحدادين والصناع ، وباختصار للاتقان التكنولوجي والصناعي . ولكن كل التقنيات لها مصدرها ومستندها في «صفة النار» وهو احترام موزع بين الشامان والسحرة ، قبل أن يصبح «السر» للخزافين والمعدنين والحدادين .

ان الأصول لهيفستوس مجهولة ، ولم يحالف النجاح تفسيرها لا بالارث الما قبل الهيلليني ، ولا بالتقاليد الهندو ـ اوروبية . وان تكوينه القديم واضح . وأكثر

من إله للنار أمكن له أن يكون سيد الأعمال المتطلبة (صناعة على النار) ، وبعبارة أخرى ، شكلاً مميزاً .

٨٩ - ابولون : المتضادات المتوافقة .

يمكن ان يبدو متناقضا ، ان الاله المعتبر اكثر كمالا لتجسيد العبقرية الهيللينية ، ليس له اشتقاق اغريقي . ومن التناقض ايضاً واقع ان اكثر مفاخره الاسطورية شهرة لا تشهد بفضائل انتهي لتسميتها «ابولونية» : الصفاء ، طاعة القانون والنظام ، الايقاع الالهي . فكثير من الاحيان يتملك الاله الرغبة بالانتقام ، والحسد ، بل الحقد والضغينة . غير ان هذه النواقص تضيع سريعاً خاصيتها البشرية وتنتهي بكشف واحدة من الحدود الكثيرة للألوهية ، كما كانت قد فهمت من قبل الاغريق .

ان الذي ، أثار بعد زوس بجذرية اكثر المسافة اللانهائية التي تفصل الانسان عن الآلهة عرف المصير للأخير بين الفانين : فقد رفض له حتى الحق بأن يولد . وقد فتشت التيتانة ليتو Léto الحبلى بأعمال زوس ، عبثاً عن مكان تلد فيه .

ولم يجرؤ بلد على قبولها خوفاً من هيرا التي حرضت اضافة لذلك بيتون Python ، تنين دلفي ، لأن يتعقب ليتو واخيراً ، قبلتها جزيرة ديلوس Delos وقد ولدت التيتانة توأمين ارتميس وأبولون . وكانت أول اشارة من الطفل معاقبة بيتون . وحسب نص آخر ، اكثر قدماً ، توجه ابولون صوب دلفي ، مقره المقبل . وبما ان الطريق كان مقطوعاً من قبل تنين انثى ، بيتون ، فقد قتلها الاله بضربة سهم[٩] وهذه مفخرة يمكن تبريرها ، تماما كما يمكن تبرير قتل الجبار تيتياس Tityas ، الذي حاول اغتصاب امه . ولكن أبولون قتل ، كذلك بضربات سهام ، الابناء السبعة لينوبه Niobé (بينما قتلت ارتميس البنات السبعة) لأن الأم المتعجرفة قد شتمت ليتو Léto متفاخرة بذريتها الكثيرة . وقد قتل حبيبته المفضلة

(كورونيس) التي خانته مع أحد الفانين[١٠] . وقتل ايضاً ، وانما بعدم انتباه ، صديقه المفضل هايكنتوس .

هذه الميتولوجيا العنيفة ، التي الهمت ، خلال عدة قرون ، الأدب والفنون التشكيلية ، لها موازيها في تاريخ دخول ابولون بلاد الاغريق . وباختصار إن هذا تاريخ له بديله ، قل أو أكثر شراسة . للآلهة المحلية الما قبل الهيللنية وهي عملية تميز من جهة أخرى الديانة الاغريقية في مجملها . ففي بلاد شرسة ،كان الاله مشتركا بـ بتوس Ptoos بصفة ابولون بتوس Appolon Ptoos ، ولكنه حوالي القرن الرابع ، أصبح بتوس ابنه أو حفيده . وفي طيبة أبدل بأسمينيوس isménios . ولكن المثال الاكثر شهرة هو اقامته في دلفي Delphes ، بعد ان قتل سيد المكان المقدس ، الا بيتون le Python . وقد كان لهذه المفخرة الاسطورية أهمية بارزة ، وليس من أجل ابولون فحسب . ان انتصار اله بطل ضد التنين يرمز في آن واحد إلى (الأهلية المحلية) وإلى السيادة البدئية للقوى الأرضية ، انها واحدة من الاساطير الاكثر انتشاراً (ف ٤٥٠ع) . وما هو خاص بأبولون ، انه من جهة ، العمل الذي توجب عليه ان يكفر به عن هذا القتل حيث أصبح هكذا في دلفي . وعليه ، فبصفته ابولون بيتييني appolon pytheen ، قد حصل على تقديره الما قبل هيلليني . وان العملية كانت قد اكتملت حوالي القرن الثامن» .

أما بالنسبة إلى «أصله» فقد أعيد البحث عنه في الأقاليم الشمالية من اوراسيا l'Eurasie ، أو آسيا الوسطى . والفرضية الأولى تستند بصورة خاصة على علاقات الاله مع الهيبروبوريين les Hyperboreéns ، الذين كان يعتبرهم الاغريق سكان لبلاد «ما وراء بورية Borée» أي ما وراء ريح الشمال . وحسب الاسطورة الدلفية[١٢] كان زوس قد قرر ان أبولون سيقيم في دلفي وسيقدم القوانين للهيلينيين . ولكن الاله الشاب طار على عربة تجرها طيور البجع ، حتى بلاد الهيبيربوريين ، حيث بقي سنة كاملة . مع ذلك ، وكما ان الدلفيين لم ينقطعوا عن دعوته مع الرقص والغناء ، فقد عاد الاله . ومنذئذ أمضى الاشهر الثلاثة من الشتاء بين الهيبيربوريين ورجع في بداية فصل الصيف . واثناء غيابه ، حكم ديونيزوس في دلفي بصفته معلم الوحي الالهي .

وحسب بندار «لا أحد يستطيع اكتشاف ، لا برا ولا بحرا ، الطريق العجيب الذي يوصل صوب العاب الهيبربوريين» [بيت ١٠-٢٩] . وبعبارة أخرى ، فإن البلاد وسكانها ينتمون للجغرافيا الاسطورية . انها سلالة مقدسة ، خالية من الأمراض والهرم . ويؤكد بندار ان هؤلاء (الهيبربوريين) يمكن ان يعيشوا الف سنة ؛ انهم لا يعرفون لا العمل ولا الحروب ويمضون وقتهم بالرقص والعزف على القيثارة والناي . وتروي الباشيليد Bacchylide [٣ ص ٥٨] انه من أجل مكافأة «احسانهم» نقل ابولون كريسوس Cressus وبناته إلى عند الهيبروريين . انه يتعلق اذن بمكان فردوسي يمكن مقارنته بجزر السعداء حيث تؤمها ارواح الابطال .

ويقدم هيرودوت [١٧- ٣٢- ٣٥] المعلومات المعطاة من قبل الديليين les Déliens المتعلقة بالتقدمات التي كان تلقاها ابولون من الهيبربوريين : بعض موضوعات مغلفة بقش القمح كانت اودعت لدى اشخاص من بلد مجاور ، والذين نقلوها بدورهم إلى البلاد الاكثر قربا وهكذا دواليك حتى ديلوس Delos . وسيكون من العبث البحث عن تذكار تاريخي آني في هذا التقليد ، الذي ، بين غيره ، وضع في بلاد الهيبربوريين الزيتون ، الشجرة ذات المنشأ من البحر المتوسط بامتياز .

وعلى الغالب فإن الأقاليم الشمالية ـ منذ تراقيا حتى بلاد السيس Seythes والاسيدون Issedons ـ كان لها مكان مرموق في التقاليد الخرافية المتصلة بأبولون . ان بعض حوارييه الخرافيين (اباريس ، آريستيوس) كانوا «هيبربوريين» وكان اورفيه Orphee دائما على علاقة مع تراقيا Thrace . الا انه يتعلق بدب اصغر septentrion الذي ، بصفته قد اكتشف واستظهر تباعا ، حافظ على هالة اسطورية . وان هذا الدب الاصغر الخيالي هو الذي أثار وغذى الابداعية الاسطورية .

وبفضل المصدر الأسيوي لأبولون زُعم بأن اكبر اماكن عبادته توجد في آسيا ، يانارا في ليسيا ، وديديم في كاري ، وكلاروس في ايوني الخ .

وكالعديد من الآلهة الاوليمبية الأخرى ، يظهر قادماً جديداً في أمكنته المقدسة في اليونان القارية . وزيادة على ذلك ، وعلى نقش حثي مكتشف بالقرب من قرية اناضولية ، أمكن قراءة الأسم ابولوناس Apulunas «رب الأبواب» تماما كما كان أبولون الأغريق التقليدي ، كما يذكر بذلك نيلسون Nilsson(١٣) .

ولكن «تكوين» إله ليس هاما الا في المقياس الذي يساعد على فهم العبقرية الدينية للؤمنين به . وكالشعب الاغريقي نفسه ، فإن آلهته هي الحصيلة لتركيب ضخم . بفضل هذه العملية الكبيرة من المواجهة ، والتكافل ، والتركيب والائتلاف ، نجحت الأشكال الإلهية الاغريقية في كشف كل إمكاناتها .

٩٠ ـ وسطاء الوحي والطهارة .

ما كاد أبولون يولد ، حتى صرخ : «لأعطى قيثارتي وقوسي الموتر ، سأعلن للبشرية ارادة زوس التي لا مرد لها» [انشودة هوميرية ١٣٢] وفي الأومينيدات لأخيل les Euménides d'Esehyle يطمئن الفوريس les Furies انه «لم ينزل الوحي على رجل ، وامرأة أو مدينة . اذا لم يكن ذلك بأمر من زوس» [٦١٦ـ ٦١٩] . هذا التمجيد «لأب الأوليمبين» يفسر علاقات ابولون بأفكار النظام والقانون .

وفي العصر الكلاسيكي ، يمثل بامتياز المظهر القانوني للدين . ويسميه افلاطون «المفسر الوطني» Potrios exegedes [الجمهورية ٤ـ ٤٢٧] . انه يوصل مشوراته بواسطة العرافين إلى دلفي ، وإلى آثينا واسبارطة . بواسطة مفسريه ، فهؤلاء ينقلون ويشرحون الاجراءات المقررة من قبل الاله المتعلقة بطقوس المعابد ، وبخاصة ، التطهيرات التي أصبحت ضرورية بالتضحيات البشرية . لأنه اذا كان ابولون قد غدا الاله الذي يبعد الشر (apotropaios) والمطهر بامتياز (Katharsios) فذلك لأنه ذاته أوجب ان يكون مطهراً بعد قتل بيتون Python . فكل جرم قتل بشرية كان ينتج لطخة عمل شر ويهدد الجماعات برمتها . وقد

ساهم أبولون بشكل بارز في جعل الأعراف القديمة المتعلقة بالتضحيات البشرية اكثر انسانية[١٤] . انه هو الذي نجح في ان يبريء أوريست من جرم قتل الأم بيد ابنها [ر. اخيل les Eumenites]

لقد كان لدلفي في ما قبل التاريخ مكانها في نقل الوحي ، وقبل ابولون . وكيفما كان اشتقاقها اللغوي ، فإن الاغريق كانوا يصلون إسم دلفي بـ «الرحم matrice»[١٥] . فالتجويف الغامض كان فماً ، حنكا stomios الذي يدل ايضا على المهبل Vagin . ان الأومفالوس l'Omphalos لدلفي كان قد تأكد أيضاً منذ عصور ما قبل الهيلينية ، رمزاً للرحم ، لقد كان محملاً بمعنى توليدي[١٦] . ولكنه كان بصورة خاصة «مركزاً للعالم» . وحسب الأسطورة ، تلاقى نسران مطلقان من قبل زوس إلى طرفي الدنيا ، على الاومفالوس . وإن هذا المكان المحترم الموحي ، والذي كانت تظهر له ، منذ أزمنة قديمة ، قداسة وقدرات الارض الأم ، قد تلقى توجهاً دينيا جديداً تحت سلطة وحكم ابولون .

لقد كان الوحي ينجز من قبل بيثية la Pythie ومن قبل النبي الدي كان يساعد في المشورة . وفي البدء كانت المشاورات تجرى مرة في السنة (في ذكرى الاله السنوية) وبعدئذ مرة في الشهر ، واخيراً عدة مرات ، باستثناء اشهر الشتاء عندما يكون ابولون غائباً . وكانت العملية تقتضي التضحية سلفا بمعزاة . واجمالاً فإن المشاورين كانوا يطرحون الاسئلة بشكل متقطع : لمعرفة ما اذا كان من المفضل فعل هذا الشيء أو ذاك . وكانت بيثية la Pythie تعطى الأجوبة مقترعة بحبوب الفول البيضاء أو السوداء[١٧] .

وفي الحالات الاكثر حراجة كانت العرافة الملهمة من قبل أبولون تتنبأ في قبو المعبد . لقد حصل كلام عن (الهذيان البيثي) ولكنه لا يوجد ما يشير إلى الخلجات الهستيرية او الامتلاك من نوع ديونيسي وقد كان افلاطون قارن هذيان بيتي (mancisa) بالالهام الشعري اللازم لربات الشعر muse والنقل العشقي لأفروديت . وبحسب رأي بلوتارك : «ان الاله يسره بأن يضع في العرافة Pythie الرؤى والضوء الذي ينير (المستقبل) القادم ؛ وانه في هذا يوجد الحماس»[١٨] .

وعلى الآثار المصورة تبدو (البيثي) هادئة ، صافية ، مركزة كالاله الذي يوحي إليها . فبأية الوسائل حصلت هذه العرافة على تلك «الحالة الثانوية» ؟ . . لقد بقي ذلك سراً . ان العرافة المختارة من بين الفلاحات في دلفي ، كانت تتنبأ بتاريخ محدد . وان اوراق الغار التي كانت تلوكها ، والتبخيرات بالغار ، ومياه نبع كاسوتي Cassotis التي كانت تشربها ، ليس لها اية خاصية مسكرة ولا تفسر حالة التشنج . وبحسب التقليد ، فإن ركيزتها التنبؤية كانت تقع فوق فوهة (charma) ينبثق منها ابخرة ذات فضائل خارقة للطبيعة . مع ذلك لم تكشف الحفريات لا أخاديد في التربة ، ولا الكهف الذي كانت تنزل فيه العرّافة (ولكن يمكن القبول انه قد زال على اثر هزات زلزالية) . وقد استنتج ، بعد فترة قصيرة ، أنها كلها مجتمعة . الفوهة (شازما) ذات الأبخرة ، ونزول العرافة في الرواق الاديتون l'adyton ـ ستكون صورة اسطورية راهنة[١٩] . وربما ان الاديتون كان قد وجد ، وكما اظهرته ماري ديكلور [ص ٢٢٧] ، فإن الأقدمية والبنية الأرضية لدلفي ،آدخلتا «هبوطاً» شعائريا إلى الأقاليم التحت ارضية . وبما أنه لم يوجد أي «سبب طبيعي» يمكن له ان يستدعي الاختلاج Transe ، فقد افترض الايحاء الذاتي للعرّافة أو الايحاء من مسافة من قبل النبي . وفي الواقع ، لا نعرف شيئاً .

٩١ ـ من «الرؤية» إلى المعرفة.

إن الوجد الأبولوني ، مع كونه مثار احيانا بالالهام أي «الامتلاك» من قبل الاله ، فإنه لم يدخل مع ذلك المشاركة المنجزة بالحماس الديونيزيس l'enthousiasmos dionysiaque [ف ـ ١٢٤ع] . إن المأخوذين بالنشوة ، الملهمين أو الممتلكين من قبل ابولون ، كانوا معروفين بخاصة بسبب قواهم الايحائية والتنبؤية . (على العكس من ذلك ، المسارون في اسرار ديونيزوس ، الباخيون ، لم يقوموا أبداً بتجربة قدرتهم التنبؤية ، ولقد لوحظت الخاصية «الشامانية» لبعض الشخصيات النصف اسطورية ، المشهورة كعبدة لأبولون بامتياز . فالهيبيربوريين

آباريس ، الكاهن لأبولون كان موهوبا بقوى ايحائية وسحرية . وقد كتب هيرودت [٦-٣٦] «ان سهمه الشهير طاف بكل الأرض دون ان يتناول أي غذاء» ، ولكنه منذ هيراكليد (فقرة ٥١) جرى التأكيد ان آباريس طار على سهم ، وعليه ، فإن السهم ، الذي يلعب بعض الدور في ميتولوجيا ودين السيسيين des Seythes هو حاضر في الحفلات الشامانية السيبرية[٢٠] . وانه ايضا السلاح الفاخر لأبولون . وهنالك خرافات مماثلة ـ متضمنة اختلاجات وجدية قابلة لتكون ممتزجة بالموت بيلوكاسيون bilocation ، مسوخات ، سقوط في الجحيم الخ . . وكانت تنشر بعلاقة مع أشخاص خرافيين آخرين : آريستياس Arist´eas de Procomère البروكوميزي ، وهرموتيموس الكلازوميني Hermotimus de chazoméne وابيمنيد الكريتي Epiménide de Crete ، أما بالنسبة لأورفيه Orphée «النبي» الشهير لأبولون ، فإن اسطورته كانت تفيض بمفاخر شامانية [ر. البحث عنه فيما سيلي] .

فيما كان يعرفه الاغريق منذ هومر ، هو ان أبولون قد كان بالتأكيد اكثر بكثير من إله ـ معلم للوجديات . ويمكن مع ذلك اكتشاف استمرارية لها دلالتها بين الدعوتين (الشامانية) و(الابولونية) . فالشامانيون كانوا معنيين باكتشاف ما هو مستور وبمعرفة المستقبل ؛ والرؤى ، الاعطيات الممتازة من ابولون ، تثيب المؤمنين بالاله بذات التقديرات . وتماما كما في بعض التقاليد الشامانية السيبرية ، فإن «الرؤى» الممنوحة من ابولون تثير الذكاء وتدعو الى التأمل ، وفي آخر المطاف ، تقود إلى «الحكمة» . وقد كان والتر اوتو Walter otta لاحظ ان الحصول على المعارف السرية (متشاركة دوما أو مرتبطة باثارة للنفس»[٢١] وان هذا بصورة خاصة ، صحيح بالنسبة للوجد الشاماني . كما ان هذا يفسر الأهمية الرئيسة للموسيقا والشعر في التقليدين .

ان الشامانيين يعدون لوجدهم بالغناء وبقرع الطبل ؛ وان اكثر الشعر الملحمي قدما في اسيا الوسطى وبولونيزيا كان له كنموذج مغامرات الشامانيين في اسفارهم الوجدية . ان الشعار الرئيس لأبولون هو القيثارة ، وبالعزف عليها يفتن

الآلهة والحيوانات الكاسرة وحتى الحجارة [اوريبيدس - ابولونيات رودس - ٥٧٩-٧٤٠] .

ثم إن القوس ، الشعار الثاني لأبولون يشكل ايضاً جزءاً من الملحقات الشامانية : ولكن استعمالها الشعائري يتجاوز الدائرة الشامانية ، وأما رمز القوس ، فهو منتشر عالميا . فأبولون هو «الذي يقذف من بعيد» : مع ذلك فإن النعت ذاته يطبق على راما ، وعلى بوذا ، وعلى ابطال آخرين وشخصيات اسطورية . ولكن العبقرية الاغريقية قد اعادت بوضوح تقييم هذا المذهب العتيق ، تماما كما غيرت التقنيات والرمز الشامانية . وبفضل ابولون ، كشفت رمزية القوس ورامي السهام اوضاعاً روحية اخرى : سيادة المسافة ، واذن الانفصال من «المباشر» ، ومن لزوجة المحسوس ؛ والسكون والصفاء الذي يقتفي كل جهد من التركيز العقلي . واجمالاً ، فإن ابولون ، يمثل تجليا جديداً ، والتعبير لمعرفة دينية للعالم والوجود البشري ذي الخاصية الاغريقية التي لا يمكن اعادة تردادها .

ولقد أكد هيراقليط Heraclite ان «الايقاع هو نتيجة لتوتر بين اضداد ، تماماً «كالقوس والقيثارة» . وفي ابولون ، تبدو الاضداد في أوجها ، مدخلة في مظهر جديد ، اكثر اتساعاً واكثر تعقيداً . ان مصالحته مع ديونيزوس تشكل جزءاً من ذات عملية التكامل التي رسمته معلماً للتطهيرات على اثر قتل بيتون Python . وقد كشف أبولون للبشر الطريق الذي يقود أو يوصل من الرؤية التنبؤية إلى الفكر . وان العنصر الشيطاني . المدخل في كل معرفة هو معزّم عليه .

هذا وان الدرس الابولوني بامتياز مشروح في الصيغة الشهيرة لدلفي : «اعرف نفسك» إن الذكاء والعلم ، والحكمة معتبرة كنماذج إلهية ، ممنوحةمن الآلهة وفي الدرجة الأولى من قبل ابولون . وان الرصانة الأبولونية أصبحت بالنسبة للانسان الاغريقي الشعار للكمال الروحي ، وبالتالي للنفس . ولكن مما له دلالته ان اكتشاف النفس اكمل سلسلة طويلة من المنازعات متبوعة بمصالحات ، وبسيادة التقنيات الوجدية والايحائية .

٩٢ ـ هرمس (رفيق الانسان).

إن هرمس ابن زوس والحورية مايا هو الأقل اوليمبية من الآلهة . وهو مازال يحتفظ ببعض شعاراته المميزة لأولوهيات ما قبل الهوميرية : إنه يمثل ايضاً تحت مظهر قضيبي ، وهو يملك «قضيباً سحرياً» والصولجان ، وطاقية الاخفاء ، ولكي يحصن ضد سحر سيرسيه Circé ، قدم لأوليس العشبة السحرية مولي moly [الأوديسة ١٠ ، ٣٠٢-٦٠] . واكثر من ذلك ان هرمس يحب الاختلاط بالناس . وكما يعبر عنه زوس ، فإن «مهمته الاثيرة جداً هي أن يكون رفيق الانسان [الالياذة ٢٤ـ ٣٣٤] . ولكنه يتصرف في علاقاته مع البشر كاله ، وكمعلم صانع . وهو واهب الاموال بامتياز [الأوديسة ٨ ـ ٣٣٥] : يقال عن كل حظ يحصل انه هبة هرمس . ولكنه من جهة اخرى التجسد لكل ما تقتضيه الخديعة وما يدخل الغش . فما كاد يولد حتى سرق قطعان شقيقه ، ابولون ، ومن أجل هذا أصبح الرفيق والحامي للصوص . ان اوريبيدس يدعوه «سيد اولئك الذين يجعلون مهماتهم اثناء الليل» [روس ٢١٦]

ولكنه اذا كان يرتب السرقات والمغامرات الظريفة الليليلة فهو ليس بأقل من ذلك حاميا للقطعان وللمسافرين المتأخرين على الطرقات، «لا يوجد اله آخر يبزل مثلما يبزل من عناية بالقطعان وتناميها» ، كما كتب بوازانياس [٢ ، ٣-٤] . فهو اله الطرقات ، ومن قطع الحجارة «هيرميونHermaion» التي توجد على جوانب الطرقات قد تلقى اسمه : كل مسافر كان يلقي حجراً على الكومة[٢٢] . ومن المرجح اصلاً ان هرمز كان الها حاميا للرعاة الرحّل ، ويمكن ان يكون سيداً للحيوانات . ولكن الاغارقة فسروا في معنى اكثر عمقاً صفات ومزايا هرمز . فهو يحكم الطرقات لأنه يمشي بسرعة (له خفان من ذهب) ولا يتوه مطلقاً في الليل لأنه يعرف الطريق ، ولأجل هذا هو سيد اللصوص ودليل وحامي القطعان في آن واحد ، وذلك هو السبب الذي أصبح بموجبه سفيراً للآلهة .

وعلى الأرجح ان ذات الصفات جعلت من هرمز صلفاً : فهو يقود الموتى في الآخرة لأنه يعرف الطريق ويعلم كيف يتوجه في الظلمات ، الا أنه ليس الها للاموات ، مع ان الأموات يقولون بإن هرمز قبض ارواحهم . انه مفوض بالتجول دون عقاب في المستويات الكونية الثلاثة . فاذا رافق الارواح في الجحيم ، فإنه يعود بهم دوما إلى الأرض ، كما حصل ذلك مع بيرسفونة ، ومع اوريديس أو في البيرسس [٦٢٦] لأخيل ، ومع روح الملك الكبير . ان علاقات هرمز مع ارواح الموتى تفسر ايضاً بقدراته النفسية» . وان دهاءه ، وذكاءه العملي وقدرته على الاختراع (هو الذي اكتشف النار) ، وقدرته على ان يصبح غير مرئي وان يسافر حيث شاء في لمح البصر ، كل هذا استدعى فيما سلف التقدير باحترام لحكمته وبخاصة مهارته في العلوم السرية التي ستصبح فيما بعد ، في العصر الهيلليني ، صفات هرمز المميزة . فالذي يتوجه في الظلمات ، ويقود ارواح الموتى ويجول بسرعة الضوء ـ مرئياً كان أم غير مرئي ـ يعكس آخر المطاف نموذجاً للروح : ليس الذكاء والحيلة فحسب ، وانما ايضاً العرفان (غنوص) والسحر .

بعد أن حلل و . أوتو W.Otto بوضوح مزايا هرمز اعترف بأن «عالمه ليس عالما بطولياً» واستنتج انه اذا «كان عالمه غير نبيل [. . .] فإنه بعيد عن ان يكون فظاً ومبتذلاً»[٢٥] . وهذا صحيح ، ولكنه غير كاف . لأن ما يميز صورة هرمز في العصر الكلاسيكي سابقاً ، انما هي علاقاته مع عالم البشر ، عالم بالتعريف «مفتوح» وهو بشكل دائم على أهبة ان يعمل ، أي ان يكون معدلاً ومتجاوزا . إن صفاته الأولى ـ خديعة ، قدرة على الابتكار ـ سيادة على الظلمات ، فائدة لنشاط البشر ، صلف ـ ستعاد تفسيراتها باستمرار وتنتهي لتجعل من هرمز صورة كثيرة التعقيد ، وبشكل دائم : بطل محضرٍ ومعلم علم وصورة مثالية للمعارف gnoses السرية في آن واحد .

وهرمز هو واحد من الآلهة الأوليمبية النادرة الذين لم يفقدوا صفاتهم الدينية بعد ازمة الدين «التقليدي» ولم يزولوا بعد انتصار المسيحية . وسيعرف شهرة جديدة مثلاً بتوت Thot وميركوريوس mercurios في العصر الهيلليني ، وبصفته

هرمس العظيم مثلث الحكمة Trismégiste سيستمر في البقاء عبر الكيمياء والهرمسية حتى القرن الثامن عشر . وقد سبق لفلاسفة الاغريق أن رأو في هرمس الكلمة logios والتشخيص للفكر ، وسيعتبر كمالك لكل المعارف وفي المكان الأول منها الحكمة السرية ، وهذا ما سيجعله «رئيس كافة السحرة» المنتصر ضد قوى الظلام ، لأنه «يعرف كل شيء ويستطيع ان يفعل كل شيء»[٢٤] .

ان مشهد الأوديسة مع العشب العجيب moly سيكون باستمرار معبراً عنه بالرمز allegorise من قبل الإغريق ، كما هو من قبل الكتاب المسيحيين . وسيرى في هذا النبات الذي ينقذ أوليس من مصير رفاقه الممسوخين خنازير من قبل سيريه Ciré ، الروح أو النفس التي تتعارض مع الغريزة ، أو الثقافة التي تطهر الروح . وان هرمز المماثل من قبل فلاسفة الاغريق باللوغوس Logos ، سيغدو مقارنا من قبل الآباء بالمسيح ، وبانتظار المطابقات التي لا حصر لها والمماثلات المنجزة من قبل كيميائي عصر النهضة .

٩٣ ـ الربتان : هيرا وأرتميس.

إن الوضعية المتميزة لهيرا ترجع اكثر ما ترجع لهومير ، الذي ابرز واقعة كونها زوجة لزوس وكانت هيرا أصوليا ربة آرغوس ، ومن هنا انتشرت عبادتها في كل اليونان . ويفسر ويليام ويتز Willam witz اسمها كما لو انه الشكل الانثوي للبطل Héros ، وله معنى ديسبوانا despoina «سيدتنا»[٢٥] . ومن الصعب الجزم فيما اذا كان الآخيون قد اصطحبوا معهم الربة أو اسمها فقط . فقد كانوا على الأرجح متأثرين جداً بقوة وعظمة سيدة الأرغوس واعتبروها الزوجة لربهم الرئيسي[٢٦] . وقد يكون ذلك السبب الذي من أجله أصبحت هيرا الرمز والسيدة لمؤسسة الزواج . ان خيانات زوس التي لا حصر لها اثارت غيرتها واستدعت حصول مشاحنات رويت لفترة طويلة من قبل الشعراء ومحبري الاساطير .

ان زوس يتصرف مع هيرا كما لم يتجاسر عليه ابداً رئيس آخيني نحو زوجته : انه يوسعها ضرباً ، حتى انه شنقها في إحدى المرات وربط وزنا ثقيلاً برجليها ، وهذا تعذيب طبق بعد زمن متأخر على العبيد[٢٧] .

وحسب هزيود [تيوج . . ٢٣-٢٤] اولدت هيرا لزوس ثلاثة اولاد : هيبة Hébé وآريس Arés وايليسيا Eileishya وحملت لوحدها هيفيستوس [الباء ٦٢٦] .

ان التوالد العذري le parthénogénèse (أو الاخصاب بدون تلقيح) ، اي التلقيح الذاتي يشير الى أن الربات الأكثر اوليمبية تحتفظ بخاصيتها المتوسطية والأسيوية المميزة .

ومن الصعب التحديد بدقة للمعنى الأصولي للتقليد الذي كانت هيرا بحسبه تعود لتجد سنويا عذريتها في استحمامها في نبع كاناتوس Kanathos[٢٨] . فهل يتعلق هذا برمز متضامن مع المفهوم البطريركي للزواج (اذ من المعلوم ، تمتع العذرية باحترام في المجتمعات من النمط البطريركي) ؟ . . ومهما يكن من أمر ، فإن الاغريق قد حولوا جذريا ربة أرغوس . ويمكن مع ذلك فك رموز بعض صفاتها الأصولية . ان هيرا مثلها مثل اكثرية الربات الايجية والآسيائية ، كانت الهة الخصوبة الشاملة ، وليس مجرد الزواج . ومع ان الفرضية عن هيرا - أرض ام ، كانت قد طرحت من قبل بعض العلماء ، الا انه من الصعب تفسير خلاف ذلك الواقع الذي جرى فيه الكلام عن زواج مختلط Hierosgamos مع زوس (الاسطوري أو المعاد تركيبه في الشعائر» في العديد من الأمكنة (بلاطية Platée ، وأوبية Eubée ، وأثينا Athénes ، وساموس Samos الخ» . انها الصورة النموذجية للاتحاد بين اله مخصب للعاصفة وللأرض الأم . واضافة إلى ذلك فإن هيرا كانت معبودة في أرغوس كربة «للنير» déesse de joug ، الغنية بالثيران . واخيراً كانت معتبرة كأم للغيلان المرعبة ، مثل هيدر الليرن l'Hydre de Lerne . وعليه ، فإن ولادة الغيلان تميز الربات الأرضية ، وفي الواقع ، وكما رأينا (ف. ٤٨٣) ؛ حسب هزيود أن أم التيفون كانت «الأرض Gê» . غير ان كل هذه الصفات والتقديرات المحلية الوطنية قد أهملت تباعاً ، ومنذ هومير تكشفت هيرا بما بقيت عليه حتى النهاية : ربة الزواج بامتياز .

إن اسم (ارتميز) المؤكد عليه تحت شكل ارتيميز Artimis في مخطوط من ليديا يدل على أصله الشرقي . والصفة القديمة للربة واضحة : انها قبل كل شيء وبامتياز سيدة الوحوش الكاسرة . (بوتنياتيرون Poniatheron) كما وصفت في الاليازة [٢٠-٤٧٠] ؛ بمعنى انها المولعة بالصيد وحامية الحيوانات في آن واحد . وهومير يدعوها ايضا اغروتيرا Agrotera (ذات الحيوانات) وايخيل يدعوها «سيدة الجبال المتوحشة» . فهي تحب ان تصيد ، بصورة خاصة ، اثناء الليل .

والأسد والذئب حيواناتها المفضلة والشعائرية ؛ وهذا ما يذكر بالنماذج البدئية الآسيائية . ويروى هومير [اليا . ٧-٥٤٣] كيف ان ارتميز علّمت سكامندريوس Scamandrius فن صيد كل انواع الطرائد . ولكنها تحتد غيظاً عندما يمزق عقابان ويفترسان عكرشة (انثى ارنب hase) مازالت تحمل صغارها [اخيل - انما ممنون ١٣٣] .

ان ارتميز هي الربة العذراء بامتياز ، مما يمكن معه أن يفهم أصوليا كما لو كانت حرة من نير الأمومة . ولكن الاغريق رؤوا في عذريتها الدائمة لا مبالاة تجاه الحب . ان الانشودة الهوميرية لأفروديت [ثا. . . ١٧] تعترف بعجز الربة . وفي مأساة يوريبيدس [هيبوليت (١٣٠١) تصرح ارتميس نفسها بكل وضوح عن كراهيتها لافروديت .

وهي على الأغلب تمثل عناصر متعددة لربة أم . ففي اركاديا ، اقدم مكان لعبادتها كانت متشاركة مع ديميتر وبيرسفونة . ويؤكد هيرودوت [٢-١٥٦] بأن أخيل كان يعتبر ارتميز كابنة لديمتر ، بمعنى انها كانت لوحدها مع بيرسفونة .
ان بعض الكتاب الإغريق اكد انها كانت تدعى بريتومارتي Britomartis في كريت ،(٢٩) الأمر الذي يدل على علاقاتها مع الربة المينونية ménoéenne . ومن الراجح ان من بين اسمائها في لغات اخرى يذكر (كيبيل) Kybéle في فريجيا ، وما Ma في قبدوقية . ومن غير المعلوم متى وفي أي اقليم بدأت تعرف باسم آرتميز . ان الوظيفة الأمومية في ايفيز Ephése كانت ممثلة تشكيليا وبطريقة سخرية تجعل مكانا للتردد بالاعتراف لها بالوهية اغريقية . وان ارتميز كانت مقدسة

من قبل النساء بصفتها لوشيا Lochaia ربة الولادة . كذلك كانت كيروتروفوس Kurotrophos «الطيبة» ومعلمة الشباب . ويمكن فك رموز بعض هذه الشعائر المؤكد عليها في العصر التاريخي . بإنها ارث الحفلات المسارِّية النسوية للمجتمعات الايجية من الألفين الثانية . ان الرقص على شرف ارتميز آلفية Artémis de l'Alphée ، كما هو من جهة اخرى الرقص للربة في كل مكان في البيلوبونيز ، كانت له خاصية تهتكية . وكان هنالك مثل يقول : «في أي مكان لم ترقص ارتميز» ؟ وبعبارة اخرى ، أين لا يرقص الناس من أجل ارتميز ؟[٣٠] .

تحت مظاهرها المتعددة ، واحيانا المتناقضة ، نتبين تعدد الاشكال الالهية القديمة ، المعاد تقيمها والمدخلة في بنية واسعة من قبل العبقرية الدينية الاغريقية . فالسيدة القديمة للجبال ومعلمة الحيوانات الكاسرة لما قبل التاريخ في البحر المتوسط مثلت باكراً الصفات والمزايا للربات الامهات . ولكن بدون اضاعة خصائصها الاكثر قدما والاكثر خصوصية : معلمة ، في آن واحد ، للصيادين وللحيوانات الكاسرة ، وللبنات الشابات . ومنذ هومر ، بدأت تتوضح صورتها الجانبية : ارتميز تدير قداسة الحياة المتوحشة ، تعلم الخصب والأمومة ، ولكن لا تعلم الحب والزواج . لقد حافظت دوما على خاصية متناقضة ، مشهورة خاصة ، بترابط أمور متناقضة (على سبيل المثال ـ عذرية ، امومة) . ان الخيال الخلّاق للشعراء ، ولمبتكري الاساطير واللاهوتيين الاغريق ، كشف أن مثل هذا الترابط بين الاضداد يمكن ان يدل على أحد الاسرار الالهية .

٩٤ ـ الربتان : اثينا وأفروديت .

بالتأكيد ان أثينا هي أهم ربة اغريقية بعد هيرا . ولم يقيض لاسمها ان يشرح من قبل الاغريق . أما بالنسبة لأصلها ، فإن فرضية نيلسون Nilsson المقبولة من اكثرية العلماء تبدو مقنعة لحد ما : يمكن لأثينا أن تكون سيدة قصر ، وحامية قصور مدعَّمة بامراء ميسنيين Mycéniens ، مع انها ربة منزلية ، على

علاقة مع المهن النسوية أو الذكورية ، في حضورها في القلعة اثناء فترة الحروب والأسلاب أناط بها النعوت والمزايا لربة محاربة . انها تخرج من رأس زوس متمنطقة بسلاحه ، مستلة رمحه ومطلقة زمجرته في الحرب . ان عدداً من القابها توضح صفتها الحديدية : البطلة (برماشو) القوية (ستينياس) المحاربة (آريا) الخ . . .

مع ذلك ، وكما تظهره عدة مشاهد من الالياذة ، فإن آثينا عدوة عنيدة لآريس التي تسحقه في معركة الآلهة الشهيرة من النشيد ٢١ [اليازة : ٣٩٠][٣١] .

وعلىٰ العكس ، انها معجبة بهرقل ، النموذج الحقيقي للبطل . انها تساعده في تجاربه المافوق بشرية وفي النهاية تقوده للسماء [بوزانياس ٣ ـ ١٩ ـ ١١ الخ] وهي تقدر باعجاب ايضاً تايدوس Tydeus وكانت تود ان تجعله خالداً ، ولكنها عندما رأت البطل ، مجروحاً بجرح خطير ، كسرت جمجمة عدوه وابتلعت دماغه ـ وابتعدت الربة منزعجة[٣٢] . انها هي دوما ، التي بحضورها ، تأخذ بيد أخيل ويدها على سيفه جاهزاً للرد بالحديد علىٰ شتائم اغاممنون [الالياذة ١ ـ ١٩٤] .

حتى في ملحمة مؤلفة من أجل حفل كان مجد أعمال السلاح ، تتكشف آثينا أيضاً كربة حديدية . ولأن الحرب هي نشاط ذكوري بامتياز تشارك هي بها . لأنه ، كما قالت هي ذاتها : «في كل الأشياء يميل قلبي نحو الذكر ما عدا الزواج» [اخيل الاومنيدات ٧٣٦] .

ان النشيد الهوميري لأفروديت [١ ـ ٩] يعترف بأن ربة الحب لا سلطة لها علىٰ اثينا . وان هومر وهزيود يسميانها فالاس «الابنة» ، وفي آثينيا ، هي «العذراء» (بارتينوس Parthenos) . ولكن هذا هو نوع آخر من ربة عذراء غير ارتميز : لاتتحاشى الرجال ، ولا تقابلهم من مسافة ، إن آثينا ترتبط بصداقة مع اوليس وتحميه ، وتقدر عالياً قوة شخصيته وحكمته : انه الرجل «ذي الآراء العديدة» والوحيد الذي يقارن بزوس [الالياذة ٢ ، ١٦٩ ـ ٤٠٧ ، ٦٣٦] . وفي نسب الآلهة les Thegonie [٨٩٦] يقدرها هزيود «مساوية لأبيها بقوته وحكمته

النيرة» . ان آثينا هي الوحيدة بين الاوليمبيين التي لا والدة لها . وان النشيد الهوميري [١ - ٩] يذكر باختصار أن زوس حمل بها من رأسه الخاص ، غير ان هزيود هو الذي روى الاسطورة بكاملها : ابتلع زوس متيس Metis ، ربة الذكاء ، التي كانت حاملاً آنئذ ، وأتت أثينا للدنيا بخروجها عبر جمجمة أبيها . وقد لوحظ في هذه المشاهد اضافة متأخرة فالاسطورة الأصلية كانت اشارت بساطة لظهور آثينا في قمة جبل الأوليمب . ولكن اوتو Otto ، يشير ، لعنوان صحيح ، للصفة القديمة «المتوحشة» لقصة الابتلاع[٣٣] .

ومهما يكن من أمر أصلها ، فإن اسطورة الولادة العجيبة لأثينا تبرز وتؤكد علاقاتها الصميمية جداً بزوس . «انحني بالكلية صوب الأب» . بهذا تعترف في الاومونيدت [٧٣٦] . وفي الأوذيسة [١٣ - ٢٩٧] تسر الى اوليس : «من بين كل الآلهة افتخر بعقلي (métis)وكياستي» .

وفي الواقع ان العقل العملي هو صفتها الأكثر تميزا ، فأثينا ليست معلمة للحرف النسوية الممتازة ، كالغزل والنسيج ، فقط . انها بصورة خاصة ، «متعددة الفنون» ملهمة ومعلمة لكل انواع الأعمال المتخصصة . فمنها تعلم الحداد صنع سكة المحراث ، وصانعوا الفخار يدعونها : «تعالي إلينا يا أثينا ، ضعي يدك فوق افراننا[٣٤]» . انها هي مردفة الخيول ، وهي التي اخترعت «خطام الفروسية» وهي التي علمت استعمال العربات . وعندما يتعلق الأمر بالابحار ، وهو النطاق المحكوم بقانون بوزيدون ، فإن آثينا تكشف العقدة ، وفي ذات الوقت الوحيدة بعقلها العملي . بدئيا تتدخل في العمليات التقنية المتعددة في انشاء السفينة . ولكنها تساعد أيضاً ربان السفينة في قيادة زورقه بشكل سليم[٣٥] .

ومن النادر مصادفة مثال عما يمكن تسميته قداسة الاختراع التقني وميثولوجيا الذكاء . إن آلهة أخرىٰ تبرز الأشكال التي لا حصر لها من قدسية الحياة ، ومن الخصب والموت والمؤسسات الاجتماعية الخ . . . ان آثينا تكشف الصفة «المقدسة» ، أو الأصل «الالهي» لبعض المهن والإلهامات المطبقة للذكاء ، والفطنة التقنية ، والاختراع العملي وكذلك ايضاً المهارة للذات والصفاء في التجارب ،

والثقة في الترابط . واذن في عقلانية ، العالم . ويفهم كيف ان معلمة الذكاء التطبيقي Metis ستصبح في عصر الفلاسفة الرمز للعلم الالهي والحكمة البشرية .

وانْ افروديت تمثل أبداعاً ليس أقل بروزا للعبقرية الاغريقية ، ومع انها تقع علىٰ مستوى مختلف تماماً . فان الربة هي بالتأكيد من مصدر شرقي ، كما يشير الى ذلك بتأكيد التقليد [هيردروت ١ ـ ١٠٥ ـ بوزانياس [ـ ١٤ ـ ٧] .

ففي الالياذة ، ان أفروديت تحمي الطرواديين، واضافة لذلك فهي تمثل مشابهات مع الآلهات من نوع عشتار . مع ذلك فإن قبرص ، هي المركز لألوف التركيبات الايجي ـ اسيانية التي بدأت تحدد بدقة صورتها المميزة [الأوديسة ٨ ـ ٣٦٢] . ان عملية الهللينة Hell´enisation متقدمة إلىٰ حد ما في الالياذة [٥ ـ ٣٦٥] حيث أن هومر يعلنها كاتبة لزوس وديونيهDion´e وتتزوج من هيغستوس(٣٦) أما هزيود فقد احتفظ بنص أكثر قدماً عن ولادتها : الربة تولدت من بذرة مزبدة (ophros) خارجة من الأجزاء التناسلية لأورانوس الملقاة في البحر . وعليه فإن قصة خصي اله كبير ، هي كما رأينا [و . ٤٦] من مصدر شرقي .

وفي عبادتها تميز بعض العناصر الأسيوية (علىٰ سبيل المثال ، عبيد المعبد (leshierodules) إلىٰ جانب عناصر من البحر المتوسط (الحمامة) . من جهة اخرىٰ ، فإن النشيد الهوميري لأفروديت [ـ ٦٩] يمثلهاكمعلمةحقيقية للحيوانات الكاسرة «خلفها كان يمشي متملقاً الذئاب الغبراء والأسود ذات الوبر الرمادي والدببة والفهود السريعة النهمة للظباء» . ولكن سمة جديدة مميزة اضيفت لأفروديت : ان الربة ، «تلقى الرغبة في صدورهم ؛ وحينئذ يمضون ليتزاوجوا في ظلام الوديان الصغيرة» . ان افروديت تلقي الشهوة أكثر مما تلقيها بين البشر والآلهة . لقد «شدهت حتىٰ عقل زوس» ؛ فهي التي «جعلته يقترن بسهولة مع نساء الفانين ، بدون علم هيرا» [٤٠ ـ ٣٦ ـ المرجع] . وهكذا فإن النشيد الهوميري يطابق في الدافع الجنسي عنصر الوحدة للأنواع الثلاثة من الوجود : حيواني ، بشرى والهي . ومن جهة اخرىٰ بابراز الخاصية التي يتعذر انقاصها ،

واللا معقولة للشبق ، يؤكد النشيد المغامرات الغرامية لزوس (التي ستصبح من جهة اخرىٰ مكررة من قبل الآلهة ، والابطال والبشر ، واجمالا ، يتعلق ذلك بتبرير ديني للفعل الجنسي ، لأنه مثار من قبل افروديت ، حتىٰ الافراطات والافعال الجنسية الفاضحة ، يتوجب الاعتراف لها بأصل ديني وباعتبار أنها تحكم على المستويات الثلاث الكونية ، فإن افروديت هي في آن واحد ، سماوية (Asteria) وبحرية[andyomene/= خارجة من البحر(٣٧)] . وأرضية : تحت خطاها تغطى الطرقات بالورود ، وانها هي «العلة الأولىٰ» للخصب النباتي [آخيل ـ دانيد ـ ف ٢٤٠] . بيد أن افروديت لن تصبح مطلقا ربة الخصب بامتياز . انها تمجد وتدافع عن الحب الطبيعي والقران الجسدي . وفي هذا المعنىٰ ، يمكن القول ، انه بفضل افروديت ، وجد الاغريق الخاصية المقدسة للدافع الجنسي الأصلي . ان المنابع الروحية الثرة للحب ستحكم من قبل وجوه الهية اخرىٰ ، وفي المكان الأول ، من قبل ايروس . وعلى ذلك ، يكون حقا ان هذه الجنسية الغير عقلانية (والغير ممكن السيطرة عليها) والجامحة هي التي ستستثمر من قبل الكتاب والفنانين التشكيليين ؛ لدرجة ان «مفاتن افروديت» في العصر الهيلليني أصبحت الكليشيات الأدبية ، وجرت المحاولة للرؤية في هذا التفتح الفني تحت علامة افروديت إبطال صفة القداسة الجذرية للحب الطبيعي . وفي الواقع ، ان ذلك يتعلق بتمويه ، لا يمكن احتذاؤه ، غنى بالـدلالات ، كما نجده في عدد من ابداعات اخرى للعبقرية الاغريقية : فتحت مظهر الوهية طائش يتستر واحد من الينابيع الاكثر عمقاً للتجربة الدينية : كشف الجنسية بصفتها تصعيداً وسراً ، وسنصادف اشكالاً اخرىٰ من هذا النوع من التستر ، في تحليلنا لعملية ابطال صفة القداسة في العالم الحديث (القسم الأخير من هذا الكتاب) .

٩٥ ـ الأبطال :

ميز الشاعر بندار بين ثلاثة اصناف من الكائنات : آلهة ، أبطال ، بشر [الأولمبيين ٢] . وبالنسبة لمؤرخ الأديان ، فإن صنف الأبطال يطرح بالنتيجة عدداً

من المسائل : ما هو المصدر والبنية الانطولوجية للابطال الاغريق ، وفي أي مقياس ، هم قابلون للمقارنة مع نماذج أخرىٰ من المتوسطين بين الآلهة والبشر ؟ ، بحسب عقيدة القدماء قدر العالم ١ . رود E . Rohde أن الابطال «هم بدقة نسباء للآلهة من جهة وللبشر الفانين من جهة اخرىٰ . وفي الواقع ، انهم ليسوا شيئاً آخر سوىٰ أرواح البشر الموتى التي تقيم داخل الأرض ، وتعيش هنالك بخلود كالآلهة والتي تتقرب من هذه بالقوة[٣٨]» . وكالآلهة ، كان الابطال يكرمون بأضحيات ، ولكن الاسماء والاجراءات لهذه الأصناف كانت متباينة . وعلى العكس فإن المؤلف /غوترمان/ يعتمد الأصل الالهي للابطال : تماما كالشياطين ، يتحد الأبطال مع الآلهة (حسب الأوقات) أو (بصورة خاصة) بمعنىٰ كائنات الهية متخصصة بوظائف محددة .

وفي سنة ١٩٢١ عرض (ب ـ ر ـ فارفل) نظرية تسوية ، تمتعت أيضاً ببعض التقدير ، وحسب رأي هذا الكاتب ، فإنه ليس للأبطال جميعهم ذات الأصل ؛ وقد ميَّز من بينهم ستة أصناف : أبطال من مصدر إلهي أو شعائري أو أشخاص عاشوا حقيقة (محاربون أو رجال دين) وأبطال مخترعون من قبل الشعراء أو القصاص الخ . . . وأخيراً وفي كتاب غني وممتع [Gli eroi greci] صادر سنة ١٩٥٨ وصف مؤلفه أربربليش A . Brelieh «البنية المورفولوجية» للأبطال هكذا : انهم شخصيات لموتهم مكان خاصٍ ولهم علاقات صميمية بالمعركة ، أو المصارعة ، أو العرافة ، أو الطب أو مسارّة للبلوغ ، أو الأسرار ، وهم يبنون المدن ولعبادتهم صفة مدنية ، انهم اجداد لمجموعات متحدة بالدم و «الممثلين لنموذج محتذىٰ» لبعض النشاطات البشرية الأساسية . والأبطال اضافة لذلك مميزون بسمات خاصة لا بل غولية ، وبتصرفات شاذة تفصح عن طبيعتهم الفوق بشرية[٣٩] .

وفي عبارة موجزة يمكن القول إن الأبطال اليونان يتقاسمون نموذجاً وجودياً «أعلىٰ من الانسان ولكنه ليس الها خاصاً Sui generis» وهم يؤثرون في عصر بدئي وبدقة ذلك الذي يتلو النشكونية وانتصار زوس (ف ٨٣ ـ ٨٤) . ان نشاطهم يتحول بعد ظهور البشر ، ولكن في عصر البدايات عندما لم تكن البنى قد تثبتت

والمفاهيم قد اقيمت بما فيه الكفاية . وإن طرازهم الخاص كائن مشوه الصفة الغير مكتملة والمتضادة منذ عصر «الأصول» .

إن ولادة وطفولة الأبطال تتميز عن المألوف . فهم يتحدرون من الآلهة : ولكنهم يشتهرون بالحصول على «ابوة مزدوجة» (هكذا هرقل ـ مولود من زوس وامغتريون ؛ وتيزيه من بوزيدون وايجيه) أو ان ولادتهم غير نظامية (ايجيس ثمرة التحريم من تيست مع ابنته الخاصة) . إنهم أهملوا بعض الوقت بعد ولادتهم (اوديب ، بيرسيه ، زيوس الخ) . وتغذوا بلبن الحيوانات[٤٠] ، وامضوا شبابهم بالسفر في بلدان متباعدة وتفردوا بمغامرات لا حصر لها (بصورة خاصة امجاد رياضية وحربية) . واحتفلوا باعياد الهية بين الأكثر شهرة منها أعراس بيليه ، وتيتيس ونيوليه وجازون الخ . . .

ويتميز الابطال بشكل خاص بهم من الابداعية ، يمكن مقارنتها بابداعية الأبطال المحضرين للمجتمعات القديمة . تماما كالاجداد الاسطوريين الاستراليين ، يغيرون المشهد الطبيعي ومعنيون بأن يكونوا من « أهل البلاد » (السكان الأول لبعض الأقاليم) واجداد الاعراق ، والشعوب او العائلات (الأرجيون يتحدرون من أرجوس والاركاديون من آركوس الخ . . .) فقد اخترعوا ـ بمعنى « اسسوا ، كشفوا ، عدداً من المؤسسات الانسانية : قوانين المدينة ، وقواعد الحياة المدينية ، الزواج الاحادي ، التعدين ، الغناء ، الكتابة . . التعبئة الخ . . وهم أول من اخترع بعض المهن . انهم مؤسسو المدن بامتياز ، والشخصيات التاريخية الذين بنوا مستعمرات اصبحوا بعد موتهم ابطالاً[٤١] وزيادة على ذلك فإن الابطال أحيو الألعاب الرياضية ، وان واحدة من الاشكال المميزة لطقوسهم هي مسابقة المصارعة . وحسب أحد التقاليد ، كانت الالعاب الأربعة الكبرى مما قبل الهيلينية مكرسة للابطال قبل ان تعود لزوس (ان طقس المصارعة الأوليمبية ، على سبيل المثال ، كان يحتفل به على شرف بيلوبس pelops ، وهذا ما يفسر اعتبار المصارعين المنتصرين ابطالاً ومشهورين [٤٣] . ان بعض الابطال (أخيل تيسيه الخ) مشاركون في شعائر المسارة للمراهقين ، وعبادة الابطال تتم في المألوف من قبل المراهقين les epheles[٤٣] .

ان عدداً من مشاهد القصائد (الساغا) لتيزيه ، هي في الواقع تجاربه المسارية : وهكذا امتدادها الشعائري في البحر ، تجربة موازية لسفر في الآخرة ، وبدقة في القصر تحت البحر للنيردات desnereides ، الجنيات المفتخرات courolrophoe . وهكذا فإن دخول تيزيه في المتاهة ومعركته مع الغول (minotaure) هو نص نموذجي للمسارات البطولية ، وهكذا ، عملية اختطاف آريان ، فهي واحدة من مجموعة تجليات افروديت ، اكمل فيها تيزيه مسارته بواسطة تعدد الزيجات . وحسب رأي احد الباحثين هـ . جين مير) فإن الاحتفالات التي كانت تشكل التيزيا les theseia ستكون مستمدة من شعائر قديمة ، والتي كانت في عصر سابق تميز عودة المراهقين الى المدينة بعد اقامتهم المسارية في الريف[٤٣] . كذلك الأمر ، فإن بعض الفترات من خرافة آخيل تركت لتروى كتجارب مسارية : كان ربي من قبل الصنتورات les centoures ، أي أنه اعطي السر في الريف من قبل معلمين مقنعين masques أو متظاهرين تحت مظاهر حيوانية ، ولقد تحمل المرور في النار وفي الماء ، وهي تجارب تقليدية للمسارة ، وحتى انه عاش بعض الوقت بين الفتيات ، مرتديا ثياب فتاة ، متبعاً عادة مميزة لبعض المسارات القديمة من التطهير[٤٠] .

والابطال مشاركون في الاسرار ايضاً : فتريبوليم Tripoleme له مزار ، وايمولب Eumolpe له قبر ، في ايلوزيس (بوزانياس ١ ـ ٣٨ ـ ١٦ ـ ٤٣٨] . واضافة لذلك ، فإن عبادة الابطال متضامنة مع وساطات الوحي des oracles ، وعلى الاخص شعائر الحضن (الرخم) incubation التي ترمي للاشفاء ، (كالشاس ، امغياروس ، موبسوس الخ) . بعض الأبطال لهم اذن علاقات بالطب (وفي المكان الأول اسكليبوس) [٤٥] .

وثمة سمة مميزة للابطال هي موتهم . فبعضهم نقل استثناء الى جزر السعداء (على سبيل المثال مينيلاس) ، وفي الجزيرة الاسطورية لوسيه ، واخيل على الاوليمب) . أو يختفون تحت الارض (تروفونيوس ، امفياروس) ، ولكن الاكثرية الساحقة تتحمل موتا عنيفاً في الحرب (على سبيل المثال ، الابطال الذين تكلم عنهم هزيود ، المتساقطين أمام طيبة وطروادة) ، في معارك منفردة ، او

بخيانة (اغاممنون قتل من قبل كليتمستر ، ولايوس من قبل أوديب الخ) . وفي العديد من المرات يكون موتهم مأساوياً بصورة خاصة : اورفيه ، وبانتيه قطعوا اجزاء صغيرة ، وآكتيه مزق من قبل الكلاب ، وغلوكوس وديوميد وهيبوليت مزقوا بواسطة الخيول ، أو انهم افترسوا او صعقوا من قبل زوس (اسكليبوس ، سالمونوس ، ليكاون الخ » أو عضتهم افعى (اربيت سوبوس الخ) [٤٦] .

ومع ذلك ، فإن موتهم هو الذي أضفى وأعلن شرطهم الأعلى من الانسان . انهم لو لم يكونوا فانين لكانوا كالآلهة ، والابطال يتميزون عن البشر بواقعة انهم يستمرون في العمل بعد موتهم ، فجثث الأبطال مثقلة بقوى كبرى سحر ـ دينية ، ورفاتهم ونصبهم تؤثر على الأحياء خلال قرون طويلة . وفي معنى آخر يمكن القول ان الابطال يقتربون من شرط الألوهية بفضل موتهم : انهم يتمتعون بوجود تال غير محدود والذي ليس هو بدئي وليس هو روحي صرف وانما يتركب في استمرار حياة خاصة sui generis ، باعتبار أنه يتعلق ببقايا او برموز من اجسادهم .

وفي الواقع ، وخلافاً للعرف العام ، فإن جثث الابطال هي مدفونة في داخل المدينة ، وهي مقبولة حتى في المعابد (بيلوس في معبد زوس في الأوليمب ، ونيوبتوليم في معبد ابولون في دلفي) . ان قبورهم وانصابهم تشكل المركز لعبادة البطولة : اضاحي مترافقة بمنادب شعائرية ، طقوس حداد ، « جوقات مأساوية » ، (الاضحيات المنذورة للابطال كانت مماثلة لتلك المقدمة للآلهة الجهنمية ، وتتميز عن الاضحيات المقدسة للأوليمبيين ـ وكانت الاضحيات تذبح واعناقها نحو السماء بالنسبة للأوليمبيين ، ومنخفضة نحو الأرض بالنسبة لآلهة الجحيم والابطال ، وكان من المتوجب ان تكون الأضحية بيضاء بالنسبة للأوليمبيين ، وسوداء بالنسبة للأبطال وآلهة الجحيم ، وكانت الضحية تحرق بكاملها ولا يسوغ لأي شخص حي ان يأكل منها ، وان نموذج المذبح الأوليمبي كان المعبد الكلاسيكي ، فوق الأرض ، واحيانا على شيء من الارتفاع ، بالنسبة للأبطال وآلهة الجحيم ، وموقد في الاسفل ، ومغارة تحت الأرض او (اديتون a dyton) الذي ربما كان يمثل قبراً ، وكانت اضاحي الأوليمبيين تقدم في صباحات مشمسة ، أما اضاحي الابطال وآلهة الارض في الليل أو وسط الليل[٤٧] .

ان كل هذه الوقائع تبرز القيمة الدينية (للموت) البطولي ولجثث الابطال . فبوفاة البطل يصبح عبقرية ، حاميا يحمى المدينة ضد الغزوات والامراض وكل انواع الكوارث . ففي الماراتون يرى تيزيه يقاتل على رأس الاثينيين [بلوتارك - ٣٥ - ٥] وهنالك امثلة كثيرة اخرى ، ولكن البطل يتمتع ايضاً بخلود من نوع روحي ، وبدقة بالفخار واستمراية اسمه . انه يصبح ، هكذا ، لانقاذ اسمائهم من النسيان النهائي ولمتابعة الحياة في ذاكرة البشر . ان اضفاء البطولة على اشخاص حقيقيين - ملوك اسبارطة ، على المحاربين الذين سقطوا في الماراتون او في بلاتيه - تفسر بامجادهم الاستثنائية ، التي تفصلهم عن بقايا الأموات وتضعهم في صنف الأبطال[٤٨] .

لقد نقلت الينا اليونان الكلاسيكية ، وبخاصة العصر الهيلليني ، نظرة « رفيعة المستوى » عن الابطال . وفي الحقيقة ان طبيعتهم استثنائية ومتناقضة ، بل زائفة وضالة .

فالابطال يبدون انهم خيرون واشرار في آن واحد ، وهم يستجمعون الصفات المتناقضة . انهم غير محترمين (اشيل) ومع ذلك انتهوا بالاغتيال ، انهم يتميزون بقوتهم وجمالهم ولكن ايضا بسماتهم الشنيعة (قامة عملاق ، هرقل ، اخيل ، اوريسيت بيلوبس - ولكن ايضا ادنى بكثير من الوسط [٤٩]) . قابلون للمسخ حيوانات . . . بعضهم خنثى (سيكروب) او يغيرون جنسهم (تيريزيا) او يتنكرون بامرأة (هرقل) . واضافة لذلك فإن الابطال متميزون بالعديد من انواع الشذوذ (خلو من الرأس ، او تعدد الرؤوس ، هرقل يتمتع بثلاثة صفوف من الاسنان) . انهم على الاخص عرجان ، عوران ، أو عميان . ومرات كثيرة ، يسقط الابطال ضحايا الجنون (اوريست بيليروفون حتى الشاذ هرقل ، عندما ذبح الابناء الذين اعطاهم له ميجار mégare) . أما بالنسبة لسلوكهم الجنسي فهو حاد وطائش : فهرقل خصب في ليلة واحدة البنات الخمسين ليتسيبيوس Thespios ، وتيزيه ، اشتهر بالعديد من سطواته (هيلين آريان الخ » وأخيل اغوى ستراتونسي . ان الابطال يرتكبون المحرمات مع بناتهم أو امهاتهم ،

ويذبحون بغيرة او بغضب ، او في مرات عديدة بدون سبب ويقتلون حتى آبائهم او امهاتهم او اقربائهم .

ان كل هذه السمات المتناقضة والشنيعة ، وهذه الصفات الطائشة ، تذكر بليونة ازمان « الأصول » عندما لم يكن قد خلق بعد « عالم البشر » . . ففي هذا العصر الأولي ، كانت الفوضى والتعسفات من كل نوع (أي كل ما سيهجر بعد وقت متأخر ، كشناعة ، او ذنب او جرم) تستدعي مباشرة او بصورة غير مباشرة العمل الخلاق . مع ذلك فإنه بعيد خلقها ـ مؤسسات ـ قوانين ـ تقنيات فنون الخ . . . نشأ عالم البشر حيث ستحرم الجرائم والتجاوزات . وبعد الابطال ، في « عالم البشر » سيغلق نهائياً الزمن الخلاق للاساطير .

ان افراط الابطال لم يعرف حدوداً . فقد تجاسروا على اغتصاب حتى الربات (اريون وأكتيون هاجما ارتميز ، واكسيون هاجم هيرا الخ) ، ولم يترددوا ابداً امام العمل المدنس للقدسيات (اجاكس اعتدى على كاساندر قرب مذبح أتينا) واخيل صرع تروالوس في معبد ابولون) . ان هذه المخازي وتدنيس المقدسات تشير الى (نوع من الهجانة) لا حد لها ، وهي سمة مميزة للطبيعة البطولية [ف ٨٧ع] . ان الابطال يواجهون الآلهة كما لو أنهم متساوين معهم ، ولكن هجانتهم هي دائما وبقسوة ، عرضة للعقاب من قبل الأوليمبيين . ولا يوجد سوى هرقل الذي يظهر ان هجانته غير معرضة للعقاب (عندما يهدد مهاجمة الالهين هيليوس واوكينوس) . ولكن هرقل هو البطل الكامل (البطل الاله) كما يسميه بندار [النيميين ٢٢] ، وفي الواقع ، انه الوحيد الذي لا يعرف لا قبره ولا رفاته ، لقد انتصر على الخلود بانتحاره المؤله على المحرقة ، لقد تبنته هيرا وأصبح الها ، مقيما بين الآلهة الأخرى على الأوليمب . ويمكن القول بأن هرقل قد حصل على شرطه الالهي تبعاً لسلسلة من التجارب المسارية التي خرج منها منتصراً ، وبعكس جلقامش [ف . ٢٣ع]وبعض ابطال الاغريق ، الذين رغم هجانتهم الغير محدوده فشلوا في جهودهم بالوصول للخلود .

ان صوراً مشابهة للابطال الاغريق تصادف ايضا في أديان اخرى . ولكن ليس سوى في اليونان ، ان البنية الدينية للبطل عرفت تعبيراً على مثل هذا الكمال ، وانه ليس سوى في اليونان تمتع الابطال باحترام ديني مرموق وغزوا الخيال والتفكير ، واثاروا الابداعية الأدبية والفنية /٥٠/

حواشي الفصل الحادي عشر

١ ـ في بيلوس في عهد الاخيين ، كان بوزيدون يتمتع بوضعية دينية صرفة أعلى من وضعية زوس .

٢ ـ تذكر الالياذة في اول نشيد ان بوزيدون تآمر مع الآلهة على تقييد شقيقة .

٣ ـ L . palumer ـ ساسينين ومينوس ص ١٢٧

٤ ـ teagomie ـ ٩٢٧ ابولودور ـ وفي الالياذة (١ ـ ٥٧٨) فإن هينتوس يؤكد قرابته بزوس .

٥ ـ ماري ديلكور ـ هيتسنوس واسطورة الساحر ص ٤٢

٦ ـ في النزول في عرض البحر ، فإن تيزيه حصل على الخاتم والعرش السحري ـ من صنع هيفستوس الذي سمح بالدخول والخروج من المتاهة .

٧ ـ عنصر آخر مميز للتقاليد الشامانية والحدادين ـ السحرة : هيفتوس تعلم منه في مغارة الموت أو الفرن تحت الارض .

٨ ـ ر ـ ح الياد . ـ الأله الموصل ـ ورموز العقد . ص ١٢٠ .

٩ ـ الانشودة الهوميرية لابولون ٣٠٠ ابو لورود . ص ٤

١٠ ـ لقد انقذ الطفل الذي ستضعه اسكيليوس . وهذا الاخير اصبح طبيباً شهيراً وممثل التعليم الذي به اعادت ارتميس للحياة هيبوليت ـ وهذه الاعجوبة تعارض القوانين المثبتة من قبل زوس ملك الآلهة . وابولون ثأر بذبحه للسيلكوبوس الذين صنعوا الصاعقة . مذنب بجرم تجاه قبيلته (السيكلوب بصفتهم تيتان مثل ليوتو) وقد طرد ابولون خلال عام من بين الفانين ، وعمل كعبد من اجل آدميتوس .

١١ ـ ماري ديلكو ـ اعجوبة دلفي ص ٢١٥

١٢ ـ اقدم مراجعة توجد في قصيرة آلسيه حوال (٦٠٠ ق.م لمضت من قبل خطيب متأخر هيميربيوس في القرن السادس ق .م .

١٣ ـ مارتان نيلسون ـ فوللكوروديانته الاغريق ـ ٧٩٥
١٤ ـ ورد النص في المحاورة من الجمهورية رقم ٤٢٧ على لسان سقراط ـ ولم يبق علينا كشارعين شيء ، ولكن بقي لابولو إله دلفي ان يسن اشرف الشرائع واعظمها واسماها . . . ويقوى . . . في حال تأسيس دولة لا نقبلى شرفاً ، اذا عقلنا ، الاشرح اله البلاد ، لأن هذا الاله هو المفسر الاوحد لجميع الناس في مواضع كهذه ، جالسا في نقطة الكون المركزية (الجمهورية ـ افلاطون) .

١٤ ـ ١٥ كانت العادة تتطلب ان الفاعل ، حتى ولو بغير إرادته يقتل بواسطة الاسرة ، وكان هذا الاجراء هو الوحيد الممكن لاطفاء روح الضحية وابعاد القزارة الناتجة عن الجرم . قانون دراكون أدخل سلطة الدولة مكان الانتقام : ومحكمة المدينة . اصبحت هي التي تفصل في الحرم وتسلم المجرم بعدئذ لعائلة الضحية .
١٥ ـ الافعى الانثى delphyne ولدت من الأرض وتركت المكان لافعى ذكر .
١٦ ـ نوقش من قبل De lcout .
١٧ ـ التنبوء القديم البسيط في ظاهره ، كان له نموذج محترم : زوس كان اختار من بين المقدر لهم .

١٨ ـ بلوتارك ـ Pythie ـ ٧ .
١٩ ـ الشهادات الأولى المتعلقة بالهوة ترجع الى القرن الأول ق . م .
٢٠ ـ مراجع متعددة اشار اليها المؤلف .
٢١ ـ ر.ز اوتو ـ الهوميرية .
٢٢ ـ هذه المادة مؤكدة ايضاً عند عدد من الشعوب ذات العلاقة بالاسفار .
٢٤ ـ انظر المصادر المذكورة من قبل هوغوراهز ـ اساطير اليونان واسرار المسيحية من (١٣ ـ ٢١)
٢٥ ـ ٢٦ المراجع المشار اليها .

٢٧ ـ الاليازة ١ ـ ٥٦٧ ـ ٥٨٧ ـ ٧× ١٨ في المعيار الذي نستطيع ان نقرأ في مشاهد كهذه ذكرى الحقائق التاريخية ، ويتعلق بالتأكيد بعصر قديم جداً سابق لمجيء الأخينيين في الارخبيل ومما له دلالته هو الفعل الذي استطاع فيه هومر وانصاره التسلية بمثل هذه الترهات .
٢٨ ـ بوزانيان ٢ ـ ٣٦ ـ ٢ ـ الذي يذكر ايضا العبادات السرية لهير في ارغوس وهو ما يبدو استثنائيا (لروز) ص ١٢٠ .

٢٩ ـ صحيح ان آريس كان مكروها من كل الألهة التي تسميه مجنونا لأنه لا يعلم (ما هو الصحيح) (الالياذة ٧ ـ ٧٦١) ـ وزوس نفسه اعترف ان أي اوليمبي ليس مكروها ايضا لأنه لا يفكر الا بالحروب والمعارك .

٣٢ ـ ابولودور ص ٢١ ـ ٨٧ ـ ٣

٣٣ ـ الألهة الهوميرية ص ٥١ ـ هومر لم ـ يجرتورية لهذه الاسطورة كما مرت من جهة اخرى بكتمان تاريخ كرونوس ولكنها تدعو اتينا ابنة الأب .

٣٤ ـ الهجاء الهومري ـ

٣٥ ـ m, Deteeme (ستينة اتينا)

٣٦ ـ ليس سوى بعد وقت متأخر اصبح اريس اله الحرب زوجها (الادوديسة ٨ ـ ٢٦٦ ـ ٣٦٦ ـ انه حبيبها .

٣٧ ـ الصدفة رمز في آن واحد مائي وجنسي ويشكل جزءاً منهاهيراتها.مقس اخقفص

٣٨ ـ ياريس تغذي بحليب دبة ـ وهيفستوس عن طريق غزالة الخ . . . وهذا الباعث المساري منتشر جداً (ف . ١٠٥ع)

٤٢ ـ مثل فليفوريد في الالعاب الاوليمبية وبساياناس [٤٩٦]

٤٣ ـ

٤٤ ـ ولادات اسطورية H leun,qis ص ٢٢٩

٤٥ ـ ٤٦ ـ انظر الوثائق عند ص١٠٦

٤٩ ـ اليونان وآلهتهم ـ والياد . ص ١٨

٥٠ ـ السلافات المتأخرة للبطل سيتم تحليلها في آخر قسم من هذا الكتاب .

الفصل الثاني عشر

اسرار ايلوزيس*

٩٦ ـ الاسطورة : بيرسفونة في مقر نفوس الاموات.

« ان مؤلف نشيد ديميتر كان قد هتف ، سعيد من الناس من هو حي على الأرض التي رأت هذه الأسرار ، ولكن من لم يتلق السر ولم يساهم بالشعائر ، فليس له بعد الموت ، شيء من الطيبات هنالك في ظلمات مستقره » [ر . ٤٨ - ٤٨٢] .

* ايلوزيس ـ بلدة من الأتيك : (مقاطعة من اليونان القديمة إلى الشمال الشرقي من البيلوبونيز إلى الشمال الغربي من آثينا التي كان يوجد فيها معبد cere s ديمتر حيث كانت تقام احتفالات سرية شهيرة .

ان النشيد الهوميري لديميتر يقص في آن واحد الأسطورة المركزية للربتين، وتأسيس اسرار ايلوزيس . فقد اختطف بلوتون = (هادس) إله مقر نفوس الأموات ، اختطف كوريه = (بيرسفونه) ابنة ديمتر بينما كانت تقطف الزهور في سهل نيز Nyse . واستمرت ديميتر تبحث عنها تسعة أيام ، لم تذق خلالها طعام الألهة (الرحيق) l' ambroisi . واخيرا ، يعلنها هليوس Helios بالحقيقة : زوس هو الذي قرر تزويج كورية koré من شقيقه بلوتون ، ولم تعد ديميتر المثقلة بالحزن والمستشاطة غضباً من ملك الألهة ، لم تعد الى الأوليمب ، وتحت مظهر امرأة عجوز ، توجهت صوب ايلوزيس وجلست بالقرب من بئر العذارى . وبناء على اسئلة بنات الملك سيليه Célée ، اعلنت الربة ان اسمها كان دوسو Doso وأنها جاءت هرباً من اللصوص الذين جروها بالقوة من كريت . لقد قبلت الدعوة لتغذية الوليد الأخير للملكة ميتانير Métanaire . ولكنها بدخولها القصر ، جلست الربة على مقعد وبقيت صامتة لفترة طويلة ، ماسكة بالحجاب امام وجهها . واخيراً نجحت احدى الخادمات ايامبيه Iambé بأن تجعلها تضحك بدعاباتها الثقيلة . . وقد رفضت ديميتر تناول كأس الخمر الأحمر المقدم اليها من ميتانير وطلبت Cyreom ، الخليط المصنوع من برغل الشعير ، والماء ونعنع الحقل . ان ديميتر لم ترضع ديموفون Démophon ولكنها دلكته بالرحيق (طعام الألهة Ambroisi ، واثناء الليل اخبأته كجمرة في النار . وأخذ الطفل يشبه اكثر فأكثر الها : وفي الواقع ، ان ديميتر قد ارادت ان تجعله خالداً وشابا للأبد . ولكن ميتانير اكتشفت في احدى الليالي ان ولدها في النار وبدأت تنتحب فصرخت ديميتر « أيها الناس ، الجهلة ، الغافلون الذين لا تعرفون ان تروا قدركم لساعة ولا تعاستكم » . ومنذئذ لن يستطيع ديموفون ان ينجو من الموت . عندئذ انكشفت الربة بكل تألقها وعظمتها ، وانطلق من جسدها نور مبهر . فطلبت ان يقام لها (معبد كبير) وتحته مذبح ، حيث انها بذاتها ستلقن شعائرها للبشر ، ثم تركت القصر بعدئذ .

وما أن بني المعبد حتى انكفأت ديميتر للداخل كاملة برغبة ابنتها . وعندئذ اثارت جفافاً مرعباً ، اجتاح الأرض . وعبثاً ارسل زوس رسله راجياً منها العودة

لما بين الآلهة ، وقد اجابت ديميتر انها لن تضع قدمها على الأولمب ، ولن تترك العشب ينمو قبل ان ترى ابنتها ، وكان زوس مكرها على الطلب من بلوتون لأن يأتي ببيرسفونة وخضع سيد الجحيم للأمر . ومع ذلك نجح في ان يدخل في فم برسفونة بذرة من حبة الرمان واكرهها على ابتلاعها ، الأمر الذي حدد العودة السنوية لبيرسفونة ، خلال اربعة أشهر ، بالقرب من زوجها (١) ، وبعد ان وجدت ديميتر ابنتها رضيت بعودة الانضمام للآلهة ، وعادت الأرض باعجوبة لتغطى بالخضرة . الا انها قبل ان ترجع إلى الأوليمب كشفت الربة شعائرها وعلمت اسرارها الى تريبتوليم ، وديوكليس وايمولوبس وسيليه « الشعائر العليا التي لا يمكن انتهاكها او اختراقها او تحويرها : احترام الربات قوي يوقف الصوت » [٤١٨ - ترجمة ح - هيوبرت]

ان النشيد الهوميري يقرر نموذجين من المسارة ، وبدقة اكثر ، إن النص يفسر بناء اسرار ايلوزيس في آن واحد باجتماع الربتين وكأثر لسقوط التخليد لديموفون . ويمكن مقارنة تاريخ ديموفون بالأساطير القديمة الراوية للخطيئة المأساوية التي ، في احدى فترات التاريخ الأولي ، الغت امكانية تخليد الانسان . الا انه في هذه الحالة ، لا يتعلق بالخطأ أو /بذنب/ احد الأجداد الاسطوري ، المضيع ، بالنسبة له ولذريته ، شرطه الأول للخلود ، فديموفون لم يكن شخصية بدئية ، لقد كان المولد الأخير للملك . ويمكن تفسير قرار ديميتر بتخليده كما لو انها رغبة « بتبني » ولد « الذي قد يعزيها عن فقدان بيرسفونة » وفي ذات الوقت كما لو انه انتقام ضد زوس والأوليمبيين . لقد كانت ديمتر على أهبة تحويل انسان لاله . ولقد كان للربات هذه القدرة بمنح الخلود للبشرية ، والنار ، أو شواء الحدث neophte كانت تحتسب من بين الوسائل الاكثر انتشاراً . ان ديميتر وقد فاجأتها ميتانير لم تخف احباطها تجاه غباء الانسان . ولكن النشيد لا يدع أية اشارة لظرفية التعميم لهذه التقنية من الخلود ، أي لبناء مسارة قابلة لتحويل البشر إلى آلهة بواسطة النار .

وقد كشفت ديميتر هويتها بعد خيبتها بتخليد ديموفون فأمرت بأن يبنى لها معبد ، ولم تعلم الشعائر السرية الا بعد ان وجدت ابنتها . ان المسارة من نوع

صوفي تميزت بوضوح عن تلك التي قطعتها ميتيانير . فالمتلقن باسرار ايلوزيس لم يحصل على الخلود . وان ناراً كبرى اضاءت بعض الوقت معبد ايلوزيس . ولكن مع انه تعرف بعض امثلة من تحريق الموتى ، فقد يمكن ترجيح ان النار كانت تلعب دوراً مباشراً في المسارات .

ان القليل الذي نعرفه عن الحفلات السرية يدل على ان السر المركزي كان يدخل حضور ربتين . وبالمسارة كان الشرط البشري يتحول ، وانما في معنى آخر غير معنى التحول المحبط لديموفون . وتصر النصوص النادرة القديمة التي تنعكس مباشرة على الاسرار على السعادة الاخروية Postmortem للمسارين . كما ان العبارة : « سعيد من البشر . . . . » من نشيد ديميتر يرجع كلازمة . فقد هتف بندار « سعيد من رأى هذا قبل ان يمضي تحت الأرض !» . «انه يعرف نهاية الحياة ! وانه يعرف ايضاً البداية ! . . . » [ترينوا فقرة ١٠] . « أيها السعداء ثلاث مرات ، الذين انتم من الفانين ، بعد ان تأملتم هذه الاسرار ، ستذهبون لعند هادس ، انتم وحدكم ستستطيعون العيش هنالك ، وبالنسبة للآخرين كل شيء سيكون عذابا ومعاناة » [سوفوكليس ٧١٩ ـ ديندورف ٣٤٨ ـ ديدو] . وبعبارات أخرى وعلى اثر الاشياء التي رؤيت في ايلوزيس فإن روح الملقن بالاسرار ستتمتع بعد الموت بوجود سعيد . انها لن تصبح ابداً الظل التعيس والمتساقط ، دون ذاكرة او حيوية ، ومرتاعة بالابطال الهوميرية .

ان نشيد ديميتر لم يفعل شيئاً سوى الاشارة للزراعة ، مؤكداً ان تريبتوليم هو أول ملقن بالاسرار . وعليه ، وطبقاً للتقليد ، فإن ديميتر قد ارسلت تريبتوليم ليعلم الزراعة للاغريق . وقد فسر بعض الكتاب الجفاف الرهيب كنتيجة لسقوط بيرسفونة في مقر الأموات ، وهي ربة النبات . ولكن النشيد يؤكد بأن الجدب قد اثير من قبل ديميتر بعد زمن طويل ، وبالدقة عندما انزوت في معبدها الذي اشيد لها في ايلوزيس . ويمكن الافتراض مع والتر اوتو Walter otto بأن الاسطورة الأصلية تكلمت عن زوال النبات ، ولكن ليس القمح ، لأنه قبل اختطاف بيرسفونة لم يكن قد عرف القمح بعد . ان العديد من النصوص والآثار المصورة تؤكد ان القمح قد انتج من قبل ديميتر بعد مأساة بيرسفونة . وعليه يمكن اذن حل

الرموز هنا لاسطورة قديمة تفسر خلق الحبوب بموت ربة الهية (ف ١١ ع) . ولكن بيرسفونة بمشاطرتها في شرط الخالدين الأوليمبيين ، لا يمكن لها ان « تموت » مثل الألهات من طراز ديما dema او كالهة النبات . ان السيناريو الاسطوري - الشعائري القديم ، الممدد والمطور باسرار ايلوزيس ، قد أعلن عن تضامن النظام الاسطوري بين الزيجة المشتركة ، والموت العنيف ، والزراعة والأمل بوجود سعيد فيما بعد القبر [٢] وفي آخر المطاف ، فإن الخطف - بمعنى الموت الرمزي - لبيرسفونة كان له نتائج بارزة بالنسبة للبشر . فمنذئذ سكنت موقتا ربة اوليمبية محسنة مملكة الموتى . ولقد حذفت المسافة التي لا يمكن اجتيازها بين الهادس والأوليمب . وكانت كوسيطة بين العالمين الالهيين تستطيع منذئذ التدخل في مصير الفانين . وباستعمال عبارة اثيرة لدى اللاهوت المسيحي يمكن القول felix eulpa « الخطيئة السعيدة »*! تماما كالتخليد المصاغ لديموفون الذي استدعى التجلي المبهر لديميتر وبناء الاسرار .

٩٧ - المسارات : حفلات عامة وشعائر سرية.

حسب التقليد ، فإن أوائل سكان اوليزيس كانوا من تراقيا Thraea : ومن احدث الحفريات الاثرية امكن اعادة تكوين الجزء الأكبر من تاريخ المعبد . وايلوزيس تبدو أنها قد استعمرت حوالي ١٥٨٠ - ١٥٠٠ ق.م . ولكن المعبد الأول (غرفة مع عمودين داخليين يحملان السقف) قد انشيء في القرن الخامس عشر ، وفي القرن الخامس عشر ايضاً انعشت الأسرار .

---

* Felix culpa - كلما نقلت من عظة للقديس اوغسطين في نشيد ينشد في السبت المقدس . وسانت اوغسطين يشير بهذا تورية لسقوط الآباء الأول الذي قدره المخلص وخلص منه الابناء .
(معجم اللاروس)

وقد احتفل بالأسرار في ايلوزيس خلال ما يقرب من الفي عام ، ومن الراجح جداً ان بعض الحفلات قد تحورت خلال مجرى الزمان . فالصياغات واعادة الصياغات المنجزة منذ عصر ريزيسترات Risitrat تدل على الاندفاع والتقدير المتنامي للعقيدة . ان الجوار وحماية آثينا قد اسهمتا بالتأكيد في اقامة الاسرار حتى في مركز الحياة الدينية الماقبل هيلينيه . وتنعكس الشهادات الأدبية والتصويرية ، خاصة في المراحل الأولى من المسارة ، التي لم تكن تتطلب السر ، وهكذا استطاع الفنانون تمثيل مشاهد ايلوزيسية على الأواني والنقوش الضئيلة البروز . وقد اشار ارسيتوفان في (الضفادع ٣٢٤) لبعض المشاهد من المسارة . وهذه قد لاءمت عدة درجات .

ويجري التمييز بين الاسرار الصغيرة وطقوس الاسرار الكبيرة les te´lete´ والتجربة النهائية l'époptela وان الاسرار الحقيقية deste´lete´ للتيليتيه والأوبوبتيا lépoptia لم تغشَ ابدا .

الاسرار الصغيرة كانت يحتفل بها عادة مرة واحدة في السنة ، في فصل الربيع ، خلال اشهر انتيستيريون Anthestrion . وكانت الاحتفالات تجري في اغرا agra ، مدينة صغيرة تابعة لاثيناوتشتمل هذه الاحتفالات على مجموعة من الشعائر (صيام تطهير / ضحيات ، وتتم تحت ادارة معلم الاسرار mgstagogue . ومن الراجح ان بعض مشاهد اسطورة الربتين كان يعاد اجراؤها من قبل التائقين للمسارة ، كذلك ، مرة في السنة في شهر Boedromion (ايلول - تشرين) كان يحتفل بالاسرار الكبرى . وقد كانت الحفلات تدور خلال ثمانية أيام ، و« كل من لهم ايدي نظيفة » ويتكلمون اليونانية ، ومن بينهم النساء والعبيد ، لهم حق المشاركة فيها ، بالتأكيد اذا كانوا قد اكملوا الشعائر الأولية في الربيع في أغرا .

في اليوم الأول ، كان يجري العيد في اليزينيون اثينا Eleusiniony, Athénes . حيث كانت الأشياء المقدسة تنقل في المساء احتفاليا من ايلوزريس ، وفي اليوم الثاني يتجه الطواف صوب البحر . وكان كل تائق للمسارة ، مصحوباً بوصييه يحمل معه خنوصاً (خنزيرا صغيراً) فيغسله بالأمواج ويضحي به مع

العودة لأثينا وفي اليوم التالي ، وبحضور ممثلين عن الشعب الأثيني والمدن الأخرى ، يقوم الأرخون بازيلوس l'Archon Bawsileus وزوجته بانفاذ الضحية الكبرى . وكان اليوم الخامس يميز ذروة الاحتفالات العامة . تطواف ضخم ينطلق مع الفجر ، من اثينا وكان المهتدون الجدد neophyte وأوصياؤهم وعدد من الاثينيين يرافقون الكاهنات اللواتي يحملن الاشياء المقدسة leshiera . وحوالي نهاية بعد الظهر يكون التطواف قد اجتاز جسراً على الكيفيسوسkephisios، حيث كان يطلق رجال مقنعون الشتائم ضد المواطنين الاكثر اهمية(٤) ومع قدوم المساء ، كان حملة المشاعل المتقدة والحجاج يخترقون الساحة الخارجية للمعبد . وكان قسم من الليل مكرس للرقصات والأغاني على شرف الربات وفي اليوم التالي كان المرشحون يصومون ويقدمون الاضاحي ، أما بالنسبة للشعائر المقدسة (teléte) فقد وصلت الينا كافتراضات . وكانت الحفلات التي تجري امام وداخل مكان اجراء (التيليتيه) المسمى (تيليتيديون) تتعلق على الارجح بأسطورة الربتين . ومعلوم أن متلقي الأسرار mystes والمشاعل في ايديهم ، كانوا يحتذون جولة ديميتر وهي تفتش عن ابنتها كوريه Kore ، على ضوء المشاعل الموقدة .

وسنذكر الجهود الجارية من أجل اختراق سر التيلتية destéletes . ونضيف ان بعض الحفلات كانت تقتضي اللوغومينا deslogomena ، تعبيرات مختصرة ، طقسية ودعائية لم نتعرف عليها ، ولكن أهميتها كانت معتبرة ، وهذا هو السبب الذي من أجله كانت المسارة محظورة على من لا يتكلم اليونانية . ولا نكاد تعرف شيئاً عن الشعائر المنجزة خلال اليوم التاني المنقضي في ايلوزيس . ومن الراجح انه خلال الليل كان هنالك مجال لزروة العمل من المسارة ، النبوءة القصوى l,epoteia ، المقبولة فقط من اولئك الذين كانوا تلقوا المسارة منذ سنة ، وكان اليوم التالي مكرساً بصورة خاصة للشعائر والذبائح من أجل الموتى وفي الصباح - تاسع وآخر يوم من الاحتفال - كان متلقو لاسرار mystes يعودون الى آثينا .

٩٨ - هل يمكن معرفة الأسرار ؟

في جهود العلماءالرامية لمعرفة سر التيليتيه والايبوبيتا ، استعمل هؤلاء العلماء ليس أوهام الكتاب القدامى فحسب ، بل وايضاً بعض المعلومات المنقولة

من قبل المنافحين عن النصرانية lesapologistes المسيحيين ، فتعليهات هؤلاء الاخيرين يجب لها ان تدرس ببصيرة ، ومع ذلك ، لا يمكن تجاهلها . ومنذ فوكارت Foucart كثيراً ما جرى التمسك بمقطع من التيمستيوني Themistion ، ذكره بلوتارك وحفظ من قبل ستوبيه Stobee ، والذي قورنت فيه تجارب الروح ، مباشرة بعد الموت بتجارب الملقن بالاسرار الكبرى : في البدء ، يتوه هذا في الظلمات ، ويعاني كل انواع الرعب ، ثم ، وفجأة ، يصطدم بنور خارق ويكتشف مستقرات طاهرة ومروجاً ، ويسمع اصواتاً ويشاهد رقصات . وينضم المتلقن بالاسرار ، والتاج على رأسه الى (رجال طاهرين وقديسين) . وهو يتأمل الغير ملقنين المتكومين في الوحل والضباب ، والمقيمن في تعاستهم بالخوف من الموت وبخيبة املهم من السعادة في الآخرة (ستوبيه ١٧ ـ ص ١٠٧ مينيك) . وقد قدر فوكار ان الشعائر dromena كانت تتطلب بالتماثل مسيرة في الظلمات ، وظهورات مختلفة مرعبة ودخول مخابىء للمريد في مرج منور . غير ان الشهادة من تميتيوس Themiotios متأخرة وهي تعكس مفاهيم اورفيه على الأكثر . وان التنقيبات في معبد ديميتر والتيليستريون telestesion قد اظهرت أنه لم يكن يوجد هنالك غرف تحت الأرض ليستطيع متلقوا الاسرار النزول اليها شعائريا للجحيم . /٧/ .

وقد جرت كذلك اعادة تكوين الشعيرة المسارية بدءاً من العبارة السرية سنتيها lesynthema أو كلمة النظام للمريدين ، المنقولة من قبل كليمنت السكندراني clementd alxendrea «لقد صمت وشربت السيسيون Cyseon؛ اخذت السفط ، وبعد ان عالجتها بيدي ، وضعتها في السلة ثم ، أعدت اخذ السلة ، واعدت وضعها في السفط ، » إن بعض الكتاب يقدرون أن الموضوعتين الأوليتين وحدهما تنتميان الى الصيغة الأولوزينية . انها ترجع في الواقع ، على مشاهد معروفة جداً . صيام ديميتر وشرب السسيون Cyseon . وان الباقي من العبارة السرية سنتيها هو لغز غامض . وقد اعتقد عدد من العلماء بامكانية تشابه محتوى السفط والسلة : سيكون هذا اما ترجمة للرحم matrice ، واما لعضو الذكر phallus ، وإما أفعى واما فطائر ((gateaux)) بشكل الاعضاء الجنسية . وإن أية

فرضية هي غير مقنعة . وقد يمكن أن تكون الأوعية محتوية على اشياء رفاتية objet relique من العصور القديمة ، متكافلة برمزية جنسية مميزة للثقافات الزراعية . الا ان ديميتر كانت قد كشفت في ايلوزيس بعداً دينياً آخر غير ما اظهرته في ديانتها للعامة . ومن جهة اخرى ، فإنه من الصعب القبول بأن شعيرة مماثلة كانت قد تمت ايضا بواسطة الاطفال الذين على أهبة ان يتلقوا المسارة . ومن جهة اخرى ، اذا فسرنا الشعيرة التي اشارت اليها (السنتيها) بالرمز لولادة او عودة الولادة تلقينيا ، فإن المسارة يتوجب لها ان تتم في تلك الفترة . وفي هذه الحالة ، يفهم بشكل سيء المعنى ، والضرورة والتجربة النهائية ، الايبوبتيا . وعلى كل حال فإن الشهادات المتعلقة بالمقدسات hiero المستورة في الآنية تدل على تمثيلها الاحتفالي وليس على استعماله . وعليه يكون من الراجح . بأن السنتيها تنعكس على احتفالات مؤكدة بعد زمن متأخر جداً ، في العصر الهللنستيك على شرف ديميتر [مينولاس ص ٣٠٠ وماسنية ٣٥] وقد افترض ان متلقي الاسرار (المريدين) كانوا يشاركون في وجبة مختصة بالاسرار المقدسة ، وهذا امر مقبول . وفي هذه الحالة ، فإن الوجبة كانت تحصل في البداية ،

بعد شرب السيوم آي قيل التيليتيه téleté بمعنى الكلمة . وثمة شعيرة أخرى قد كانت تراجعت بدءاً من اشارة بروكلوس proclus (تيماوس ، ٢٩٣ س) : كان المريدون ينظرون صوب السماء ويهتفون (امطر ! pleus وينظرون إلى الأرض ويهتفون « أحملي conçois وهيبوليت يؤكد [فلسفة ٥ ـ ٧ ـ ٣٤] أن هاتين الكلمتين كانتا تشكلان السر الاكبر من بين الاسرار ، انه يتعلق بالتأكيد بعبارة شعائرية مرتبطة بالزواج المختلط hieros gamos المميز لعبادات الزراعة ، ولكنها اذا كانت قد قيلت في ايلوزيس ، فإنها لم تكن سرية ، لأن الكلمات ذاتها كانت تصور في نقش على بئر بالقرب من باب (ديبيلون) في آثينا .

ان معلومات جرابة لحد ما قد نقلت الينا من قبل الاسقف استيريوس Asterios فقد عاش حوالي عام ٤٤٠ في وقت أصبحت المسيحية فيه الدين الرسمي للامبراطورية . ومما يرد قوله هنا ان الاسقف لم يعد يخاف تكذيبات

الكتاب الوثنيين . ان استيروس تكلم عن ممر تحت الأرض مغموس في الظلمة ، حيث كان يوجد مكان للقاء احتفالي بين الهيروفانت Le hierophante (الكاهن الذي كان يرأس اسرار ايلوزيس) وبين الكاهنة وتكلم عن المشاعل التي تطفأ وعن « الجمهور الواسع الذي يعتقد ان خلاصه يرتبط بما يفعله الاثنان في الظلمات »(٨) ولكنه لم تكتشف أية غرفة تحت الأرض في التيليستريون ، مع ان الحفريات قد وصلت الى الصحن من كل الجهات . ومن الراجح ان الاسقف استيريوس يرجع إلى الاسرار المنجزة ، في العصر الهلنستي ، في الأوليزيون في الاسكندرية . وعلى كل حال اذا كان الزواج المختلط قد وجد حقيقة ، فإنه يفهم بشكل سيء أن كليمنت ـ بعد ان تكلم عن ايلزويس ـ قد دل على المسيح وكأنه « الهيروفانت الحقيقي » .

وفي القرن الثالث افرغ هيبوليت في الملف خبرين آخرين [فيلوزوفومينا ٧ ـ ٣٨ ـ ٤١] فقد أكد بأنه كان يجري اظهار سنبلة من القمح « في احتفال صامت » للايبوبت lauxepoptes* ويضيف هيبوليت إنه « أثناء الليل وفي نار متقدة لتكريس الاسرار الكبرى التي لا يمكن التعبير عنها ، يصرخ الهيروفانت : « القديسة بريمو حملت بطفل قديس ، بريموس ! » ، أي : القوية أولدت قويا » . ان التقديم الرسمي لحبة قمح يبدو موضع شك ، لأن متلقي الاسرار كانوا معنيين بأن يحملوا معهم سنابل من القمح . وبأكثر من هذا ان سنابل القمح توجد منقوشة على العديد من آثار ايلوزيس ذاتها . وبالتأكيد ان ديميتر كانت ربة القمح وان تريبتولم كان حاضراً في السيناريو الاسطوري ـ الشعائري لايلوزيس غير انه من الصعب الاعتقاد بأن الكشف لسنبلة طرية كان يشكل واحدا من الاسرار الكبرى l'epopteia، الا اذا قبلنا تفسير (والتراوتو) W - otto ، الذي يتكلم عن معجزة مميزة لاسرار ايلوزيس : « سنبلة القمح التي تنمو وتنضج بفجائية خارقة للطبيعة مكونة جزءاً من اسرار ديميتر تماما كالدالية النامية خلال بضع ساعات والتي تشكل جزءاً من اعياد ديونيزوس » ، ومع ذلك يؤكد هيبوليت ان السنبلة المقطوعة المعتبرة من قبل الفريجين Phryygienes هي ايضا كسر مستعار بعد زمن من قبل الاثينيين .

* ـ المحتفلين بالامبوتبيا

ومن الممكن اذن ، ان يكون الكاتب المسيحي قد اسقط على ايلوزيس ما عرفه من أسرار آتيس Attis (اله حسب قول هيبوليت كان يدعي من قبل الفريجيين (سنبلة القمح الطرية) .

أما بالنسبة إلى لفظتي بريمو وبريموس فإنهما على الأرجح من مصدر تراقي thrace فبريمو تعني بصورة خاصة ملكة الأموات : وبالنتيجة ، فإن اسمها يمكن ان يطبق على كوريه Koré وعلى هيكاتيه Nékaté كما يطبق على ديميتر . وحسب كيرني Kerenyi ، فإن الكاهن الأكبر الهيورانت) كان يعلن ان ربة الموت قد حملت بطفل في النار[٩] وفي كل الأحوال ، يعرف أن الرؤية النهائية l'epopteia ، كانت تنجز في نورمبهر . وان عدداً من الكتاب القدامى قد تكلموا عن النار التي كانت تشتعل في المبنى الصغير Anaktorn والتي يتصاعد لهيبها ودخانها من فتحة في السقف ، ويظهر أنها لمسافة بعيدة . وتذكر ورقة بابيروس من عهد هادريان ان هرقل كان يتوجه الى كبير الكهنة قائلا : (تلقنت السرمنذ زمن طويل ـ أو سلفاً [رأيت] النار . . . . ورأيت كوريه [كيرنيه ص ٩٣ ـ ٨٤] وحسب قول البوللودور الآتيني، عندما كان الهيروفونت يدعو كورية، كان يطرق على صنج gong من البرونز ، ويفهم من النص ان مملكة الموت كانت تنفجر . [و . اوتو ص ٢٧]

٩٩ ـ « اسرار » و« خفايا » .

يمكن القبول بأن ظهور برسفونه ولقاءها مع والدتها كان يشكل المشهد المركزي للايبوتيبا l'epopteia ، وان التجربة الدينية الحاسمة كانت تثار حقاً بحضور الربات . ولا تعرف كيف كان يتحقق هذا الاجتماع وما سيتم بعدئذ . كذلك فإننا نجهل لماذا ان رؤية كهذه كانت معنية بتغيير جذري للحالة التالية للملقنين بالاسرار . الا أنه لا يمكن الشك بأن المريد (الايبوبت) l'épopte كان يرى (سراً الهيا) ما يجعله اليفا للربات ، ولقد كان إلى حد ما « متبنى adapte » من قبل الآلهة الايلوزينية[١٠] .

إن المسارة كانت تكشف ، في آن واحد ، القربى مع العالم الالهي والاتصال بين الحياة والموت . انها ، أفكار ، بكل تأكيد ، كانت موزعة بين كل الأديان القديمة ذات النمط الزراعي ، ولكنها مبعدة من قبل الدين الأوليمبي . وان الكشف للاتصال السري بين الحياة والموت كان يصالح المريد مع حتمية موته الخاص .

إن الملقنين باسرار ايلوزيس لم يكونوا يشكلون « كنيسة » ولا تجمعاً سرياً يمكن مقارنته بخفايا العصر الهيلنستي . وبالعودة اليهم ، فإن الملقنين والمريدين استمروا بالمشاركة بالطقوس العامة . وفي الواقع ، ليس سوى بعد الموت ، أن المسارين كانوا يتواجدون سوية ، منفصلين عن الجماعة من غير المسارين . من هذه الوجهة النظر يمكن اعتبار الاسرار الايلوزينية بعد بيزيسترات pisistrate ، كنظام ديني أكمل الديانة الأوليمبية والطقوس العامة ، بدون ان يعارض مطلقاً المسارات الدينية التقليدية للمدينة . ان المساهمة الأساسية لايلوزيس كانت من نظام تخليص soteriologique ومن أجل هذا فإن الاسرار قد تمت الموافقة عليهاوتم تبنيها من قبل إثينا .

لقد كانت ديميتر الأكثر شعبية بين الربات المحترمات في كل الأقاليم والمستعمرات اليونانية . وكانت ايضاً اكثرها قدما . وحسب علم الهيئة morphalogiquement فإنها كانت امتداداً للربات الكبرى للعصر الحجري - النيوليتيك . ان الأقدمين قد عرفوا اضافة لذلك اسراراً أخرى لديميتر ، وكان اكثرها شهرة اسرار اندانيا Andaniaوليكوسورا lykosura . ونضيف ان ساموتراس samothrace . مركز مساريّ بالنسبة البلدان الشمالية - تراقيا ، مقدونيا ايبير - كانت مشهوراً بالنسبة لاسرار الكابير Les mystéres des kabires وانه منذ القرن الخامس كان يحتفل في آثينا باسرار الاله التراقي - الفيجي سابازيوس Sabazios أول العبادات الشرقية التي اخترقت الغرب . وبعبارة أخرى فإن اسرار ايلوزيس بالرغم من تقديرها الذي لا مثيل له ، فإنها لم تكن تشكل ابداعاً وحيدا للعبقرية الدينية الاغريقية : لقد دخلت في نظام اكثر اتساعاً ، لم نعلمه جيداً ، بكل

أسف . ولأن هذه الاسرار ، من جهة أخرى ، مثل تلك التي من العصر الهيللنستي ، تفترض مسارات يتوجب لها البقاء مكتومة .

ان القيمة الدينية ، وبصورة عامة القيمة الثقافية لسرهما غير كافيتين للدراسة ، فكل الاكتشافات الكبرىٰ والاختراعات ـ زراعية ، تعدينية ، تقنيات مختلفة ، فنون الخ ـ كانت في البدء تتطلب الكتمان : وليس سوىٰ الملقنين باسرار المهنة كانوا معنيين بالحفاظ على نجاح العملية . ومع الزمن فإن المسارة بالحيل الكيمياوية لبعض التقنيات القديمة تصبح مقبولة في الجماعة كلها . ومع ذلك ، فإن الصياغات المتتالية ، لم تفقد تماما خاصتها المقدسة . . ان مثال الزراعة هو تعليمي بصورة خاصة : بضعة ألوف من السنين بعد انتشارها في أوروبا ، كانت الزراعة محافظة على بنية شعائرية ، ولكن (اسرار المهنة) أي الحفلات المعنية لضمان وفرة المحصول ، كانت آنئذ مقبولة عالميا بواسطة «مسارة» ابتدائية . ويمكن القبول بأن أسرار ايلوزيس كانت متضامنة مع سر زراعي ، ومن الراجح أن قداسة الفعل الجنسي ، والخصوبة النباتية والتغذية قد قولبت ؛ أقله في شطر منها ، السيناريو المساري . وفي هذه الحالة ، يجب الافتراض بأنه تعلق بقداسات قد نسي نصفها ، وانها فقدت معانيها الأولىٰ . واذا جعلتالمسارةالايلورزيسية ممكنا مثل هذه التجارب «البدئية» التي كشفت السر والقداسة للغذاء ، وللعمل الجنسي ، والتناسل والموت الشعائري ـ فإن ايلوزيس قد استحقت بحق ، شهرتها «كمكان مقدس» ومصدر «للمعجزات» ومع ذلك فإنه من الصعب الاعتقاد ان المسارة العليا كانت محدودة بسوابق الأسرار المقدسة القديمة . لقد كشفت ايلوزيس بالتأكيد مدى دينياً جديداً . والاسرار كانت قد اشتهرت بصورة خاصة بالنسبة لبعض «الكشوفات» المتعلقة بالربتين .

وعليه فإن مثل هذه (الكشوفات) تعرض «السر» كشرط . ولا يمكن اجراء خلافه بمناسبة مختلف المسارات المؤكدة في المجتمعات القديمة . ان ما يجعل (سر) ايلوزيس متفرداً ، انما هو الفعل الذي غدا نموذجاً مثاليا بالنسبة لعبادات الأسرار . وان القيمة الدينية للسر ستجد في العصر الهيللنستي . كما أن اسطرة الأسرار المسارية وتفسيرها سيشجعان بالتالي تأملات لا حصر لها ، والتي ستنتهي

بقولبة الطراز لعصر بكامله . «إن السر ذاته يرفع قيمة ما يراد تعلمه» كما كتب بلوتارك [حول حياة وشعر هومير[٩٢]] وان الطب كما هو الشأن في الفلسفة كذلك قد انتشرا بالحيازة علىٰ (اسرار تلقينية) والتي يقارنها بعض الكتاب باسرار ايلوزيس . إن احدىٰ الكليشيهات الأكثر استعمالاً في عهد الفيثاغورين ـ الجدد والافلاطونيين ـ الجدد ، كانت فعلاً الكتابة (الغامضة) لكبار الفلاسفة ، التي لم يكشف المعلمون الفكرة عن نظريتهم فيها الا للمسارين بها initie´ .

ان هذا التيار من الأفكار قد وجد مستنده الأفضل في «سر» ايلوزيس . وان أكثرية الانتقادات الحديثة تنيط الكثير من الأهمية للتفسيرات المجازية أو السرية المطروحة من قبل عدد من كتاب العصور القديمة المتأخرة . مع ذلك ، وبالرغم من مفارقتها التاريخية . فإن مثل هذه الشروحات لم تفقد فائدتها الفلسفية والدينية . انها تمدد ، في الواقع ، جهود الكتاب القدامى بهدف تفسير اسرار ايلوزيس بدون انتهاك سرها .

وفي نهاية المطاف ، وإلىٰ جانب الدور المركزي الذي لعبته اسرار ايلوزيس في تاريخ التدين الاغريقي ، فإنها قدمت بصورة غير مباشرة ، معطيات ذات دلالة لتاريخ الثقافة الأوروبية وبصورة خاصة التفسيرات لسر التلقين . إن تقديرها الوحيد انتهىٰ ليصنع من ايلوزيس رمزاً للتدين الوثني . وان حريق المعبد ومحو الأسرار يميز النهاية الرسمية لعبادة الأصنام (الوثنية) ، الأمر الذي ، من جهة أخرىٰ ، لا يستدعي ابدا زوال الوثنية ، وانما احتجابها فقط . وأما بالنسبة /لسر/ ايلوزيس ، فإنه قد استمر يثير خيال الباحثين .

حواشي الفصل الثاني عشر

١ ـ يتعلق بلازمة اسطورية منتشرة على نطاق واسع : ان من يذوق أطعمة الآخرة لا يمكن ان يرجع إلى بين الأحياء .

٢ ـ عندما اراد ايزوقراط في القرن الرابع عشر ق .م يمدح مزايا الاثينيين ، اعاد الى الذاكرة انه في بلادهم ان ديمتر منحت هباتها الأكثر أهمية ـ «الزراعة ، التي بها استطاع الانسان الارتفاع فوق مستوى الحيوانات» والمسارة التي تجلب الأمل تجاه «نهاية الحياة وكل الأزلية» (بانيجبريك ٢٨) .

٣ ـ ولكن ارسطو (نيقيا : ٣ ـ ١ ـ ١٧) يذكر بأن «ستل خاطر بفقدان حياته لأن الاثنيين كانوا يفكرون انه كشف بعض اسرار في مآسية (وذكر ـ lsarchers) اينجين ـ سيسفى . بريتسريس» .

٤ ـ ان دلالة هذه gephgnismoi متناقضة : ان المثقفين اصروا بصورة خاصة علىٰ الوظيفة الحوارية التبشيرية للعبارة Obscème .

٥ ـ سينيكا ـ هرقل ٣٦٤ ـ ٣٦٣ .

٦ ـ فوكارت ـ اسرار ص ٣٩٤ في فيدون ٩٩ يدعم افلاطون أن القصاصات للصيادين في هاوس والصورة لمرح العادلين قد ادخلت من قبل اورفيه الذي استلهم عادات جنائزية مصرية .

٧ ـ هذا لاسيتثنى حضور رمزية جنائزية لأنه كان يوجد مغارة تدل علىٰ مدخل الآخرة ومن الراجع ان اومغالوس قد ذهب إلىٰ هنالك .

٨ ـ Engamnie ـ من أجل القديس الشهداء مجلد ٤٠

٩ ـ وتعرف حالات اخرىٰ مشابهة : مثل ان ديونيزوس أو اسكليوس ومن في محرقة جنائزية لكورونس واستخرج من حقبة والدته بواسطة ابو لونه .

١٠ ـ Gutnie في اليونان وآلهتهم ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ يعيد الى الذاكرة مشهداً من Axio ehns حوار منسوب خطأ لأفلاطون : يطمئن سقراط اكسيوتوس انه لا يجب الخوف من الموت بل بالعكس فطالما انه ملقن باسرار ايلوزيس فقد أصبح قريباً للآلهة . ويعتبر كونتري هذا النص كما لو انه بينه عن التبني الالهي ولكن عبارة جيمتر تشير أكثر للايمان : «أنت الذي هو من المؤمنين بالربات) . الأمر الذي لا يحصر فكرة القرابة الروحية) .

١١ ـ ر . كاليبان ـ افلوطن ٧١

١٢ ـ ر . الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الفصل الثالث عشر

ذرادشت والديانة الايرانية

١٠٠ - الألغاز :

إن دراسة الديانة الايرانية تفيض بالمفاجآت بل بالاحباطات . ويقرِّب الموضوع مع الفائدة الأكثر حيوية ، لأنه من المعروف سلفاً المساهمة الايرانية في التكوين الديني للغرب . فإذا كان مفهوم الزمان الخطي الذي حل محل مفهوم الزمان الدوري ، اذا كان هذا المفهوم مألوفاً لدى العبريين ، فإن عدداً من أفكار دينية أخرىٰ قد اكتشفت وهي معادة التقييم أو ممنهجة في ايران . ولنتذكر فقط أكثرها اعتباراً : النطق المبين لعدد من الأنظمة الثنائية «ثنائية كونية ، اخلاقية ، دينية» اسطورة المخلِّص ؛ الاعداد لأخروية «متفائلة» معلنة الانتصار النهائي للخير وللسلام العالمي ؛ ومبدأ بعث الأجساد ؛ ومن الراجح جداً بعض الاساطير

الغنوصية : واخيراً ، لاهوت ماجوس Magus المعاد ترتيبه خلال النهضة ، من قبل الافلاطونية المحدثة الايطالية بأكثر مما هو من قبل بارا سيلز Paraceles أو جون دي Jahon Dee .

ومع ذلك فما ان يقترب القارىء غير المتخصص من المصادر ، حتى يصبح خائب الظن ومعاكساً . إن ثلاثةارباع الابستاق القديمة Avesta مفقودة . ومن بين النصوص التي حوفظ عليها الجاتهاس فقط Les gathas ، وهي بوجه الاحتمال مؤلفة من قبل زرادشت وقابلة لأن تفتن الغير متخصص . ولكن فهم هذه القصائد اللغزية غير مضمون بعد . إن ما بقي من الابستاق الحالية وبخاصة الكتب الفهلوية Pehlenis المحررة بين القرن الثالث والتاسع من عصرنا ، تتميز بجفافها ورتابتها المحزنة وبسطحيتها . إن قراء الفيدا والأوباينشاد حتىٰ قراء أبراهمانا ولا بد ان يكونوا مخفقين .

وربما ، لأن الأفكار التي يتوصل لحل رموزها أحيانا في الجاتهاز ، والتي توجد مرتبة ومنهجة ، في الكتابات التالية ، هي مشوقة أو مثيرة للاهتمام . غير أنها مشوشة في ركام من النصوص والشروح الشعائرية . باستثناء الجاتهاس ـ التي تشكل قراءتها ، بالرغم من غموضها ، دوما تعويضا ـ قلما تبهر بقوة الكلمة وبأصولية الصور ، وبكشف دلالة عميقة وغير متوقعه .

وفيما يتعلق بالمساهمة الشخصية لزرادشت في الاختراع أو اعادة التقييم لهذه المفاهيم الدينية ، فإن آراء الايرانيين متباعدة وتتجه لتستبعد باتفاق الطرفين . . . وهي تتعلق اساسا بمنظورين تاريخيين : في الأول يعتبر ذاردشت كشخصية تاريخية ، مصلح لديانة أخلاقية تقليدية ، أي تلك التي تقاسمتها الشعوب الهندو ـ ايرانية ، في الألفين الثانية ق . م ، وفي المنظور الثاني ، فإن دين زرادشت يمثل فقط مظهراً من دين ايراني المزدية التي لها في مركزها عبادة اهورا مزدا . وحسب المؤلفين المتشاركين لهذا الوضع المنهجي ، ليس هنالك (اصلاح) منجز من (النبي) زرادشت فحسب ، وانما حتىٰ تاريخية هذه الشخصية هي موضع شك .

وكما سنرى ، فإن المسألة التاريخية لزرادشت لا يقتضي ان تشكل عقبة . فقد كان طبيعيا ان الشخصية التاريخية زرادشت تحولت لنموذج مثالي للمؤمنين المشكلين (للدين المجوسي) . وبعد عدة أجيال ، فإن الذاكرة الثقافية لم تتوصل أبداً لحفظ الصورة الرسمية لشخصية خارقة ؛ وقد انتهت لتصبح نموذجاً يحتذى أي أن تعرب وحدها عن فضائل ارشادها الرباني ، المشهور بأحداث عقائدية مميزة للنموذج الذي تجسده . ان هذا صحيح ليس بالنسبة لجوتاما بوذا أو يسوع المسيح ، وإنما أيضاً بالنسبة لشخصيات أقل أهمية ، مثل /ماركوكرا جفيك/ او /ديودونية دي غوزون/ . ولكنه يحصل ان الجاتاس Gathas المعتبرة من قبل أكثرية العلماء كمؤلف لزرادشت ، تشتمل على بعض التفاصيل للسيرة الذاتية التي تؤكد تاريخية مؤلفيها . واخيراً ، انهم الوحيدون ، الذين عاشوا بعملية جعلتهم اسطوريين فاعلين في كل التقليد المجوسي ، بفضل ادخالهم في الأناشيد المؤلفة من قبل زرادشت .

ومن المناسب استعمال بعض هذه التفاصل للسيرة الذاتية من أجل أول تلخيص لحياة زرادشت ولنشاطه الديني وستقدم فيها بعد التصحيحات والمدائح التي تبدو مفروضة كنتيجة للبحوث المتأخرة .

وقد طرح تحديد نشاط زرادشت بين ١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق .م . واذا قُبل التقليد المزدي ، الذي يتكلم عن «٢٥٨ سنة قبل الاسكندر» . يمكن تثبيت حياة ذرادشت ما بين ٦٢٨ و ٥٥١ ق .م[١] . إن التواريخ الأكثر قدما قد عرضت مع الآخذ في الحسبان للخاصية القديمة للغة الجاتاس ، وبخاصة مشابهاتها مع الفيدا . ان التحليل لفقه اللغة يسمح بالاستنتاج ان النبي قد عاش في الشرق من ايران ، وعلىٰ الأرجح في خورازمي أو باكتيريان[٢] .

حسب التقليد ، كان ذاوتر zaoter [يخت ٣٣ : ١٦] ، أي كاهن مضحي ومرتل (في السنسكرتية هوتار Hotar) ، وجاتها زاته Sesgathas تسجل في تقليد قديم هندو ـ اوروبي من شعر مقدس . وكان ينتمي إلى قبيلة سبتياما («الهجمة مشعة») مدرب خيول ؛ وكان أبوه يدعى بوري ساسبا Paurasaspa («الحصان

مبرقش») . وكان زرادشت متزوجاً ويعرف اسم اثنين من اولاده ، والابنة بوريسستا ، الأكثر شبابا [ياسنا ٥٣ : ٣] . لقد كان فقيراً . وعندما طلب في بجاتها ، شهيرة ، مساعدة وحماية آهور مازدا ، هتف : «اعرف ، أيها الحكيم ، لماذا أنا عاجز : ان هذا من أجل ما شيتي القليلة ولأنه ليس لدي سوى القليل من الرجال» [ياسنا ٤٦ : ٢] .

إن الجماعة التي خاطبها برسالته كانت مشكلة من رعاة مستقرين لهم رؤساؤهم ، يسمون كافي Kavi ، وكهان يدعون كاراپان Karapan«مدمدين» واوزيغ Usig «مضحين» . ان هؤلاء هم الكهنة حراس الديانة التقليدية الايرانية التي لم يتردد زرادشت عن مهاجمتهم باسم آهورا مزدا . ان ردة الفعل لم تتأخر مما أضطر النبي معه للهرب . «صوب أي بلد يهرب ؟ لقد هتف . أين اهرب ، وأين اذهب ؟ لقد ابعدوني عن عائلتي وعن قبيلتي ؛ لا القرية ولا الرؤساء الخبثاء للبلاد مناسبين لي . . .» [ياسنا . ٤٦ : ١] . لقد التجأ بالقرب من فيشتاسبا رئيس قبيلة فريانا ، والذي نجح باقناعة فأصبح صديقه وحاميه [يا . ٤٦ : ١٤ ١٥ : ١٦] . مع ذلك فإن المقاومة لم تضعف وزرادشت أخذ يبلغ علنا في الجاتهاز بعض خصومه الشخصيين : بنداڤا الذي «هودوما العقبة الرئيسية» [يا . ٤٩ : ١ ـ ٢] و «الأمير الصغير فيبا» الذي على جسر الشتاء شتم زرادشت سبياما رافضا المحطة ، له ولحيواناته المرتجفة من البرد بوصولها لعنده» [يا . ٥١ : ١٢] .

ويمكن تبين الرموز في الجاتهاز لبعض الدلالات المتعلقة بالنشاط الرسولي لزرادشت . فالنبي محاط بجمع من اصدقائه ومريديه ، الملقبين «الفقراء» (دريغو dergu) و «الاصدقاء» (فرايا) و «العارفين» (فيدفا) و «الأنصار» (اورقاتها[٣]) . إنه يحرض رفاقه «ليبعدو بقوة السلاح» الاعداد «الخبثاء» [يا . ٣١ : ١٨] . هذه المجموعة الزرادشتية تعارضها «جمعيات أشخاص» لها شعار آيسما Ae´sma «الرعب» . وقد امكن اظهار التماثل لهذه الجمعيات السرية الايرانية مع مجموعات الشباب المحاربين الهنود ، الماروت lesmaruts ، الذين وصف رئيسهم اندرا بـ أو هريغو adadhregu ، أي ليس ـ دهريغو («الذي ليس هو فقير[٤]») . ان زرادشت

قد هاجم بعنف اولئك الذين يضحون بالأبقار (يا . ٣٢ : ١٢ ، ١٤ ، ٤٤ : ٢٠ ، ٤٨ : ١٠) في وعليه فمن مثل هذه الشعائر الدموية كانت تميز عقيدة المجتمعات البشرية .

١٠١ ـ حياة زرادشت ـ التاريخ والاسطورة :

إن هذه الاشارات القليلة في عددها والتلميحية ، بعيدة عن أن تشكل العناصر لسيرة ذاتية ، وقد حاول مارجان موليز اظهار انه حتىٰ المراجع النادرة لشخصيات ولأحداث حقيقية في مظهرها لا تعكس بالضرورة حقائق تاريخية : فيشتاسبا ، علىٰ سبيل المثال ، يمثل نموذج الملقن بالاسرار . وربما ان تاريخية زرادشت تنبع ليس فحسب من اشارات لشخصيات واحداث ملموسة(الأميرالصغير فابيا الذي «على شاطىء الشتاء» رفض ان يحط عنده الخ . . .) وانما ايضا من الخاصية «الصادقة» والمشبوبة العاطفة للجاتهاس . وقد نصدم ، اضافة لذلك ، بالحدة والتوتر الوجودي الذي يسأل زرادشت فيه ربه : يطلب إليه أن يرشده لمعرفة الأسرار النشكونية ، وان يكشف له الحجاب عن مستقبله ، وايضا عن المصير لبعض القتلة وكل الخبثاء . إن كل فقرة من اليشنا ٤٤ الشهيرة تبتدىء بذات الصيغة : «هذا ما أطلبه منك ـ مولاي ـ أجبني جيداً !» . لقد اراد زرادشت معرفة «من عيَّن طريقهم للشمس والنجوم [٣] «من الذي أثبت الأرض في الأدنى وسماء الغيوم التي لا تسقط ؟» [٤] ، وهذه الأسئلة المتعلقة بالخلق تتابع بايقاع أكثر سرعة . ولكنه يريد أن يعرف أيضاً من أي نوع هي روحه «هلا أتت من الخير وهل ستستلب ؟» [٨] وكيف نتخلص من الشر ؟ [١٣] و «كيف أسلمُ الشر لأيدي العدالة» [١٤] انه يطلب لن يمنح اشارات مرئية [١٦] وبصورة خاصة ان يتحد مع اهورا مازدا وان يكون «نطقه فعالاً» [١٧] . غير انه يضيف : «هل سأحصل كأجر ، بعدالة (أرتا) arta على عشرة أفراس مزودة بحصان ، وعلى جمل ، مما وعدت بها ، أيها الحكيم ؟» [١٨] . انه لا ينسى ان يسأل الرب عن العقاب الفوري لمن «لا يعطي الأجرة لمن يستحقها» لانه سبق ان «أعلم بالقصاص الذي ينتظره في النهاية» [١٩] .

إن عقاب الخبثاء ، ومكافأة الاتقياء لازم زرادشت . ففي نشيد آخر يطلب «أي عقاب منصوص عليه لمن يزود الخبثاء والاشرار (بالقوة والسلطة) [يا . ٣١ : ١٥] ويهتف في مكان آخر : «متى أعلم اذا كان لديك سلطة أيها الحكيم (مازدا) مع العدالة (آرتا) على كل واحد من اولئك الذين يهددوني بالخراب ؟» [يا . ٤٨ : ٩] . انه نافذ الصبر أمام افلات اعضاء (المجتمعات البشري) ، الذين يستمرون بتضحية الابقار لتغذية الهاوما ، من القصاص : «متى تضرب هذه الرائحة الكريهة من السائل ، الدم ؟» [٤٨ - ١٠] . انه يأمل بأن يستطيع اعادة تجديد هذا الوجود [يا . ٣٠ : ٩] ويطلب من اهورا مزدا عما اذا كان العادل سيغلب الخبيث منذ الآن [يا . ٤٨ : ٢] . أحيانا يظن بأنه متردد ، مرتبك ، متواضع ، راغب في معرفة ملموسة أكثر لارادة الرب : «بماذا تأمر ؟ ماذا تريد كمديح ، كعبادة ؟» [يا . ٤٣ : ١٢] .

سيكون من الصعب التثبت من وجود العديد من التفصيلات الملموسة في الجزء الأكثر احتراما من الأفيستا اذا لم تكن هذه تمثل ذكريات شخص تاريخي . صحيح ان العناصر الميتولوجية تسود في السير الذاتية الاسطورية الأخرى للبني ، ولكن ، وكما ذكرنا ، انه يتعلق بعملية معروفة جداً : التحول من شخصية تاريخية هامة الى نموذج مثالي . فنشيد (يخت) يمجد مولد النبي في عبارات مسيحانية : «لميلاده وأثناء نموه ، كان الماء وكان النبات مغتبطاً ، لولادته وأثناء نموه ازداد الماء ونما النبات» [١٣ : ٩٣] . وهو يعلن : «منذ الآن ، سينتشر الدين المزدي الجيد على كل القارات السبع» [١٣ : ٩٥(٥)] .

إن النصوص المتأخرة تؤكد مطولاً على سبق الوجود السماوي لزرادشت . لقد ولد في «وسط التاريخ» وفي «وسط الكون» . عندما تلقت والدته الكذفا رنا le Xvarenah من زرادشت ، جللت بنور كبير . «ثلاثة ليال مستمرة ، كانت أرجاء المنزل تبدو وكأنها نارية(٦)» . أما بالنسبة لمادة جسده المخلوقة في السماء ، فسقطت مع المطر وعملت على تفتح النباتات التي تأكلها العجلتان العائدتان لاقارب النبي : ومر الجوهر في اللبن الذي شرب منه ابواه ممتزجاً مع الهاوما : ولأول مرة

اقترن والداه علقت به أمه[٧] . قبل ولادته جهد عبثا ، اهرمان والشياطين les dev لأن يجعلوه يهلك . ولمدة ثلاثة أيام قبل ان يأتي للعالم ، انيرت القرية بوهج حتىٰ أن السبيتاميد les Sputamides اعتقدوا بوجود حريق ، وهجروا القرية . وبعد عودتهم وجدوا طفلاً مجللاً بالنور . وحسب النصوص التقليدية ان زرادشت جاء للعالم ضاحكا . ما كاد يولد حتىٰ هوجم من قبل الشياطين daeva) = les deu) ولكنه جعلها تهرب بتلفظه بالعبارة المقدسة للمجوسية. لقد خرج منتصراً من أربعة تجارب ، فخاصيته المسارية واضحة (لقد طرح على محرقة في وكر للذئاب الخ[٨]) .

ومن غير المجدي المتابعة . فالتجارب ، والانتصارات والمحن والمعجزات تتابع السيناريو المثالي للمخلص على أهبة تأليهه . ونعيد التذكير بالتأكيد المكرر للباعثين المميزين للمزدية : النور المافوق الطبيعي والمعركة ضد الشياطين . فالتجربة للنور الصوفي و «الرؤية» الوجدية تأكدتا كذلك في الهند القديمة : حيث سيكون لهما مستقبل كبير . أما بالنسبة للمعركة ضد الشياطين ، أي ضد قوى الشر ، فإنها تشكل ، كما سنرى ، الواجب الأساسي لكل مزدي .

١٠٢ ـ أهناك وجد شاماني ؟

من أجل العودة للرسالة الأصلية لزرادشت ، يطرح سؤال نفسه منذ البداية : هل يتوجب البحث عنه في (الجاتهاس) فقط ، أو هل أنه مسموح استعمال النصوص الأقستيه المتأخرة ؟ ؟ . اننا لا نملك أية وسيلة لاثبات أن (الجاتهاس) قد نقلت لنا الفقة الشامل لزرادشت . وزيادة على ذلك ، فإن عدداً من النصوص الأخرىٰ ، وحتى المتأخر منها لحد ما ، تنعكس مباشرة ، مطورة لها تماما ، على مفاهيم جاتسية . وكما هو معلوم ، فإن انبثاق فكرة دينية ، مؤكدة لأول مرة في نصوص متأخرة ، لا تستدعي بالضرورة أنها تتعلق بمفهوم جديد . .

إن الأمر الجوهري هو شرح نمط التجربة الدينية المميزة لزرادشت . وقد اعتقد نيبرج nyberg ان باستطاعته تقريبها من الوجد المميز لشاماني وسط آسيا . وقد رفضت هذه الفرضية من قبل أكثرية العلماء ، ولكن ويدنغرين widengren قد مثلها مؤخراً بعبارات أكثر اعتدالاً وأكثر اقناعاً[٩] . فهو يذكر بالتقاليد التي بحسبها كان فيشتاسبا Vishtaspa قد استعمل الحشيش للحصول على الوجد) بينما كان جسده يبقى نائماً ، كانت الروح تسافر للفردوس . اضافة لذلك ، ففي النص الآفيستى ان زرادشت نفسه كان مشهوراً عنه «باستسلامه للوجد» . انه كان يتلقى نبؤاته برعشة ، انه كان يسمع كلام «آهورا مزدا[١]» . ومن جهة اخرىٰ ، فالراجح ان الأغنية كانت تلعب دوراً هاماً في العقيدة ، إذا تفهمنا اسم الجنة Garodemana = Paradis وكأنها تدل على معنى (بيت الغِنَاء) ومعلوم أن بعض الشامايين يصلون للنشوة بالغناء المطول؛ ويضاف إلى ذلك أنه لايجب أن يعتبر كشامانية » أي نموذج شعائري مرتبط بالأغاني وعلاوة على هذا ، فقد أمكن اظهار العناصر الماقبل الشامانية للسيناريو المقام حول جسر سنقات Pont de Cinvat (ف / ١١٠ *) ، وكذلك البنية الشامانية لسفر ادرافيراف Adra Viraf للسماء وللجحيم[١١] . مع ذلك فإن الاشارات النادرة لمسارة شامانية متميزة ـ مستوجبة تجزئة الجسد وتجديد الأمعاء ـ تصادف حصراً في النصوص المتأخرة ويمكن لها ان تعكس تأثيرات أجنبية (وسط اسيوية) أو مشتقة من توليفة هيللينية ، وبصورة خاصة ديانات الأسرار[١٢]) .

ويمكن القبول بأن زرادشت كان متآلفاً مع التقنيات الشامانية الهندو ـ ايرانية (المعروفة آنئذ من قبل السيخ seythe وهنود العصر الفيدي) ولا نرىٰ لماذا يرتاب في النص الموضح لوجد فيشتاسبا عن طريق الحشيش . ولكن الوجديات والرؤى المؤكدة في الجاتهاس وفي الآفيستا من جهة أخرىٰ لا تمثل بنية شامانية . ان الكلام المهيِّج الرؤي لزرادشت يقربه من نماذج اخرىٰ دينية . وبأكثر من هذا فإن العلاقات بين النبي والرب ، والرسالة التي لا تتوقف عن أن تعلن ، لا تفشي نصاً «شامانيا» . فمهما كان الوسط الديني الذي نمت فيه الزرادشتيه ، ودور الوجد في ايمانه . وفي مريديه الأوائل ، فإن الوجد الشاماني لا يلعب دوراً مركزياً في المجوسية . وسنرىٰ ان «التجربة الصوفية المجوسية» هي النتيجة لتطبيق شعائري مضاء بالأمل الاخروي .

١٠٣ ـ كشف اهورا مازدا : الانسان حرفي اختياره للخير والشر .

تلقى زرادشت الكشف عن الديانة الجديدة مباشرة من اهورا مازدا . وبقبوله له احتذى العمل البدئي للرب ـ اختيار الخير [سينا ٣٢ : ٢] ـ ولم يطلب شيئاً آخر للمؤمنين به . إن الجوهري في الاصلاح الزرادشتي يتكون في اقتداءٍ بالاله Imitatio dei . فالانسان مُخطَر رسميا باتباع مثال اهورامازدا ، ولكنه حرفي اختياره . انه لا يشعر بأنه عبد أو أنه خادم للاله (كما يقول مثلا المؤمنون بقارونا او بيهوه او الله) . ففي الجاتهاس يشغل اهورا مازدا المكان الأول . انه طبيب وقدوس spenta ، ولقدابدع العالم بالفكر [سينا ١٠ ٠ ٧ ، ١١] . الأمر الذي يماثل الابداع من العدم .

وزرادشت يصرح بمعرفته لأهورا مزدا بالفكر « كالأول والأخير » [يس . ٣١ : ١] أي منذ البداية والنهاية ، والرب مترافق بخفر من كائنات ألهية (الاميشا سبنتا) : العدالة (آشا) ، الفكرة الطيبة (فوهومانا ه) ، الورع (آرميتى) المملكة ، القوة (كشازرا) التكامل والخلود [آميريتا ، هورفاتا] . ان زرادشت يدعو ويمجد هذه الجواهر مجتمعة مع اهورا مزدا ، كما في هذا (الدعا) الجاتها gatha : «أيها السيد الحكيم الكلي القدرة ، الورع العادل ، المسعد للأحياء ، للفكرة الطيبة ، للعرش اصغ إلي : كن رحيما بي بديلا عن مساعدة أي كان » [يا . ٣٣] .

إن أهورا مزدا هو أب لعدد من الجواهر Entités (آشا ، فوهوماناة ، آرميتى) ولواحدة من النفسين التوأمين سبينتا مينو (النفس المحسنة) . ولكن هذا يقتضي انه وَلَد كذلك التوأم الآخر انغرامينو (النفس المدمرة) . من الأصل ، وأكد في جاتها شهيرة (يس . ٣٠] ، ها تان النفسان اختارتا ، احداهما الخير والحياة ، واحداهما الشر والموت . سبينتا مينو يعلن للنفس المدمرة في « بداية الوجود » : « لا افكارنا ، ولا نظرياتنا ، ولا قوانا العقلية ، ولا

اختياراتنا ، ولا اقوالنا ، ولا افعالنا ، ولا مشاعرنا ، ولا ارواحنا ليست على وفاق » [يا . ٤٥ : ٢] الأمر الذي يظهر ان النفسين مختلفتان ـ احداهما قديسة ، والأخرى خبيثة ـ وعلى الاكثر باختيارهما ليس بطبيعتهما .

وتيولوجيا زرادشت ليست ثنائية ، في المعنى الدقيق للعبارة ، وطالما أن اهورا مزدا ليس مواجها « بضد للاله » ، فإن المعارضة توضحت ، في الأصل ، بين النفسين .

من جهة اخرى ، فإن الوحدة بين أهورا مزدا والروح المقدسة مضمرة مراراً (يس ـ ٤٣ ـ ٣] الخ . واجمالاً فإن الخير والشر ، القديس والشيطان المخرب تفيض عن اهورا مزدا ، ولكن بما أن انغرامينو قد اختار بحرية طريقته في التكون وميله للشر ، فإن الرب الحكيم لا يمكن ان يكون معتبراً كمسؤول عن ظهور الشر . ومن جهة اخرى ، فإن اهورا مزدا في قدرته الكلية للعلم ، كان قد علم منذ البدء ما سيكون خيار النفس المدمرة ، ومع ذلك لم يمنعها ، وهذا ما يمكن ان يعني بأن الاله إما مفارق لكل نوع من المتضادات ، وأما ان وجود الشر يشكل الشرط المسبق لحرية الانسان .

ومن المعروف اين يبحث عما في ما قبل التاريخ عن لاهوت مماثل : في مختلف المنظومات الاسطورية ـ الشعائرية للانشطارات الثنائية والتعددية ، وفي التعاقبات والثنائيات ، وفي الزوجية المتضادة ، والتطابق المتعارض ، منظومات حللت في آن واحد الايقاعات الكونية والمظاهر السلبية للحقيقة ، وفي المكان الأول وجود الشر . ولكن زرادشت يقدم معنى دينيا واخلاقيا جديداً لهذه المعضلة الأزلية وذلك في بعض الأبيات من الجاتهاس حيث توجد البذور لما لا يحصى من الانبثاقات التالية التي اعطت للروحية الايرانية ملامحها الخاصة .

والفصل البدئي بين الخير والشر هو نتيجة لاختيار مستعمل لأول مرة من قبل اهورا مزدا ومكرر من قبل النفسين التوأمين اللتين اختارتا على التوالي العدالة (آشا) والغش /دروغ/ . وبما ان الديفاس ارباب الدين التقليدي الايراني ، قد

اختاروا الغش ، فإن زرادشت يطلب الى المؤمنين به أن لا يقدموا لهم عبادة وفي المكان الأول ان لا يضحوا لهم بالبقريات .

ان الاحترام للثور يلعب دوراً مرموقاً في الديانة المزدية . ولقد رأينا في هذا الصنيع الانعكاس لنزاع بين المزارعين المستقرين وبين البدو الرحل . ولكن التناقض المعلن من قبل زرادشت يتجاوز بمشتملاته ، المستوى الاجتماعي . انه جزء من التقلد الديني الوطني الآري الذي اهمل . لقد وضع زرادشت بين الآثمين ييما yima ابن فيفها فانت « الذي من أجل ان يتملق شعبنا جعله يأكل قطعاً من الثور » [يس . ٣٢ : ٨] وزيادة على ذلك ، وكما سنرى ، فإن النبي قد طلب من أهورا مزدا متى سيدمر اولئك الذين يطبقون التضحية لها وما [٤٨ : ١٠] .

مع ذلك فإن بحوثا حديثة اظهرت ان شعائر هاوما ، كما هو الأمر في عبادة ميثرا mithra لم تدان بتمامها من قبل المجوسية حتى ولا في الجاتهاس [١٤] . واكثر من هذا ، ان الاضاحي بالحيوانات قد طبقت بدون انقطاع ، على الأقل بالنسبة لمنفعة غير المتدينين[١٥] فيبدو اذن ، ان زرادشت قد ارتفع بصورة خاصة ضد تجاوزات الطقوس التهتكية ، التي تتطلب مالا يحصى من الاضاحي الدموية والامتصاص المفرط للهاوما . اما بالنسبة لوصف « البقار Bauvier » المطبق على زرادشت ، فإنه لا يتعلق ابداً ، كما ذكرنا ، بواجب كل مجوسي بأن يدافع وبأن يعتني جيداً بالقطيع . ان العبارات المجازية (رعاة) و(قطعان) المؤكدة في كل مكان في الشرق الأدنى القديم والهند القديمة تعود الى الرؤساء ورعاياهم . ان القطيع تدل على الانسان الذي يشاطر في الدين الجيد ، وزرادشت هو البقار[١٦] .

ان هذه الاصلاحات ، واعادة النظر تسمح بالفهم بشكل احسن لمشاركة المجوسية في التاريخ الديني لايران . وفي الواقع ، لا مجال للأنكار أن زرادشت رغما عن اصلاحه قبل عدداً من المعتقدات والافكار الدينية التقليدية مع اعطائها قيماً جديدة . وهكذا استعاد التقليد الهندو ـ اوروبي سفر الموتى ، مصراً على أهمية

الدينونة ، فكل واحد سيحاكم حسب الخيار الذي انجزه على الأرض ، والعادلون سيقبلون في الجنة « في منزل الغناء » اما بالنسبة للمذنبين ، فأنهم سيبقون للأبد ضيوف منزل الشر (يس ٤٦٠ : ١١) ان الطريق نحو الآخرة يمر عبر جسر سينفات وهنالك يوجد مجال للفرز بين العادلين والخبثاء ويعلن زرادشت ذاته المرور المقدر عندما سيقود اولئك الذين عبدوا أهورا مزدا : « معهم جميعاً سأعبر جسر الفرز » [يس . ٤٦ : ١٠]

١٠٤ ـ التغيير في وجه العالم.

لا يشك النبي ابداً في ان /الديفا/ سيبادون ، وان العادلين سينتصرون على الخبثاء . ولكن متى سيحين هذا الانتصار للخير الذي سيجدد العالم جذريا ؟ ؟ انه يدعو اهورامزدا « اعلمني ما تعرفه أيها السيد : حتى قبل مجيء العقابات التي تضمرها ، أيهاالحكيم هل سيغلب العادل الخبيث ؟ لأنه في هذا ما يقتضيه صلاح الوجود » [يس ١٨ : ٢] فتغيير الوجود هو ما انتظره ذرادشت : « اعطني هذه الآية : التغيير الشامل لهذا الوجود . وبهدف أن أصل الى السرور الأعظم في عبادتك وفي تمجيدك » [ي : ٣٤ : ٦] ولقد هتف « عرفني بالعلم الذي سيشفي الوجود ! » [ي . ٤٤ : ١٦] . ويصر : « أيها الحكيم ، أية مكافأة تعينها للفريقين ، بنارك الموقدة وبالمعدن المذاب ، اعط آية عنها للأرواح ، لتسبب الضرر للخبيث ، والخير للعادل » [ي ٥١ : ٩] .

ومن الراجح ان زرادشت قد أمل « بالتغيير » الوشيك الوقوع (فرازو ـ كيريتي) للعالم . وقد هتف « انستطيع ان نكون اولئك الذين يجددون هذا الوجود »(١٧) [ي ٣٠ : ٩] وفي كثير من الأحيان عين نفسه لذاته كـ (ساوزيان) Sausynat « المخلص » [ي٤٨٠ : ٤٦٨ : ٣الخ] وهذا المفهوم سيثير فيها بعد ميتولوجيا خرافية وقد كان التحكيم الالهي الأخروي بالنار والمعدن المذاب الذي أعلنه [ي : ٣٠ : ٣٢٧ : ٧] يهدف ايضاً لعقاب الخبثاء باكثر من

البعث للوجود . وكما حصل مراراً في التاريخ ، فإن انتظار الدينونة وتجديد الكون قد طرحت بشكل متنام في اخرويات مستقبلة وقابلة أن تكون محسوبة مع اختلافات فيها ولكنه يهمنا الاشارة للشرح الجديد المعطى من قبل زرادشت لفكرة التجديد هذه . فكما رأينا (ف . ٢١ع) وكما سنرى ايضا (ق ، ١٠٦ع) . ان سيناريوهات مختلفة اسطورية ، شعائرية بالنسبة لتجديد العالم ، كانت معروفة في الشرق الادنى من قبل الهندو- ايرانيين ومن قبل شعوب اخرى . وان الشعائرية التي تكرر النشكونية ، كانت موضع احتفال بمناسبة العام الجديد . غير ان زرادشت انكر ورد هذا السيناريو القديم الذي كان ينشد التجدد السنوي للعالم واعلن « تغييراً » جذريا ونهائياً ، منجزاً مرة واحدة وللجميع . وزيادة على ذلك فإن التجدد لن يتم الحصول عليه بانجاز شعائر نشكونية ، وانما بارادة اهورامزدا . وان هذا التجديد يقتضي الدينونة لكل كائن ويستدعي القصاص للخبثاء والمكافأة للعادلين (ف ١١٢ع) . واذا كانت الجاتهاز هي مؤلف زرادشت - لالغاء الايديولوجيا القديمة لدورة كونية مجددة فقد أعلن الاخروية العاجلة الوقوع والتي لا مرد لها ، والمقررة من قبل اهورا مزدا .

واجمالاً ، فإن نقطة الانطلاق في نبؤة زرادشت هي الكشف عن القدرة الكلية ، وعن قداسة وطيبة اهورا مزدا . ان النبي تلقاها مباشرة من الرب ولكن هذا الكشف لم يؤسس ابداً توحيداً ، وان ما اعلنه زرادشت ، باعطائه كنموذج لمريديه . انما هو اختيار الله والجواهر الالهية الاخرى . وباختيار اهورا مزدا فإن المزدي يختار الخير ضد الشر ، وحقيقة الدين ضد الديفاس (المزيفين) . وبالنتيجة فإن على كل مزدي ان يكافح ضد الشر ، وضد أية مسامحة تجاه القوى الشيطانية المتجسدة في الديفاس . وهذا التوتر لن يتأخر عن تصلبه في ثنائية . فالعالم سيكون منقسماً بين أخيار واشرار ، وسينتهي بالتجمع لاسقاط على كافة المستويات الكونية والانتروبولوجية للمعارضة بين الفضائل واضدادها . ومعارضة اخرى قلما يشار اليها ، غير انه سيكون لها مستقبل كبير في التأمل الايراني : تلك التي هي بين الروحي والمادي ، وبين الأفكار والعالم المتعظي [ي . ٢٨ : ٢] لقد استرعت الانتباه كثيراً ، الخاصية الروحية ، والافكار الفلسفية لديانة

زرادشت[١٨] . وان التحول لأكثر الآلهة الآرية أهمية في آميشا سبينتا (القدسين المباركين) ، المشكلين خفراً لأهورا مزدا ، وواقعة ان كل واحد من هذه الجواهر يناسب قيمة مجردة (النظام ، السلطة ، الورع ، الخ) مع ادارتهم لعنصر كوني (النار ، المعدن ، الأرض ، الخ) ـ يعني في ذات الوقت خيالا ابداعياً وقدرة حادة في التفكير ، ان زرادشت باشراكه معه الآميشا سبينتا توصل الى تحديد الطريقة التي يتدخل بها اهورا مزدا في العالم ـ وأوضح كذلك كيف ان الرب ، عبر « ملائكته Archanges» يمكن مساعدة ودعم المؤمنين . ان الواقعة التي يدعو بها النبي ربه «حكيماً» ، والتي يمجد بها اهمية « الحقيقة » ، التي يسميها باستمرار « الفكر الطيب » ـ تبرز جدة رسالته : ابرزت الوظيفة والقيمة الدينية « للحكمة » ، أي « العلم » ، المعرفة الثاقبة والمفيدة . انه لا يتعلق ، تأكيدا بعلم مجرد في المعنى الحديث للعبارة ، وانما الفكر «الخلاق» الذي يكتشف ويبني في آن واحد مكونات العالم والكون من قيم مرتبطة بها . ومن هذه الوجهة النظر ، يمكن بها مقارنة الجهد التأملي لزرادشت بتأمل واكتشافات حكماء مثارة في الاوبانيشاد ، والذين غيروا بها جذريا المفاهيم الڤيدية للعالم وللوجود البشري [ق . ٨٠ع] .

ولكن التقريب مع الريشي les rishis في الأوبانيشاد يصبح أيضاً أكثر إقناعاً عندما نلاحظ الخاصية المسارية والأخروية «للحكمة» المزدكية . بالتأكيد ، وبصفتها ديانة خاصة (كالڤيدية والبراهمانية) . فأن المزدكية سمحت بالتطور الى بعد باطني ، والذي بدون أن يكون ممنوعاً ، لم يكن مع ذلك مقبولاً من كل المؤمنين . وكما تذكر اليسنا ٤٨ : ٣ «مبادىء سرية» . أن الصفة المسارية والأخروية واضحة في العبادة التي طرحها زرادشت مكان الشعائر الدموية والتقليدية المسعورة . ثم إن العبادة هي على درجة من الروحية بحيث أن العبارة ذاتها «التضحية» (يسنا) تعادل ، في الجاتهاز ، عبارة «فكرة»[١٩] . وعندما تقرب أهورا مزدا «كفكرة طيبة» وطلبَ اليه : «الى من تريد أن أوجه عبادتي» ؟ . أجاب زرادشت : «إلى نارك !» وأضاف : «بجعل القربان لها من التمجيد ، أريد أن أفكر بمقدار ما أستطيع بالعدالة !» [ي ٤٣ : ٩] إن التضحية هي الفرصة ، وبدقة أكثر

«السند» لتأمل لاهوتي . وكيفما كانت التفسيرات المعطاة فيما بعد من قبل الكهنة ، فإن مما له دلالته ان مذبح النار أصبح وبقي ، المركز الديني للمزدية . وفيما يتعلق بالنار الأخروية كما فهمها زرادشت ، فإن مما لا شك فيه أن وظيفتها المقررة هي في أن تطهر و/تروحن/ ـ العالم . غير أن وظيفة العبادة هي أكثر اعتباراً . وتبعاً لشرح حديث[٢٠] فان الفاعل يكتسب بواسطة الشعيرة (يسنا) ، الشرط لماجا ode maga أي أنه يتمتع بتجربة وجدية تنتج «التنوير» (سيستي cisti) . وأثناء هذا التنوير ، يتوصل الكاهن المضحي لفصل جوهره الروحي (مينوك) عن طبيعته الجسدية (جينيك) . وبعبارة أخرى انه يفصل شرط الطهارة والبراءة الذي سبق «خلط» الجوهرين . وعليه ، فان هذا «الخلط» كان موجوداً على أثر مهاجمة أهريمان . فإن المضحي يساهم في أحياء الوضع الأولي ، «لتغيير» (فرازو ـ كريتي) العالم ، وهو عمل فدائي استعمل لأول مرة من قبل الكاهن ـ النموذجي زرادشت وحتى انه يمكن القول بأن المضحي يساهم انئذ بعالم متحول[٢١] .

إن حالة الماجا يحصل عليها بصورة خاصة بأضحية الهاوما Haoma (شراب الخلود) الذي يشربه الكاهن أثناء الحفلة» . وعليه فان «الهاوما» غني في الكزافرناه xvarenah ، سائل حلو ، ناري ومضيء ومنعش ومقوٍ للباه في آن واحد . إن أهورا مزدا هو المالك للكزافرناه بامتياز . ولكن هذه /الشعلة/ الالهية تنساب أيضا من جبهة ميترا mithra [يخت ـ ١٠ ـ ١٢٧] وكضوء شمس ينبثق من رأس الأسياد souveraisns[٢٣] . مع ذلك ، فان كل كائن بشري يملك الكزافرناه الخاصة به ، وفي يوم التغيير أي التجديد النهائي فإن النور الكبير البادي خروجه من جسم سيتلألأ كل الوقت على هذه الأرض»[٢٤] . بشرب الهاوما شعائرياً ، فان المضحي سيتجاوز شرطه البشري ، ويتقرب من أهورا مازدا ويسبق ماديا التجديد الشامل .

انه لمن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كان هذا المفهوم الأخروي للعبادة مصاغ كله مسبقاً في عصر زرادشت ، الا أنه بالتأكيد كان مضمراً في وظيفة

الأضحية لدى الهندو- اوروبيين . وفي المنظور الذي كان خاصاً بهم ، يتقاسم مؤلفو البراهمانا مفهوما مماثلاً : كان العالم يجدد دوريا بمعنى انه يعاد خلقه بالقدرة الغير محدودة للأضحية . ولكن الوظيفة الاخروية للعبادة في المزدكية تجمع ، كما يقال ، الترقية المثلى للأضحية المتحققة من قبل البراهمان ، مع الغنوص (العرفان) المساري و«الاشراق» النبؤي للاوبانيشاد . وفي ايران كما في الهند البراهمانية ، كانت التقنية التضحوية والحكمة الاخروية مستثمرتين من قبل منتخب ديني ، وكانتا تشكلان تقليداً باطنياً . وفي المعيار الذي يناسب فيه عدد من المشاهد المتعلقة باستعمال الحشيش من قبل المؤمنين بزرادشت ، حالة واقعية[٢٥] ، يمكن تقريبها من حالة الهند القديمة : هنالك أيضا يصادف عدد من الوجديين المستعملين لبعض المخدرات الى جانب النساك ، والرائين واليوجيين والمتأملين (ف . ٧٨ع) ولكـن الرعشات والوجديات المثارة بالمخدرات قد لعبت دورا متواضعاً في الديانات الهندية ، وعلى ما يبدو ، فإن أقدم زرادشتية ، مع كونها غير منعكسة بشكل كامل في الجاتهاز ، تبدو مقرة بالأولوية «للحكمة» و«للاشراق» الداخلي قرب نار تضحوية .

وحسب التقليد ، فإن زرادشت قد قتل عن ٧٧ سنة من قبل الطوراني براتقاركش Bràtvarkch في معبد للنار . وبعض المصادر المتأخرة تحدد أن القتلة كانوا مختبئين على شكل ذئاب [٢٦] . وإن الخرافة تعبر بروعة عن دلالة القدر لزرادشت ، لأن «الذئاب» كانت أعضاء «المجتمعات البشرية» الآرية ، الذين وصفوا بالعار ، من قبل النبي بكل جرأة..

ولكن عملية الأسطرة قد تحددت خلال خمسة عشر قرناً على الأقل . وقد ذكرنا سابقاً بعض الأمثلة عن تأليه ذرادشت في التقليد المزدي (ف ١٠١ ع) وفي العالم الهللنستي ، مجد زرادست كالماج المثالي ، وإنه دوماً بصفته ماجوس Magus قد دعاه فلاسفة عصر النهضة الإيطالية . وأخيراً ، ستوجد انعكاسات أجمل أسطورة له في (فاوست) جوته .

١٠٥ ديانة الأخمينيين.

إن التعارض بين أهورا مزدا والديفاس كانت قد تحددت سابقاً في العصر الهندو ـ إيراني لأن الهند الفيدية كانت عارضت الديفاس بالآزوراس «ومع الفارق فإن القيم الدينية في الهند قد تطورت إلى هاتين المجموعتين في معنى مخالف لما هوفي إيران : الديفاس أصبحوا «الآلهة الحقيقين» بانتصارهم ضد الطبقة من الآلهة الأكثر قدماً (الأزوراس) الذين ، اعتبروا في النصوص الفيدية كوجودات شيطانية (ف ٦٥٠ ع) . وإن عملية مماثلة مع اتجاه معاكس حصلت في إيران : الآلهة القديمة (الديفاس) تشيطنوا . ومن الممكن التحديد في أي معنى قد أنجز هذا التحول : إنهم على الأخص الآلهة ذوي الوظيفة المحاربة ـ اندرا ، سورفا ، فايو ـ هم الذين أصبحوا دايفاس . إن أي واحد من آلهة الآزورا لم يتشيطن ، والذي توافق في إيران مع ازورا الكبير والهندي القديم ، فارونا ، أصبح آهورا مزدا .

إن زرادشت قد لعب بالتأكيد دوراً في هذا السياق . ولكن ترقية آهورا مزدا إلى وضع معظم لم يكن من صنيعه . إن آهورا مزدا ، معتبراً كإله أعلى ، أوببساطة كرب كبير بين أرباب كبيرة أخرى ، قد قدس في البلاد الإيرانية قبل زرادشت . ويوجد تحت هذا الأسم في منقوشات الملوك الأخمينيين .

ومنذ سنوات واجه العلماء تناقض حماسي حول موضوع زرادشتية داريوس وخلفائه . فضد زرادشتية الملوك الكبار يحتج بالدلائل التالية إلى جانب غيرها : إن زرادشت لم يذكر في أي نقش ، وأن مصطلحات واسماء هامة أيضاً مثل سبينتا ، أنفرا مينو والآميزا ـ سبينتا (ما عدا آرتا) هي مفقودة ، ومن جهة أخرى ، فإن ديانـــة الفرس في عصور الأخمينيين ، كما وضعت من قبل هيرودوت ، ليس لها شيء من الزرادشتيه . ولمصلحة زرادشتية الأخمينيين يشار الى اسم الرب الكبير اهورا مزدا الممجد في النقوش ، وأيضاً لواقعة انه عندما ادخل التقويم الجديد في

عهد كسرى الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥) مع الجواهر الزرادشتية فإن اصلاحه لم يثر أي ضجة[٢٧] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأخمينيين ان لم يكونوا زرادشيتين ، وكان لاهوتهم من ذات المستوى الذي هو للجاتهاز : انه مغرق بعبارات مجردة يمكن مقارنتها بعبارات الجاتهاز وهي «كلها مثقلة بالهموم الأخلاقية[٢٨]» . وإضافة لذلك ، وكما يذكر مارجا موليه Marjamol´e لا يتوجب ان ينتظر من ملك أعمال وعبارات الكهنة ؛ إنه لا ينجز طقساً ، بل هو يكمل اعمالا مادية ، وعليه ، فهذا هو فرازا Frasa تعبير يدل على كل «ما هو خير ، وما يشكل السعادة للانسان ، وما يسوغ للملك ان يمارس صلاحياته[٢٩]» . في النقش الأول الذي أمرداريوس بنقشه في نقص ـ ١ ـ روستام Naqs - I - Rustamبالقرب من بيرسيبوليس ، مُجِّد آهورا مزدا بصفته «ربا كبيراً خلق هذه الأرض ، وخلق السماء ، وخلق الانسان ، وخلق سعادة الانسان ، وجعل داريوس ملكا ، هذا الرجل الوحيد ، ملك على الكثير ، هذا الرجل الوحيد سيد الكثير[٣٠]» . ان النقش يؤكد على ابداعية آهورا مزدا وقيل تقريبا كنتيجة ، حول المسؤولية الدينية للملك . انه من أجل دعم خليقة آهورا مزدا وضمان «السعادة للانسان» أن داريوس قد جعل ملكاً .

ان هذه الوضعية الدينية المتميزة مبررة باسطورة انشاء الاسرة الملكية للأخمينيين . فحسب هيرودوت [١ ـ ١٠٧ ـ ١١٧] ، على اثر حلمين فسرهما الماج Lesmages كنبؤة سيئة بالنسبة لعرشه ، زوَّج استياج Astyageملك الميدس Mèdes ابنته من رجل فارسي(اذن ، رجل من صنف ادنى) يسمى قمبيز ، وعندما انجبت للعالم طفلاً ، قورش ، فإن استيباج أمر بقتله ، ولكن الولد انقذ وربي من قبل امرأة راعي بقر ميترادات[٣١] . وعاش قورش حتى سن المراهقة بين الرعاة الشباب ، ولكن خاصيته كأميرفضحته فاكتشفت هويته . وفي آخر المطاف وبعد العديد من المغامرات انتصر على الميديين les mèdes وخلع جده عن العرش وأسس امبراطورية الأخمينيين .

ان اللازمة الاسطورية لبطل مطروح ومنفي تصادف لدىٰ العديد من الشعوب . وفي هذا الشأن نستعيد هذه البواعث .

أ ـ التجارب التي تحملها قورش ، مبتدئاً بعرضه ، المساوي لمسارة من نوع محارب .

ب ـ رمزيا ، الملك المقبل هو ـ أو يصبح ـ ابن الاله ميترا (ابوه بالتبني يدعى «عطية ميترا» ؛

جـ ـ بعد انتصاره ضد ملك الميدين ، أسس قورش امبراطورية ، واسرة حاكمة جديدة .

د ـ وهذا ما يعود بالقول انه ابدع عالماً جديداً ودشن عهداً جديداً ، وبعبارات اخرى ، أتم نشكونية مصغرة .

هـ ـ وحيث ان النشكونية كانت مكررة شعائرياً بمناسبة السنة الجديدة فقد كان من المسموح به افتراض ان السيناريو الاسطوري ـ الشعائري لإنشاء اسرة حاكمة كان قد أدخل في احتفالات النيروز Nawroz .

١٠٦ ـ الملك الايراني وعيد السنة الجديدة :

ان داريوس قدصًمم وبنى برسيوليس كعاصمة مقدسة موقوفة للاحتفالات بعيد السنة الجديدة النيروز[٣٢] . وفي الواقع لم تكن عاصمة سياسية ، ولم يكن لها أية أهمية استراتيجية . وخلافا لـ باسارغادي ، واصفهان وسوزا وبابل ، فإنها لم تذكر في أي مصدر غربي أو شرقي[٣٢] . ان النيروز ، مثل كل سيناريو شعائري للسنة الجديدة ، كان يجدد العالم بالتكرار الرمزي للنشكونية .

وقد كان المفهوم مألوفاً للهندو ـ ايرانيين ، ومع ذلك فمن الراجح ، ان السيناريو قد تحمل ، في ظل حكم الأخمينيين ، تأثيرات ميزوبوتامية . وعلى كل حال فإن عيد السنة الجديدة كان يجري تحت رعاية آهورا ـ مزد ، ممثلاً كهنوتياً على عدة ابواب في بيرسيبوليس .

ففي منطقة جغرافية معتبرة وبدءاًمن إحدىٰ الفترات التاريخية كانت النشكونية (كما هي كافة الأشكال الأخرىٰ من «خلق» ومن «تأسيس» (تقتضي

المعركة المظفرة لاله أو بطل اسطوري ضد غول بحري أو تنين (علىٰ سبيل المثال اندرا ـ فرترا ، بعل ـ يام ، زوس ـ تيفون الخ) . وقد أمكن اظهار مخطط مسرحية (سيناريو) مشابه ، كان قد وجد لدىٰ الهنود الفيديين وايران القديمة[٣٥] ؛ ومع أن المصادر متأخرة في هذه الحالة الأخيرة وهي تظهر الأسطورة متأرخة بقوة . وفي الواقع ، إن معركة البطل تريتونا ضد التنين آذي داهاكا التي اشارت إليها الآفشتا [يخت ٩ : ١٤٥ ـ ٥ ـ ٣٤ : ١٢١] قد رويت من قبل الفردوسي كصراع الملك فاريدون (فريتون تريتونا) ضد مغتصب أجنبي ، التنين ازدهاك ، الذي كان قد أسر وتزوج شقيقتي الملك الشرعي ، جمشيد (ديام كزايته) . ان فاريدون ـ مثل تريتونا ـ خرج منتصراً ، وقتل التنين وحرر (وتزوج بدوره) الأميرتين الأسيرتين . وعليه فإن التقاليد المتأخرة تؤكد انه في يوم السنة الجديدة يجب ان يكون الملك قد قهر ازداهاك[٣٦] . إن الأبطال والملوك الايرانين قد اشتهروا بقتل الحيتان (ر . على سبيل المثال اسطورة ازدشير) التي سنشير إليها . يضاف الى ذلك انه ، في ايران كما في أماكن ، أخرىٰ ، توازن السياق في تاريخ النصوص والأشخاص الاسطورية بعملية معاكسة : الخصوم الحقيقيون للقومية أو الامبراطورية قد تُخيلـو كغيلان . وبصورة خاصة كالتنانين[٣٧] .

وان ما يهم الاشارة إليه هنا هو واقعة ان الملك الايراني كان مسوؤلاً عن حفظ وتجديد العالم ، وبعبارة اخرى ، انه على المستوى الخاص به ، قد قاتلَ قوى الشر والموت وأسهم في انتصار الحياة ، والخصب والخير . ان زرادشت قد انتظر التجديد الشامل بواسطة الدين الجديد ، وفي آخر المطاف ، كان كل كاهن زرادشتي يعتقد بأنه سبق بتضحياته التغيير الأخروي . وإن ما اتمه الملوك في البدء وسنويا ، كان الكهنة يأملون بتحقيقه سنويا ـ والساوشيان Saoshy ant سينجزه بطريقة نهائية بالتجدد النهائي . ونجهل فيما اذا كان قد وجد في أزمان الأخمينيين نزاع أو توتر سري بين الايديولوجتين الدينيتين الملكية والكهنوتية فصداقة الملك فيشتاسبا بالنسبة للنبي كان من الممكن لها ان تشكل نموذجا مثاليا . ولكن المواجهة تأكدت فيما بعد تحت حكم الساسانيين . وان الظاهرة قد عرفت في مكان آخر أيضاً ، فالأمير سيد هارتا أصبح البوذا ، ودينه بالخلاص حل محل دين البراهمان

١٠٧ ـ مسألة المجوس ـ السيتس ٠

إن انتشار الزرادشتية باتجاه الغرب جعلها تصطدم بأنواع اخرىٰ من الديانات وتتحمل تأثيراتها . وحسبما يبدو فإن مزدية الأخمينيين لم تبق أبداً ثابتة لم تتغير . فكسرى ابن داريوس ، قد حرم في كل امبراطوريته عبادة الديفاس ـ الأمر الذي يقربه كثيراً من ديانة زرادشت . ولكنه بعد وقت متأخر ، وبدقة ، بدءا من نقوش ارتاكسيركس الثاني (٣٥٩ ـ ٤٠٥) ظهر ميترا وآنا هيتا إلىٰ جانب آهورا مزدا . وعلى ذلك ، سنرى توليفية مشابهة قد ظهرت في «الآفيستا» المتأخرة ، حيث ان ذات الاسماء للآلهة قد ذكرت إلىٰ جانب اهورا مازدا والأميشاسبينتا .

وتبقى مسألة المجوس des mages وعلاقاتهم مع الزرادشتين متعارضة ايضا . فقد اعتبروا على سبيل المثال ، كقبيلة من أهل البلاد الأصليين من السحرة ومناجي الأرواح المسؤولين عن انحطاط الزرادشتية أو ، على العكس ، كالتلامذة الحقيقيين لزرادشت ومبعوثيه في ايران الغربية . ويبدو انهم كانوا ، في عصر الامبراطورية الميدية (القرن السابع) طائفة هرطقية من الكهنة الميديين ، القابلين للمقارنة باللاويين والبراهمانيين[٣٩] .

وقد مثلوا الطبقة الكهنوتية الممتازة تحت حكم الأخمينيين . وحسب معلومات هيرودوت ، كانوا يفسرون الأحلام [١ ، ١٠٧] ويجرون تنبؤات بتضحية احصنة بيضاء[٧ ـ ١١٣] وخلال التضحيات كانوا يرتلون «نسب الآلهة» [١ ـ ١٣٢] الأمر الذي يدل على أنهم كانوا الحفظة لنص الشعر الديني[٤٠] . وعلى كل حال ، فإن المجوس كانوا قد أخذوا بعدد من الطقوس والعادات الزرادشتية وانتهوا باعتبارهم كتلامذة لزرادشت ؛ وفي الواقع ، ان زرادشت كان معتبراً من قبل بعض الكتاب الاغريق مجوسيا .

ان هيرودوت هو الذي نقل الينا دائما المعلومات الأكثر قيمة المتعلقة بايراني الشمال ، وفي المكان الأول السيت . فيوجد اله السماء (بابايوس) ، ميثرا ، و

(هيليوس ـ ابولون) ، «آريس» اله الحرب ، وربة الأرض وافروديت اورانيا [١٧ ، ٥٩] . وينقل هيرودوت خرافة وطنية حول أهل قبائل السيت والسلطة الملكية [١٧ ـ ٥] . ان الاسطورة تفسر بالايديولوجيا التثليثية للهندو ـ اوروبين ، واستمرت في الملحمة الشعبية لأوسيت القوقاز des Oss´etes duCaucase أخلاف السيث والآلين des Alains .

ويؤكد المؤرخ الاغريقي [٦ ـ ٥٩] ان السيث لم يكن لديهم لا معابد ، ولا مذابح ولا تماثيل . وربما كانوا يضحون سنويا لآريس باحصنة وخراف وواحد بالمائة من اسرىٰ الحرب ، وكان الاله يمثل بترس من حديد منصوب على تلة صناعية . أضحيات بشرية (واحدة من محظياتهم ، عدد من الخدم) واحصنة كانت تصاحب الملوك عند دفنهم [٦ ، ٧١] . واخيرا ، من المهم ملاحظة الخاصة (الشامانية) لبعض الشعائر : كان السيث يلقون حبوباً من القنب على حجارة متقدة ، ويضيف هيرودت الذي لم يفهم انها كانت مسألة عمل ديني ، كان الدخان يجعلهم (سعداء جداً بحيث يدمدمون من السرور» [٦ ـ ٧٣] . وكان هذا يتعلق على الأرجح ، بتجربة وجدية يمكن ايجاد موازياتها في التقليد الزرادشتي (ف /١٠٢ ع) .

١٠٨ ـ مظاهر المزدكية طقس الهاوما :

إن اليسنا ـ ذات الفصول السبعة المكتوبة نثراً والمؤلفة للجاتهاز ٣٥ ـ ٤٢ تعكس البداية المعقدة لعملية تكييف وتكامل . في المفردات اللغوية ، وبدئياً ، نلاحظ بعض التجديدات ذات الدلالات : الاميشاسبانتا مذكورة لأول مرة في مجموعة ونصادف فيها عبارة ياذاتا (آلهة) والتي ستظهر هامة في المزدكية المتأخرة . ويميز بعض الاتجاه لاعادة تقديس الحقائق الكونية . فالنار متطابقة مع النفس المقدسة ، سبينتامايو [يسنا ٣٦ : ٣] ؛ ومع الشمس ، تتشارك النار بآهورا مازدا[٤١] . والشمس هي الشكل المرئي للرب «الأكثر علواً من الأعلىٰ» [يسنا

٣٦ : ٦] . وآشا ، الحقيقة ، هي كذلك مشاركة مع النور . ولقد لاحظنا في مكان آخر تقدم بزوغ آشا في اليسنا ذات ـ الفصول ـ السبعة : تدعى مع اهوزا مزدا ويعلن اتحاد الرب مع الحقيقة «للأبد [يسنا ٤٠ : ٢ ، ٤١ ـ ٦) . آشا تعني الآن أكثر من حقيقة ، عدالة ، نظام ؛ انها تجسيد لبنية كونية وروحية معا[٤٢] ويُسمى «الأكثر عطفا ، الحسن ، الخالد واقع من نور [يسنا ، ٣٧ : ٤] ان فوهوماناه ، الذي كان ألهم ذرادشت الجاتهاز ،قد دفع إلىٰ موقع تابع .

ومما هو أكثر مفاجأة ايضاً : الكلام عن «الزوجات الطيبات» لأهورا (الحورانيث les Ahurunis)اللواتي هن المياه : «نمجد الحورانيس المياه» [يسنا ٣٨ : ٣][٤٣] . ويكسب هاوما مكانا هاما في العقيدة : «نعبد المعظم هاوما الذهبي ، نعبد هاوما المضيء الذي اغنى الحياة ، نمجد الهاوما الذي سيهرب الموت منه» [يسنا ٤٢ : ٥] ، إن عدداً من الكتاب قد فسر هذا التمجيد لهاوما كدليل لتوفيقية ، تالية لموت زرادشت ، بين رسالة النبي والديانة التقليدية . مع ذلك ، اذا كان صحيحا ان زرادشت قبل بالفعل عبادة هاوما مستنكرا تجاوزاته فقط ، فلا يوجد هناك مسألة توفيقية ، وانما ترقية رسمية لقيم «الديانة الكونية» القديمة للهندو ـ ايرانية .

ان الجاتها ـ لزرادشت والجاتها ذات السبعة ـ فصول تشكل جزءاً من الطقس السري اليسنا ، ويتكون جزء كبير منه في ابتهالات متكررة لكائنات إلهية . وان اليختات les Yashts هي ترنيمات موجهة ، بانفراد ، لمختلف الآلهة . انه يتعلق ببعض الارباب التي كان زرادشت قد تجاهلها كميترا ، على سبيل المثال ، ولكن أيضاً بشخصيات إلهية أو تجسيدات لحقائق دينية ، مثل الهاوما . ان الهوم ـ يخت le hom - yash [يخت ٢٠] يبرر عبادة الهاوما باسطورة جريئة للأصل : بينما كان زرادشت يقدس النار ويتلو الجاتهاس ، تقرب منه الهاوما ودعاه لقطافه ولعصره . وبالسؤال منه ، علم النبي ان ڤيڤاهڤانت كان أول من عصر الهاوما وحصل كمكافأة على ولادة ابن،الملك ييما Yèma «الاكثر تدينا بين البشر» [يخت ٢٠ ـ ٤٥] .

سنعود لدلالة ولما قبل تاريخية هذا السيناريو الاسطوري ـ الشعائري : النسل المتحصل على أثر ، وبالقوة ، من تضحية (جزء٢) . ويلاحظ ان ييما وشعيرة الهاوما قد مُجِّدَ في المزدكية تلازما مع الاضاحي الدموية [يخت ١١ : ٤ ـ ٧] . ان مثل هذه الترقية للتراث الهندو- ايراني أثار بوضوح مقاومات قوية : وفي الواقع ، ان الاضحيات الدموية كانت فيما بعد قد حذفت نهائيا ، وزالت الهاوما كشراب مسكر ، لكونها أبدلت بخليط من عصير نباتات وماء ولبن[٤٤] .

١١١ ـ تمجيد الاله ميثرا :

مما يثير الدهشة ايضا ، ومما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ المزدكية ، المهريخت Mihryach [ين ـ ١٠] ، النشيد الطويل على شرف متيرا . «يعلن آهورا مزدا ، عندما خلقت ميترا ذي المراعي الواسعة ، صنعته أيضاً جديراً بالاجلال والاكبار مثل ذاتي» [يخت ١٠ ـ ١] . وبعبارات اخرىٰ ، كل عظمة ، وقوة وابداعية ميترا هي عمل الرب الحكيم . ويلاحظ في هذا الاستهلال جهد اللاهوت المزدي الهادف لاعادة تثبيت القدرة الكلية لاله واحد أعلىٰ . وفي الواقع ، ان الميهرياخت تروي وتؤكد ترقية ميترا للسمو الذي كان عائداً له قبل اصلاح زرادشت . وعندما ، في نهاية النشيد ، يجتمع الالهان ، يستعمل الكاتب صيغة متيرا ـ أهورا (يخت ١٠ : ١٤٥] كجواب معروف جداً لمخرج فيدي ميترا ـ قارونا[٤٥] .

ومع ذلك ، فإن الاله الممجد في الميريخت لم يُعد ادخاله في المزدكية دون بعض التغييرات . ويمكن فك الرموز في النشيد حتى مختلف فترات نسب الهي سرى : سلسلة اعمال واشارات اهورا مزدا ترمي بحق لتمجيد وترقية ميترا . ونشير بدئيا الى قيمه المتعددة : ميترا هو ، بالتأكيد اله العقود ، والموعود بعبادته [يخت ١٠ : ٤ ـ ٦] فالمؤمن يرتبط بأن لا يفسخ العقود مطلقاً . ولكنه أيضاً اله الحرب ويبدو عنيفاً وقاسيا (يذبح الديفاس بثورة عنف والكفرة يقتلهم بدبوسة فاذرا ، خط يقربه من اندرا) ، انه كذلك اله شمسي ، يشارك بالنور [١٠ ـ

١٤٢] له الف اذن وعشرة آلاف عين [١٠ ـ ١٤١] أي انه كلي الرؤية ، وكلي الادراك مثل كل إله سيد ، الا انه اضافة إلىٰ ذلك المتبصر الشامل الذي يضمن الخصب للحقول والقطعان [١٠ : ٦١] . ان الظاهرة شائعة في تاريخ الأديان : الوهية مثقلة بمزايا متعددة ، وأحياناً متناقضة ، بهدف الحصول على «كلية» هي ضرورية لترقيتها ، موقتا أو بشكل دائم ، إلى مصاف آلهة كبيرة .

ان آهورا مزدا والأميشا سبينتا انشأوا له بيتا فوق جبل هارا ، أي في العالم الروحاني الذي يوجد وراء القبة السماوية [١٠ : ٤٩ ـ ٥٢][٤٦] . مع ذلك ، يشكو ميترا للرب انه ، مع كونه الحامي لكل الخلائق ، فإنه لم يعبد مع الصلوات ، كما هو الأمر بالنسبة للآلهة الاخرىٰ [١٠ : ٤٥]ومن المحتمل ان يكون حصل على العبادة التي طلبها ، لأن تتمة النشيد تظهر مترا على عربة يجرها حصانان ابيضان [٦٢] ، أو مصحوبا براوشاوراشنو ،جائبا الأرض اثناء الليل ومستأصلاً الديڤاس [٩٥ ـ ١٠١] ، أو ملاحقاً اولئك الذين لا يحترمون العقود [١٠٤ ـ ١١١] .وأيضاً مماله دلالة أكثر مراحل ارتفاع ميترا إلى صف اله اعلىٰ . في البدء كرس اهورا مزدا هاوما بصفة كاهنا لميترا وهو يعبده [٩٨] بمعنى انه يقدم له اضاحي ، بعدئذ يحرم أهورا مزدا الشعيرة الخاصة بعبادة متيرا [١١٩ ـ ١٢٢] ويجريها بذاته في الجنة ، في بيت الغناء [١٢٤] وبعد هذا الاحتفال يرجع مثراً ثانية للأرض لمحاربة الديفاس في حين يبقى آهورا مزدا في بيت الغناء .

إن اجتماع آهورا مزدا وميترا يغلق الباب على مصيرا الديفاس . فميترا قد عبد كالنور الذي يضيء العالم كله [١٤٢ ـ ٤٤] . وينتهي النشيد بهذه الكلمات : «بالنبات برسوم Barsom نعبد ميترا وآهورا الجيدين [ربين] للحقيقة ، الخالصين أبديا من الفساد : [نعبد] النجوم ، القمر والشمس . نعبد ميترا ، رب كل البلاد» [١٤٥] .

ان ميترا كان قد رفع في المزدية بصورة خاصة بصفة اله ـ بطل في صراعه ضد الديفاس والكفرة . وان واقعة ترك أهورا مزدا هذه الوظيفة له بكاملها يدل على بعض الاتجاه نحو المفارقة L'otiositas عند هذا الأخير ، ولكن بما ان المعركة

ضد قوى الشر هي الالتزام الاساسي للمزدية ، فإنه يمكن تفسير النشيد كما لو انه «اقرار» من ميترا ، اذن كنصر للرب .

١١٠ ـ آهورا مزدا والاضحية الأخروية :

إن عملية التوفيق بين الدين القديم الإتني ورسالة زرادشت يمكن ملاحظتها في اناشيد اخرىٰ . وهكذا ، على سبيل المثال في اليشت [٨] المكرس ليازاتاتيستريا (تشخيص للنجم سيريوس) ، ينتحب تيستريا لأنه لم ينجح بقهر الشيطان آباوز ـ الذي احتجز المياه وهدد بخراب كل الخليقة ـ لأن البشر تجاهلوه في شعائرهم . عندئذ يكرم آهورا مزدا تيستريا وذلك بأن يقدم له اضحية (يسنا) ؛ وكنتيجة ، يخرج هذا منتصراً من المعركة ضد الديفا ، ويضمن الخصب للأرض . كذلك يضحى آهورا مزدا لأناهيتا ويرجوها «ان تمنحه هذا الاحسان : لأحث التقي ذرادشت ليفكر ، ويتكلم ويعمل حسب الدين الجيد» [يخت ٥٠ : ١٧ ـ ١٩] . واضافة لذلك ، فإن الرب الحكيم، يضحي لڤايو ويرجوه «ان يمنحه هذا الاحسان» ان يستطيع قتل خلائق أنغـرا مينو [يخت ١٥ : ٣] . وكذلك فإنه من غير المتوقع اطلاقاً تصريح آهورا مزدا بأنه ، لولا المساعدة المقدمة من الفراڤا اشيز Des Fravashis ـ التي هي الأرواح لما قبل وجود البشرية ـ لكانت البشرية والحيوانات قد انقرضت ولكان العالم المادي عرضة للسقوط تحت سلطة الكذب [يخت ١٣ : ١٢] .

ولقد فهم ذهنـر Zaehner هذه النصوص وكأنها مناقضة لمبدأ زرادشت ، يعني الاذلال الذاتي للآهوار مزدا ، الذي لم يمجد الكائنات التابعة فحسب . وانما يطلب منها المساعدة . وفي الواقع ، ان الأهمية الحاسمة المناطة بمساعدة الفرافاشيز تذكر بنموذج إله مفارقDeus otosusعندما يبدو الخالق متألما من «اجهاد عقلي» اجبره لاستدعاء بعض الحيوانات وحتىٰ خصمه(٤٨) . ولكن الواقعة بأن اهورا مزدا يمجد (ياز ـ)هذا الاله أو ذاك مقدما الاضحيات (يسنا) ، لا تقتضي

بالضرورة انه يضع نفسه في وضع تابع . إن اليخت تشير للقدرة الخلاقة للشعائر وللطقوس الدينية ، وتمثل أهورا مزدا في وظيفته الكهنوتية . فبتقديم اضحية يضاعف آهورا مزدا القوة السحرية الدينية للمرسل اليه الى عشرة أمثالها . وان ما يستخلص من الأناشيد بصورة خاصة انما هو الأهمية الاستثنائية للأضحية ؛ وهذا مفهوم ـ هندي ـ ايراني تأكيدا ولكنه تطور وبخاصة ، في البراهمانا ، وسيصبح دائما أكثر مركزية في المزدية .

وكما هو الأمر لدى الهندو ـ اوروبيين الآخرين ، فإن النار الشعائرية تلعب الدور الرئيسي ، وياسنا « وهي في الاساس اضحية من هاوما منجزة امام النار » ان الحفظ والتطهير ، واقامة النيران المقدسة اتخذت في المزدية نسباً كانت مجهولة لكل مزدي ، وان العمل الديني الممتاز كان يقتضي اقامة نار ، أي تشييد معبد ووقف مداخيل واردات عليه ، وتسمية كهنة فيه(٥٠) ومع ان زرادشت كان ادان بعض الاضحيات الدموية ، فليس مؤكداً انه رفضها كلها . وعلى كل حال فإن الاضاحي من الحيوانات معروفة في الافيستا [يسنا ١١ ـ ٤ يخت ٨ : ٥٨] . اضافة الى ذلك ، فهي مؤكدة بغزارة في عهد الاخمينيين وفي العصر الفارسي وفي عهد الساسانيين(٥١) .

لقد رأينا [ف . ١٠٤ع]في أي معنى يعرف زرادشت نفسه كمخلص (ساوشيان) ويهتف : « ألا يمكن لنا أن نكون اولئك الذين سيجددون هذا الوجود » [يسنا : ٣ ـ ١٩] فهوقد أعاد تقييم السيناريو القديم بالتكرار الشعائري لنشأة الكون . وفي الزرادشتية تدعمت النية الآخروية للأضحية باستمرار ، وبدون ان تمحى ، على الغالب ، القيمة الكونية لها . ويمكن ان نميز عملية مشابهة لتأريخ الايقاعات والظواهر الكونية في اليهودية [ف . ٢٧ع] . ان المعركة ضد الغيلان . وبعض الرموز البطولية التقليدية قد فسرت بكونها فترات من مأساة اخروية مازدية ، يعني الصراع ضد الديفاس . وتوقع اعداد تجديد عالمي شامل . وبما ان العالم كان قد اعيد خلقة رمزيا وان الزمان متجدد بطقس العام الجديد فقد تم التوصل لاقامة التجديد الاخروي في نطاق السيناريو ذاته . ان الأضحية المنجزة من قبل الكاهن الزرادشتي تسبق الأضحية النهائية التي سيتم بها مخلص

(ساوشيان) التجديد . وبالنتيجة ، فإن الفاعل يتماهى بالساوشيان وضمنيا بزرادشت(٥٢) .

وبعد فترة متأخرة ، التحمت مجدداً وسويا نيتا التضحية ـ الآخروية والكونية ، وان التقاليد المحفوظة في النصوص الفهلوية تشكل حالة من مجموعة اضاحي انشأ بها أهور مزدا . الكون والانسان الأول ، وزدادشت .

ان التجديد الأخروي سيحصل خلال عيد السنة الجديدة ، وعندئذ يبعث الأموات وسيحاكمون وفي نهاية الحساب يخلدون . ونذكر بأن التجديد الشامل ، كالخلق الأولي تماما ، سيكون النتيجة للتضحية . وتثير النصوص الفهلوية بتفصيل واسع الاضحية النهائية التي ستنجز من قبل المخلص (ساوشيان) ومساعديه او هرمازد والاميشا سبينتا ، وعلى اثر ذلك سيبعث البشر ويصبحون خالدين وسيكون العالم برمته قد تجدد جذريا .

ويلاحظ في أي معنى ، قد استعملت الزرادشتية القيم القديمة للتضحية : زرادشت اعلن « حربا مقدسة » ضد قوى الشر ، وكل مؤمن باختياره الدين الجيد، كان مدعوا لمحاربة الديفاس ونبذ عالم الشياطين ، وبعبارات اخرى ، كان يساهم بعمل اهورامزدا وكباركهنته في التطهير الشامل . انه الوظيفة الافتدائية للدين الجيد تدعمت تباعاً بتمجيد القوة الخلاقة للشعيرة . وبما ان الهدف الشامل كان اعادة التجديد العالمي ، فقد قومت الوظيفة الأساسية ، النشكونية للأضحية : وفي الواقع ، ليس لتجديد الاخروى [انقاذ] الانسانية فحسب وانما خلقها من جديد بانجاز بعث الاجساد . وهذا يستدعي خلقاً جديدا غير قابل للفساد والفناء كما تنص على ذلك اليخت[١٩ : ٩٠] « العالم المادي لن ينطفىء ابداً [. . . .] الكذب سينتهي » .

١١ ـ رحلة الروح بعد الموت .

ان الطقوس الجنائزية ، وميثولوجيات الموت ، والمفاهيم ذات العلاقة مع الوجود التالي للروح ، تتغير ببطء ؛ بالرغم من الاصلاحات والاهتداءات ،

وهذا يعني ان عدداً من الارشادات المقدمة بالنصوص الاقستية والفهلوية ما زالت ذات قيمة ايضاً لعصر ما قبل الزرادشتية . ان الشعائر المؤكدة في ا يران الغربية ، وبصورة خاصة تحريق الاجساد وتكفين الرماد في مرمدة Mrne جرة كان يوضع فيها رماد الأموات) ، قد انتشر مع الزرادشتية ، في مناطق اخرى . كذلك كانت هنالك عادة اكثر قدماً مميزة لسهوب اسيا الوسطى : عرض الاجساد في مكان محدد ، حيث كانت تفترس من قبل النسور والكلاب (٥٥) وان ايراني الشرق كانوا يطبقون المناحات الشعائرية ويعاقبون انفسهم بالضرب الذي قد يصل حتى الانتحار . ولكن الزرادشتية منعت (البكاء والمناحات) وافصحت انها من اختراع انغرامينو .

أما بالنسبة لتجارب الروح بعد الموت فنجد بعض البواعث المألوفة : اجتياز جسر ، الصعود السماوي ، الحساب ولكن أيضا نغمة اللقاء مع الذات الخاصة ؛ وهنالك قصيدة كانت تشكل جزءاً من هادوث ناسك [يخت ٢١ ـ ٢٢] تقص أن روح (أورڤان) الشخص المستقيم تبقى بالقرب من جسده لمدة ثلاثة أيام . وحوالي نهاية الليلة الثالثة ترتفع ريح معطرة من الجنوب وتظهر «داينا» الموت «تحت شكل صبية جميلة متألقة ذات ذراعين بضتين ، متيقظة وذات مظهر جميل ، وبجسد مستقيم ، كبيرة ، وذات صدر بارز . . . لها خمسة عشر عاما» [حادوث ناسك ٩] وباظهار هويتها ، تضيف الداينا : «محبوبة كما كنت ، لقد جعلتني محبوبة أكثر بأفكارك الحسنىٰ ، وبكلماتك الحسنى ، وبأفعالك الحسنى وبدينك الجيد ؛ جميلة ، أعدتني أيضاً أكثر جمالاً ؛ مرغوبة ، ايضاً مرغوبة أكثر . . .»[ذات المرجع١٤]. ثم ، بأربع خطوات تجتاز الروح الافلاك السماوية الثلاثة(٥٧) وتصل «للأنوار التي لا بداية لها» [ذات المرجع ١٥] ، أي الفردوس . ان بعض الموتى يستفسر عن الطريقة التي اجتازها «من الوجود الجسماني إلىٰ الوجود الروحاني ، من الوجود الملىء بالاخطار إلىٰ الوجود بدون خطر» [ذات المرجع ١٦] . ولكن اهورا مزدا يتدخل : «لا تسألها ، لأنك تذكرها بالطريق المرعب الخطر ، المتصل بالمفارقة ، التي مرت به والذي يتركب بفصل الجسد والشعور» [ذات المرجع ١٧] ـ اشارة لتجارب السفر المأساوية(٥٨) . ويأمر

اهورا مزدا بأن يقدم لها من «سمن الربيع»[٥٩] الذي هو بالنسبة للمستقيم «غذاؤه بعد الموت» [ذات المرجع ١٨] . وعلى العكس فإن روح الشرير تلتقي في ريح الشمال امرأة شرسة مخيفة وتصل الي منطقة الظلمات التي لا بداية لها ، حيث يقضي انغرا مينو باعطائها السم . [ذات المرجع ٢٠ - ٣٥] .

ويمكن تبين الملامح المميزة في هذا كالآتي : ١) تلاقي الروح داييناها ، أي ذاتها الخاصة[٦٠] التي سبقت في وجودها («محبوبة قد كنت . . .») ولكنها في ذات الوقت النتيجة لنشاطها الديني على الأرض «لقد جعلت مني محبوبة اكثر . . .» ٢) الدانيا تظهر تحت شكل نسوي متأمثلة مع المحافظة التامة على مظهر محسوس ٣) انه يتعلق تأكيدا بمفهوم هندو - ايراني ، طالما يوجد في الكوشيتاني - او بانيشاد [١ ، ٣ - ٦] : روح من يرتبط على «طريق الآلهة» (ديقايانا) تستقبل ، بين آلهة أخرىٰ ، من قبل مانازي (ال «العقل») وكاكشوشي («البصيرة») ، وتجتاز بعدئذ بحيرة ونهراً ، وتدخل في مدينة وتصل أمام براهمان الذي يسألها «من أنت ؟»[٦١] .

لا توجد أية اشارة لجسر سينفات في الهادوكت ناسك . مع ان زرادشت يتكلم عنه كثيراً (ف . ١٠٣ع). انه يتعلق بمفهوم هندو - ايراني ، معروف من قبل شعوب هندو - اوروبية اخرىٰ ، ومؤكد من جهة أخرىٰ في تاريخ الأديان . ان الوصف الكلاسيكي[٦٢] يروي كيف أن الداينا تصل مع كلابها وتقود روح المستقيم على جسر سينفات ، من فوق الهارا ، بيريزيتي ، الجبل الكوني (وفي الواقع ، ان الجسر - الذي يوجد في «وسط الدنيا» - يصل الأرض بالسماء) . ان الأرواح المستقبلة من قبل ڤوهوماناه ، تمر أمام آهورا مزدا والأميشا سبينت . إن فصل الأخيار عن الأشرار يجري إما قبل الجسر ، وأما على مدخله . أما بالنسبة لدينونة الروح ، التي تكلمت عنها النصوص الفهلوية وحيث القضاة هم ميثرا مساعدا من سراوشا ومن راشنو (مزوداً بميزان) ، غير معروفة في الجاتهاز . إنها من جهة أخرىٰ زائدة في السيناريو : عبور الجسر ، قابل للمقارنة بتجربة مسارية ، يشكل في ذاته الدينونة لأن الجسر حسب مفهوم عام لحد ما ، يتسع تحت ارجل المستقيم ويصبح كحد موسى عندما يقترب منه كافر .

١١٢ - بعث الجسد .

كذلك فإن الاساطير والمعتقدات الأخروية المتبلورة حول ييما قد اعطيت بشكل سطحي مسحة من الزرادشتية . ففي حين ان ياما في الهند كانت استوحت بصورة خاصة ميتولوجيا الموت الأولى ، فإن بييما في ايران أصبح الملك الأول والنموذج للحاكم الكامل . ويكفي التذكير هنا بأن التقليد الايراني يشرك الفردوس الأول مع حكم ييما : خلال الف عام لم يوجد الموت ولا الألم واستمر الناس شبابا ـ [٦٣] . ولكن عندما بدأ ييما يتحدث بالاكاذيب ، فإن الكزافرنا الخاصة به هجرته ، وفي آخر المطاف فقد الخلود ايضاً(٦٤)

وهنالك اسطورة اخروية ، مع انها مستقلة في أصولها ، فقد ادخلت في اللاهوت الزراوشتى في ميتولوجيا ييما : انبأ اهورا مزدا ييما أن شتاء لمدة ثلاث سنوات سيتلف كل حياة على الأرض وطلب منه انشاء مكان مسور ڤارا وفيه سينقذ خيار البشر وبذوراًمن كل نوع من انواع الحيوانات . وجرى تخيل الڤارا وكأنه مستقر تحت الأرض ، لأنه لا تضيئه لا الشمس ولا القمر ولا النجوم(٦٥) . وهو يتعلق بأخروية قديمة ، ربما هندواوروبية (ر . الشتاء فيمبول في تقليد جرماني) لأنه لا يتناسب مطلقاً مع الرؤية الزرادشتية . وغالبا يعرف لماذا ادخل ييما في هذا السيناريو الاسطوري لنهاية العالم : كان الملك الخرافي للعصر الذهبي ، وفي الڤارا كانت حفظت وبدقة اكثر كانت ا نقذت البذور لبشرية مقبلة ، مهيأة لتعرف ، بعد الكارثة الأخروية ، الوجود الفردوسي للبدايات .

وثمة فكرة اخروية اخرى ، قد ضمت ، هي بعث الاجساد . وهذه العقيدة تبدو قديمة جداً ، ولكنها اعلنت بوضوح في يخت [١٩ ـ ١١ ـ ٨٨ و١٣ : ١٢٩] الذي يتحدث عن « بعث الموتى » وعلاقته مع قدوم الحي فيفارت » أي المخلص ساوشيان ، اذن في التجديد النهائي ، الذي يتطلب من جهة اخرى الدينونة الشاملة . ان العديد من الأفكار والتي بعضها قديم جداً تتمفصل الآن في رؤية أخروية متعاظمة : فالعالم المتجدد جذريا وبشكل كامل يمثل ، في

واقعة ، خليقة جديدة لن تكون ملطخة بوسوسة الشياطين ، وان بعث الموتى هو بالفعل اعادة خلق الاجساد ، ويعادل نشكونية بفضل التوازي ـ (الاصغر ـ الاكبر) . المفهوم القديم جداً والعام لدى عدة شعوب هندو ـ اوروبية ، ولكنه عرف تطوراً ملحوظاً في الهند وفي ايران وكما رأينا (ف ١٠٤) فإن التجديد النهائي ، المتخيل سابقاً في السر المحتفل به من قبل زرادشت قد افصح عنه في شعائر السنة الجديدة (النيروز) . ان التقليد ينتهي باقامته بحلول العام الجديد للأحداث الثلاثة الحاسمة من المأساة الكونية والبشرية : الخلق ، كشف « الديانة » التجديد الأخروي[٦٦] ولكن بما ان السنة تمثل كلية الزمن الكوني ، فإن العشرة الأيام الاخيرة من كل سنة تتقدم بنوع ما الدراما الأخروية . انها الفترة الخرافية التي ترجع الأرواح فيها للأرض : إن يخننا [١٣ : ٤٩ ـ ٥٢] يستدعي الفراڤاشي الذين يجولون بحرية اثناء العشرة أيام الأخيرة من السنة . وهذه العقيدة منتشرة عالميا ، ولكن الزرادشتين كغيرهم من اللاهوتيين مما قبلهم وبعدهم ، اطّروها في نظام اكثر اتساعا : حسب التقليد الفهلوي ، اكمل اوهرمازد خلق الانسان خلال هذه الأيام العشرة الاخيرة من السنة ، وبالنتيجة فإن الفراڤاش وصلوا على الأرض في لحظة خلق الانسان ، ويرجعون في نهاية الزمن عند بعث الاجساد [٦٨] .

ان النصوص المتأخرة تطور التوازي بين اعياد السنة الجديدة والتجديد الاخروي ، عندما سيكون هنالك بعث . فبمناسبة كل سنة جديدة تستلم ثياب جديدة ، وفي آخر الزمان سيعطى اهرمازد الى المبعوثين ثيابا فاخرة[٦٩] . وكما رأينا (ف ١٠٤ع) ، فإنه ، على اثر أضحية منجزة من قبل المخلص ، ساوشيان ، مساعداً اوغير مساعد من قبل اهورامزدا ، سيحصل التجديد الشامل وبعث الاجساد . وهذه الاضحية الاخروية تكرر بنوع ما الأضحية التشكونية، وذلك هو السبب الذي من اجله ، هو بوضوح « خالق » . ان البعث ، وقرينه عدم فناء الاجساد يمثل تطوراً جريئاً لفكرة زرادشت الأخروية ، وهو يتعلق ، باختصار ، بمفهوم جديد للخلود [٧٠] .

حواشي الفصل الثالث عشر

١ ـ من المرجح جدا أن النص (٢٥٨ سنة قبل الاسكندر) ينعكس على غزوه بيرسيبوليس (٣٣ ـ ق.م) التي وضعت حداً للامبراطورية الاخمينية . ان النجاح الأول لزرادشت ، اقناع الملك فيشتاسبا وكان ذلك عندما كان عمر النبي ٤٠ سنة . وان التسلسل التاريخي التقليدي (٢٥٨ سنة قبل الاسكندر ، مقبول من اكثرية الباعثين .

٢ ـ ر . دوشبسن ـ غوبليمن ص ١٣٠ ـ ٤١٠

٣ ـ إن widegsenبعد ان اعاد ذكرى مماثلات هندية من هذه الالفاظ ، اظهر انه يتعلق بمؤسسة هي على الأرجح قديمة ايضاً من المجتمع الهندو ـ اوروبي ص ٨٣٠

٤ ـ sky zikduder ٥٠

٥ ـ zidegse ص ١٢٠ وGuillemisـص. ١٨٥

٦ ـ زرادست مترجمة من قبل male عبادة اسطورة تشكونية ص ٢٨٤

٧ ـ ٨ نصوص ذكرها موليه دويدنفرين ـ ص ١٢٢

٩ ـ نصوص ذكرها موليه دويدنفرين ـ ص ٨٨

١٠ ـ الرعدة المثارة بالمخدرات كانت معروفة ايضا في الهند القديمة ـ الشامانية ـ الياد ص ٣١٩

١١ ـ المراجع المذكورة ـ widger

١٢ ـ هكذا على سبيل المثال في الزاتوبرام ، هنالك سؤال عن المسارة لزرادشت بواسطة افستيك ايشاسبينتا ، بين تجارب اخرى « معدن مذاب كان يهرق على صدره وهنالك يبرد » ويقطع جسده بالسكاكين وتظهر احشاؤه . ويسيل الدم ، ولكنه يدخل بعد ئذ يده ويبرأ » ـ ص ٣٣٢ ـ وتلك هي انتصارات مميزة للشامانية .

١٣ ـ هذه الجواهر entite´ او رؤساء الملائكة Arangs كما يدعون ايضا هم على علاقة مع بعض العناصر الكونية (الحديد ، المعدن ، الأرض الخ . .).

١٤ ـ ١٥ ـ مؤلفات ـ موليه ـ آثاس زدهر . .

١٦ ـ ر. G.ecamero ـ زرادشت

١٧ ـ موليه ـ وضع في الضوء التجديد المباشر للعالم يعيد الاضاحي المنجزة من قبل الكهنة .

١٨ ـ هذا يتناسب من جهة أخرى مع الصورة التي صنعتها اليونان القديمة من زرادشت ـ فيلسوف وحسب (اديستوكسين كان زميله فيثاغورس) معلم مسارة وكاتب بحوث هرمسية وكيميائية .

٢٠ ـ meillet ـ ثلاثة مؤتمرات حول ابحاثها ص ٥٦ .

٢١ ـ ر. اعمار اونالي ، بالدرجة الأولى حالة الماجا والغنوصية الإيرانية .

٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ اونالي ـ دغويوني ـ والمراجع الأخرى .

٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ويدنفرين ص ٨٨ وميناري ـ الانتروبولوجيا . ٣٥ ـ ٣٦ ـ دين اليونان .

٢٧ ـ غيللوم ـ تاريخ الاديان ص ٣٢٦ .

٢٨ ـ دومزيل ـ ولادة الكهانة ص ٦٢ .

٢٩ ـ موليه ـ عبادة ـ اساطير كونية ص ٣٥ ـ يلاحظ أنه في الطقوس ، الافرازا تعني ممتاز وليس لها قيمة دينية . . مع ذلك فإن القيمة الدينية هي مضمرة في الممتاز من التصرفات الملكية .

٣٠ ـ Kent ـ فارس القديمة ـ والعبارة يمكن الا تكون من مصدر me`d .

٣١ ـ حسب جوشين [٤]ان الراعي وجد الطفل موضوعاً على اهبة ان يرضع من كلبة (لترميز في اساطير كبار الابطال) وعليه يقرر هيرددوت ان امرأة ميتزاذت المسماه سياكو أي (كلبة) في الغة الميدية (الاسطورة الملكية ص ٢٢٦)

٣٢ ـ كيرباس ـ بريبوليس ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢ .

٣٣ ـ حتى كيرباس الذي عاش ٢٤ سنة في قصر الملك الكبير لم يذكر بيروبوليس مما يدل على القيمة الباطنية لهذه المدينة المقدسة .

٣٤ ـ ٣٥ ـ Gonali ـ ص ٢٣٣ ـ وايهندر ص ١٢٨

٣٧ ـ الياد ـ الرجوع المتكرر ص ٥١

٣٨ ـ vridengren يقدر مع ذلك أن ميترا كان قد تمتع في فارس بعبادة غير مهملة وذلك خلال حكم دايروس .

٣٩ ـ ٤٠ ـ zuchmer ـ و wihsamur ص ١٣٩.

٤١ ـ في السينات الثالية ١١ ـ ١٣ ـ ٣٠ ـ ٣٧ ـ ١٣ ـ الشمس تدعى عين اهورامز والامر الذي يدل على اعادة تركيب فكرة هندو ـ ايرانية قديمة لأنه سبق في الريغ ـ قيدا (١ ـ ٥٠ ـ ٦) ان الشمس هي عين فارونا .

٤٢ ـ ٤٣ ـ كما لاحظ ذيهز ص ٦٠ في النصوص المتأخرة المياه قد اهملت ، زوجة اهروا مزدا ستصبح آرميتي الفكرة الطيبة للجاتهاز ، التي تطابقت بعدئذ مع الأرض ، ويتعلق بالتأكيد في اسطورة من الدين الايراني التقليدي .

٤٤ ـ ص ـ ١٣١

٤٥ ـ اظهر G.dumezil . ان محل ميترا قد اتخذ في الجاتهاز من قبل قزهومانها .

٤٦ ـ يعرف معنى هذا الباعث الاسطوري : انشاء معبد في السماء من قبل اعضاء مجمع الآلهة يمجد الانتصار (العديد من المرات من نوع تشكوني ـ ماردوك الاله ويكرس ترفيته الى صف اعلى (بعل) . وبالتأكيد ان هذا المشهد الاسطوري يترجم على الأرض باقامة معبد على شرف الاله ص /٥٠/ .

٤٧ ـ يتعلق في هذه الحالة مباعث تشكوني ثناني معروف جداً في فولكوراوروبا الشرقية واسيا الوسطى وسيبريا ولكنه تأكد ايضاً في الذرفانية ـ انظر ـ السياد ـ الاله والشيطان ص ٨٤

٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ الدين و[ف

[*١٠٣٠

٥٢ ـ moli ـ عبادة واسطورة كونية ص ١٣١ ـ ان الساوشيان هو المخلص النهائي ، متماهيا بزرادشت ، تبعا لبعض التقاليد المتأخرة المتولدة من بذرةالنبي المحفوظة بمعجزة في بحيرة .

٥٣ ـ ٥٣ ـ النصوص مترجمة من قبل موليه ص ٨٧ ـ ٩٠ ـ ١٢٦ .

٥٧ ـ انها كريات النجوم ـ للقمر والشمس المعنية في النص (فكرة حسنة) (قول حسن) فعل حسن ـ

٥٨ ـ ورث معلومات كثيرة عن نصوص مكتشفة مؤخرا عن هذه التجارة .

٥٩ ـ حول سمن الربيع انظر widengren ص ١٢٦ .

٦٠ ـ ٦١ ـ ويكبر ـ فايو ـ ص ٤٧ يذكر ان datistan يدل على الفتاة ذات الاسم (خازنة الأعمال الجيدة) تماماً ، حسب النص البوذي داهما بادا « ان الفضلاء يستقبلون بأعمالهم الحسنى لو كانوا اقرباء اعزاء) السفر السماوي للميث هو في كل نقاطه مشابه للصعود الوجودي للروح عبر المحيطات النجومية ، القمرية والشمسية قبل ان تصل للجنة . صعود قصة مروية في كتاب متأخر .

٦٢ ـ اليسنا ومراجع اخرى .

٦٤ ـ ودميزيل ـ ص ٢٨٤ .

٦٥ ـ ٦٦ ـ موليه ص ١٢٠ ـ اسطورة ـ كونية .

٦٧ ـ الفرافاشي هي ارواح العادلين وفي ذات الوقت نماذجهم السماوية بكونهم ملائكة حراس) ـ للمؤمنين فإنهم يصارعون ضد تجسد الشر ، والمصادر المتأخرة تصورهم كفرسان مسلحين حامين للسماء ، والصورة المعقدة للفرافاشي تبدو عملية طويلة من التوفيقية الدينية

٦٨ ـ النصوص المذكورة من قبل موليه .

٧٠ ـ الخليقتين ـ (رومية ومادية ـ كذلك ان ميتولوجيا الانسان الأول ستناقش جميعها في الجزء الثاني .

الفصل الرابع عشر

ديانة اسرائيل في عصر الملوك والأنبياء

١١٣ ـ الملكية ـ اوج التوفيقية .

« عندما أصبح صموئيل شيخاً ، نصب ابناءه كقضاة في اسرائيل » . ولكن اولاده لم يتبعوا خطاه ، وعندئذ اجتمع شيوخ اسرائيل كافة وأتى صموئيل في الرامة وقالوا له : انك انت قد شخت وبنوك لا يسلكون في سبلك فالآن أقم علينا ملكا يقض بيننا لجميع الأممَ [صموئيل ١ ـ ٨ ـ ١ ـ ٥] .

لقد كانت الملكية اذن مؤسسة غريبة . بعض المعارضين لم يوفروا له الانتقادات ، لأن يهوه في نظرهم وحده كان ملك اسرائيل . مع ذلك ، منذ البداية ، كانت الملكية معتبرة كمسرة ليهوه. وبعد ان مسح شاوول من قبل صموئيل ، تلقى (الروح من يهوه) [ص ١ ـ ١٠ ـ ٦] « فيحل عليك روح

الرب وتتنبأ انت فيهم وتصير رجلاً آخر » . لأن الملك كان الممسوح من الاله oint=مسياه . [ص : ٢٤ ـ ٧ ـ ١١ ـ ٢٦ الخ [فقد كان يتبنى منْ قبل يهوه ويصبح نوعا ما ابنه . « سأكون بالنسبة له ابا وسيكون بالنسبة لي ابنا » [١١ص . ٧ ـ ١٤] . ولكن الملك لم يتولد من يهوه ، انه ليس سوى معترف به « يعترف بشرعيته » باعلان خاص /١/ . يهوه يمنحه السيادة الـالية]مزمور ـ ٨,٧٢] والملك يستقر على عرشه الى جانب الأله [مز . ٧٢ : ٨ والاخبار ٢٨ ـ ٢٩١٥] ان الحاكم هو ممثل يهوه ، وبالنتيجة ينتمي الى المحيط الالهي . ولكن الوضعية الوحيدة ليهوه تجعل من غير الممكن « تأليه الملك » : انه بامتياز « الخادم » ليهوه [الكلمة طبقت ٦٠ مرة على داوود] .

ان حفلة التتويج تتضمن الى جانب شعائر اخرى المسح ، اعلان الملكية والتنصيب ٣. الملك بصفته ممثلا يهوه يجب ان يدعم النظام الكوني [مز . ٢ : ١٠ ـ ١٢] يفرض العدالة ، يدافع عن الضعفاء [مز ٧٢ : ١١] يؤمن الخصب للبلاد ، « انه سينزل مثل المطر على الكلأ . . وفرة من القمح على الأرض حتى رؤوس الجبال) [مز ٧٢ ـ ١١ : ٦] . لقد كانت تعرف الصور التقليدية لحكم « فردوسي » ، صوَّر نشرها بتألق الانبياء المسيحيون « من جهة اخرى ، انتظار ملك مثالي ، المسيح ، متضامن بالفكرة الملكية) . ان الملكية فسرت كاتحاد جديد بين يهوه والاسرة الملكية لداوود ، تمديداً لتحالف سيناء . وفي هذا التقييم لمؤسسة غريبة بصفته عملا جديداً من التاريخ المقدس ، الذي يمكن من توضيح اصولية الايديولوجية الاسرائيلية ٤/ . فسليمان بنى المعبد في اورشلم بالقرب من قصر ملكي ، وأشرك بذلك طقس المعبد للملكية الوراثية . والمعبد اصبح محل اقامة يهوه بين الاسرائيليين . وثابوت التحالف ، الذي كان يرافق الجيوش حتى ذلك الوقت ، مركز في ظلام (قدس الاقداس) دبير ، ومن معبده تشع قداسة يهوه على المدينة ونحو الأرض بكاملها [مز ـ ١٥ ـ ١ ـ ٢٤ : ٣ ـ ٤٦ . وعيو ٣١ : ٤ـ٨الخ الخ] . جبل صهيون ـ سيون الذي اقيم المعبد عليه هو مركز العالم » ٥ ومعبد اورشليم يصبح المعبد القومي ، والعبادة الملكية تتطابق مع ديانة الدولة . ان المهمة تتكون على شعائر تشفعية استعطافية

واستغفار بالنسبة للمجموعة ، ولكنها تقتضي ايضاً صلوات عامة من اجل الملك ، ولأجل مجده ولأجل ممارسة عدالته التي تضمن « سلامة الشعب » والرخاء الشامل [مز ـ ٢٠ و ٧٢] ، وفي آخر المطاف يجددالعمل الطقسي بنية العالم . وكما ان المعبد قد بني طبقاً لنموذج اجنبي ، فإن العقيدة استعارت الاشكال الكنعانية . ان التوفيقية توصلت لنسب مجهولة حتى ذلك الحين ، لأن الملكية شجعت دمج الافكار والتطبيقات الدينية المقتسمة من قبل طبقتي السكان الاسرائيليين والكنعانيين وزيادة على ذلك ، فان سليمان قبل عبادة زوجاته الاجنبيات واجاز انشاء معابد على شرف الهتهن [اعلان ١١ ـ ٦٠] .

ان الملوك كانوا يعتبرون كرؤساء لديانة الدولة . ولكننا لم نعرف الكثير عن وظيفتهم الكهنونية . وعندما نقل الثابوت لأورشليم فإن داوود اقتاده ككاهن : رقص امام التابوت ، وقدم محرقات بحضور يهوه [. . . . .] وبارك الشعب باسم يهوه ساباتاه « ولما فرغ داوود من اصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود [١٧ ص ٦٠] وكان لما دخل تابوت الرب مدينة داوودان مبيكال بنت شاوول اشرفت من الطاق ورأت الملك داوود الصغير يرقص امام الرب فازدرته في قلبها » [ملوك ، ٥٧ : ١٧] .

كذلك سليمان فإنه بارك المجمع عند تكريس المعبد [ملوك ١٠٠٨:١٤] ومز ١١٠ : ٤] واعلن الملك « كاهنا للابد حسب أمر مبلشيسيديش ، ولكن الملوك في مناسبات اخرى كانوا معرضين للنقد لأنهم أقاموا شعائر موقوفة على الكهنة . ومن الراجح جداً ، ان الملك كان يلعب دوراً في حفلات الاستغفار للعام الجديد . ومن جهة اخرى فإن بعض المزامير تبدو مرتبطة بشعيرة موت وبعث رمزي للملك . ويمكن الافتراض اذن بوجود علاقة بين عيد السنة الجديدة متضمنة اعادة تمفصل رمزي للخليقة ـ وشعيرة / الموت/ والبعث للملك(٩٩) .

عند موت سليمان ، قسم العرش الى قسمين : عرش الشمال أو اسرائيل وعرش الجنوب او يهودية . وحيث ان الثابوت كان باقيا في القدس وان القبائل

الشمالية لم يكن لها ممر للمعبد المشترك فإن جيردبوم ، الملك الأول لاسرائيل ، اقام معبدين في بيتهيل وفي دان حيث كان يهوه معبوداً تحت شكل عجلين من ذهب [الملوك الأول ١٢ : ٢٨ ـ ٢٩] . ومن الممكن ان تماثيل بأشكال ثيران كانت قد استخدمت كمقعد للاله الغير منظور . انه يتعلق على الاكثر بتأثير كنعاني الذي انتهك منع الصور ، وهذا التجديد الملامس للردة عمق عدم الوفاق بين العرشين /٧/ .

١١٤ ـ يهوه والخلق .

إن مجموعة كاملة من المزامير (مزامير التنصيب) تمجد يهوه بصفة كاملة . إنه «ملك كبير فوق كل الآلهة» [٩٥ : ٣] «يهوه يحكم ؛ الشعوب تتضطرب [. . . . .] . الملك الذي يحب الدينونه ، هو أنت ، لقد أقمت الاستقامة ، القضاء والعدالة» [٩٩ : ١ و ٥] . ولكن فكرة الملكية الالهية لا تتطلب مؤسسة الملكية . إن المفهوم قديم جداً : الرب هو سيد العالم لأنه هو الذي خلقه . إن يهوه قد غلب الغول الأولي (رحاب ، ولوفياثيان والتنين) رمز العماء . وبصفته مدبر كوني ، يقيم الاله في السماء ويظهر حضوره أو إرادته في العناصر الجوية ـ الضياء الرعد ، المطر . ولقد سبق أن ذكرنا صفاته المتناقضة (ف ٥٩ ع) ، صفته من «الكلية» معروفة جداً . يهوه يوزع الخير والشر ، هو يحيي ويميت ، إنه يرفع ويخفض [حموا ـ ٢ : ٦] . غضبه لا يرد «عنيف» ولكنه مسامح . يهوه هو القدوس (كادوس) ، بامتياز ، الأمر الذي يعني ، أنه في آن واحد ، لا يدرك وخطير ، ويمنح السلام[٨] .

خالق العالم وملك العالم ، وهو أيضاً القاضي في خليقته . «في اللحظة التي أقرر فيها ، أفعل ، أنا عدالة مستقيمة» [مز ٧٥ : ٣] . يقضي باستقامة [مز ٩٦ : ١٠] عدالته هي في آن واحد أخلاقية كونية ، واجتماعية ، وتشكل المعيار الأساسي للكون[٩] يهوه هو «الاله الحي» وبعبارة أخرى أنه يتميز بشكل واضح

عن الاصنام التي لا تتكلم ، والتي يجب حملها لأنها لا تمشي [أرميا ١٠ : ٥] كم من الأشخاص «يشابهون العشب الذي ينبت» [مز ١٠ : ٥٠] والانسان هو ، هو أيضاً كائن حي (نفس) وذلك لأن الاله نفخ فيه النفس أو الروح (رواه) ولكن وجوده هو لمدة قصيرة . وإضافة لذلك ، بما أن الاله هو روح ، فالانسان هو لحم ـ بازار . إن هذا التعارض لا يقتضي الانخفاض الديني للجسد ، إنه يشير إلى آنية وصفة وقتية للوجود الانساني ، المتضادة مع القدرة الكلية والأزلية للاله . إنه يتميز غالباً عن بقية الخلائق ، لأنه شكل على صورة الإله ويحكم على الطبيعة وأن فناء الإنسان هو نتيجة الذنب الأصلي ، وبصورة خاصة نتيجة رغبة آدم في آن أن يصبح مماثلا للاله (ف . ٥٩ ع) . إن النصوص التوراتية تؤكد على تفاهة الشرط البشري . فالانسان أخرج من الغبار وسيعود إلى الغبار [تكوين ٣ : ١٩] . إن الحياة الطويلة هي أكبر مال له ، وكما في عدد من ثقافات تقليدية أخرى فإن الموت هو انحطاط : يحط بالانسان الى وجود متأخر دعموصي في القبر أو في (الشيول) . مكان مظلم ومخيف في أعماق الأرض .

بما أن الموت هو بامتياز نفي فعله ، فإن يهوه لا يحكم على الـ شيول . وبالنتيجة فإن الموت محروم العلاقات مع الاله ، الأمر الذي يشكل ، بالنسبة للمؤمن التجربة الأكثر إرعاباً . مع ذلك فإن يهوه أقوى من الموت : إنه رغب به ، إنه يستطيع أن ينتزع الانسان من قبره . وبعض المزامير تشير لهذه المعجزة : «لقد سحبت روحي من شيول ، وأعدت لي الحياة من بين أولئك الذين سقطوا في الحفرة» [٣٠ : ٤] . «كلا ! لن أموت ، سأحيا [. . .] ؛ لقد عاقبني . . ويهوه للموت لم يسلمني [١١٨ : ١٧] . هذه هي المراجعات الوحيدة لبعث الأموات قبل الأسرالبابلي [٥٨ ـ ٥٣٨] عندما سيخضع جزء من السكان لتأثير الأخروية الايرانية [ر . الجزء الثاني] ١٠ .

إن الانسان «عبد» أو «خادم» ليهوه يجب أن يعيش في الخوف من ربه . فالطاعة هي العمل الديني الكامل . وبالعكس ، فإن المعصية هي الذنب ، الذي يسيء للأوامر ، مع ذلك فإن الشعور بالعرضية لا يحجب الثقة بيهوه ولا السعادة المتحصلة بالمباركة الالهية . ولكن العلاقات إله ـ إنسان لا تتجاوز هذه المرحلة من

الوحدة الصوفية للروح مع خالقها الغير معقولة بالنسبة للاهوت القديم . بالاعتراف به كخالق وكسيد مطلق يصل الانسان عى الأقل لمعرفة بعض صفات الاله .

وبما أن الشريعة (توراة) تعلن الارادة الإلهية بدقة ، فإن الجوهري هو اتباع التعليمات ، أي التلاؤم تبعاً للقانون أو العدالة (صدهك) ، والمثال الديني للانسان هو ان يكون مستقيما ، وان يعرف ويحترم الشريعة ، الأمر الالهي . وكما يذكر بها النبي ميخا [٦ : ٨] « لقد جعلناك تعلم أيها الانسان ، ما هو الخير ، ما يطلبه يهوه منك : لا شيء آخر سوى اتمام العدالة ، لأن تحب برقة وان تمشي بتواضع مع الهك » . ان الذنب يضيع البركات (براكهاه) . ولكن بما ان الذنب يشكل جزءاً من الشرط البشري ، ولأن يهوه ، رغم شدته رحيم ، فإن العقاب لم يكن ابداً نهائياً .

١١٥ ـ أيوب ، المستقيم يخضع للتجربة .

قدر أحد الشراح ان « تلاقي القوة والطيبة تلخص الحالة التي فهم العهد القديم الاله بها » « ويمكن الشك ان كل قراء سفر أيوب يوافقون على هذا الحكم . ان القصة هي من بساطة مأساوية :[١٢] إنها تتعلق ببلوى انسان منصف ، كان يهوه فخورا به . « قال الرب للشيطان ، من اين أقبلت ، فأجاب الشيطان وقال للرب من الطواف في الأرض والتردد فيها » [سفر ايوب ١ ـ ١٠] فقال الرب للشيطان هل املت بالك الى عبدي أيوب فإنه ليس له مثيل في الأرض . انه رجل سليم مستقيم يتقي الله ويجانب الشر » [١ ـ ٨] . ولكن الشيطان اعترض وقال : « ألم تكن سيجت حوله وحول بيته وحول كل شيء له من كل جهة وقد باركت أعمال يديه فانتشرت امواله في الأرض[١١] ولكن ابسط يدك وامسس جميع ماله فتنتظر الا يجدف عليك في وجهك » [ايوب : ١ ـ ١٢]

وعندئذ يسمح يهوه « للمتهم » ان يضع قيد التجربة اكثر خدمه اخلاصاً . فأضاع أيوب اولاده وثروته . وأرهق (بقرحة خبيثة ، من اخمص قدميه حتى قمة رأسه » فوضع نفسه بين الرماد . انه يتأوه ، لاعناً اليوم الذي ولد فيه ولكنه لم « يقل في الله جهلاً ، [ايوب ٢٢] ولم يثر ضد الله ، واقترب منه ثلاثة اصدقاء ، وفي حديث طويل ، حاولوا اقناعه بأن الفعل البسيط الذي يؤلمه ـ اذن الذي عوقب به ـ يثبت اجرامه . وبالنتيجة ، يجب ان يعترف ويقر بذنوبه . ولكن ايوب يرفض التفسير لتعاسته بمبدأ المكافأة ، انه يعلم ان الانسان « لا يبر تجاه الله » [١٩ : ٢]وان يهوه « يستأصل السليم والمنافق على السواء » [٩ : ٢٢] ومع ذلك بتوجهه لله يتجاسر ان يقول : « على علمك بأنني لست بمنافق وانه لا منقذ لي من يدك » [١٠ : ٧] . انه لا يعلم لماذا يهتاج الرب ضد مخلوقه الخاص [١٠ ـ ٨ ـ ٢٢] لأن أيوب لا يشك ابداً بالخاصية الساخرة لكل وجود بشري : « ألم تواري وجهك وتعتدني عدوا لك ، انما تروع ورقة منثورة وترهق عصافة يابسة » [١٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥] ولكنه لم يفلح ليحدد ماهية طبيعة جرمه : « كم من المعاصي والاخطاء قد ارتكبت ؟ اعلمني معصيتي ، وخطيئتي »[١٣] [١٣ ـ ٢٣] .

أن أحد اصدقائه يدين هذه اللغة ، لأنه المخلوق بالتعريف ، هو مجرم : « ما الانسان حتى يزكو ، او مولود المرأة حتى يبر ، ها ان قديسيه لا يأتمنهم والسماء غير ذكية في عينيه » [١٥ ـ ١٤ ـ ١٥] .

ولكن أيوب يردد ، انه يتعلق في حالته ، بقرار شخصي من يهوه ، والذي لم يعرف قصده [١٩ : ٦ ـ ٧] وعندما يتكلم معه صديق آخر عن عقاب المذنبين ، يذكره ايوب بأن المنافقين الذين لم يخدموا الله ، « يبقون على قيد الحياة » وينعمون [٢١ : ٧ ـ ١٦] . لو علم كيف سبب له الأذى ، لكان سيقيم عليه دعوى وسيتكلم امامه عن سوء الأعمال التي بقيت دون عقاب ـ ولكن السيد بعيد ، غائب ، وغير منظور [٢٣ : ٢٤] . وهذا بدقة لأنه لم يترك ايمانه وثقته بالله الذي أعلن أيوب انه « حاشى لي ان ابرركم . اني الى ان تفيض روحي لا أقلع عن سلامتي . قد تمسكت بتبريرى فلا ارضيه لأن ضميري لا ينقم شيئاً من

ايامي » [٢٧ : ٥ - ٦] كثيراً ما صرخ أيوب والاله لم يجب « اليك اصرخ فما تجيبني وامامك اقف فما ترعاني ، قد اصبحت لي عدوا قاسياً وبقوة يدك حملت علي » [٣٠ : ٢١ - ٢٢]

وصديق رابع ايليهو « ما زال شابا » يتدخل بعنف . انه غضب على أيوب لزعمه : « انني نقي ، بدون ذنب ، انني بلا خطيئة ، » ، واعلن ايليهو لأن « لا جرم أن الله لا يأتي بالنفاق والقدير لا يأود القضاء » ، « ان الله عظيم وهو لا يزدري أحداً ، عظيم القدرة والحكمة » [٣٦ : ٥] وبعد حديث ايليهو الطويل(١٤) ينطلق جواب يهوه بصفته الغير شخصية والرب يتكلم « فأجاب الرب ايوب من العاصفة وقال من هذا الذي يلبس المشورة بأقوال ليست من العلم في شيء [٣٨ - ١] وفي تجلي حقيقي ، ولكنه يتجاهل اسئلة ايوب ، يقصد يهوه تذكيره بقدرته الكلية ، وبعمله الكوني ، وبتعقيد العالم ، وباختلاف لا نهاية له لمظاهر الحياة . وبعد ان يثير الانشاءات الكونية الكبرى والقوانين التي تحكم السموات والارض [٣٨ - ١] يتكلم معه عن الأسود والوعول ، وبعض المخلوقات التي يضمن لها ، الحياة والتكاثر ، بعد أن صنعها ، كل واحدة منها مع شكله الخاص ومع سلوكه المميز . ويخلص موبخاً له « اشدد حقويك وكن رجلاً ، اني اسألك فأخبرني » [٤٠ - ٢] . ويحاول أيوب عبثا ان يلوذ بالصمت : « لقد تكلمت بصوت خفيض : بماذا اجيب سأضع يدي على فمي » [٤٠ - ٤] .

وفي حديث ثاني ، يصف له يهوه مطولاً حيوان البهموت والغول ، لوفياتان ، وباجابته له يظهر أيوب انه فهم المعنى السري لدرس يهوه : ان الوجود للعالم هو بذاته معجزة ، وطريقة كون الخالق تزهل المعرفة ، وقصد افعاله يبقى غير ممكن معرفته « اعلم انك كلي القدرة . . . كنت الذي اخطأ نصائحك ، بمقاصد مجردة من المعنى - كذلك ان تكلمت بدون عقل ، بالمعجزات التي تفوتني والتي اجهلها . . . . . لم اكن اعرفك لا بالسمع والقول . . . . ولكن عيناي تراك الآن . . . كذلك اسحب كلامي واندم . . . في الرماد والتراب » [٤٢ : ١ - ٦] واخيرا يعترف ايوب بأنه سار باتجاه الرب . وفورا ينقذ الرب حاله ويضاعف كل امواله ويعيش ايوب بعد هذا مائة واربعين عاما . [٤٢ : ٧ : ١٧] .

بعد ثلاثة آلاف سنة ، يستمر هذا السفر المليء بالألغاز والمضطرم والمغلق ، يستمر في استهواء الألباب . ان واقعة انسياق الاله للمراهنة مع الشيطان تعكّر الكثير من النفوس المتدينة بسذاجة فتضطرب حيال ذلك ، ومع هذا فإن أيوب قد فهم جيداً : اذا كان كل شيء يتبع الاله ، واذا كان الرب عصي على الفهم ، فإنه من غير الممكن ان يحاسب على افعاله ، ومن غير الممكن اذن ان يحاكم حالته تجاه الشيطان . ان الدرس السري ليهوه يتجاوز (حالة ايوب) .

انه يوجه الى كل اولئك الذين لا يصلون الى معرفة حضور - وانتصار الشرفي العالم - واجمالا ، بالنسبة للمؤمن ، ان كتاب ايوب هو (تفسير) للشر ولعدم العدالة ، وعدم الكمال وللارهاب . . حيث ان كل شيء قد أريد ويجري من قبل الرب ، فكل ما يحصل للمؤمن مثقل بالدلالة الدينية . . . ولكنه سيكون من العبث - وبذات الوقت من الكفر - الاعتقاد انه بدون معونة الله ، يكون الانسان مؤهلا لفهم غموض انعدام العدالة او سر الظلم .

١١٦ - زمن الانبياء .

« وكان فيما سبق اذا أراد الرجل من اسرائيل أن يذهب ليسأل الله يقول هلم نذهب الى الرائي لأن الذي يقال له اليوم نبي كان يقال له من قبل راء » [صموئيل ١ - ٩ : ٩] وفي الواقع ان مؤسسة الرؤيا (روية) في فترة البداوة قد تحورت ، بعد الغزو ، تحت تأثير النبوات (نابيم) ، التي اوجدها الاسرائيليون في فلسطين . . . حوالي ١٠٠٠ ق.م كان لا يزال متواجداً « الراؤون » اليهيويون (مثل ناتان) والانبياء . وتباعا اندمجت المؤسستان وكانت النتيجة النهائية النبوة الكلاسيكية للعهد القديم «وأقبل الى الأكمة فاذا بجماعة من الانبياء قد استقبلوه فحل عليه روح الله فتنبأ بينهم » [صموئيل١ - ١٠ - ٥] . تماما كالانبياء ، كان الرسل مشاركين في المعابد والعبادة ويتقاسمون التجارب الوجدية .

ان ايليا واليشاع يبرزان مرحلة الانتقال ، ولكن ارشادهما ونشاطهما الديني يعلنان آنئذ النبوة التقليدية . فايليا ظهر في مملكة الشمال ، تحت حكم ملوك آشاب وآهاذياس (٨٧٤ ـ ٨٥٠ قم) . وقد تمرد ضد سياسة آشاب حيث أراد هذا تكريم الاسرائيليين والكنعانيين بأن منهما حقوقاً متساوية وشجع التوفيقية الدينية مع عبادة بعل او مالكارت ، عبادة محمية من قبل الملكة جيزابيل التي هي في اصلها من صور . وأعلن ايليا يهوه رباً وحيداً في اسرائيل . فيهوه وليس بعل ، من يسقط المطر ويضمن الخصب للبلاد . وفي المشهد الشهير في جبل الكرمل ، عندما يدخل المبارزة مع انبياء البعل لكي يضع نهاية لجدب السنوات الثلاث ، يبرهن ايليا عن عدم قدرة رب الكنعانيين لانارة المذبح التضحوى ، ويذهب ليأتي بالمطر[١٥] . إضافة لذلك فإن ايليا ينفجر غاضبا ضد الملك آشاب الذي كان قتل واحداً من رعاياه كي يغتصب كرمه وتنبأ له بموت عنيف [ملوك : ٢١] إن شهرة ايليا بعد الوفاة تقربه من موسى . فقد جعلت الاسطورة يهوه يرفعه للسماء في عربة من نار [ملوك ـ ٢ : ٢] وخلافاً لايليا فإن اليشاع يجمع جمعاً من الانبياء حوله . ولكنه تماماكإيليايشارك بنشاط في الحياة السياسية . يرسل وسطاء من الكهنة الى الملك ويرافقه بنفسه الى الحرب [ملوك٢ ـ ٣ : ١١] والى جانب العرافين والرائين الجوالين يميز صنفان من الانبياء ، المجموعة الأولى مؤلفة من الانبياء الطقوسيين : انهم يسكنون بالقرب من المعابد ويساهمون بالطقوس مع الكهنة[١٦] . وهؤلاء هم انبياء القصر ، المشاركين في المعابد الملكية . وفي العديد من المرات ينتبأون للملك بالنصر المرغوب [ملوك ١ ـ ٢٢] . وهذا الصنف من الانبياء المتهنين ، وبنسبة كبيرة تشمل ايضاً اولئك الذين كانوا يعتبرون في العهد القديم كالانبياء المزيفين .

واكثر اهمية في تاريخ الديانة الاسرائيلية هي المجموعة الثانية ، المشكلة من كبار الانبياء المختصين بالكتاب المقدس ، من عاموس حتى اشعيا الثاني . هؤلاء الأخيرون لم يعلنوا رسالتهم بصفة اعضاء لمهنة ، ولكنها معبر عنها بايحاء خاص . انهم لا يمثلون بعض قبائل او بعض المعابد ولا الملوك ولكنهم يعرفون برسل الرب[١٧] ان ارشادهم الرباني مقرر بدعوة مباشرة من يهوه . وكما يروى ارميا

« كلام يهوه لم يوجه بهذه العبارات : قبل انشائك في بطن امك ، عرفتك ، قبل ان تخرج من رحمها ، قد ستك كنبي للشعوب ، اقمتك » [ارميا - ١ : ٤] . من جانبه فإن اشعيا رأى يوما وهو في المعبد « الرب جالساً على عرش مرتفع » محاطاً بالسيرافيين وسمع صوته قائلا : « من أرسل ؟ ومن ينطلق لنا رسولاً : فرد اشعيا : « ها أنا ذا فارسلني » فأملى عليه الرب ما يجب ان يقوله للشعب [اشعيا ٦ : ١ - ١٠] . ان الدعوة مسموعة رغم معارضة المستمعين . [هو شع ٩ : ٧ وحزقيال ١٢ : ٢١] . ولكنه قد يحصل ان ينقطع الارشاد بقوة [عامسو ٧ : ١٠] أو من قبل النبي نفسه عندما يقدر انه اخفق في مهمته [اشعيا ٨ : ١٦ - ١٨] .

ان كل الانبياء الكبار بصدق وحب قد اقتنعوا برسمية ارشادهم الرهباني وفاعلية رسالتهم . انهم لم يشكوا ابداً بأنهم يعلنون كلام الرب ذاته ، لأنهم شعروا ان يد يهوه او روحه (رواه) قد القيت عليهم[١٨]. ان الامتلاك الالهي يظهر احياناً بالوجد ،مع ان التمجيد أو الرعدة لا تبدو حتمية .؟[١٩]ان بعض الأنبياء قد اتهموا ، حتىٰ بالجنون(مثل هوشع ٩:٧)«ان النبي سفيه ورجل الروح مجنون» ولكنه لا يمكن الكلام عن مرض متعلق بعلم النفس المرضي psycho pathologique . إنه يتعلق بهزات مرضية مثارة بالوجود المرعب للرب وبثقل المهمة التي أتى النبي ليقوم بعبئها . وهذه الظاهرة معروفة جداً منذ «الأمراض السارية» للشامانيين حتى «جنون» كبار الصوفيين من كافة الأديان . واضافة لذلك ، مثل «الاختصاصيين بالمقدس» في المجتمعات القديمة والتقليدية فإن الأنباء وهم موهوبون بقدرات تنبؤية[٢٠] ويظهرون قدرات خارقة من طبيعة سحرية ! يعيدون الحياة للموتى ، يطعمون الجموع بكمية قليلة من الطعام ، يشفون بعض المرضى الخ[٢١] . ان العديد من الحركات المنجزة من قبل الأنبياء ، لها قيمتها الرمزية : ايليا يلقي عباءته على يوشع [ملوك١ . ١٩ : ١٩ - ١٢] مصغيا لأمر يهوه ، ارميا يكسر جرة من الفخار لكي يوضح الخراب المقبل لاسرائيل [ارميا ١٩ : ١٠] يحمل نيراً لاقناع الشعب لأن يخضع لملك بابل[٢٢] .

ولكن مهما كانت استلهاماتهم (حلم ، رؤى ، شهود ، معرفة ، معجزة

الخ) فإن كلام يهوه كان دوما هو الذي يتلقاه الأنبياء . هذه الكشوفات المباشرة ، الشخصية ، كانت مفسرة بكل وضوح على ضوء اعتقادهم العميق ، ومنقولة حسب بعض النماذج التقليديـة .ان انبياء ما قبل النفي لهم هذا مشترك بينهم وهو أنهم بخاصة الذين صرحوا بدينونه الرب ضد اسرائيل : يهوه سيرسل غزاة لا يرحمون لابادتهم : الرب سيستعمل الامبراطوريات الكبرى الحربية كأداة لعقاب شعبه الخاص الذي خانه . فهل يمكن تكشف وعد بالأمل أيضاً في هذه الإدانه الرهيبة ؟ ؟ . لقد اعتقد بمعرفة نوع من التناوب المتغير في النبوة من العهد القديم، والمعلومةجدا في الشرق الأدنى، بين «أزمان البؤس» و «أزمان الخير»، غير ان هـذا المخطط يبدو انه ينطبق في كل الأمثلة المثارة[٢٣] . وكما سنرى (و ١٨٠ ع)، فإن الأمل الوحيد يستمر في «بقية» شعب منتخب سيعيش بعد الكارثة . ومع هذه «البقية» سيعقد يهوه ميثاقاً جديداً .

١١٧ ـ عاموس الراعي : وهوشع الغير محبوب :

إن عاموس قد مارس تنبؤه تحت حكم جيربوم الثاني (٧٥٣/ ٤٦ ـ ٧٨٢/ ٨٠ ق .م) . انه لم يكن نبيا ممتهنا : «لست نبيا ولا ابن نبي انما أنا راعي بقر وواخز جميز . فأخذني الرب من وراء الغنم وقال لي الرب انطلق وتنبأ لشعب اسرائيل» [عاموس ٧ : ١٤ ـ ١٥] إنه يعلن ان الرب سيحاكم الشعوب المجاورة ـ دمشق ـ غزة ـ فلسطين صور ـ فينيقيا ـ التي اجرمت جميعها ضد الأخلاق . وهذا ما يعني ان كل الدول توجد تحت السلطة القضائية ليهوه. مع ذلك فإن عاموس يتفجر غيظاً ضد اسرائيل بصورة خاصة ، مملكة الشمال ، وضد مظالمها الاجتماعية وعدم ايمانها الديني . ان الأغنياء «باعوا الصديق بالفضة . . والمسكين بنعلين» [٢ : ٦ ـ ٧] . ولكن ثرواتهم ستباد [٤ : ٧ ـ ١١] . عبثا يضاعف هؤلاء المتخمون الاضاحي. ان عاموس يسمع ويردد كلام يهوه :

«اكره ، احتقر إعيادكم . إني اذا اصعدتم الى محرقاتكم وتقاد حكم لا أرتضى ولا التفت الى ذبائح السلامة من مسمناتكم» . [٥ : ٢١] هذا هو القانون والعدالة التي ينتظرها الرب من المؤمنين به [٥ - ٢٤ - ٢٥] .

من جهة اخرىٰ ، فإن العبادة قد لوثت بادخال عناصر تهتكية كنعانية . [٥ : ٢٦ - ٨ : ١٤] ان احترام الاشياء المقدسة خارج الأمكنة المقدسة هو غير مفيد: «هلموا الى بيت إيل واعصوا في الجلجال أكثروا من المعاصي وفي كل صباح قربوا ذبائحكم وفي كل ثلاثة ايام عشوركم» [٤ : ٤] . فليس سوى عودة للدين التي يمكن ان تنقذ : «اطلبوا الخير لا الشر لتحيوا فيكون الرب اله الجنود معكم كما قلتم . انفضوا الشر وأحبوا الخير واقيموا الحكم في الباب نفس الرب اله الجنود أن يرأف ببقية يوسف» [٤ : ١٤ - ١٥][٢٤] .

وكعاموس فإن هوشع ، معاصره الأكثر شبابا ، يعظ في مملكة الشمال . إن ارشاده ومعنى رسالته النبويةتبدوان مرتبطتين مع تقلبات زواجه. ولكن التفسير لعدد من الاشارات التي توجد في نص حديثه متضاد جداً . فتبعاً لأول قصة [١ : ٢ - ٩] «قولوا لاخوتكم شعبي ولاخواتكم مرحومة - حاكوا أمكم حاكموا فإنها ليست امرأتي ولا أنا رجلها . لتنزع زناها من وجهها وفسقها من بين ثدييها لئلا اجردها عريانه واردها كما كانت يوم ميلادها واجعلا كقفر وأصيرها كأرض قاحلة واميتها بالظمأ . إني لا أرحم بنيها لأنهم بنو زنى . لأن امهم زنت والتي حبلت بهم أتت بالمخازى» . ويأمره يهوه بالزواج من «امرأة محمولة على الزنى والتي حملت بأولاد الذين اعطاهم اسماء رمزية - (الغير محبوبة) ولا لغير من شعبي - وذلك بهدف الاعلان عنها ان يهوه لا يحب اسرائيل وان هذا ليس شعبه . وحسب القصة الثانية [٣ : ١ - ٥] يقول له يهوه بأن يعقد زواجاً آخر هذه المرة مع امرأة اخرى «ثم قال لي الرب انطلق أيضاً واحبب امرأة اخرى محبوبة لخليل وهي فاسقة كما يحب الرب بنى اسرائيل وهم يلتفتون الى آلهة أخرى ويحبون اقراص الزبيب . .» ومن الراجح ان الزوجة الأولىٰ كانت امرأة قد ساهمت في شعائر كنعانية من الخصب . أما بالنسبة للثانية المختارة رغم ماضيها المخزي ، فإنها يجب ان تدل على الحالة الميتقظة ليهوه ، المهيأ لمسامحة اسرائيل .

على كل حال ، فإن اعلان هوشع محكوم بفظاظة رب أمام خيانة شعبه . اسرائيل كانت زوجة يهوه ، ولكنها لم تكن وفيه له ، فقد اصبحت زانية ، وبعبارة اخرىٰ انها تركت لآلهة الكنعانيين للخصوبة . . . . اسرائيل تجهل ان الخصوبة هي عطية من يهوه . فقالت : «أتريد أن اجرى وراء احبائي ، اولئك الذين اعطوني خبزي ومائي ، ولبني وصوفي وكتابي وزيتي وشرابي ، انها لم تعرف انني انا الذي اعطاها القمح والسلاف والزيت واكثرت لها الفضة والذهب فجعلوها لبعل» . [هوشع ٢ : ٧ ـ ١٠] فنجد من جديد ، الاثارة ، والنزاع الذي لا يرحم بين بعل ويهوه : بين دين ذي بنية كونية والايمان باله واحد ، خالق الدنيا وسيد التاريخ .

بدون كلل ، يهاجم يوشع التوفيقية بعل ـ يهوه «لقد تركوا ربهم ليزنوا . انهم يضحون على قمة الجبال ، انهم يحرثون تقدماتهم على التلال تحت البلوط ، واللبنى والبطم لأن ظلها أحسن ولذلك بناتكم يزنين وكناتكم يفسقن» [٤ : ١١ ـ ١٣] . لقد نسي اسرائيل تاريخه «عندما كان اسرائيل طفلاً ، احببته ومن مصر دعوت ابني . ولكن كلما دعوتهم أكثر كلما ابتعدوا عني ذابحين للبعليم ومقترين للتماثيل» [١١ : ١ ـ ٢] ان الغضب المثار بجحود غير قابل للاصلاح يتفجر والعقاب سيكون رهيباً : «فأكون لهم كليث ومثل نمر ارصدهم على الطريق . أهجم عليهم كدبة تأكل واشق حجب قلوبهم وآكلهم هناك كاللبؤة ووحش الصحراء يمزقهم» . [١٣ : ٧ ـ ٩] .

ان العبادة الخارجية لا تفيد شيئاً «فاني أردت رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من المحرقات» [٦ : ٦] . الأمكنة العليا ، حيث يحتفلون بحفلات توفيقية ستدمر [١٠ ـ ٨] ان السلام الوحيد هو عودة مخلصة ليهوه . «ارجع يا اسرائيل ليهوه الهك لأنك باثمك عثرت قولوا له : ارفع كل الاثم واقبل الخير . . .» [١٤ : ٢ ـ ٣] ان هوشع قلق من واقعة ان سقوطهم لن يسمح للمذنبين «الرجوع الى ربهم» [٥ : ١٤] مع ذلك فإن حب يهوه هو أكثر قوة من غضبه «لا أنفذ وعد غضبي . . . لأني انا الله لا انسان ، بينك أنا وفيك قديس فلا أدخل المدينة» [١١ : ٩] إنه يريد قيادة اسرائيل «للصحراء ويخاطب قلبها . . . هنالك سترد كما

في أيام شبابها ، كما في الأيام حيث صعدت من مصر . في ذلك اليوم ، ستدعوني زوجها . . . سأخطبك الي للأبد : سأخطبك في العدل وفي الحق ، في الحنان والحب» [٢ : ١٦ - ٢١] . وستكون رجعة الى بدايات الزواج الصوفي بين يهوه واسرائيل . هذا الحب الزواجي يبين فيما سلف العقيدة بخلاص البشر : ان رحمة الرب لا تنتظر ايمان الانسان وانما تسبقها[٢٥] . ويضاف لذلك ان الرمزية الزواجية ستكون مستعملة من قبل كبار الأنبياء بعد هوشع .

١١٨ - اشعيا : «بقية من اسرائيل» ستعود :

بالرغم من تشابه ارشادهم الرباني ، فإن كل واحد من كبار الأنبياء المختصين بالكتاب المقدس ssripturaires يتميز بطريقة وجوده وبالأسلوب الذي به يحكم مصيره . إن اشعيا يعيش ويستمع للرب في معبد اورشليم في ٧٤٦ أو ٧٤٠ . وزوجته كانت نبية كذلك وله زملاء تماما كالانبياء المتهنين[٢٦] . ولقد نطق بخطابه الأخير في سنة ٧٠١ .

في البداية ينتقد اشعيا بصورة خاصة الحالة الاجتماعية والأخلاقية لمملكتي يهودا واسرائيل ، وهو لا يتردد عن مهاجمة حتى الملك وكبار الاعيان [٣٠ : ١٢ - ١٥] . انه يعلن ان دينونة الرب لن توفر أحداً [٢ : ١٢ - ١٧ - ١١ - ٩] . وتماما كالسابقين له يصرح ان العبادة لا تكفي ابداً : «ماذا يهمني من اضحياتكم التي لا تعدو لا تحصى ؟ يقول يهوه . لقد شبعت من محرقات الكباش وشحم العجول . ان ماء الثيران والتيوس تنفرني» [١ : ١١] . الصلاة عبث لأن «ايديكم ملطخة بالدماء» [١ : ١٥] . والايمان الصحيح يقتضي تطبيق العدالة وصنع الخير : «تعلموا صنع الخير ، ابحثوا عن الحق ، أغيثوا الملهوف، كونوا عادلين مع اليتيم» دافعوا عن الأرملة» [١ : ١٧] .

إن غزوة الأشوريين ضد سورية وفلسطين أدخلت عنصراً جديداً في نبؤة اشعيا . وان النبي يرى في هذه الاحداث العسكرية والسياسية الفظيعة تدخلا

من يهوه في التاريخ : فالأشوريون ليسوا سوى اداته . وبالنسبة لأشعيا ، ان ذلك يتعلق بانتقام الهي ، ويهوه على اهبة معاقبة الكفر الديني المنتشر بسبب الظلم الاجتماعي وبانهيار القيم الاخلاقية . وتلك هي الحجة التي من أجلها يقف موقف المعارض للسياسة الخارجية للملك . ان المحالفات والمناورات السياسية «فكرة كاذبة» وخرافات . فلا يوجد سوىٰ أمل وحيد : الايمان والثقة بيهوه . «اذا لم تتمسكوا بي فلن تتمسكوا ابداً» [٧ : ٩] . ان الايمان بيهوه. وليس بمصر هو الذي يمكن ان يُعين [٣١ : ١ - ٣] . ولكي يشجع الملك يذكر اشعيا «بآية للسيد» : «الفتاة الشابة حامل وستلد ولداً تسميه عمانويل» [٧ : ١٤] . وقبل ان يعرف الطفل نبذ الشر واختيار الخير ، سيضمن له يهوه العديد من المعجزات [٧ : ١٦] ان هذه المعجزة اثارت مالا يحص من التفسيرات[٢٧] . والايحاء اللاهوتي المسيحي قد رأى في اسم الوليد (عمانويل) = (اله معنا) اعلانا بولادة المسيح . على كل حال ان المعني المسيحي واضح : ليهوه سيبعث في حبل نسب داوود ملكاً عادلاً سيكون منتصراً وابناؤه سيحكمون للأبد .

عندما اجتاح فلسطين ، أعلن اشعيا ان ملك آشور ليس اداة يهوه ، وانما مجرد طاغية جشع للسلطة . [١٠ : ٥ - ١٥] وبالنتيجة هو ايضاً سيدمر [١٤ : ٢٤ - ٢٥] . ويعود النبي بدون كلل الى قدرة وسيادة الرب ، ويعلن عن «يوم يهوه» عندما سيحاكم الرب العالم [٢ : ١٢ - ١٧] . وانه لأجل هذا سيدين ليس غطرسة ملك اشور فحسب ، وانما ايضاً الذنوب الاجتماعيةوالسياسية لليهود - اذلال الفقراء [٣ : ١٢ - ١٥] البذخ [٣ : ١٦ - ٢١] والفجور [٥ : ١١ - ١٣] والظلم [٥ . ١ - ٧ ٢٣] وسرقة الحقوق [٥ : ٨ - ١٠] ذنوباً يعتبرها كأنها تصرفات عصاة ضد يهوه [١ : ٢ - ٣] . انه يدين كذلك الادارة السيئة [٢٨ : ١٤ - ٢٢] والكهنة والانبياء الطقوسيين الذين يسخرون منه [٢٨ : ٧ - ١٣] .

ان اشعيا يعتقدبعصمة صهيون : الجبل المقدس كان وسيبقى محميا من قبل يهوه ضد غزوات كل الاعداء [١٤ : ٢٤ - ٣٢] ١٧ : ٢ - ١٤ ٢٩ : ١ - ٨] ويحافظ على الأمل «يبقية اسرائيل» التي «ستعود نحو الرب القوي» [١٠ - ٢٠ -

٢١](٢٨) . غير ان الاساسي في رسالته لم يتبع فلم يخف النبي احباطه . ان آخر خطاب له يتنبأ بدمار «السهول الضاحكة والكروم الخصبة» . على كل منزل مبتهج وعلى المدينة المتهلله سينمو الشوك والعليق ، لأن القصور قد اخليت ، والمدينة الصاخبة مقفرة» . [٣٢ : ٩ - ١٤] .

١١٩ - الوعد المعطى لارميا :

إن ارميا الذي هو من عائلة ذات أصل كهنوتي أعلن دعوته في ٦٢٦ ومارسها مع انقطاعات خلال اربعة عقود . وفي مقطع شهير ، يروي ظروف اختياره [١١ - ١] . متردداً حيال مهمته محتجاً بعمره الفتي : «لم اعرف حمل الكلام : انني ولد» [١ : ٦] . ولكن الرب يلمس فمه ويشجعه [١١ : ٩] . ان الخطابات الأولىٰ لا رميا قد حكمت بنغمة مأوساوية بصورة خاصة : الكارثة الوشيكة الحصول والمسببة عن طريق شعب آت «من الشمال» : معهم سهم بقبضتهم وترس ، انهم برابرة ولا يرحمون . . .» [١٦ : ٢٢ - ٢٣] سيكون من العبث البحث عن النموذج التاريخي لهؤلاء الفرسان المتوحشين . «الشعب الآتي من الشمال» يصنف بين الصور الاسطوريه للتدمير الشامل . لأن الغزو سيدمر البلاد نهائيا . «لقد رئيت الأرض : عماء ، السماوات : وقد غاب نورها» [٤ : ٢٣] . ان الرجعة للعماء سيكون القصاص الالهي بالنسبة لانعدام الايمان الديني) انها تعد ، على الأغلب ، خليقة جديدة ، المعاهدة الجديدة التي اعلنها ارميا بعدئذ . لأن يهوه رحيم والنبي ينقل دعوته : «ارجعوا يا أولاد العصاة ، أريد شفاء عصاياناتكم !» [٣ : ٢٢ ، ٤ : ٢٥] .

في ٦٠٩ ، مات جوزيا وابنه يواكيم قد خلفه على العرش . وقد تكشف عن طاغية كريه، فلم يتردد ارمياعن مهاجمته. وفي فناء المعبدصب غضبه ضد كل اولئك - الكهنة ، والانبياء والشعب - الذين ينساقون للخديعة بالسلامة الخادعة لنشاطهم الديني . [٧ : ١ - ١٥ ، ٢٦ : ٢٩] . «لا تثقوا بالكلام الكاذب ! إنه

هنا معبد يهوه : [٧ : ٥] . عبثا يسرع للمعبد اولئك الذين سرقوا وقتلوا وارتكبوا الزنى، انهم قد حوكموا سلفاً انهم احتموا ببعل قائلين: «ها نحن بأمان» وربما جاهزون، لأن «يتابعوا كل هذه الأرجاس» . لأن يهوه ليس أعمى [٧ : ٩ ـ ١١] ان الرب ذكرهم بمصير معبد سيلو المخرب من قبل الفلسطينيين «بالكاد اسكنه اسمي، انظروا ماذا فعلت به، بسبب انحراف شعبي اسرائيل»[٧ : ١٢ـ ١٣] . ان ارميا قد أوقف وعلى الأرجح ، بدون حماية بعض كبار الأعيان حكم عليه بالموت [٢٦ : ١٥] . وخلال زمن طويل لم يعد لدىٰ النبي الامكانية للكلام علانية[٢٥] .

ان آخر محطة من نبوّة ارميا بدأت في ٥٩٥ عندما احتل نبوختنصر اورشليم ونفى قسماً من نخبة اليهود . بينما إن الملك الجديد صدقيا كان يحضر عصيانا بمساعدة مصر ، فإن أرميا أكره لتهدئة الشعب . فأوقف وحبس كخائن ، وأطلق سراحه بعدئذ من قبل البابليين . وبعد قليل من الزمن سافر الى مصر مع مجموعة من مواطنيه الذين كانوا استبعدوا [٣٧ ـ ٣٩] . ولقد وجه آخر خطاب له الى «كل اليهود المقيمين في مصر» [٤٤ : ١] . ويذكر يهوه عبر نبيه بكل الكوارث القائمة : «لقد رأيتم كل الشقاء الذي جلبته لأورشليم وفي كل مدن اليهودية : ها هي خربة اليوم، وبدون سكان» [٤٤ : ٢] . وعبثاً ارسل الرب خدمه الانبياء» فالشعب كان قد انحرف بسوء اعماله [٤٤ : ٤] واخيرا ، فإن يهوه يعلن ايضا خراب : (بقية يهودا) التي اقيمت في مصر ستكون هي ايضاً مبادة [٤٤ : ١٢] .

إن واحدة من مميزات رسالة ارميا هي العدد الكبير من الاعترافات والتوريات لعواطفة الشخصية[٣٠] . انه يجرؤ على القول إلىٰ الرب : «آه ـ هل ستكون بالنسبة لي كساقية خادعة للمياه المخيبة للأمل» [١٥ : ١٨] ومثل ايوب يطلب : «لماذا ان حظ المسيئين حسن ؟ ؟ لماذا كل المخادعين ينالون السعادة ؟ [١٢ : ١] . انه يريد ان يعرف طرق الرب[٣١] .

مع ذلك ، وبالرغم من الكوارث التي تنبأ بها ، والتي تتحقق ، فان ارميا لا يضيع ثقته بالغفران حتى في خلق جديد . وكخزاف يستطيع تدمير ما عمله ، فإن يهوه يستطيع تدمير عمله ، ولكنه قدير لأن يفعل غيره بأحسن منه [١٨ : ٦] . وفي الواقع ان الرب ، عبر نبيه يعلن عهداً جديداً «ها قد أتت الأيام ، حيث سأبرم مع بيت اسرائيل (وبيت جودا) عهداً جديداً . . سأضع قانوني في أعماق ذاتهم وسأكتبه على قلبهم وعندئذ سأكون ربهم وسيصبحون شعبي [٣١ : ٣١ - ٣٣] .

كان عاموس ينتظر الخلاص للبشر «بفعل حب جديد للرب ، الذي يجعل من الممكن عودة اسرائيل «لأيام شبابها» . وارميا جرؤ على الأمل بتجديد ولادة جذرية للانسان . لأنه «أنت تعلم يا يهوه ، طريق البشرية ليس بقدرتهم . . .» [١٠ - ٢٣] . لأجل هذا فإن الرب يعد بإعادة التجديد القريب لشعبه «سأعطيهم قلباً آخر وطريقة اخرىٰ في العمل ، بشكل انهم لن يخافون دائما ، من أجل أموالهم وأولادهم من بعدهم . سأعقد معهم حلفاً أبديا : لن انقطع عن متابعتهم لأصنع لهم الخير . . .» [٣٢ : ٣٩ - ٤٠] . إن هذا يعادل ابداعاً جديداً للانسان ، وهي فكرة سيكون لها نتائج ملحوظة «بين غيرها ، في المفهوم المسيحي لمعاهدة جديدة كشفت في العهد الجديد[٣٢]» .

١٢٠ - سقوط اورشلم - بعثة حزقيال :

«لم يكن ملوك الأرض وجميع سكان المسكونة ليصدقوا أن الطاغي والعدو يدخلان أبواب اورشليم» [المراثي : ٤ : ١٢] هكذا كتب مؤلف المراثي المجهول ، الشاهد على سقوط اورشليم في سنة ٥٨٧ . «انظر يارب وتأمل من صنعت به هكذا . أتأكل النساء ثمرتهن أطفال الحضانة . ايقتل في مقدس السيد الكاهن والنبي» [٢ : ٢٠] . لقد كان للكارثة نتائج حاسمة بالنسبة لتاريخ اسرائيل وبالنسبة لتطور اليهيوية . ان سقوط العاصمة الدينية والسياسية كان يعني زوال الدولة ونهاية الملكية الداودية . لقد احرق

المعبد ودمر ، وهذا ما أدى الى انقطاع الاضاحي ان القسم الأكبر من السكان قد نفي . وعليه فإن بابل كانت بلاداً غير طاهرة ، حيث لا يمكن اقامة العقيدة . ان مكان المعبد قد اتخذ مدرسة دينية أصبحت مع الزمن الكنيس . وكانت الجماعة تجتمع دوريا للصلوات والأناشيد والمواعظ . ولكن خراب المعبد كان يذكر بزوال القومية . ومن أجل هذا فإن الصلاة من أجل إعادة مبعث الاستقلال القومي كان غير منفصل عن الصلاة من أجل اعادة بناء المعبد(٣٣) .

كان عدد الشاكين بقوة يهوه كثيرون في أورشليم وفي المنفى ، وقد تبنوا عبادة آلهة الغالبين . وبعضهم شك حتىٰ في وجود يهوه ، الا انه بالنسبة للآخرين ، كانت الكارثة تجربة عليا لغضب السيد ، التي تنبأ بها ، الأنبياء بدون انقطاع ولا كلل . كان هنالك ردة ساخطة ضد «الأنبياء المتفائلين» . وبالعكس ، فان كبار الأنبياء المختصين بالكتب المقدسة ربحو التقدير والاعجاب اللذين كانوا حرموا منها خلال حياتهم . مع ذلك ، فإن النخبة المنفية لبابل فتشت من جهة اخرىٰ في النصوص الدينية عن السند القابل لانقاذ اسرائيل [ر . الجزء الثاني] .

وفي بابل مارس مهمته آخر كبار الأنبياء حزقيال الذي وصل إليها مع أول قافلة من المنفين في سنة ٥٩٧ وحتىٰ سنة ٥٧١ . وكان حزقيال كاهناً ، وهذا ما يفسر الأهمية التي أناطها بالتطهر الشعائري . وقد كانت «الذنوب» بالنسبة لحزقيال ، هي ، في الدرجة الاولىٰ ، عبادة الأصنام ، وهي التي جعلت اسرائيل «غير طاهر» ، وان يهوه سينجز الخلاص لشعبه بتطهيره (بماء نقي)(٣٤) [٣٦ : ٢٥] . في البدء ، اعتبر حزقيال مهمته كعناء كنود ، ولكن لا مفر منه للهداية : كان يجب زوال آمال المنفيين اليهود الأول في عصمة اورشليم ، ويتبع هذا ، تشديد عزمهم بعد خراب المدينة المقدسة(٣٥) . وفي هذه المرحلة الأولىٰ من نبؤته ، كان حزقيال يعلن النهاية القريبة لأورشليم ، كنتيجة لا يمكن فصلها عن عدم ايمان اسرائيل . ان تاريخاً رمزيا [فصل ٢٣] يقارن اسرائيل والسامرية (جودا) بالشقيقتين ، اللتين ، مع انهما محبوبتان من قبل يهوه «قد زنتا في مصر منذ صباهن» وتابعتا عدم ايمانهن مع الأشوريين والبابلين .

ويرجع حزقيال باستمرار الى نغمة المرأة الغيروفية التي كان تأخر يهوه عن تركها لكونها من أصل اسمه [ر . فصل ٢٠] . ان المركز المتميز لاسرائيل لا يرجع الى قيمتها : ان اختيار يهوه هوالذي ميزها بين الشعوب الأخرىٰ . ولكن مماله دلالته أكثر ان التفسير للكارثة التاريخية كأزمة في القران الزواجي بين الرب واسرائيل هو الفكرة بكلية الحضور ليهوه . ان حضور الرب غير متعارض مع أي حيِّز متميز وبالنتيجة ، لا يهم كثيراً أن يعبد المؤمن يهوه في وطنه أو في بلد أجنبي . ان ما يهم هو حياته الداخلية وسلوكه في أعين مقارنيه ، وأكثر من كل نبي آخر كان توجه حزقيال الى الفرد[٣٦] .

بعد سقوط اورشليم بدأ عهد جديد في تنبؤ حزقيال ، متميز بالأمل في خلاص اسرائيل . فبالنسبة للرب لا يوجد مستحيل . وفي حالة وجد يرى حزقيال «وادياً مليئا بالعظام » . بملامستها بالروح ، ، « تسترد الهياكل العظمية حياتهاوتقف على ارجلها » . وهكذا سيفعل الرب مع بيت اسرائيل [٣٧ : ١ - ١٤] . وبعبارة اخرى ، مع انه مات ، فإن اسرائيل سيمكن له ان يبعث بمعجزة الهية . وفي وحي آخر [فصل ٣٦] . يعد يهوه بعودة المنفيين ، باعادة تكوين وتطهير الشعب . ولكنه بصورة خاصة يعلن الخلاص لاسرائيل : « وانضح عليكم ماء طهوراً فتطهرون من جميع نجاستكم . . واعطيكم قلباً جديداً ، واجعل في احشائكم روحاً جديـداً . . . واجعل روحي في احشائكم واجعلكم تسلكون في رسومي وتحفظون احكامي وتعملون بها . واخلصكم من جميع من جميع نجاستكم وادعو الحنطة واكثرها ولا القي عليكم الجوع . . . »[٣٦ : ٢٥ - ٢٩] . وكما هو بالنسبة لارميا : انه يتعلق بميثاق جديد ، مقدما ، في واقعه ، خلقا جديدا . وبما ان تشتت اسرائيل كان قد اتهم القدرة الكلية وكرامة السيد ، فإن حزقيال يفسر ، هذه الخلقة الجديدة برغبة يهوه لتقديس « اسمه المقدس الذي دنسه بيت اسرائيل بين الأمم » [٣٦ : ٢١] . ان داوود ، الأمير والراعي « خادم » مثالي للرب ، سيحكم على اسرائيل الجديد [٣٧ : ٢٥] و[٣٤ : ٢٣] . وفي الفصل الأخير يصف حزقيال بتفصيلٍ المعبد المقبل[٣٧] « الذي يرى صورته في نشوته » والعبادة التي يجب ان يكرم بها في اسرائيل .

١٢١ - تقويم ديني للرعب التاريخي .

ان الانبياء لم يتشتتوا في السنوات الأخيرة من النفي وفي عصر ما قبل النفي [جزء٢] . ولكن رسالتهم تطورت لما يمكن تسميته « لاهوت السلام » الملخص من قبل ارميا . فمسموح منذ الآن اذن تفحص دور النبوة في التاريخ الديني لاسرائيل . ان ما يصدم بدئيا لدى الانبياء ، هو انتقادهم للديانة ، والعنف الذي يهاجمون به التوفيقية ، أي التأثيرات الكنعانية التي يسمونها « الزنى » . ولكن هذا « الزنى » الذي يتوقفون عن شن تجريحهم له ، يمثل واحداً من الاشكال الاكثر انتشاراً من التدين الكوني . ان التدين الكوني الخاص بالمزارعين كان قد مدد الجدلية الأولى للمقدس ، وبصورة خاصة الاعتقاد بأن الالهي يتجسد ، او يظهر ، في الموضوعات والايقاعات الكونية . وعليه ، فإن مثل هذا الاعتقاد قد ابلغ عنه من قبل المؤمنين بيهوه كعبادة اصنام متميزة ، وهذا منذ الدخول الى فلسطين . ولكن التدين الكوني لم يهاجم مطلقاً هكذا وبوحشية . ان الانبياء نجحوا في افراغ الطبيعة من كل وجود الهي . فقطاعات كاملة من عالم الطبيعة - الامكنة العالية - الحجارة - الينابيع - الاشجار - بعض المحاصيل - بعض الازهار - اعتبرت كغير طاهرة ، بما انها ملطخة بعبادة الآلهة الكنعانية للخصب[٣٨] . ان الاقليم /الطاهر/ والمقدس بامتياز هو الصحراء فقط ، لأن اسرائيل بقي هنالك امينا للرب ، ان البعد المقدس للنبات وبصورة عامة ، التجليات المفرطة الحيوية للطبيعة ، ستكتشف بعد زمن متأخر وفي اليهودية القروسطية .

ان العبادة ، بالدرجة الأولى ، الاضاحي الدموية ، كانت ايضاً قد انتقدت ، فلم تكن مغشوشة بالعناصر الكنعانية فحسب ، ولكن الكهنة والشعب اعتبروا النشاط الشعائري وكأنه الشكل الكامل للتعبد . وعليه ، أعلن الانبياء ، انه من العبث ، البحث عن يهوه في « معابدهم » ، فالرب يحتقر الاضاحي ، والاعياد والحفلات [ر. عاموس ٥ : ٤ - ٦ - ١٤ - ١١٥ - ٢١ - ٢٣] ان الانبياء ما قبل النفي لم يحددوا بدقة مطلقاً ماذا يجب ان يكون النشاط الطقوسي للمؤمن .

فالمسألة لم تطرح حتى ولا بعد الزمن الطويل الذي لم يعد فيه الشعب ليهوه . ان الانبياء لم يتبعوا ابداً التعديل في العقيدة ، وانما تحول البشر(٢٩) . وليس الا بعد سقوط اورشليم حيث أخذ حزقيال يعرض مهمة الهية معدلة .

ان ابطال صفة القداسة للطبيعة ، وعدم تقويم النشاط الطقوسي ، وباختصار النبذ العنيف والشامل للتدين الكوني ، وبخاصة الأهمية الحاسمة الممنوحة لاعادة الخلق او التجديد الروحي للفرد بالرجوع النهائي ليهوه، كانت جميعها جواب الانبياء على الازمات التاريخية التي كانت تهدد الوجود ذاته للمملكتين اليهوديتين . , ان الخطر كان ملحوظا ومباشراً . وان الفرح بالعيش المتضامن مع كل ديني كوني ، لم يكن كفراً او ردة فقط ، لقد كان ضلالاً محكوماً عليه بالزوال في الكارثة الوطنية التي لا مفر منها . ان الاشكال التقليدية للتدين الكوني اي الاسرار ، الخصب ، التضامن الجدلي بين الحياة والموت ، كانت تقدم منذئذ ضمانا كاذبا . وفي الواقع ، ان التدين الكوني كان يشجع الوهم بإن الحياة لن تنقطع عن الاستمرار وبالتالي ان القومية والدولة يمكن ان تعاودا الحياة بالرغم من ثقل الازمات التاريخية . وبعبارة اخرى ، فإن الشعب وكبار الاعيان ، وايضاً الكهنة والانبياء المتفائلين ، كانوا جميعهم ميالين لتمثيل المحن بنظام تاريخي للكوارث الطبيعية [قحط ـ فيضان ـ اوبئة ـ حركات زلزالية الخ] . وعليه ان مثل هذه الكوارث ليست مطلقاً شاملة ولا نهائية . ولكن الانبياء مما قبل النفي كانوا ينذرون ليس خراب البلاد وزوال الدولة فقط : بل لقد انذروا ايضا بخطر الابادة الشاملة للأمة .

ان الانبياء عاودوا العمل ضد التفاؤلية السياسية الرسمية ، وهاجموا الملكية الداوودية من أجل تشجيع التوفيقية بدلاً من احياء اليهودية كعقيدة للدولة . « ان المستقبل الذي كانوا اعلنوه ، كان في الواقع وشيك الوقوع ، ولم يتوقف الانبياء عن التنبوء بهدف امكانية تحوير الحاضر بتغير المؤمنين داخلياً . ان فائدتهم العاطفية بالنسبة للسياسة المعاصرة كانت من نموذج ديني . وبالواقع ، ان مسيرة الاحداث كانت قابلة لاقحام الايمان الخالص للأمة وبالتالي « خلاصها » كامكانية وحيدة لاستمرارية حياة اسرائيل في التاريخ . ان تحقيق النبؤات المعلنة من قبل الانبياء

تؤكد رسالتهم ، وبدقة ان الاحداث التاريخية كانت من عمل يهوه . وبعبارة اخرى ان الاحداث التاريخية لبست معنى دينياً وتحولت الى ظهورات سلبية » والى « غضب » من يهوه ومن هذه الطريقة كشفوا تعاضدهم الصميمي ، مؤكدين العبارة الملموسة لذات ارادة الهية وحيدة .

وهكذا ولأول مرة ، فإن الانبياء قوموا التاريخ . وان الاحداث التاريخية منذئذ لها قيمتها بذاتها ، بمقياس انها حددت بارادة الرب . ان الوقائع التاريخية تصبح هكذا او ضاعاً » للانسان تجاه الرب ، وبهذا تكتسب قيمة دينية بحيث انه لا شيء حتى هنا لا يمكن له طمأنتهم ، وأيضاً ، أيصح القول بأن العبريين كانوا اول من اكتشف دلالة التاريخ كتجلي للاله ؟ وهذا المفهوم ، كما يتوجب انتظاره قد أعيد اخذه وتوسيعه من قبل المسيحية . ولنؤكد مع ذلك ان اكتشاف التاريخ بصفته كشفاً الهيا لن يكون ابداً بصورة مباشرة وبالكلية مقبولاً من قبل الشعب اليهودي ، وان المفاهيم القديمة ستستمر في الحياة ايضا لزمن طويل .

حواشي الفصل الرابع عشر

١ ـ fohrer تاريخ ديانة الاسرائيليين ص ١٤٧

٢ ـ حتى في النصوص الملتصقة حميا بالعرش مثل المزامير ، فإن يهوه وليس الملك ، الذي يحتل المركز الاساسي .

٣ ـ لـ . النصوص المذكورة ـ من قبل Ringqres

٤ ـ van Rad ـ العهد القديم .

٥ ـ حول الأهمية بهذه الرمزية بالنسبة للمسارة المتأخرة ، انظر الياد ، اسطورة العود الابدي

٦ ـ Ahlhram ـ و pohrer ـ و wideugres

٧ ـ ٨ يقتضى ألتذكير انه بينما كانت الملكية الوراثية للاسرة الداوودية قد دعمت في الجنوب فإن الملكية كانت في الشمال هبة لدنية .

٩ ـ العدالة ، تقترب من مازارو البابلية والمات المصرية (رنجرين) ص ٤٩

١٠ ـ ولكن الفكرة بالبعث كانت معدة مسبقاً من مثل اللاهوت الكلي القدرة ليهوه وبعض المتعقدات وبعض الشعائر .

١ ـ A . Weiser ـ ٣٠٨

١٢ ـ تاريخ تأليف القصة غير ثابت ، مع ان النص كما يعرف يبدو سابقاً للنفي ، ولكن المحتوى يبدو أكثر قدما .

١٣ ـ عدم امكانية فهم اجرامه يشكل اللازمة المركزية في تأوهات ايوب « ربما انني رفعت يدي على الفقير ، بينما في تعاسته كان يطلب العدالة ؟ ألم أبك عن كل اولئك الذين كانت الحياة قاسية عندهم ، المحرومين من الحنان . . . . هل ـ تعاملت مع الكذب ـ هل سلكت في الباطل وعجلت رجلي في المكيدة . هل كنت غير متأثر بحاجات الضعفاء وتركت الارملة تذبل ؟ هل اكلت خبزي لوحدي بدون مقاسمة الايتام .

١٤ ـ هذا الحديث يبدو كأنه تمرين في النص .

١٥ ـ المبارزة تشكل جزءا من حرب دينية ، تماما كايزابيل قد اعطى أن يذبح أنبياء يهوه ، ايلي بعد انتصارة طلب من الشعب ان يحبس الـ ٤٥٠ نبياً التابعين لبعل . « فانزلهم بالقرب من سيشيم وذبحهم » ملوك ١٨١

١٦ ـ فوهرر تاريخ الدين الاسرائيلي ص ٢٣٧

١٧ ـ ١٩ ـ مراجع متعددة .

٢٠ ـ ايليا تنبأ بالموت المفاجيء للملك اوشوذيا (ملوك ٢ ـ ١ وهوشع) عرف اين يوجد الماء في الصحراء (ملوك ٢ ـ ٣ ـ ١٦ ـ ٧) ويعرف ان الملوك اعطوا امراً بقتله وهو يعرف الكلمات المعلنة من قبل ملك دمشق في غرفة نومه [ملوك ٢ ـ ٦ : ٣٢]

٢١ ـ ٢٣ ـ انظر الامثلة المؤكدة من قبل مؤهرر . ورنجرين .

٢٤ ـ ان كهنة احياء الخصب الفردوس الذين كتبوا السفر (٩ : ١١ ـ ١٥) يناقضون جذريا الادانة المكررة كثيراً مما يجعل الشك وارداً في صحتها .

٢٥ ـ انظرفوهرر ـ ص ٢٥٠ وحاشية ١٧ (مراجع) بتناقض ، فإن التصور الزواجي المستعمل من قبل هوشع هو تابع للطقوس الكنعانية في الخصب التي صار بها انظر رنفرين ص ٢٨٣ حتى مع ذلك ، اندريه نيهر . جوهر النبوة حول دلالة (وجودته) للرمزية القرانية في الفكر الديني العبري . ان الترجمة للتجربة الصوفية في عبارات الاتحاد الجنسي ستؤخذ في الشروح اليهودية والمسيحية في نشيد الانشاد وبصورة خاصة في اللاهوت الصوفي ضد الاصلاح على العكس في صوفية ميستافا فإن القران الصوفي بين الروح والرب قد توضح بالحب الزناني بين رادها وكريشناص .

٢٦ ـ يقتضي التأكيد ان الـ ٢٩ فصل الأول من الكتاب الذي يحمل اسمه يعددله . البقية قد القت من قبل مختلف الكهنة والذين ليسو سابقين عن القرن السادس . وبعض القطع دخلت معه زمن متأخر . في كتاب شعيا مثلا ـ الرؤيا ص ٢٤ ـ ٢٥

٢٧ ـ انظر المراجع الرئيسية لـ ونجدن ص ٢٨٦

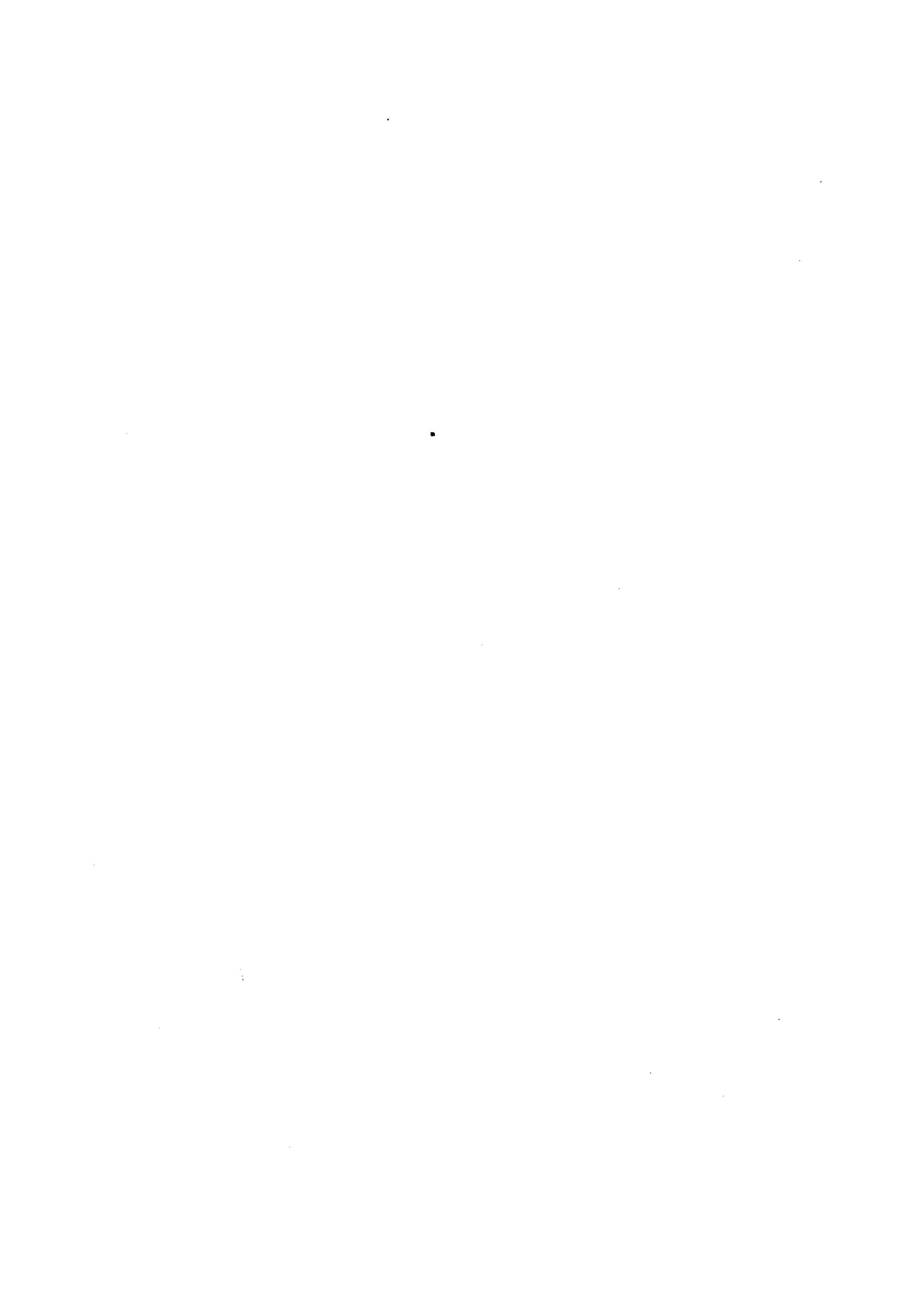
٢٨ ـ لقد سمي اشعيا ابنه الأول شير ـ ياشوب .

٢٩ ـ بناء على اوامر يهوه ، حبس نبؤاته عن الامم في كتاب وفي احد الايام اراد خادمه باروح قراءة قطع في المعبد ، ولكنه اوقف واقتيد للملك الذي احرق اللفيفة . مع ذلك أملى ارميا كتابا جديداً [فصل ٣٦]

٣٠ ـ انظر بصورة خاصة ١١ : ١٨ ـ ٢٣ ١٢ ـ ١ ـ ٦ . الخ .

٣١ ـ فون ـ راد . العهد القديم ص ٢٣

٣٢ ـ انتظار ملك مثالي تشكل جزءاً من ذات الأصل من معاهدة جديدة (سأعطيه الحضور وسيقترب مني) [٣٠ ـ ٢١]
٣٣ ـ كاتب المزمور ٥١ يدعو الرب ان يطهره ويحرره وفي ذات الوقت اعادة بناء القدس بأسوارها « عندئذ سترضى عن الاضاحي الحقه » ٢٠ ـ ٢١
٣٤ ـ ٣٥ ـ (نجرن وفوهرر . ص ٣٠٠و ٣٠
٣٦ ـ فوهرر ـ ص ٣١٩
٣٧ ـ الرؤية النشوية لحزقيال تشكل نقطة البدء للاهوت المعبد الذي سيعرف تطوراً هائلاً في اليهودية والمسيحية .
٣٨ ـ لذات السبب ، فإن المبعوثين المسيحين في الهند لم يكونوا يقبلون في الكنائس سوى ارادهو ، التي لم تستعمل في حفلات الهندوس اي الاقل جمالا .
٣٩ ـ فوهرر . . . ص ٢٧٢
٤٠ ـ اليا واسطورة العودة الدائمة ص ١٢٢ حول السلام والزمن الخ .



الفصل الخامس عشر

ديونيزوس أو السعادة المستردة

١٢٢ ـ تجليات واحتجابات اله «مولود مرتين» :

بعد أكثر من قرن من البحوث ، يبقى أيضا ديونيزوس لغزاً . بأصله ، بطريقة تكونه ، بنموذج التجربة الدينية التي يبدأها ، يفترق عن الآلهة الاغريقية الكبرى . وبحسب الأسطورة هو ابن زوس من الأميرة سيميليه Sémelé ابنة قدموس ملك طيبة . لقد غارت هيرا منها فنصبت لها شركاً ـ وطلبت سيميليه من زوس أن تتأمله في شكله الحقيقي كإله سماوي . ولكن المتهورة ، قد صعقت ، بأن وضعت قبل الموعد . غير أن زوس خاط الطفل في فخذه ، وبعد بضعة أشهر جاء ديونيزوس إلى الدنيا . فهو ، في الواقع «ولد مرتين» . ان العديد من الأساطير المتعلقة بالأصول تجعل مؤسسي الأسر الملكية متحدرين من القران بين

الآلهة والنساء من الفانين . ولكن ديونيزوس قد ولد في المرة الثانية من زوس ولهذا فهو وحده اله .(۱) .

لقد حاول كريتشمر تفسير اسم سيميليه بالعبارة التراقية ـ الفريجية سيميلو التي تدل على الربة الأرض ، وهذا الاشتقاق للكلمة قد قبل من العلماء البارزين مثل نيلسون وويلاويتز . وسواء أكان هذاسليماً أم لا فإن الاشتقاق اللغوي لا يساعد أبداً في فهم الأسطورة ، بدئياً ، يفهم بشكل غير سليم الزواج hiierosgamos بين الاله السماوي والأرض الأم الذي يكتمل في احتراق هذه الأخيرة . ومن جهة أخرى ، وهذا أمر جوهري ، إن أقدم التقاليد الميتولوجية تصر على هذه الواقعة : الفانية(۲) سيميليه حملت إلهاً . ان هذه الثنائية المتناقضة لديونيزوس هي التي كانت أثارت اهتمام الاغريق ، لأنها وحدها استطاعت أن تفسر تناقض طريقة تكوينه .

ان ديونيزوس المتولد من فانية ، لم يكن يملك حقاً في مجمع الآلهة الأوليمبية ، لقد نجح مع ذلك في أن يقبل في هذا المجمع ، وفي آخر المطاف أدخل فيه والدته سميليه أيضاً . إن هومر كان قد عرفه ، كما تثبت ذلك إشارات عديدة ، ولكن لا الراوي المحترف لملحمته ، ولا المستمعون إليه كانوا مهتمين بهذا الاله (الغريب) المختلف عن آلهة الأوليمب . وربما كان هومر هو الذي نقل أقدم شهادة حول ديونيزوس ففي الالياذة [۷۱ ـ ٤٠ ـ ١٤٨] ذكر إشارة لمشهد مشهور : البطل التراقي ليكورغ طارد مرضعات ديونيزوس «وكلهن ، بإشارة واحدة ، ألقين على الأرض أدوات تعبدهن» . في حين أن الاله «الذي تملكه الرعب يقفز في أمواج البحر ، فأخذته تيتيس بحضنها وهو مرتعب تماما : لقد تملكه الرعب عند زمجرة المحارب» ولكن ليكورغ «أغضب الآلهة» فجعله زوس أعمى ، ولم يعش طويلا «لأنه أصبح عدواً لكل الآلهة الخالدة» .

ويمكن حل رمز هذا المشهد ، حيث توجد ملاحقة من قبل «انسان ـ ذئب» وغريق في البحر ، بتذكر السيناريو المساري القديم . مع ذلك ، وفي العصر الذي ذكره هومر ، فإن قصد ومعنى الأسطورة هما شيء آخر ، إنه يكشف معالم

خاصة لمصير ديونيزيوس : «اضطهاده من قبل شخصيات معادية» ، غير أن الأسطورة تشهد اضافة لذلك أن ديونيزوس قد اعترف به كعضو في العائلة الالهية ، لأن زوس ، والده ، لم يكن وحده ، وانما كل الآلهة الأخرى قد شعروا بتجريحهم بحركة ليكورغ .

ان «الاضطهاد» يوضح بطريقة مأساوية المقاومة ضد طريقة التكون والرسالة الدينية لاله . بيرزيه ينتصب مع جيشه ضد ديونيزوس و«نساء البحر» اللواتي يرافقنه ، وحسب «نص قديم» يلقى الاله في لج بحيرة ليون [بلاتارن - ايزيس٣٥]وسنجد نغمة الاضطهاد في تحليل عابدات باخوس لأوربيدس . وقد جرت محاولة لتفسير أمثال هذه المشاهد كذكريات مؤسطرة للمقاومة المصادفة من قبل العبادة الديونيزية . وان النظرية المستترة تفترض أن ديونيزوس قد وصل متأخراً لليونان ، وأنه ضمنا ، إله «غريب» . ان الأكثرية من العلماء تعتبر أن ديونيزوس ، كإله تراقي thrace ، أدخل إلى اليونان اما مباشرة من تراقية ، وإما من فريجيا . ولكن والتر اوتو Walter Otto أصر على الصفة الموغلة في القدم والما قبل الهيلينية لديونيزوس ، وكحجة له في هذا القول واقعة اسمه دي - و - نو - سو - جو di- wo- nu- so jo الموجودة في نقش ميسيني . ومن جهة أخرى ، فليس بأقل من هذا حقيقة ان هيرودوت [٤٩/٢] كان قد اعتبر ديونيزوس كأنه «مدخل مؤخراً» . وفي الباخيات [٢/٧ - ١٩] تكلم بانتيه Penthé عن هذا «الاله الذي جاء متأخراً كيفما اتفق» .

وكيفما كان تاريخ دخول العبادة الديونوزيسية إلى اليونان ، فإن الأساطير والمقاطع الميثولوجية التي تشير الى المقاومة التي صادفتها . ذات دلالة أكثر عمقاً : إنها ترشدنا في آن واحد إلى التجربة الدينية الديونيزية وتدلنا على البنية المميزة للاله . لقد كان على ديونيزوس أن يثير مقاومة واضطهاداً ، لأن التجربة الدينية التي أثارهاهددت نموذج وجود وعالم قيم. لقد تعلق،بالتأكيد،بالسيادة، المهددة،للدين الأوليمبي ومؤسساته. ولكن المقاومة قد افشت كذلك مأساة أكثر صميمية، والتي هي قد تأكدت على نطاق واسع في تاريخ الأديان : المقاومة ضد كل تجربة

دينية مطلقة ، والتي لا يمكن لها أن تتم الا بانكار البقية (مهما كان الاسم الذي يعطي لها : توازن ، شخصية ، شعور ، عقل الخ) .

إن والتر اوتو قد لمس بحق التضامن بين نغمة «الاضطهاد» لديونيزوس ونموذجية تعدد تجلياته . فديونيزوس اله يبدو فجأة ويغيب بعدئذ بطريقة خفية . ففي أعياد أجريونيادي شاليرونيا Agrioniad chaeronéa ، كانت النساء تفتش عنه عبثاً وتعود بخبر ان الاله كان قد ذهب الى عند ربات الشعر muses اللواتي أخفينه (اوتو ـ ديونيزوس ص٧٩)لقد اختفى بغطسه في لج بحيرة ليرن ، أو في البحر ، وسيظهر ـ كما في عيد انتيستريا Anthestéria ـ في قارب على الأمواج . وان الاشارات ليقظته في سريره تدل على نفس النغمة الأسطورية . وهذه التجليات وهذه الاحتجـابات الدورية تحل ديونيزوس بين آلهة النبات[٥] . وفي الواقع ، انه يظهر بعض التضامن مع حياة النباتات ، اللبلاب ، والصنوبر أصبحا تقريبا من رموزه ، وأعياده الأكثر شعبية تثبت في التقويم الزراعي . ولكن ديونيزوس هو على علاقة مع كلية الحياة ، كما تظهره علاقاته مع الماء والبذور والدم والمني ، والافراطات الحيوية المستترة بتجلياته الحيوانية (ثور ، أسد ، تيس)[٦] . إن ظهوراته وغيابه الغير متوقعة تعكس بنوع ما ظهور واحتجاب الحياة ، أي تناوب الحياة والموت ، وفي آخر المطاف وحدتهما . ولكنه لا يتعلق أبدا بملاحظة «موضوعية» لهذه الظاهرة الكونية ، التي لا يمكن لتفاهتها أن تثير أية فكرة دينية ، ولا أن تنتج أية اسطورة . وبتجلياته واحتجاباته ، يكشف ديونيزوس السر ، والقداسة لتصريف الحياة والموت . انه كشف عن طبيعية دينية ، لأنه منجز بحضور الاله نفسه . ولأن هذه الظهورات والاختفاءات ليست دائماً على علاقة مع الفصول . فديونيزوس يظهر نفسه أثناء الشتاء ، ويغيب في ذات الاحتفال الربيعي حيث ينجز تجليه المظفر .

«اختفاء» ، «احتجاب» هما عبارتان ميثولوجيتان عن النزول الى الجحيم ، اذن عن (الموت) . وفي الواقع ، أُظهر قبر ديونيزوس في دلفي ، وقد حُدِّث كذلك عن موته في آرغوس . من جهة أخرى ، عندما يستدعى ديونيزوس من

عمق البحر في شعائر أرجين [بلوتارك ـ داسيد ٣٥] ، فإنه ينهض من بلاد الأموات . وحسب أنشودة أورفية (ن . ل ٣) عندما يكون ديونيزوس غائبا يعتبر أنه يوجد قرب بيرسفونة . وأخيراً ، فان الأسطورة لزاعزوس ـ ديونيزوس ـ التي سنعود اليها ـ تقص قصة الموت العنيف لاله ، مقتول ، ممزق ومفترس من قبل التيتان .

هذه المظاهر ، المتعددة ، ولكن المتكاملة ، لديونيزوس مدركة أيضاً حسياً في طقوسه العامة ، رغم تطهيراتها الحتمية ، ورغم إعادة تفسيراتها .

١٢٣ ـ قدم بعض الأعياد العامة .

بدءاً من بيزيسترات Pisistrate ، كان يحتفل في آثينا بأربعة أعياد على شرف ديونيزوس[٧] . «الديونيزيات في الحقول» ، التي كانت تجري في كانون أول ، وكانت أعياداً للقرية . وكان يتجول موكب بتطواف حاملا عضو تذكير بحجم ضخم ومترافقاً بالأناشيد والأغاني . وهذه حفلة قديمة جداً منتشرة بامتياز وبشكل واسع عبر العالم ، وان الفالوفوري = Phallophoric (المتعلقة بالقضيب عضو التذكير) سبقت بالتأكيد العبادة الديوزونيسية . وشعائر أخرى كانت تقتضي مبارزات ومنازعات ، وبصورة خاصة عروضاً للأقنعة أو شخصيات متنكرة بحيوانات . وهنا أيضا سبقت شعائر ديونيزوس ، ولكنه معلوم كيف أن إله الخمر قد توصل لأن يأخذ رأس موكب الأقنعة .

ولم تردنا معلومات كافية حول اللينية les Lènès التي يحتفل بأعيادها . في منتصف الشتاء . ان هرقليط يؤكد في أحد أقواله بأن الكلمة ليناي Lénai والفعل «أجرى الليناس faire le Lénai» كانت تستعمل كمعادلات «للباخيين baceh Aute» الشاربون و«أجرى الباشانت» faire le bacchant . وكان الاله يدعى مع المسابقة للداديشو daduchos . وحسب تفسير لبيت شعر لأريستوفان ، كان

الكاهن الايلوزينيان ، و«مشعل في يده يقول : ادعو الاله ؛ فيصرخ الحضور : يا ابن سيميله ، اياكشو[٨] واهب الغنى !» .

وكان يَحتفل بأعياد الانتيستيري les Anthésteries في شباط ـ آذار تقريباً ، و«الديونيزيات الكبار» االأقرب عهدا في آذار ـ نيسان . وقد اعتبر توسيديد [٢ ، ١٥ ـ ٤] الانتيستيري كأقدم عيد لديونيزوس . وكان أكثر الأعياد أهمية . وكان أول يوم يسمى بيتواجيا pithoigia ، افتتاح براميل من تراب (بينوا pithoi) كان يحفظ فيها الخمر منذ محصول الخريف . وكانت البراميل تنقل الى معبد «ديونيزوس في المستنقع» لاجراء اراقات (تقدمات) للاله ، ومن ثم كان يذاق الخمر الجديد ، واليوم الثاني (شويه choés) = «الجرار» كانت تجري مسابقة للشاربين : كانوا يوصلون بجرة ملئت بالخمر ، وعند الاشارة التي تعطى كانوا يبتلعون بأسرع ما يمكن محتواها . تماما مثل بعض مسابقات «الديونيزيات في الحقول» (على سبيل المثال ، الاسكولياسمو) التي كان الشباب فيها يبذلون جهدهم بالبقاء أطول فترة من الزمن واقفين بتوازن على قربة مدهونة بالزيت) ، هذه المباراة أيضا كانت تأخذ محلها في السيناريو المعروف جدا من مسابقات ومبارزات فروسية من كل نوع (رياضية ، خطابية الخ) متابعة تجديد الحياة[٩] . ولكن المرح والسكر يسبقان بنوع ما الحياة في الآخرة التي لا تشبه ابداً العالم الهوميري الآخر التعيس .

وفي ذات اليوم من «الجرار = شويه» كان يتشكل موكب يمثل وصول الاله الى المدينة ـ وكما كانت عودته منتظرة من البحر ، كان الموكب يتضمن زورقاً محمولاً على أربع عجلات لعربة ، كان يوجد فيها ديونيزوس ماسكاً كرمة ، وساتيران عاريان يعزفان على الناي .

وكان الطواف يصف صوراً مختلفة ، متنكرة ـ على الأرجح ـ وكان هنالك ثور تضحوي يتقدمه عازف على الناي وحملة أكاليل ، وكان يتوجه صوب المعبد الوحيد المفتوح هذا اليوم ، الليمنيون القديم . وهنالك كانت تجري حفلات

* ـ الساتير satyre = شخص خرافي نصفه انسان ونصفه ماعز .

مختلفة ، كانت البازيلينا (الملكة) تساهم فيها ، أي امرأة الارخونت ، الملك ، ولها أربعة سيدات شرف . بدءاً من تلك اللحظة التي كانت البازيلينا وريثة الملكات القديمات للمدينة ، معتبرة كزوجة لديونيزوس . فكانت تمتطي العربة بالقرب منه ، ويتجه موكب جديد من نموذج زواجي نحو البوكوليون ، المقر الملكي القديم . ويؤكد أريسطو أنه في /البوكوليون (لغويا : اصطبل البقر) كان يحصل اللقاء الجنسي بين الاله والملكة [السياسة الايتينية ٣ ، ٥] . وان اختيار البوكليون يدل على أن التجلي الثوري taurine (من الثور) لديونيزوس كان مألوفاً أيضاً .

وقد جرت محاولة لتفسير هذا القران في معنى رمزي ، أو بافتراض أن الاله كان قد تجسد بالأرخنوت ، ولكن و . أوتو W. otto يبرز بعنوان صحيح الأهمية لشهادة أريسطو[١٠] ان البازيلينا تستقبل الاله في بيت زوجها ، وريث الملوك ـ وديونيزوس يتمثل كملك . ومن الراجح أن هذا اللقاء يرمز للزواج بين الاله والمدينة بكاملها ، مع النتائج الكبيرة المتخيلة . غير أن هذا هو عمل مميز لديونيزوس ، ألوهية بتجليات وحشية ، تتطلب أن يُصرح لها علانية عن تفوقها . ولا تعرف أية عبادة يونانية أخرى حيث يبدو إله معينا بالقران بالملكة .

غير أن الأيام الثلاثة للأنتيستيري ، وبخاصة الثاني ، وهو انتصار ديونيزوس ، هي أيام بؤس ، لأن أرواح الموتى تعود ومعها الكيرات les Kére ، حملة التأثيرات المؤذية من العالم السفلي . وكان اليوم الأخير من الانتيستيري مكرساً لهم . فكان يقام الدعاء من أجل الموتى ، وكان يجري اعداد بانسبرمي panspermie ، حبوب مغلية من أنواع مختلفة ، يتوجب استهلاكها قبل الليل . وعندما يأتي الليل كان يُصرخ : «الكيرات الى الأبواب ، لقد انتهت الانتيستيري» .

ان السيناريو الشعائري معروف جداً ، وقد تأكد تقريبا في كل مكان في الحضارات الزراعية . فالموتى وقوى العالم الآخر تدير الخصوبة والثروات ، وهي الموزعة لها . «كتب في أطروحة متعلقة بالطب ، من الموتى ، تأتينا الأغذية ،

ويأتينا النماء والبذور» ان ديونيزوس ، في كافة الحفلات المكرسة له يتكشف الها للخصوبة والموت معاً . وان هيراقليط (فقرة ١٥) قال فيما سلف أن «هاديس وديونيزوس [. .] هما الواحد وذاته» .

وقد سلف أن أعدنا التذكير بالعلاقات بين ديونيزوس والمياه ، والرطوبة ونسغ النبات . وكذلك يجب الاشارة للمعجزات التي تصاحب تجلياته ، أو تبشر بها : الماء الذي ينبجس من الصخر ، والانهر التي تفيض باللبن والعسل . في تيوس Teos تدفق غذيراً نبع من الخمرمن يوم عيدالاحتفال به[ديودر الصقلي ٣ـ ٢٦٦] وفي ايليس Elis ، تركت ثلاث جفان فارغة أثناء الليل في غرفة مقفلة ، وقد وجدت في الصباح ملأى بالخمر [بوزانياس ٧١ ـ ٦٢ ـ ١١ ـ ١٢] . وتأكدت معجزات مماثلة في أمكنة أخرى . وأكثرها شهرة كانت «شجرات الكرمة بيوم واحد» ازهرت وانتجت العناقيد من العنب خلال بضع ساعات ؛ وقد حصلت المعجزة في أمكنة مختلفة لأن عدداً من الكتاب تكلم عنها[١١] .

١٢٤ ـ اوريبدس والتهتك الديونيزي .

إن معجزات مماثلة هي مميزة لعبادة مسعورة ونشوية لديونيزوس ، والتي تعكس العنصر الاكثر اصولية ، ومن المحتمل الأكثر قدما ، للآله . ولنا في عابدات باخوس le Bacchantes لاوريبدس شهادة لا تقدر بثمن حول ما يمكن أن يكونه اللقاء بين العبقرية الاغريقية والتهتك الديونيزى . فديونيزوس نفسه هو بطل الرواية الأولى لعابدات باخوس ، واقعة لاسابقة لها في المسرح اليوناني القديم . إن ديونيزوس وقد شعر بمرارة من أن عبادته مازالت مجهولة في اليونان ، وصل من آسيا مع مجموعة من المينادات Menades وتوقف في طيبة مكان ولادة أمه . ان بنات الملك قدموس الثلاثة انكرن ان تكون اختهن ، سيميلة ، محبوبة لزوس وانها حملت منه إلهاً . فأصابهن ديونيزوس بالجنون ، واندفعت خالاته مع نساء طيبة الاخريات نحو الجبال ، حيث احتفلن بالشعائر التهتكية .

وقد كان بانتيه Pentheé الذي ورث عرش جده قدموس حرَّم الديانة ، وبالرغم من الآراء التي تلقاها عاند في التحريم . وقد أسر بانتيه ديونيزوس وحبسه عندما تنكر بهيئة محتفل بالقداس لديانته الخاصة ؛ إلا أنه فر باعجوبة ونجح حتى بإقناع (بانتيه) ، ليذهب ويتجسس على النساء خلال احتفالاتهن التهتكية . وما أن اكتشف بانتيه من قبل الميّنادات حتى مزقنه قطعاً ؛ وحتى أن والدته آجانيه حملت رأسه بانتصار معتقده أن هذا كان رأس أسد[١٢] .

ومهما يكن قصد اوريبيدس عندما كتب عابدات باخوس في آخر حياته ، فإن هذا العمل الهام من المأساة الاغريقية يشكل في ذات الوقت أهم وثيقة حول الديانة الديونيزية . إن نغمة «المقاومة ، الاضطهاد والنصر» وجدت أكبر تألقها[١٣] . فباتييه يقف موقف المعارض لديونيزوس لأنه «غريب ، متنبىء ، ساحر [. . .] مع تجعيدات شعر أشقر جميل ومعطر ، وخدود كالورد ، وعيون فيها ملاحة افروديت . وتحت ذريعة تعليم الممارسات العذبة والفتانة للإيفويه l'evoé أفسد الفتيات» [٢٣٣ -] . إن النساء مدعوات لترك منازلهن والاسراع ليلاً إلى الجبال راقصات على أصوات السناطير والنايات . وبانتيه كان خائفاً من تأثير الخمر بصورةخاصة لأن «مع النسوة ، منذ مثول رحيق العنب على المائدة ، لا يرجى خير من طقوسهن الصاخبة» ، [مسرحية عابدات باخوس ٢٦٠ - ٢٦٤] .

مع ذلك ، ليس الخمر هو الذي يستدعي نشوة الباخيات . فقد فآجأهن خادم لبانثيوس على السيترون Citheron في الفجر ، ووصفهن بأنهن لابسات فراء الغزال متوجات باللبلاب ، متزنرات بالافاعي ، وكان بعضهن يحملن في احضانهن غزلاناً أو ذئاباً وليدة (٦٩٥) . والمعجزات الديونيزية المميزة كثيرة : الباخيات يضربن الصخور بمزراق باخوس فيخرج الماء والخمر ، وهن ينبشن التربة بأطراف أصابعهن فيحصلن على حليب مغلي ، وكان العسل ينقط من الصولجانات أو العصي المعروشة بالاغصان [٧٠٣] . وتابع الخادم قوله «بالتأكيد ، لو كنت هناك ورأيت هذه الأشياء لحاولت أثناء الصلاة التقرب من الاله الذي تزدريه الآن» [٧١٢ : ١٤] .

وقد فوجىء الخادم بوجود أجافيه Agavé ، فتخلص ورفقاه من التعرض للتمزيق ، وانقضت الباخيات عندئذٍ على الحيوانات التي كانت ترعى في البرية ، «وبدون وجود أي حديد في ايديهن» مزقنها قطعاً .

«تأثير ألوف الأيدي من الفتيات» مزقت ثيران قوية في رمشة عين . وانطلقت المينادات على السهول «لقد انتزعن الأطفال من البيوت» . ورغم ما حملنه على اكتافهن من اشياء كثيرة لم يقع شيء على الأرض ، لا من النحاس ولا الحديد ، رغم أنها غير مربوطة فوق اكتافهن وحملن النيران . بين خصلات شعرهن لكنها لم تحرقهن ، وسيطر الغضب على بعضنا لما أتت الباخيات من نهب وأعمال فاندفعنا صوب السلاح . . . . عندئذٍ بدا مشهد ـ أيها الملك ـ يثير الرعب رؤيته . فالحراب ذات الأسنة الحادة لم تسل دماءهن ، بينما كانت اولئك النسوة تقذفن بما في ايديهن من مخاصر . فتصبن الرجال بالجراح وترغمنهم على الفرار ـ وما كان ذلك ليحدث دون مساعدة اله ما» [١٠٤١ ـ ٦٣]

من غير المجدي الاشارة للمفارقة بين هذه الشعائر الليلية والوحشية ، والاعياد الديونوزية العامة التي تكلمنا عنها سابقاً [ف . ١٢٣] . فأوربيدرس يقدم لنا عبادة سرية ، مميزة للاسرار . وسأل بانتيوس :«ما هي هذه الاسرار حسب رأيك ؟ . فيجيب ديونيزوس : لا يمكن افشاء اسرارها لغير الباخيين من بين البشر ـ ويسأل : وأي فائدة تقدمها للعابدين ؟فيجيب ديونيزوس : لا يليق بك ان تعرفها ، وان كانت جديرة بأن يعرفها غيرك [٤٧٠ ـ ٢٧٤] .

إن السر كان مشكلاً بمساهمة الباخيين في التجلي الشامل لديونيزوس . إن الشعائر يحتفل بها ليلاً ، بعيداً عن المدن ، على الجبال وفي الغابات . فعبر الاضحية بالتمزيق (سباراغموس) وأكل اللحم نيئاً (اوموفاجيا) يحقق التشارك مع الاله . لأن الحيوانات التي تمزق وتفترس هي تجليات اوتجسيدات لديونيزوس . كل التجارب الأخرى ـ القوة الطبيعية الاستثنائية ، عدم التأثر أو الحصانة من النار والسلامة ، والمعجزات (ماء ، خمر لبن متدفق من تراب) التآلف مع الأفاعي وصغار الحيوانات الكاسرة ـ كلها جعلت ممكناً بالحماس التطابق مع الاله . إن

الوجد الديونيزي يعنى قبل كل شيء تجاوز الشرط الانساني ، واكتشاف الانعتاق الشامل ، والحصول على حرية ، وعلى عفوية لا يمكن للبشر الحصول عليها . ومن بين هذه الحريات مثلاً ، الانعتاق أيضاً من المحرمات ، من القوانين والتنظيمات ، من الالتزام بالأوامر الخلقية والاجتماعية ، وهذا ما يبدو أكيداً ؛ وهو ما يفسر في جزء منه اذعان النساء القاسي[١٤] . ولكن التجربة الديونيزية كانت تمس مستويات أكثر عمقاً . فالباخيين الذين التهموا اللحوم النيئة يحيون عادة رفضت منذ عشرات الألوف من السنين ؛ وان هيجانات مماثلة ، كانت كشفت مشاركة مع قوى حياتية وكونية لم يمكن تفسيرها الا كامتلاك الهي . أما أن يكون الامتلاك مختلطاً بالجنون . la mania فإن هذا ما يتوجب توقعه . فديونيزوس نفسه قد عرف «الجنون» والباقي لا يعمل سوى اقتسام التجارب والعشق الالهي ؛ وفي نهاية المطاف ، كانت هذه الوسائل هي الأكثر ضماناً للمشاركة معه .

لقد عرف الاغريق حالات اخرى من المانيا mania المثارة من قبل الآلهة . ففي مأساة هرقل ليوريدس ، جنون البطل هو من فعل هيرا ؛ وفي أجاكس لسوفوكل ، أتينا هي التي رتبت التيه . إن الكهنوتية في اليونان القديم «كوريبانثيسم corybanthisme» ، المقربة من قبل القدامى من التهتك الديونوزي ، كانت مانيا مثارة بامتلاك الكوربيانت les Corybantes = الكهنة ، وكانت الممارسة تصل إلى مسارة حقيقية . وإن ما يميز مع ذلك ديونيزوس وعبادته ، ليست هي الازمات البسيكوباتية (الامراض النفسية) وإنما واقعة أنها كانت مقومة بصفتها تجربة دينية : إما كعقاب ، وإما كفضل من الله[١٥] . وفي آخر المطاف ، إن فائدة المقارنات مع الطقوس أو الحركات الجماعية المتماثلة ظاهرياً ـ على سبيل المثال ، بعض الرقصات التشنجية Convulsives في القرون الوسطى ، أو آكل اللحم النيء شعائرياً للإيساوا des Aissâoua ، الأخوانية الصوفية في افريقيا الشمالية[١٦] ـ تستقر بحق في واقعة أنها تكشف أصولية الديونيزية .

ومن النادر أن يؤثر آله في العصر التاريخي مكلف بهكذا تراث قديم : شعائر تتطلب اقنعة ، ومتعلقات قضيبية ، وتمزيق الاضحية ، وآكل اللحم النيء ، وآكل لحم البشر وجنون وحماس . إن ما هو أكثر جدارة بالملاحظة ، واقعة أنه مع الاحتفاظ تماماً بهذا الارث المستقر منذ ما قبل التاريخ ، فإن عبادة ديونيزوس ، ما أن ادخلت مرة في العالم النفسي للاغريق حتى استمرت بدون انقطاع في خلق قيم جديدة . بالتأكيد ، إن الهيجان المثار عن طريق التملك الالهي ـ الجنون ـ قد كان اثار اهتمام عدد من الباحثين ، وشجع في كثير من المرات السخرية والهزء . فهيرودوت [٤ ـ ٧٨ ـ ٨٠] يحكي مغامرة ملك سيتي seyteسكايلاس الذي ،«تلقن على موجب شعائر ديونيزوس باخيوس» في اولبيا على بوريستين (الدنيبر) . أثناء حفلة التيلتية téleté كان الممتلك من قبل الاله ، يفعل فعل (الباخي والمجنون) . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا طواف ، يدع فيه المسارون انفسهم «تحت حكم الاله» ليؤخذون بهيجان ملحوظ من قبل الحضور ، بأكثر مما هو من قبل الممتلكين ذاتهم ، وكما لو أنه جنون فعلاً .

وقد عنى هيرودوت نفسه بأن ينقل قصة رويت له في اولبيا . وديموستين في مقطع شهير (حول التاج ٢٥٩) ، مع كل محاولته الاستهزاء بخصمه ، إيشاين Eschine ، يكشف لنا ، في الواقع ، بعض الشعائر لصغار التيازس من (الباخيين des Bacchein) التي احتفل بها ؛ في أثينا ، في القرن الرابع ، المؤمنون بسابازيوس ، اله تراقي مماثل لديونيزوس . (القدامى اعتبروه من جهة اخرى مثل ديونيزوس تراقي تحت اسمه البلدي)[١٧] . ويرجع ديموستين إلى الشعائر المتبعة من قراءة «الكتب» (من المرجع نص مكتوب محتويا هيروالوجيا hieroi lojoi) ؛ وهو يتكلم عن «نيبريزر nébriser» (تورية لجلد الغزال ، النبريد la nébride ، وربما كان يتعلق باضحية مع أكل اللحم نيئاً) وعن «كراتيريزر cratériser» (الحوض الذي كان يخلط فيه الخمر والماء ، و «الشقاء الصوفي») ، وعن «التطهير» (كازارموس Catharmos) ؛ موجباً بصورة خاصة فرك الملقن بالسر بالغضار والطحين . وأخيراً ، كان الكاهن يرفع الملقن مقرفصاً أو ممدداً على الأرض ، وكان هذا يردد عبارة : «لقد نجوت من الشر ووجدت الخير» . وكانت

الجماعة تهتف مهللة en ololygé ، وفي الصباح كان يجري طواف المريدين ، متوجين بالشمرة وأغصان الحور الأبيض . وكان ايشين Eschine يمشي في المقدمة ، مرقصاً أفاعي وهاتفاً :

«ايفوية evoé ، اسرار سابازيوس» وراقصاً على الهتافات هيس de Hyés آثيس Attès ـ اتيس ـ هيس . وقد أشار ديموستين أيضاً لسلة بشكل منسف الليكنون liknon «المنسف الصوفي» ، السرير البدائي لديونيزوس الصغير .

وتحت شكل أو آخر ، يوجد دوماً في وسط الشعيرة الديونوزيسية تجربة وجدية لهيجان عنيف إلى حد ما : المانيا ، وهذا الجنون كان يشكل بنوع ما وسيلة اثبات التأليه للمريد . إن التجربة ، بالتأكيد ، كانت غير قابلة للنسيان ، لأنه كان يشترك فيها المبادهة الابداعية والحرية المسكرة للقوة الفوق بشرية وللعصمة الدينونوزية . والمشاركة مع الاله كانت تفجر لبعض الوقت ، الشرط البشري ، ولكنها لم تكن تصل أبداً إلى تغييره . لا يوجد اشارة للخلود في الباخيات les Bacéhantes ، ولها في عمل متأخر عن الديونيزيات لنونوس . وهذا يكفي لتمييز ديونيزوس عن زالموكسي ، الذي يقارن به وأحياناً يختلط به منذ رود Rohde ؛ لأن هذا الاله للجيتز des Gètes «خلَّد» الملقنين في اسراره . ولكن الاغريق لم يتجاسروا بعد لردم المسافة اللانهائية التي ، تفصل ، في نظرهم الألوهية عن الشرط البشري .

١٢٥ ـ عندما أعاد الاغريق اكتشاف حضور الاله.

إن الخاصية المسارية ، وسر الباخيات الخاصات تبدو مؤكدة [ر . سابقاً الباخيات ٧٠ ـ ٧١] (١٨) . رغم أن جزءاً على الأقل من الحفلات (مثلاً ، الطوافات) كانت عامة . ومن الصعب التحديد بدقة متى ، وفي أية ظروف ، قد علت الشعائر السرية والمسارات الديونيزيسية الوظيفة المميزة لديانات الاسرار .

إن بعض العلماء البارزين [نيلسون ، فيستوجيير] يعارضون وجود سر ديونيزي ، بحجة فقدان مراجع دقيقة للأمل الأخروي . ولكننا ، وبخاصة في العصر القديم ، نعرف بشكل سيء جداً الشعائر السرية ، إن لم نقل شيئاً عن دلالتها الباطنية (التي أوجب لها أن توجد ، طالما ان الدلالات الباطنية للشعائر السرية والمسارية قد تأكدت في كل مكان في العالم ، على مختلف المستويات من الثقافة) .

وأضافة لذلك ، لا يجب تحديد مورفولوجيا الأمل الأخروي بعبارات اصبحت مألوفة بالأورفية أو الاسرار من العصر الهيللنستي . إن احتجاب وتجلي ديونيزوس ، وهبوطاته لمستقرات الأموات (قابلة للمقارنة بموت يتبعه صعود) ، وعلى الأخص عبادة ديونيزوس ـ الطفل[١٩] ، مع الشعائر المجدة «اليقظة» ـ تاركين جانباً النغمة الاسطورية ـ الشعائرية لديونيزوس ـ زاغروس ، التي سنصر عليها في ما سيأتي ـ وكل هذا يشير للارادة ، والأمل بتجدد روحي . إن الطفل الالهي ، في كل مكان من العالم ، مكلف برمزية مسارية كاشفة لسر «البعث» من نوع صوفي . (بالنسبة للتجربة الدينية ، غير مهم قليلاً أو كثيراً ان مثل هذه الرمزية هي مفهومة أو غير مفهومة عقلياً) . ويعاد التذكير بأن عبادة سابازيوس المتطابقة بديونيزوس ، سبق أن قدمت البنية لسر («لقد تخلصت من الشر») . بالتأكيد إن الباخيات لم يتكلمن عن الخلود ، مع ذلك ، فإن المشاركة ، حتى ولو موقته ، مع الاله لم تكن دون نتيجة بالنسبة لشرط الوجود التالي لباخوس . إن حضور ديونيزوس في اسرار ايلوزيس يترك مجالاً للشك في الدلالة الاخروية أقله لبعض التجارب التهتكية .

ولكن هذا بخاصة ، بدءاً من ديونيزوس ـ زاغروس الذي تتحقق خاصيته السرية للعبادة . إن اسطورة تقطيع الولد ديونيزوس ـ زاغروس معلومة لدينا خاصة عبر الكتاب المسيحيين ؟ وكما توجب الانتظار ، فقد مثلوه بصورة بشرية ، غير كامل وذو نية عدوانية . ولكن فعلاً لأنهم تحرروا من المنع عن ، الكلام بصراحة عن أشياء مقدسة وسرية ، فإن الكتّاب المسيحيين أوصلوا الينا العديد

من التفصيلات القيمة . فقد ارسلت هيرا التيتان ، الذين جذبوا الطفل ديونيزوس ـ زاغروس ببعض اللعب (خشخيشات ds hochets ، كريبونديا مرآة ، لعبة الكعاب ، كرة ، دوامة معيَّن رومب) وذبحوه وقطعوه قطعاً صغيرة . وطبخوا القطع في قدر ، وتبعاً لرأي بعضهم ، اكلوه . وان الربة ـ اثينا ، ريا ، أوديميتير ـ أنقذت القلب ووضعته في صندوق صغير . وعلم زوس بالجريمة فرجم التيتيان بصواعقه . ولم يشر الكتاب المسيحيون إلى قيامة ديونيزوس ، ولكن هذا المشهد كان معروفاً من القدماء . إن الابيقوري فيلوديم المعاصر لشيشرون ، يتكلم عن ألولادات الثلاثة لديونيزوس «الأول من أمه ، الثانية من الفخذ ، والثالثة ، عندما جمعت ريا الاعضاء بعد تقطيعه من قبل الثيثان ، وعاد للحياة»[٢١] .

ويستنتج فيرميكوس ماثرنوس مضيفاً ، إنه في كريت (حيث جعل تاريخه بشرياً)كانت تعاد ذكرىٰ الاغتيال بشعائرسنوية،وكانت ترددما«فعله الطفل وما تحمله في فترة موته» : «في عمق الغابات ، بصيحات غريبة يصدرونها ويظهرون الجنون من روح غاضبة «محاولين الاعتقاد بأن الجرم قد ارتكب بسبب الجنون و «يمزقون باسنانهم ثوراً حياً» . إن النغمة الاسطورية ـ الشعائرية للعاطفة الهوجاء لقيامة الولد ديونيزوس ـ زاغروس قد افسحت المجال إلىٰ معارضات لاحصرلها ولا نهاية ، وبخاصة بسبب تفسيراتها «الأورفية» . ونكتفي هنا بالتأكيد على أن المعلومات المنقولة من قبل الكتاب المسيحيين تعززت بوثائق أكثر قدماً . إن الاسم زاغروس قد ذكر لأول مرة في قصيدة ملحمية من عصر طيبي thébain القميونس Alemeonis [القرن الرابع][٢٢] : يعني (صياد كبير) ، الأمر الذي يناسب الصفة الوحشية والتهتكية لديونيزوس . أما بالنسبة لجرم التيتان ؛ فإن بوزانياس [٨ ـ ٣٧ ، ٥] نقل إلينا معلومات هي ، بالرغم من شكوك ويلامويتز Wilamowiz وعلماء آخرين ، تبقي معلومات قيمة : أونوماكريت Onomacrite ، الذي عاش في آثينا في القرن السادس ، في عصر بيزيستراتيد Pisistratides ، كان قد كتب قصيدة حول هذا الموضوع : «آخذاً اسم التيتان من هومير ، أسس اورجيات des orgia لديونيزوس ، جاعلاً من التيتان الصانعين لآلام الآله» .

وحسب الاسطورة إن التيتان كانوا تقربوا من الطفل الالهي وهم متنكرين برش الجص على أجسامهم لكي لا تمكن معرفتهم . وعليه ، فإنه في اسرار سابازيوس sabazios التي يحتفل بها في آثينا ، كانت إحدى الشعائر المسارية تتكون برش المرشحين بغبار الجص(٢٣) . إن الواقعتين اقتربتا منذ زمن قديم (ز . نونوس ، ديونيزوس . ٢٧ ـ ٢٢٨) . إنه يتعلق بشعيرة قديمة من المسارة ، معروفة جداً في المجتمعات «البدائية» : فالمبتدئين في الرهبنة يفركون وجوههم بالغبار أو الرماد ، بهدف التشبه بالاشباح ؛ وبعبارة أخرى ، انهم يتحملون موتاً شعائرياً . أما بالنسبة «للألعاب الصوفية» فقد كانت معروفة منذ زمن طويل ؛ وإن لفافة بابيروس تعود للقرن الثالث ق.م وجدت في الغيُّوم (غوروب) وهي لسوء الحظ مقطوعة ، وهي تذكر الدوامة والروجب ، والكعاب والمرآة [اوف . فر . ٣١] .

إن المشهد الأكثر مأساوية للاسطورة ـ بصورة خاصة واقعة انه ، بعد أن تم تقطيع الولد ، القى التيتان اجزاءه في حلة ، حيث جعلوها تغلى وبعدئذٍ شووها ـ كان معروفاً مع كل التفصيلات في القرن الرابع ، وأكثر من هذا ، إن هذه التفاصيل كان يعاد التذكير بها وبعلاقاتها مع (الاحتفال بالاسرار)(٢٤) . وقد ذكر جان مير Jean maire بما هو في محله ، إن الطهو في قدر أو المرور بالنار تشكلان طقوساً مسارية مكسبة للخلود [ر. مشهد ديميتر وديموفون] أو المادة الشباب (بنات بيلياس يمزقن اباهن ويطبخنه في قدر)(٢٥) . يضاف إلى ذلك أن الشعيرتين ـ تقطيع وطبخ أو مرور بالنار ـ تميز المسارات الشامانية .

فيمكن التعرف اذن في « جريمة التيتان » على سيناريو مساري قديم قد نسي معناه الاصولي . لأن التيتان يسلكون مسلك معلمي المسارة ، أي الذين « يقتلون » المبتدي بهدف ان يجعلوه يولد ثانية حسب طريقة عليا من الوجود (وفي مثالنا ، يمكن القول انهم منحوا الألوهية والخلود للطفل ديونيزوس) ، غير أن التيتان ، في ديانة أعلنت السيادة المطلقة لزوس ، لم يستطيعوا ان يلعبوا سوى دور شيطاني ـ وقد صعقوا وحسب بعض روايات مختلفة ؛ أن البشر خلقوا من رمادهم ـ وهذه الاسطورة لعبت دوراً بارزاً في الأورفية .

ان الخاصية المسارية للشعائر الديونيزية تركت لنفسها التنبوء في دلفي كذلك، عندماكانت النساء تحتفل بولادة الاله . لأن العربة الدلفية « كانت تحتوي ديونيزوساً مقطعاً وعلى اهبة معاودة الولادة ، زاغروساً » كما يشير الى ذلك بلوتارك [الزيد ٣٥] ، وهذا الديونيزوس الطيبي « الذي عاود الولادة كزاغروس كان في ذات الوقت الديونيزوس الطيبي ابن زوس وسيميليه [٢٦] .

ويبدو ان ديودور الصقلي قد رجع إلى الاسرار الديونوزية عندما كتب ان « أورفيه قد نقل في حفلات الاسرار تقطيع ديونيزوس » [٥ - ٧٥ - ٤] ، وفي مقطع آخر مثل اورفيه كمصلح للاسرار الديونيزوسية : « ولهذا فإن المسارات اللازمة لديونزوس تدعى اورفية » [٣ - ٦٥ - ٨] . ان النص المنقول من قبل ديودور ثمين في المعيار - الذي يقر فيه بوجود الاسرار الديونيزية . ولكنه من الراجح انه سبق في القرن الخامس لهذه الاسرار ان استعارت بعض العناصر « الاورفية » ، وفي الواقع ، ان أورفيه كان عنئذ معلناً « نبي ديونيزوس » و«مؤسس كل المسارات » [انظر الفصل ١٩ جزء ٢] .

* * *

ان ديونيزوس اكثر من كل الالهة الاغريقية الاخرى ، يبهر بتعدد وحداثة تجلياته ، وبحقيقة تحولاته ، انه في حركة دائمة ، ويتدخل في أي مكان ، وفي كل البلدان ولدى كل الشعوب ، وفي كل الاوساط الدينية ، وجاهز للمشاركة في الألوهيات المختلفة وحتى المتناقضة (ديمتر رابولون) . انه بالتأكيد الاله الاغريقي الوحيد ، الذي بتكشفه تحت مظاهر شتى ، بهر وجذب ايضاً الفلاحين كما بهر وجذب النخب المثقفة ، والسياسين والمتأملين المتهتكين والنساك . السكر ، الايروسية الخصب الشامل ، ولكن ايضا التجارب التي لا يمكن نسيانها والمثارة بالوصول الدوري للموتى ، أو بالمانيا (الجنون) ، والانغماس في اللاشعور الحيواني أو بالوجد من الحماس - كل هذه المرعبات والكشوفات تنبع من مصدر واحد : حضور الاله . ا ن طريقته في التكون تفسر الوحدة المتناقضة للحياة والموت . ولهذا فإن ديونيزوس يشكل نموذجا من الألوهية مختلفاً جذريا عن الأوليمبيين ، هل كان اكثر قرباً من البشر من بقية الآلهية الأخرى ؟ ؟ على كل

حال ، يمكن التقرب منه ، وثم التوصل لتجسيده ، وان نشوة المانيا كانت قد اظهرت ان الشرط البشري هو مما يمكن تجاوزه .

ان هذه الشعائر كانت قابلة لتطورات غير متوقعة . فالغلو في المدح dilhjrambe ، والمأساة ، والدراما الهجائية ، هي بطريقة مباشرة ، قلت او كثرت ، ابداعات ديونوزيسية . ومن المثير للاهتمام اتباع تحول شعيرة جماعية ، الديتيرمابوس Le dithyrmabos (المدائح المغالية) المدخلة لهيجان وجدي ، في استعراض وانتهاءً في نوع ادبي ، ولو ان بعض الطقوس العامة اصبحت استعراضات ، من جهة ، وجعل من ديونيوس رب المسرح ، فإن شعائر اخرى ، سرية ومسارية ، قد تطورت لاسرار ـ اقله بشكل غير مباشر ـ اورفيه مدينة للتقاليد الديونوزيسية . ان هذا الاله الشاب اكثر من أي اوليمبي آخر لن يتوقف عن غمر المؤمنين به بتجليات جديدة ، وبرسالات غير متوقعة وبآمال اخروية .

حواشي الفصل الخامس عشر

١ ـ بندار ـ هيرودوت ٢ ـ ادريبدس ـ عابدات باخوس ٩٤

٢ ـ الاليازة ١٤ ـ ٣٢٣ ، تسميها « امرأة من طيبة » وهزيود في الشاب الألهة ٦ ـ ١٢ ليسميها امرأة فانية .

٣ ـ ر. جان مير ـ ديونيزوس ص ٧٦ حول ليكورغ والمسارات المراهقية .

٤ ـ المقصود بقطع من بيلوس (١٠ ـ ٥ ـ ٢

٥ ـ وقد جرت محاولة لأن ميرى في ديونيزوس رباً للشجر والحبوب والعنب وقد فسرت الاسطورة عن تقطيعه وكأنها تضيء (العاطفة/ المشبوبة . للحبوب او تحضير الخمير التي سبق للصور الاسطورية ان عرفتها من قبل ديودورIIIص ٦٢

٦ ـ انظر النصوص والمراجع لدى اوتو ص ١٦٢

٧ ـ واقعة ان عيدين من هذه الأعياد تحملان اسماء الاشهر التي تناسبها ـ تثبت قدمها وصفتها الما قبل ـالهيلينية .

٨ ـ تلك هي عبقرية الطوافات لأسرار ايلوزيس التي تمثلت بديونيزوس

٩ ـ نذكر هنا انه يتعلق بسيناريو قديم جداً ومنتشر عالميا ، واحد من اكثر المواريث اهمية عما قبل التاريخ الذي يتمتع ايضاً بمكان متميز في كل شكل من المتمعات .

١٠ ـ انه يتعلق بقران آخر غير هذا ، على سبيل المثال ، لبعل بابل (رفيقه الهيروديل عندما كان يوجد الاله في المعبد) . او الكاهنة التي يجب عليها ان تنام في معبد (بولون ، لكي تتلقى مباشرة من الاله الحكم التي يجب عليها كشفها من قبل وسيط الوحي .

١١ ـ سوفوكل ـ تيست ـ (قصة ٢٣٢) والمصادر الاخرى التي ذكرها اوتولس ٩٨ ـ ٩٦

١٢ ـ تعرف التلة اخرى عن (الجنون) المثار من قبل ديونيزوس عندما لم يكن . قد اعترف به كإله . نساء ارغوس نبات minyle اللواتي مزقن والتهمن واحداً من أبنائهن .

١٣ ـ في القرن الخامس ـ كانت طيبة قد اصبحت مركز العبادة ، لأنه كان هنالك ، ان ديونيزوس قد حمل بهووجد قبر سيمبله والدته . مع ذلك لم ينس المقاومة للأوقات الأولى وأحد دروس البافيات كان بالتأكيد هذا : انه لا يسوغ طرح اله لأنه اعتبر كالجديد .

١٤ ـ تيريزيا ـ منعت مع ذلك الاله : (ديونيزوس لم يلزم النساء لأن يكن طاهرات ، فالطهارة ترتبط بصفة ، وتلك هي بالطبيعة طاهرة وستساهم في التهتكات دون ان تعد .

١٥ ـ نذكر بأن الذي يفصل الشامان عن المريض نفسيا هو انه نجح بأن يشفي نفسه وينتهي لأن يتمتع بشخصية اكثر قوة واكثر ابداعية من بقية الجماعية .

١٦ ـ ان رود Rohde قد كان قارن اتساع الدين الوجدي لديونيزوس مع حميًا الرقصات التشنجية في القرون الوسطى وان R. Einles قد لفت الانتباه على (Aimauna) التي تطبق أكل اللحم النيء الشعائري المسمى fraina من فعل farana (مزق) المشابهة صوفياً بالحيوانات الكاسرة التي تحمل اسماء « بنات آوى والفهود والاسود والقطط والكلاب » والمريدون يمزقون ويبقرون ويفترسون البقريات والذئاب والكباش والنعاج والماعز . ان اكل اللحوم النيئة كان يتبع برقص هيجاني من الابتهاج « لكي تتمتع بوحشية من النشوة وتتصل مع الآلهة (n. Armel)

١٧ ـ حسب التفسيرات القديمة ـ ان العبارة سابوا كانت مماثلة في اللغة الفريجية والاغريقية لباخوس .

١٨ ـ يعاد التذكير انه اثناء عيد الانتيزتيرمات كانت بعض الشعائر تنجز منفردة من قبل النساء في اضيق سر .

١٩ ـ ان عبادة ديونيزوس ـ طفلاً قد عرفت في مبوتو وكرت وانتهت بانتشارها في اليونان .

٢٠ ـ فيرميكوس مارتيزنوس والمراجع الاخرى ص ٣٨٣

٢٢ ـ اوريبد ٤٧٢ عاليمان ـ زاغروس اسم خاص لديونيزوس

٢٣ ـ ديموشين /٢٥٩/ عندما ساهموا باعياد ديونيزية فإن الاريوس عظوا وجوههم بالحصى . وقد ذكرت العلاقات بين الجص والتيتان ولكن هذه العقدة الاسطورية الشعائرية قد وقعت بخلط العبارتين .

٢٤ ـ المسألة التابعة لاريسطو (ديدور اريسطو ٧٠ ـ ٣١ ـ ٩٣) ، المناقشة بعد سلمدن (ريناش . في القرن الثالث كان ايفوريون يعلم نصوصا مشابهة .

٢٥ ـ جان لير . . . ، أمثله أخرى .

٢٦ ـ ديلكورت ص ١٥٥ ، بلوتارك ، بعد ان تكلم عن تمزيق اوزيريس وقيامته ، يتوجه الى صديقة Clea رئيسة الميناذات في دلفي . « ليكن اوزيريس هو ذاته ديونيزوس الذي يمكن معرفته احسن من التي وجهت التيادات اللواتي اسر لهن من قبل والدك ووالدتك بالاسرار الاوزيرية » .

٢٧ ـ le diphyrambol « دورة معنية بمناسبة التضحية بضحية لانتاج النشوة الجماعية مع مساعدة الحركات الايقاعية والهتافات والزعيق الطقوسية في العصر [٦ ـ ٧] حيث تطورت وعنت في العالم الاغريقي الغنائية الكورالية ـ واستطاعت ان تتطور بنوع ادبي بالأهمية المتنامية للاجزاء المغناة L' ex anehos الارخوني ، وبادخال مقطوعات غنائية على النغمات المعتمدة قليلاً او كثيراً في مناسبة وشخص ديونيزوس » [جان ميرص ٢٣٨]

فهرس موضوعات الجزء الأول

الفصل الخامس عشر

ديونيزوس والسعادة المستردة

١٢٢ ـ تجليات واحتجابات اله (مولودمرتين)١٢٣ ـ قدم بعض الاعياد العامة ١٢٤ ـ اوريبوس والتهتك الديونوزي ١٢٥ ـ عندما اكتشف الاغريق حضور اله .

منذ البداية - تصرفات سحر دينية لأهالي العصور الحجرية - أطول ثورة - اكتشاف الزراعة - العصر الحجري القديم والجديد - ديانات مابين النهرين - أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة - ميغاليت - معابد مراكز احتفالية - ديانات الحثيين والكنعانيين - عندماكان إسرائيل طفلاً - ديانات الهندوأوربيين - الآلهة الفيدية - الهند قبل بوذا - زوس وديانة الإغريق - الأولمبيون والأبطال - أسرار إليوزيس - زرادشت والديانة الإيرانية - ديانة إسرائيل في عصر الملوك والأنبياء - دونيزوس والسعادة المستردة .